

سلسلة مؤلفات
فضيلة الشيخ

٥٣

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

(الأخير)

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم

٤

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين./ محمد بن صالح العثيمين - القصيم، ١٤٤١هـ

١١١٧ ص ؛ ١٧×٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٥٣)

ردمك: ٢-٠٠-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٠-٠٤-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٤)

١- الحديث - جوامع الفنون. ٢- الحديث - شرح. أ- العنوان

ديوي ٢٣٧.٣ ١٤٤١/٧٩٣٥

رقم الإيداع: ٧٩٣٥ / ١٤٤١

ردمك: ٢-٠٠-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٠-٠٤-٨٣٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (ج ٤)

حقوق الطبع محفوظة

لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الثامنة عشرة

١٤٤١هـ

يُطلب الكتاب من:

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ : ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

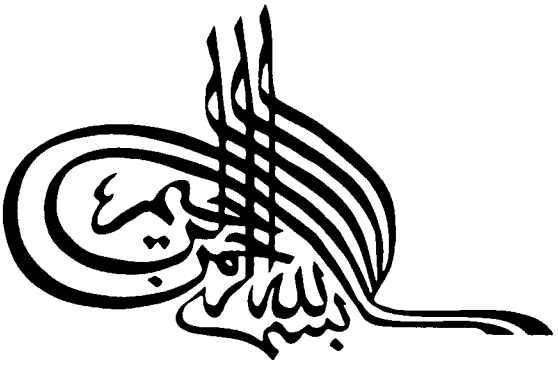
info@binothaimeen.com

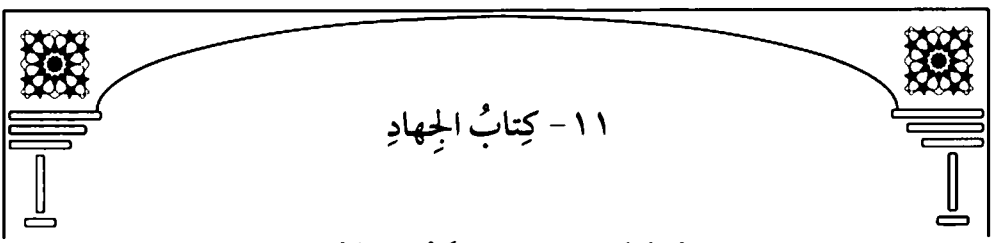
الموزع المعتمد و الحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرَة الدولية للطباعة و التوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف و فاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤





١١ - كِتابُ الجِهادِ

٢٣٤ - بابُ وُجُوبِ الجِهادِ وفَضْلِ الغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ



الشَّرح

قال المُؤلِّفُ الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**كِتابُ الجِهادِ، بابُ وُجُوبِ الجِهادِ وفَضْلِ الغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ**».

الجِهادُ مَصدَرُ جاهَدَ يُجاهِدُ، ومَعْناه بَذلُ الجُهْدِ في مُكافَحةِ العَدُوِّ.

والجِهادُ يَنقَسِمُ إلى ثَلاثةِ أقْسامٍ:

القِسمُ الأوَّلُ: جِهادُ النفْسِ.

القِسمُ الثاني: جِهادُ المُنافِقينَ.

القِسمُ الثالثُ: جِهادُ الكفَّارِ المُحارِبينَ.

فأمَّا الأوَّلُ فعليه يَنْبَني الجِهادُ الثاني والجِهادُ الثالِثُ.

ومَعنى جِهادِ النفْسِ: حَمْلُ النفْسِ على القيامِ بالواجِباتِ، وتَركِ المُحرَّماتِ؛ لأنَّ النفْسَ تَحتاجُ إلى مُعاناةٍ وإلى مُجاهَدةٍ؛ إذ إنَّ لكلِّ إنسانٍ نَفْسيْنِ: نَفْسًا أمَّارةً بالسوءِ، ونَفسًا مُطمَئنَّةً تَأمُرُ بالخَيرِ، فهاتانِ النفْسانِ دائمًا في صِراعٍ، النفْسُ الأمَّارةُ بالسوءِ تُريدُ منه أنْ يَفعَلَ السوءَ فهي أمَّارةٌ، وأمَّارةٌ صيغةُ مُبالَغةٍ، أو هي بمَعنى الكَثْرةِ،

أو أنَّ من شَأْنِها وطَبيعَتِها الأمرَ بالسوءِ، يَعني النسْبةَ، كما تَقولُ: نَجَّارٌ، وصنَّاعٌ، وما أشبَهَ ذلك.

فالنَّفْسانِ دائمًا في صِراعٍ، فيُجاهِدُ الإنسانُ بنَفْسِه المُطْمَئنَّةِ نَفْسَه الأمَّارةَ بالسوءِ، وجرِّبْ نَفْسَكَ، عندَما تَهُمُّ بفِعلِ الخَيرِ، تَجِدُ هُناك جاذبًا آخَرَ يَجذِبُكَ إلى الشرِّ ويُثَبِّطُكَ عنِ الخَيرِ، ويَقولُ: إنْ فَعلْتَ كذا، صارَ كذا وكذا منَ الأُمورِ المُثَبِّطةِ عنِ الخَيرِ، فأنتَ دائمًا في جِهادٍ، وأعظَمُ ما يُجاهِدُ عليه الإنسانُ نَفسَه الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ في العِباداتِ، وفي المُعامَلاتِ، وفي طَلَبِ العِلمِ، وفي كلِّ الأحْوالِ.

قال بَعضُ السلَفِ: ما جاهَدْتُ نَفْسي على شيءٍ مُجاهَدَتَها على الإخْلاصِ؛ لأنَّ الإنْسانَ قد يَميلُ إلى مُراءاةِ الناسِ، أو يَميلُ قَلبُه إلى أنْ يُريدَ عَرَضًا منَ الدُّنْيا بعَمَلِ الآخِرةِ، أو ما أشبَهَ ذلك.

فالإخْلاصُ شَديدٌ عَظيمٌ يَحْتاجُ إلى مُعاناةٍ عَظيمةٍ شَديدةٍ، والكَلمةُ الواحِدةُ معَ الإخْلاصِ تُنْجي صاحِبَها منَ النارِ، وتُدخِلُه الجَنَّةَ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**أسعَدُ الناسِ بشَفاعَتي يومَ القيامةِ مَن قالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصًا من قَلْبِه**»[1]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَن كانَ آخِرُ كَلامِه لا إلهَ إلَّا اللهُ دخَلَ الجَنَّةَ**»[2].

كَلمةٌ واحدةٌ معَ الإخْلاصِ توصِّلُ صاحِبَها إلى هذه الدرَجةِ العَظيمةِ، النجاةِ منَ النارِ، ودُخولِ الجَنَّةِ، ولهذا عرَفَ السلَفُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَدرَ الإخْلاصِ، وجاهَدوا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم (٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٣)، وأبو داود: كتاب الجنائز، باب في التلقين، رقم (٣١١٦)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنفُسَهم عليه، وحَرَصوا على أنْ تَكونَ أعْمالُهم كلُّها خالِصةً للهِ عَزَّوَجَلَّ، وبالإخْلاصِ للهِ لا بُدَّ أنْ يَتَّبِعَ الإنسانُ رسولَ اللهِ ﷺ؛ لأنَّ المُخلِصَ في طَلَبِ الوُصولِ إلى اللهِ لا بُدَّ أنْ يَسلُكَ الطريقَ المُوَصِّلَ إليه، ولا طَريقَ يُوَصِّلُ إلى اللهِ إلَّا طَريقُ مُحَمَّدٍ ﷺ، فهي مُستَلزِمةٌ للمُتابَعةِ، ولهذا يُقالُ: إخْلاصٌ للهِ تَعالى في القَصدِ، وإخْلاصٌ للرسولِ ﷺ في المُتابَعةِ.

فالحاصِلُ: أنَّ جِهادَ النفْسِ يَنْبَني عليه جِهادُ المُنافِقينَ، وجِهادُ الكفَّارِ المُحارِبينَ، بل كلُّ الأعْمالِ تَنْبَني على جِهادِ النفْسِ، وهُنا نُذَكِّرُكم بحَديثٍ يُرْوى عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال حينَ رجَعَ من تَبوكَ: «رَجَعْنا منَ الجِهادِ الأصْغَرِ، إلى الجِهادِ الأكْبَرِ»[1]، يَعني: جِهادَ النفْسِ، وهذا الحَديثُ لا أصْلَ له، ولا يَصِحُّ عنِ النبيِّ ﷺ، لكنَّه مُتَداوَلٌ بينَ الناسِ إلَّا أنَّه منَ الأحاديثِ التي لا أصْلَ لها؛ لأنَّه أحْيانًا يَشتَهِرُ على ألسُنِ الناسِ أحاديثُ ليس لها إسنادٌ، وليس لها صِحَّةٌ كقولِ بَعضِهم: «حُبُّ الوَطنِ منَ الإيمانِ»[2] هذا غيرُ صَحيحٍ، بل حُبُّ الديارِ الإسلاميَّةِ منَ الإيمانِ، أمَّا الوَطنُ فقد يَرتَحِلُ الإنسانُ، ويُهاجِرُ من بَلدِ الكُفرِ إلى بَلدِ الإسْلامِ، ولا يَكونُ حُبُّها منَ الإيمانِ، بل دارُ الكُفرِ مَبْغوضةٌ هي وأهلُها، أمَّا الديارُ الإسلاميَّةُ فحُبُّها منَ الإيمانِ، سَواءٌ كانت وَطَنَكَ أَمْ لا.

هذا النَّوْعُ الأوَّلُ منَ الجِهادِ، وهو: جِهادُ النفْسِ، الذي يَنْبَني عليه جِهادُ المُنافِقينَ، وجِهادُ المُحارِبينَ.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير، رقم (٣٧٣)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٥/ ٦٨٥)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: الموضوعات للصاغاني، رقم (٨١).

الثاني: جِهادُ المُنافِقينَ: وجِهادُ المُنافِقينَ من أصعَبِ ما يَكونُ أيضًا؛ لأنَّ المُنافِقَ عَدُوٌّ خَفيٌّ، بل هو العَدُوُّ حَقيقةً، وانظُرْ إلى قَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]. كَلمةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ هذه جُملةٌ خَبَريَّةٌ، طَرَفا إسْنادِها مَعْرِفةٌ فتُفيدُ الحَصرَ، كأنَّه قال: لا عَدُوَّ لكَ إلَّا المُنافقُ، المُنافِقُ -والعياذُ باللهِ- هو بَيْنَنا، يُصَلِّي ويَتَصدَّقُ، ويَصومُ، ويَدَّعي أنَّه منَّا، لكنَّه جاسوسٌ علينا ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]. رُبَّما يَأْتي إلى أحَدِ طَلَبَةِ العِلمِ، ويُصاحِبُه ويُظهِرُ له المَحبَّةَ والمَودَّةَ، فإذا قال له أصحابُه إذا ذهَبَ إليهم، لماذا أنتَ مُلازِمُه؟! يَقولُ: أسخَرُ به، وهذا كما أنَّه مَوجودٌ في عَهدِ الرسولِ ﷺ مَوجودٌ في عَهدِنا الآنَ، فهذا جِهادُ المُنافِقِ بماذا يَكونُ؟!

المُنافِقُ لا يُمكِنُ أنْ تَسُلَّ عليه السيْفَ؛ لأنَّه يَزعُمُ أنَّه مُؤمِنٌ، ولهذا لَمَّا اسْتُؤْذِنَ النبيُّ ﷺ في قَتلِ المُنافِقينَ أبى أنْ يَقتُلَهم، وقال: «**لا يَتحَدَّثُ الناسُ أنَّ مُحَمَّدًا يَقتُلُ أصْحابَه**»[1] فهُم أصحابٌ مُسلِمونَ في الظاهِرِ، فلا يُمكِنُ أنْ نَسُلَّ عليهمُ السيْفَ، لكنْ بماذا أُجاهِدُه؟!

جِهادُه بالعِلمِ والمُناظَرةِ، وتَحْذيرِه من أنْ يَبْقى على النِّفاقِ، ولا تَيْأَسْ ولا تَقُلْ: هذا مُنافِقٌ، فلقد تابَ أُناسٌ منَ المُنافِقينَ في عَهدِ الرسولِ ﷺ. كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥] مَن هُم؟ المُنافِقونَ ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٤٦٨٢).

ومتى يَكونُ العَفْوُ؟ بالإيمانِ، بالتوْبةِ منَ النِّفاقِ، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يمُنُّ على المُنافِقِ ويَتوبُ، فلا تَيْأَسْ، جاهِدْه بالعِلمِ والبَيانِ والنُّصحِ، والإرْشادِ، وحَذِّرْه منَ العُقوبةِ، هذا جِهادُ المُنافِقِ.

أمَّا جِهادُ الكافِرِ المُحارِبِ: فهو الذي أرادَه المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا البابِ، وساقَ فيه الآياتِ المُتعَدِّدةَ، والأحاديثَ الكَثيرةَ، ويَأْتي إنْ شاءَ اللهُ تَعالى بَيانُه، واللهُ أعلَمُ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

الشَّرْح

سبَقَ الكَلامُ على أنَّ الجِهادَ ثَلاثةُ أنْواعٍ، وتَكلَّمْنا بما يسَّرَ اللهُ تَعالى على ذلك، ثم ساقَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآياتِ الواردةَ في هذا، فقال: قال اللهُ تَعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

قوله: ﴿كَآفَّةً﴾: يَعني عامَّةً، كلُّ الكفَّارِ يَجِبُ أنْ نُقاتِلَهم، وأنْ نُجاهِدَهم إلى أنْ يَقولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤْتوا الزَّكاةَ، ويَصوموا رَمَضانَ، ويَحُجُّوا البَيتَ، أو يُسَلِّموا الجِزْيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ، فإنْ سَلَّموا الجِزْيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ، كَفَفْنا عن قِتالِهم، لقَولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩].

فيَجِبُ على المُسلِمينَ أنْ يُقاتِلوا الكفَّارَ، كلَّ كافرٍ من أيِّ بَلدٍ كانَ، حتى يُسلِمَ، أو يُعْطيَ الجِزْيةَ عن يَدٍ.

ولكنْ إذا قال قائلٌ: كيف يَكونُ ذلك اليومَ في هذا العَصرِ؟

قُلْنا: إنَّ الواجِباتِ لها شُروطٌ، منها: الاسْتِطاعةُ، لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقَولِه تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

ومَعلومٌ أنَّ المُسلِمينَ اليومَ معَ الأسَفِ الشديدِ يُقاتِلُ بَعضُهم بَعضًا، وليس عندَهم تَفْكيرٌ في أنْ يُقاتِلوا لإعْلاءِ كَلمةِ اللهِ، هذا ظَنِّي فيهم، والواقِعُ شاهِدٌ بذلك، بأنَّ المُسلِمينَ لا يُريدونَ هذا على الإطْلاقِ، ولاسيَّما الوُلاةُ منهم، ويدُلُّكَ على هذا ما يُفعَلُ اليومَ بإخْوانِنا المُسلِمينَ في البُوسْنةِ والهِرْسِكِ من ذَبحِ الرِّجالِ، كأنَّما تُذبَحُ الخِرافُ، وانْتِهاكِ الأعْراضِ، وابْتِزازِ الأمْوالِ، وإذْلالِ الإسْلامِ وهذا أعظَمُ، يَعني لا يَهُمُّني أنْ يُقتَلَ ألفُ شَخصٍ منَ المُسلِمينَ بقَدرِ ما يُقالُ: إنَّ المُسلِمينَ أُذِلُّوا لإسْلامِهم.

فالقِتالُ اليومَ في البُوسْنةِ والهِرْسِكِ والشِّيشانِ وغَيرِها كلُّها لإذْلالِ المُسلِمينَ، والأُمَّةُ الإسْلاميَّةُ معَ الأسَفِ الآنَ مُتَفرِّقةٌ، مُشَتَّتةٌ، لم يَقُمْ أحدٌ منها يَثأرُ لدِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فكيف يُمكِنُ أنْ يُقاتِلوا الكفَّارَ؟! في الوَقتِ الحاضِرِ لا يُمكِنُ، وذلك من أجْلِ الذُّلِّ الذي ضرَبَه اللهُ على قُلوبِ وُلاةِ الأُمورِ في بَعضِ البِلادِ الإسْلاميَّةِ، وعَدمِ الالْتِفاتِ للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

بل رُبَّما يَمُدُّ بعضُهم يدَ الذُّلِّ لعَدُوِّه الذي كان بالأمسِ يُقاتِلُه، نَمُدُّ إليه اليومَ يَدَ الذُّلِّ والاسْتِسْلامِ، فكيف نَطلُبُ منَ المُسلِمينَ أنْ يُقاتِلوا الكفَّارَ؟ نَعم اللهُ جَلَّوَعَلَا

يقولُ: قاتِلوهم، ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]. ويقولُ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]. ولكنْ معَ الأسَفِ -إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ- كلُّ هذا ضاعَ، والإنسانُ يَنعَصِرُ قَلبُه دَمًا، وتَتجَرَّحُ كَبِدُه إذا ما رَأى ما يُفعَلُ بالمُسلِمينَ الذين يَشهَدونَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، والذين هم في أشدِّ الشوْقِ إلى مَعرِفةِ الدِّينِ الإسْلاميِّ، والعَملِ به، كما نَسمَعُ منْ إخْوانِنا الذين يَأْتونَ منَ البِلادِ التي كانتْ مُستَعمَرةً منَ الشُّيوعِيِّينَ. يُحَدِّثونَنا بفَرَحِهمُ الشديدِ إذا وَجَدوا مَن يُعلِّمُهم دِينَ الإسْلامِ، ويُقبِلونَ على ذلك رِجالًا ونِساءً، ومعَ هذا نَترُكُهم يُذبَحونَ، فقبلَ أشهُرٍ مِئَتَا ألفِ مُسلِمٍ قُتِلوا، وأُلقِيَتْ جُثَثُهم في الماءِ، مِئَتَا ألفٍ، أيْ قَريةٌ كاملةٌ أو أكثَرُ من قَريةٍ، بل مَدينةٌ، والمُسلِمونَ -نَسأَلُ اللهَ لنا ولهمُ الهِدايةَ- لم يَرْفَعوا لذلك رَأْسًا، وإنْ شِئْتَ قُلْتَ: ولم يَرَوْا بذلك بَأْسًا إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ.

فنحن الآنَ -معَ الأسَفِ- في ذلٍّ ليس بعدَه ذُلٌّ، وسَببُ ذلك هو أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ابْتَلى كَثيرًا منَ المُسلِمينَ بالإعْراضِ التامِّ عن دِينِهم، لا يُريدونَ إلَّا عَرَضَ الدُّنْيا، والتَّرَفَ، ولهذا تَجِدُهم يَتحَدَّثونَ عن رَغَباتِهم، ولا يُبالونَ بالدِّينِ إلَّا مَن يَشاءُ اللهُ.

أمَّا كَلامُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ فاسْمَعوا إليه: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦]. ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾: فيه التحْريضُ، يَعني الإنسانَ بفِطرَتِه -دَعْنا من إسْلامِه- قاتِلوهم كما يُقاتِلونكم كافَّةً يَعني: اثْأَروا لأنْفُسِكم على الأقَلِّ، بقَطعِ النظَرِ عن هذا الدِّينِ، أوِ الإسْلامِ، ولكنْ معَ الأسَفِ الأمرُ بالعَكسِ.

بل إنَّه -معَ الأسَفِ- رُبَّما يُشَجِّعُ بعضُ الناسِ أعْداءَ الإسْلامِ على قِتالِ المُسلِمينَ، انظُرْ إلى العِمالةِ التي مُلِئَتْ بها الدُّنْيا في بِلادِنا، يُمكِنُ أنْ يَكونَ ثَمانونَ بالمِئَةِ منهم كفَّارًا، والباقونَ مُسلِمونَ، معَ تَوافُرِ المُسلِمينَ في البِلادِ الإسْلاميَّةِ الفَقيرةِ التي يَغْزوها النَّصارى من كلِّ وَجهٍ، فتَجِدُ المُواطِنَ لا يَهُمُّه إلَّا أنْ يُنْهى عَملُه، ويقولُ له الشيْطانُ: إنَّ الكافِرَ أحسَنُ في العَملِ منَ المُسلِمِ، فالمُسلِمُ يقولُ: أذهَبُ أُصَلِّي، أَصومُ رَمضانَ، أَحُجُّ، أعْتَمِرُ، أمَّا الكافِرُ فدائمًا يَشتَغِلُ... فيُزَيِّنُ له الشيْطانُ سوءَ عَمَلِه، لِيَتْرُكَ إخْوانَه المُسلِمينَ، ويَأْتيَ بهؤلاء الكَفَرةِ من أجْلِ حُطامِ الدُّنْيا، فمن أين لنا التقَدُّمُ؟ ومن أين لنا أنْ نُقاتِلَ في سَبيلِ اللهِ، والأمرُ هكذا؟!

والإنسانُ يَقرَأُ هذه الآياتِ ويَقولُ: سُبحانَ اللهِ، هذه أُنزِلَتْ على غَيرِنا أو أُنزِلَتْ علينا؟ يَعني: كأنَّها لا تُحَرِّكُ المَشاعِرَ، وكأنَّها ليستْ بكَلامِ رَبِّ العالَمينَ، ولا يَهتَمُّ المُسلِمونَ بهذا، كلَّ يومٍ يَقْرَؤُونَها، ومعَ ذلك لا تُحَرِّكُ فيهم ساكِنًا. قال تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦].

﴿كُتِبَ﴾: مَنِ الذي كتَبَه؟ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، وكُتِبَ بمَعْنى فُرِضَ، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦]، كلُّها مَفروضةٌ علينا.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: تَكْرَهونَه، لكنَّه خَيرٌ، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لو كَرِهْتُموهُ فهو خَيرٌ، ما هو الخَيرُ؟ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١]. هذا خَيرٌ عَظيمٌ، وكما سَيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ في الآيةِ الثالثةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١]، أنتَ أيُّها المُسلِمُ، إذا قاتَلْتَ، وجُرِحْتَ، أوِ استُشْهِدْتَ، أتظُنُّ أنَّ عَدوَّكَ سالمٌ؟ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾ [النساء:١٠٤]، هذا الجُرحُ الذي جُرِحْتَه، كما جُرِحَ عَدُوُّكَ وكِلاكُما يَألَمُ، ولكنْ ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤].

لأنَّ هؤلاء الكفَّارَ ليس لهم إلَّا النارُ، أمَّا أنتَ فتَرْجو منَ اللهِ مَنازِلَ الشهَداءِ، وتَرْجونَ منَ اللهِ ما لا يَرْجونَ، ولمَّا قامَ أبو سُفْيانَ قبلَ أنْ يُسلِمَ في يومِ أُحُدٍ يقولُ: يومٌ بيومِ بَدرٍ، والحَربُ سِجالٌ، يَعني يَفتَخِرُ ويَقولُ: أنتم في بَدرٍ غَلَبْتُمونا، والآنَ غَلَبْناكم، فماذا قال المُسلِمونَ؟ قالوا: لا سَواءَ، قَتْلانا في الجَنَّةِ وقَتْلاكم في النارِ. فَرقٌ عَظيمٌ، فالقِتالُ نكرَهُه، ويَكرَهُه العَدُوُّ، لكنْ هُناك فَرقٌ عَظيمٌ بينَ ما إذا قُتِلَ الواحِدُ منَّا أو منهم، أو جُرِحُ الواحِدُ منَّا أو منهم، فنَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يُقيمَ علَمَ الجِهادِ، جِهادِ الأنْفُسِ وجِهادِ الأعْداءِ، وأنْ يَهْديَ وُلاةَ أُمورِ المُسلِمينَ لإقامةِ دِينِ اللهِ ظاهِرًا وباطِنًا، وأنْ يُعيذَهم منَ الشرورِ، وأنْ يُعيذَهم منَ البِطانةِ السيِّئةِ التي تَضُرُّهم، ولا تَنفَعُهم، إنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]. **وقال تعالى:** ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٤١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١].

الشَّرْح

ساقَ المُؤلِّفُ الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ منَ الجِهادِ منها ما سبَقَ، ومنها ما يَلحَقُ إنْ شاءَ اللهُ، فمن ذلك قَولُه تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وقد سبَقَ أنَّه واجِبٌ على المُسلِمينَ أنْ يُقاتِلوا أعْداءَ اللهِ، وأعْداءَهم منَ اليَهودِ والنَّصارى، والمُشْرِكينَ، والشُّيوعيِّينَ وغَيرِهم، كلُّ مَن ليس بمُسلِمٍ فالواجِبُ على المُسلِمينَ أنْ يُقاتِلوه حتى تَكونَ كَلمةُ اللهِ هي العُلْيا، وذلك إمَّا بإسلامِ هؤلاء، وإمَّا بأنْ يَبْذُلوا الجِزْيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ، نحن لا نُكْرِهُهم على الإسلامِ، لا نَقولُ: لا بُدَّ أنْ تُسْلِموا، ولكنْ نَقولُ: لا بُدَّ أنْ يَكونَ الإسلامُ هو الظاهِرُ، فإمَّا أنْ تُسْلِموا وحَيَّاكمُ اللهُ، وإمَّا أنْ تَبْقوا على دِينِكم، ولكنْ أَعْطوا الجِزْيةَ عن يَدٍ وأنتم صاغِرونَ، فإنْ أَبَوْا لا الإسلامَ، ولا الجِزْيةَ، وجَبَ علينا قِتالُهم، ولكنْ يَجِبُ قبلَ قِتالِهم أنْ نُعِدَّ ما اسْتَطَعْنا من قُوَّةٍ: لقَولِه تَعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال:٦٠].

والقُوَّةُ نَوْعانِ: قُوَّةٌ مَعْنَويَّةٌ، وقُوَّةٌ ماديَّةٌ حِسِّيَّةٌ.

القُوَّةُ المَعْنَويَّةُ: هي الإيمانُ، الإيمانُ باللهِ والعَملُ الصالِحُ، قبلَ أنْ نَبدَأَ بجِهادِ غَيرِنا، قال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف:١٠-١١]. فالإيمانِ قبلَ الجِهادِ.

ثم بعدَ ذلك الإعْدادُ بالقُوَّةِ المادِّيَّةِ، ولكنْ معَ الأسَفِ أنَّ المُسلِمينَ لمَّا كان بَأْسُهم بينَهم من أزْمِنةٍ طَويلةٍ نَسُوا أنْ يُعِدُّوا هذا وهذا، لا إيمانًا قَويًّا، ولا مادَّةً، لقد سبَقَنا الكُفَّارُ بالقُوَّةِ المادِّيَّةِ في الأسْلِحةِ وغَيرِها، وتَأَخَّرْنا عنهم في هذه القُوَّةِ كما أنَّنا تَأَخَّرْنا تَأَخُّرًا كَبيرًا عن إيمانِنا الذي يجِبُ علينا، وصارَ بَأْسُنا بينَنا. نَسألُ اللهَ السلامةَ والعافيةَ.

فالقِتالُ واجِبٌ، ولكنَّه كغَيرِه منَ الواجِباتِ، لا بُدَّ منَ القُدْرةِ، والأُمَّةُ الإسلاميَّةُ اليومَ عاجِزةٌ لا شكَّ، عاجِزةٌ ليس عندَها قُوَّةٌ مَعنَويَّةٌ، ولا قُوَّةٌ مادِّيَّةٌ، إذنْ يَسقُطُ الوُجوبُ لعَدمِ القُدْرةِ عليه، فاتَّقوا اللهَ ما اسْتَطَعْتم.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي القِتالُ كُرهٌ لكم، ولكنَّ اللهَ تَعالى قال: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

أوَّلُ الآيةِ خاصٌّ بالقتالِ، وآخِرُ الآيةِ عامٌّ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾، ولم يَقُلْ: (وعَسى أنْ تَكْرَهوا القِتالَ)، ولكنْ قال: ﴿شَيْـًٔا﴾، أيَّ شيءٍ يَكونُ، رُبَّما يَكرَهُ الإنسانُ شَيئًا يَقَعُ، ويَكونُ الخَيرُ فيه، ورُبَّما يُحِبُّ شَيئًا أنْ يَقَعَ، ويَكونُ الشرُّ فيه، وكم من شيءٍ وقَعَ وكَرِهْتَه، وتَمَنَّيْتَ أنَّه لم يَحصُلْ، ثم في النهايةِ تَجِدُ أنَّ الخَيرَ فيه، مِصْداقًا لقَولِه تَعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾.

وهذه الآيةُ يُشبِهُها قَولُه تَبارَكَ وَتَعالَى في سورةِ النِّساءِ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩]. قال: فعَسى أنْ تَكْرَهوا شَيئًا، ولم يَقُلْ: وعَسى أنْ تكرهوهن، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

فهذا عامٌّ في كلِّ شَيءٍ قد يُجْري اللهُ عَزَّوَجَلَّ بقَضائِه وقَدَرِه وحِكمَتِه شَيئًا تكرَهُه، ثم في النِّهايةِ يَكونُ الخَيرُ فيه، والعَكسُ رُبَّما يُجْري اللهُ عَزَّوَجَلَّ شَيئًا تَظُنُّه خَيرًا ولكنَّه شَرٌّ، عاقِبَتُه شَرٌّ؛ ولهذا يَنْبَغي للإنسانِ أنْ يَسأَلَ اللهَ تَعالى حُسنَ العاقبةِ دائمًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، نَعم؛ اللهُ يَعلَمُ ونحن لا نَعلَمُ؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ تَعالى واسِعٌ، بكلِّ شَيءٍ عَليمٌ، عِلمُ اللهِ عِلمٌ واسِعٌ للمُستَقبَلِ، يَعلَمُ الغَيبَ ونحن لا نَعلَمُ، يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، ونحن لا نَعلَمُ، يَعلَمُ ما تُوَسْوِسُ به النُّفوسُ قبلَ أنْ يَبْدوَ، وقبلَ أنْ يَظهَرَ، ونحن لا نَعلَمُ، وهُنا نَسأَلُ عن شَيءٍ سَهلٍ، شَيءٍ غَيرِ بَعيدٍ، هل يَعرِفُ البَشَرُ عن أرْواحِهم شَيئًا؟ الرُّوحُ التي بها الحَياةُ، هل يَعرِفونَ عنها شَيئًا؟! الجَوابُ: لا، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]. الرُّوحُ التي بينَ جَنبَيْكَ لا تَعرِفُها ولا تَدْري عنها، وجُمْلةُ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذه الجُمْلةُ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ كأنَّ فيها التَّوْبيخُ، كأنَّه يَقولُ: وما بَقيَ عليكم منَ العِلمِ إلَّا أنْ تَعلَموا هذه الرُّوحَ، فما أكثَرَ العُلومَ التي فاتَتْكم؟! والحاصِلُ: أنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال تَعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة:٤١]. انْفِروا إلى أيِّ شَيءٍ؟ إلى الجِهادِ ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، يَعني انْفِروا حالَ ما يَكونُ النَّفْرُ خَفيفًا عليكم أو ثَقيلًا عليكم، ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ: إنْ كُنتم من ذَوي العِلمِ، فاعْلَموا أنَّ ذلك خَيرٌ لكم.

وقال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ

وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]. انْظُروا لهذه الصَّفْقةِ، صَفْقةِ بَيعٍ، تامَّةِ الشُّروطِ والأرْكانِ، والوَثائقِ:

مَنِ المُشْتَري؟ هو اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى.

والبائعُ؟ المُؤمِنونَ.

والعِوَضُ منَ المُؤمِنينَ؟ الأنْفُسُ والأمْوالُ.

والعِوَضُ منَ اللهِ؟ الجَنَّةُ.

والوَثيقةُ؟ وَعدٌ منَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فليستْ أوراقًا تُمَزَّقُ وتُرْمى، بل في التَّوْراةِ، والإنْجيلِ، والقُرْآنِ، أوْثَقُ الوَثائقِ هذه، وَثيقةٌ مَكْتوبةٌ في التَّوْراةِ والإنْجيلِ والقُرْآنِ، ليس هُناك شَيءٌ أوْثَقَ منها، وذكَرَ التَّوْراةَ والإنْجيلَ والقُرْآنَ؛ لأنَّها أوْثَقُ الكُتُبِ المُنَزَّلةِ على الرُّسُلِ، القُرْآنُ أشْرَفُها، ثم التَّوْراةُ، ثم الإنْجيلُ، هذه صَفْقةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ لها نَظيرٌ أبَدًا، كلُّ الشُّروطِ تامَّةٌ، وصَفْقةٌ كَبيرةٌ عَظيمةٌ، النفْسُ والمالُ هُما العِوَضُ منَ الإنْسانِ، والمُعَوِّضُ هو المَليكُ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو الجَنَّةُ، التي قال عنها الرَّسولُ ﷺ: «**لَمَوْضِعُ سَوطِ أحَدِكم في الجَنَّةِ خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها**»[1] مَوْضِعُ السوْطِ: يَعني حَوالَيْ (مِترٍ أو نَحوِه) خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها، أيُّ دُنْيا؟ هل هي دُنْياكَ أنتَ؟ لا. فقد تَكونُ دُنْياكَ مَملوءةً بالتنْغيصِ والتنْفيرِ، والعُمرُ قَصيرٌ، ولكنْ خَيرٌ منَ الدُّنْيا، منذُ خُلِقَتْ إلى يومِ القيامةِ، بما فيها من كلِّ سُرورٍ ونَعيمٍ، مَوْضِعُ السوْطِ في الجَنَّةِ خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

أيُّهما أَغْلى، الأَنْفُسُ والأمْوالُ، أم الجَنَّةُ؟! الجَنَّةُ بلا شكٍّ، إذنِ البائعُ رابحٌ؛ لأنَّه باعَ النفْسَ والمالَ الذي لا بُدَّ من فَنائِه بنَعيمٍ لا يَزولُ، ومَنِ الذي عاهَدَ على هذا البَيعِ؟ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومَن أَوْفى بعَهدِه منَ اللهِ؟ (مَنْ) هُنا اسْتِفْهامٌ بمَعنى النفْيِ، يَعني لا أحَدَ أصدَقُ وأوْفى بعَهدِه منَ اللهِ، وصدَقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لا أحَدَ أوْفى بعَهدِه منَ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ يَعني لِتَستَبشِرْ نُفوسُكم بذلك، ولْيُبَشِّرْ بَعضُكم بَعضًا، ولهذا قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠]، يَستَبشِرونَ بهذا البَيْعِ، بَيعٍ عَظيمٍ، الذي بايَعْتم به، وذلك هو الفوزُ العَظيمُ، هذه الجُمْلةُ فيها ضَميرُ الفَصلِ، وذلك هو الفوزُ العَظيمُ، وضَميرُ الفَصلِ كما يَقولُ العُلَماءُ يُسْتَفادُ منه ثَلاثةُ فَوائدَ:

١- الاخْتِصاصُ.

٢- التَّوْكيدُ.

٣- التَّمْييزُ بينَ الخَبَرِ والصِّفةِ.

هذه ثَلاثةُ فَوائدَ، يَعني مَعنى ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ الذي لا فَوزَ مِثلُه، وصدَقَ اللهُ ورَسولُه، ونَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم من هؤلاء، ممَّن باعوا أنْفُسَهم للهِ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ الموفِّقُ.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

الشَّرْح

يَعني: لا يَسْتَوي القاعِدونَ والمُجاهِدونَ، ونَفيُ الاسْتِواءِ ظاهِرٌ؛ لأنَّ المُجاهِدَ قد بذَلَ نَفْسَه ومالَه للهِ عَزَّوَجَلَّ، والقاعِدُ خائِفٌ إلَّا مَنِ اسْتَثْنى اللهُ عَزَّوَجَلَّ في قولِه تَعالى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ غيرُ الذين يَتَضَرَّرونَ إذا ذَهَبوا إلى الجِهاد، وهم ثَلاثةُ أصْنافٍ ذَكَرَهمُ اللهُ تَعالى في قَولِه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١]، وكذلك الذين لا يَجِدونَ ما يُنْفِقونَ، أو كانوا ضُعَفاءَ في أَبْدانِهم لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١].

والثالثُ: مَن قَعَدوا للتَّفَقُّهِ في الدِّينِ، لقَولِه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

فهؤلاء ثَلاثةُ أصْنافٍ:

الأوَّلُ: أُولو الضرَرِ، والضُّعَفاءُ.

الثاني: الذين لا يَجِدونَ مالًا.

الثالثُ: مَن قَعَدوا لِيَتفَقَّهوا في الدِّينِ، فهؤلاء مَعْذورونَ، إمَّا لوُجودِ مَصلَحةٍ

في بَقائِهم أَعْلى من مَصْلَحةِ الجِهادِ، وهم كالذين قَعَدوا للتَّفَقُّهِ في الدِّينِ، وإمَّا لعُذْرٍ لا يَستَطيعونَ معَه أنْ يَذْهَبوا إلى الجِهادِ.

وقَولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، المُجاهِدونَ أفضَلُ، وفي هذه الآيةِ نَفيُ الاسْتِواءِ بينَ المُؤمِنينَ، وأنَّ المُؤمِنينَ ليسوا سَواءً، فمِثْلُ ذلك قَولُه تَعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]. ونَفيُ الاسْتِواءِ في القُرآنِ العَزيزِ كَثيرٌ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦]، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر:١٢]، والآياتُ كَثيرةٌ، وأُحِبُّ أنْ أُنَبِّهَ هُنا على كَلمةٍ يُطلِقُها بعضُ الناسِ قد يُريدونَ بها خَيرًا، وقد يُطلِقُها بعضُ الناسِ يُريدونَ بها شَرًّا، وهي قَولُهم: إنَّ الدِّينَ الإسْلاميَّ دِينُ المُساواةِ، فهذا كَذِبٌ على الدِّينِ الإسْلاميِّ؛ لأنَّ الدِّينَ الإسْلاميَّ ليس دِينَ المُساواةِ، الدِّينُ الإسْلاميُّ دِينُ العَدلِ، وهو إعْطاءُ كلِّ شَخصٍ ما يَستَحِقُّ، فإذا اسْتَوى شَخْصانِ في الأحَقِّيَّةِ فحينَئذٍ يَتَساوَيانِ فيما يَترَتَّبُ على هذه الأحَقِّيَّةِ، أمَّا معَ الاخْتِلافِ فلا، ولا يُمكِنُ أنْ يُطلَقَ على أنَّ الدِّينِ الإسْلاميِّ دِينُ مُساواةٍ أبدًا، بل إنَّه دِينُ العَدلِ، لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، هذه الكَلمةُ: «الدِّينُ الإسْلاميُّ دِينُ المُساواةِ» قد يُطلِقُها بعضُ الناسِ ويُريدُ بها شَرًّا، فمَثلًا يَقولُ: لا فَرقَ بينَ الذكَرِ والأُنْثى، الدِّينُ دِينُ مُساواةٍ، الأُنْثى أَعْطوها منَ الحُقوقِ مِثلَ ما تُعْطونَ الرَّجلَ، وَلُّوها الوِلاياتِ، اجْعَلوها تَفعَلُ ما يَفعَلُ الرِّجالُ،... لماذا؟ لأنَّ الدِّينَ الإسْلاميَّ دِينُ المُساواةِ، الاشْتِراكِيُّونَ يَقولونَ: الدِّينُ دِينُ مُساواةٍ،

لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ هذا غَنيٌّ جِدًّا، وهذا فَقيرٌ جِدًّا، لا بُدَّ أنْ نأخُذَ من مالِ الغَنيِّ ونُعْطي الفَقيرَ؛ لأنَّ الدِّينَ دِينُ المُساواةِ، فيُريدونَ بهذه الكَلمةِ شَرًّا، ولمَّا كانت هذه الكَلمةُ قد يُرادُ بها خَيرٌ، وقد يُرادُ بها شَرٌّ، لم يوصَفِ الدِّينُ الإسْلاميُّ بها، وإنَّما يوصَفُ بأنَّه دِينُ عَدلٍ، الذي أمَرَ اللهُ به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، ولم يَقُلِ: المُساواةِ، ولا يُمكِنُ أنْ يَتَساوى اثْنانِ أحَدُهما أعْمى، والثاني بَصيرٌ، أحَدُهما عالِمٌ والثاني جاهِلٌ، أحَدُهما عابِدٌ، والثاني فاسِقٌ، أحَدُهما نافِعٌ للخَلقِ، والثاني شِرِّيرٌ، لا يُمكِنُ أنْ يَسْتَووا.

العَدلُ الصحيحُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لهذا أحبَبْتُ التَّنْبيهَ عليها؛ لأنَّ كَثيرًا منَ الكُتَّابِ العَصْريِّينَ أو غَيرِ الكُتَّابِ يُطلِقُ هذه الكَلمةَ ولكنَّه لا يَتفَطَّنُ لمَعْناها، ولا يَتفَطَّنُ أنَّ الدِّينَ الإسْلاميَّ لا يُمكِنُ أنْ يَأْتيَ بالمُساواةِ من كلِّ وَجهٍ، معَ الاخْتِلافِ أبَدًا، لو أنَّه حكَمَ بالمُساواةِ معَ وُجودِ الفارِقِ، لكان دِينًا غَيرَ مُستَقيمٍ، إذ لا يُمكِنُ أنْ يُسَوِّيَ بينَ اثنَيْنِ بينَهما فَوارقُ أبَدًا، لكنْ إذا اسْتَووا من كلِّ وَجهٍ، صارَ العَدلُ أنْ يُعْطى كلُّ واحدٍ منهما ما يُعْطى الآخَرُ، ويُساوَوْا، يَعْني هذا هو العَدلُ.

وعلى كلِّ حالٍ: فهذه الكَلمةُ يَنبَغي لطالِبِ العِلمِ أنْ يَتفَطَّنَ لها، وأنْ يَتفَطَّنَ لغَيرِها أيضًا منَ الكَلماتِ التي يُطلِقُها بعضُ الناسِ وهو لا يَعلَمُ مَعْناها، ولا يَعلَمُ مَغْزاها، ومن ذلك أيضًا قَولُ بَعضِهمُ: اللَّهُمَّ إنِّي لا أسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ، ولكنِّي أسأَلُكَ اللُّطفَ فيه، هذه كَلمةٌ عَظيمةٌ لا تَجوزُ، لا أسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ؟! وقد قال النبيُّ ﷺ: «**لا يَرُدُّ القَضاءَ إلَّا الدُّعاءُ**»[1]، إذا دَعَوْتَ اللهَ تَعالى بكَشفِ ضُرٍّ، فهذا قد

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُتِبَ في الأَزَلِ في اللَّوْحِ المَحْفوظِ، أنَّ اللهَ تَعالى يَرفَعُ هذا الضُّرَّ عنكَ بدُعائِكَ، فكلُّه مَكتوبٌ، وأنتَ إذا قُلتَ: لا أَسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ ولكنْ أَسأَلُكَ اللُّطفَ فيه، كأَنَّكَ تَقولُ: لا يَهُمُّني، تَرفَعُ أو لا تَرفَعُ، لكنِ الأَوْلى أنْ يَطلُبَ الإنْسانُ رَفعَ كلِّ ما نزَلَ به، فلا تَقُلِ: اللَّهُمَّ لا أَسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ ولكنْ أَسأَلُكَ اللُّطفَ فيه، ولكنْ قُلِ: اللَّهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ العَفْوَ والعافيةَ، اللَّهُمَّ اشْفِني من مَرَضي، اللَّهُمَّ أغْنِني من فَقْري، اللَّهُمَّ اقْضِ عنِّي الدَّيْنَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْني ما جَهِلْتُ، وما أشبَهَ ذلك، وقال النبيُّ ﷺ: «**لا يَقُلْ أحَدُكمُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ**»[1] وهي أهوَنُ منَ اللَّهُمَّ إنِّي لا أَسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ، «**لا يَقُلْ أحَدُكمُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْني إنْ شِئْتَ، ولْيَعزِمِ المَسألةَ، فإنَّ اللهَ تَعالى لا مُكْرِهَ له**»، وفي لفظٍ: «**فإنَّ اللهَ لا يَتَعاظَمُه شَيءٌ أَعْطاهُ**»[2].

وأَرْجو منكم حينَ جَرى التَّنْبيهُ على هاتَيْنِ الكَلمتَيْنِ: «الدِّينُ الإسْلاميُّ دِينُ المُساواةِ». و«اللَّهُمَّ لا أَسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ ولكنْ أَسأَلُكَ اللُّطفَ فيه»، إذا سَمِعْتم أحَدًا يَقولُ ذلك أنْ تُناصِحوه، وتَتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوى، وقد يَستَغرِبُ بَعضُهم هذا، كيف لا يكونُ هذا الدِّينُ دِينَ مُساواةٍ؟ نقولُ: لا تَستَعجِلْ، تأمَّلِ الأَعْمى والبَصيرَ أهُما سَواءٌ؟ العالِمُ والجاهِلُ أهُما سَواءٌ؟ الذكَرُ والأُنْثى؟ وأكثَرُ ما في القُرآنِ العَزيزِ هو نَفيُ الاسْتِواءِ، لم يَأْتِ ذِكرُ الاسْتِواءِ إلَّا في مَواضِعَ قَليلةٍ مِثلِ قَولِه تَعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]. فالمُرادُ نَفيُ المُساواةِ، ﴿هَل لَّكُم﴾ هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له، رقم (٦٣٣٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء، رقم (٢٦٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الاسْتِفْهامُ بمَعنى النفْيِ، هل لكم مِمَّا ملَكَتْ أيمانُكم من شُرَكاءَ فيما رَزَقْناكم فأنتم فيه سَواءٌ، والجَوابُ: لا، إذنْ فظاهِرُه أنَّه إثْباتُ المُساواةِ، والأمرُ ليس كذلك، بل نَفْيُها، وعلى كلِّ حالٍ فإنِّي أنْصَحُ، وأُريدُ منكم إذا سَمِعْتم أحَدًا يَقولُ هذا فقُلْ له: لا، ليس دِينَ المُساواةِ، بل هو الدِّينُ العَدلُ، فهو إعْطاءُ كلِّ واحدٍ ما يَستَحِقُّ.

والقولُ الآخَرُ: «لا أَسأَلُكَ رَدَّ القَضاءِ...» كلامُ لَغْوٍ، وقَضاءُ اللهِ أنْ يَرفَعَ عنكَ المَرَضَ، أو يَرفَعَ عنكَ الجَهلَ، أو يَرفَعَ عنكَ الفَقرَ، فلا تَقُلْ هكذا، بل قُلِ: اللَّهُمَّ عافِني، اللَّهُمَّ ارفَعْ عنِّي البَلاءَ والوَباءَ وما أشبَهَ ذلك.

نَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَرزُقَنا الفِقْهَ في دِينِنا، وألَّا يَجعَلَنا إمَّعةً نَقولُ ما يَقولُ الناسُ، ولا نَدْري ما نَقولُ. واللهُ الموفِّقُ.

وقال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف:١٠-١٣].

والآياتُ في البابِ كَثيرةٌ مَشْهورةٌ.

الشَّرْح

قال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الصف:١٠].

صدَّرَ اللهُ تَعالى هذه الآياتِ بهذا النِّداءِ الشريفِ المُوَجَّهِ للمُؤمِنينَ، من أجْلِ إثارةِ هِمَمِهم، وتَنْشيطِهم على قَبولِ ما يَسمَعونَ من كَلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ القائلُ هو رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ، وهذا الاسْتِفْهامُ للتشْويقِ، يُشَوِّقُنا جَلَّوَعَلَا بهذه التِّجارةِ التي يَدُلُّنا عليها، ويُسْتَفادُ من قَولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أنَّه ليس لنا طَريقٌ إلى هذه التِّجارةِ إلَّا الطريقُ الذي شرَعَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، هو الدالُّ على ذلك ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذه التِّجارةُ ليستْ تِجارةَ الدُّنْيا؛ لأنَّ تِجارةَ الدُّنْيا قد تُنْجي منَ العَذابِ الأَليمِ وقد تَكونُ سَببًا للعَذابِ الأَليمِ، فالرَّجلُ الذي عندَه مالٌ لا يُزَكِّي، يَكونُ مالُه عَذابًا عليه -والعياذُ باللهِ- ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].

تِجارةُ الدُّنْيا قد تُنْجي منَ العَذابِ، وقد توقِعُ في العَذابِ، لكنَّ هذه التِّجارةَ التي عرَضَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ علينا -ونَسأَلُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم ممَّن يَقْبَلونَها- يَقولُ: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أيْ عَذابٍ مُؤلِمٍ؛ لأنَّه لا عَذابَ أشَدُّ أَلَمًا من عَذابِ النارِ، أعاذَني اللهُ وإيَّاكم منها.

ما هذه التِّجارةُ؟ قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١١]. هذه التِّجارةُ: الإيمانُ باللهِ ورَسولِه، وهذا يَتضَمَّنُ جَميعَ شَرائعِ الإسْلامِ كُلِّها، ونَصَّ على الجِهادِ؛ لأنَّ السورةَ سورةُ الجِهادِ من أوَّلِها إلى آخِرِها كلُّها جِهادٌ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا

كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف:٤]. ثم ذكَرَ ما يَتعَلَّقُ بذلك، وهُنا يَقولُ: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: تَبذُلونَ جُهدَكم في سَبيلِ اللهِ، ببَذلِ المالِ وبَذلِ النفْسِ، ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولا تَصِلْ، لا تَقُلْ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، لأنَّكَ لو وَصَلْتَ لأفْهَمْتَ مَعنًى باطِلًا في الآيةِ ولكان المَعنى: «ذلكم خَيرٌ لكم إنْ كُنتم تَعلَمونَ، وإنْ كُنتم لا تَعلَمونَ فليس خَيرًا لكم»، وهذا ليس مُرادَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل إنَّ المَعنى: ذلك خَيرٌ لكم، ثم قال: إنْ كُنتم من ذَوي العِلمِ، كأنَّه يَقولُ: فاعْلَموا ذلك إنْ كُنتم أهْلًا للعِلمِ.

هذا هو العَملُ، فما هو الثوابُ؟ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف:١٢].

قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾: هي ما أعَدَّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لعِبادِه الصالِحينَ، وبالأخَصِّ المُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ «إنَّ في الجَنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ، أعَدَّها اللهُ عَزَّوَجَلَّ للمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ»[1] ولهذا جمَعَ جَنَّاتٍ، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أيْ: من تَحتِ قُصورِها، وأشْجارِها، وهي أنْهارٌ ليست كأنْهارِ الدُّنْيا وهي أرْبَعةُ أنْهارٍ: أنْهارٌ من ماءٍ غَيرِ آسِنٍ، يَعني: لا يُمكِنُ أنْ يَتغَيَّرَ بخِلافِ ماءِ الدُّنْيا، فإنَّه إذا بَقيَ يَتغَيَّرُ، وأنْهارٌ من لَبنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعْمُه، وأنْهارٌ من خَمرٍ لذَّةٍ للشارِبينَ، وأنْهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى، أنْهارٌ تَجْري، أنْهارُ العَسلِ فيها لم يَخرُجْ منَ النحْلِ، واللبَنُ لم يَخرُجْ من ضَرعِ بَهيمةٍ، والماءُ لم يَخرُجْ من نَبعِ الأرضِ، وكذلك الخَمرُ لم يَخرُجْ من زَبيبٍ أو تَمرٍ أو شَعيرٍ أو غَيرِ ذلك، أنْهارٌ خلَقَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الجَنَّةِ، تَجْري كما يَجْري النَّهْرُ، وهذه الأنْهارُ وردَ في الحَديثِ أنَّها أنْهارٌ لا تَحتاجُ إلى شَقٍّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا إلى سَدٍّ، ولا يُحْتاجُ أنْ يُحفَرَ لها حتى تَجْرِيَ، ولا أنْ يوضَعَ لها أُخْدودٌ يَمنَعُها منَ التسَرُّبِ يَمينًا وشِمالًا.

قال ابنُ القَيِّمِ في النونيَّةِ:

أنْهارُها في غَـيْرِ أُخْـدودٍ جَـرَتْ سُـبْحانَ مُمْسِـكِها عـنِ الفَيَضـانِ[1]

ثم إنَّ هذا النهْرَ يَأْتي طَوْعَ اخْتيارِكَ أنتَ، تَطلُبُ أنَّ الماءَ يَذهَبُ يَمينًا يَذهَبُ، يَسارًا يَذهَبُ، أمامًا يَذهَبُ، يَتوَقَّفُ يَتوَقَّفُ، كما تَشاءُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾: طَيِّبةٌ في بِنائِها، طَيِّبةٌ في غُرَفِها، طَيِّبةٌ في مَنظَرِها، طَيِّبةٌ في مَسكَنِها، طَيِّبةٌ من كلِّ ناحيةٍ، والساكِنُ فيها: حورٌ مَقْصوراتٌ في الخيامِ، خيامٍ من لُؤْلُؤٍ، مُرتَفِعةٍ من أحسَنِ ما تَراه بَصَرًا، قال النبيُّ ﷺ: «**جَنَّتانِ من ذَهَبٍ آنيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ من فِضَّةٍ آنيَتُهما وما فيهما**»[2].

اللَّبِناتُ: لَبِنُ البِناءِ ليس منَ الطوبِ والتُّرابِ، بل هو منَ الذهَبِ أو منَ الفِضَّةِ، ولهذا وصَفَها اللهُ بالطِّيبِ.

ثم إنَّ من طِيبِها أنَّ ساكِنَها لا يَبْغي عنها حِوَلًا، مَساكِنُ الدُّنْيا مَهما حسُنَتْ سَتَرى ما هو أحسَنُ من بَيتِكَ، فتَقولُ: ليتَ هذا لي.

لكنَّ الجَنَّةَ لا يَبْغي حِوَلًا عن مَسكَنِه، ولا انْتِقالًا، كلُّ إنْسانٍ يَرى أنَّه هو أنعَمُ

---

(١) الكافية الشافية - نونية ابن القيم (ص:٣٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، رقم (٤٨٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه، رقم (١٨٠)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أهلِ الجَنَّةِ، لكي لا يَنكَسِرَ قَلبُه لو رَأَى مَن هو أفضَلُ منه، عكسُ ذلك أهلُ النارِ، أهلُ النارِ -والعياذُ باللهِ- يَرى أحَدُهم أنَّه أشَدُّ أهلِ النارِ عَذابًا، وإنْ كان هو أهْوَنُهم.

فهذه المَساكِنُ الطيِّبةُ في جَنَّاتِ عَدْنٍ، قال العُلَماءُ: العَدْنُ بمَعنى الإقامةِ، ومنه المَعدِنُ في الأرضِ لطولِ إقامَتِه ومَكانِه. أيْ: في جَنَّاتِ إقامةٍ لا يُمكِنُ أنْ تَزولَ أبَدَ الآبِدينَ... نَسأَلُ اللهَ أنْ يَجعَلَني وإيَّاكم من أهلِها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. الفَوزُ: أنْ يَنالَ الإنسانُ ما يُريدُ، ويَنْجو ممَّا يَخافُ.

العَظيمُ: الذي لا أعظَمَ منه، رِبحٌ ليس فوقَه رِبحٌ، عِوَضٌ ليس فوقَه عِوَضٌ، لهؤلاء الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ، أسأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يَجْعَلَني وإيَّاكم منهم، ولا يَحرِمَنا هذا الفَضلَ بسوءِ أعْمالِنا، وأنْ يُعامِلَنا بعَفْوِه، إنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

قال الله تَعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣].

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ يَعني ولكم أُخرى تُحِبُّونَها، ثم بيَّنَها بقَولِه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَنصُرُكمُ اللهُ به على أعْدائِكم، ولا شكَّ أنَّ الإنْسانَ إذا انتَصَرَ على عَدُوِّه فإنَّ ذلك له مَحَبَّةً عَظيمةً؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يَجعَلُ عَذابَ عَدُوِّه على يَدِه، كما قال تَعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:١٤-١٥]. فَوائدُ عَظيمةٌ، إذا عذَّبَ اللهُ تَعالى عَدُوَّكَ على يَدَيْكَ، ولهذا قال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، وقد حصَلَ هذا للمُؤمِنينَ في صَدرِ هذه الأُمَّةِ، فتَحَ اللهُ عليهم فُتوحاتٍ عَظيمةً، وغَنِموا غَنائمَ كَثيرةً؛ لأنَّهم

قاموا بما يَجِبُ عليهم منَ الإيمانِ باللهِ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَعني بَشِّرْ بهذه الأُمورِ كُلِّها مَن كان مُؤمِنًا بها، قائمًا بما يَجِبُ عليه منَ الإيمانِ باللهِ ورَسولِه والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ.

وأمَّا الأحاديثُ في فَضْلِ الجِهادِ فأكثرُ مِنْ أنْ تُحْصَرَ، فَمِنْ ذَلِكَ:

١٢٨٥ - عَنْ أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رسول الله ﷺ: أيُّ العَمل أفْضَلُ؟ قَالَ: «إيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ» قيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الجهادُ في سَبيلِ اللهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ» مُتفقٌ عَلَيْهِ[1].

١٢٨٦ - وعَنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ الله، أيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ» مُتفقٌ عَلَيْهِ[2].

١٢٨٧ - وعَن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، أيُّ العَمَلِ أفْضلُ؟ قَالَ: «الإيمَانُ بِاللهِ، وَالجِهَادُ في سَبيلِهِ» مُتفقٌ عَلَيْهِ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من قال: إن الإيمان هو العمل، رقم (٢٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٣).
وانظر: التعليق على صحيح البخاري لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (١/ ١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٥).
وانظر: التعليق على صحيح البخاري لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٢/ ٥٤٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، رقم (٢٥١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (٨٤).

١٢٨٨- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «لَغَدْوَةٌ في سَبيلِ اللهِ، أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٢٨٩- وَعَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رسولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ في سَبيلِ اللهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

١٢٩٠- وَعَنْ سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ في سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ في سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، أَوِ الغَدْوَةُ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

الشَّرْح

ثم ذكَرَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى أحاديثَ في فَضلِ الجِهادِ والرِّباطِ في سَبيلِ اللهِ، وأنَّ الغَدْوةَ والرَّوْحةَ في سَبيلِ اللهِ، أو غَدْوةً ورَوْحةً في الرِّباطِ خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها، وهذا فَضلٌ عَظيمٌ، خَيرٌ منَ الدُّنْيا كلِّها من أوَّلِها إلى آخِرِها، وما فيها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم (٢٧٩٢)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة ي سبيل الله، رقم (١٨٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله، رقم (٢٧٨٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم (١٨٨٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم (١٨٨١).

وليس خَيرًا من دُنْياكَ التي أنتَ تَعيشُها فقطْ، بل منَ الدُّنْيا وما فيها، ومنذُ متى؟ من زَمنٍ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وكذلك لا يُدْرى متى تَنتَهي، كلُّ هذا خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها.

قال ﷺ: «**ومَوضِعُ سَوطِ أحَدِكم في الجَنَّةِ خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها**» ويُقالُ في ذلك ما قيلَ في الأوَّلِ: إنَّ الدُّنْيا كلَّها من أوَّلِها إلى آخِرِها مَوضِعُ السوْطِ في الجَنَّةِ خَيرٌ منها، والغَدْوةُ والرَّوْحةُ في سَبيلِ اللهِ خَيرٌ منها، والرِّباطُ في سَبيلِ اللهِ خَيرٌ منها.

وفي هَذِهِ الأحاديثِ: أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ الرِّجالِ خَيرٌ؟ فبيَّنَ أنَّه الرَّجلُ الذي يُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ بمالِه ونَفْسِه، ثم أيٌّ؟ قال: ورَجلٌ مُؤمِنٌ في شِعْبٍ منَ الشِّعابِ يَعبُدُ اللهَ ويَدَعُ الناسَ من شَرِّه، يَعني أنَّه قائمٌ بعِبادةِ اللهِ، كافٌّ عنِ الناسِ، ولا يُريدُ أنْ يَنالَ الناسَ منه شَرٌّ، وهذا أحَدُ الأدِلَّةِ الدالَّةِ على أنَّ العُزْلةَ خَيرٌ منَ الخُلْطةِ معَ الناسِ، **ولكنَّ الصحيحَ في هذه المَسأَلةِ أنَّ في ذلك تَفْصيلًا**: مَن كان يَخْشى على دِينِه بالاخْتِلاطِ بالناسِ فالأفضَلُ له العُزلةُ، ومَن لا يَخْشى فالأفضَلُ أنْ يُخالِطَ الناسَ؛ لقَولِ النبيِّ ﷺ: «**المُؤمِنُ الذي يُخالِطُ الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم خَيرٌ منَ المُؤمِنِ الذي لا يُخالِطُ الناسَ ولا يَصبِرُ على أذاهم**»[1].

فمَثلًا: إذا فسَدَ الناسُ ورَأيْتَ أنَّ اخْتِلاطَكَ معَهم لا يَزيدُكَ إلَّا شرًّا وبُعدًا منَ اللهِ، فعليكَ بالوَحْدةِ، اعتَزِلْ، قال النبيُّ ﷺ: «**يُوشِكُ أنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٥)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، رقم (١٩)، من حديث أبي سعيد الخدري.

فالمَسألَةُ تَختَلِفُ: العُزْلةُ في زَمنِ الفِتَنِ والشرِّ والخَوفِ منَ المَعاصي خَيرٌ منَ الخُلْطةِ، أمَّا إذا لم يكُنِ الأمرُ كذلك فاختَلِطْ معَ الناسِ، وأْمُرْ بالمَعروفِ وانْهَ عنِ المُنكَرِ، واصبِرْ على أَذاهم وعاشِرْهم، رُبَّما يَنفَعُ اللهُ بكَ رَجلًا واحِدًا خَيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَمِ، إذا هَداه اللهُ على يَدَيْكَ. واللهُ الموفِّقُ.

١٢٩١- وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ أُجْرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ» رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٢٩٢- وَعَنْ فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا المُرَابِطَ فِي سَبيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ فِتْنَةَ القَبْرِ» رَواهُ أَبو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٢٩٣- وَعَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ في سَبيلِ اللهِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[3]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٢٩٤- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (١٩١٣).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٠)، وأبو دواد: كتاب الجهاد، باب في فضل الجهاد، رقم (٢٥٠٠)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطًا، رقم (١٦٢١).
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٦٥)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، رقم (١٦٦٧)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل الرباط، رقم (٣١٦٩).

خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَيَّ أَنْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كُلِمَ؛ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى المُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ» رَواهُ مُسلِمٌ، ورَوى البُخاريُّ بعضَه[1].

«الكَلْمُ»: الجُرْحُ.

الشَّرح

هذه الأحاديثُ ساقَها الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى في بَيانِ فَضلِ المُرابَطةِ في سَبيلِ اللهِ، يَعني أنْ يُرابِطَ الإنْسانُ على الحُدودِ، أوِ اتُّجاهَ العَدُوِّ في سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لإعْلاءِ كَلمةِ اللهِ، وحِفظِ دِينِ اللهِ، وحِفظِ المُسلِمينَ، فإنَّ هذا من أفضَلِ الأعْمالِ.

وقد سبَقَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**رِباطٌ في سَبيلِ اللهِ خَيرٌ منَ الدُّنْيا وما فيها**»[2]، وفي هذه الأحاديثِ دَليلٌ على أنَّ المُرابِطَ يَجْري عليه عَملُه إلى يومِ القيامةِ، وأنَّه يَأمَنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، رقم (٣٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، رقم (١٨٨١)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِتْنَةَ القَبرِ، يَعني: أنَّ الناسَ إذا ماتوا ودُفِنوا أتاهُم مَلَكانِ يَسألانِ الرَّجلَ عن رَبِّه، ودِينِه، ونَبِيِّه، إلَّا مَن ماتَ مُرابِطًا في سَبيلِ اللهِ، فإنَّه لا يَأتيهِ المَلَكانِ يَسْألانِه.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ الحِكْمةَ من ذلك فقال: «كَفى ببارِقةِ السُّيوفِ على رَأْسِه فِتْنةً»[1]، فالشهيدُ والمُرابِطُ كِلاهما لا يَأتيهِ المَلَكانِ في قَبْرِه فيَسْألانِه، بل يَأْمَنُ من ذلك، وهذا فَضلٌ عَظيمٌ، وأجْرٌ عَظيمٌ.

وأمَّا حَديثُ أبي هُرَيْرةَ الأخيرُ، ففيه دَليلٌ على فَضيلةِ القَتيلِ في سَبيلِ اللهِ، ولهذا أقسَمَ النبيُّ ﷺ أنَّه لَولا أنْ يَشُقَّ على المُسلِمينَ ما تَخلَّفَ عن سَريَّةٍ قطُّ، ولكنَّه يَتخَلَّفُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحْيانًا، لَمصالِحِ المُسلِمينَ، وقَضاءِ حَوائجِهم، وعَدَمِ المَشقَّةِ عليهم، وأقسَمَ ﷺ أنَّه يَتَمَنَّى ويَوَدُّ أنْ لو قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ، ثم أُحْيِيَ فقُتِلَ، ثم أُحْيِيَ فقُتِلَ، فهذا يَدُلُّ على فَضلِ القَتلِ في سَبيلِ اللهِ، ولا شكَّ في هذا، والقُرآنُ واضِحٌ في ذلك، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

وهذه الحَياةُ البَرْزَخيَّةُ ليستْ كحَياتِنا، ولهذا قال تَعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤]. حَياةٌ لا نَعلَمُ طَبيعَتَها، يَعني لو فتَحْتَ على قَبرِه لوَجَدْتَ الإنْسانَ ميِّتًا، لكنَّه عندَ اللهِ حَيٌّ يُرزَقُ يَأكُلُ منَ الجَنَّةِ بُكرةً وعَشيَّةً، نَسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ يَرزُقَنا وإيَّاكمُ الشَّهادةَ في

(١) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم (٢٠٥٣)، من حديث راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

سَبيلِ اللهِ، وأنْ يُعينَنا وإيَّاكم على الجِهادِ في سَبيلِه، جِهادِ أنْفُسِنا، وجِهادِ أعْدائِنا، إنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

١٢٩٥- وَعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَومَ القِيَامةِ، وَكَلْمُهُ يَدْمَى: اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٢٩٦- وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبيلِ اللهِ من رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوَاقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَغزَرِ مَا كَانَتْ: لَونُها الزَّعْفَرَانُ، وَرِيحُها كَالْمِسْكِ» رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ(٢)، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٢٩٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رسولِ اللهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ، فَأَعْجَبَتْهُ، فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ، وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رسولَ اللهِ ﷺ، فذكَرَ ذَلِكَ لرسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «لَا تَفعَلْ؛ فَإِنَّ مُقامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب فيمن سأل الله تعالى الشهادة، رقم (٢٥٤١)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء فيمن يكلم في سبيل الله، رقم (١٦٥٧)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب ثواب من قاتل في سبيل الله فواق ناقة، رقم (١٦٥٧)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب القتال في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (٢٧٩٢).

أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمُ الجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، مَن قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ» رواه التِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

وَ«الفُوَاقُ»: مَا بَيْنَ الحَلْبَتَيْنِ.

١٢٩٨- وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قيلَ: يَا رسولَ اللهِ، مَا يَعْدِلُ الجِهادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»! ثُمَّ قَالَ: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لا يَفْتُرُ مِنْ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، حَتَّى يَرْجِعَ المُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2]، وهذا لفظُ مُسلِمٍ.

وفي رِوايةِ البُخاريِّ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ؟ قَالَ: «لَا أَجِدُهُ»، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ»؟ فَقَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟![3]

١٢٩٩- وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً عَلَيْهِ يَبْتَغِي القَتْلَ وَالمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنَ الأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ» رَواه مُسلِمٌ[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٦)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، رقم (١٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله، رقم (٢٧٨٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (١٨٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم (٢٧٨٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط، رقم (١٨٨٩).

١٣٠٠ - وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

١٣٠١ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رسولَ اللهِ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللهُ بِهَا العَبْدَ مِئَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرْح

هذه أحاديثُ مُتعَدِّدةٌ، كلُّها في فَضلِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، فمنها أيْ من فَضلِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، أنَّ الإنْسانَ إذا قُتِلَ شَهيدًا، فإنَّه يَأْتي يومَ القيامةِ، وجُرحُه يَدْمَى، اللوْنُ لَوْنُ الدمِ، والريحُ ريحُ المِسكِ، يَشهَدُه الأوَّلونَ والآخِرونَ من هذه الأُمَّةِ وغَيرِها، بل ويَشهَدُه المَلائكةُ في ذلك اليومِ المَشْهودِ، وهذا يوجِبُ له الرِّفْعةَ في الدُّنْيا والآخِرةِ.

ومنها: أنَّ مَن قاتَلَ «فُوَاقَ نَاقَةٍ» وهو ما بينَ الحَلْبَتَيْنِ -فإنَّه تَجِبُ له الجَنَّةُ، فإذا شهِدَ الصفَّ ولو بهذا المِقْدارِ يُقاتِلُ في سَبيلِ اللهِ لِتكونَ كَلمةُ اللهِ هي العُلْيا، فإنَّها توجِبُ له الجَنَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، رقم (٢٧٩٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان ما أعده الله تعالى للمجاهد في الجنة، رقم (١٨٨٤).

ومنها: أنَّ الخارِجَ للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، له مِثلُ أجْرِ الصائمِ القائمِ من حينِ أنْ يَخرُجَ إلى أنْ يَرجِعَ، والصائمِ القائمِ من حينِ أنْ يَخرُجَ المُجاهِدُ إلى أنْ يَرجِعَ هو الذي يُساويه في الأجْرِ عندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ ذلك لا يُسْتَطاعُ كما قالَه النبيُّ ﷺ وقاله الصحابةُ له، ومنها أنَّ اللهَ أعدَّ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه مِئةَ دَرَجةٍ في الجَنَّةِ، كلُّ دَرَجةٍ بينَها وبينَ الأُخْرى مِثلُ ما بينَ السماءِ والأرضِ، أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه.

فهذه الأحاديثُ وأمْثالُها، وهي كَثيرةٌ جِدًّا، تَدُلُّ على فَضلِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، والجِهادُ في سَبيلِ اللهِ يَكونُ بالمالِ، ويَكونُ بالنفْسِ، ولكنَّه بالنفْسِ أفضَلُ وأعظَمُ أجْرًا؛ لأنَّ كلَّ هذه الأحاديثِ التي سَمِعْناها، كلُّها فيمَن جاهَدَ بنَفْسِه، ومَن جاهَدَ بمالِه، فهو على خَيرٍ، وقد ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ: أنَّه مَن جَهَّزَ غازيًا في سَبيلِ اللهِ فقد غَزا: أيْ كُتِبَ له أجْرُ الغازي، ومَن خلَفَه في أهلِه بخَيرٍ فقد غَزا[1]، فنَسأَلُ اللهَ أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم منَ المُجاهِدينَ في سَبيلِه، ابْتِغاءَ وَجهِ اللهِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

١٣٠٢- وَعَنْ أَبي بَكْرِ بنِ أَبي مُوسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ بَحَضْرَةِ العَدُوِّ، يقولُ: قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ أَبْوَابَ الجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» فَقَامَ رَجُلٌ رَثُّ الهَيْئَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، أأَنْتَ سَمِعْتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير، رقم (٢٨٤٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٥)، من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى العَدُوِّ فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ. رَوَاهُ مُسلِمٌ[١].

١٣٠٣ - وَعَنْ أَبِي عَبْسٍ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ جَبْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ في سَبيلِ اللهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ» رَواهُ البُخاريُّ[٢].

١٣٠٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ عَلَى عَبْدٍ غُبَارٌ في سَبيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٣]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٠٥ - وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سَبيلِ اللهِ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٤]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٣٠٦ - وَعَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا في سَبيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

١٣٠٧ - وعن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٢).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من اغبرت قدماه في سبيل الله، رقم (٢٨١١).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٥)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، رقم (١٦٣٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، رقم (٣١٠٨).
(٤) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، رقم (١٦٣٩).
(٥) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير، رقم (٢٨٤٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، رقم (١٨٩٥).

ظِلُّ فُسْطَاطٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنِيحَةُ خَادِمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ طَرُوقَةُ فَحْلٍ فِي سَبِيلِ اللهِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٣٠٨- وَعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فَتًى مِنْ أَسْلَمَ، قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، إِنِّي أُرِيدُ الغَزْوَ وَلَيْسَ مَعِيَ مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ، قَالَ: «ائْتِ فُلانًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ»، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، ويقولُ: أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ. قَالَ: يَا فُلَانَةُ، أَعْطِيهِ الَّذِي كُنْتُ تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَحْبِسِي عَنْهُ شَيْئًا، فَوَاللهِ لَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ. رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

١٣٠٩- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ إِلَى بَنِي لَحْيَانَ، فَقَالَ: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا» رَوَاهُ مُسلِمٌ[3].

وفي رِوايةٍ لَهُ: «لِيَخْرُجْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ» ثُمَّ قَالَ للقاعِدِ: «أَيُّكُمْ خَلَفَ الخَارِجَ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ بِخَيْرٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ نِصْفِ أَجْرِ الخَارِجِ»[4].

١٣١٠- وَعَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النبيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بالحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قَالَ: «أَسْلِمْ، ثُمَّ قَاتِلْ». فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ. فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[5]. وهذا لفظُ البُخاريِّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٩)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الخدمة في سبيل الله، رقم (١٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٤).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٦).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، رقم (١٨٩٦).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب عمل صالح قبل القتال، رقم (٢٨٠٨)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٠).

١٣١١ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ»[(١)].

وفي رِوايةٍ: «لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)].

١٣١٢ - وَعَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَغْفِرُ اللهُ لِلشَّهِيدِ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ». رَواهُ مُسلِمٌ[(٣)].

وفي رِوايةٍ له: «القَتْلُ في سَبيلِ اللهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شيءٍ إِلَّا الدَّيْنَ»[(٤)].

١٣١٣ - وَعَنْ أَبي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِيهِم، فَذَكَرَ أَنَّ الجِهَادَ في سَبيلِ اللهِ، وَالإِيمَانَ بِاللهِ، أَفْضَلُ الأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، أَرأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللهِ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ في سَبيلِ اللهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»، ثُمَّ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللهِ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ» رَواهُ مُسلِمٌ[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، رقم (٢٨١٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (١٨٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن، رقم (٢٧٩٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (١٨٧٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قُتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدَّين، رقم (١٨٨٦).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قُتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدَّين، رقم (١٨٨٦).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قُتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدَّين، رقم (١٨٨٥).

الشَّرح

هذه الأحاديثُ المُتعدِّدةُ، ذكَرَها الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ الجِهادِ، وفيها مَسائلُ:

منها: أنَّ النبيَّ ﷺ كان حَسَنَ التدْبيرِ في أصحابِه، فهذا الرَّجلُ الذي جاءَ إليه، وقال: إنِّي أُريدُ الغَزْوَ وليس عِنْدي شَيءٌ، يَعني يَغْزو به، فأَحالَه على رَجلٍ كان قد تَجَهَّزَ ليَغْزوَ، ولكنَّه مرِضَ، ثم إنَّ الرَّجلَ ذهَبَ إلى صاحِبِه فأَخذ جَهازَه، وقال لامْرأتِه: أعْطِيهِ الَّذِي كُنْتُ تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَتْرُكي منه شَيئًا، فَوَاللهِ لَا تَتْرُكي منه شَيئًا فيُبارَكَ لنا فيه، فجَهَّزَه.

وفيها: أيْ في هذه الأحاديثِ دَليلٌ على أنَّ مَن جَهَّزَ الغازيَ وأَعْطاه ما يَكْفي لغَزْوِهِ فإنَّه كالذي يَغْزو، وأنَّ مَن خلَفَ الغازيَ في أهلِه بخَيرٍ فله مِثلُ أجْرِه، ويدُلُّ على هذا أيضًا قَضيَّةُ بَني لَحْيانَ، حيثُ إنَّ النبيَّ ﷺ أمَرَهم أنْ يَخرُجَ منهم واحِدٌ ويَبْقى واحِدٌ يَخلُفُ الغازيَ في أهلِه، ويَكونُ له نِصفُ أجْرِه؛ لأنَّ النصفَ الثانيَ للغازي.

وفي هذه الأحاديثِ أيضًا: من فَضائلِ الجِهادِ أنَّ أبْوابَ الجَنَّةِ تحتَ السُّيوفِ بمَعنى أنَّ مَن قاتَلَ فإنَّه يَكونُ قِتالُه سَببًا لدُخولِ الجَنَّةِ من أبْوابِها، فقد ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ في الجَنَّةِ بابًا يُقالُ له بابُ الجِهادِ يَدخُلُه مَن يُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ[1].

وفي هذه الأحاديثِ: أنَّ الشَّهادةَ تُكَفِّرُ كلَّ شَيءٍ منَ الأعْمالِ إلَّا الدَّيْنَ، يَعني إلَّا دَيْنَ الآدَميِّ، فإنَّ الشَّهادةَ لا تُكَفِّرُه؛ وذلك لأنَّ دَيْنَ الآدَميِّ لا بُدَّ من إيفائِه،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرةِ، وفي هذا الحَديثِ التحْذيرُ منَ التساهُلِ في الدَّيْنِ، وأنَّه لا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَتَساهَلَ في الدَّيْنِ، ولا يَسْتَدينَ إلَّا عندَ الضرورةِ، وليس عندَ الحاجةِ، إنَّما عندَ الضرورةِ القُصْوى؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَأذَنْ للرَّجلِ الذي قال: زَوِّجْني، فقال: «أَصْدِقِ المَرْأةَ» قال: ليس عِنْدي إلَّا إزاري، قال: «**إزارُكَ لا يَنفَعُها إنْ أَعْطَيْتَها إيَّاه بَقيتَ بلا إزارٍ، وإنْ أَبْقَيْتَه عليكَ بَقيَتْ بلا مَهرٍ، التَمِسْ لو خاتمًا من حَديدٍ**» فالْتَمَسَ فلم يَجِدْ، فقال: «**زَوَّجْتُكَها بما معكَ منَ القُرآنِ**»[1]، ولم يَقُلِ: استَقرِضْ منَ الناسِ، معَ أنَّه زَواجٌ، حاجةٌ مُلِحَّةٌ، لكنْ لم يَأذَنْ له الرسولُ ﷺ، بل لم يُرشِدْه إلى الاسْتِدانةِ؛ لأنَّ الدَّيْنَ خَطيرٌ جِدًّا، وقد رُويَ عنِ النبيِّ ﷺ بسَنَدٍ فيه نَظَرٌ: «**أنَّ نَفْسَ المُؤمِنِ مُعَلَّقةٌ بدَيْنِه حتى يُقْضى عنه**»[2] فالأمرُ مُهِمٌّ، فلا تَستَهِنْ بالدَّيْنِ، الدَّيْنُ هَمٌّ في الليلِ، وذُلٌّ في النهارِ، فالإنسانُ مَهما أمكَنَه يَجِبُ أنْ يَتحَرَّزَ منَ الدَّيْنِ، وألَّا يُسرِفَ في الإنْفاقِ؛ لأنَّ كَثيرًا منَ الناسِ تَجِدُه فَقيرًا ثم يُريدُ أنْ يُنفِقَ على نَفْسِه وأهلِه كما يُنفِقُ الأغْنياءُ، فيَستَلِفُ من هذا، ويَستَلِفُ من هذا، أو يَستَدينُ، أو يُرابي، وهذا غلَطٌ عَظيمٌ، يَعني لو لم يكُنْ لكَ إلَّا وَجبةٌ واحِدةٌ في الليلِ والنهارِ، فلا تَستَلِفْ، اصبِرْ، وقُلِ: اللَّهُمَّ أَغْنِني، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٢٨]. أمَّا تَهاوُنُ بَعضِ الناسِ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- ويَستَدينُ من أجْلِ أنْ يَفرُشَ كلَّ البيتِ فِراشًا حتى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٥٠٢٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم الحديد، رقم (١٤٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٨)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: نفس المؤمن معلقة بدَينه، رقم (١٠٧٨)، وابن ماجه: كتاب الصدقات، باب التشديد في الدَّين، رقم (٢٤١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الدرَجَ، فهذا غلَطٌ، أو يَستَدينُ من أجْلِ أنْ يَأخُذَ سيَّارةً فَخْمةً، معَ أنَّه يَكْفيهِ سيَّارةٌ مَثلًا بعِشْرينَ ألْفًا، يَقولُ: لا بمِئةِ ألفٍ، وهو فَقيرٌ.

هذا من سوءِ التصَرُّفِ، ومن ضَعفِ الدِّينِ، ومن قِلَّةِ المُبالاةِ؛ لأنَّ الدَّيْنَ لا تُكَفِّرُه حتى الشَّهادةُ في سَبيلِ اللهِ، فكيف تَستَدينُ؟ إلَّا عندَ الضرورةِ، وأقولُ: عندَ الضرورةِ وليس عندَ الحاجةِ، يَعني حتى لو كُنتَ مُحْتاجًا وتُحِبُّ كَماليَّاتٍ، لا تَستَدِنْ، لا تَشترِ شَيئًا ليس معكَ ثَمَنُه، اصبِرْ حتى يَرزُقَكَ اللهُ، ثم اشْتَرِ على قَدرِ الحالِ، ولهذا منَ الأمْثالِ العامِّيَّةِ الصحيحةِ: «امْدُدْ رِجْلَكَ على قَدْرِ لِحافِكَ»، إنْ مَدَدْتَها أكثَرَ تَعرَّضْتَ للبَرْدِ والشمسِ وغَيرِ ذلك.

ففيه التحْذيرُ منَ الدَّيْنِ، وأنَّه لا يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَستَدينَ.

والدَّيْنُ دَينٌ سَواءً كان إجارةً، أو ثَمنَ مَبيعٍ، وبعضُ الناسِ منَ السُّفَهاءِ قد يَأْتيهِ ضَيفٌ وحالُه مُعسِرةٌ، وقد يَكونُ عليه دَيْنٌ، فيَهُمُّ بإكْرامِ ضَيفِه فيَذبَحُ له، ويَتكَلَّفُ للضيْفِ، بل إنَّ بَعضَهم قد يُطلِّقُ زَوجَتَه من أجْلِ أنْ يَذبَحَ لضَيفِه، يقولُ الضيفُ: لا تُكلِّفْ نَفْسَكَ ولا تَذبَحْ، فيَقولُ: لا... ويَحلِفُ بالطلاقِ أنَّه يَذبَحُ، وأَرى أنَّ هؤلاء يَحْتاجونَ إلى تَوْعيةٍ، وهذا مَسؤوليَّةُ إخْوَتِنا الدُّعاةِ، جَزاهمُ اللهُ خَيرًا.

وهُنا مَسألةٌ: بعضُ الناسِ يَكونُ عليه دَيْنٌ، ثم يَتصَدَّقُ ويقولُ: أُحِبُّ هذه الصدَقةَ وهذا حَرامٌ، كيف تَتَصدَّقُ وأنتَ مَدينٌ؟ أَدِّ الواجِبَ أوَّلًا، ثم التَّطوُّعَ ثانيًا، لأنَّ الذي يَتصَدَّقُ ويَستَدينُ كالذي يَبْني قَصرًا ويَهدِمُ مِصرًا، أنتَ الآنَ مُطالَبٌ مُطالَبةً واجِبةً أنْ تُوَفِّيَ دَينَكَ، كيف تَتصَدَّقُ، أَوْفِ ثم تَصدَّقْ.

وفي هذه الأحاديثِ أيضًا: أنَّ الجِهادَ بدونِ إسْلامٍ لا يَنفَعُ صاحِبَه؛ لأنَّ الرَّجلَ الذي اسْتَأذَنَ منَ النبيِّ ﷺ وقال: يا رسولَ اللهِ، أُجاهِدُ ثم أُسلِمُ، أمْ أُسلِمُ ثم أُجاهِدُ؟

قال: «أَسلِمْ ثم جاهِدْ» فأسلَمَ ثم جاهَدَ، وهكذا جميعُ الأعْمالِ الصالحةِ يُشتَرَطُ فيها الإسلامُ، لا يَقبَلُ اللهُ من أحَدٍ صَدَقةً ولا حَجًّا، ولا صيامًا، ولا أيَّ شَيءٍ وهو غَيرُ مُسلِمٍ، فإذا رَأَيْنا -مَثلًا- رَجُلًا لا يُصَلِّي ولكنَّه كَثيرُ الصيامِ، كَثيرُ الصدَقاتِ، بَشوشًا للناسِ، أخْلاقُه طيِّبةٌ لكنَّه لا يُصَلِّي، فاعلَمْ أنَّ كلَّ عَملٍ يَعمَلُه لا يَنفَعُه يومَ القيامةِ حتى الصيامُ يَصومُ رَمضانَ ولا يُصَلِّي، ليس له صيامٌ، يَحُجُّ ولا يُصَلِّي ليس له حَجٌّ، بل يَحرُمُ عليه أنْ يَذهَبَ إلى مَكَّةَ وهو لا يُصَلِّي؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨]، فالإسلامُ شَرطٌ لكلِّ عِبادةٍ، ولا تُقبَلُ أيُّ عِبادةٍ إلَّا بالإسلامِ، ولا تَصِحُّ أيُّ عِبادةٍ إلَّا بالإسلامِ، واللهُ الموفِّقُ.

١٣١٤- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيْنَ أَنَا يَا رسولَ اللهِ إِنْ قُتِلْتُ؟ قَالَ: «فِي الجَنَّةِ»، فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ. رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

١٣١٥- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: انْطَلَقَ رسولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ المُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَقْدَمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ». فَدَنَا المُشْرِكُونَ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ» قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: بَخٍ بَخٍ؟ فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَولِكَ: بَخٍ بَخٍ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٦)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٨٩٩).

أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

«القَرَنُ» بفَتْحِ القافِ والراءِ: هُوَ جَعْبَةُ النُّشَّابِ.

١٣١٦- وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنِ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا القُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ: القُرَّاءُ، فِيهِم خَالِي حَرَامٌ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالمَاءِ، فَيَضَعُونَهُ فِي المَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهْلِ الصُّفَّةِ، وَلِلفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلغُوا المَكَانَ، فَقَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا، وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَه، فَقَالَ حَرَامٌ: فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2]، وهذا لفظُ مُسلِمٍ.

١٣١٧- وَعَنْهُ، قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ، لَئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَومُ أُحُدٍ انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ -يَعني: أَصْحَابَهُ- وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ -يَعني: المُشْرِكِينَ-

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من ينكب في سبيل الله، رقم (٢٨٠١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (٦٧٧).

ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعدُ بنَ مُعَاذٍ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إنِّي أجِدُ ريحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ! فَقَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رسولَ اللهِ مَا صَنَعَ! قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً برُمْحٍ، أَوْ رَمْيةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمَثَّلَ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أحَدٌ إلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نَرَى -أَوْ نَظُنُّ- أنَّ هذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٣] إلَى آخِرِها، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1]، وقد سبَقَ في بابِ المُجاهَدةِ.

١٣١٨- وَعَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي، فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفضَلُ، لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، قالا: أَمَّا هذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ». رَواهُ البُخاريُّ[2]، وَهُوَ بعضٌ من حَديثٍ طَويلٍ، فيه أَنْواعٌ منَ العِلمِ سَيَأْتي في بابِ تَحْريمِ الكَذِبِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

١٣١٩- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البَرَاءِ وهي أُمُّ حَارِثَةَ بنِ سُرَاقَةَ، أَتَتِ النبيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رسولَ اللهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ -وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ- فَإنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإنَّ ابْنَكِ أصابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» رَواهُ البُخاريُّ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾، رقم (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم (١٣٨٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله، رقم (٢٨٠٩).

١٣٢٠- وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جِيءَ بِأَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَدْ مُثِّلَ بِهِ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ فَنَهَانِي قَوْمِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا زَالتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٣٢١- وَعَنْ سَهْلِ بن حُنَيْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرح

هذه الأحاديثُ في فَضلِ الشُّهَداءِ الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ، وأنَّ لهمُ الجَنَّةَ، كما قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة:١١١].

وذكَرَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أحاديثَ كَثيرةً في هذا البابِ تَدُلُّ على صِدقِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وصِدقِ إيمانِهم. يُخبِرُهمُ النبيُّ ﷺ بما للشُّهَداءِ فيَدَعونَ ما بأَيْديهم منَ الطعامِ، ويَترُكونَه، ويَتقدَّمونَ إلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، ثم يُقتَلونَ فيَلقَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ راضينَ عنه، وهو راضٍ عنهم جَلَّوَعَلَا، وهذا لا شكَّ أنَّه من فَضائلِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ التي لا يَلحَقُهم بعدَهم أحَدٌ فيها.

هذا عُمَيرُ بنُ الحُمامِ الأنْصاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا قال النبيُّ ﷺ يومَ بَدرٍ: «مَن قاتَلَهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٤٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن طرم، رقم (٢٤٧١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (١٩٠٩).

مُحتَسِبًا مُقبِلًا غيرَ مُدبِرٍ وجَبَتْ له الجَنَّةُ التي عَرْضُها كعَرضِ السماءِ والأرضِ» قال: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرضُها كعرضِ السماءِ والأرضِ؟ قال: «نَعم»، فأخرَجَ تَمَراتٍ من قَرَنِه الذي يوضَعُ فيه الطعامُ عادةً، ويَأخُذُه المُجاهِدُ، ثم جعَلَ يأكُلُ، ثم استَطالَ الحَياةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: واللهِ لإنْ بَقيتُ حتى آكُلَ هذه التمَراتِ إنَّها لحَياةٌ طَويلةٌ، ثم تَقدَّمَ فقاتَلَ وقُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد شهِدَ له النبيُّ ﷺ بالجَنَّةِ.

وكذلك أنَسُ بنُ النضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقِيَ سعدَ بنَ مُعاذٍ في غَزْوةِ أُحُدٍ، وأخبَرَه بأنَّه يَجِدُ ريحَ الجَنَّةِ دونَ أُحُدٍ، قال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذه منَ الكَراماتِ التي يُكرِمُ اللهُ بها مَن يَشاءُ من عِبادِه أنْ يَجِدَ ريحَ الجَنَّةِ، وهو في الأرضِ، والجَنَّةُ في السماءِ، لكنْ من أجْلِ أنَّ اللهَ يُثبِّتَ يَقينَه حتى يَتيَقَّنَها، وكأنَّها أمرٌ مَحْسوسٌ عندَه[1]، فقاتَلَ حتى قُتِلَ؛ لأنَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَأخَّرَ عن غَزْوةِ بَدرٍ، وسَببُ ذلك أنَّ كَثيرًا منَ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يَخْرُجوا في بَدرٍ؛ لأنَّهم إنَّما خَرَجوا من أجْلِ عيرِ أبي سُفْيانَ التي جاءَ بها منَ الشامِ يُريدُ بها مَكَّةَ، ولم يَخْرُجوا لقِتالٍ، ولكنَّ اللهَ جَمَعَ بينَهم وبينَ عَدُوِّهم من غَيرِ ميعادٍ، فتخَلَّفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّهم لم يُؤْمَروا بالخُروجِ إلى الغَزْوِ، وإنَّما قال الرسولُ ﷺ: «مَن شاءَ أنْ يَخرُجَ معَنا فلْيَخرُجْ»، فخرَجَ مَن خرَجَ، وتَخلَّفَ مَن تَخلَّفَ، لكنَّه قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حينَ تَخلَّفَ عن هذه الغَزْوةِ -غَزْوةِ بَدرٍ-: لإنْ أشْهَدَني اللهُ مَشهَدًا -يَعني غَزْوًا في سَبيلِ اللهِ- ليَرَيَنَّ اللهُ منِّي ما أصنَعُ، ثم تَقدَّمَ وجاهَدَ، وجالَدَ، وقاتَلَ حتى قُتِلَ، ووَجَدوا به بِضعًا وثَمانينَ أو بِضعًا وتِسعينَ ضَربةً في جَسدٍ واحِدٍ، ممَّا يَدُلُّ على أنَّه قد غامَرَ وخاضَ صُفوفَ المُشرِكينَ، لم تَعرِفْه إلَّا أُختُه ببَنانِه، وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يُجاهِدُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أعتَذِرُ إليكَ ممَّا صنَعَ هؤلاء -يَعني أصحابَه

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص:١٦١).

الذين انْكَشَفوا في غَزْوةِ أُحُدٍ- وأَبْرَأُ إليكَ ممَّا صنَعَ هؤلاء -يَعني المُشرِكينَ-»[١].

فهذه القِصَصُ وأمثالُها تَدُلُّ دَلالةً واضِحةً على أنَّ اللهَ اخْتارَ لنَبيِّه ﷺ أفضَلَ الخَلقِ، وأنَّه مِصْداقُ قَولِه ﷺ: «خَيرُ الناسِ قَرْني، ثم الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم...»[٢] نَسأَلُ اللهَ أنْ يُبلِّغَنا وإيَّاكم مَنازِلَ الشُّهَداءِ، وأنْ يَجمَعَ بيننا وبينَهم في جَنَّاتِ النعيمِ.

١٣٢٢- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا ولو لَمْ تُصِبْهُ» رَواهُ مُسلِمٌ[٣].

١٣٢٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٤]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٢٤- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ في النَّاسِ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾، رقم (٢٨٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (١٩٠٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل المرابط، رقم (١٦٦٨)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب فضل الشهادة في سبيل الله، رقم (٢٨٠٢).

لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٣٢٥ - وَعَنْ سَهْلِ بن سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ وَعِنْدَ البَأْسِ حِيْنَ يُلْحِمُ بَعْضُهُم بَعضًا» رَواه أَبُو داوُدَ[2] بإسنادٍ صَحيحٍ.

١٣٢٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا، قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ» رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[3]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٣٢٧ - وَعَنْ أَبي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَومًا، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ» رَواه أَبُو داوُدَ[4] بإسنادٍ صَحيحٍ.

١٣٢٨ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الخَيْلُ مَعقُودٌ فِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس، رقم (٢٩٦٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر، رقم (١٧٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب الدعاء عند اللقاء، رقم (٢٥٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب ما يدعى عند اللقاء، رقم (٢٦٣٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في الدعاء إذا غزا، رقم (٣٥٨٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، وأبو داود: كتاب الوتر، باب ما يقول الرجل إذا خاف قومًا، رقم (١٥٣٧).

نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

١٣٢٩- وَعَنْ عُرْوَةَ البارِقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: «الخَيْلُ مَعقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ، وَالمَغْنَمُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢].

١٣٣٠- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، إِيمَانًا بِاللهِ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ، وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ، وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» رَواهُ البُخاريُّ[٣].

١٣٣١- وَعَنْ أَبي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبيِّ ﷺ بِنَاقةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ: هذِهِ فِي سَبيلِ اللهِ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ سَبْعُ مِئَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ» رَواهُ مُسلِمٌ[٤].

١٣٣٢- وعَنْ أَبي حَمَّادٍ -ويُقالُ: أَبُو سُعادَ، ويُقالُ: أَبُو أَسَدٍ، ويُقالُ: أَبُو عامِرٍ، ويُقالُ: أَبُو عَمْرٍو، ويُقالُ: أَبُو الأَسْوَدِ، ويُقالُ: أَبُو عَبْسٍ- عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، يقولُ: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» رَواهُ مُسلِمٌ[٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير، رقم (٢٨٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير، رقم (١٨٧١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (٢٨٥٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير، رقم (١٨٧٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله، رقم (٢٨٥٣).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله، رقم (١٨٩٢).

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٧).

١٣٣٣ - وَعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقول: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ اللهُ، فَلَا يَعْجِز أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ» رواه مسلم[١].

١٣٣٤ - وَعَنْهُ أَنَّه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عُلِّمَ الرَّمْيَ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ فَقَدْ عَصَى» رواه مسلم[٢].

الشَّرْح

هذه أحاديثُ مُتَنَوِّعةٌ ساقَها الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى بعضُها في بَيانِ فَضيلةِ الشُّهَداءِ، وقد سبَقَتْ أحاديثُ كَثيرةٌ في هذا المَوْضوعِ، وبعضُها في فَضلِ المُشارَكةِ في الجِهادِ بالراحِلةِ والسهْمِ.

فأمَّا الأوَّلُ: فقد ذكَرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الإنْسانَ إذا استُشْهِدَ في سَبيلِ اللهِ، فإنَّ ما يُصيبُه منَ القَتلِ يَكونُ كالقَرْصةِ يَعني كقَرْصةِ النمْلةِ، أو الذرَّةِ، أو ما أشبَهَ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يُسهِّلُ عليه القَتلَ كما أنَّه يُسهِّلُ عليه خُروجَ الرُّوحِ؛ لأنَّ الرُّوحَ تُبَشَّرُ برِضْوانٍ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وبالجَنَّةِ، فيَسهُلُ عليها الخُروجُ، كما في غَيرِها منَ الأمْواتِ.

ومنها: أنَّ النبيَّ ﷺ حينَما خطَبَ الناسَ بيَّنَ الحُكمَ في قَولِه: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا؛ فَإِنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**» والشاهِدُ من هذا الحَديثِ قَولُه: «**الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٨).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٩/ ٤١٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٩).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٩/ ٤١٥).

ومنها: أيْ من فَضائلِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الإنْسانَ الذي يُشارِكُ براحِلةٍ يُكتَبُ له بذلك أجْرُها، كما قال النبيُّ ﷺ: «الخَيْلُ مَعقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إلَى يَومِ القِيَامَةِ».

والمُرادُ بالخَيلِ: خَيلُ الجِهادِ؛ لأنَّه فسَّرَ هذا الخَيرَ بقَولِه: «الأجْرُ، وَالمَغْنَمُ»، وهذا إنَّما يَكونُ في خَيلِ الجِهادِ، فخَيلُ الجِهادِ في نَواصيها الخَيرُ إلى يَومِ القيامةِ. ويُحتَمَلُ أنْ يَكونَ الحَديثُ عامًّا، أيِ الخَيلُ كلُّها سَواءٌ كانت ممَّا يُجاهَدُ عليه أَمْ لا، للعُمومِ.

ومنها: أيضًا أنَّ رَجلًا جاءَ بناقةٍ مَخْطومةٍ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فقال: هذه يا رسولَ اللهِ في سَبيلِ اللهِ، فأخبَرَه النبيُّ ﷺ أنَّ اللهَ أعَدَّ له يومَ القيامةِ سَبعَ مِئةِ ناقةٍ كلُّها مَخْطومةٌ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يُضاعِفُ الحَسَنةَ بعَشْرِ أمْثالِها إلى سَبعِ مِئةِ ضِعفٍ إلى أضْعافٍ كَثيرةٍ.

ومنها: -أيْ منَ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ- المُساعَدةُ في السِّهامِ: الرَّميِ، ولهذا خطَبَ النبيُّ ﷺ ذاتَ يَومٍ، فقال في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]: «أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ». والرَّمْيُ في كلِّ وَقتٍ بحَسَبِه، ففي عَهدِ الرسولِ ﷺ يَكونُ الرَّميُ بالقَوسِ بالسِّهامِ، وفي وَقتِنا الآنَ يَكونُ الرَّميُ بالقَنابِلِ والصواريخِ وما أشبَهَه؛ لأنَّ كلَّ رَميٍ يَكونُ بحَسَبِ الوَقتِ الذي يَكونُ فيه الإنسانُ. نَسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجعَلَنا وإيَّاكم منَ المُجاهِدينَ في سَبيلِه بالمالِ والنفْسِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

١٣٣٥ - وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «إنَّ اللهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الجَنَّةَ: صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، ومُنْبِلَهُ، وَارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عُلِّمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا» أَوْ قَالَ: «كَفَرَهَا» رَواهُ أَبُو داوُدَ[١].

١٣٣٦ - وَعَنْ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نَفَرٍ يَنْتَضِلُونَ، فَقَالَ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» رَواهُ البُخارِيُّ[٢].

١٣٣٧ - وَعَنْ عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «مَنْ رَمَى بِسَهمٍ فِي سَبيلِ اللهِ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرَةٍ» رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[٣]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٣٨ - وَعَنْ أَبِي يَحْيى خُرَيْمِ بنِ فاتِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبيلِ اللهِ كُتِبَ لَهُ سَبْعُ مِئَةِ ضِعْفٍ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٤]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٣٣٩ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الرمي، رقم (٢٥١٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم (٢٨٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١١٣)، وأبو داود: كتاب العتق، أي الرقاب أفضل، رقم (٣٩٦٥)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، رقم (١٦٣٨)، وابن والنسائي: كتاب الجهاد، باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٣١٤٢)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥)، والترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله، رقم (١٦٢٥)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله، رقم (٣١٨٦).

يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذلِكَ اليَوْمِ وَجهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرْيفًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

١٣٤٠ - وَعَنْ أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبيلِ اللهِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كما بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٢]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٤١ - وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ» رَواهُ مُسلِمٌ[٣].

١٣٤٢ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي غَزَاةٍ فقالَ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ المَرَضُ»[٤].

وفي رِوايةٍ: «حَبَسَهُمُ العُذْرُ»[٥]، وفي رِوايةٍ: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ في الأجْرِ»[٦] رَواه البُخاريُّ من رِوايةِ أَنَسٍ، ورَواهُ مُسلِمٌ من رِوايةِ جابرٍ، واللفظُ لَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل الصوم في سبيل الله، رقم (٢٨٤٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم (١١٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الصوم في سبيل الله، رقم (١٦٢٤).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ذم من مات، ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم (١٩١١).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو، رقم (٢٨٣٩)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، رقم (١٩١١).

١٣٤٣ - وَعَنْ أَبِي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرابِيًّا أَتى النبيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ؟[١].

وفي رِوايةٍ: يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً[٢].

وفي رِوايةٍ: يُقَاتِلُ غَضَبًا، فَمَنْ في سَبيلِ اللهِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

الشَّرح

هذه الأحاديثُ في بَيانِ أُمورٍ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، منها الرَّميُ، وقد سبَقَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ» كرَّرَها ثَلاثًا.

وفي الأحاديثِ التي ساقَها المُؤلِّفُ في هذا البابِ حَثٌّ على تَعلُّمِ الرَّميِ، وعلى أنَّ مَن تَرَكَ الرَّميَ بعدَ أنْ منَّ اللهُ تَعالى عليه به فإنَّها نِعمةٌ كفَرَها، وفي بعضِ الأحاديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ تَبرَّأَ منه.

وفي بعضِ الأحاديثِ أيضًا: إنَّها «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ اللهُ، فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، رقم (٢٨١٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل، وهو قائم، عالمًا جالسًا، رقم (١٢٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل، وهو قائم، عالمًا جالسًا، رقم (١٢٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، رقم (١٩٠٤).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٨)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي هذه الأحاديثِ وأشْباهِها: حَثٌّ على تَعلُّمِ الرَّمْيِ، وعلى أنَّ الإنْسانَ يَنبَغي له أنْ يَتعَلَّمَ كيف يَرْمي، ولو بالأسْلِحةِ الخَفيفةِ، لأنَّه لا يَدْري ماذا يَحْدُثُ له، حتى إنَّ النبيَّ ﷺ أجازَ العِوَضَ في المُسابَقةِ في الرَّمْيِ، يَعني مَثلًا رَمى اثنانِ بالبُنْدُقيَّةِ أو شِبْهِها منَ السلاحِ، ويَجعَلونَ بينَهما عِوَضًا، مَن يَرْمِ منهم يَأخُذْه، هذا أيضًا لا بَأسَ به، وجائزٌ، لمَا في ذلك منَ الحَثِّ على تَعلُّمِ الرَّمي، وفي هذه الأحاديثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ارْكَبُوا وَارْمُوا، وَأنْ تَرْمُوا أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ تَرْكَبُوا»؛ لأنَّ الرَّمْيَ يُدرِكُه الإنسانُ الراكبُ والراجِلُ، أمَّا الرُّكوبُ فلا يُدْرِكُه إلَّا مَن ركِبَ، ولهذا كان الرَّمْيُ أحبَّ إلى النبيِّ ﷺ منَ الرُّكوبِ.

وفي هذه الأحاديثِ أيضًا: دَليلٌ على فَضيلةِ الصيامِ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وأنَّ الإنْسانَ إذا صامَ يَومًا في سَبيلِ اللهِ باعَدَ اللهُ بينَ وَجهِه وبينَ النارِ سَبْعينَ خَريفًا: يَعني سَبعينَ سَنةً.

وفي هذه الأحاديثِ: دَليلٌ على وُجوبِ إخْلاصِ النيَّةِ للهِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ سُئلَ عنِ الرَّجلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَميَّةً، ويُقاتِلُ زُورًا، ويُقاتِلُ غَضَبًا -يَعني عَصَبيَّةً لقَومِه- فمَن في سَبيلِ اللهِ؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ». واللهُ الموفِّقُ.

١٣٤٤- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ، إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهُمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ لَهُمْ أُجُورُهُمْ» رَواهُ مُسلِمٌ[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم، ومن لم يغنم، رقم (١٩٠٦).

١٣٤٥ - وَعَنْ أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجلًا، قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، ائْذَنْ لي في السِّيَاحَةِ فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتي الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» رَواهُ أَبو داوُدَ[١] بإسنادٍ جيِّدٍ.

١٣٤٦ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنِ النبيِّ ﷺ، قَالَ: «قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ» رَواهُ أَبو داوُدَ[٢] بإسنادٍ جيِّدٍ.

«القَفْلَةُ»: الرُّجُوعُ، وَالمُرادُ: الرُّجُوعُ مِنَ الغَزْوِ بَعدَ فَرَاغِهِ؛ ومَعْناه: أَنَّه يُثَابُ في رُجُوعِهِ بعدَ فَرَاغِهِ مِنَ الغَزْوِ.

١٣٤٧ - وَعَنِ السَائبِ بنِ يَزيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ تَلَقَّاهُ النَّاسُ، فَتَلَقَّيْتُهُ مَعَ الصِّبْيَانِ عَلَى ثَنيَّةِ الوَدَاعِ، رَواهُ أَبو داوُدَ[٣] بإسنادٍ صَحيحٍ بهذا اللفظِ.

ورَواهُ البُخاريُّ[٤] قَالَ: «ذَهَبْنا نَتَلَقَّى رسولَ اللهِ ﷺ، مَعَ الصِّبْيَانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ».

١٣٤٨ - وَعَنْ أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ لَمْ يَغْزُ، أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا، أَوْ يَخْلُفْ غَازيًا في أَهْلِهِ بِخَيرٍ، أَصَابَهُ اللهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ»

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في النهي عن السياحة، رقم (٢٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٤)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في فضل القفل في سبيل الله تعالى، رقم (٢٤٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد والسير، باب في التلقي، رقم (٢٧٧٩)، والترمذي: كتاب الجهاد، باب ما جاء في تلقي الغائب إذا قدم، رقم (١٧١٨).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب استقبال الغزاة، رقم (٣٠٨٣).

رَواهُ أَبُو داوُدَ[١] بإسنادٍ صَحيحٍ.

١٣٤٩- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» رَواهُ أَبُو داوُدَ[٢] بإسنادٍ صَحيحٍ.

١٣٥٠- وَعَنْ أَبِي عَمْرٍو -ويُقالُ: أَبُو حَكيمٍ- النُّعْمَانِ بنِ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَهِدْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ من أَوَّلِ النَّهَارِ أَخَّرَ القِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهُبَّ الرِّيَاحُ، وَيَنْزِلَ النَّصْرُ. رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[٣]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٥١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللهَ العَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٤].

١٣٥٢- وَعَنْهُ وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: «الحَرْبُ خَدْعَةٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، رقم (٢٥٠٣)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب التغليظ في ترك الجهاد، رقم (٢٧٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٤)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، رقم (٢٥٠٤)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، رقم (٣٠٩٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٤٤)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في أي وقت يستحب اللقاء، رقم (٢٦٥٥)، والترمذي: كتاب السير، باب ما جاء في الساعة التي يستحب فيها القتال، رقم (١٦١٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا تمنوا لقاء العدو، رقم (٣٠٢٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، رقم (١٧٤١).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، رقم (٣٠٣٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، رقم (١٧٣٩).

الشَّرح

هذه الأحاديثُ هي بَقيَّةُ أحاديثِ كتابِ الجِهادِ، وفيها الحَثُّ على الغَزْوِ، وأنَّ الإنْسانَ إذا لم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نَفْسَه بالغَزْوِ، ولم يَخْلُفْ غازيًا في أهلِه ومالِه، فإنَّه تُصيبُه قارِعةٌ قبلَ يومِ القيامةِ، وهذه القارِعةُ رُبَّما تُفَسَّرُ بما سبَقَ في الحَديثِ، «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ».

وفيها: أيضًا الحَثُّ على جِهادِ المُشرِكينَ بالمالِ والنفْسِ واللِّسانِ.

بالمالِ: أيْ يَبذُلُ الإنْسانُ مالًا يُساعِدُ به المُجاهِدينَ، أو يَشْتَري به سِلاحًا أو غَيرَ ذلك.

والنفْسِ: أنْ يَخرُجَ بنَفْسِه يُقاتِلُ، واللسانِ أنْ يَهْجوَهم بالقَصائدِ والأشْعارِ؛ لأنَّ هَجْوَ المُشرِكينَ يُؤثِّرُ عليهم، ويَكونُ ذِكْرى سيِّئةً في حَقِّهم إلى ما شاءَ اللهُ، مَثلًا إلى الآنَ ونحن نَسمَعُ هِجاءَ حسَّانَ بنِ ثابتٍ وعبدِ اللهِ بنِ رَواحةَ وغَيرِهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للمُشرِكينَ.

وفي هذه الأحاديثِ التي ذكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فَضيلةُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وأنَّه من أفضَلِ الأعْمالِ، وقد مَضَتْ أحاديثُ كَثيرةٌ في هذا المَعنى، وأطالَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في نَقلِ الأحاديثِ في ذلك؛ لأنَّ بابَ الجِهادِ من أهمِّ أبْوابِ الدِّينِ، حتى إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ذُرْوةُ سَنامِه -أيْ: ذُرْوةُ سَنامِ الإسْلامِ- الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ»[1] لِما فيه من إعْلاءِ كَلمةِ اللهِ ونَصرِ الإسْلامِ والمُسلِمينَ، وغَيرِ ذلك منَ المَصالِحِ العَظيمةِ. والله الموفِّقُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٣٥- بابُ بَيانِ جَماعةٍ منَ الشُّهَداءِ في ثَوابِ الآخِرةِ يُغَسَّلونَ ويُصَلَّى عليهم بخِلافِ القَتيلِ في حَربِ الكُفَّارِ

١٣٥٣- وعن أَبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ وَالمَبْطُونُ، وَالغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ في سَبِيلِ اللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٣٥٤- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟» قالوا: يَا رسولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَنْ لَقَليلٌ»! قالوا: فَمَنْ هُمْ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ في الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالغَرِيقُ شَهِيدٌ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ بَيانِ جَماعةٍ منَ الشُّهَداءِ...»، يَعني غيرَ المَقْتولينَ في سَبيلِ اللهِ، والمَقتولُ في سَبيلِ اللهِ هو أَعْلى أَنْواعِ الشُّهَداءِ، أَمَّا الشُّهَداءُ الآخَرونَ فهُم كما أشارَ إليهمُ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هُم شُهداءُ في الآخِرةِ، في أَحْكامِ الآخِرةِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة سبع سوى القتل، رقم (٢٨٢٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، رقم (١٩١٤).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٩/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، رقم (١٩١٥).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٩/ ٤١٢).

لا في أحْكامِ الدُّنْيا، ويَتبَيَّنُ ذلك بأنَّ الشهيدَ المَقتولَ في سَبيلِ اللهِ شَهيدٌ في الدُّنْيا والآخِرةِ، فهو شَهيدٌ في الدُّنْيا إذا قُتِلَ وماتَ، فإنَّه لا يُغَسَّلُ، ولا يُكَفَّنُ، ولا يُصَلَّى عليه، ويُدفَـن، ولا يَأْتيهِ المَلَكـانُ اللَّذانِ يَسألانِه عن رَبِّه، وعن دِينِه، وعن نَبيِّه، فلا يُغَسَّلُ من أجْلِ أنْ يَبْقى أثَرُ الدمِ عليه، أثَرُ الدمِ الذي قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ من أجْلِه، فيَأْتي يومَ القيامةِ وجُرحُه يَثْعَبُ دَمًا، اللوْنُ لَونُ الدمِ، والريحُ ريحُ المِسكِ، لذلك قال العُلَماءُ: يَحرُمُ أنْ يُغَسَّلَ، ويَحرُمُ أنْ يُغْسَلَ دَمُه، بل يَبْقى على ما هو عليه.

ولا يُكَفَّنُ، وإنَّما يُكَفَّنُ في ثيابِه التي قُتِلَ فيها، حتى يَأْتيَ يومَ القيامةِ بهذه الثيابِ، ولا يُصَلَّى عليه؛ لأنَّ الصلاةَ شَفاعةٌ، كما قال النبيُّ ﷺ في الصلاةِ على الميِّتِ: «**ما من رَجلٍ مُسلِمٍ يَموتُ فيَقومُ على جِنازَتِه أرْبَعونَ رَجلًا لا يُشرِكونَ باللهِ شَيئًا إلَّا شَفَّعَهمُ اللهُ فيه**»(١)، والمَقتولُ في سَبيلِ اللهِ لا يَحْتاجُ لأنْ يَشفَعَ له أحَدٌ؛ لأنَّ الشفاعةَ له كَونُه يُعَرِّضُ رَقَبَتَه لأعْداءِ اللهِ إعْلاءً لكَلمةِ اللهِ.

ولهذا علَّلَ النبيُّ ﷺ عَدَمَ فِتْنَتِه في قَبرِه، فقال: «**كَفى ببارِقةِ السُّيوفِ على رَأْسِه فِتْنةً**»(٢) أيْ كَفى بها اخْتِبارًا، وصدَقَ رسولُ اللهِ ﷺ.

فيُكَفَّنُ في ثيابِه لِيأْتيَ بها يومَ القيامةِ، ولا يُصَلَّى عليه، ونَظيرُ هذا في بعضِ الوُجوهِ الرَّجلُ إذا ماتَ مُحرِمًا، فإنَّه يُغَسَّلُ بماءٍ وسِدرٍ، ولا يُحَنَّطُ، ولا يَقرَبُ طيبًا، ولا يُغَطَّى رَأسُه، ولا يُكَفَّنُ في ثيابٍ غَيرِ ثيابِ الإحْرامِ؛ التي كانت عليه؛ لأنَّه يُبعَثُ يومَ القيامةِ مُلَبِّيًا، يُبعَثُ يَقولُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعوا فيه، رقم (٩٤٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب الشهيد، رقم (٢٠٥٣)، من حديث راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

أمَّا في الآخِرةِ، فقد قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

أمَّا بَقيَّةُ الشُّهَداءِ المَذْكورينَ في الحَديثِ فهُم شُهداءُ في الآخِرةِ، لا في الدُّنْيا، ومعَ ذلك فإنَّهم لا يُساوونَ الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ، فهُمُ الشُّهداءُ في الدُّنْيا والآخِرةِ، ولكنَّهم شُهداءُ، ولكلٍّ دَرَجاتٌ ممَّا عَمِلوا، المَطْعونُ، والمَبْطونُ، والغَريقُ، وصاحبُ الهَدمِ، وهؤلاء أربعةٌ:

الأوَّلُ: المَطْعونُ: يَعني الذي ماتَ بالطاعونِ، والطاعونُ وَباءٌ فتَّاكٌ مُعْدٍ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- إذا وقَعَ في أرْضٍ فإنَّه يُهلِكُ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ في الطاعونِ: «**إذا سَمِعْتم به في أرضٍ فلا تَقْدَموا عليها، وإذا وقَعَ وأنتم فيها فلا تَخْرُجوا فِرارًا منه**»[1]؛ يَعني: كيف تَفِرُّ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وانظُرْ إلى قومٍ أُلوفٍ خَرَجوا من ديارِهم حَذَرَ المَوتِ، فقال اللهُ لهم: موتوا، فماتوا، هَرَبوا منَ المَوتِ، لكنَّ اللهَ تَعالى أرادَ أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّه لا مَفَرَّ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قال اللهُ لهم: موتوا فماتوا، ثم أحْياهم، ليَتبيَّنَ أنَّه لا مَفَرَّ من قَدَرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، لكنْ يُشرَعُ لنا أنْ نَفعَلَ الأسبابَ التي أُمِرْنا بها، أمَّا التي نُهينا عنها فلا، ولهذا قال: «إذا وقَعَ وأنتم في أرضٍ فلا تَخْرُجوا منها فِرارًا منه» هذا المَطْعونُ إذا ماتَ بالطاعونِ كان شَهيدًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم (٥٧٢٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم (٢٢١٨)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثاني: المَبْطونُ: والمَبْطونُ هو الذي أصابَه داءُ البَطنِ، ويُشبِهُ -واللهُ أعلَمُ- ما يُسَمُّونَه الآنَ بالغاشيةِ، غاشيةٍ تُصيبُ الإنسانَ في بَطنِه ثم يَموتُ، هذه إذا ماتَ بها الإنسانُ فإنَّه يَكونُ شَهيدًا.

الثالثُ: الغَريقُ: الذي يَغرَقُ، إمَّا في أمْطارٍ عَظيمةٍ، أو يَقَعُ في النهْرِ، أو في البَحرِ، أو ما أشبَهَ ذلك، فإنَّه يَكونُ منَ الشُّهَداءِ في الآخِرةِ، ولهذا فإنَّ الإنسانَ مَأْمورٌ أنْ يَتعَلَّمَ السباحةَ حتى إذا حصَلَ مِثلُ هذه الأشياءِ أمْكَنَه أنْ يَتَوقَّى منه.

وأمَّا الرابعُ: من ماتَ بهَدمٍ: يَعني رَجلًا انْهَدَمَ عليه البيتُ، أوِ الجِدارُ، أو ما أشبَهَ ذلك، فإنَّه يَكونُ شَهيدًا؛ لأنَّ هؤلاء كلَّهم ماتوا بحَوادثَ مُميتةٍ بَريئةٍ، وهل يُقاسُ عليهم مِثلُهم، كالذينَ يَموتونَ في حادثٍ أو في صَدمٍ أو ما أشبَهَ ذلك؟ اللهُ أعلَمُ، قد يُقاسونَ على هذا، ويُقالُ: لا فَرقَ بينَ أنْ يَنهَدِمَ الجِدارُ، أو أنْ تَنقَلِبَ السيَّارةُ؛ لأنَّ كلَّ حادثٍ ماتَ به الإنسانُ، فيُحكَمُ على مَن ماتَ بهذا الحادثِ أنَّه شَهيدٌ، لكنَّنا لا نَجزِمُ به؛ لأنَّ مَسائلَ الجَزاءِ عُقوبةً أو مَثوبةً ليس فيها قياسٌ.

فالحاصِلُ: أنَّ هُناك شُهداءَ غيرَ المَقْتولينَ في سَبيلِ اللهِ، ومن ذلك أيضًا من ماتَ في سَبيلِ اللهِ، وإنْ لم يُقتَلْ فهو شَهيدٌ، لكنَّه شَهيدٌ في الآخِرةِ، كرَجلٍ خرَجَ معَ المُجاهِدينَ، ومات في الطريقِ مَوْتةً طَبيعيَّةً، أمَّا في الدُّنْيا، فإنَّه يُغَسَّلُ، ويُكَفَّنُ، ويُصَلَّى عليه، ويُدْفَنُ معَ الناسِ، كالشُّهداءِ الذين ذكَرَهمُ الرسولُ ﷺ وهم مَن ماتَ بهَدمٍ، أو غَرَقٍ، أو طاعونٍ، أو بَطنٍ. واللهُ الموفِّقُ.

١٣٥٥- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٣٥٦- وَعَنْ أَبِي الأَعْوَرِ سَعِيدِ بنِ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ، أَحَدِ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لَهُمْ بِالجَنَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» رَوَاهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ(٢)، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٣٥٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ» رَواه مُسلِمٌ(٣).

الشَّرح

هذه بَقيَّةُ الأحاديثِ في بَيانِ ثَوابِ الشُّهَداءِ في الآخِرةِ، منها ما في حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ». يَعني إذا أتاكَ أحَدٌ يُريدُ أخْذَ مالِكَ فدافَعْتَ عنه حتى قُتِلْتَ فأنتَ شَهيدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب من قاتل دون ماله، رقم (٢٤٨٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره، رقم (١٤١).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٩٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في قتال اللصوص، رقم (٤٧٧٢)، والترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٢١)، والنسائي: كتاب تحريم الدم، باب من قاتل دون دينه، رقم (٤٠٩٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره، رقم (١٤٠).

وفي الحَديثِ الأخيرِ: أنَّ رَجلًا سأَلَ النبيَّ ﷺ قال: يا رسولَ اللهِ، أرَأيْتَ إنْ جَاءَ رَجلٌ يُرِيدُ أخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**» قَالَ: أرَأَيْتَ إنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**» قَالَ: أَرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**».

فدلَّ ذلك على أنَّ الإنسانَ يُدافِعُ عن مالِه إذا جاءَ أحَدٌ يُريدُ أخْذَ المالِ، فإنَّكَ تُدافِعُ، فإذا لم يَندَفِعْ إلَّا بالقَتلِ فاقْتُلْه، وإنِ انْدَفَعَ بدونِ ذلك فلا تَقتُلْه، يَعني لو أمكَنَ أنْ تكونَ أنتَ أقْوى منه، وتَشُدَّ يَدَيْه ورِجْليْه، وتَأسِرَه فلا تَقتُلْه؛ لأنَّه لا حاجةَ لقَتْلِه، وإذا كان لا يُمكِنُ فقاتَلَكَ فقاتِلْه، ولو قَتَلْتَه، وإنْ خِفْتَ أنْ يُبادِرَكَ بالقَتلِ فاقْتُلْه، ولا حاجةَ للمُقاتَلةِ، يَعني لو جاءَ إليكَ يَسْعى يَشتَدُّ ومعَه سِلاحٌ قد شَهَرَه فاقْتُلْه؛ لأنَّكَ إنْ لم تُبادِرْه قتَلَكَ، فإذا قتَلْتَه فإنَّه في النارِ، وإنْ قتَلَكَ هو فأنتَ شَهيدٌ.

وكذلك في حَديثِ سَعيدِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**». حتى لو أنَّ أحَدًا أرادَ أنْ يَفتِنَكَ في دِينِكَ، أو يَهتِكَ عِرضَكَ، أو ما أشبَهَ ذلك، فقاتَلْتَه فقتَلَكَ فأنتَ شَهيدٌ، وإنْ قتَلْتَه أنتَ فهو في النارِ.

ولهذا قال العُلَماءُ: إنَّ دَفعَ الصائلِ ولو أدَّى إلى قَتلِه جائزٌ؛ لأنَّه إذا صالَ عليكَ فلا حُرْمةَ له، لكنْ إذا انْدَفَعَ بما دونَ القَتلِ فلا تَقتُلْه.

نَسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم منَ الفِتَنِ ما ظهَرَ منها وما بطَنَ.

٢٣٦- بابُ فَضلِ العِتْقِ

قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد:١١-١٣].

١٣٥٨- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ فِي النَّارِ، حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٣٥٩- وَعَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسولَ اللهِ، أيُّ الأعمَالِ أفْضَلُ؟ قَالَ: «الإيمَانُ بِاللهِ، وَالجِهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ» قَالَ: قُلْتُ: أيُّ الرِّقَابِ أفْضَلُ؟ قَالَ: «أنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأكْثَرُهَا ثَمَنًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ فَضلِ العِتقِ».

العِتقُ هو: تَحريرُ الرِّقابِ، يَعني أنْ يَكونَ هُناك إنْسانٌ مَملوكٌ فيَأْتي شَخصٌ فيُعتِقُه، ويُحَرِّرُه ابْتِغاءَ وَجهِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذا من أفضَلِ الأعْمالِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، رقم (٦٧١٥)، ومسلم: كتاب العتق، باب فضل العتق، رقم (١٥٠٩).
وانظر: التعليق على صحيح البخاري لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (١٤/ ٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب أي الرقاب أفضل، رقم (٢٥١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الإيمان، رقم (٨٤).

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١١-١٧].

قوله تَعالى: ﴿اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾: يَعني صَعِدَها على مَشقَّةٍ، والعَقَبةُ هي الطريقُ المُرتَفِعُ، ومَعلومٌ أنَّ اقْتِحامَ العَقَباتِ صَعبٌ وشاقٌّ، وكذلك إعْتاقُ الرِّقابِ صَعبٌ على النُّفوسِ؛ لأنَّ فيه إخْراجُ المَمْلوكِ عن مِلْكِه، وهو شاقٌّ، وقَولُه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ يَشمَلُ العِتقَ، ويَشمَلُ فَكَّ الأسيرِ منَ العَدُوِّ، فإنَّ هذا من فَكِّ الرِّقابِ، ففي الآيةِ دَليلٌ على فَضيلةِ العِتْقِ، ثم ذكَرَ المُؤلِّفُ ما ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ مَن أعتَقَ عَبدًا، أعتَقَ اللهُ بكلِّ عُضوٍ منه -أيْ منَ العَتيقِ- عُضوًا منه -أيْ منَ المُعتِقِ- منَ النارِ، يَعني أنَّكَ إذا أعتَقْتَ عَبدًا أعْتَقَ اللهُ كلَّ بَدَنِكَ منَ النارِ؛ لأنَّكَ أعتَقْتَ هذا العَبدَ منَ الرِّقِّ، فيُعتِقُكَ اللهُ تَعالى منَ النارِ بفَضلِه وإحْسانِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

٢٣٧- بابُ فَضلِ الإحْسانِ إلى المَمْلوكِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣٦].

١٣٦٠- وَعَنِ المَعْرُورِ بنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَلَيهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ قَدْ سَابَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَعَيَّرَهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٣٦١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ، أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ؛ فَإِنَّهُ وَلِيَ عِلَاجَهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[2].

«الأُكْلَةُ» بضَمِّ الهَمْزَةِ: وَهِيَ اللُّقْمَةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، رقم (٣٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم (١٦٦١).
وانظر: التعليق على صحيح البخاري لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب إذا أتاه خادمه بطعامه، رقم (٢٥٥٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم (١٦٦٣).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٨/ ٤٣٣).

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ فَضلِ الإحْسانِ إلى المَملوكِ»، وصَدَّرَ هذا بقولِه تَعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلَى آخِرِ الآيةِ، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: يَعني أَطيعوا اللهَ، فعِبادةُ اللهِ هي طاعَتُه، بامْتِثالِ أمْرِه، واجْتِنابِ نَهْيِه، وهذا هو الذي خُلِقَ العِبادُ من أجْلِه، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. ما خلَقَنا اللهُ لِنأكُلَ، ونَشرَبَ، ونَلبَسَ، ونَسكُنَ، ونَتمَتَّعَ، كَلَّا وإنَّما هذه كلُّها وسائلُ، أمَّا الغايةُ فهي العِبادةُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فمَن لم يَعبُدِ اللهَ، أو عبَدَ معَ اللهِ غَيرَه، أو لم يَعبُدْ أحَدًا، فإنَّه أضاعَ دِينَه ودُنْياه؛ لأنَّه أضاعَ ما خُلِقَ من أجْلِه.

وقولُه: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ عامٌّ، و﴿شَيْـًٔا﴾ يَعُمُّ كلَّ مُشرِكٍ به؛ لأنَّه نكِرةٌ في سياقِ النهْيِ فيَكونُ عامًّا، لا تُشرِكْ بعِبادةِ اللهِ أحَدًا لا الرسولَ، ولا جِبريلَ، ولا وَليًّا من أوْلياءِ اللهِ، ولا صِدِّيقًا، ولا شَهيدًا، لا تَعبُدْ إلَّا اللهَ وَحدَه جَلَّ وَعَلَا، لا تُشرِكْ به شَيئًا، فمَن أشرَكَ باللهِ شَيئًا، فإنْ كان شِرْكًا أكبَرَ فقد قالَ اللهُ في حَقِّه: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

مِثالُه: أنْ يَذهَبَ إلى قَبرٍ، ثم يَسجُدَ له أو يَدْعوَه يقولُ: يا سيِّدي أغِثْني، يا سيِّدي ارزُقْني ولَدًا، ارزُقْني زَوجةً، ارزُقْني مالًا، فهذا شِركٌ أكبَرُ مُخرِجٌ منَ المِلَّةِ، حتى لو صامَ الإنسانُ، وتَصدَّقَ، وصَلَّى، وقرَأَ القُرآنَ، وحجَّ البيتَ، وهو باقٍ على هذا الشِّرْكِ، فإنَّه لا يَدخُلُ الجَنَّةَ، والجَنَّةُ عليه حَرامٌ، ومَأْواهُ النارُ وما للظالِمينَ من أنصارٍ؛ لأنَّه أشرَكَ باللهِ.

قولُه تَعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ الآيةَ، ولم يَذكُرِ اللهُ حَقَّ النبيِّ ﷺ معَ أنَّ حقَّ الرسولِ أعظَمُ من حقِّ الوالِدَيْنِ، فيَجِبُ على الإنسانِ أنْ يُحِبَّ الرسولَ ﷺ أشَدَّ من حُبِّه لنفْسِه، ومن حُبِّه لوَلَدِه، ومن حُبِّه لوالِدِه، وحقُّ الرسولِ فوقَ كلِّ حُقوقِ الخَلقِ، قال العُلَماءُ: لأنَّ حقَّ الرسولِ من حَقِّ اللهِ؛ لأنَّ عِبادةَ اللهِ لا يُمكِنُ أنْ تُقبَلَ إلَّا باتِّباعِ رَسولِ اللهِ ﷺ فحقُّ الرسولِ داخِلٌ في ضِمنِ حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فمَن لم يُجَرِّدِ العِبادةَ للهِ إخْلاصًا، وللرسولِ اتِّباعًا فلا عِبادةَ له، ولهذا لم يَذكُرْ حقَّ الرسولِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنَّه داخِلٌ في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ يَشمَلُ الأمَّ والأبَ ﴿إِحۡسَٰنٗا﴾ يَعني أحْسِنوا للوالِدَيْنِ إحْسانًا، إحْسانًا بالمالِ، فتُعْطيهم من مالِكَ وتَتوَدَّدُ إليهما، ومنَ الإحْسانِ أنْ تُطيعَهما وتَخدُمَهما؛ بالمالِ وبالبَدَنِ وبالجاهِ، فالإحْسانُ هُنا يَشمَلُ كلَّ ما يُعَدُّ إحْسانًا، ويَأْتي -إنْ شاءَ اللهُ- بَقيَّةُ الكَلامِ على الآيةِ وما بعدَها منَ الأحاديثِ.

٢٣٨- بابُ فَضلِ المَملوكِ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ وحَقَّ مَواليهِ

١٣٦٢- عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللهِ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٣٦٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لِلْعَبْدِ المَمْلُوكِ المُصْلِحِ أَجْرَانِ»، وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ لَوْلَا الجِهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ، وَالحَجُّ، وَبِرُّ أُمِّي، لأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ. مُتَفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

١٣٦٤- عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «المَمْلُوكُ الَّذِي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ، وَالنَّصِيحَةِ، وَالطَّاعَةِ، لَهُ أَجْرَانِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣).

١٣٦٥- وَعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ، وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ، وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا؛ فَلَهُ أَجْرَانِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، رقم (٢٥٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب ثواب العبد وأجره إذا نصح لسيده، رقم (١٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، رقم (٢٥٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب ثواب العبد وأجره إذا نصح لسيده، رقم (١٦٦٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، رقم (٢٥٥١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله، رقم (٩٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٤).

الشَّرح

هذا البابُ عَقَدَه المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (بابِ فَضلِ المَمْلوكِ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ وحَقَّ مَواليهِ)، ليُبيِّنَ ما جاءَتْ به الأحاديثُ أنَّ المَملوكَ إذا قامَ بحقِّ اللهِ، وحقِّ سيِّدِه كان له الأجرُ مرَّتَيْنِ، الأجْرُ الأوَّلُ: لقيامِه بحقِّ اللهِ، والثاني: لقيامِه بحقِّ سيِّدِه؛ لأنَّ للهِ عليه حقًّا، كالصلَواتِ والصيامِ وغيرِهما منَ العِباداتِ التي ليستْ مَبنيَّةً على أمرٍ ماليٍّ، وللسيِّدِ عليه حقٌّ وهو القيامُ بخِدْمَتِه، وما إلى ذلك، فإذا قامَ بالحقَّيْنِ صارَ له أجْرانِ.

وكذلك في الحَديثِ الأخيرِ ذكَرَ النبيُّ ﷺ أنَّ ثَلاثةً لهمُ الأجْرُ مرَّتَيْنِ: رَجلٌ من أهلِ الكِتابِ، اليَهودِ والنَّصارى: يَعني كان يَهوديًّا أو نَصْرانيًّا، ثم آمَنَ بالرسولِ ﷺ فهذا له الأجرُ مرَّتَيْنِ، الأجرُ الأوَّلُ: إيمانُه برسولِه، والثاني: إيمانُه بمُحمَّدٍ ﷺ، ولْيَعلَمْ أنَّ اليَهودَ والنَّصارى إذا بلَغَتْهم رسالةُ مُحمَّدٍ ﷺ فلم يُؤْمِنوا به حَبِطَتْ أعْمالُهم، حتى أعْمالُهمُ التي يَتَديَّنونَ بها في مِلَّتِهم، حابطةٌ غَيرُ مَقبولةٍ، لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥].

أمَّا الثاني: فهو العَبدُ المَمْلوكُ الذي قامَ بحقِّ سيِّدِه وحقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا الثالثُ: فرَجلٌ عندَه أَمَةٌ أدَّبَها فأحسَنَ تَأْديبَها، وعلَّمَها فأحسَنَ تَعليمَها، ثم أعْتَقَها، وتَزَوَّجَها، فله الأجرُ مرَّتَيْنِ، المرَّةَ الأُولى لإحْسانِه إليها وهي رَقيقةٌ مَملوكةٌ، والأجرُ الثاني لإحْسانِه إليها بعدَ أنْ أعتَقَها لم يُضَيِّعْها، بل تَزَوَّجَها وكَفَّها، وأحصَنَ فَرْجَها. واللهُ الموفِّقُ.

٢٣٩- بابُ فَضلِ العِبادةِ في الهَرْجِ وَهُوَ: الاخْتِلاطُ والفِتَنُ ونَحوُها

١٣٦٦- عن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «العِبَادَةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إليَّ» رَواهُ مُسلِمٌ[1].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم (٢٩٤٨).

٢٤٠- بابُ فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ والأَخْذِ والْعَطاءِ وحُسْنِ القَضاءِ والتَّقاضي وإرْجاحِ المِكْيالِ والمِيزانِ والنَّهيِ عنِ التَّطْفيفِ وفَضْلِ إنْظارِ الموسِرِ المُعْسِرَ والوَضْعِ عَنْهُ

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥]، وقال تَعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [هود:٨٥]، وقال تَعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:١-٦].

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ...».

البَيْعُ والشِّراءُ أمْرانِ ضَروريَّانِ لا تَقومُ حَياةُ بَني آدَمَ إلَّا بهما غالِبًا، وذلك لأنَّ الإنْسانَ قد يَحْتاجُ إلى شَيءٍ عندَ غَيرِه، فكيف يَتوَصَّلُ إليه؟ إنِ اسْتَجْداهُ وقال: هَبْه لي، أذَلَّ نَفْسَه، وإنِ اسْتَعارَه بَقيَ في قَلَقٍ، وإنْ أخَذَه غَصْبًا ظَلَمَه، فكان من حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ شَرَعَ البَيعَ والشِّراءَ، لأنَّني قد أَحْتاجُ دَراهمَ فأَبيعُ ما عِندي، وأنتَ مُحْتاجٌ هذا الشيءَ المُعيَّنَ عِنْدي فتَشْتَريهِ بالدراهِمِ، فكانَ البَيعُ أمْرًا ضَروريًّا لحاجةِ بَني آدَمَ.

ولكنْ منَ الناسِ مَن يَبيعُ بالعَدْلِ، ومنَ الناسِ مَن يَبيعُ بالظُّلمِ، ومنَ الناسِ مَن يَبيعُ بالإحْسانِ، فالناسُ ثَلاثةُ أقْسامٍ: قِسمٍ يَبيعُ بالعَدلِ، لا يَظلِمُ ولا يُظلَمُ، كما قال تَعالى في الذين يَتَعامَلونَ بالرِّبا: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]. وقِسمٍ يَبيعُ بالجَوْرِ، والظُّلمِ، كالغَشَّاشِ، والكذَّابِ، وما أشبَهَ ذلك، وقِسمٍ يَبيعُ بالفَضْلِ والإحْسانِ، فيَكونُ سَمْحًا في البَيعِ وفي الشِّراءِ، إنْ باعَ لم يَطلُبْ حَقَّه وافيًا، بل يُنزِلُ منَ الثمَنِ، ويُمْهِلُ في القَضاءِ، وإنِ اشْتَرى لا يَهُمُّه أنْ يَزيدَ عليه الثمَنُ، ويُبادِرُ بالوَفاءِ فيَكونُ مُحْسنًا.

وقدِ استَدَلَّ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ على فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ بآياتٍ، منها قولُه تَعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥] كَلمةُ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ نَكِرةٌ في سياقِ الشَّرْطِ فتَعُمُّ جَميعَ الخَيْراتِ، من أيِّ جِهةٍ، وهي أيضًا مُؤَكَّدٌ عُمومُها بـ(مِن) ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ يَعني أيَّ خَيرٍ تَفعَلونَه فإنَّ اللهَ به عَليمٌ، يَعني لا يَخْفى عليه ولا يَفوتُه عَزَّوَجَلَّ، وسوف يُجازيكم على هذا أفضَلَ ممَّا عَمِلْتُم؛ لأنَّ اللهَ يُجازي بالحَسَنةِ عَشْرَ أمْثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ إلى أضْعافٍ كَثيرةٍ.

والمُرادُ بالآيةِ الكَريمةِ الحَثُّ على فِعلِ الخَيرِ، وأنْ يَعلَمَ الفاعِلُ أنَّه لنْ يَضيعَ عليه شَيءٌ من فِعلِه، فإنَّ اللهَ به عَليمٌ وسيُجازيه عليه عَزَّوَجَلَّ أفضَلَ الجَزاءِ، ومنَ الخَيرِ السَّماحةُ في البَيعِ والشِّراءِ، وقد دَعا النبيُّ ﷺ للمُتَسامِحينَ في البَيعِ والشِّراءِ، فقال: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إذَا بَاعَ، سَمْحًا إذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إذَا اقْتَضَى**»[1]. فالإنْسانُ كلَّما كان أسمَحَ في بَيعِه وشِرائِه، وتَأْجيرِه، واسْتِئْجارِه، ورَهْنِه، وارْتِهانِه

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهول والسماحة في الشراء والبيع، رقم (٢٠٧٦)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وغَيرِ ذلك، فإنَّه أفضَلُ، وقالَ اللهُ تَعالى عن شُعَيبٍ عَلَيهِ السَّلَامُ أنَّه قال لقَومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥].

أَوْفوا المِكْيالَ: أيْ ما تَبيعونَه كَيْلًا.

والمِيزانَ: ما تَبيعونَه وَزْنًا، أَوْفوه ولا تَنْقُصوا منه شَيئًا.

وهذا دَليلٌ على أنَّ الوَفاءَ في العُقودِ ممَّا جاءَ في الشَّرائعِ السَّماويَّةِ السابِقةِ واللَّاحِقةِ، وقال تَعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣].

﴿وَيْلٌ﴾: كَلمةُ وَعيدٍ، يَتوَعَّدُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المُطَفِّفينَ الذين هذه صِفَتُهم إذا اكْتالوا على الناسِ يَسْتَوْفونَ، يَعني إذا كان الحَقُّ لهم، واكْتالوا فإنَّهم يَسْتَوْفونَ حَقَّهم كامِلًا، وإذا كالوهُم أو وَزَنوهُم يُخْسِرونَ، يَعني إذا كان الحَقُّ عليهم، وكالوا لهُم أو وَزَنوا لهُم، يُخْسِرونَ، أيْ يَبْخَسونَ الكَيْلَ والمِيزانَ.

فيَظلِمونَ منَ الوَجهَيْنِ، أو يَطلُبونَ العَدلَ فيما يَتَعامَلونَ به، ويَبْخَسونَ فيما يُعامِلونَ الناسَ به، وهذا هو المُطَفِّفُ، وهذه الآيةُ وإنْ كانت قد وَرَدَتْ في المِكْيالِ والمِيزانِ إلَّا أنَّ العامِلَ حتى الموظَّفَ إذا كان يُريدُ أنْ يُعْطى راتِبَه كامِلًا، لكنَّه يَتأخَّرُ في الحُضورِ، أو يَتقَدَّمُ في الخُروجِ، فإنَّه منَ المُطَفِّفينَ الذين تَوَعَّدَهمُ اللهُ بالوَيلِ؛ لأنَّه لا فَرقَ بينَ إنْسانٍ يَكيلُ أو يَزِنُ للناسِ، وبينَ إنْسانٍ مُوظَّفٍ عليه أنْ يَحْضُرَ في الساعةِ الفُلانيَّةِ، ولا يَخْرُجَ إلَّا في الساعةِ الفُلانيَّةِ، ثم يَتأخَّرُ في الحُضورِ، ويَتقَدَّمُ في الخُروجِ، هذا مُطَفِّفٌ، وهذا المُطَفِّفُ في الوَظيفةِ لو نقَصَ من راتِبِه ريالٌ واحدٌ من عَشَرةِ آلافٍ،

لقالَ: لماذا تَنقُصُ المُكافأةُ؟ فهذا مُطَفِّفٌ يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، ثم قال تَعالى مُنكِرًا عليهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، يَعني: هل هؤلاء نَسُوا يومَ الحِسابِ، نَسُوا يومَ القيامةِ الذي ليس هُناك أقرَبُ منه؟.

فالإنْسانُ في هذه الدُّنْيا ليس معَه ضَمانٌ أنْ يَعيشَ ولو لَحظةً واحِدةً، يَموتُ الإنسانُ وهو يَتغَدَّى أو يَتعَشَّى، يَموتُ وهو نائمٌ، يَموتُ وهو على مَكتَبِهِ، يَموتُ وهو ذاهِبٌ لحاجَتِه، أو راجِعٌ منها، ثم يَأْتي اليومُ العَظيمُ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، استَعظَمَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وبيَّنَ أنَّه عَظيمٌ، وقد وصَفَ اللهُ أهْوالَ ومَشاهِدَ هذا اليومِ في آياتٍ كَثيرةٍ، وهؤلاء المُطَفِّفونَ سوف يَتعَرَّضونَ لعُقوبةِ اللهِ في ذلك اليوم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَقومُ الناسُ كلُّهم لربِّ العالَمِينَ، مَن في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها يُبْعَثونَ على صَعيدٍ واحِدٍ، يُسمِعُهمُ الداعي ويَنفُذُهمُ البَصَرُ؛ لأنَّ الأرضَ مَبْسوطةٌ غَيرُ كُرَويَّةٍ، يَغيبُ بَعضُ الناسِ فيها عن بعضٍ، بل هي سَطحٌ واحدٌ إذا تَكلَّمَ أحَدٌ من أوَّلِهم سَمِعَه آخِرُهم، ويَنفُذُهمُ البَصَرُ يَراهمُ الرائي بخِلافِ الحالِ في الدُّنْيا، الأرضُ مُنعَطِفةٌ كُرَويَّةٌ، لكنَّ الأرضَ في الآخِرةِ سَطحٌ واحِدٌ كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٣-٤] تُمَدُّ كما يُمَدُّ الجِلدُ الأَديمُ، هذا اليومُ العَظيمُ يَقومُ الناسُ فيه للهِ عَزَّوَجَلَّ للحِسابِ والمُعاقَبةِ، ومِقْدارُ هذا اليومِ خَمْسونَ ألفَ سَنةٍ، والشمسُ من فَوْقِهم بقَدْرِ مِيلٍ، ولا شجَرَ يَستَظِلُّونَ به، ولا بِناءَ، ولا شَيءَ إلَّا مَن يُظِلُّه اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه، أسأَلُ اللهَ أنْ يَجعَلَني وإيَّاكم منهم، فهذا اليومُ العَظيمُ سيَجِدُ هؤلاء المُطَفِّفونَ عُقوبَتَهم، ليس هُناك ولَدٌ يَنفَعُ، ولا أبٌ، ولا أُمٌّ، ولا زَوجةٌ، ولا أحَدٌ، لكلِّ امرئٍ منهم يومَئذٍ

شأنٌ يُغْنيهِ، فلْيَحْذَرْ هؤلاء المُطَفِّفونَ، ولْيَتَّقوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ ويُؤَدُّوا الحَقَّ كامِلًا، وإنْ زادوا فَضْلةً فهو أفضَلُ، ولهم أنْ يَأْخُذوا حَقَّهم كامِلًا، وإن تَسامَحوا فهو أفضَلُ. واللهُ الموفِّقُ.

١٣٦٧- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا» ثُمَّ قَالَ: «أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ» قالوا: يَا رسولَ اللهِ، لا نَجِدُ إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «أَعْطُوهُ، فإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٣٦٨- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى» رَواهُ البُخاريُّ[2].

١٣٦٩- وَعَنْ أَبي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ» رَواهُ مُسلِمٌ[3].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ ذكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في (بابِ فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ..)، وسبَقَ الكَلامُ على الآياتِ التي صدَّرَ بها المُؤلِّفُ هذا البابَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون، باب استقراض الإبل، رقم (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئًا فقضى خيرًا منه، رقم (١٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب السهول والسماحة في الشراء والبيع، رقم (٢٠٧٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦٣).

أمَّا الأحاديثُ، فمنـها حَديـثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أعْرابيًّا جاءَ يَتَقاضى الرسولَ ﷺ حقَّه، يَتَقاضاهُ يَعني يَطلُبُ أنْ يَقْضيَه النبيُّ ﷺ حَقَّه، وذلك أنَّ الرسولَ ﷺ استَقْرَضَ بَكْرًا -يَعني ناقةً صَغيرةً- فجاءَ صاحِبُها يَطلُبُها، يَقولُ: أَعْطِني بَكْري، والأعرابُ عندَهم جَفاءٌ، فأغْلَظَ للرسولِ ﷺ القولَ، فهَمَّ به الصحابةُ، يَعني هَمُّوا به أنْ يَضْرِبوه، أو يُسْكِتوه، أو ما أشبَهَ ذلك، فقال ﷺ: «**دَعُوهُ، فَإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا**» صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، ما ظنُّكمُ -اليومَ- لو تكلَّمَ مِثلُ هذا الأعْرابيِّ على جُنْديٍّ منَ الجُنودِ -مَثلًا- ماذا يَفعَلُ به؟! يَبطِشُ به، أو على أميرٍ منَ الأُمَراءِ، أو على قاضٍ منَ القُضاةِ، أو على وَزيرٍ منَ الوُزَراءِ، لو جاءَ يَطلُبُ حَقَّه، ولو بِسُهولةٍ رُبَّما يَفتِكُ به، إلَّا مَن شاءَ اللهُ، أمَّا هذا فيُغلِظُ القولَ لمُحمَّدٍ رسولِ اللهِ ﷺ ويقولُ: «**دَعُوهُ، فَإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا**».

ومن هُنا نَعرِفُ أنَّ الإنْسانَ إذا كان عليه حَقٌّ لشَخصٍ، وجاءَ الشخصُ يَطلُبُه فلِصاحِبِ الحقِّ أنْ يُغلِظَ له القَولُ؛ لأنَّه صاحِبُ حقٍّ، والرسـولُ ﷺ سيُـوَفِّيه، ولا شكَّ، لكنْ قد لا يَكونُ عندَه تلك الساعةَ شيءٌ، ولهذا أمَرَهم بقَضاءِ بَكْرِه، فقالوا: إنَّا لا نَجِدُ إلَّا سِنًّا خَيرًا من سِنِّه، وفي رِوايةٍ قالوا: لا نَجِدُ إلَّا رَباعِيًّا خِيارًا[1]، والرَّباعيُّ أحسَنُ بكَثيرٍ منَ البَكْرِ، البَكْرُ صَغيرٌ، والرَّباعيَّةُ كَبيرةٌ تَتحَمَّلُ الحِملَ والأثْقالَ وغَيرَ ذلك، فأمَرَهمُ النبيُّ ﷺ أنْ يُعْطوه إيَّاها، وقال: «**أَعْطُوهُ، فإنَّ خَيْرَكُمْ أحْسَنُكُمْ قَضَاءً**»، أحسَنُكم قَضاءً في صِفةِ القَضاءِ، وفي مُعامَلةِ المُسْتَقْضي الذي يَطلُبُ حَقَّه.

فيَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَقْتَديَ برَسولِ اللهِ ﷺ في حُسنِ القَضاءِ، ومُعامَلةِ المُسْتَقْضي

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب من استسلف شيئًا فقضى خيرًا منه، رقم (١٦٠٠)، من حديث أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الذي يَطلُبُ حَقَّه، أيْ لا يُعامِلُه بالجَفاءِ والسبِّ والشتْمِ، بل باللِّينِ لأنَّ له حقًّا ومَقالةً، ولا في المَقْضيِّ، يَعني يَقْضي أحسَنَ ممَّا عليه، سَواءً كان أحسَنَ ممَّا عليه كَيفيَّةً، أو أكثَرَ ممَّا يَطلُبُ، فمَثلًا: إذا استَقْرَضْتَ من شَخصٍ مِئةَ ريالٍ، وعندَ الوَفاءِ أعطَيْتَه مِئةً وعَشَرةً بدونِ شَرطٍ، فإنَّ هذا لا بَأسَ به، وهو من خَيرِ القَضاءِ، وكذلك لوِ استَقْرَضْتَ منه صاعًا منَ الطعامِ وَسَطًا، ليس بالطَّيِّبِ ولا بالرَّديءِ، فأعطَيْتَه صاعًا طيِّبًا، فهذا أيضًا من حُسنِ القَضاءِ، وخَيرُ الناسِ أحسَنُهم قَضاءً.

وفي حَديثِ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إذَا بَاعَ، سَمْحًا إذَا اشْتَرَى، سَمْحًا إذَا اقْتَضَى» وكذلك سَمحًا إذا اقْتَضَى، فقَولُه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَحِمَ اللهُ امْرأً»، أو قال: «رَجلًا» هذا خَبرٌ بمَعنى الدُّعاءِ، يَعني يَدْعو له بالرحْمةِ إذا كان سَمْحًا في هذه المَواضِعِ الأرْبَعةِ: «سَمْحًا إذَا بَاعَ»، لا يَشتَدُّ على المُشْتَري، ويَكونُ سَهلًا يواضِعُه، ويَضَعُ عنه، «سَمْحًا إذا قَضى»، إذا قَضى غَيرَه كان سَمْحًا يُعْطيهِ في وَقتِه ولا يُماطِلُ، كذلك «سَمْحًا إذا اشْتَرى»، وكذلك «سَمْحًا إذا اقْتَضى»، إذا أخَذَ حَقَّه، فهذه الأحْوالُ الأرْبَعُ يَنْبَغي للإنْسانِ أنْ يَكونَ سَمْحًا فيها، حتى يَنالَ دُعاءَ رَسولِ اللهِ ﷺ، ويَأْتي الكَلامُ إنْ شاءَ اللهُ على بَقيَّةِ الأحاديثِ.



١٣٧٠ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٨٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦٢).

١٣٧١ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ مُوسِرًا، وَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ المُعْسِرِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بذلِكَ مِنْهُ؛ تَجَاوَزُوا عَنْهُ» رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٣٧٢ - وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُتِيَ اللهُ تَعَالَى بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا» قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى المُوسِرِ، وَأُنْظِرُ المُعْسِرَ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا أَحَقُّ بِذا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي»، فَقَالَ عُقْبَةُ بنُ عامِرٍ، وأبو مَسْعودٍ الأَنْصارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هكَذا سَمِعْنَاهُ مِنْ فِي رسولِ اللهِ ﷺ. رَواهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ في فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ، وفيها فَضلُ العَفْوِ عنِ الناسِ، والتَّجاوُزِ عنهم.

في الحَديثِ الأوَّلِ: عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ» يَعني يَتعامَلُ معَهم بالدَّيْنِ، والدَّيْنُ ليس هو المَعروفَ عندَنا، يَعني أنْ تَشترِيَ سِلعةً لِتَبيعَها وتَنتفِعَ بثَمَنِها.

الدَّيْنُ: كلُّ ما ثبَتَ في الذِّمَّةِ فهو دَيْنٌ، حتى لو بِعْتَ إلى شَخصٍ سيَّارةً بثَمنٍ غيرِ مُؤجَّلٍ، ولم يُسلِّمْكَ الثمَنَ، فالثمَنُ في ذِمَّتِه دَيْنٌ، ولو أنَّكَ استَأْجَرْتَ بَيتًا،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب فضل إنظار المعسر، رقم (١٥٦٠).

وتمَّتِ المُدَّةُ ولم تُسَلِّمْه الأُجْرةَ فالأُجْرةُ في ذِمَّتِكَ دَيْنٌ، المُهِمُّ أنَّ المُدايَنةَ ليس أنْ يُعامِلَ الناسَ نَقدًا، يعني ليس يَدًا بيَدٍ، بل يَبيعُ إليهم، ويَشْتَري منهم، ويَعْفو عنِ المُعسِرِ، «فَكَانَ يَقُولُ لِغُلَامِهِ: إِذَا رَأَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا». فكان الغُلامُ يَفعَلُ هذا. فلَقِيَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فجازاهُ بمِثلِ ما يُجازي الناسَ، يَعني مِثلَ ما يَفعَلُ هذا الرَّجلُ في الناسِ عامَلَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فتَجاوَزَ عنه، وذلك لأنَّ اللهَ في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيهِ[1]؛ ولأنَّ الجَزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، ففي هذا الحَديثِ حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والحَديثَيْنِ بعدَه دَليلٌ على فَضيلةِ إنْظارِ المُعْسِرِ والتَّجاوُزِ عنه وإبْرائِه.

واعلَمْ أنَّ هذا لا يَنقُصُكَ شَيئًا منَ المالِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ من مالٍ»[2] بل هذا يَجعَلُ في مالِكَ البَرَكةَ والخَيرَ والزِّيادةَ والنَّماءَ.

وأمَّا إنْظارُ المُعسِرِ فإنَّه واجِبٌ، يَجِبُ على الإنْسانِ إذا كان صاحِبُه مُعْسِرًا لا يَستَطيعُ الوَفاءَ يَجِبُ عليه أنْ يُنظِرَه، ولا يَحِلُّ له أنْ يَطْلُبَه أو يُطالِبَه، لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فهُناك فَرقٌ بينَ الإبْراءِ وهو إسْقاطُ الدَّيْنِ عنِ المُعسِرِ وبينَ الإنْظارِ، الإنْظارُ واجِبٌ، والإبْراءُ سُنَّةٌ، ولا شكَّ أنَّ الإبْراءَ أفضَلُ؛ لأنَّ الإبْراءَ تَبْرَأُ به الذِّمَّةُ نِهائيًّا، والإنْظارَ تَبْقى الذِّمَّةُ مَشغولةً، لكنَّ صاحِبَ الحقِّ لا يُطالِبُ به حتى يَستَطيعَ أنْ يُوفِّيَ.

وبعضُ الناسِ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- تَحِلُّ لهمُ الدُّيونُ على أُناسٍ فُقَراءَ فيُؤْذونَهم،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُطالِبونَهم، ويَدْفَعونَ بهم إلى وُلاةِ الأُمورِ، ويَحبِسونَهم عن أَهْليهم وأَوْلادِهم وأَمْوالِهم، وهذا لا شكَّ أنَّه مُنكَرٌ، والواجِبُ على القُضاةِ إذا عَلِموا أنَّ هذا مُعسِرٌ لا يَستَطيعُ الوَفاءَ، أنْ يَقولوا للدائِنِ: ليس لكَ حَقٌّ في مُطالَبَتِه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى هو الحَكَمُ، وهو الحاكِمُ بينَ العِبادِ، وقد قال تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾، لكنْ يَتعَلَّلُ بعضُ القُضاةِ في هذه المَسأَلةِ، يَقولونَ: إنَّ بَعضَ المَدينينَ يَتَلاعَبونَ بالناسِ فيَأْكُلونَ الأَمْوالَ، ويَجحَدونَ الإيسارَ، فيُعامِلونَهم بهذا تَنْكيلًا بهم، نَعم إذا ثَبَتَ أنَّ هذا المَدينَ ادَّعى الإعْسارَ، وليس بمُعسِرٍ، فإنَّه لا بَأسَ أنْ يُجبَرَ ويُحبَسَ ويُعاقَبَ حتى يُوفِّيَ، فإنْ لم يَفعَلْ، فإنَّ الحاكِمَ يَتولَّى بَيعَ ما شاءَ من مالِه ويُوفِّي دَيْنَه، أمَّا الذي نَعلَمُ أنَّه مُعسِرٌ حَقيقةً، فإنَّه لا يَجوزُ لطالِبِه أنْ يُطالِبَه، ولا أنْ يَقولَ: أَعْطِني، بل يَجِبُ أنْ يُعرِضَ عنه بالكُلِّيَّةِ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾. واللهُ الموفِّقُ.

١٣٧٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَظَلَّهُ اللهُ يومَ القِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» رَواهُ التِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٧٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ، اشْتَرَى مِنْهُ بَعِيرًا، فَوَزَنَ لَهُ فَأَرْجَحَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به، رقم (١٣٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب شراء الدواب والحمير، رقم (٢٠٩٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه، رقم (٧١٥).

١٣٧٥- وَعَنْ أَبِي صَفْوَانَ سُوَيْدِ بنِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَمَةُ العَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ، فَجَاءَنا النبيُّ ﷺ، فَسَاوَمَنَا بسَرَاوِيلَ، وَعِنْدِي وَزَّانٌ يَزِنُ بِالأَجْرِ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ لِلْوَزَّانِ: «زِنْ وَأَرْجِحْ»، رَوَاهُ أَبُو داوُدَ، والتِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

الشَّرْح

هذه بَقيَّةُ الأحاديثِ الوارِدةِ في فَضلِ السَّماحةِ في البَيعِ والشِّراءِ والقَضاءِ والاقْتِضاءِ، وقد سبَقَ أحاديثُ كَثيرةٌ حَولَ هذا المَوضوعِ، والأحاديثُ التي ذكَرَها المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى ورَدَتْ فيمَن أَنْظَرَ مُعسِرًا، أو وضَعَ عنه، فإنَّ اللهَ تَعالى يُظِلُّه في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه. «أَنْظَرَه» يَعني أمْهَلَه حتى يوسِّعَ اللهُ عليه، وهذا أمرٌ واجِبٌ كما سبَقَتِ الإشارةُ إليه، فإنْ وضَعَ عنه، فهو أفضَلُ وأكمَلُ؛ لأنَّه إذا وضَعَ عنه أبْرَأَ ذِمَّتَه، وأمَّا إذا أنْظَرَه، فإنَّما أمْهَلَه وبَقِيَتْ ذِمَّتُه -أيْ ذِمَّةُ المَطْلوبِ- مَشْغولةً لم تَنفَكَّ.

ثم ذكَرَ حَديثَيْنِ أيضًا فيهما ذِكرُ الوَزنِ والإرْجاحِ، حَديثَ جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ اشْتَرى منه فوزَنَ وأرْجَحَ، يَعني أرجَحَ الوَزْنَ؛ لأنَّهم كانوا فيما سبَقَ يَتعامَلونَ بالنُّقودِ وَزْنًا لا عَددًا، وإنْ كانوا يَتعامَلونَ أيضًا بها عَددًا، لكنَّ الكَثيرَ وَزْنًا كما جاءَ في الحَديثِ: «ليس فيما دونَ خَمْسةِ أَوْسُقٍ صَدَقةٌ»[2]. فوزَنَ له النبيُّ ﷺ وأرْجَحَ، يَعني زادَه أكثَرَ ممَّا يَستَحِقُّ، وهكذا يَنبَغي للإنْسانِ عندَ الوَفاءِ أنْ يُوفِّيَ كامِلًا بدونِ نَقصٍ، وإذا زادَ فهو أفضَلُ. واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٢)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجحان في الوزن، رقم (٣٣٣٦)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجحان في الوزن، رقم (١٣٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب زكاة الورق، رقم (١٤٤٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، رقم (٩٧٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢ - كِتَابُ العِلمِ

٢٤١ - بابُ فَضْلِ العِلْمِ تَعَلُّمًا وتَعْلِيمًا للهِ

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**بابُ فَضلِ العِلمِ تَعَلُّمًا وتَعْلِيمًا للهِ عَزَّوَجَلَّ**»، والمُرادُ بالعِلمِ الذي وَرَدَتْ به النُّصوصُ في فَضلِه والثوابِ عليه ورِفْعةِ أهلِه، وكَونِهم وَرَثةَ الأنبياءِ، إنَّما هو عِلمُ الشريعةِ عَقيدةً وعَمَلًا، وهو العِلمُ الذي يُثْنى على مَن أدْرَكَه، وعلى مَن عَلَّمَه وتَعَلَّمَه، وليس عِلمَ ما يَتعَلَّقُ بالدُّنْيا كالحِسابِ والهَنْدَسةِ، وما أشبَهَ ذلك.

والعِلمُ جِهادٌ، جِهادٌ في سَبيلِ اللهِ، وهو عَديلٌ له في كتابِ اللهِ، وعليه يُبْنى الجِهادُ وسائرُ الإسْلامِ؛ لأنَّ مَن لا يَعلَمُ لا يُمكِنُ أنْ يَعمَلَ على الوَجهِ المَطْلوبِ، ولهذا قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]. يَعني لولا نَفَرَ في الجِهادِ منَ المُؤمِنينَ من كلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ، وقعَدَتْ طائفةٌ أُخْرى لِيَتَفَقَّهوا في الدِّينِ ولِيُنْذِروا قَومَهم إذا رَجَعوا إليهم، أيْ رَجَعوا منَ الغَزْوِ لعلَّهم يَحْذَرونَ، فجعَلَ اللهُ تَعالى الفِقْهَ في دِينِ اللهِ مُعادِلًا للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، بل أَوْلى منه؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُجاهِدَ المُجاهِدُ، ولا أنْ يُصَلِّيَ المُصَلِّي، ولا أنْ

يُزَكِّيَ المُزَكِّي، ولا أنْ يَصومَ الصائمُ، ولا أنْ يَحُجَّ الحاجُّ، ولا أنْ يَعتَمِرَ المُعتَمِرُ ولا أنْ يَأكُلَ الآكِلُ، ولا أنْ يَشرَبَ الشارِبُ، ولا أنْ يَنامَ النائمُ، ولا أنْ يَستَيْقِظَ المُستَيقِظُ إلَّا بالعِلمِ، فالعِلمُ هو أصلُ كلِّ شيءٍ، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**مَن يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ**»[1].

ولا فَرقَ بينَ المُجاهِدِ الذي يُسَوِّي أسِنَّةَ قَوْسِه، وبينَ طالِبِ العِلمِ الذي يَستَخرِجُ المَسائلَ العِلمِيَّةَ من بُطونِ الكُتُبِ، كلٌّ منهم يَعمَلُ للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وبَيانِ شَريعةِ اللهِ لِعبادِ اللهِ، ولهذا أعقَبَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابَ الجِهادِ ببابِ العِلمِ، ليُبَيِّنَ أنَّه مِثلُه، بل إنَّ بعضَ العُلَماءِ فَضَّلَه على الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، **والصحيحُ أنَّ في ذلك تَفْصيلًا**: فمنَ الناسِ مَن يكونُ الجِهادُ في حَقِّه أفضَلَ، ومنَ الناسِ مَن يَكونُ طَلَبُ العِلمِ في حَقِّه أفضَلَ، فإذا كان الرَّجلُ قَويًّا شُجاعًا مِقْدامًا، لكنَّه في العِلمِ بِضاعَتُه مُزْجاةٌ، قَليلُ الحِفظِ، قَليلُ الفَهمِ، يَصعُبُ عليه تَلَقِّي العِلمِ، فهُنا نَقولُ: الجِهادُ في حَقِّه أفضَلُ، وإذا كان بالعَكسِ، رَجلًا ليس عندَه تلك القُوَّةُ البَدَنيَّةُ، أوِ الشجاعةُ القَلبيَّةُ، لكنَّ عندَه حِفظًا وفَهمًا واجْتِهادًا، فهذا طَلَبُ العِلمِ في حَقِّه أفضَلُ، فإنْ تَساوى الأمْرانِ، فإنَّ من أهلِ العِلمِ مَن رجَّحَ طلَبَ العِلمِ؛ لأنَّه أصْلٌ، ولأنَّه يَنتَفِعُ به الناسُ كلُّهمُ القاصي والداني، ويَنتَفِعُ به مَن كان حَيًّا، ومَن يولَدُ بعدَه، ويَنتَفِعُ به صاحِبُه في حَياتِه وبعدَ مَماتِه، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إذا ماتَ الإنْسانُ انقَطَعَ عَمَلُه إلَّا من ثَلاثٍ: صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو وَلَدٍ صالحٍ يَدْعو له**»[2].

وجَميعُ الناسِ مُحْتاجونَ للعِلمِ، الأنْبياءُ، وغَيرُ الأنْبياءِ، كلُّهم مُحْتاجونَ للعِلمِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

ولهذا أمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يَقولَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]. فالرُّسُلُ مُحْتاجونَ إلى العِلمِ والزيادةِ فيه، وإلى سُؤالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَزيدَهم منه، فمَن دونَ الأنْبياءِ من بابِ أَوْلى، فجَديرٌ بالعَبدِ أنْ يَسألَ اللهَ دائمًا أنْ يَزيدَه منَ العِلمِ، ولكنْ إذا سألَ اللهَ أنْ يَزيدَه منَ العِلمِ، فلا بُدَّ أنْ يَسْعى في الأسبابِ التي يَحصُلُ بها العِلمُ، أمَّا أنْ يَطلُبَه ويَقولَ: رَبِّ زِدْني عِلمًا، وهو لم يَفعَلِ الأسْبابَ، فهذا ليس منَ الحِكْمةِ، ولا منَ الصوابِ، هذا كمَن قال: اللَّهُمَّ ارْزُقْني ولَدًا، ولا يَتزَوَّجُ، من أين يَأْتيكَ هذا الوَلَدُ؟ فلا بُدَّ إذا سَألْتَ اللهَ شَيئًا أنْ تَسْعى للأسبابِ التي يَحصُلُ بها؛ لأنَّ اللهَ حَكيمٌ، قرَنَ المُسبَّباتِ بأسْبابِها، وفي هذه الآيةِ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ دَليلٌ على فَضلِ العِلمِ، لم يَقُلِ اللهُ لنَبيِّه: وقُلْ رَبِّ زِدْني مالًا، بل قال له: وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلمًا، وقال له في الدُّنْيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١]. أسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَمُنَّ علينا وعليكم بالعِلمِ النافِعِ والعَمَلِ الصالِحِ والدَّعْوةِ إلى اللهِ على بَصيرةٍ.

وقال تَعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال تَعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١].

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**بابُ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا لله**»، وقد سبَقَ لنا شيءٌ منَ الكَلامِ على العِلمِ، وبَيانِ أنَّ العِلمَ المَمْدوحَ الذي فيه الثوابُ هو العِلمُ في شَريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وما كان وَسيلةً لذلك كعِلمِ النحْوِ والصرْفِ وما إليْهما،

فإنَّه وَسيلةٌ، وقد قال العُلَماءُ: إنَّ للوَسائلِ أحْكامَ المَقاصِدِ، والعِلمُ الشرْعيُّ يَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ:

قِسمِ فَرْضِ عَيْنٍ: يَجِبُ على كلِّ إنْسانٍ أنْ يَتعَلَّمَه.

وقِسمٍ آخَرَ فَرضِ كِفايةٍ: إذا قامَ به مَن يَكْفي سقَطَ عن بَقيَّةِ الناسِ.

وقِسمٍ ثالثٍ يَتفَرَّعُ عنِ الثاني: سُنَّةٍ، وهو إذا ما قامَ بالعِلمِ مَن يَكْفي فيَكونُ فيه للباقين سُنَّةً، أمَّا العِلمُ الفَرضُ العَينِ الذي يَجِبُ على كلِّ إنْسانٍ، فهو أنْ يَتعَلَّمَ الإنْسانُ ما يَحْتاجُ إليه في أُمورِ دِينِه الوَاجبةِ، كأنْ يَتعَلَّمَ ما يَتعَلَّقُ بتَوْحيدِ اللهِ، وبَيانِ ما يُنافيهِ ويُناقِضُه منَ الشِّرْكِ كلِّه جَليِّهِ وخَفِيِّه، صَغيرِه وكَبيرِه؛ لأنَّ هذا مَفروضٌ على كلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كلَّ إنْسانٍ يَجِبُ عليه أنْ يَعرِفَ تَوْحيدَ اللهِ ويوَحِّدَ اللهَ تَعالى بما يَخْتَصُّ به جَلَّوَعَلَا، كذلك أيضًا الصلاةُ، الصلاةُ مَفْروضةٌ على كلِّ أحَدٍ لا تَسقُطُ عنِ المُسلِمِ أبَدًا ما دامَ عَقلُه ثابتًا، فلا بُدَّ أنْ يَتعَلَّمَها ويَتعَلَّمَ ما يَلزَمُ لها من طَهارةٍ وغَيْرِها، حتى يَعبُدَ اللهَ على بَصيرةٍ.

الزَّكاةُ لا يَجِبُ تَعلُّمُها على كلِّ أحَدٍ، مَن عِندَه مالٌ وجَبَ عليه أنْ يَتعَلَّمَ ما هو المالُ الزَّكَويُّ، وما مِقْدارُ النِّصابِ، وما مِقْدارُ الواجِبِ، ومَنِ الذي تُؤْتى إليه الزَّكاةُ، وما أشبَهَ ذلك، لكنْ لا يَجِبُ على كلِّ أحَدٍ أنْ يَتعَلَّمَ الزَّكاةَ، فإذا كان فَقيرًا، فلماذا نوجِبُ عليه أنْ يَتعَلَّمَ أحْكامَ الزَّكاةِ وهو ليس عندَه مالٌ، الصوْمُ يَجِبُ تَعَلُّمُه على كلِّ أحَدٍ، يَجِبُ أنْ يَتعَلَّمَ الإنْسانُ ماذا يَصومُ عنه؟ وما هي المُفْطِراتُ؟ وما هي نَواقِضُ الصوْمِ؟ وما هي مُنْقِصاتُه؟ وما أشبَهَ ذلك، كلُّ إنْسانٍ يَصومُ يَجِبُ عليه أنْ يَتعَلَّمَ ذلك.

الحَجُّ لا يَجِبُ على كلِّ أحَدٍ أنْ يَتعَلَّمَه، وإنَّما يَجِبُ أنْ يَتعَلَّمَه مَنِ اسْتَطاعَ إليه سَبيلًا حتى يَحُجَّ على بَصيرةٍ.

ومعَ الأسَفِ أنَّ كَثيرًا منَ الناسِ لا يَتعَلَّمونَ ما يَجِبُ عليهم من أحْكامِ دِينِهم فيَقَعونَ في المَتاعِبِ، ولاسيَّما في الحَجِّ، وما أكثَرَ الذين يَسْأَلونَ عنِ الحَجِّ وتَجِدُهم قد وَقَعوا في خَلَلٍ كَبيرٍ؛ لأنَّهم لم يَتعَلَّموا قبلَ أنْ يَعْمَلوا، البَيعُ مَثلًا: أحْكامُ البَيعِ لا يَجِبُ على كلِّ إنْسانٍ أنْ يَتعَلَّمَ أحْكامَ البَيعِ، لكنْ مَن أرادَ أنْ يَتَّجِرَ ويَبيعَ ويَشتَرِيَ لا بُدَّ أنْ يَتعَلَّمَ ما هو البَيعُ المَمْنوعُ، وما هو البَيعُ المَشْروعُ حتى يَكونَ على بَصيرةٍ من أمْرِه، وهَلُمَّ جَرًّا.

فتَبَيَّنَ الآنَ أنَّ العِلمَ الشرْعيَّ يَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ: الأوَّلُ فَرضُ عَينٍ، والثاني فَرضُ كِفايةٍ، وفَرضُ الكِفايةِ يُستَحَبُّ لَمن زادَ على مَن تَقومُ به الكِفايةُ أنْ يَتعَلَّمَ ليَحفَظَ شَريعةَ اللهِ، ويَهْديَ اللهُ به عِبادَه ويَنتَفِعَ الناسُ به.

ولا شيءَ أشرَفُ منَ العِلمِ، ويَدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

ربُّنا عَزَّوَجَلَّ يَقولُ للرسولِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾، الرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُحْتاجٌ إلى زيادةِ العِلمِ، فدَلَّ ذلك على فَضيلةِ العِلمِ لأنَّه لم يَقُلْ له: وقُلْ رَبِّ زِدْني مالًا، زِدْني زَوْجاتٍ، زِدْني أوْلادًا، بل قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

ومِمَّا يَدُلُّ على فَضلِ العِلمِ قَولُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بينَ كلِّ الناسِ قَولٌ عامٌّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾،

والجوابُ مَفْهومٌ، أنَّه لا يَستَوي الذين يَعلَمونَ والذين لا يَعلَمونَ، وهذا أمرٌ مُنْتَفٍ بمَقْتَضى طَبيعةِ الإنْسانِ وفِطرَتِه، أنَّه لا يَستَوي الإنْسانُ الذي يَعلَمُ والذي لا يَعلَمُ، لكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَرَه على صيغةِ الاسْتِفْهامِ ليَكونَ مُتَضَمِّنًا للتَّحَدِّي، ليَكونَ هذا النفيُ مُتَضمِّنًا للتَّحَدِّي، يَعني: هاتِ لي أحَدًا يَقولُ: إنَّه يَسْتَوي الذين يَعلَمونَ والذين لا يَعلَمونَ، لا أحَدَ يَقولُ بذلك، ولا يُمكِنُ أنْ يَستَويَ الذين يَعلَمونَ والذين لا يَعلَمونَ أبَدًا حتى في أُمورِ الدُّنْيا لا يَستَوي الذين يَعلَمونَ والذين لا يَعلَمونَ.

وقال اللهُ تَعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]. هذا أيْضًا يَدُلُّ على فَضيلةِ العِلمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾، يَعني: قوموا وارْتَفِعوا ﴿فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، فإذا دخَلَ إنْسانٌ والمَجلِسُ مَليءٌ بالجالِسينَ، وقال: تَفَسَّحوا، فلْيُفْسِحوا له، ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، يَعني يوسِّعُ لكمُ الأُمورَ؛ لأنَّكم وسَّعْتم على هذا الداخِلِ فيوسِّعُ اللهُ عليكم؛ لأنَّ الجَزاءَ من جِنسِ العَمَلِ، فمَن عامَلَ أخاهُ بشَيءٍ عامَلَه اللهُ تَعالى بمِثلِه، إنْ يَسَّرْتَ على مُعسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عليكَ، إنْ فَرَّجْتَ عن مُؤمِنٍ كُرْبةً، فرَّجَ اللهُ عنكَ كُرْبةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، إنْ أعَنْتَ أحَدًا كان اللهُ في عَونِكَ، واللهُ في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيهِ، ولهذا قال: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾، يَعني قوموا فقوموا، وفي هذا دَليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يَقولَ للجَماعةِ الذين عندَه انْشُزوا، اخْرُجوا بارَكَ اللهُ فيكم، انْتَهى شُغلُكم، لا حَياءَ في ذلك، ولا غَضاضةَ على الإنسانِ حتى الجلوسُ لا يَنبَغي لهم أنْ يَكونوا ثُقَلاءَ، لا يَقومونَ إلَّا إذا قيلَ: قوموا، يَنبَغي للإنْسانِ

أنْ يُخَفِّفَ الجلوسَ عندَ الناسِ ما اسْتَطاعَ، إلَّا إذا عَلِمَ من صاحِبِه أنَّه يُحِبُّ أنْ تَبْقى عندَه فلا بَأسَ، وإلَّا فالأصْلُ ألَّا تُطيلَ الجلوسَ عندَ الناسِ؛ لأنَّ الناسَ قد يَكونُ لهم شُغلٌ، ويَسْتَحيونَ أنْ يَقولوا: قُمْ، لكنْ مَن قال: قُمْ، فلا حَرَجَ عليهم، حتى إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال لجُلساءِ نَبيِّه الذين يَجلِسونَ عندَه بعدَ أنْ يَنتَهوا منَ الطعامِ قال لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]. يَعني: مَعْناه إذا انْتَهَيْتم منَ الطعامِ فاخْرُجوا، لا تَجلِسوا، فإنَّ ذلك يُؤْذي النبيَّ ﷺ، فيَستَحْيي منكم واللهُ لا يَستَحْيي منَ الحقِّ، فإذا قيلَ: ﴿ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾.

ومِثلُ ذلك أيضًا: إذا استَأْذَنَ عليكَ أحَدٌ في البَيتِ ففتَحْتَ له، وقُلتَ: ارجِعْ، ليس هُناك جُلوسٌ الآنَ، فلا حَرَجَ عليكَ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور:٢٨]، بعضُ الناسِ إذا أرْجَعْتَه من عندِ البابِ يَغضَبُ، واللهُ يَقولُ: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾، الأفضَلُ أنْ تَرْجِعوا، يُزَكِّيكمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، ولم يُعَيِّنْ عَزَّوَجَلَّ الدرَجاتِ؛ لأنَّ هذه الدرَجاتِ بحَسَبِ ما معَ الإنْسانِ منَ الإيمانِ والعِلمِ، كلَّما قوِيَ الإيمانُ وكلَّما كثُرَ العِلمُ وانتَفَعَ الإنسانُ به، ونفَعَ غَيرَه كان أكثَرَ دَرَجاتٍ، فهَلُمَّ فأَكثِرْ، قَوِّ إيمانَكَ، أكْثِرْ من طَلَبِ العِلمِ ما استَطَعْتَ، فإنَّ اللهَ تَعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾، رَفَعَني اللهُ وإيَّاكم بذِكْرِه وأعانَنا على ذِكرِه وشُكرِه وحُسنِ عِبادَتِه.

وقال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

١٣٧٦ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

ساقَ الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بعضَ ما يَتعلَّقُ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في فَضلِ العِلمِ، وسبَقَ الكَلامُ على آياتٍ ثلاثٍ ممَّا ذكَرَه في بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ.

أمَّا الآيةُ الرابِعةُ فهي قولُه تَعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

والخَشْيةُ: هي الخَوفُ المَقْرونُ بالتعْظيمِ، فهي أخَصُّ منَ الخَوفِ، فكلُّ خَشْيةٍ خَوفٌ، وليس كلُّ خَوفٍ خَشْيةً، ولهذا يَخافُ الإنسانُ منَ الأسَدِ، ولكنَّه لا يَخْشاهُ، أمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فإنَّ الإنْسانُ يَخافُ منه ويَخْشاهُ، قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة:١٥٠].

ولكنْ مَن هُم أهلُ الخَشْيةِ حَقًّا؟ أهلُ الخَشْيةِ حَقًّا هُمُ العُلَماءُ، العُلَماءُ باللهِ وأسْمائِه وصِفاتِه وأفْعالِه وأحْكامِه، الذين يَعرِفونَ ما للهِ عَزَّوَجَلَّ منَ الحِكَمِ والأسْرارِ في مَقْدوراتِه ومَشْروعاتِه جَلَّوَعَلَا، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كاملٌ من كلِّ الوُجوهِ، ليس في أفْعالِه نَقصٌ، ولا في أحْكامِه نَقصٌ، فلهذا يَخْشَوْنَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وفي هذا دَليلٌ على فَضيلةِ العِلمِ وأنَّه من أسْبابِ خَشْيةِ اللهِ، والإنْسانُ إذا وُفِّقَ للخَشْيةِ عُصِمَ منَ الذُّنوبِ، وإنْ أذنَبَ استَغْفَرَ وتابَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه يَخْشى اللهَ، أيْ يَخافُه ويُعَظِّمُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

ثم ذكَرَ الأحاديثَ وصَدَّرَها بحَديثِ مُعاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ» واللهُ جَلَّ وَعَلَا يُريدُ في خَلقِه ما يَشاءُ من خَيرٍ وشَرٍّ، لكنَّ كلَّ إرادتِه خَيرٌ، وأمَّا مُراداتُه ففيها الخَيرُ والشرُّ، كلُّ قَضائِه خَيرٌ، وأمَّا مَقْضيَّاتُه ففيها الخَيرُ والشرُّ، والناسُ أوْعيةٌ منهم مَن يَعلَمُ اللهُ تَعالى في قَلبِه خَيرًا فيُوفِّقُه، ومنهم مَن يَعلَمُ اللهُ في قَلبِه شَرًّا فيَخذُلُه -والعياذُ باللهِ- قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، لم يُزِغْ قُلوبَهم إلَّا حينَ زاغوا هُم أوَّلًا، وأرادوا الشرَّ فلم يُوَفَّقوا للخَيرِ.

أمَّا مَن علِمَ اللهُ في قَلبِه خَيرًا فإنَّ اللهَ يُوفِّقُه، فإذا علِمَ اللهُ في قَلبِ الإنسانِ خَيرًا أرادَ به الخَيرَ، وإذا أرادَ به الخَيرَ فَقَّهَه في دِينِه، وأعْطاهُ منَ العِلمِ بشَريعتِه ما لم يُعْطِ أحَدًا منَ الناسِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الإنْسانَ يَنبَغي له أنْ يَحرِصَ غايةَ الحِرصِ على الفِقهِ في الدِّينِ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى إذا أرادَ شَيئًا هيَّأَ أسْبابَه، ومن أسْبابِ الفِقهِ أنْ تَتعَلَّمَ وأنْ تَحرِصَ لتَنالَ هذه المَرْتَبةَ العَظيمةَ، أنَّ اللهَ يُريدُ بكَ الخَيرَ، فاحرِصْ على الفِقهِ في دِينِ اللهِ، والفِقهُ في الدِّينِ ليس هو العِلمُ فقطْ، بلِ العِلمُ والعَملُ، ولهذا حذَّرَ السلَفُ من كَثرةِ القُرَّاءِ وقِلَّةِ الفُقَهاءِ، فقال عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كيف بكم إذا كثُرَ قُرَّاؤُكم وقَلَّ فُقَهاؤُكم»[1]، فإذا علِمَ الإنسانُ بشَيءٍ من شَريعةِ اللهِ ولكنْ لم يَعمَلْ بها، فليس بفَقيهٍ، حتى لو كان يَحفَظُ أكبَرَ كِتابٍ في الفِقهِ عن ظَهرِ قَلبٍ ويَفهَمُه، لكنْ لم يَعمَلْ به، فإنَّ هذا لا يُسَمَّى فَقيهًا، يُسَمَّى قارِئًا، بلِ الفَقيهُ هو الذي يَعمَلُ بما علِمَ، فيَعلَمُ أوَّلًا، ثم يَعمَلُ ثانيًا، ولهذا قال قومُ شُعَيبٍ لشُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا

(١) أخرجه عبد الرزاق رقم (٢١٦٦٦)، وابن بطة في الإبانة، رقم (١٣٥٢).

رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١]؛ لأنَّهم حُرِموا الخَيرَ لعِلمِ اللهِ ما في قُلوبِهم منَ الشرِّ.

فاحرِصْ على العِلمِ، واحرِصْ على العَملِ به، لتكونَ ممَّن أرادَ اللهُ به خَيرًا، أسأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَجعَلَني وإيَّاكم من هؤلاء الذين فَقِهوا في دِينِ اللهِ، وعَمِلوا وعَلَّموا، ونَفَعوا وانْتَفَعوا به.

١٣٧٧- وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

والمُرادُ بالحَسَدِ: الغِبْطَةُ، وَهُوَ أنْ يَتَمَنَّى مِثلَه.

الشَّرْح

أورَدَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ) الأحاديثَ الوارِدةَ في فَضلِ العِلمِ، وقد سبَقَ حَديثُ مُعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ».

ثم ذكَرَ حَديثَ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ». الحسَدُ يُطلَقُ ويُرادُ به الحَسَدُ المُحَرَّمُ الذي هو من كَبائرِ الذُّنوبِ، وهو أنْ يَكرَهَ الإنْسانُ ما أنعَمَ اللهُ به على غَيرِه، تَجِدُ إنْسانًا عندَه مالٌ فتكْرَهُه، تَقولُ: ليتَ اللهَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم (٧٣)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (٨١٦).

لم يَرزُقْه، وآخَرُ عندَه عِلمٌ تكرَهُ ذلك، وتَتَمَنَّى أنَّ اللهَ لم يَرزُقْه العِلمَ، وثالثٌ عندَه أوْلادٌ صالِحونَ تكرَهُ ذلك، وتَتَمَنَّى أنَّ اللهَ لم يَرزُقْه، وهَلُمَّ جَرًّا، هذا الحَسَدُ هو من كَبائرِ الذُّنوبِ.

وهو من خِصالِ اليَهودِ كما قال اللهُ تَعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤].

وقال عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

أمَّا النَّوعُ الثاني منَ الحَسَدِ فهو حَسَدُ الغِبْطةِ: يَعني الذي تَغبِطُ به غَيرَكَ أنْ أنعَمَ اللهُ عليه بمالٍ، أو عِلمٍ، أو ولَدٍ، أو جاهٍ أو غَيرِ ذلك، الناسُ يَغبِطُ بَعضُهم بَعضًا على ما آتاهُم منَ النِّعَمِ، يَقولُ: ما شاءَ اللهُ، فُلانٌ أَعْطاهُ اللهُ كذا، فُلانٌ أَعْطاهُ اللهُ كذا، لكنْ لا غِبْطةَ إلَّا في شَيئَيْنِ، الغِبْطةُ الحَقيقيَّةُ التي يَغبِطُ عليها الإنسانُ شَيئانِ:

الأوَّلُ: العِلمُ، العِلمُ النافِعُ وهو المُرادُ بقَولِه: «رَجُلٌ آتاهُ اللهُ الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» هذا العِلمُ، إذا مَنَّ اللهُ على إنسانٍ بعِلمٍ فصارَ يَقْضي به بينَ الناسِ، سَواءٌ كان قاضيًا أو غيرَ قاضٍ، وكذلك يَقْضي به في نَفْسِه، وعلى نَفْسِه، ويُعلِّمُ الناسَ، فهذا هو الغِبْطةُ؛ لأنَّ العِلمَ هو أنفَعُ شَيءٍ، أنفَعُ منَ المالِ، وأنفَعُ للإنسانِ منَ الأعْمالِ الصالِحةِ؛ لأنَّه إذا ماتَ وانتفَعَ الناسُ بعِلمِه جَرى ذلك عليه إلى يومِ القيامةِ، كلَّما انتَفَعَ به أيُّ إنسانٍ فله أجرٌ، العِلمُ كلَّما أنفَقْتَ منه وعلَّمْتَه ازدادَ، وهذا من أقْوى ما يُثَبِّتُ به العِلمُ، ويُبْقي حِفظَه، فإذا علَّمْتَ غَيرَكَ علَّمَكَ اللهُ، وإذا علَّمْتَ غَيرَكَ ثبَتَ العِلمُ في نَفْسِكَ، لكنْ لا تَتقَدَّمْ للتعليمِ إلَّا وأنتَ أهلٌ له حتى يَنفَعَ اللهُ بكَ، وحتى لا تَفشَلَ أمامَ الناسِ؛ لأنَّ الذي يَتقَدَّمُ للتعليمِ وليس أهلًا له

بينَ أمرَيْنِ: إمَّا أنْ يَقولَ بالباطِلِ وهو لا يَشعُرُ، وإمَّا أنْ يَفشَلَ وإذا سُئِلَ عجَزَ عنِ الإجابةِ مَثلًا.

فهذا العِلمُ كلَّما أنفَقْتَ منه ازْدادَ، والعِلمُ -أيضًا- لا يَحْتاجُ إلى تَعَبٍ، إلَّا في تَعلُّمِه، لكنْ لا يَحْتاجُ مَثلًا إلى خَزائنَ كالمالِ الذي يَحْتاجُ إلى خَزائنَ، وإلى مُحاسِبينَ، وإلى حِساباتٍ، وإلى تَعَبٍ، لكنَّ العِلمَ لا يَحْتاجُ إلى هذا، خَزينتُه قَلبُكَ، هذه الخَزينةُ، وهي معَكَ أينَما كُنتَ فلا تَخْشى عليه، لا تَخْشى أنْ يُسرَقَ، ولا أنْ يُحرَقَ؛ لأنَّه في قَلبِكَ.

فالمُهِمُّ أنَّ العِلمَ هو أفضَلُ نِعْمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على الإنسانِ بعدَ الإسْلامِ والإيمانِ، ولهذا قال: «رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا».

أمَّا الثاني: «رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ»، يَعني صارَ يَبذُلُ مالَه فيما يُرْضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، لا يَبذُلُه في حَرامٍ، ولا يَبذُلُه في لَغوٍ، وإنَّما يَبذُلُه فيما يُرْضي اللهَ، سلَّطَه اللهُ على هَلَكَتِه، يَعني على إنْفاقِه في الحقِّ، هذا أيضًا ممَّن يُغبَطُ، نحن لا نَغبِطُ مَن عنَدَه مالٌ عَظيمٌ لكنَّه بَخيلٌ لا يَنفَعُ الناسَ، بل هذا نَتألَّمُ له، ونَقولُ: هذا المِسْكينُ كيف يَستَطيعُ الجَوابَ على حِسابِ يَومِ القيامةِ على هذا المالِ؟ من أينَ اكتَسَبَه؟ وفيمَ أنفَقَه؟ وكيف تَصرَّفَ فيه؟ لكنْ إذا رَأَينا رَجلًا آتاهُ اللهُ مالًا وصارَ يُنفِقُه فيما يُرْضي اللهَ، نَقولُ: ما شاءَ اللهُ هذا يُغبَطُ.

لا نَغبِطُ إنْسانًا آتاهُ اللهُ مالًا فسَلَّطَه على هَلَكَتِه في القُصورِ والديكوراتِ والسيَّاراتِ الفَخْمةِ، نحن لا نَغبِطُه على هذا، بل نَقولُ: هذا مُسرِفٌ، إذا كان تَجاوَزَ الحَدَّ فيما يُنفِقُ، واللهُ لا يُحِبُّ المُسرِفينَ.

كذلك لا نَغبِطُ شَخصًا عندَه مالٌ فصارَ يُنفِقُ منه جَوائزَ في أشْياءَ لا يَنتَفِعُ الناسُ بها، لا في دِينِهم، ولا في دُنْياهم، فإنَّ بعضَ الناسِ يُعْطي جَوائزَ على ألعابٍ وأشياءَ منَ الأُمورِ التي ليس بها خَيرٌ لا في الدُّنْيا ولا في الآخِرةِ، هذا لا نَغبِطُه؛ لأنَّه لم يُسَلَّطْ على هَلَكةِ مالِه في الحقِّ، إنَّما الذي يُغبَطُ مَن سَلَّطَه اللهُ على هَلَكةِ مالِه في الحقِّ.

أيضًا لا نَحسُدُ إنْسانًا آتاهُ اللهُ مالًا فصارَ كلُّ ما عنَّ له أنْ يَتزَوَّجَ تَزَوَّجَ، وجمَعَ عندَه منَ النساءِ الحِسانِ ما لا يَجمَعُه غَيرُه، هذا لا نَغبِطُه أيضًا، إلَّا إذا كان سَلَّطَه اللهُ على هَلَكَتِه في الحقِّ، وأرادَ بذلك تَحْصينَ فَرْجِه، وتَحْصيلَ السُّنَّةِ، وكَثرةَ النسْلِ، فهذا مَقْصودٌ شَرْعيٌّ يُغبَطُ عليه الإنْسانُ.

والشاهِدُ في هذا الحَديثِ في بابِ فَضلِ العِلمِ هو الجُزءُ الأوَّلُ منه (مَن آتاهُ اللهُ الحِكْمةَ)، يَعني العِلمَ، فقَضى بها وعَلَّمَها، وهذا خَيرُ الرَّجُلَيْنِ، يَعني خيرٌ من صاحِبِ المالِ الذي سُلِّطَ على هَلَكَتِه في الحقِّ، نَسأَلُ اللهَ أنْ يَرزُقَنا وإيَّاكمُ العِلمَ النافِعَ والعَملَ الصالِحَ.



١٣٧٨ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النبيُّ ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ، وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ؛ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ،

فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

في هذا الحَديثِ الذي ساقَه الحافِظُ النوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ)، الذي رَواهُ أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ مَثَلٌ بَديعٌ عَجيبٌ، فقد مثَّلَ النبيُّ ﷺ ما بعَثَه اللهُ به منَ العِلمِ والهُدى، مثَّلَه بغَيثٍ -بمَطَرٍ- ووَجْهُ الشَّبَهِ أنَّ بالغَيثِ تَحْيا الأرضُ وبالوَحيِ تَحْيا القُلوبُ، ولهذا سَمَّى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما بعَثَ به مُحمَّدًا ﷺ سَمَّاه رُوحًا، فقال تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فالوَحْيُ غَيثٌ، لكنَّه كما مثَّلَ الرسولُ ﷺ نزَلَ على الأرضِ، فصارَتِ الأرضُ ثَلاثةَ أقْسامٍ:

القِسمُ الأوَّلُ: قِسمٌ قَبِلَ المَطَرَ وشرِبَ، وأنبَتَ العُشبَ الكَثيرَ والكَلَأَ، فانتَفَعَ الناسُ بذلك؛ لأنَّ الأرضَ أنبَتَتْ.

والقِسمُ الثاني: قِيعانٌ لا تُنبِتُ، لكنْ أمسَكَتِ الماءَ لم تَشرَبْه فسَقى الناسُ منه وارْتَوَوْا وزَرَعوا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلَّم، رقم (٧٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ رقم (٢٢٨٢).

القِسمُ الثالثُ: أرضٌ قِيعانٌ بلَعَتِ الماءَ ولم تُنبِتْ، سَبِخةٌ تَبلَعُ الماءَ، ولكنَّها لا تُنبِتُ، فهذا مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللهِ فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ به رَأسَه، الصورةُ الأُولى والثانيةُ للمَثَلِ فيمَن قَبِلَ الحقَّ فعَلِمَ وتَعلَّمَ ونفَعَ وانتَفَعَ، لكنَّ الذين قَبِلوا الحقَّ صاروا قِسميْنِ:

الأوَّلُ: قِسمٌ آتاهُ اللهُ تَعالى فِقهًا فصارَ يَأخُذُ الفِقهَ والأحْكامَ الشرْعيَّةَ من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه ﷺ ويُعَلِّمُ.

والثاني: راويةٌ، ولكنَّه ليس عندَه ذلك الفِقهُ، يَعني أنَّه يَحْكي الحَديثَ ويَرْويهِ ويَحفَظُه، ولكنَّه ليس عندَه فِقهٌ، وهذا كَثيرٌ أيضًا، فما أكثَرَ رِجالَ الحَديثِ الذين رَوَوُا الحَديثَ، لكنَّهم ليس عندَهم فِقهٌ، ما هُم إلَّا أوْعيةٌ يَأخُذُ الناسُ منهم، ولكنَّ الذي يوَزِّعُ من هذا الماءِ، ويَنفَعُ الناسَ به همُ الفُقَهاءُ، هذانِ قِسْمانِ: -قِسمٌ حفِظَ الشريعةَ ووَعاها وفَهِمَها وعَلَّمَها واستَنْبَطَ منها الأحْكامَ الكَثيرةَ، وهؤلاء مِثلُ الأرضِ التي قَبِلَتِ الماءَ، وأنبَتَتِ الكَلأَ والعُشبَ الكَثيرَ، وقِسمٌ آخَرُ نَقَلةٌ فقطْ، يَنقُلونَ الأحاديثَ، وهؤلاء كالأرضِ التي أمسَكَتِ الماءَ فانتَفَعَ الناسُ به، وارْتَوَوْا منه؛ لأنَّ الناسَ يَأخُذونَ من هؤلاء الرُّواةِ للحَديثِ، ثم يَستَنبِطونَ منه الأحْكامَ ويَنفَعونَ الناسَ بها.

أما القِسمُ الثالثُ: أرضٌ لم تَنتَفِعْ بالغَيثِ، وإنَّما قِيعانٌ لا تُمسِكُ الماءَ، ولا تُنبِتُ الكَلأَ، فهؤلاء ليس فيهم خَيرٌ، لم يَنتَفِعوا بوَحيِ اللهِ، ولم يَرفَعوا به رَأسًا، والعياذُ باللهِ، يُكَذِّبونَ بالخَبَرِ، ويَستكبِرونَ عنِ الأمرِ، فهؤلاء هم شَرُّ الأقْسامِ، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ.

فانظُرْ -أنتَ- في نَفْسِكَ من أيِّ الأرَضينَ الثلاثِ أنتَ، هل أنتَ منَ الأرضِ

التي قَبِلَتِ الماءَ، وأنبَتَتِ العُشبَ والكَلأَ، أو منَ الأرضِ الثانيةِ، أو منَ الأرضِ الثالثةِ -والعياذُ باللهِ-.

وفي الحَديثِ حُسنُ تَعليمِ الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ يَضرِبُ الأمْثالَ بالمَعاني المَعْقولةِ بأشياءَ مَحْسوسةٍ؛ لأنَّ إدْراكَ المَحْسوسِ أقرَبُ من إدْراكِ المَعْقولِ، وما أكثَرَ الأمْثالَ في القُرآنِ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

هذا مَثَلٌ لو جاءَ الكَلامُ هكذا: مَن أنفَقَ في سَبيلِ اللهِ حبَّةً فله سَبعُ مِئةِ حبَّةٍ، لم يَرسَخْ في الذهْنِ كرُسوخِ المَثَلِ؛ لأنَّ المَثَلَ الذي يَستَحضِرُه الإنسانُ يَرسَخُ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. فضرْبُ الأمْثالِ تَقريبٌ للعِلمِ وتَرْسيخٌ له، وإعانةٌ على الفَهمِ، لهذا يَنبَغي لكَ إذا حدَّثْتَ عامِّيًّا ولم يَفهَمْ أنْ تَضرِبَ له مَثَلًا، اضرِبْ له المَثَلَ بشيءٍ يَعقِلُه ويَعرِفُه حتى يَعرِفَ المعانيَ المَعْقولةَ بواسِطةِ الأشْياءِ المَحْسوسةِ. واللهُ الموفِّقُ.

١٣٧٩ - وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، رقم (٢٩٤٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٦).

١٣٨٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

الشَّرْح

ساقَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في بيانِ فَضلِ العِلمِ حَديثَ سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ أَعْطاهُ الرايةَ يومَ خَيبَرَ قال: «امْضِ على رِسْلِكَ، ثم ادْعُهم إلى الإسْلامِ وأخبِرْهم بما يَجِبُ عليهم من حقِّ اللهِ فيه، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» أقسَمَ ﷺ أنَّ اللهَ لو هَدى به رَجلًا واحِدًا لَكانَ خَيرًا له من حُمْرِ النَّعَمِ. والحُمْرُ: بسُكونِ الميمِ جَمعُ حَمْراءَ، وأمَّا الحُمُرُ بضَمِّ الميمِ فهي جَمعُ حِمارٍ، ولهذا يُخْطِئُ بعضُ الطلَبةِ فيَقولُ: خَيرٌ لكَ من حُمُرِ النَّعَمِ، وهذا غلَطٌ؛ لأنَّ الحُمُرَ جَمعُ حِمارٍ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر:٥٠]، أمَّا حُمْرٌ بسُكونِ الميمِ فهي جَمْعُ حَمْراءَ، وكذلك جَمعُ أحمَرَ، لكنَّها هُنا جَمعُ حَمْراءَ، وهي الناقةُ الحَمْراءُ، وكانت أعجَبَ المالِ إلى العرَبِ في ذلك الزمانِ، وأحبَّ المالِ إلى العرَبِ في ذلك الزمنِ، فإذا هَدى اللهُ بكَ رَجلًا واحِدًا كان ذلك خَيرًا لكَ من حُمْرِ النَّعَمِ، ففي هذا حثٌّ على العِلمِ وعلى التعْليمِ، وعلى الدعْوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ يَدعوَ الإنسانُ إلى اللهِ إلَّا وهو يَعلَمُ، فإذا كان يُعلِّمُ ما يَعلَمُ من شَريعةِ اللهِ ودَعا إلى ذلك كان هذا دَليلًا على فَضلِ العِلمِ.

ثم ذكَرَ حَديثَ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

قوله: «بَلِّغوا عنِّي»: يَعني بَلِّغوا الناسَ بما أقولُ، وبما أفعَلُ وبجَميعِ سُنَّتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**» من كتابِ اللهِ، ولو هُنا للتقْليلِ، يَعني: لا يَقُلِ الإنسانُ: أنا لا أُبَلِّغُ إلَّا إذا كُنتُ عالِمًا كَبيرًا، لا، إنَّما يُبلِّغُ الإنسانُ ولو آيةً بشَرطِ أنْ يكونَ قد عَلِمَها، وأنَّها من كَلامِ الرسولِ ﷺ، ولهذا قال في آخِرِ الحَديثِ: «**وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» مَن كذَبَ على الرسولِ مُتعَمِّدًا يَعلَمُ أنَّه كاذبٌ، فلْيَتبَوَّأْ مَقعَدَه منَ النارِ، هُنا اللامُ للأمرِ، لكنَّ المُرادَ بالأمرِ هُنا الخَبَرُ، يَعني فقد تَبَوَّأَ مَقعَدَه منَ النارِ -والعياذُ باللهِ- أيْ: فقدِ استَحَقَّ أنْ يَكونَ من ساكِني النارِ؛ لأنَّ الكذِبَ على الرسولِ ليس كالكذِبِ على واحدٍ منَ الناسِ، الكذِبُ على الرسولِ كذِبٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم هو كذِبٌ على الشريعةِ؛ لأنَّ ما يُخبِرُ به الرسولُ ﷺ منَ الوَحيِ هو من شَريعةِ اللهِ، وكذلك يُقالُ: الكذِبُ على العالِمِ ليس كالكذِبِ على عامَّةِ الناسِ، يَعني مَثلًا تَقولُ: قال فُلانٌ: كذا وكذا، قال: هذا حَرامٌ هذا حَلالٌ، هذا واجبٌ، هذا سُنَّةٌ، -وأنتَ تَكذِبُ- هذا أيضًا أشدُّ منَ الكذِبِ على عامَّةِ الناسِ؛ لأنَّ العُلَماءَ وَرَثةُ الأنْبياءِ يُبَلِّغونَ شَريعةَ اللهِ إرْثًا لرَسولِ اللهِ ﷺ، فإذا كذَبْتَ عليهم، وقُلتَ: قال العالِمُ فُلانٌ: كذا وكذا وأنتَ تَكذِبُ، فهذا إثْمُه عَظيمٌ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- بعضُ الناسِ -والعياذُ باللهِ- إذا اشْتَهى شَيئًا يَكُفُّ الناسَ عنه، قال: قال العالِمُ الفُلانيُّ: هذا حَرامٌ وهو يَكذِبُ، لكنْ يَعرِفُ أنَّ الناسَ إذا نُسِبَ العِلمُ إلى فُلانٍ قَبِلوهُ، فيَكذِبُ، أو يَقولُ: قال فُلانٌ: هذا واجبٌ، وهو كاذبٌ، وهذا أشدُّ منَ الكذِبِ على عامَّةِ الناسِ.

فالحاصِلُ: أنَّ مَن كذَبَ على الرسولِ ﷺ مُتعَمِّدًا فلْيَتبَوَّأْ مَقعَدَه منَ النارِ، ومَن نقَلَ عنه حَديثًا كذِبًا يَعلَمُ أنَّه كذِبٌ فهو أحَدُ الكاذِبينَ، يَعني فلْيَتبَوَّأْ مَقعَدَه منَ النارِ.

وما أكثرَ ما يُنشَرُ منَ النشَراتِ التي فيها الترْغيبُ أوِ الترْهيبُ، وهي مَكْذوبةٌ على الرسولِ ﷺ، لكنَّ بعضَ المُجتهِدينَ الجُهَّالُ يَنشُرونَ هذه النشَراتِ ويوَزِّعونَها بكَمِّيةٍ كَبيرةٍ يَقولونَ: نَعِظُ الناسَ بهذا، كيف تَعِظونَهم بشيءٍ كذِبٍ؟ ولهذا يَجِبُ الحَذرُ من هذه المَنْشوراتِ التي تُنشَرُ في المساجِدِ أو تُعَلَّقُ على الأبوابِ، أبوابِ المساجِدِ أو غيرِ ذلك، يجِبُ الحَذرُ منها، ورُبَّما يَكونُ فيها أشياءُ مَكْذوبةٌ، فيكونُ الذي يَنشُرُها قد تَبوَّأَ مَقعَدَه منَ النارِ إذا عَلِمَ أنَّها كذِبٌ.

وقال في حَديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»، بَنو إسْرائيلَ اليَهودُ والنَّصارى إذا قالوا قَولًا فحدِّثْ عنهم، ولا حَرَجَ عليكَ، بشَرطِ ألَّا تَعلَمَ أنَّه مُخالِفٌ للشريعةِ؛ لأنَّ بَني إسْرائيلَ عندَهم كذِبٌ، يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عن مَواضِعِه ويَكْذِبونَ، فإذا أخْبَروكَ بخَبَرٍ فلا بَأسَ أنْ تُحدِّثَ به بشَرطِ ألَّا يَكونَ مُخالِفًا لَمَا جاءَ في شَريعةِ الرسولِ ﷺ، فإنْ كان مُخالِفًا له فإنَّه لا يَجوزُ أنْ يُحدِّثَ، إلَّا إذا حدَّثَ به لِيُبيِّنَ أنَّه باطِلٌ فلا حَرَجَ، واللهُ أعلَمُ.

١٣٨١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

١٣٨٢ - وَعَنْهُ أَيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، رقم (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم (٢٦٧٤).

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ في بَيانِ فَضلِ العِلمِ وآثارِهِ الحَميدةِ، عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ» سُلوكُ الطريقِ يَشمَلُ الطريقَ الحِسيَّ الذي تَقرَعُه الأقْدامُ، مِثلَ أنْ يَأْتيَ الإنسانُ من بيتِه إلى مكانِ العِلمِ سَواءً كان مَكانُ العِلمِ مَسجِدًا، أو مَدرسةً، أو كُلِّيَّةً، أو غيرَ ذلك، ومن ذلك أيضًا الرحْلةُ في طَلَبِ العِلمِ أنْ يَرتَحِلَ الإنسانُ من بَلدِه إلى بَلدٍ آخَرَ يَلتَمِسُ العِلمَ، فهذا سلَكَ طَريقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا، وقد رحَلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ الأنْصاريُّ صاحِبُ رَسولِ اللهِ ﷺ في حَديثٍ واحدٍ مَسيرةَ شَهرٍ كاملٍ على الرواحِلِ على الإبِلِ، سارَ من بَلدِه إلى بَلدٍ مَسيرةَ شَهرٍ من أجْلِ حَديثٍ واحدٍ رَواهُ عبدُ اللهِ بنُ أُنَيْسٍ عنِ النبيِّ ﷺ[1].

أمَّا الثاني: فهو الطريقُ المَعْنَويُّ، وهو أنْ يُلتَمَسَ العِلمُ من أفْواهِ العُلَماءِ، ومن بُطونِ الكُتبِ، فالذي يُراجِعُ الكُتبَ للعُثورِ على حُكمِ مَسألةٍ شَرْعيَّةٍ وإنْ كانَ جالِسًا على كُرسيِّهِ فإنَّه قد سلَكَ طَريقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا، ومَن جلَسَ إلى شَيخٍ يَتعَلَّمُ منه فإنَّه قد سلَكَ طَريقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا، ولو كان جالِسًا، فسُلوكُ الطريقِ يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ:

قِسمٌ يُرادُ به الطريقُ الذي تَقرَعُه الأقدامُ، والثاني يُرادُ به الطريقُ الذي يُتَوَصَّلُ به إلى العِلمِ، وإنْ كان جالِسًا؛ مَن سلَكَ هذا الطريقَ سهَّلَ اللهُ له به طَريقًا إلى الجَنَّةِ؛ لأنَّ العِلمَ الشرْعيَّ تُعرَفُ به حِكَمُ ما أنزَلَ اللهُ، تُعرَفُ به شَريعةُ اللهِ، تُعرَفُ به أوامِرُ اللهِ، تُعرَفُ به نَواهي اللهِ، فتَستَدِلُّ به على الطريقِ الذي يُرْضي اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ويوَصِّلُكَ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥).

إلى الجَنَّةِ، وكلَّما ازدَدْتَ حِرصًا في سُلوكِ الطرُقِ الموَصِّلةِ إلى العِلمِ ازدَدْتَ طُرُقًا توَصِّلُكَ إلى الجَنَّةِ -نَسألُ اللهَ من فَضلِه العَظيمِ-.

وفي هذا الحَديثِ منَ الترْغيبِ في طَلَبِ العِلمِ ما لا يَخْفى على أحَدٍ، فيَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَنتَهِزَ الفُرصةَ، ولاسيَّما الشابُّ الذي يَحفَظُ سَريعًا، ويَمكُثُ في ذِهنِه ما حَفِظَه يَنبَغي له أنْ يُبادِرَ الوقتَ، ويُبادِرَ العِلمَ قبلَ أنْ يَأتيَه ما يَشغَلُه عن ذلك.

أمَّا الحَديثُ الثاني: فهو أيضًا عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، فَلَهُ أَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ**» يَعني إلى يومِ القيامةِ «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى**» يَعني علَّمَ الناسَ، فإنَّ الداعيَ إلى الهُدى هو الذي يُعلِّمُ الناسَ ويُبيِّنُ لهمُ الحقَّ، ويُرشِدُهم إليه، فهذا له مِثلُ أجرِ مَن فعَلَه، مَثلًا دلَلْتَ إنْسانًا على أنَّه يَنبَغي له أنْ يوتِرَ، يَجعَلُ آخِرَ صَلاتِه في الليلِ وِتْرًا، كما أمَرَ النبيُّ ﷺ قال: «**اجْعَلوا آخِرَ صَلاتِكم في الليلِ وِتْرًا**»[1] وحثَثْتَ على الوِتْرِ ورغَّبْتَ فيه، فأوْتَرَ أحَدٌ منَ الناسِ بِناءً على كَلامِكَ وعلى تَوْجيهِكَ، فلكَ مِثلُ أجْرِه، فإن عَلِمَ بذلك آخَرُ منكَ أو منَ الذي علَّمْتَه أنتَ، فلكَ مِثلُ أجْرِه، وإنْ تَسَلْسَلوا إلى يومِ القيامةِ.

وفي هذا دَليلٌ على كَثرةِ أُجورِ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّه دلَّ الأُمَّةَ على الهُدى، فكلُّ مَن عمِلَ من هذه الأُمَّةِ بهَدْيِ فللنَّبيِّ ﷺ أجْرُه من غيرِ أنْ يَنقُصَ من أُجورِهم شيءٌ، فالأجْرُ تامٌّ للفاعِلِ والداعي، وإذا تَبيَّنَ أنَّ النبيَّ ﷺ له أجرُ ما عَمِلَتْه أُمَّتُه، تَبيَّنَ بذلك خَطأُ مَن يُهْدي ثَوابَ العِبادةِ للرسولِ ﷺ، يَعني مَثلًا بعضُ الناسِ اجتَهَدَ وصارَ يُصَلِّي رَكعتَيْنِ ويقولُ: اللَّهُمَّ اجعَلْ ثَوابَها للرسولِ ﷺ، يَقرَأُ قُرآنًا ويَقولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب ليجعل آخر صلاة وترًا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٥١).

اللَّهُمَّ اجعَلْ ثَوابَه للرسولِ ﷺ، هذا غلَطٌ، وأوَّلُ ما حدَثَ هذا في القَرنِ الرابعِ الهِجْريِّ، يَعني بعدَ ثَلاثِ مِئةِ سَنةٍ من موتِ الرسولِ، استَحسَنَ بعضُ العُلَماءِ أنَّه يَفعَلُ هذا، قال: أنا كما أُهْدي لأبي وأُمِّي صَدَقةً أو صَلاةً أو ذِكرًا أُهْديهِ للرسولِ ﷺ، نَقولُ: هذا خَطأٌ، فنَقولُ: وسَفَهٌ في التصوُّرِ وضَلالٌ في الدِّينِ، كيف ذلك؟ نَسأَلُهُ ونَقولُ: هل أنتَ أعظَمُ حُبًّا للرسولِ ﷺ من أبي بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ فيَقولُ: لا، أعظمُ من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لا، أعظمُ من عُثْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لا، أعظمُ من عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لا، أعظَمُ منِ ابنِ عبَّاسٍ، ابنِ مَسعودٍ، منَ الصحابةِ رِضْوانُ اللهِ عليهم؟ لا، هل أحَدٌ منهم أَهْدى للرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَلًا صالِحًا؟ أبدًا، وكذلك التابِعونَ والأئمَّةُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، الإمامُ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ، الشافِعيُّ، مالِكٌ، أبو حَنيفةَ ما فَعَلوا هذا، ما الذي أطْلَعَكَ على شَيءٍ لم يَعْلَموا به، أو لم يَعْمَلوا به، مَن أنتَ؟ فهو خَطأٌ في التصوُّرِ وضَلالٌ في الدِّينِ؛ لأنَّ أيَّ عمَلٍ تَعمَلُه ولو كان ثَوابُه لكَ فللرسولِ ﷺ مِثلُه، وإنْ لم تَقُلْ شَيئًا، أيُّ عَملٍ، لو تُصَلِّي رَكعتَيْنِ أجْرُهما لكَ وللرسولِ مِثلُه من غَيرِ أنْ يَنقُصَ من أجْرِكَ شَيءٌ، إذنْ ما الفائدةُ؟ لا يَعني إهْداؤُكَ القُربَ للرسولِ ﷺ إلَّا أنَّكَ حَرَمْتَ نَفْسَكَ منَ الأجْرِ فقطْ، وللرسولِ مِثلُ أجْرِكَ، سَواءٌ أهْدَيْتَ له أو لم تُهْدِ؛ لأنَّه يَقولُ ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى فَلَهُ أَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**» فلا حاجةَ.

إذنْ نَأخُذُ من هذا الحَديثِ: فَضيلةَ العِلمِ؛ لأنَّ العِلمَ به الدَّلالةُ على الهُدى والحَثُّ على التَّقْوى، فالعِلمُ أفضَلُ بكَثيرٍ منَ المالِ، حتى لو تَصدَّقَ الإنْسانُ بأموالٍ عَظيمةٍ طائلةٍ، فالعِلمُ ونَشرُ العِلمِ أفضَلُ.

وأضرِبُ لكم مَثلًا الآنَ، في عَهدِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خُلَفاءُ مَلَكوا الدُّنْيا،

وفي عَهدِ الإمامِ أحمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أغْنياءُ مَلَكوا أمْوالًا عَظيمةً، وتَصَدَّقوا وأوْقَفوا، في عَهدِ مَن بعدَهم كشيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْميةَ، وابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ أُناسٌ أغْنياءُ تَصَدَّقوا، وأنْفَقوا، وأوْقَفوا، أين ذهَبَ المالُ؟ أين ذهَبَ ما أنْفَقوه؟ أين ذهَبَ ما وَقَفوه؟ لقد ذهَبَ فلا يوجَدُ له أثَرٌ الآنَ، لكنَّ أحاديثَ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُتْلى في كلِّ وَقتٍ لَيلًا ونَهارًا، ويَأْتيهِ أجْرُها، الأئِمَّةُ أيضًا عِلمُهم وفِقْهُهم مَنشورٌ بينَ الأُمَّةِ يَأْتيهم أجْرُهم، وهكذا شَيخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْميةَ، وابنُ القَيِّمِ وغَيرُهم منَ العُلَماءِ، ماتوا لكن ذِكْرُهم حيٌّ باقٍ يُعَلِّمونَ الناسَ وهُم في قُبورِهم، يَنالُهمُ الأجْرُ وهُم في قُبورِهم، وهذا يَدُلُّ على أنَّ العِلمَ أفضَلُ بكَثيرٍ منَ المالِ وأنفَعُ للإنسانِ، وسيَأْتي إنْ شاءَ اللهُ تَعالى في حَديثِ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكَرَه المُؤلِّفُ: «إذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». واللهُ الموفِّقُ.

١٣٨٣ - وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٣٨٤ - وَعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسولَ الله ﷺ يقول: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إلاَّ ذِكْرَ الله تَعَالَى، وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا». رواهُ التِّرْمِذِيُّ، وقال: «حديث حسن»[2].

قَوْله: «وَمَا وَالَاهُ»: أيْ طَاعة الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، رقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم (٤١١٢).

١٣٨٥- وعَن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ». رواهُ التِّرْمِذِيُّ، وقال: «حديث حسن»[١].

١٣٨٦- وعَن أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَن رَسولِ الله ﷺ، قَالَ: «لَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الجَنَّةَ». رواهُ التِّرْمِذِيُّ، وقال: «حَديثٌ حَسَن»[٢].

١٣٨٧- وعَن أَبي أُمَامَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيْرَ». رواهُ التِّرْمِذِيُّ، وقال: «حَديثٌ حَسَن»[٣].

الشَّرْح

ساقَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا لله) حَديثَ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» وهذا الحَديثُ فيه حَثٌّ الإنْسانِ على المُبادَرةِ بالأعْمالِ الصالِحةِ؛ لأنَّه لا يَدْري متى يُفاجِئُه المَوتُ، فلْيُبادِرْ قبلَ أنْ يَنقَطِعَ العَملُ بالعَملِ الصالِحِ الذي يَزْدادُ به رِفْعةً عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وثَوابًا، ومنَ المَعْلومِ أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا لا يَعلَمُ متى يَموتُ، ولا يَعلَمُ أينَ يَموتُ، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب فضل طلب العلم، رقم (٢٦٤٧).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٦).
(٣) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٥).

فإذا كان الأمرُ كذلك فإنَّ العاقِلَ يَنتَهِزُ الفُرَصَ، فُرَصَ العُمرِ في طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ قبلَ أنْ يَأتيَه المَوتُ، ولم يَستَعتِبْ ولم يَتُبْ، وقولُه: «انْقَطَعَ عَمَلُهُ» يَشمَلُ كلَّ عَملٍ لا يُكتَبُ له ولا عليه إذا ماتَ؛ لأنَّه انتقَلَ إلى دارِ الجَزاءِ، أمَّا دارُ العمَلِ فهي دارُ الدُّنيا، فالدورُ كلُّها بعدَ ذلك دورُ جَزاءٍ، إلَّا من ثلاثٍ:

قوله: «صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ»: يَعني أنْ يَتصَدَّقَ الإنسانُ بشَيءٍ ويَستَمِرَّ هذا الشيءُ وأحسَنُ ما يكونُ المساجِدُ، وبِناءُ المساجِدِ صَدَقةٌ جاريةٌ؛ لأنَّ أجْرَ الباني مُستَمِرٌّ ما دامَ هذا المَسجِدُ قائمًا لَيلًا ونَهارًا، والمُسلِمونَ يَمْكُثونَ في المساجِدِ في صَلاتِهم، وقِراءَتِهم، وتَعَلُّمِهمُ العِلمَ، وتَعْليمِهمُ العِلمَ وغَيرِ ذلك، ومنَ الصدَقاتِ الجاريةِ أنْ يوقِفَ الإنْسانُ وَقْفًا من عَقارٍ أو بُستانٍ أو نَحوِه على الفُقَراءِ والمَساكينِ، أو على طَلَبةِ العِلمِ، أو على المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ، أو ما أشبَهَ ذلك، ومنَ الصدَقاتِ الجاريةِ أنْ يَطبَعَ الإنْسانُ كُتبًا نافِعةً للمُسلِمينَ يَقْرَؤونَ فيها ويَنتَفِعونَ بها، سَواءٌ كانت من مُؤلِّفينَ في عَصرِه، أو من مُؤلِّفينَ سابِقينَ، المُهِمُّ أنْ تَكونَ كُتبًا نافِعةً يَنتَفِعُ بها المُسلِمونَ من بَعدِه.

ومنَ الصدَقاتِ الجاريةِ إصْلاحُ الطرُقِ، فإنَّ الإنْسانَ إذا أصلَحَ الطرُقَ وأزالَ عنها الأَذى واستَمَرَّ الناسُ يَنتَفِعونَ بهذا، فإنَّ ذلك منَ الصدَقاتِ الجاريةِ، والقاعِدةُ في الصدَقةِ الجاريةِ: كلُّ عَملٍ صالِحٍ يَستَمِرُّ للإنْسانِ بعدَ مَوتِه.

أمَّا الثاني: «فَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ»: وهذا أعَمُّها وأشْمَلُها وأنفَعُها أنْ يَترُكَ الإنسانُ وَراءَه عِلمًا يَنتَفِعُ المُسلِمونَ به، سَواءٌ ورَّثَ مَن بعدَه بالتعْليمِ الشفَويِّ أو بالكِتابةِ، فتَأليفُ الكُتبِ وتَعْليمُ الناسِ وتَداوُلُ الناسِ لهذه المَعْلوماتِ ما دامَ مُستَمِرًّا فأجْرُ المُعَلِّمِ جارٍ مُستَمِرٌّ؛ لأنَّ الناسَ يَنتَفِعونَ بهذا العِلمِ الذي ورَّثَه.

والثالثُ: «وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ولدٌ يَشمَلُ ذَكرًا أو أُنثى -يَعني ابنًا أو بِنتًا،

يَشمَلُ ابنَكَ من صُلبِكَ وابنَتَكَ من صُلبِكَ، وأبناءَ أبنائِكَ، وأبناءَ بناتِكَ، وبناتِ أبنائِكَ، وبناتِ بناتِكَ إلى آخِرِه، ولدٌ صالحٌ يَدْعو للإنسانِ بعدَ مَوتِه، هذا أيضًا يُثابُ عليه الإنسانُ، وانظُرْ كيف قال الرسولُ ﷺ: «**وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»، ولم يَقُلْ: وَلدٍ صالحٍ يُصَلِّي له، أو يَقرَأُ له القُرآنَ، أو يَتصَدَّقُ عنه، أو يَصومُ عنه، لا، ما قال هذا معَ أنَّ هذه كلَّها أعْمالٌ صالحةٌ، بل قال: «**وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»، وفي هذا دَليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ لأبيه وأُمِّه وجَدِّه وجَدَّتِه أفضَلُ منَ الصدَقةِ عنهم، وأفضَلُ منَ الصلاةِ لهم، وأفضَلُ منَ الصيامِ لهم؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يُمكِنُ أنْ يَدُلَّ أُمَّتَه إلَّا على خَيرِ ما يَعلَمُه لهم، ما من نبيٍّ بَعَثَه اللهُ إلَّا دَلَّ أُمَّتَه على خَيرِ ما يَعلَمُه لهم، فلو علِمَ الرسولُ ﷺ أنَّ كَونَكَ تَتصَدَّقُ عن أبيكَ وأُمِّكَ أفضَلُ منَ الدُّعاءِ، لَقالَ الصدَقةَ ولم يَقُلِ الدُّعاءَ، فلمَّا عدَلَ عنِ الصدَقاتِ، والصيامِ، والصلاةِ، وقِراءةِ القُرآنِ، والمَقامُ مَقامُ تَحدُّثٍ عنِ الأعْمالِ، لَمَا عدَلَ عَن هـذه الأعْمالِ إلى الدُّعاءِ عَلِمْنا يَقينًا لا إشْكالَ فيه أنَّ الدُّعاءَ أفضَلُ من ذلك، فلو سَأَلَنا سائلٌ: أيُّهما أفضَلُ أتَصدَّقُ لأبي أو أدْعو له؟ قُلْنا: الدُّعاءُ أفضَلُ؛ لأنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ هكذا أرْشَدَنا، فقال: «**أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»، والعَجيبُ أنَّ العوامَّ وأشباهَ العوامِّ يَظُنُّونَ أنَّ الإنسانَ إذا تَصدَّقَ عن أبيه، أو صامَ يومًا لأبيه، أو قرَأَ حِزْبًا منَ القُرآنِ لأبيه، أو ما أشبَهَ ذلك، يرَوْنَ أنَّه أفضَلُ منَ الدُّعاءِ، ومَصدَرُ هذا هو الجَهلُ، وإلَّا فمَن تدَبَّرَ النُّصوصَ علِمَ أنَّ الدُّعاءَ أفضَلُ، ولهذا لم يُرشِدِ النبيُّ ﷺ في أيِّ حَديثٍ بحَرفٍ واحدٍ إلى العَملِ الصالِحِ يَجعَلُه الإنْسانُ لوالِدِه أبدًا، قال الإمامُ مالكٌ: أنَّه حصَلَتْ قَضايا أعْيانٍ[1]، يَسأَلُه الصحابيُّ: هل يَتصَدَّقُ عن أبيه وهو ميِّتٌ أو عن أُمِّه وهي ميِّتةٌ؟

---

(١) انظر: الذخيرة للقرافي (٢/ ٣٤٦)، مواهب الجليل (٤/ ٤٣٦).

فيقولُ: نَعم، لا بَأسَ، لكنَّه لم يَحُثَّ الأُمَّةَ على ذلك، ولم يُرشِدْهم إلى هذا، لكنْ سُئِلَ في قَضايا أعْيانٍ، سعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَه: هل يَتصَدَّقُ بحائِطِه يَعني بِبُستانِه عن أُمِّه بعدَ مَوتِها، قال الرسولُ ﷺ: «نَعم»[1]، وجاءَهُ رَجلٌ قال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُها، يَعني ماتَتْ بَغْتةً، أفأتَصَدَّقُ عنها، قال: «نَعم»[2]، لكنْ لَمَّا أرادَ أنْ يُشرِّعَ تَشْريعًا عامًّا للأُمَّةِ قال: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، نَسأَلُ اللهَ أنْ يَغفِرَ لنا ولكم ولوالدَيْنا وللمُسلِمينَ جَميعًا.

١٣٨٨- وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[3].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا قال: أرضي أو بستاني صدقة لله عن أمي فهو جائز، وإن لم يبين لمن ذلك، رقم (٢٧٥٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب موت الفجأة البغتة، رقم (١٣٨٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، رقم (١٠٠٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

الشَّرح

ساقَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ) حَديثَ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ» وقد سبَقَ بَيانُ مَعنى هذه الجُملةِ، وفيه أيضًا من حَديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ حَتَّى الحيتَانُ فِي المَاءِ»، وهذا يَدُلُّ على فَضلِ العِلمِ، وأنَّ العُلَماءَ يَستَغفِرُ لهم أهلُ السماءِ والأرضِ وحتى الحيتانُ في البَحرِ، وحتى الدوابُّ في البَرِّ، كلُّ شَيءٍ يَستَغفِرُ له، ولا تَستَغرِبْ أنْ تكونَ هذه الحَيواناتُ تَستَغفِرُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ للعالِمِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في القُرْآنِ الكَريمِ على لسانِ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، فالبَهائمُ والحَشَراتُ تَعلَمُ ربَّها عَزَّوَجَلَّ وتَعرِفُه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤].

كلُّ شَيءٍ يُسبِّحُ بحَمدِ اللهِ حتى إنَّ الحَصى سُمِعَ تَسبيحُه بينَ يَدَيِ النبيِّ ﷺ وهو حَصًى[1]؛ لأنَّ اللهَ تَعالى ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، حتى إنَّ اللهَ قال للسمَواتِ والأرضِ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١]، فخاطَبَهما فخاطَباهُ، ائْتيا طَوعًا أو كَرهًا يَعني لمَّا أمَرَهما به، قالَتا: أتَيْنا طائعينَ، فكلُّ شَيءٍ يَمتَثِلُ أمرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إلَّا الكَفرةَ من بَني آدَمَ والجِنِّ، ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ في كتابِه العَزيزِ: إنَّ كَثيرًا منَ الناسِ يَسجُدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وكَثيرٌ حقَّ عليه العذابُ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحج:١٨]، لا يَسجُدُ، ولهذا الكافرُ لا يَستَجيبُ للهِ،

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١٤٦)، والبزار (٤٠٤٤)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يَسجُدُ للهِ شَرعًا وتَعبُّدًا، لكنَّه يَسجُدُ للهِ ذُلًّا قَدَريًّا ما له مَفَرٌّ عمَّا قَضى اللهُ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥]. والسجودُ هُنا السجودُ القَدَريُّ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لقدَرِ اللهِ، لا أحَدَ يَستَطيعُ أنْ يُغالِبَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، أين المَفَرُّ؟ يقولُ الشاعرُ الجاهِليُّ[1]:

أيــنَ المَفَــرُّ والإلــهُ الطالِــبُ والأشرَمُ المَغْلوبُ ليس الغالِبُ

فالسجودُ الشرْعيُّ كَثيرٌ منَ الناسِ حَقَّ عليهمُ العَذابُ فلم يَسجُدوا، على أنَّ الشمسَ والقمَرَ والنجومَ والجِبالَ والشجَرَ والدوابَّ كلَّها تَسجُدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ.

لكنَّ الكَفَرةَ من بَني آدَمَ ومنَ الجِنِّ لا يَسجُدونَ للهِ تَعالى إلَّا السجودَ الكَوْنيَّ القَدَريَّ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

والحاصِلُ: أنَّ اللهَ تَعالى سخَّرَ هذه الكائناتِ تَستَغفِرُ للعالِمِ، وأفضَلُ من ذلك أنَّ المَلائكةَ تَضَعُ أجنِحَتَها لطالِبِ العِلمِ رضًا بما يَصنَعُ.

المَلائكةُ الكِرامُ الذين كرَّمَهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ تَضَعُ أجنِحَتَها لطالِبِ العِلمِ رضًا بما يَفعَلُ، هل تَرَوْنَ فَضلًا أعظَمَ من هذا، أنَّ المَلائكةَ -مَلائكةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ- تَضَعُ أجنِحَتَها لطالِبِ العِلمِ رِضًا بما يَصنَعُ، هذا فَضلٌ عَظيمٌ.

وبيَّنَ النبيُّ ﷺ في حَديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ العُلَماءَ وَرَثةُ الأنْبياءِ، لو سأَلْتَ: مَنِ الذي يَرِثُ الأنْبياءَ؟ العُبَّادُ الذين يَرْكَعونَ ويَسْجُدونَ لَيلًا ونَهارًا؟ لا، أقاربُ الأنْبياءِ؟ لا يَرِثُ الأنْبياءَ إلَّا العُلَماءُ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنا منهم- العُلَماءُ هم وَرَثةُ الأنْبياءِ، وَرِثوا العِلمَ منَ الأنْبياءِ، وَرِثوا العَمَلَ كما يَعمَلُ الأنْبياءُ -ووَرِثوا الدَّعْوةَ إلى

(١) قاله نفيل بن حبيب يوم حادثة الفيل. انظر تاريخ الطبري (٢/ ١٣٦).

اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ووَرِثوا هِدايةَ الخَلقِ ودِلالَتَهم على شَريعةِ اللهِ، فالعُلَماءُ هم وَرَثةُ الأنْبياءِ، والأنْبياءُ لم يُوَرِّثوا دِرهمًا ولا دينارًا، تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ عنِ ابنتِه فاطمةَ، وعن عمِّه العبَّاسِ، وعن أبناءِ عمِّه، وعن زَوْجاتِه، ولم يَرِثْه ابنتُه ولا زَوْجاتُه، ولا عَصَبَتُه؛ لأنَّ الأنْبياءَ لا يوَرِّثونَ دِرهمًا ولا دينارًا، وهذا من حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّهم لا يوَرِّثونَ لئَلَّا يَقولَ قائلٌ: إنَّ النبيَّ إنَّما ادَّعى النُّبوَّةَ لأجْلِ أنْ يَملِكَ، فيَرِثَه أقارِبُه من بعدِه، فقُطِعَ هذا، وقيلَ: النبيُّ لا يَرِثُه ولَدُه، وأمَّا قولُ زَكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٥-٦]. فالمُرادُ بذلك إرْثُ العِلمِ والنُّبوةِ، وليس إرْثَ المالِ، فالأنْبياءُ لا يُورَثونَ، ما وَرَّثوا دِرهمًا ولا دينارًا، إنَّما وَرَّثوا هذا العِلمَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم، وهذا أعظَمُ ميراثٍ، فمَن أخَذَه أخَذَ بحَظٍّ وافِرٍ، أيْ بنَصيبٍ وافرٍ كَثيرٍ، مَن أخَذَ بهذا العِلمِ، وأسأَلُ اللهَ أنْ يَجْعَلَني وإيَّاكم ممَّن أخَذَ به، هذا هو الإرْثُ الحَقيقيُّ النافِعُ، العُلَماءُ وَرَثةُ الأنْبياءِ، والأنْبياءُ لم يوَرِّثوا دِرهمًا ولا دينارًا، وإنَّما وَرَّثوا العِلمَ.

أليس الإنْسانُ يَسْعى من شَرقِ الأرضِ إلى مَغرِبِها من أجْلِ أنْ يَحصُلَ على مالٍ خلَّفَه أبوهُ له، وهو مَتاعُ دُنْيا، فلماذا لا نَسْعى من مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها إلى أخْذِ العِلمِ الذي هو ميراثُ مَن؟ الأنْبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ.

جَديرٌ بنا أنْ نَسْعى بكلِّ ما نَستَطيعُ لأخْذِ العِلمِ المَوْروثِ عنِ الأنْبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، ولو لم يَكُنْ من فَضلِ العِلمِ إلَّا أنَّ العالِمَ كلَّما عَمِلَ شيئًا فهو يَشعُرُ معَ إخْلاصِهِ للهِ عَزَّوَجَلَّ بأنَّ إمامَه مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه يَعبُدُ اللهَ على بَصيرةٍ، عندَما يَتوَضَّأُ يَشعُرُ كأنَّ الرسولَ ﷺ أمامَه، يَتوَضَّأُ الآنَ، يَتبَعُه تَمامًا، وكذلك في الصلاةِ وغَيرِها منَ العِباداتِ، لو لم يَأْتِكَ من فَضلِ العِلمِ إلَّا هذا لكانَ كافيًا، فكيف وهذا الفَضلُ العَظيمُ في حَديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصِلُ: أنَّ الإنْسانَ الذي يَمُنُّ اللهُ عليه بالعِلمِ، فقد منَّ اللهُ عليه بما هو أعظَمُ منَ الأموالِ، والبَنينَ، والزوْجاتِ والقُصورِ والمَراكبِ، وكلِّ شيءٍ.

فعليكَ بالاسْتِكْثارِ من ميراثِ النبيِّ ﷺ، وابذُلِ الوُسْعَ في الطلَبِ والتحْصيلِ والتدْقيقِ، ومَهْما بلَغْتَ في العِلمِ فتذَكَّرْ كم ترَكَ الأوَّلُ للآخِرِ.

ثم اعلَمْ أنَّ ميراثَ النبيِّ ﷺ إمَّا أنْ يَكونَ بالقُرآنِ الكَريمِ، أو بالسُّنَّةِ النبَويَّةِ، فإنْ كان بالقُرآنِ الكَريمِ فقد كُفيتَ إسْنادَه والنظَرَ فيه؛ لأنَّ القُرآنَ لا يَحْتاجُ إلى إسْنادٍ، إذ إنَّه مُتَواتِرٌ أعظَمَ التواتُرِ، وأمَّا إذا كان بالسُّنَّةِ النبَويَّةِ فلا بُدَّ من أنْ تَنظُرَ، أوَّلًا: هل صحَّتْ نِسبَتُه إلى الرسولِ ﷺ أمْ لم تَصِحَّ؟ فإنْ كُنتَ تَستَطيعُ أنْ تُمحِّصَ ذلك بنَفْسِكَ، فهذا هو الأَوْلى، وإلَّا فقَلِّد، فإنْ لم تَستَطِعْ فدَعْه وجاوِزْه إلى ما تَستَطيعُ.

وقولُنا: «ابذُلِ الوُسعَ في الطلَبِ والتحْصيلِ والتدْقيقِ» بَذلُ الوُسْعِ يَعني الطاقةَ، بَذلُ الطاقةِ في التدْقيقِ أمرٌ مُهِمٌّ؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يَأخُذُ بظَواهِرِ النصوصِ وبعُمومِاتِها دونَ أنْ يُدقِّقَ، هل هذا الظاهِرُ مُرادٌ أو غيرُ مُرادٍ؟ وهل هذا العامُّ مُخَصَّصٌ أو غيرُ مُخَصَّصٍ؟ وهل هذا المُطلَقُ مُقَيَّدٌ أو غيرُ مُقَيَّدٍ؟ فتَجِدُه يَضرِبُ السُّنَّةَ بعضَها ببَعضٍ ولا يُدَقِّقُ لأنَّه ليس عندَه عِلمٌ في هذا الأمرِ، لا يُدَقِّقُ، وهذا يَغلِبُ على كَثيرٍ منَ الشبابِ اليومَ الذين يَعْتَنونَ بالسُّنَّةِ، تَجِدُ الواحِدَ منهم يَتسَرَّعُ في الحُكمِ المُستَفادِ منَ الحَديثِ، أو في الحُكمِ على الحَديثِ، وهذا خَطَرٌ عَظيمٌ.

وقَد قِيلَ: «ومَهْما بلغْتَ منَ العِلمِ، فتذَكَّرْ: كم ترَكَ الأوَّلُ للآخِرِ» هذا كلامٌ طيِّبٌ، لكنْ أحسَنُ من ذلك أنْ نَقولَ: مَهما بلغْتَ في العِلمِ فتذَكَّرْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، يَعني هذا منَ القُرآنِ، وأوضَحُ في الدَّلالةِ من قَولِه: «كم ترَكَ الأوَّلُ للآخِرِ» وتذَكَّرْ أيضًا قولَه تَعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

اللَّهُمَّ ارزُقْنا عِلمًا نافِعًا، وعمَلًا صالِحًا، ورِزقًا طيِّبًا واسِعًا تُغْنِنا به عن خَلقِكَ، إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

١٣٨٩ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٣٩٠ - وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ». رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

الشَّرْح

ساقَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ) أحاديثَ مُتعَدِّدةً سبَقَ كَثيرٌ منها، ومنها حَديثُ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، نضَّرَ اللهُ

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٦)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، رقم (٢٦٥٧)، وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب من بلغ علمًا، رقم (٢٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وأبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه: المقدمة، باب من سئل عن علم فكتمه، رقم (٢٦١).

يَعني حَسَّنَه؛ لأنَّ نَضَّرَ بالضادِ منَ الحُسنِ، ومنه قولُه تَعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. ناضِرةٌ يَعني حَسَنةً، إلى ربِّها ناظِرةٌ يَعني تَنظُرُ بالعَينِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، جَعَلَنا اللهُ وإيَّاكم منهم، وكذلك أيضًا قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]. أيْ حُسْنًا وسُرورًا، حُسْنًا في الوُجوهِ وسُرورًا في القُلوبِ، هُنا يَقولُ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا -يَعني مَقالًا- فَأَدَّاهُ كَما سَمِعَهُ»، والمُرادُ بذلك أنَّ النبيَّ ﷺ دَعا للإنْسانِ إذا سمِعَ حَديثًا عن رَسولِ اللهِ ﷺ فبَلَّغَه كما سَمِعَه، أنْ يُحَسِّنَ اللهُ تَعالى وَجْهَه يومَ القيامةِ.

وقوله: «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»؛ لأنَّه رُبَّما يَكونُ الإنْسانُ يَسمَعُ الحَديثَ ويُبَلِّغُه ويَكونُ المُبَلَّغُ أَوْعى منَ السامِعِ، يَعني أفْقَهَ وأفْهَمَ وأشَدَّ عَملًا منَ الإنْسانِ الذي سَمِعَه وأدَّاه، وهذا كما قال النبيُّ ﷺ مَعلومٌ، تَجِدُ مَثلًا منَ العُلَماءِ مَن هو راويةٌ يَرْوي الحَديثَ، ويَحفَظُه، ويُؤَدِّيه لكنَّه لا يَعرِفُ مَعْناهُ فيُبَلِّغُه إلى شَخصٍ آخَرَ منَ العُلَماءِ يَعرِفُ المَعْنى ويَفْهَمُه ويَستَنتِجُ من أحاديثِ الرسولِ ﷺ أحْكامًا كَثيرةً، فيَنفَعُ الناسَ، وقد سبَقَ أنَّ مَثَلَ الأوَّلِ كمَثَلِ الأرضِ التي أمسَكَتِ الماءَ فرَوى الناسُ وارْتَوَوْا، لكنَّها لا تُنبِتُ، وأمَّا الأرضُ الرياضُ التي أنبَتَتْ فهمُ الفُقَهاءُ الذين عَرَفوا الأحاديثَ، وفَقِهوها، واستَنتَجوا منها الأحْكامَ الشرْعيَّةَ.

أمَّا حَديثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدَ هذا فقد تَوعَّدَ النبيُّ ﷺ مَن سُئِلَ عن عِلمٍ فكَتَمَه بأنْ يُلجَمَ يومَ القيامةِ بلِجامٍ من نارٍ، أيْ يوضَعُ على فَمِه لِجامٌ من نارٍ، نَسأَلُ اللهَ العافيةَ؛ لأنَّه كتَمَ ما أنزَلَ اللهُ بعدَ أنْ سُئِلَ عنه، وهذا إذا علِمْتَ أنَّ السائلَ يَسأَلُ لاستِرْشادِه، فلا يَجوزُ لكَ أنْ تَمنَعَ، أمَّا إذا عَلِمْتَ أنَّه يَسأَلُ امْتِحانًا، وليس قَصدُه أنْ يَستَرشِدَ فيَعلَمَ ويَعمَلَ، فأنتَ بالخيارِ إنْ شِئتَ فعَلِّمْه، وإنْ شِئتَ فلا تُعَلِّمْه،

لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة:٤٢]. لأنَّ اللهَ علِمَ أنَّ هؤلاء يَأْتونَ النبيَّ ﷺ يَستَحكِمونَه لا لأجْلِ أنْ يَعمَلوا بكَلامِه، ولكنْ ليَنظُروا ما عندَه، فإذا علِمْتَ أنَّ هذا الرَّجلَ جاء يَسأَلُكَ عن عِلمٍ امْتِحانًا فقطْ، لا طَلَبًا للحقِّ، فأنتَ بالخيارِ إنْ شِئتَ فافعَلْ، وأَفْتِه وعَلِّمْه، وإنْ شِئتَ فلا تُفْتِه، ولا تُعَلِّمْه، كذلك إذا عَلِمْتَ أنَّه يَحصُلُ منَ الفَتْوى مَفْسَدةٌ كَبيرةٌ، فلا بَأسَ أنْ تُرْجِئَ الإفْتاءَ، لا تَكتُمْ لكنْ لا بَأسَ أنْ تُرْجِئَ الإفْتاءَ إلى وَقتٍ يَكونُ فيه المَصْلَحةُ؛ لأنَّه أحْيانًا تَكونُ الفَتْوى لو أفْتَيْتَ بها سَبَبًا للشرِّ والفَسادِ، فأنتَ إذا رَأيْتَ أنَّها سَببٌ للشرِّ والفَسادِ وأجَّلْتَ الإجابةَ فلا حرَجَ عليكَ في ذلك، واللهُ الموفِّقُ.

١٣٩١- وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْني: رِيحَها. رَواهُ أَبو داوُدَ[1] بإسْنادٍ صَحيحٍ.

الشَّرْح

من فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ، ما ساقَه المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ طَلَبَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، يَعني ريحَها، والعُلومُ تَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ:

قِسمٍ: يُرادُ به وَجهُ اللهِ وهو العُلومُ الشرْعيَّةُ وما يُسانِدُها من عُلومٍ عَربيَّةٍ.

وقِسمٍ آخَرَ: عِلمُ الدُّنْيا، كعِلمِ الهَندَسةِ والبِناءِ والميكانيكا، وما أشبَهَ ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله تعالى، رقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٢).

فأمَّا الثاني: عِلمُ الدُّنْيا -فلا بَأسَ أنْ يَطلُبَ الإنْسانُ به عرَضَ الدُّنْيا، يَتعَلَّمُ الهَندَسةَ ليَكونَ مُهَندِسًا يَأخُذُ راتبًا وأُجْرةً، يَتعَلَّمُ الميكانيكا من أجْلِ أنْ يَكونَ ميكانيكيًّا يَعمَلُ ويَكدَحُ ويَنْوي الدُّنْيا، هذا لا حرَجَ عليه أنْ يَنويَ في تَعلُّمِه الدُّنْيا، لكنْ لو نَوى نَفْعَ المُسلِمينَ بما تَعلَّمَ لكانَ ذلك خَيرًا له، ويَنالُ بذلك الدِّينَ والدُّنْيا، يَعني لو قال: أنا أُريدُ تَعلُّمَ الهَندَسةَ من أجْلِ أنْ أكفيَ المُسلِمينَ أنْ يَجْلِبوا مُهَندِسينَ كفَّارًا مَثلًا، لكان هذا طيِّبًا، أو يَتعلَّمُ الميكانيكا من أجْلِ أنْ يَسُدَّ حاجةَ المُسلِمينَ فيما إذا احْتاجوا ميكانيكيِّينَ، فهذا خَيرٌ، وله أجْرٌ على ذلك، لكنْ لو لم يُرِدْ إلَّا الدُّنْيا فله ذلك، ولا إثْمَ عليه، كالذي يَبيعُ ويَشتَري من أجْلِ زيادةِ المالِ.

أمَّا القِسمُ الأوَّلُ: الذي يَتعَلَّمُ شَريعةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وما يُسانِدُها، فهذا عِلمٌ لا يُبْتَغى به إلَّا وَجهُ اللهِ، إذا أرادَ به الدُّنْيا فإنَّه لا يَجِدُ ريحَ الجَنَّةِ يومَ القيامةِ، وهذا وَعيدٌ شَديدٌ والعياذُ باللهِ، يدُلُّ على أنَّ مَن قصَدَ بتَعلُّمِ الشرْعِ شَيئًا من أُمورِ الدُّنْيا، فإنَّه قد أتى كَبيرةً من كَبائرِ الذُّنوبِ، ولا يُبارَكُ له في عِلمِه، يَعني مَثلًا، قال: أُريدُ أنْ أتعَلَّمَ من أجْلِ أنْ أصرِفَ وُجوهَ الناسِ إليَّ حتى يَحتَرِموني، ويُعَظِّموني، أُريدُ أنْ أتعَلَّمَ حتى أكونَ مُدَرِّسًا فآخُذَ راتبًا، وما أشبَهَ ذلك، هذا -والعياذُ باللهِ- لا يَجِدُ ريحَ الجَنَّةِ يومَ القيامةِ، وقد أشكَلَ على هذا، أو قد روَّعَ هذا بعضَ الذين يَقرَؤونَ في المَدارسِ النظاميَّةِ كالمَعاهِدِ والكُلِّياتِ من أجْلِ أنْ يَنالوا الشهادةَ، فيُقالُ: نَيلُ الشهادةِ ليس للدُّنْيا وحْدَها قد يكونُ للدُّنْيا وحْدَها وقد يَكونُ للآخِرةِ، فإذا قال الطالِبُ: أنا أطلُبُ العِلمَ لأنالَ الشهادةَ حتى أتمَكَّنَ من وَظائفِ التدْريسِ، وأنفَعَ الناسَ بذلك، أو حتى أكونَ مُديرًا في دائرةٍ أُوَجِّهُ مَن فيها إلى الخَيرِ، فهذا خَيرٌ ونيَّةٌ طيِّبةٌ، وليس فيها إثمٌ ولا حرَجٌ.

وذلك أنَّه معَ الأسَفِ في الوَقتِ الحاضِرِ صارَ مِقْياسُ كَفاءةِ الناسِ الوَحيدُ هذه الشهاداتِ، فالحاصِلُ عليها يَتوَظَّفُ ويَتولَّى قيادةً على حسَبِ هذه الشهادةِ، كما يَتولَّى التدْريسَ في الكُلِّياتِ والجامِعاتِ، أمَّا غَيرُه ولو كان لدَيْه إلمامٌ جيِّدٌ في العِلمِ فلا يَحصُلُ على الميزاتِ لأنَّه لا يَحمِلُ شَهادةً، فنَظرًا لأنَّ الأحوالَ قد تَغيَّرَتْ وانقَلَبَتْ إلى هذا المآلِ، نَقولُ: إذا طلَبْتَ العِلمَ من أجْلِ أنْ تَنالَ الشهادةَ التي تَتمَكَّنُ بها من تَوَلِّي التدْريسِ، لا لأجْلِ الدُّنْيا لكنْ لأجْلِ نَفعِ الخَلقِ، فإنَّ هذا لا بَأْسَ به، ولا تُعَدُّ قاصِدًا بذلك الدُّنْيا ولا يَنالُكَ هذا الوَعيدُ، فالحَمدُ للهِ، إنَّما الأعْمالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امْرِئٍ ما نَوى، فهذا ميزانٌ، وانظُرْ قَلبَكَ ماذا نَوى.

فعلى هذا فالذي يَطلُبُ العُلومَ الشرْعيَّةَ في الجامِعةِ من أجْلِ أنْ يَنالَ الشهادةَ نَقولُ: ما الذي تُريدُه: هل أنتَ تُريدُ أنْ تَنالَ الشهادةَ من أجْلِ أنْ تَكونَ في المَرْتَبةِ الفُلانيَّةِ وراتِبُكَ كذا وكذا، إذا قال: نَعم، أنا أُريدُ هذا، نَقولُ: خِبْتَ وخَسِرْتَ، ما دُمْتَ تُريدُ الدُّنْيا.

أمَّا إذا قال: لا، أنا أُريدُ أنْ أنفَعَ الخَلقَ؛ لأنَّه الآنَ لا يُمكِنُ الوُصولُ إلى نَفعِ الخَلقِ بالتدْريسِ إلَّا بالشهاداتِ، وأنا أُريدُ أنْ أصِلَ إلى هذا، كما أنَّه لا يَنالُ الإنسانُ وَظيفةً كَبيرةً يَكونُ قائدًا فيها على جَماعةٍ منَ المُسلِمينَ إلَّا بالشهادةِ، وأنا أُريدُ هذا، قُلْنا: الحَمدُ للهِ، هذه نيَّةٌ طيِّبةٌ، وليس عليكَ شَيءٌ، والأعمالُ بالنِّيَّاتِ، ولكلِّ امْرِئٍ ما نَوى، المُهِمُّ: أنْ تَحذَرَ أخي طالبَ العِلمِ منَ النِّيَّاتِ السيِّئةِ، فالعِلمُ الشرْعيُّ أعَزُّ وأرفَعُ وأعْلى من أنْ تُريدَ به عَرَضًا زائلًا منَ الدُّنْيا، ولو بَقِيَتْ عندَكَ الدُّنْيا فلا بُدَّ إمَّا أنْ تُفارِقَها، أو تُفارِقَكَ، إمَّا أنْ تَفتقِرَ وتَعدَمَ المالَ، وإمَّا أنْ تَموتَ ويَذهَبَ المالُ لغَيرِكَ.

لكنَّ أُمورَ الآخِرةِ باقيةٌ، فلماذا تَجعَلُ العِلمَ الشرْعيَّ الذي هو من أجَلِّ العِباداتِ وأفضَلِ العِباداتِ سُلَّمًا لتَنالَ به عَرَضًا منَ الدُّنْيا؟ إنَّ هذا سَفَهٌ في العَقلِ وضَلالٌ في الدِّينِ، لا بُدَّ أنْ تَجعَلَ العِلمَ الشرْعيَّ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولِحمايةِ شَريعَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورَفعِ الجَهلِ عن نَفْسِكَ وعن إخْوانِكَ المُسلِمينَ، وللدَّلالةِ على الهُدى، ولتَنالَ ميراثَ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ العُلَماءَ وَرَثةُ الأنْبياءِ، نَسأَلُ اللهَ أنْ يُخلِصَ لنا ولكمُ النيَّةَ ويُصلِحَ العَمَلَ، إنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.



١٣٩٢ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «إنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

ساقَ المُؤلِّفُ الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى في (بابِ فَضلِ العِلمِ تَعلُّمًا وتَعْليمًا للهِ) حَديثَ عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انْتِزاعًا من صُدورِ الرِّجالِ» ففي هذا الحَديثِ إشارةٌ إلى أنَّ العِلمَ سيُقبَضُ، ولا يَبْقى في الأرضِ عالِمٌ يُرشِدُ الناسَ إلى دِينِ اللهِ، فتَتدَهْوَرُ الأُمَّةُ وتَضِلُّ، ثم بعدَ ذلك يُنزَعُ منها القُرآنُ، يُنزَعُ منَ الصدورِ، ومنَ المَصاحِفِ، فكما قال أهلُ السُّنَّةِ: إنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غيرُ مَخْلوقٍ، منه بَدَأَ وإليه يَعودُ، قالوا: مَعنى وإليه يَعودُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، رقم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، رقم (٢٦٧٣).

أيْ يَرجِعُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في آخِرِ الزمانِ حينَ يَهجُرُه الناسُ هَجْرًا تامًّا لا يَقْرَؤونَه، ولا يَعمَلونَ به، ونَظيرُ ذلك الكَعبةُ المُشَرَّفةُ حَماها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لمَّا أرادَ أَبْرَهةُ أنْ يَهدِمَها وقدِمَ إليها بفيلٍ عَظيمٍ وجُنودٍ كَثيرةٍ حَماها اللهُ عَزَّوَجَلَّ منه، وأنزَلَ اللهُ في ذلك سورةً كاملةً: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قوله تَعالى: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ طُيورٌ أرسَلَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أبابيلُ يَعني: جَماعاتٍ مُتَفرِّقةً، كلُّ واحدٍ في مِنْقارِه وبينَ رِجْلَيْه حِجارةٌ من سِجِّيلٍ يَعني من طينٍ مَشْويٍّ صُلبٍ، فكانت هذه الطيورُ بأمرِ اللهِ تُرسِلُ هذه الحِجارةَ على هؤلاءِ الجُنودِ حتى أنَّها تَضرِبُ الرَّجلَ من رَأسِه وتَخرُجُ من دُبُرِه -نَعوذُ باللهِ- حتى جَعَلَهم كعَصفٍ مَأْكولٍ، يَعني كعَصفِ الزرْعِ الذي أكَلَتْه البَهائمُ، واختَلَطَ بعضُه ببعضٍ، لكنْ في آخِرِ الزمانِ إذا انتَهَكَ الناسُ حُرْمةَ هذا البيتِ، وأكْثَروا فيه منَ المَعاصي وغَيرِ ذلك ممَّا يُعَدُّ امْتِهانًا لحُرمَتِه سلَّطَ اللهُ عليهم رَجلًا منَ الحَبَشةِ أبْعَجَ قَصيرًا فيَنقُضُها حَجرًا حَجرًا، يَأْتي إليها بجُنودٍ، فيَنقُضُها يَهدِمُها حَجرًا حَجرًا، إذا نزَعَ الحَجَرَ أعْطاه أحَدَ الجُنودِ، ثم التاليَ الذي بجانِبِه من مَكَّةَ إلى البَحرِ، يَتَمادُّونَ حِجارَتَها حتى تُهدَمَ عن آخِرِها، فانظُرْ واعتَبِرْ، وتأمَّلْ فقد حَماها اللهُ عَزَّوَجَلَّ -في الزمَنِ الأوَّلِ- من أولئك الكَفَرةِ؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّه سيَبعَثُ فيها رَسولًا يَنقُلُ الناسَ منَ الضلالِ والظلْمِ والشرْكِ إلى الهُدى والعَدلِ والتوْحيدِ، أمَّا في آخِرِ الزمانِ عندَما يَنتَهِكُ الناسُ هذه الحُرمةَ، فإنَّ اللهَ يُسلِّطُ عليها بحِكْمَتِه من يَهدِمُها، ولا أحَدَ يَقولُ شَيئًا، ولا أحَدَ يُعارِضُ هذا الرَّجُلَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ بحِكْمَتِه يُمَكِّنُه من ذلك، وكذلك القُرآنُ الكَريمُ يُنتَزَعُ

منَ الصدورِ ومنَ المَصاحِفِ، ويُرفَعُ إلى الربِّ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه كَلامُه، منه بَدَأَ وإليه يَعودُ.

العِلمُ أيضًا لا يُنتَزَعُ من صُدورِ الرِّجالِ، لكنَّه يُقبَضُ بمَوتِ العُلَماءِ، يَموتُ العُلَماءُ الذين هم عُلَماءُ حَقيقةً، ولا يَبْقى عالِمٌ، فيَتَّخِذُ الناسُ رُؤَساءَ، يَعني يَتَّخِذُ الناسُ مَن يَترَأَّسُهم ويَستَفْتونَه، لكنَّهم جُهَّالٌ يُفْتونَ بغَيرِ عِلمٍ، فيَضِلُّونَ ويُضِلُّونَ -والعياذُ باللهِ- وتَبْقى الشرْيعةُ بينَ هؤلاء الجُهَّالِ يَحْكُمونَ بها بينَ الناسِ وهُم جَهَلةٌ، وحينَئذٍ لا يوجَدُ الإسْلامُ الحَقيقيُّ الذي يَكونُ مَبْنيًّا على الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ لأنَّ أهلَه قد قُبِضوا.

وفي هذا الحَديثِ: حَثٌّ وتَأكيدٌ على طلَبِ العِلمِ حتى لا نَصِلَ إلى الحالِ التي وصَفَها الرسولُ ﷺ.

والإخبارُ بالواقِعِ لا يَعني إقرارَه. يَعني إذا أخبَرَ الرسولُ ﷺ عن شيءٍ ليس مَعْناه أنَّه يُقِرُّه، ويَسمَحُ فيه، كما أخبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأقسَمَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم» يَعني لتَركَبُنَّ طُرُقَ مَن كان قبلَكم- قالوا: اليَهودُ والنَّصارى، قال: «نَعم، اليَهودُ والنَّصارى»[1]، فأخبَرَ أنَّ هذه الأُمَّةَ سوف تَرتَكِبُ ما كان عليه اليَهودُ والنَّصارى، إخبارُ تَحذيرٍ لا إخبارُ تَقريرٍ وإباحةٍ، فيَجِبُ أنْ نَعلَمَ الفَرقَ بينَ ما يُخبِرُ به الرسولُ ﷺ مُقَرِّرًا له ومُثْبِتًا له، وما يُخبِرُ به مُحذِّرًا عنه، فالرسولُ ﷺ أخبَرَ بأنَّ العُلَماءَ سيَموتونَ، ويَعني ذلك أنْ نَحرِصَ حتى لا يُدْرِكَنا هذا الوَقتُ الذي يموتُ به

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»، رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العُلَماءُ ولا يَبْقى إلَّا هؤلاء الرؤَساءُ الجُهَّالُ الذين يُفْتونَ بغيرِ عِلمٍ، فيَضِلُّونَ بأنْفُسِهم ويُضِلُّونَ غيرَهم.

اللَّهُمَّ إنَّا نَسألُكَ عِلمًا نافِعًا، وعَمَلًا صالِحًا، ورِزقًا طيِّبًا واسِعًا.



١٣ - كِتابُ حَمدِ اللهِ تَعالى وشُكْرِه

٢٤٢ - بابُ وُجوبِ الشُّكْرِ

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ حَمدِ اللهِ وشُكْرِه». (حَمدُ اللهِ) يَعني وَصفَه بالمَحامِدِ والكَمالاتِ وتَنْزيهَه عن كلِّ ما يُنافي ذلك ويُضادُّه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلٌ الحَمدِ، يُحمَدُ على جَميلِ إحْسانِه، وعلى كَمالِ صِفاتِه جَلَّ وَعَلَا مع المَحَبَّةِ والتعْظيمِ، وقد حمِدَ اللهُ نَفْسَه في ابْتِداءِ خَلقِه فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]. وحمِدَ نَفْسَه على تَنْزيهِه عنِ الشِّرْكِ والنِّدِّ، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

وحمِدَ نَفْسَه جَلَّ وَعَلَا عندَ انْتِهاءِ الخَلقِ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، فهو جَلَّ وَعَلَا محمودٌ في ابْتِداءِ الخَلقِ وانْتِهاءِ الخَلقِ واستِمْرارِ الخَلقِ، ومحمودٌ على ما أنزَلَ على عَبدِه منَ الشرائعِ، بل محمودٌ على كلِّ حالٍ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا أتاهُ ما يَسُرُّه قال: «الحَمدُ للهِ الذي بنِعْمَتِه تَتِمُّ الصالِحاتُ»، وإذا أتاهُ ما يُخالِفُ ذلك قال: «الحَمدُ للهِ على كلِّ حالٍ»[1]، وما يَقولُه بعضُ الناسِ اليومَ: الحَمدُ للهِ الذي

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

لا يُحمَدُ على مَكْروهٍ سِواهُ، فهو خَطأٌ غلَطٌ؛ لأنَّكَ إذا قُلْتَ: الحَمدُ للهِ الذي لا يُحمَدُ على مَكْروهٍ سِواهُ، فهو عُنْوانٌ على أنَّكَ كارِهٌ لَمَا قُدِّرَ عليكَ، ولكنْ قُلْ كما قال النبيُّ ﷺ: «الحَمدُ للهِ على كلِّ حالٍ»، هذا هو الصوابُ، وهو السُّنَّةُ التي جاءَتْ عنِ النبيِّ ﷺ.

وقد حمِدَ اللهُ نَفْسَه وأمَرَ بحَمدِه فقال اللهُ تَعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]. فأمَرَنا أنْ نَحمَدَه جَلَّوَعَلَا، بل جعَلَ حَمدَنا إيَّاه من أرْكانِ الصلاةِ لا تَتِمُّ الصلاةُ إلَّا به، فالفاتِحةُ أوَّلُها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لو أَسقَطْتَ هذه الآيةَ منَ الفاتِحةِ ما صحَّتْ صَلاتُكَ، فحَمدُ اللهِ تَعالى واجِبٌ على كلِّ إنْسانٍ، وكذلك الشكْرُ، الشكْرُ على إنْعامِه، كم أنْعَمَ عليكَ من نِعْمةٍ؟! عَقلٌ وسَلامةُ بَدَنٍ، ومالٌ، وأهـلٌ، وأمنٌ، نِعَمٌ لا تُحْصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، لو لم يَكُنْ من نِعمَتِه عليكَ إلَّا هذا النَّفَسُ الذي لوِ اغْتَمَمْتَه لفَقَدْتَ الحَياةَ، معَ أنَّه يَخرُجُ بدونِ أنْ تَحُسَّ به، وبدونِ أنْ تَتْعَبَ له، وانظُرْ إلى الذين ابْتُلوا بضيقِ التنفُّسِ، كيف يَتكَلَّفونَ عندَ إدْخالِ النَّفَسِ وإخْراجِه، وهذا النَّفَسُ مُستَمِرٌّ دائمٌ، نِعْمةٌ لا تُحْصى أبَدًا، العَقلُ، الأوْلادُ، المالُ، الدِّينُ، كلُّ هذه نِعَمٌ عَظيمةٌ، يَستَحِقُّ جَلَّوَعَلَا أنْ يُشكَرَ عليها.

و(الشكْرُ) قال أهلُ العِلمِ: هو القيامُ بطاعةِ المُنعِمِ، هذا هو الشكْرُ أنْ تَقومَ بطاعةِ المُنْعِمِ ولاسيَّما جِنسُ هذه النعْمةِ، فإذا أنْعَمَ اللهُ عليكَ بمالٍ فلْيَكُنْ عليكَ أثَرُ هذا المالِ في لِباسِكَ، في بَيتِكَ، ومَركوبِكَ، وصَدَقاتِكَ، ونَفَقاتِكَ، ليُرى عليكَ أثَرُ نِعمةِ اللهِ عليكَ في هذا المالِ، بالعِلمِ إذا أنْعَمَ اللهُ عَليكَ بعِلمٍ فلْيُرَ عليكَ أثَرُ هذا العِلمِ، من نَشرِه بينَ الناسِ، وتَعْليمِه الناسَ والدعْـوةِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وغـيرِ ذلك، فالشكْرُ يَكونُ من جِنسِ النعْمةِ التي أنْعَمَ اللهُ بها عليكَ، أو بأعَمَّ.

إذنْ فمَن عَصى اللهَ فإنَّه لم يَقُمْ بشُكْرِ نِعْمةِ اللهِ؛ لأنَّه كفَرَ بنِعْمةِ اللهِ -والعياذُ باللهِ- قال اللهُ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]، فالعاصي لم يَقُمْ بشُكْرِ نِعْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَنقُصُ من شُكرِه بقَدرِ ما أَتى منَ المَعْصيةِ، حتى لو قال الإنسانُ بلِسانِه: أشكُرُ اللهَ، الشكْرُ للهِ وهو يَعْصي اللهَ، فإنَّه لم يَصدُقْ فيما قال، فالشكْرُ هو القيامُ بطاعةِ المُنعِمِ.

والشكْرُ له فائدَتانِ عَظيمَتانِ، منها: الاعْترافُ باللهِ تَعالى في حقِّه وفَضلِه وإحْسانِه، ومنها: أنَّه سَببٌ لمَزيدِ النعْمةِ، كلَّما شكَرْتَ زادَتْ نِعْمةُ اللهِ عليكَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، إذا شكَرَ الإنسانُ زادَه اللهُ، وإذا كفَرَ عرَّضَ نَفْسَه لعَذابِ اللهِ، وعَذابُ اللهِ تَعالى شَديدٌ، وقال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٧٢]. واشْكُروا للهِ تَعالى على هذه النعْمةِ التي أَنْعَمَها عليكم، وسَهَّلَ لكمُ الوُصولَ إليها فوَصَلَتْ إليكم من غَيرِ حَوْلٍ ولا قُوَّةٍ، هذه الطيِّباتُ التي نَأكُلُها لو شاءَ اللهُ تَعالى لم نَقدِرْ عليها، إمَّا لعُسرٍ فينا، وإمَّا لفَقدِ هذه النعَمِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٦٣-٧٣].

فالمُهِمُّ: أنَّ علينا أنْ نَشكُرَ نِعْمةَ اللهِ، ويَكونَ الشكْرُ من جِنسِ النعْمةِ، فتَبذُلَ منَ

العِلمِ والمالِ بحسَبِ ما أَعْطاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، الصحَّةُ أيضًا، أنتَ أعْطاكَ اللهُ صِحَّةً ونَشاطًا واحْتاجَ إخْوانُكَ إلى المُساعَدةِ والمُعاوَنةِ، فمِن شُكْرِ نِعمةِ اللهِ أنْ تُعينَهم، واللهُ الموفِّقُ.



قال اللهُ تَعالى: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، **وقال تَعالى:** ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، **وقال تَعالى:** ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء:١١١]، **وقال تَعالى:** ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**بابُ حَمدِ اللهِ تعالى وشُكرِه**»، وقد سبَقَ الكَلامُ على هذا، ولكنَّنا لم نَتكلَّمْ على الآيةِ الأُولى، وهي قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، فاعلَمْ أنَّ ذِكرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو ذِكرُ القَلبِ، وأمَّا ذِكرُ اللِّسانِ مُجَرَّدًا عن ذِكرِ القَلبِ فإنَّه ناقِصٌ، ويَدُلُّ لهذا قَولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف:٢٨]، ولم يَقُلْ: مَن أسْكَتْنا لِسانَه عن ذِكْرِنا، قال: مَن أغْفَلْنا قَلبَه عن ذِكْرِنا، فالذكْرُ النافِعُ هو ذِكرُ القَلبِ، وذِكرُ القَلبِ يَكونُ في كلِّ شيءٍ، يَعني مَعنى ذلك أنَّ الإنسانَ وهو يَمْشي، وهو قاعِدٌ، وهو مُضطَجِعٌ، إذا تَفكَّرَ في آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فهذا من ذِكرِ اللهِ، ومن ذِكرِ اللهِ أيضًا ما جاءَ في السُّنَّةِ مِثلُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ»، و«سُبحانَ اللهِ» وما أشبَهَ ذلك.

ومن ذِكرِ اللهِ أيضًا: الصلاةُ، فإنَّها من ذِكرِ اللهِ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال بعضُ العُلَماءِ: المَعنى ولَمَا فيها من ذِكرِ: اللهُ أكبَرُ، فعلى كلِّ حالٍ يَنبَغي للإنسانِ عندَ ذِكرِ اللهِ باللسانِ أنْ يَكونَ ذاكِرًا للهِ في قَلبِه حتى يَتَطابَقَ القَلبُ واللسانُ وتَحصُلُ الفائدةُ؛ لأنَّ مُجَرَّدَ الذكْرِ باللسانِ يَنفَعُ الإنسانَ ولكنَّه ناقِصٌ، لكنَّ الذكْرَ بالقَلبِ هو الأصْلُ والمُهِمُّ.

واعلَمْ أنَّ اللهَ تَعالى يَقولُ: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾.

وقد ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ اللهَ قال: «مَن ذَكَرَني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نَفْسي، ومَن ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرْتُه في مَلَإٍ خَيرٍ منه»[1]، يَعني أنَّ الإنسانَ إذا ذَكَرَ اللهَ في نَفْسِه وليس حَوْلَه أحَدٌ، ذَكَرَه اللهُ في نَفْسِه، وإنْ ذَكَرَ اللهَ وحَوْلَهُ مَلَأٌ، يَعني في جَماعةٍ ذَكَرَهُ اللهُ في مَلَإٍ خَيرٍ منهم، وهذا يدُلُّ على فَضيلةِ الذكْرِ أنَّ اللهَ تَعالى التزَمَ بأنَّ مَن ذَكَرَه في نَفْسِه ذَكَرَه في نَفْسِه، ومَن ذَكَرَه في مَلَإٍ ذَكَرَه في مَلَإٍ خَيرٍ منهم، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وقد سبَقَ مَعنى الشكْرِ ومَعنى الكُفْرانِ، ويَأْتي إنْ شاءَ اللهُ بَقيَّةُ الكَلامِ على هذا البابِ في الأحاديثِ القادِمةِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣٩٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ، أُتِيَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلفِطْرَةِ، لَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ. رَواهُ مُسلِمٌ[١].

١٣٩٤ - وعَنْهُ، عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدأُ فِيهِ بِالحَمْدُ للهِ فَهُوَ أقْطَعُ». حَديثٌ حَسَنٌ، رَواهُ أَبُو داوُدَ وغَيرُه[٢].

١٣٩٥ - وَعَنْ أَبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدي؟ فَيَقولونَ: نَعَمْ، فيقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولونَ: نَعَمْ، فيقولُ: ماذا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقولونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدي بَيْتًا في الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٣]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٣٩٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» رَواهُ مُسلِمٌ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، رقم (٤٧٠٩)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب جواز شرب اللبن، رقم (١٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام، رقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، رقم (١٨٩٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٥)، والترمذي: كتاب الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، رقم (١٠٢١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ ذَكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في (بابِ فَضلِ حَمدِ اللهِ تَعالى وشُكرِه)، ومنَ المَعْلومِ لنا جَميعًا أنَّ كلَّ ما بنا من نِعمةٍ فمنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه إذا مَسَّنا الضرُّ فليس لنا مَلجأٌ إلَّا إلى اللهِ، وأنَّ الإنسانَ إذا أُصيبَ بما يَكرَهُ، أو بما يُؤْذيهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يُكفِّرُ بذلك عنه، ما من أذًى أو هَمٍّ أو غَمٍّ يُصيبُ المُؤمنَ إلَّا كفَّرَ اللهُ بذلك عنه، حتى الشوْكةُ يُشاكُها، إذنْ فنِعَمُ اللهِ عَظيمةٌ كَثيرةٌ لا تُحْصى، لذلك يَجِبُ علينا أنْ نَحمَدَ اللهَ تَعالى، وأنْ نَشكُرَه على نِعَمِه التي أسبَغَها علينا.

ومن فَوائدِ الحَمدِ: أنَّ الإنْسانَ إذا ابتَدَأَ الشيءَ بحَمدِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ تَعالى يَجعَلُ فيه البَرَكةَ، يعني أرادَ أنْ يُؤَلِّفَ كتابًا، أو يَتكَلَّمَ في كَلامِه، خُطبةٍ أو غيرِ ذلك، إذا حمِدَ اللهَ جعَلَ اللهُ فيه البَرَكةَ، وكلُّ أمرٍ لا يُبدَأُ فيه بحَمدِ اللهِ فهو أقْطَعُ، يَعني مَنْزوعُ البَرَكةِ، لكنْ قد يَنوبُ عنِ الحَمدِ غَيرُه كالبَسمَلةِ مَثلًا، البَسمَلةُ أيضًا يُبارِكُ اللهُ فيها بأشياءَ كَثيرةٍ منها: أنَّ الإنسانَ إذا ذبَحَ الذَّبيحةَ إنْ قال: «بسمِ اللهِ» حلَّتِ الذَّبيحةُ، وصارَتْ طيِّبةً، وإنْ قال: «الحَمدُ للهِ» لم تَحِلَّ الذَّبيحةُ؛ لأنَّ الذَّبيحةَ لا تَحِلُّ إلَّا بالبَسمَلةِ، وإذا قال عندَ الذبْحِ: «اللهُ أكبَرُ» ولم يَقُلْ: «بسمِ اللهِ» لم تَحِلَّ الذَّبيحةُ، فكلُّ أمرٍ يُبدَأُ فيه بالحَمدِ للهِ فهو خَيرٌ وبَرَكةٌ، لكنْ قد يَنوبُ عنِ الحَمدِ ما سِواهُ كالبَسمَلةِ عندَ الأكْلِ والشرْبِ، والذبْحِ، والوُضوءِ، وإتْيانِ الرَّجلِ أهلَه، يَقولُ: «بسمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشيْطانَ وجَنِّبِ الشيْطانَ ما رَزَقْتَنا»[1] وغيرِ ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن فَوائدِ الحَمدِ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَرْضى عنِ العَبدِ إذا أكَلَ الأَكْلَةَ أنْ يَحمَدَه عليها، وإذا شرِبَ الشرْبةَ أنْ يَحمَدَه عليها، فما هي الأَكْلةُ؟ هل هي الوَجْبةُ أو كلُّ رَدَّةٍ يَرُدُّها الإنسانُ إلى فَمِه فهي أَكْلةٌ؟ الحَديثُ مُحتَمِلٌ، وكان الإمامُ أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ كلَّ ما أكلَ رَدَّةً قال: الحَمدُ للهِ، فقيلَ له: يا أبا عبدَ اللهِ، ما هذا؟ قال: أكْلٌ وحَمدٌ خَيرٌ من أكْلٍ وسُكوتٍ[1]، وكأنَّ الإمامَ أحمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ رَأى أنَّ الأَكْلةَ هي الرَّدَّةُ، وعلى هذا يكونُ حَمدُ الإنسانِ على طَعامِه كَثيرًا، لكنَّ أكثَرَ العُلَماءِ يَقولونَ: أنَّ الأَكْلةَ هي الوَجْبةُ، تَجلِسُ على الطعامِ، وإذا شبِعْتَ تَقولُ: الحَمدُ للهِ، والحَمدُ كلُّه خَيرٌ، فهذه من فَوائدِ الحَمدِ، أنَّه إذا حمِدَ الإنسانُ على أَكْلِه وشُربِه كان ذلك سَببًا لرِضا اللهِ عَزَّوَجَلَّ عنه، نَسأَلُ اللهَ أنْ يُجِلَّ علينا وعليكمُ الرِّضا، إنَّه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

وما حُكمُ الأَكْلِ باليَسارِ؟ الأكْلُ والشرْبُ باليَسارِ حَرامٌ، والذي يَأكُلُ بشِمالِه ويَشرَبُ بشِمالِه مُشابِهٌ للشيْطانِ مُقْتَدٍ به، مُجانِبٌ لهُدى الرحمنِ، ولهذا رَأى النبيُّ ﷺ رَجُلًا يَأكُلُ بشِمالِه، قال: «كُلْ بيَمينِكَ»، قال: لا أستَطيعُ، فقال له: «لا اسْتَطَعْتَ»[2]، فشُلَّتْ يَمينُه وصارَ لا يَستَطيعُ أنْ يَرفَعَها إلى فَمِه، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنْسانَ يَجِبُ عليه أنْ يَأكُلَ باليَمينِ، ويَشرَبَ باليَمينِ، حتى الشرْبُ وأنتَ تَأكُلُ لا تَشرَبْ بالشِّمالِ، ولكنِ اشرَبْ باليَمينِ حتى لو أصابَ الكأسَ أوِ الماعونَ طَعامٌ فإنَّه يُغسَلُ، واللهُ الموفِّقُ.

---

(١) انظر: مسائل الإمام أحمد لابن هانئ رقم (١٧٥١)، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، والفروع (٨/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢١).

١٤ - كِتابُ الصَّلاةِ على رَسُولِ اللهِ ﷺ

قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

الشَّرْح

أَوْرَدَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى هذه الآيةَ الكَريمةَ، وفيها الأمرُ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ: والأمرُ يكونُ تارةً للوُجوبِ، وتارةً يكونُ للاسْتِحْبابِ، فالذي للوُجوبِ يَعني أنَّ الإنسانَ إذا تَرَكَه فهو آثِمٌ عاصٍ مُستَحِقٌّ للعُقوبةِ، وأمَّا للاسْتِحْبابِ فإنَّ الإنسانَ إذا فعَلَه كُتِبَ له أجْرٌ، وإذا تَرَكَه فليس عليه إثْمٌ، فيَتَّفِقُ الواجِبُ والمُستَحَبُّ بأنَّ فيهما ثَوابًا لِفِعْلِهما، لكنَّ ثَوابَ الواجِبِ أعظَمُ وأكثَرُ، لقولِ النبيِّ ﷺ في الحَديثِ القُدْسيِّ أنَّ اللهَ تَعالى قال: «ما تَقرَّبَ إليَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افترَضْتُه عليه»[1].

ويَختَلِفُ الواجِبُ عنِ المُستَحَبِّ بأنَّ تارِكَ الواجِبِ آثِمٌ عاصٍ للهِ، ومُستَحِقٌّ للعُقوبةِ، وتارِكَ المُستَحَبِّ لا يَأثَمُ، لكنْ فاتَه خَيرٌ، والأمرُ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ أطلَقَه المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فاختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ هل تَجِبُ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ في العُمرِ مرَّةً أو بأسبابٍ أو لا تَجِبُ، والصحيحُ أنَّها تَجِبُ بأسبابٍ، وإلَّا فالأصْلُ أنَّها مُستَحَبَّةٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

فما مَعنى الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، أيْ ما مَعنى قولِ القائلِ: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ؟ أكثرُ الناسِ يَقرَأُ هذا أو يَدْعو بهذا الدُّعاءِ وهو لا يَدْري ما مَعْناه، وهذا غلَطٌ، فعليكَ أنْ تَعرِفَ مَعنى كلِّ شَيءٍ تَقولُه، أو تَدْعو به، حتى لا تَدْعوَ بإثْمٍ، فقَولُكَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ يَعني: اللَّهُمَّ أثْنِ عليه في المَلَإِ الأَعْلى، ومَعنى أثْنِ عليه يَعني: اذْكُرْه بالصفاتِ الحَميدةِ، والمَلأُ الأَعْلى همُ المَلائكةُ، فكأنَّكَ إذا قُلتَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ، كأنَّكَ تَقولُ: يا ربِّ صِفْهُ بالصفاتِ الحَميدةِ، واذْكُرْه عندَ المَلائكةِ حتى تَزْدادَ مَحَبَّتُهم له، ويَزْدادَ ثَوابُه بذلك، هذا مَعْنى اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ.

واختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ هل يُصَلَّى على غَيرِ النبيِّ أمْ لا؟ يَعني هل يَجوزُ أنْ تَقولَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على فُلانٍ، أو العالِمِ الفُلانيِّ، أوِ الشيخِ الفُلانيِّ، أوِ اللَّهُمَّ صَلِّ على أبي، أو ما أشبَهَ ذلك؟ والصحيحُ أنَّ في ذلك تَفْصيلًا: فإنْ كان ذلك تَبَعًا للصلاةِ على النبيِّ ﷺ فلا بَأسَ، ولهذا قال الرسولُ ﷺ حينَ سَأَلوه: كيف يُصَلُّونَ عليه؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ»[1]، وإنْ كان مُستَقِلًّا، فإنْ كان لسبَبٍ فلا بَأسَ، ومن ذلك إذا أتى الإنسانُ إليكَ بصَدَقَتِه لتوَزِّعَها، فقُلِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عليه، ويَسمَعُ هذا منكَ، لقولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنَبيِّه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

قال عبدُ اللهِ بنُ أبي أَوْفى، فأَتَيْتُ بصَدَقَتي، أو قال أتاهُ أبي، فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أَوْفى»[2]، هذا أيضًا لا بَأسَ، كذلك إذا صلَّيْتَ على إنسانٍ دونَ أنْ تَجعَلَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة، رقم (١٤٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، رقم (١٠٧٨).

ذلك شِعارًا له، كلَّما ذَكَرْتَه صلَّيْتَ عليه فلا بَأسَ، يَعني حتى لو قُلْنا: اللَّهُمَّ صَلِّ على أبي بَكرٍ، أو على عُمَرَ، أو على عُثْمانَ، أو على عليٍّ فلا بَأسَ، ولكنْ لا تَجعَلْ هذا شِعارًا كلَّما ذَكَرْتَ هذا صَلَّيْتَ عليه؛ لأنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذلك جَعَلْتَه كأنَّه نبيٌّ.

ثم صدَّرَ المُؤلِّفُ هذا البابَ بالآيةِ الكَريمةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، فتأمَّلْ ما في هذه الآيةِ من خَبَرٍ، وأمرٍ، وتأكيدٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا خَبَرٌ أخبَرَنا اللهُ بذلك حَثًّا لنا على الصلاةِ والسلامِ عليه، فاللهُ ومَلائكتُه، كلُّ المَلائكةِ في كلِّ السمَواتِ وفي الأرضِ يُصَلُّونَ على النبيِّ، والمَلائكةُ عالَمٌ غَيْبيٌّ من مَخْلوقاتِ اللهِ، لا يُحْصيهم إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، البيتُ المَعْمورُ في السماءِ السابِعةِ يَدخُلُه كلَّ يومٍ سَبْعونَ ألفَ مَلَكٍ، ثم لا يَعودونَ إليه، يَعني يَجيءُ مَلائكةٌ غَيرُهم، إذنْ مَنِ الذي يُحْصيهم؟ لا يُحْصيهم إلَّا اللهُ، وفي الحَديثِ عنِ النبيِّ ﷺ: «أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ»[1].

والأَطيطُ: هو صَريرُ الرَّحْلِ، يَعني صَريرَ الشِّدادِ على البَعيرِ ولا يَصِرُّ إلَّا إذا كان عليه حِملٌ ثَقيلٌ، ويقولُ: «وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ ما من مَوْضِعِ أرْبَعةِ أصابعَ إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ للهِ، أو راكِعٌ، أو ساجِدٌ».

والسماءُ ليستْ كالأرضِ، السماءُ أوسَعُ بكَثيرٍ بكَثيرٍ منَ الأرضِ، انظُرِ الآنَ بُعدَها الشاسِعَ، وهي على الأرضِ كالكُرةِ فتكونُ دائرَتُها واسِعةً عَظيمةً، والسماءُ الثانيةُ أوسَعُ، والثالثةُ أوسَعُ، والرابعةُ أوسَعُ، والخامسةُ أوسَعُ، والسادسةُ أوسَعُ،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والسابعةُ أوسَعُ، كلُّ سماءٍ فيها ملائكةٌ، بينَ أربعِ أصابعَ هُناكَ مَلَكٌ قائمٌ لله، أو راكعٌ أو ساجدٌ، إذنْ مَنِ الذي يُحْصي المَلائكةَ؟ إذا كُنَّا لا نُحْصي المَلائكةَ فهل يُمكِنُ أنْ نُحصيَ الصلاةَ على الرسولِ ﷺ؟ لا؛ لأنَّ المَلائكةَ يُصَلُّونَ على النبيِّ فلا تُحْصى الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، انظُرْ فَضلَ اللهِ الواسِعَ، أَعْطى اللهُ هذا الرسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه الفَضيلةَ العَظيمةَ التي لا يَنالُها أحَدٌ فيما نَعلَمُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا خَبَرٌ أرادَ اللهُ به الحَثَّ، ولهذا قال بعدَها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾، بمُقْتَضى إيمانِكم صَلُّوا عليه، وَجَّهَ الخِطابَ لنا بصَدَدِ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ هو الذي يَحمِلُ الإنسانَ على امْتِثالِ الأمرِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

قوله تَعالى: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ أي: ادْعوا اللهَ أنْ يُثْنيَ عليه في المَلَأِ الأَعْلى، ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: ادْعوا اللهَ تَعالى أنْ يُسَلِّمَه تَسْليمًا تامًّا، في حَياتِه منَ الآفاتِ الجَسَديَّةِ والآفاتِ المَعْنَويَّةِ، وبعدَ مَوتِه منَ الآفاتِ المَعْنَويَّةِ بمَعْنى أنْ تَسلَمَ شَريعَتُه من أنْ يَقْضيَ عليها قاضٍ، أو يَنسَخَها ناسخٌ، وكذلك الجَسَدُ لأنَّه رُبَّما يُعْتَدى عليه بعدَ مَوتِه في قَبرِه، كما يَأْتي في القصةِ المَشْهورةِ أنَّ رَجُلَيْنِ أرادا أنْ يَستَخْرِجا جَسَدَ النبيِّ ﷺ، فنَزَلا المَدينةَ وبَدَآ يَحفِرانِ من تَحتِ الأرضِ حُفْرةً، حتى يَتَوَصَّلا إلى قَبرِ النبيِّ ﷺ، فيأْخُذا جَسَدَه الشريفَ، فبَقِيا على ذلك مُدَّةً، فرَأى أحَدُ المُلوكِ في المَنامِ أنَّ رَجُلَيْنِ يَحفِرانِ ليَصِلا إلى جَسَدِ النبيِّ ﷺ، ويَأْخُذاه، فاهتَمَّ بذلك اهْتِمامًا عَظيمًا، ثم ارتَحَلَ إلى المَدينةِ حتى وصَلَ إليها، فمن أين يَعلَمُ هو هذيْنِ الرَّجُلَيْنِ؟ وكيف يَتوصَّلُ إلى مَعرِفَتِهما؟ فقال لأميرِ المَدينةِ: ادْعُ لي جَميعَ أهلِ المَدينةِ؛ لأنَّه رَآهما في المَنامِ وعَرَفَهما، أو وُصِفا له، فدَعاهم، وأطْعَمَهم، وغادَروا، ولم يَرَ الرَّجُلَيْنِ، فقال:

ادْعُ لي أهلَ المَدينةِ، فدَعاهم (أظُنُّ) مرَّتيْنِ أو ثلاثًا، ولم يَرَ الرَّجُليْنِ، والرُّؤْيا التي رَآها رُؤْيا حقٍّ لا بُدَّ أنْ يَكونَ هذا، قال: أين أهلُ المَدينةِ؟ قالوا: لم يَتخَلَّفْ أحَدٌ، هناك رَجُلانِ غَريبانِ في المَسجِدِ، يَعني ليس لهما قيمةٌ، قال: أحْضِرْهما، فجيءَ بهما، فإذا هُما اللذانِ رَآهما في المَنامِ، فعَرَفَهما، ثم أمَرَ بأنْ يُحفَرَ إلى الأرضِ حُفْرةٌ على جَوانبِ الحُجرةِ التي فيها قَبرُ النبيِّ ﷺ قبلَ أنْ تَكونَ حُجرةً بالبناءِ -ثم صَبَّها بالنُّحاسِ والرَّصاصِ والرُّخامِ حتى يَحْميَ اللهُ جَسَدَ هذا النبيِّ الكَريمِ، فصبَّ الرَّصاصَ إلى الأرضِ، ولهذا قَبرُ النبيِّ ﷺ مَحْفوظٌ حِفْظًا تامًّا[1].

فالمُهِمُّ: أنَّ قَولَ المُسلِمِ: اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ على مُحَمَّدٍ، يَعني سَلِّمْه منَ الآفاتِ الجَسَديَّةِ حَيًّا وميِّتًا، وسَلِّمْه أيضًا، سَلِّمْ شَريعَتَه من أنْ يَطمِسَها أحَدٌ أو أنْ يَعْدوَ عليها أحَدٌ.

ثم لِيُعلَمْ أنَّ أجْسادَ الأنْبياءِ لا يُمكِنُ أنْ تَأكُلَها الأرضُ؛ لأنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرضِ أنْ تَأكُلَ أجْسادَ الأنْبياءِ، إذنْ فأجْسادُ الأنْبياءِ سالِمةٌ منَ الأرضِ، الأرضُ التي تَأكُلُ كلَّ جَسَدٍ إلَّا مَن شاءَ اللهُ، لا تَأكُلُ أجْسادَ الأنْبياءِ.

والحاصِلُ: أنَّ في هذه الآيةِ الكَريمةِ أمرَ اللهُ تَعالى أنْ نُصلِّيَ ونُسلِّمَ على رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ تَسليمًا.

والصلاةُ عليه واجِبةٌ في مَواضِعَ، منها: إذا ذُكِرَ اسمُه عندَكَ فصَلِّ عليه؛ لأنَّ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى إلى النبيِّ ﷺ وقال: رَغِمَ أنْفُ امْرئٍ ذُكِرْتَ عندَه فلم يُصَلِّ عليكَ، معنى رَغِمَ: يعني سقَطَ في الرُّغامةِ، وهي الأرضُ التُّرابيَّةُ «رَغِمَ أنْفُ امْرئٍ

(١) انظر تمام القصة في خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ، للسمهودي (٢/ ١٧٥).

ذُكِرْتَ عندَه فلم يُصَلِّ عليكَ»[١] يَعني إذا سمِعْتَ ذِكرَ الرسولِ ﷺ فقُلِ: اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عليه، فإنَّ له حَقًّا عليكَ.

وتَجِبُ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ أيضًا عندَ كَثيرٍ منَ العُلَماءِ في التشهُّدِ الأخيرِ في الصلاةِ، فعندَ كَثيرٍ منَ العُلَماءِ أنَّها رُكنٌ لا تَصِحُّ الصلاةُ إلَّا به، وعندَ بَعضِهم أنَّها سُنَّةٌ، وعندَ بَعضِهم أنَّها واجِبٌ، والاحْتياطُ ألَّا يَدَعَها الإنسانُ في صَلاتِه، ولو أنَّ الإنْسانَ جَعَلَ كلَّ دُعاءٍ يَدْعو به مَقْرونًا بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ لكانَ كما جاءَ في الحَديثِ يُكْفى هَمَّه ويُغفَرُ ذَنبُه، فقد قال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أُكثِرُ الصلاةَ عليكَ، فكم أجعَلُ لكَ من صَلاتي، فقال: «ما شِئْتَ»، قال: الربُعَ؟ قال: «ما شِئْتَ، فإنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ» قال: النصفَ؟ قال: «ما شِئْتَ، فإنْ زِدْتَ فهو خَيرٌ لكَ»، قال: الثلُثَيْنِ؟ قال: «ما شِئْتَ فإنْ زِدْتَ فهو خَيرٌ لكَ»، قال: أجعَلُ لكَ صَلاتي كلَّها؟ قال: «إذنْ تُكْفى هَمَّكَ، ويُغفَرُ لكَ ذَنبُكَ»[٢].

ولهذا أَكثِرْ يا أَخي منَ الصلاةِ والسلامِ على الرسولِ ﷺ ليَزْدادَ إيمانُكَ ويَسهُلَ لكَ الأمرُ.

ثم اعلَمْ أنَّ الرسولَ ﷺ بَشَرٌ لا يَملِكُ النفْعَ لكَ ولا الضرَّ، فلا تَسأَلْه، لا تَقُلْ: يا رسولَ اللهِ، سَهِّلْ أمْري، هذا حَرامٌ، بل شِركٌ أكبَرُ؛ لأنَّه لا يَجوزُ أنْ تَدْعوَ معَ اللهِ أحَدًا، الدُّعاءُ خاصٌّ باللهِ وحْدَه لا شَريكَ له، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل»، رقم (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

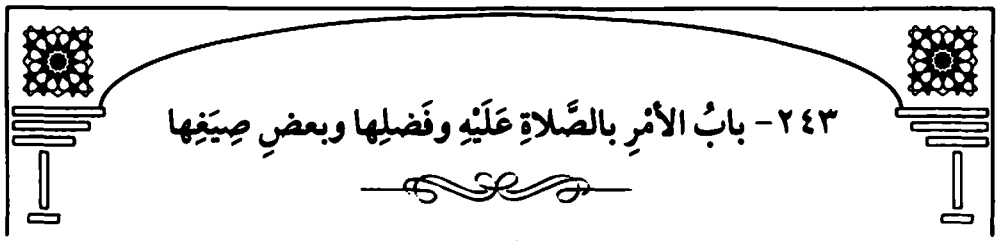
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٤٥٧).

فإنْ قال قائلٌ: أيُّهما أعظَمُ حقًّا الوالِدانِ يَعني الأمَّ والأبَ أمِ الرسولُ ﷺ؟

قُلْنا: حقُّ الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أعظَمُ حُقوقِ المَخْلوقينَ، ولذلك يَجِبُ تَقديمُ مَحَبَّتِه ﷺ على مَحَبَّةِ جَميعِ الناسِ، وأنْ يكونَ الرسولُ أحَبَّ لكَ منَ النفْسِ والوَلَدِ والوالِدِ والناسِ أجْمَعينَ.

فإنْ قال قائلٌ: أليس اللهُ يَذكُرُ حقَّ الوالِديْنِ بعدَ حقِّه؟

قُلْنا: بَلى، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ولكنَّ حقَّ الرسولِ ﷺ تابعٌ لحقِّ اللهِ؛ لأنَّ عِبادةَ اللهِ لا تَتِمُّ إلَّا بإخلاصٍ للهِ ومُتابَعةِ لرسولِ اللهِ ﷺ، واللهُ الموفِّقُ.



٢٤٣- بابُ الأمرِ بالصَّلاةِ عَلَيْهِ وفَضلِها وبعضِ صِيَغِها

الشَّرح

ذكرَ الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى بابَ الأمرِ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ، والأمرُ يَعني منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي أرسَلَه، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَصْطَفي منَ المَلائكةِ رُسُلًا ومنَ الناسِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَخلُقُ ما يَشاءُ ويَختارُ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلَمُ حيثُ يَجعَلُ رِسالَتَه، فجعَلَ خَيرَ الرسالاتِ في مُحَمَّدٍ ﷺ، وختَمَ به النبوَّةَ، فلا نَبيَّ بَعدَه، فمَنِ ادَّعى أنَّه نبيٌّ بعدَ رَسولِ اللهِ فإنَّه كافرٌ، ومَن صدَّقَه فإنَّه كافرٌ أيضًا، لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وقد أمَرَ اللهُ تَعالى بالصلاةِ على نَبيِّه والسلامِ عليه، فقال تَعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

فبَدَأَ اللهُ تَعالى بالإخْبارِ عن نَفْسِه وعن مَلائكتِه أنَّهم يُصَلُّونَ على النبيِّ ﷺ، وهذه الآيةُ كما تَعرِفونَ في سورةِ الأحْزابِ التي أمَرَ اللهُ تَعالى فيها النبيَّ ﷺ بتَقْوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنزَلَ عليه أعظَمَ آيةٍ فيما يَتعَلَّقُ بفِعلِ الرسولِ ﷺ فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب:١].

وقال تَبارَكَ وَتَعالَى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، فلمَّا نزَلَتْ هذه القَوارِعُ العَظيمةُ على رَسولِ اللهِ ﷺ، جبَرَ اللهُ ذلك

بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧]. فانْجَبَرَتْ هذه القَوارِعُ التي نزَلَتْ منَ اللهِ تَعالى في حقِّ رَسولِ اللهِ ﷺ، وقولُه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾، يَشمَلُ كلَّ مَلَكٍ في السمَواتِ والأرضِ، فإنَّه يُصَلِّي على النبيِّ ﷺ.

ومَعْنى الصلاةِ منَ اللهِ على رسولِه: الثناءُ عليه في المَلَأِ الأَعْلى يَعني: أنَّ اللهَ يَحمَدُه ويُثْني عليه، ويُبيِّنُ فَضلَه في المَلَأِ الأَعْلى في المَلائكةِ، وأمَّا مَعنى الصلاةِ عليه منَ المَلائكةِ والبَشَرِ فهو الدُّعاءُ له بأنْ يُصَلِّيَ اللهُ عليه، ثم أمَرَ لَمَّا ذكَرَ أنَّه ومَلائكتَه يُصَلُّونَ عليه أمَرَنا بأنْ نُصَلِّيَ ونُسَلِّمَ، نُصَلِّيَ عليه ونُسَلِّمَ، وهذا الأمرُ مُطلَقٌ لم يُبَيَّنْ متى، لكنَّه جاءَ في السُّنَّةِ أنَّه يُصَلَّى عليه ﷺ في مَواضِعَ منها: في التشهُّدِ في الصلاةِ، فإنَّ الصحابةَ قالوا: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمْنا كيف نُصَلِّي ونُسَلِّمُ عليكَ إذا نحن صَلَّيْنا عليكَ في صَلاتِنا؟ قال: «قولوا: **اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ**،...»[1] إلى آخِرِه، ومنها إذا ذُكِرَ اسمُه فإنَّكَ تُصَلِّي عليه، إمَّا وُجوبًا أوِ اسْتِحْبابًا، وقد ورَدَ أنَّ جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال للنبيِّ ﷺ: «**رَغِمَ أنفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عندَه فلم يُصَلِّ عليكَ، قُلْ: آمينَ، فقُلْتُ: آمينَ**»[2]، فالصلاةُ عليه إذا ذُكِرَ واجِبةٌ عندَ كَثيرٍ منَ العُلَماءِ ومُستَحَبَّةٌ عندَ أكثَرِ العُلَماءِ، وقولُه: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي: اسْأَلوا اللهَ الصلاةَ عليه، قُولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ، ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يَعني: اسْأَلوا اللهَ له السلامةَ من كلِّ آفةٍ، من كلِّ آفةٍ في حياتِه، ومن كلِّ بَلاءٍ في حَشرِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ الأنْبياءَ في الحَشرِ، كلٌّ يَدْعو:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل»، رقم (٣٥٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«اللَّهُمَّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ، اللَّهُمَّ سَلِّمْ»، وكذلك يَتَضَمَّنُ الدُّعاءَ بالسلامةِ لِدِينِه وشَريعَتِه أنْ يُسَلِّمَها اللهُ تَعالى منَ الأعْداءِ، فلا يَسْطونَ عليها بتَحْريفٍ، أو تَغْييرٍ إلَّا سلَّطَ اللهُ عليهم مَن يُبَيِّنُ ذلك، وهذا هو الواقِعُ ولله الحَمدُ.

ثم ذكَرَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأحاديثَ الوارِدةَ في ذلك، وسيَأْتي الكَلامُ عليها إنْ شاءَ اللهُ، واللهُ أعلَمُ.

١٣٩٧- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّه سمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ، يَقولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٣٩٨- وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَوْلَى النَّاسِ بِي يومَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٣٩٩- وعن أَوْسِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يومَ الجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ، فَإنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ». فقالوا: يَا رسولَ اللهِ، وَكَيفَ تُعْرَضُ صَلاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟! قَالَ: يَقولُ بَلِيتَ، قَالَ: «إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنبِيَاءِ». رَواهُ أَبُو داوُدَ[3] بإسْنادٍ صَحيحٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، رقم (٣٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

١٤٠٠ - وعَن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ»[1].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ في بَيانِ فَضلِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ وقد تَقدَّمَ لنا مَعْنى الصلاةِ عليه، فالحَديثُ الأوَّلُ: عن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مَرَّةً وَاحِدَةً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»، يَعني: إذا قُلْتَ: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عليكَ بها عَشْرَ مرَّاتٍ، فأَثْنى اللهُ عليكَ في المَلَأِ الأَعْلى عَشْرَ مرَّاتٍ، وهذا يدُلُّ على فَضيلةِ الصلاةِ على رَسولِ اللهِ ﷺ ويدُلُّ على عُلُوِّ مَرْتَبةِ النبيِّ ﷺ عندَ اللهِ حيثُ جازى مَن صَلَّى عليه بعَشْرِ أمْثالِ عَمَلِه، يُصَلِّي اللهُ عليه عَشْرَ مرَّاتٍ.

وأمَّا الحَديثُ الثاني: فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ أخبَرَ أنَّ أَوْلى الناسِ به أكثَرُهم صَلاةً عليه، أَوْلى الناسِ به يومَ القيامةِ وأقرَبُهم منه مَن صَلَّى عليه، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا أيضًا يدُلُّ على الترْغيبِ في كَثْرةِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ.

أمَّا الحَديثُ الثالثُ: فهو حَديثُ أَوْسِ بنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ أمَرَ أنْ نُكثِرَ منَ الصلاةِ عليه يومَ الجمُعةِ، وأخبَرَ بأنَّ صَلاتَنا مَعْروضةٌ عليه، فيُقالُ: صَلَّى عليكَ فُلانُ بنُ فُلانٍ، أو تُعرَضُ عليه، فيُقالُ: صَلَّى عليكَ رَجلٌ من أُمَّتِكَ، اللهُ أعلَمُ هل يُعيَّنُ المُصَلِّي أمْ لا، المُهِمُّ أنَّها تُعرَضُ على النبيِّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، كيف تُعرَضُ عليكَ، وقد أَرَمْتَ؟ أيْ: بَلِيتَ، فقال: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٤)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل»، رقم (٣٥٤٥).

أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ». فالأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ مَهما بَقُوا في الأرضِ، فإنَّ الأرضَ لا تَأكُلُهم، أمَّا غيرُ الأنبياءِ فإنَّها تَأكُلُهم، لكنْ قد يُكَرِّمُ اللهُ تَعالى بعضَ المَوْتى فلا تَأكُلُهمُ الأرضُ وإنْ بَقُوا، لكنَّنا لا نَتيَقَّنُ أنَّ أحَدًا لا تَأكُلُه الأرضُ إلَّا الأنبياءَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ.

ففي هذه الأحاديثِ الثلاثةِ: التَرْغيبُ في كَثْرةِ الصلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولاسيَّما في يومِ الجمُعةِ، ولكنْ أكْثِرِ الصلاةَ عليه في كلِّ وَقتٍ، فإنَّكَ إذا صلَّيْتَ عليه مرَّةً واحدةً صَلَّى اللهُ بها عليكَ عَشْرًا، والأفضَلُ أنْ يُجمَعَ بينَ الصلاةِ والسلامِ على رسولِ اللهِ ﷺ، ويَجوزُ أنْ يُفرَدَ السلامُ أوِ الصلاةُ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ على عبدِكَ ورَسولِكَ مُحَمَّدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجْمَعينَ.

١٤٠١ - عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَواهُ أَبو داوُدَ[1] بإسْنادٍ صَحيحٍ.

١٤٠٢ - وعَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ». رَواهُ أَبو داوُدَ[2] بإسْنادٍ صَحيحٍ.

١٤٠٣ - وعَنْ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[3]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل»، رقم (٣٥٤٦)، من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٤٠٤- وَعَنْ فَضَالَةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ رسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو في صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا» ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ -أَوْ لِغَيْرِهِ-: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ». رَوَاهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ الأربَعةُ أيضًا فيها الأمرُ بالصلاةِ على النبيِّ ﷺ، وفَضيلةُ ذلك، فمنها حَديثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

المَعنى: لا تَجْعَلوا القَبرَ عيدًا تُكْرِمونَه بالمَجيءِ إليه كلَّ سَنةٍ مرَّةً، أو مرَّتيْنِ، أو ما أشبَهَ ذلك، وفيه دَليلٌ على تَحريمِ شَدِّ الرِّحالِ لزيارةِ قَبرِ النبيِّ ﷺ، وأنَّ الإنْسانَ إذا أرادَ الذَّهابَ إلى المَدينةِ لا يَقصِدُ أنْ يُسافِرَ من أجْلِ زيارةِ قَبرِ الرسولِ ﷺ، ولكنْ يُسافِرُ من أجْلِ الصلاةِ في مَسجِدِه؛ لأنَّ الصلاةَ في مَسجِدِه خَيرٌ من ألفِ صَلاةٍ فيما سِواهُ، إلَّا المَسجِدَ الحَرامَ، قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»، إذا صلَّيْتَ على الرسولِ ﷺ، فإنَّ صَلاتَكَ تَبلُغُه حيثُما كُنتَ في بَرٍّ، أو بَحرٍ، أو جَوٍّ، قَريبًا كُنتَ أو بَعيدًا.

وكذلك الحَديثُ الثاني، أنَّه ما من رَجلٍ مُسلِمٍ يُسلِّمُ على النبيِّ ﷺ إلَّا ردَّ اللهُ عليه رُوحَه حتى يَرُدَّ عليه السلامَ، فإذا سلَّمْتَ على النبيِّ ﷺ ردَّ اللهُ عليه رُوحَه

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨١)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٧٧).

فرَدَّ عليكَ السلامَ، والظاهِرُ أنَّ هذا فيمَن كان قَريبًا منه، كأنْ يَقِفَ على قَبرِه، ويقولَ: السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، ويُحتَمَلُ أنْ يَكونَ عامًّا، واللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

ثم ذكَرَ المُؤلِّفُ حَديثَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحَديثَ فَضالةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهما أيضًا الحَثُّ على الصلاةِ على الرسولِ ﷺ، ولكنَّ حَديثَ فَضالةَ الظاهِرُ أنَّ المُرادَ بذلك التشهُّدُ، وأنَّ هذا الرَّجلَ تَشهَّدَ، ولم يُثْنِ على اللهِ، ولم يُمَجِّدْه، ولم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ، ولكنَّه دَعا مُباشَرةً، ومَعلومٌ أنَّ التشهُّدَ فيه:

أوَّلًا: الثناءُ على اللهِ في قَولِه: التحيَّاتُ للهِ والصلَواتُ والطيِّباتُ.

ثانيًا: السلامُ على النبيِّ ﷺ والصلاةُ عليه، ثم الدُّعاءُ.

فيُحمَلُ -أعْني حَديثَ فَضالةَ بنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- على هذا، على أنَّ المُرادَ بذلك الدُّعاءُ في الصلاةِ، وأنَّه يُسبَقُ بالتحيَّاتِ، ثم بالسلامِ والصلاةِ على النبيِّ ﷺ، ثم الدُّعاءِ، واللهُ الموفِّقُ.

١٤٠٥- وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ كَعبِ بنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النبيُّ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٦).

١٤٠٦- وَعَنْ أَبِي مَسْعودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَانَا رَسولُ اللهِ ﷺ، وَنَحنُ فِي مَجْلِسِ سَعدِ بنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ بَشيرُ بنُ سَعدٍ: أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَسَكَتَ رسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٠٧- وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قالوا: يَا رسولَ اللهِ، كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرح

هذه أحاديثُ ثَلاثةٌ في بَيانِ كَيفيَّةِ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، حَديثُ كَعبِ بنِ عُجْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كَيفيَّةِ الصلاةِ، أنَّهم سَألوا النبيَّ ﷺ: كيف يُصَلُّونَ عليه؛ لأنَّه علَّمَهم كيف يُسَلِّمونَ، والذي علَّمَهم إيَّاه هو قولُه: السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، أمَّا الصلاةُ فعَلَّمَهم وقال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»، وقد سبَقَ أنَّ مَعْنى صَلاةِ اللهِ على العَبدِ هو ثَناؤُه عليه في المَلَأِ الأَعْلى، والمُرادُ بآلِ مُحَمَّدٍ هُنا كلُّ أتْباعِه على دِينِه، فإنَّ آلَ الإنْسانِ قد يُرادُ بهم أتْباعُه على دِينِه،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب هل يصلى على غير النبي ﷺ، رقم (٦٣٦٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٤٠٧).

وقد يُرادُ بهم قَرابتُه، لكنْ في مَقامِ الدُّعاءِ يَنبَغي أنْ يُرادَ بهمُ العُمومُ؛ لأنَّه أشمَلُ، فالمُرادُ بقولِه: «وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»، يَعني جَميعَ أتْباعِه، فإنْ قال قائلٌ: هل تَأْتي الآلُ بمَعنى الأتْباعِ؟

قُلْنا: نَعم، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قال العُلَماءُ: مَعْناه أدْخِلوا أتْباعَه أشَدَّ العَذابِ، وهو أوَّلُهم، كما قال تَعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، وقولُه: «كما صلَّيْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ»، والكافُ هُنا للتعْليلِ، وهذا من بابِ التوَسُّلِ بأفْعالِ اللهِ السابِقةِ إلى أفْعالِه اللاحِقةِ، يَعني كما منَنْتَ بالصلاةِ على إبْراهيمَ وآلِه، فامنُنْ بالصلاةِ على مُحَمَّدٍ وآلِه ﷺ، فهي من بابِ التعْليلِ، وليستْ من بابِ التشْبيهِ، وبهذا يَزولُ الإشْكالُ الذي أوْرَدَه بعضُ أهلِ العِلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، حيثُ قالوا: كيف تُلحَقُ الصلاةُ على النبيِّ ﷺ وآلِه بالصلاةِ على إبْراهيمَ وآلِه، معَ أنَّ مُحَمَّدًا أشرَفُ من جَميعِ الأنْبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ؟ فالجَوابُ أنَّ الكافَ هُنا ليستْ للتشْبيهِ ولكنَّها للتعْليلِ.

قوله: «كما صلَّيْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ» حَميدٌ يَعني: مَحمودًا، مَجيدٌ يَعني: مُمَجَّدًا، والمَجدُ هو: العَظَمةُ، والسلْطانُ، والعِزَّةُ، والقُدْرةُ، وما إلى ذلك.

وقوله: «اللَّهُمَّ بارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ»، كذلك أيضًا التبْريكُ، نَقولُ: اللَّهُمَّ بارِكْ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِ مُحَمَّدٍ، أيْ: أنزِلْ فيهمُ البَرَكةَ، والبَرَكةُ هي الخَيرُ الكَثيرُ الواسِعُ الثابِتُ.

وقوله: «كَما بارَكْتَ على إبْراهيمَ وعلى آلِ إبْراهيمَ إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ» هذه هي الصلاةُ على النبيِّ ﷺ، وعلى آلِه وسَلَّمَ، وهذه هي الصفةُ الفُضْلى.

وإذا اقتَصَرْتَ على قَولِكَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ»، كما فعَلَ العُلَماءُ في جَميعِ مُؤلَّفاتِهم إذا ذَكَروا الرسولَ ﷺ، فإنَّه مُجْزئٌ.

أمَّا حَديثُ أبي مَسعودٍ البَدْريِّ، وهو زَيدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبي حُمَيدٍ الساعِديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهُما مُقارِبانِ في اللفْظِ، إلَّا أنَّ حَديثَ أبي حُمَيدٍ الساعِديِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكَرَ الأزْواجَ والذرِّيَّةَ، وأزواجُ النبيِّ ﷺ يَعْني زَوْجاتِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، والذي مات عنهُنَّ تِسعُ زَوْجاتٍ، وكان يَقسِمُ لثَماني زَوْجاتٍ، وأمَّا التاسِعةُ سَوْدةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقد وهبَتْ يَومَها لعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكان النبيُّ ﷺ يَقسِمُ لعائشةَ يومَيْنِ يومَها ويومَ سَوْدةَ[1]، وبَقيَّةُ الزوْجاتِ يَقسِمُ لهُنَّ النبيُّ ﷺ بالعَدلِ، يَقسِمُ بالعَدلِ كما أُمِرَ بذلك.

فالحاصِلُ: أنَّ هذه الصفاتِ الثلاثِ التي ذَكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وساقَها في أحاديثَ ثَلاثةٍ مُتَقارِبةٌ، ولكنَّها تَصِفُ الكَمالَ من صِفةِ الصلاةِ عليه، فصَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، وعلى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعَه بإحْسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها، رقم (٥٢١٢)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها، رقم (١٤٦٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

١٥- كِتابُ الأذْكَارِ

٢٤٤- بابُ فَضْلِ الذِّكْرِ وَالحَثِّ عليه

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]، وقال تَعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال تَعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، وقال تَعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، وقال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾... إلى قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]. والآياتُ في البابِ كَثيرةٌ مَعْلومةٌ.

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «كتابُ الأذْكارِ»، الأذْكارُ جَمعُ ذِكرٍ والمُرادُ بذلك ذِكرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم ذكَرَ بابَ فَضلِ الذكْرِ والحَثِّ عليه، وذكَرَ آياتٍ مُتعَدِّدةً، ولْيُعلَمْ أنَّ ذِكرَ اللهِ تَعالى يَكونُ بالقَلبِ، ويَكونُ باللسانِ، ويَكونُ بالجَوارِحِ، أمَّا القَلبُ فهو التفكُّرُ، أنْ يَتفكَّرَ الإنسانُ في أسْماءِ اللهِ وصِفاتِه وأحْكامِه وأفْعالِه وآياتِه، وأمَّا الذكْرُ باللسانِ فظاهِرٌ، ويَشمَلُ كلَّ قَولٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ منَ التهْليلِ، والتسْبيحِ، والتكْبيرِ، وقِراءةِ القُرآنِ، والأمْرِ بالمَعْروفِ، والنهْيِ عنِ المُنكَرِ، وقِراءةِ السُّنَّةِ، وقِراءةِ العِلمِ.

وأمَّا الأفْعالُ، ذِكرُ اللهِ بالأفْعالِ بالجَوارِحِ فهو كلُّ فِعلٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ كالقيامِ في الصلاةِ، والركوعِ والسجودِ والقُعودِ، وغَيرِ ذلك، لكنْ يُطلَقُ عُرْفًا على ذِكرِ اللهِ تَعالى بالتسْبيحِ والتحْميدِ والتكْبيرِ والتهْليلِ، وذكَرَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك آياتٍ، منها: قَولُ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فخاطَبَ اللهُ المُؤمِنينَ وأمَرَهم أنْ يَذْكُروا اللهَ تَعالى ذِكْرًا كَثيرًا في كلِّ وَقتٍ، وفي كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مَكانٍ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أيْ قولوا: سُبحانَ اللهِ في البُكورِ والأصيلِ، يَعني: في أوَّلِ النهارِ وآخِرِ النهارِ، ويُحتَمَلُ أنْ يُرادَ بالنهارِ كلُّه وفي الليلِ كلُّه.

وقال اللهُ تَعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وهذا ذَكَرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ في سياقِ لقاءِ العَدُوِّ، فقال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، فذكرَ الله تَعالى من أسْبابِ الثباتِ والفَلاحِ، والفَلاحُ كَلمةٌ جامِعةٌ يُرادُ بها حُصولُ المَطْلوبِ، والنجاةُ منَ المَرْهوبِ.

وقال اللهُ تَعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. قيلَ: المَعْنى ولَمَا فيها من ذِكرِ: اللهُ أكبَرُ، وقيلَ: المَعنى ذِكرُ اللهِ عُمومًا أكبَرُ، وهو أنَّ الإنْسانَ إذا صَلَّى كان ذلك سَببًا لحَياةِ قَلبِه، وذِكرُه للهِ عَزَّوَجَلَّ كَثيرًا.

وقال تَعالى في وَصفِ الخَلقِ من عِبادِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، إلى قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

والآياتُ في هذا كَثيرةٌ كلُّها تدُلُّ على فَضيلةِ الذكْرِ والحَثِّ عليه، وقد أثنى اللهُ تَعالى على الذين يَذكُرونَ اللهَ قيامًا وقُعودًا، وعلى جُنوبِهم، وبيَّنَ أنَّهم هم أصحابُ العُقولِ، فقال تَعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، فالمُهِمُّ أنْ نَحُثَّ أنْفُسَنا على إدامةِ ذِكرِ اللهِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، وسُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ، فهو سَهلٌ ويَسيرٌ، وللهِ الحَمدُ، وأجْرُه عَظيمٌ، جَعَلَني اللهُ وإيَّاكم منَ الذاكِرينَ اللهَ كَثيرًا والذاكراتِ، إنَّه على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

١٤٠٨- **وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ** ﷺ: **«كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ**(١).

١٤٠٩- **وَعَنْهُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ** ﷺ: **«لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالحَمْدُ للهِ؛ وَلَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ». رَوَاهُ مُسلِمٌ**(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٥).

١٤١٠ - وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»، وقال: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلُّها تدُلُّ على فَضلِ الذكْرِ.

الأوَّلُ: قال النبيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ» كَلِمَتانِ كما قال النبيُّ ﷺ خَفيفَتانِ على اللسانِ، وهُما أيضًا: ثَقيلَتانِ في الميزانِ، إذا كان يومُ القيامةِ ووُزِنَتِ الأعْمالُ، ووُضِعَتْ هاتانِ الكَلِمَتانِ في الميزانِ ثَقُلَتا به.

والثالِثُ: حَبيبَتانِ إلى الرحْمَنِ، وهذا أعظَمُ الثوابَيْنِ، أنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّهما وإذا أحَبَّ اللهُ العمَلَ أحبَّ العامِلَ به، فهاتانِ الكَلِمَتانِ من أسْبابِ مَحَبَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعَبدِه.

ومَعنى: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»، أنَّكَ تُنَزِّهُ اللهَ تَعالى عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وأنَّه الكامِلُ من كلِّ وَجهٍ جَلَّ وَعَلَا، مَقْرونًا هذا التسْبيحُ بالحَمدِ الدالِّ على كَمالِ إفْضالِه وإحْسانِه إلى خَلقِه جَلَّ وَعَلَا، وتَمامِ حِكمَتِه وعِلمِه، وغَيرِ ذلك من كَمالاتِه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩١).

«سُبْحَانَ اللهِ العَظيمِ» يَعني: ذي العَظَمةِ والجَلالِ، فلا شَيءَ أعظَمُ منَ اللهِ سُلْطانًا، ولا أعظَمَ قَدْرًا، ولا أعظَمَ حِكْمةً، ولا أعظَمَ عِلمًا، فهو عَظيمٌ بذاتِه، وعَظيمٌ بصِفاتِه جَلَّوَعَلَا، سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ.

ينبَغي للإنسانِ أنْ يُكثِرَ منهما، وأنْ يُداوِمَ على قَولِهما؛ لأنَّهما ثَقيلَتانِ في الميزانِ، وحَبيبَتانِ إلى الرحمنِ، خَفيفَتانِ على اللسانِ سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ.

ثم ذكَرَ الحَديثَ الثانيَ عن أبي هُرَيْرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ؛ وَالحَمْدُ للهِ؛ وَلَا إلهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ -أربعَ كَلِماتٍ- أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» يَعني: أحبُّ إليَّ منَ الدُّنْيا كلِّها، وهي أيضًا كَلِماتٌ خَفيفةٌ: «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ».

الناسُ الآنَ يُسافِرونَ ويَقْطَعونَ الفيافيَ والصحاريَ والمَهالِكَ والمَفاوِزَ من أجْلِ أنْ يَرْبَحوا شَيئًا قَليلًا منَ الدُّنْيا، قد يَتَمَتَّعونَ به، وقد يُحْرَمونَ إيَّاه، وهذه الأعمالُ العَظيمةُ يَتَعاجَزُ الإنسانُ عنها؛ لأنَّ الشيْطانَ يُكسِلُه، ويَخْذُلُه، ويُثَبِّطُه عنها، وإلَّا فهي كما قال الرسولُ ﷺ: أحَبُّ إلى الإنسانِ ممَّا طلَعَتْ عليه الشمسُ، وإذا فَرَضْنا أنَّ عِندَكَ مُلكَ الدُّنْيا كلِّها، ثم حضَرَ المَوتُ، ماذا تَستَفيدُ؟ لا تَستَفيدُ شَيئًا، لكنَّ سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ هي الباقياتُ الصالِحاتُ، قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦]، فيَنبَغي لنا أنْ نَغتَنِمَ الفُرْصةَ بهذه الأعْمالِ الصالِحةِ.

أمَّا الحَديثُ الثالِثُ والرابعُ فهو: «مَنْ قَالَ في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ: لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ

لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، حصَلَ له هذه الفَضائلُ الخَمْسةُ:

أوَّلًا: كان كمَن أعتَقَ عَشْرَ رِقابٍ.

وثانيًا: كُتِبَتْ له مِئةُ حَسَنةٍ.

ثالثًا: وحُطَّتْ عنه مِئةُ خَطيئةٍ.

رابعًا: وكانت له حِرْزًا منَ الشيْطانِ.

وخامِسًا: ولم يَأْتِ أحدٌ بأفضَلَ ممَّا جاءَ به، إلَّا مَن عَمِلَ أكثَرَ ممَّا عَمِلَ.

خَمسُ فَضائلَ، إذا قُلتَ: «لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ؛ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، مِئة مرَّةٍ، وهذه سَهلةٌ، يُمكِنُ وأنتَ تَنتَظِرُ صَلاةَ الفَجرِ بعدَ أنْ تَأْتيَ للمَسجِدِ تَقولُها، أو بعدَ طُلوعِ الفَجرِ تَقولُها تَنتَفِعُ بها، وهذا أيضًا منَ الأُمورِ التي يَنبَغي للإنسانِ أنْ يُداوِمَ عليها، ويَنبَغي أنْ يَقولَها في أوَّلِ النهارِ لِتَكونَ حِرْزًا له منَ الشيْطانِ.

أمَّا «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» فمَن قالَها مِئةَ مرَّةٍ حُطَّتْ عنه خَطاياهُ، وإنْ كانت مثلَ زَبَدِ البَحرِ، وهذه -سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه- تَقولُها في آخِرِ النهارِ لأجْلِ أنْ تُحَطَّ عنكَ خَطايا النهارِ.

فانتَهِزِ الفُرْصةَ -يا أخي- انتَهِزِ الفُرْصةَ، العُمرُ يَمْضي ولا يَرجِعُ، ما مَضى من عُمرِكَ فلن يَرجِعَ إليكَ، وهذه الأعْمالُ خَفيفةٌ مُفيدةٌ، ثَوابُها جَزيلٌ وعَمَلُها قَليلٌ، نَسأَلُ اللهَ أنْ يُعينَنا وإيَّاكم على ذِكرِه، وشُكرِه، وحُسنِ عِبادتِه.

١٤١١- وعَنْ أَبي أَيُّوبَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النَّبيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَالَ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ؛ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ، كَانَ كَمَنْ أعْتَقَ أرْبَعَةَ أنْفُسٍ منْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

١٤١٢- وعَنْ أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ؟ إنَّ أَحَبَّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ». رَواهُ مُسلِمٌ[٢].

١٤١٣- وعَنْ أَبي مالكٍ الأشْعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلأُ المِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ -أَوْ تَمْلأُ- مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ». رَواهُ مُسلِمٌ[٣].

١٤١٤- وعَنْ سَعْدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ أعْرَابيٌّ إِلَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: عَلِّمْني كَلَامًا أقُولُهُ، قَالَ: «قُلْ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، اللهُ أكْبَرُ كَبيرًا، وَالحَمْدُ للهِ كَثيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ» قَالَ: فهؤُلاءِ لِرَبِّي، فَمَا لِي؟ قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْني وَاهْدِنِي، وَارْزُقْني». رَواهُ مُسلِمٌ[٤].

١٤١٥- وعَنْ ثَوْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التهليل، رقم (٦٤٠٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل سبحان الله وبحمده، رقم (٢٧٣١).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٦).

يَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ» قِيلَ لِلأَوْزَاعِيِّ -وَهُوَ أَحَدُ رُواةِ الحَدِيثِ-: كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: يقولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ. رَواهُ مُسلِمٌ[1].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ ساقَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضلِ الذكْرِ، وقد سبَقَ لنا شَيءٌ من هذه الأحاديثِ، فمنها: -أيْ: منَ الأحاديثِ التي ساقَها- أنَّ مَن قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ، وله الحَمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ عَشْرَ مرَّاتٍ، كان كمَن أعتَقَ أرْبَعةَ أنفُسٍ من وَلَدِ إسْماعيلَ، يَعني كان كالذي أعتَقَ أربَعَ رِقابٍ من أشرَفِ الناسِ نَسَبًا، وهم بَنو إسْماعيلَ؛ لأنَّ أشرَفَ الناسِ نَسَبًا هُمُ العَرَبُ، وهم بَنو إسْماعيلَ، وأمَّا العَجَمُ فلهم آباءٌ آخَرونَ، ولكنَّ ذُرِّيَّةَ إسْماعيلَ هُمُ العَرَبُ، فمَن قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» عَشْرَ مرَّاتٍ، كان كمَن أعتَقَ أرْبَعةَ أنفُسٍ، وهذا دَليلٌ على فَضلِ هذا الذكْرِ.

وكذلك أيضًا قال النبيُّ ﷺ: «أَحَبُّ الكَلَامِ إِلَى اللهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»، وقد سبَقَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[2].

وكذلك حَديثُ ثَوْبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنَّه ذِكرٌ مُقَيَّدٌ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا انصَرَفَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من صَلاتِه قال: «أستَغفِرُ اللهَ»، يَعني: استَغفَرَ ثَلاثًا، قال: «أستَغفِرُ اللهَ، أستَغفِرُ اللهَ، أستَغفِرُ اللهَ، اللَّهُمَّ أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ، تَبارَكْتَ يا ذا الجَلالِ والإكْرامِ»، وإنَّما يَستَغفِرُ الإنسانُ إذا فرَغَ من صَلاتِه من أجْلِ ما يَكونُ فيها من خَلَلٍ ونَقصٍ، ويَقولُ: «اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلَامُ» يَعني: اللَّهُمَّ إنِّي أتَوَسَّلُ إليكَ بهذا الاسمِ الكَريمِ من أسْمائِكَ أنْ تُسَلِّمَ لي صَلاتي حتى تكونَ مُكَفِّرةً للسيِّئاتِ، ورافِعةً للدرَجاتِ، واللهُ الموفِّقُ.

١٤١٦- وعَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٤١٧- وعَنْ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّه كَانَ يَقُولُ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ، حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ. رَوَاهُ مُسلِمٌ[2].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٤).

الشَّرح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ الأذْكارِ المُقَيَّدةِ؛ لأنَّ الأذْكارَ تَنقَسِمُ إلى قِسمَيْنِ، مُطْلَقةٍ ومُقَيَّدةٍ، منها مُقَيَّدٌ بالوُضوءِ، ومنها ما هو مُقَيَّدٌ بالصلاةِ، فهذانِ الحَديثانِ مُقَيَّدانِ بالصلاةِ، حَديثُ المُغيرةِ بنِ شُعْبَةَ، وحَديثُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أمَّا حَديثُ المُغيرةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أخبرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا سلَّمَ من صَلاتِه: «لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ومَعنى: «لَا إلهَ إلَّا اللهُ» يَعني: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، فلا مَعبودَ في الكائناتِ يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أمَّا الأصنامُ التي تُعبَدُ من دونِ اللهِ فليستْ مُستَحِقَّةً للعِبادةِ، حتى وإنْ سَمَّاها عابِدوها آلِهةً، فإنَّها ليستْ آلِهةً، بل هي كما قال اللهُ تَعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، فالمَعبودُ حقًّا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه: «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، هذا من بابِ التأْكيدِ، تأْكيدِ وَحْدانيَّتِه جَلَّوَعَلَا، وأنَّه لا مُشارِكَ له في أُلوهِيَّتِه «لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، له المُلكُ المُطلَقُ العامُّ الشامِلُ الواسِعُ، مُلكُ السمَواتِ والأرضِ، وما بينَهما، مُلكُ الآدَميِّينَ، والحَيَواناتِ، والأشْجارِ، والبِحارِ، والأنْهارِ، والمَلائكةِ، والشمسِ، والقَمرِ، كلُّ هذه مِلكٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ما عَلِمْنا وما لم نَعلَمْ، له المُلكُ كلُّه يَتصَرَّفُ فيه كما يَشاءُ، وعلى ما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُه جَلَّوَعَلَا.

قوله: «وَلَهُ الحَمْدُ» يَعني: الكَمالَ المُطلَقَ على كلِّ حالٍ، فهو جَلَّوَعَلَا محمودٌ على كلِّ حالٍ في السرَّاءِ، وفي الضرَّاءِ، أمَّا في السرَّاءِ فيَحمَدُ الإنسانُ ربَّه حَمدَ شُكرٍ،

وأمَّا في الضرَّاءِ فيَحمَدُ الإنسانُ ربَّه حَمدَ تَفْويضٍ؛ لأنَّ الشيءَ الذي يضُرُّ الإنسانَ قد لا يَتبيَّنُ له وَجهُ مَصلَحَتِه فيه، ولكنَّ اللهَ تَعالى أعلَمُ، فيَحمَدُ اللهَ تَعالى على كلِّ حالٍ، وكان النبيُّ ﷺ إذا أَتاهُ ما يَسُرُّه قال: «الحَمدُ للهِ الذي بنِعمَتِه تَتِمُّ الصالِحاتُ»، وإذا أَتاهُ ما لا يَسُرُّه قال: «الحَمدُ للهِ على كلِّ حالٍ»[1].

قوله: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، هذا أيضًا تَفويضٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بأنَّه لا مانِعَ لَمَا أَعْطى، فما أَعْطاكَ اللهُ لا أحَدَ يَمنَعُه، وما منَعَكَ لا أحَدَ يُعْطيكَ إيَّاه، ولهذا قال: «وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»، إذا آمَنَّا بأنَّه لا مانِعَ لَمَا أَعْطى ولا مُعْطيَ لَمَا منَعَ إذنْ لا نَسأَلُ العَطاءَ إلَّا منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ونَعلَمُ أنه لو أَعْطانا فُلانٌ شَيئًا، فالذي قدَّرَ ذلك هو اللهُ، والذي صيَّرَه حتى يُعْطينا هو اللهُ، وما هو إلَّا مُجَرَّدُ سَببٍ، لكنْ نحن مَأْمورونَ بأنْ نَشكُرَ مَن صنَعَ إلينا مَعْروفًا، كما قال النبيُّ ﷺ: «مَن صنَعَ إليكم مَعْروفًا فكافِئُوهُ، فإنْ لم تَجِدوا ما تُكافِئُونَه، فادْعوا له حتى تَرَوْا أنَّكم قد كافأْتُموهُ»[2] لكنْ نَعلَمُ أنَّ الذي يَسَّرَ لنا هذا العَطاءَ، وصيَّرَ لنا هذا المُعْطَي هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، الجَدُّ يَعني: الحظَّ والغِنى، يَعني الإنسانَ المَحظوظَ الذي له حَظٌّ، وعندَه مالٌ، وعندَه أوْلادٌ، وعندَه زَوْجاتٌ، وعندَه كلُّ ما يَشْتَهي منَ الدُّنْيا، فإنَّ هذا لا يَنفَعُه منَ اللهِ، «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»، الجَدُّ فاعلٌ، يَعني: أنَّ الجَدَّ وهو

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، رقم (١٦٧٢)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب من سأل بالله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٢٥٦٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الحظُّ والغِنى ما يَمنَعُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى له مُلكُ السمَواتِ والأرضِ، وكم من إنسانٍ تَراهُ مَسْرورًا في أهلِه، وعندَه المالُ والبَنونَ، وجَميعُ ما يَنالُه منَ الدُّنْيا، ولا يَنفَعُه شَيءٌ منَ اللهِ، قد يُصابُ بمَرضٍ، ولا يَقدِرُ أنْ يَرفَعَه عنه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ويُصابُ بغَمٍّ وهَمٍّ وقَلقٍ لا يَنفَعُه إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وهذا كلُّه منَ التفْويضِ إلى اللهِ، إذنْ يَنبَغي لنا إذا سلَّمَ الإنسانُ واستَغفَرَ ثَلاثًا، وقال: اللَّهُمَّ أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ تَبارَكْتَ يا ذا الجَلالِ والإكْرامِ أنْ يَذكُرَ اللهَ تَعالى بهذا الذكْرِ.

والترْتيبُ بينَ الأذْكارِ ليس بواجِبٍ، يَعني: لو قدَّمْتَ بعضَها على بعضٍ، فلا بَأسَ، لكنَّ الأفضَلَ أنْ تَبدَأَ بالاستِغْفارِ ثَلاثًا، واللَّهُمَّ أنتَ السلامُ، ومنكَ السلامُ تَبارَكْتَ يا ذا الجَلالِ والإكْرامِ، ثم تَذكُرَ اللهَ تَعالى بالأذْكارِ الوارِدةِ، وسيَأْتي الكَلامُ إنْ شاءَ اللهُ عن حَديثِ عَبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



١٤١٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ، يَحُجُّونَ، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ. فَقَالَ: «أَلَا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قالوا: بَلَى يَا رسولَ اللهِ، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» قَالَ أَبُو صالحٍ الراوي عن أَبي هُرَيْرَةَ، لَمَّا سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِنَّ قَالَ: يقولُ:

سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، واللهُ أكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

وزادَ مُسلِمٌ في رِوايتِه: فَرَجَعَ فُقَراءُ المُهَاجِرينَ إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا فَفَعَلُوا مِثْلَهُ؟ فَقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

«الدُّثُورُ» جَمعُ دَثْرٍ -بفَتْحِ الدالِ وإِسْكانِ الثاءِ المُثَلَّثةِ- وَهُوَ: المالُ الكَثِيرِ.

١٤١٩- وعَنْهُ، عَن رَسولِ الله ﷺ، قَالَ: «مَنْ سَبَّحَ الله في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وحَمِدَ اللهَ ثَلاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ الله ثَلاثًا وَثَلَاثِينَ، وقال تَمَامَ المِئَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ». رواهُ مُسلِمٌ[٢].

١٤٢٠- وعَن كَعْب بن عُجْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَن رَسولِ الله ﷺ، قَالَ: «مُعَقِّباتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ -أَوْ فَاعِلُهُنَّ- دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلاثٌ وَثَلاثونَ تَسْبِيحَةً. وَثَلاثٌ وثَلَاثونَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثونَ تَكْبِيرَةً». رواهُ مُسلِمٌ[٣].

الشَّرح

هذا منَ الأحاديثِ الدالَّةِ على فَضيلةِ الذكْرِ المَخْصوصِ المُقَيَّدِ بعَملٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٧).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٣/ ٥٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٦).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٣/ ٥٣٣).

وهذا منها، حَديثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ فُقَراءَ المُهاجِرينَ جاؤوا يَشْتكونَ إلى النبيِّ ﷺ يَقولونَ: إنَّ أهلَ الأمْوالِ سَبَقونا، إنَّهم يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصومونَ كما نَصومُ، ولهم فَضلٌ منَ الأمْوالِ، يَعني: زيادةً يَتَصَدَّقونَ بها، ويَحُجُّونَ ويَعتَمِرونَ، ويُجاهِدونَ، فدَلَّهمُ النبيُّ ﷺ على أمرٍ، قال: «أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تُدْرِكُونَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ»، قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قال: «تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ»، يَعني تَقولونَ: «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ» ثَلاثًا وثَلاثينَ مرَّةً، فهذه تِسعٌ وتِسعونَ، ثم إنَّهم فَعَلوا ذلك، ولكنْ سمِعَ الأغْنياءُ بهذا، ففَعَلوا مِثلَه، فتَساوَوْا معَهم في هذا الذكْرِ، فرجَعَ الفُقَراءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقالوا: يا رسولَ اللهِ، سمِعَ إخْوانُنا أهلُ الأمْوالِ بما صَنَعْنا، فصَنَعوا مِثلَه، وكأنَّهم يُريدونَ شَيئًا آخَرَ يَختَصُّونَ به، فقال: «ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

ففي هذا الحَديثِ منَ الفَوائدِ:

أوَّلًا: حِرصُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على التسابُقِ إلى الخَيرِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُحِبُّ أنْ يَسبِقَ غَيرَه.

ومنها: أنَّ هذا الذكْرَ: «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ» ثَلاثًا وثَلاثينَ مَشروعٌ خَلفَ الصلَواتِ، وقد وَرَدَ في حَديثٍ آخَرَ أنَّه تُكَمَّلُ المِئةُ بقولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ، وله الحَمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ[1].

وهذا صِفةٌ من صِفاتِ الذكْرِ بعدَ الصلاةِ، ومن صِفاتِ الذكْرِ بعدَ الصلاةِ

(١) أخرجه أبو نعيم في المسند المستخرج على صحيح مسلم: رقم (١٣٢٤)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنْ تَقولَ: «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ» خَمسًا وعِشْرينَ فيكونَ الجَميعُ مِئةً، ومن صِفاتِه أيضًا أنْ تَقولَ: «سُبحانَ اللهِ» ثَلاثًا وثَلاثينَ، «والحَمدُ للهِ» ثَلاثًا وثَلاثينَ، «واللهُ أكبَرُ» أربَعًا وثَلاثينَ، فهذه مِئةٌ.

ومن صِفاتِه أنْ تَقولَ: «سُبحانَ اللهِ» عَشْرَ مرَّاتٍ، «والحَمدُ للهِ» عَشْرَ مرَّاتٍ، «واللهُ أكبَرُ» عَشْرَ مرَّاتٍ[1]، تَفعَلُ هذا مرَّةً، وهذا مرَّةً؛ لأنَّ الكلَّ ثبَتَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن فَوائدِ الحَديثِ: سَعةُ صَدرِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المُراجَعةِ والمُناقَشةِ؛ لأنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُريدُ الحقَّ أينَما كان، والحقُّ معَه، لكنْ يُطيِّبُ قُلوبَ الناسِ ويُبيِّنُ لهم.

ومن فَوائدِ الحَديثِ: أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا مَنَّ على أحدٍ بفَضلٍ، فإنَّما هو فَضلُه يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ، ولا يَجورُ بهذا الفَضلِ على أحدٍ، فإذا أغْنى هذا، وأفْقَرَ هذا، فهو فَضلُه يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ، وليس هذا بجَوْرٍ، بل ذلك فَضلُه يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ، وكذلك أيضًا مَن رَزَقَه اللهُ عِلمًا ولم يَرزُقِ الآخَرَ، فهذا من فَضلِه، فالفَضلُ بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ.

ومن فَوائدِ هذا الحَديثِ أيضًا: أنَّ الأغْنياءَ منَ الصحابةِ كالفُقَراءِ حَريصونَ على فِعلِ الخَيرِ والتسابُقِ فيه، ولهذا صَنَعوا مثلَ ما صنَعَ الفُقَراءُ، فصاروا يُسَبِّحونَ، ويَحمَدونَ، ويُكَبِّرونَ خَلفَ كلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثَلاثينَ، واللهُ الموفِّقُ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التسبيح عند النوم، رقم (٥٠٦٥)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٤٢١- وعَنْ سَعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ دُبُرَ الصَّلَواتِ بِهؤُلاءِ الكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ». رَواهُ البُخاريُّ[1].

١٤٢٢- وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ، أَخَذَ بيَدِه، وقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ» فَقَالَ: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». رَواهُ أَبو داوُدَ[2] بإسْنادٍ صَحيحٍ.

الشَّرْح

هذه منَ الأذْكارِ التي تُقالُ دُبُرَ الصلاةِ، الحَديثُ الأوَّلُ -عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَتعَوَّذُ بهذه الكَلِماتِ دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ».

وكذلك حَديثُ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقولُ دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَعَلَى شُكْرِكَ، وَعَلَى حُسْنِ عِبَادَتِكَ»، فكَلمةُ (دُبُرَ) القاعدةُ فيها أنَّه إذا كان المَذكورُ أذْكارًا، فإنَّه يكونُ بعدَ السلامِ، وإذا كان المَذكورُ دُعاءً، فإنَّه يَكونُ قبلَ السلامِ؛ لأنَّ ما قبلَ السلامِ وبعدَ التشهُّدِ هو دُبُرُ الصلاةِ، وكما قال

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم (٦٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، رقم (١٥٢٢)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٣).

شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمية رَحِمَهُ اللَّهُ: دُبُرُ الشيءِ من الشيءِ كما يُقالُ: دُبُرُ الحَيَوانِ لمُؤَخَّرَتِه[1]، وعلى هذا فيكونُ حَديثُ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وحَديثُ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ يكونُ هذا الدُّعاءُ قبلَ أنْ تُسلِّمَ، إذا انْتَهَيْتَ منَ التشهُّدِ، ومن قَولِكَ: أعوذُ باللهِ من عذابِ جَهنَّمَ، ومن عذابِ القَبرِ، ومن فِتْنةِ المَحْيا والمَماتِ، ومن فِتْنةِ المَسيحِ الدَّجَّالِ، تَقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منَ البُخلِ والجُبنِ، وأعوذُ بكَ من أنْ أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بكَ من فِتْنةِ الدُّنْيا، وأعوذُ بكَ من فِتْنةِ القَبرِ، هذه خَمسةُ أشياءَ تَستَعيذُ باللهِ منهُنَّ:

الأوَّلُ: البُخلُ، وهو الشحُّ بالمالِ.

والثاني: الجُبنُ، وهو الشحُّ بالنفْسِ. فالبُخلُ أنْ يَمنَعَ الإنسانُ ما يَجِبُ عليه بَذلُه من مالِه من زَكاةٍ، أو نَفَقاتٍ، أو إكْرامِ ضَيفٍ، أو غَيرِ ذلك، وأمَّا الجُبنُ فأنْ يَشُحَّ الإنسانُ بنفْسِه، لا يَتَقدَّمُ في جِهادٍ يَخْشى أنْ يُقتَلَ، ولا يَتكَلَّمُ بكَلامِ حقٍّ يَخْشى أنْ يُسجَنَ، وما أشبَهَ ذلك، فهذا جُبنٌ.

وأمَّا «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ»، أرذَلُ يَعني أرْداهُ وأنْقَصه، وذلك على وَجهَيْنِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: أنْ يَحدُثَ للإنْسانِ حادثٌ، فيَختَلَّ به عَقلُه، فيَهْذيَ، فيُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، ويَصيرَ كالصبيِّ.

والوَجهُ الثاني: أو أنْ يَكونَ ذلك عن كِبَرٍ؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما كبِرَ وبلَغَ أربَعينَ سَنةً، بَدَأَ يأخُذُ في النقْصِ، ولكنَّ الناسَ يَختَلِفونَ، منهم مَن يَنقُصُ كَثيرًا، ومنهم مَن

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٩٩).

يَنقُصُ قَليلًا، لكنَّه لا بُدَّ أنْ يَنقُصَ إذا بلَغَ الأرْبَعينَ، فقدِ اسْتَوى وكمُلَ، والشيءُ إذا اسْتَوى وكمُلَ أخَذَ في النقْصِ.

فمنَ الناسِ مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ في قُواهُ الحِسيَّةِ، وقُواهُ العَقليَّةِ، فيَضعُفُ بَدَنُه، ويَحْتاجُ إلى مَن يَحمِلُه، ويَخدُمُه، ويُوَجِّهُه، وما أشبَهَ ذلك، أوِ العَقْليَّةِ بأنْ يَهْذيَ، ولا يَدْريَ ما يَقولُ، فالردُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ يَشمَلُ هذا وهذا، ما كان بحادثٍ، وما كان بسببِ تَقدُّمِ السنِّ به، ثم إنَّ الإنْسانَ إذا وصَلَ إلى هذه الحالِ، نَسألُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم منها، فإنَّ أهلَه يَمَلُّونَه، أهلُه الذين هُم أشفَقُ الناسِ به يَتْعَبونَ منه ويَمَلُّونَه، ورُبَّما يَترُكونَه في مكانٍ تَتكَفَّلُ به الحُكومةُ مَثلًا، وهذا لا شكَّ أنَّ الإنسانَ لا يَرْضاهُ، ولا يَرْضى لنفْسِه أنْ يَصِلَ إلى هذا الحدِّ، وتَسقُطُ أيضًا عنه الصلاةُ، ويَسقُطُ عنه الصوْمُ، وتَسقُطُ عنه الواجِباتُ؛ لأنَّه وصَلَ إلى حدٍّ يَرتَفِعُ عنه التكْليفُ.

قوله: «وَأعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا» وما أعظَمَ فِتْنةَ الدُّنْيا، وما أكثَرَ المَفْتونينَ في الدُّنْيا، لاسيَّما في عَصرِنا هذا، وعَصرُنا هذا هو عَصرُ الفِتْنةِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ ما الفَقْرَ أخْشى عليكم، وإنَّما أخْشى أنْ تُفتَحَ عليكمُ الدُّنْيا فتَنافَسوها كما تَنافَسَها مَن قبلَكم، فتُهلِكَكم كما أهْلَكَتْهم»[1]. هذا هو الواقِعُ في الوَقتِ الحاضِرِ، فُتِحَتْ علينا الدُّنْيا من كلِّ جانبٍ، من كلِّ شيءٍ، من كلِّ وَجهٍ، منازلُ كقُصورِ المُلوكِ، ومَراكِبُ كمَراكبِ المُلوكِ، ومَلابسُ ومَطاعمُ ومَشارِبُ، فُتِحَتْ فصارَ الناسُ الآنَ ليس لهم هَمٌّ إلَّا البُطونُ والفُروجُ، فُتِنوا بالدُّنْيا!! نَسألُ اللهَ العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب، رقم (٣١٥٨)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِفتْنةُ الدُّنْيا عَظيمةٌ، يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَنتَبِهَ لها، ولهذا قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

«وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ» أو من عَذابِ القَبرِ، وفِتْنةُ القَبرِ أيضًا فِتْنةٌ عَظيمةٌ، إذا دُفِنَ الميِّتُ وانصَرَفَ عنه أصحابُه، حتى أنَّه لَيَسمَعُ قَرعَ نِعالِهم مُنصَرِفينَ عنه، أتاهُ مَلَكانِ يَسْألانِه عن ربِّه، ودِينِه، ونَبيِّه، إنْ كانَ مُؤمِنًا خالِصًا أجابَ بالصوابِ، وقال: رَبِّيَ اللهُ، ونَبيِّي مُحَمَّدٌ، ودِيني الإسْلامُ، وإنْ كان مُرائيًا أو مُنافِقًا أعاذَنا اللهُ وإيَّاكم من ذلك، قال: هاها لا أَدْري، فيُضرَبُ بمِرْزَبَّةٍ من حَديدٍ، والمِرْزَبَّةُ منَ الحَديدِ قالوا: مثلُ المِطْرَقةِ، وقد ورَدَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّه لو اجتَمَعَ عليها أهلُ مِنًى ما أقَلُّوها[1]، من عَظَمَتِها، نَسألُ اللهَ العافيةَ، فيَصيحُ صَيْحةً يَسمَعُها كلُّ شَيءٍ، يَسمَعُها كلُّ شَيءٍ إلَّا الثقَلَيْنِ، يَعني الجِنَّ والإنسَ، وهذا من رَحمةِ اللهِ -أنَّ اللهَ تَعالى لا يُسمِعُنا عَذابَ القَبرِ- لأنَّنا لو سَمِعْنا الناسَ يُعَذَّبونَ في قُبورِهم ما طاب لنا عَيشٌ، ولأصابَنا الغَمُّ والحُزنُ، إنْ كان قَريبًا لنا اغْتَمَمْنا من وَجهَيْنِ: من قَرابَتِه، ومن هذه الأصْواتِ المُزْعِجةِ، وإنْ كان غيرَ قَريبٍ أيضًا انزَعَجْنا منه، ففِتْنةُ القَبرِ فِتْنةٌ عَظيمةٌ، نَسألُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم منها.

هذه أشياءُ كان النبيُّ ﷺ يُعَلِّمُها أصحابَه، خَمسةُ أشياءَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ».

أمَّا حَديثُ مُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «إِنِّي لأُحِبُّكَ»، وأقسَمَ قال: «وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ»، وهذه مَرْتَبةٌ عَظيمةٌ لمُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ نَبيَّنا ﷺ أقسَمَ

(١) أخرجه عبد الرزاق رقم (٦٧٤٠)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنَّه يُحِبُّه، والمُحِبُّ لا يَدَّخِرُ لحَبيبِه إلَّا ما هو خَيرٌ له، وإنَّما قال هذا له لأجْلِ أنْ يَكونَ مُستَعِدًّا لَمَا يُلْقى إليه؛ لأنَّه يُلْقيه إليه من مُحِبٍّ، ثم قال له: «لَا تَدَعَنَّ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَعَلَى شُكْرِكَ، وَعَلَى حُسْنِ عِبَادَتِكَ»، ودُبُرِ كلِّ صَلاةٍ يَعني في آخِرِ الصلاةِ قبلَ السلامِ، هكذا جاءَ في بعضِ الرواياتِ أنَّه يَقولُها قبلَ السلامِ، وهو حقٌّ، وكما ذَكَرْنا أنَّ المُقَيَّدَ بالدُّبُرِ، أيْ: دُبُرِ الصلاةِ إنْ كانَ دُعاءً فهو قبلَ التسليمِ، وإنْ كانَ ذِكْرًا فهو بعدَ التسليمِ، ويدُلُّ لهذه القاعدةِ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حَديثِ ابنِ مَسعودٍ في التشهُّدِ لَمَّا ذَكَرَه، قال: ثم ليَتَخَيَّرْ منَ الدُّعاءِ ما شاءَ، أو ما أحبَّ، أو أعْجَبَه إليه[1]، أمَّا الذكْرُ فقالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣].

وقوله: «أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ» يَعني: كلُّ قولٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ، كلُّ شيءٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ، كلُّ تَفْكيرٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ، فهو من ذِكْرِ اللهِ، «وَشُكْرِكَ» أيْ: شُكرِ النِّعَمِ، وانْدِفاعِ النِّقَمِ، فكم من نِعْمةٍ للهِ علينا، وكم نِقْمةٍ انْدَفَعَتْ عنَّا، فنَشكُرُ اللهَ على ذلك، ونَسأَلُ اللهَ أنْ يُعينَنا عليه؛ «وَعَلَى حُسْنِ عِبَادَتِكَ»، وحُسنُ العِبادةِ يكونُ بأمرَيْنِ، بالإخْلاصِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، كلَّما قَوِيَ الإخْلاصُ كان أحسَنَ، وبالمُتابَعةِ لرسولِ اللهِ ﷺ، واللهُ الموفِّقُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، رقم (٨٣٥)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

١٤٢٣- عَنْ أَبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٢٤- وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ». رَواهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرح

ذكَرَ المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى هذين الحَديثَيْنِ فيما يُتَعَوَّذُ به، ويُذكَرُ اللهُ به في الصلَواتِ، ففي الأوَّلِ عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ»، وفي لفظِ التشهُّدِ الأخيرِ، يَقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ»، هذه أربعةُ أُمورٍ أمَرَ النبيُّ ﷺ أنْ نَستَعيذَ باللهِ منها إذا فَرَغْنا منَ التشهُّدِ، يَعني قبلَ التسْليمِ.

قوله: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ» وهي النارُ، فتَتَعَوَّذُ باللهِ من عَذابِها، وهذا يَشمَلُ ما عَمِلْتَ من سوءٍ، تَسألُ اللهَ أنْ يَعفوَ عنكَ منه، وما لم تَعمَلْ منَ السوءِ تَسألُ اللهَ أنْ يُجَنِّبَكَ إيَّاه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم (١٣٧٧)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يُستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٨٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١).

قوله: «وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ»؛ لأنَّ القَبرَ فيه عذابٌ، وهو عذابٌ دائمٌ للكافِرينَ، وعذابٌ قد يَنقَطِعُ للعاصينَ، وقد ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه مرَّ بقَبْرَيْنِ فقال: «إنَّهما لَيُعَذَّبانِ وما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ، أمَّا أحَدُهما فكان لا يَستَبْرِئُ منَ البَوْلِ، وأمَّا الآخَرُ فكان يَمْشي بالنَّميمةِ»[1].

قوله: «وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ»، فِتْنةُ المَحْيا ما يُفْتَتَنُ به الإنْسانُ في حَياتِه وتَدورُ على شَيئَيْنِ، إمَّا جَهلٍ وشُبْهةٍ وعَدمِ مَعْرِفةٍ بالحقِّ، فيَشتَبِهُ عليه الحقُّ بالباطِلِ، فيَقَعُ في الباطِلِ فيَهلِكُ، وإمَّا شَهوةٍ أيْ: هَوًى، بحيثُ يَعلَمُ الإنسانُ الحقَّ لكنَّه لا يُريدُه، وإنَّما يُريدُ الباطلَ.

وأمَّا فِتْنةُ المَماتِ فقيلَ: إنَّها فِتْنةُ القَبرِ، وهي سُؤالُ المَلَكينِ للإنْسانِ -إذا دُفِنَ- عن رَبِّه ودِينِه ونَبيِّه، وقيلَ: فِتْنةُ المَماتِ هي ما يَكونُ عندَ مَوتِ الإنْسانِ، وذلك أنَّ أشَدَّ ما يَكونُ الشيْطانُ حِرْصًا على إغْواءِ بَني آدَمَ عندَ مَوْتِهم، يَأْتي الإنْسانَ عندَ مَوتِه ويوَسْوِسُ له، ويُشَكِّكُه ورُبَّما يَأمُرُه بأنْ يَكفُرَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذه الفِتْنةُ من أعظَمِ الفِتَنِ، وأمَّا فِتْنةُ المَسيحِ الدَّجَّالِ، فالمَسيحُ الدَّجَّالُ هو مَن يَبعَثُه اللهُ عَزَّوَجَلَّ عندَ قيامِ الساعةِ، رَجلٌ خَبيثٌ كاذبٌ، مَكتوبٌ بينَ عَينَيْه: كافرٌ يَقرَؤُه المُؤمنُ الكاتبُ وغيرُ الكاتبِ، ويَفتِنُ اللهُ تَعالى به؛ لأنَّه يُمَكَّنُ له في الأرضِ بعضَ الشيءِ، يَبْقى في الأرضِ أربعينَ يومًا، اليومُ الأوَّلُ طولُه طولُ السنةِ الكامِلةِ، والثاني طولُه الشهرُ، والثالثُ طولُه أُسبوعٌ، والرابعُ كسائرِ الأيامِ.

يَدْعو الناسَ إلى أنْ يَكْفُروا باللهِ، وأنْ يُشْرِكوا به، يقولُ: أنا رَبُّكم، ومعَه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم (٢٩٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

جَنَّةٌ ونارٌ، لكنَّها جَنَّةٌ فيما يَرى الناسُ، ونارٌ فيما يَرى الناسُ، وإلَّا فحَقيقةُ جَنَّتِه أنَّها نارٌ، وحَقيقةُ نارِه أنَّها جَنَّةٌ، كما جاءَ في الحَديثِ عنِ النبيِّ ﷺ، فيَغتَرُّ الناسُ به ويُفتَتَنُ به مَن شاءَ اللهُ أنْ يُفتَتَنَ، وفِتنَتُه عَظيمةٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما في الدُّنْيا فِتْنةٌ أعظَمُ من ما بينَ خَلقِ آدَمَ إلى قيامِ الساعةِ خَلقٌ أكبَرُ منَ الدَّجَّالِ»[1]، وقال ﷺ: «إنِّي أُنذِرُكُموه وما من نَبيٍّ إلَّا قد أنْذَرَه قَومَه»[2]، ولهذا خَصَّه من بينِ فِتْنةِ المَحْيا بأنَّ فِتنَتَه عَظيمةٌ، نَسألُ اللهَ أنْ يُعيذَنا وإيَّاكم منها.

وهذه الأربعُ يَذكُرُها الإنسانُ قبلَ أنْ يُسَلِّمَ، واختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، هل هذا واجبٌ أو سُنَّةٌ؟ فأكثَرُ العُلَماءِ على أنَّه سُنَّةٌ، وأنَّ الإنْسانَ لو تَرَكَه لم تَبطُلْ صَلاتُه، وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّه واجبٌ، وأنَّه لو تَرَكَ ذلك فصَلاتُه باطلةٌ وعليه أنْ يُعيدَها، وقد أمَرَ طاوُسٌ وهو أحَدُ كبارِ التابِعينَ ابنَه حينَ لم يَقرَأْ هذه التعْويذاتِ الأربعَ أمَرَه أنْ يُعيدَ صَلاتَه[3]. فيَنبَغي للإنْسانِ ألَّا يَدَعَها، وأنْ يَحرِصَ عليها لِمَا فيها منَ الخَيرِ الكَثيرِ، ولئَلَّا يُؤَدِّي بصَلاتِه إلى أنَّها تَكونُ باطلةً عندَ بعضِ أهلِ العِلمِ. واللهُ الموفِّقُ.

١٤٢٥ - وعَنْ عَائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ النبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يَقُولَ في رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[4].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، رقم (٢٩٤٦)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٧١٢٧)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، رقم (١٦٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم (٥٩٠).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٤).

١٤٢٦- وعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقولُ في رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٢٧- وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا في الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ». رَواهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرح

هذه أذْكارٌ في أحْوالٍ مُعَيَّنةٍ، فمنها ما نَقَلَه المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» وهذا بعدَ أنْ أنزَلَ اللهُ عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

وهذه السورةُ هي أجَلُّ رَسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّ اللهَ نَعاهُ إلى نَفْسِه بأنَّه إذا جاءَ نَصرُ اللهِ والفَتحُ فقد قَرُبَ أجَلُه، كما فَهِمَ ذلك ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان صَغيرَ السِّنِّ، وكان عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحْضِرُه معَ مَجالِسِ الرِّجالِ وكِبارِ القَومِ، فقال بَعضُهم: لماذا يُحضِرُ عُمَرُ ابنَ عبَّاسٍ دونَ غَيرِه؟ فأرادَ أنْ يُبيِّنَ لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضلَ ابنِ عبَّاسٍ، فقال لهم يومًا منَ الأيامِ: ما تَقولونَ في قَولِه تَعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾، ما مَغْزى هذه السورةِ؟ قالوا:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩).

مَعْناها أنَّه إذا جاءَ الفَتحُ فسَبِّحْ بحَمدِ ربِّكَ واستَغفِرْه، فقال: ما تَقولُ يا ابنَ عبَّاسٍ؟ قال: أقولُ هذا أجَلُ رَسولِ اللهِ ﷺ، أنَّ اللهَ أعْطاهُ عَلامةً وهي الفَتحُ والنصرُ إذا جاءَتْ فقد قرُبَ أجَلُه، فقال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما فَهِمْتُ منها إلَّا ما فَهِمْتَ[1].

فالحاصلُ: أنَّ في هذه الآيةِ أمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يُسبِّحَ بحَمدِ رَبِّه، ويَستَغفِرَه، وكان ﷺ يَفعَلُ ذلك، يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه، وكذلك في سُجودِه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». ومَعنى هذا أنَّكَ تُثْني على اللهِ عَزَّوَجَلَّ بكَمالِ صِفاتِه، وانْتِفاءِ صِفاتِ النقْصِ عنه، وتَسأَلُه المَغفِرةَ.

أمَّا حَديثُها الثاني: فكان النبيُّ ﷺ يَقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ». يَعني: أنتَ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، وهذه مُبالَغةٌ في التنْزيهِ، وأنَّه جَلَّوَعَلَا سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائكةِ، وهم جُندُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، عالَمٌ لا نُشاهِدُهم، وأمَّا الرُّوحُ فهو جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أفضَلُ المَلائكةِ، فيَنبَغي للإنْسانِ أنْ يُكثِرَ في رُكوعِه وسُجودِه من قولِه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، تَأسِّيًا برسولِ اللهِ ﷺ، وأنْ يَقولَ كذلك في رُكوعِه وسُجودِه: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ».

أمَّا حَديثُ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ»، هذا طَرَفٌ من حَديثٍ أوَّلُه: «أَلَا وإِنِّي نُهِيتُ أنْ أقرَأَ القُرآنَ راكِعًا، أو ساجِدًا، فأمَّا الركوعُ فعَظِّموا فيه الربَّ، وأمَّا السجودُ فاجتَهِدوا في الدُّعاءِ، فقَمِنٌ أنْ يُستَجابَ لكم»، أيْ: حَرِيٌّ أنْ يُستَجابَ لكم؛ لأنَّ أقرَبَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٢٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ما يَكونُ العَبدُ من رَبِّه وهو ساجِدٌ، والركوعُ لا يَجوزُ لأحَدٍ أنْ يَقرَأَ القُرآنَ فيه، ولا يَجوزُ أنْ يَقرَأَ القُرآنَ وهو ساجِدٌ، لكنْ له أنْ يَدْعوَ بالدُّعاءِ الذي يوافِقُ القُرآنَ مِثلَ أنْ يَقولَ مَثلًا: رَبَّنا اغفِرْ لنا ذُنوبَنا وإسْرافَنا في أمْرِنا، وثَبِّتْ أقْدامَنا، وانْصُرْنا على القَومِ الكافِرينَ، أمَّا أنْ يَقرَأَ القُرآنَ فهذا حَرامٌ، يَحرُمُ عليه أنْ يَقرَأَ وهو راكِعٌ، أو يَقرَأَ وهو ساجِدٌ، الركوعُ له التعْظيمُ يُعَظِّمُ ربَّه، سُبحانَ ربِّيَ العَظيمِ، سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ، وما أشبَهَ ذلك، في السجودِ يَقولُ: سُبحانَ رَبِّيَ الأَعْلى، سُبحانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، ويَدْعو، ويُكثِرُ منَ الدُّعاءِ، فقَمِنٌ أنْ يُستَجابَ له، أيْ: حَرِيٌّ أنْ يُستَجابَ له، وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكم لِمَا يُحِبُّه ويَرْضاه.

١٤٢٨ - وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٢٩ - وَعَنْهُ أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ في سُجودِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي كُلَّهُ: دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ». رَواهُ مُسلِمٌ[2].

الشَّرح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ دُعاءٍ وأذْكارٍ مَخْصوصةٍ ذَكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضلِ الدُّعاءِ، فمنها حَديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا سجَدَ فإنَّه يَضَعُ أشرَفَ ما به منَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٣).

الأعْضاءِ في أماكِنِ وَضعِ الأقْدامِ التي توطَأُ بالأقْدامِ، وكذلك أيضًا يَضَعُ أَعْلى ما في جَسَدِه، حِذاءَ أَدْنى ما في جَسَدِه، يَعني أنَّ وَجْهَه أَعْلى ما في جَسَدِه، وقَدَمَيْه أَدْنى ما في جَسَدِه فيَضَعُهما في مُسْتَوى واحدٍ خُضوعًا وتَذَلُّلًا، وتَواضُعًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا كان أقرَبُ ما يَكونُ من رَبِّه وهو ساجدٌ، وقد أمَرَ النبيُّ ﷺ فيما سبَقَ بالإكثارِ منَ الدُّعاءِ في حالِ السجودِ، فيَجتَمِعُ في ذَلك: الهَيئةِ والمَقالِ تَواضُعًا للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولهذا يَقولُ الإنسانُ في سُجودِه: سُبحانَ رَبِّيَ الأَعْلى، إشارةً إلى أنَّه جَلَّوَعَلَا هو العَليُّ الأَعْلى في ذاتِه، وفي صِفاتِه، وأنَّ الإنْسانَ هو السافِلُ النازِلُ بالنسبةِ لجَلالِ اللهِ تَعالى وعَظَمَتِه.

أمَّا الحَديثُ الثاني: ففيه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَقولُ في صَلاتِه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ذَنْبِي كُلَّهُ: دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». وهذا من بابِ التبسُّطِ في الدُّعاءِ والتوَسُّعِ فيه؛ لأنَّ الدُّعاءَ عِبادةٌ، فكلَّ ما كرَّرَه الإنسانُ ازْدادَ عِبادةً للهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم إنَّه في تَكْرارِه هذا يَستَحضِرُ الذُّنوبَ كلَّها السرَّ والعَلانيةَ، وكذلك ما أَخْفاهُ، وكذلك دِقُّه وجِلُّه، وهذه هي الحِكْمةُ في أنَّ النبيَّ ﷺ فَصَّلَ بعدَ الإجْمالِ، فيَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَحرِصَ على الأدْعيةِ الوارِدةِ عن رَسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنَّها أجمَعُ الدُّعاءِ، وأنفَعُ الدُّعاءِ، وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكم لِمَا فيه الخَيرُ والصلاحُ.



١٤٣٠- وعَنْ عَائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: افْتَقَدْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَتَحَسَّسْتُ، فإذا هُوَ راكِعٌ -أَوْ سَاجِدٌ- يقولُ: «سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، لَا إلهَ إلَّا أنتَ» وفي رِوايةٍ: فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ في المَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». رَواهُ مُسلِمٌ[١].

١٤٣١- وعَنْ سَعدِ بنِ أَبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أيَعجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يَكْسِبَ في كلِّ يومٍ ألْفَ حَسَنَةٍ!» فَسَألَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ ألفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِئَةَ تَسْبِيحَةٍ فَيُكْتَبُ لَهُ ألْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ ألفُ خَطِيئَةٍ». رَواهُ مُسلِمٌ[٢].

قَالَ الحُمَيْدِيُّ: كذا هُوَ في كتابِ مُسلِمٍ: «أَوْ يُحَطُّ» قَالَ البَرْقانيُّ: ورَواهُ شُعْبَةُ وأبو عَوَانَةَ، وَيَحْيَى القَطَّانُ، عن موسى الذي رَواهُ مُسلِمٌ من جِهَتِهِ فقالوا: «ويُحَطُّ» بغَيرِ أَلِفٍ[٣].

١٤٣٢- وعن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ: فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وأَمْرٌ بالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» رواهُ مُسلِمٌ[٤].

الشَّرْح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ الذكْرِ وفَضلِه، الحَديثُ الأوَّلُ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع، رقم (٤٨٦).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٨).
(٣) الجمع بين الصحيحين (١/ ١٩٩).
(٤) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٧٢٠).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٤/ ١١٠).

افتَقَدَتِ النبيَّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فخرَجَتْ تَتحَسَّسُ عنه؛ لأنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أحَبُّ نِسائِه إليه، وهي تُحِبُّه أيضًا، فتَخْشى أنْ يَكونَ أصابَه شَيءٌ، فذهَبَتْ تَتحَسَّسُ، فوَجَدَتْه ﷺ في المَسجِدِ وهو ساجدٌ يَدْعو اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بهذا الدُّعاءِ، قالت: ووقَعَتْ يَدي على بُطونِ قَدَمَيْه وهو ساجدٌ، واستَدَلَّ العُلَماءُ بذلك على أنَّ الساجِدَ يَنبَغي له أنْ يَضُمَّ قَدَمَيْه بعضَهما إلى بعضٍ، ولا يُفَرِّقَهما؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أنْ تَقَعَ اليَدُ الواحِدةُ على قَدَمَيْنِ مُتفَرِّقَتيْنِ، وكذلك هو أيضًا في صَحيحِ ابنِ خُزَيْمةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَضُمُّ رِجْلَيْه في السجودِ[1]، أمَّا الرُّكْبَتانِ فهما على طَبيعَتِهما، لا يُفَرِّقُهما، ولا يَضُمُّهما، بل على طَبيعَتِهما.

وكان من دُعائِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ**»، والمَعنى: أنَّه ﷺ يَستَعيذُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ بالأعْمالِ الصالِحةِ عنِ الأعْمالِ السيِّئةِ؛ لأنَّ الأعْمالَ السيِّئةَ توجِبُ الغضَبَ والسَّخَطَ، والأعْمالَ الصالِحةَ توجِبُ الرِّضا، والشيءُ إنَّما يُداوى بضِدِّه، فالسَّخَطُ ضِدُّه الرِّضا، فيَستَعيذُ بالرِّضا منَ السَّخَطِ.

وقوله: «**وَبِمُعافاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**» يَعني أستَعيذُ بمُعافاتِكَ منَ الذُّنوبِ وآثارِها وعُقوباتِها من عُقوبَتِكَ على الذُّنوبِ، وهذا يَتضَمَّنُ سُؤالَ المَغفِرةِ، «**وأعُوذُ بِكَ مِنْكَ**»، وهذا أشمَلُ وأعَمُّ، أنَّه يَتعَوَّذُ باللهِ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلك لأنَّه لا مَنْجى ولا مَلجأَ منَ اللهِ إلَّا إليه، لا أحَدَ يُنْجيكَ من عَذابِ اللهِ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فتَستَعيذُ باللهِ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيْ: تَستَعيذُ به من عُقوبَتِه وغَيرِ ذلك ممَّا يُقَدِّرُه، فدلَّ ذلك على ما ذَكَرْنا منَ انْضِمامِ القَدَمَيْنِ في السجودِ، ودلَّ هذا على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصَلِّي أحْيانًا النافِلةَ في المَسجِدِ معَ أنَّ الأفْضلَ أنْ تَكونَ في البيتِ، كما قال رسولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن خزيمة رقم (٦٥٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«أفضَلُ صَلاةِ المَرءِ في بَيتِه إلَّا المَكْتوبةَ»[1] لكنَّه ﷺ أحْيانًا يُصَلِّي النافِلةَ في المَسجِدِ.

وفيه أيضًا: دَليلٌ على مَحبَّةِ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسولِ اللهِ ﷺ ولا غَرابةَ، فإنَّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت هي أحَبَّ نِسائِهِ اللاتي عندَه، ولا يُساميها امْرأةٌ، اللَّهُمَّ إلَّا خَديجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإنَّ خَديجةَ هي أوَّلُ نِسائِهِ ﷺ، ولم يَتزَوَّجْ عليها أحدًا حتى ماتَتْ، وكان يَذكُرُها دائمًا، أيْ يَذكُرُ خَديجةَ، ولكنَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هي أحَبُّ نِسائِه المَوْجوداتِ في عَهدِ عائشةَ.

ومن فَوائِدِ هذا الحَديثِ: أنَّ الإنْسانَ يَستَعيذُ بصفاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ من ضِدِّها بالرِّضا منَ السَّخَطِ، وبالمُعافاةِ منَ العُقوبةِ، وأنَّه لا مَلْجأَ له منَ اللهِ إلَّا إليه، فيَستَعيذُ باللهِ منه تَبَارَكَ وَتَعَالَى. واللهُ الموفِّقُ.

تَنْبيهٌ: لا يَجوزُ للإنْسانِ وهو ساجدٌ أنْ يَرفَعَ يَدَيْه، أو إحْدى يَدَيْه، أو رِجْلَيْه أو إحْدى رِجْلَيْه؛ لأنَّ الواجِبَ السجودُ على الأعْضاءِ السبْعةِ: الجَبْهةِ معَ الأنفِ، والكَفَّيْنِ، والرُّكْبَتَيْنِ، وأطْرافِ القَدَمَيْنِ، فإنْ رَفَعَهما حتى قامَ منَ السجودِ فصَلاتُه باطلةٌ، أمَّا إنْ رفَعَ، ثم نزَلَ بسُرعةٍ فأرْجو ألَّا يَكونَ عليه إعادةٌ للصلاةِ.

١٤٣٣ - وعَنْ أُمِّ المُؤْمِنينَ جُوَيْرِيَةَ بنتِ الحارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ في مَسْجِدِها، ثُمَّ رَجَعَ بَعدَ أنْ أضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فقالَ: «مَا زِلْتِ عَلَى الحالِ الَّتي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قالت: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب صلاة الليل، رقم (٧٣١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها، رقم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ اليَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

وفي رِوايةٍ لَهُ: «سُبْحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

وفي رِوايةِ التِّرْمِذيِّ: «أَلَا أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهَا؟ سُبحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبحَانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[2].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ منَ الأحاديثِ التي فيها بَيانُ فَضيلةِ نَوعٍ من أنْواعِ الذكْرِ، وهو ما رَوَتْه أُمُّ المُؤمِنينَ جُوَيْريةُ بنتُ الحارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه خرَجَ من عندِها الفَجرَ، ثم رجَعَ إليها ضُحًى، وهي تُسَبِّحُ وتُهَلِّلُ فبيَّنَ لها ﷺ أنَّه قال بعدَها كَلِماتٍ تَزِنُ ما قالت منذُ الفَجرِ، أو منذُ الصبحِ: «سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ رِضَا نَفْسِهِ» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ زِنَةَ عَرْشِهِ» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ» ثلاثَ مرَّاتٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (٢٧٢٦).
(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٥).

أمَّا «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ»: فمَعْناه أنَّكَ تُسَبِّحُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وتَحمَدُه عدَدَ مَخْلوقاتِه، ومَخْلوقاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُحْصيها إلَّا اللهُ كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

وأمَّا «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه زِنَةَ عَرْشِه» وزِنةُ عَرْشِه لا يَعلَمُ ثِقَلَها إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ العَرشَ أكبَرُ المَخْلوقاتِ التي نَعْلَمُها، فإنَّ النبيَّ ﷺ يُرْوى عنه أنَّه قال: «إنَّ السمَواتِ السبْعَ والأرَضينَ السبْعَ في الكُرْسيِّ كحَلْقةٍ أُلْقيَتْ في فَلاةٍ منَ الأرضِ، وإنَّ فَضلَ العَرْشِ على الكُرْسيِّ كفَضلِ الفَلاةِ على هذه الحَلْقةِ»[1] إذنْ فهو مَخلوقٌ عَظيمٌ لا يَعلَمُ قَدرَهُ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وأمَّا «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه رِضا نَفسِه» فيَعني: أنَّكَ تُسبِّحُ اللهَ وتَحمَدُه حَمدًا يَرْضى به اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وأيُّ حَمدٍ يَرْضى به اللهُ إلَّا وهو أفضَلُ الحَمدِ وأكمَلُه.

وأمَّا «فسُبحانَ اللهِ وبحَمدِه مِدادَ كَلماتِه»، والمِدادُ ما يُكتَبُ به الشيءُ وكَلماتُ اللهِ تَعالى لا يُقارَنُ بها شيءٌ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧]، وقال تَعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:١٠٩]، فكَلماتُ اللهِ تَعالى لا نِهايةَ لها.

فالمُهِمُّ أنَّه يَنبَغي لنا أنْ نُحافِظَ على هذا الذكْرِ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه عَدَدَ خَلقِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه رِضا نَفْسِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه زِنةَ عَرْشِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه مِدادَ كَلماتِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، فيَكونُ الجَميعُ اثْنَتَيْ عَشْرةَ مرَّةً.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٣٤- وعَنْ أَبي مُوسَى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ، قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ». رَواهُ البُخاريُّ[١].

ورَواه مُسلِمٌ فَقَالَ: «مَثَلُ البَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالبَيْتِ الَّذِي لا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ»[٢].

١٤٣٥- وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «يَقولُ اللهُ تَعَالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

١٤٣٦- وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبَقَ المُفَرِّدُونَ» قالوا: وَمَا المُفَرِّدُونَ يَا رسولَ اللهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثيرًا والذَّاكِرَاتُ». رَواهُ مُسلِمٌ[٤].

رُوِيَ: «المُفَرِّدُونَ» بتَشديدِ الرَّاءِ وتَخْفيفِها، والمَشْهورُ الذي قَالَهُ الجُمْهورُ: التَّشْديدُ.

الشَّرْح

أمَّا الحَديثُ الأوَّلُ، فقد قال فيه رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ اللهَ، وَالَّذِي لا يَذْكُرُ اللهَ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ» وذلك لأنَّ الذي يَذكُرُ اللهَ تَعالى قد أَحْيا اللهُ قَلبَه بذِكْرِه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٦٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها، رقم (٧٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٦).

وشَرَحَ له صَدرَه، فكان كالحَيِّ، وأمَّا الذي لا يَذكُرُ اللهَ فإنَّه لا يَطمَئِنُّ قَلبُه -والعياذُ باللهِ- ولا يَنشَرِحُ صَدرُه للإسْلامِ، فهو كمَثَلِ المَيِّتِ، وهذا مَثَلٌ يَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَعتَبِرَ به، وأنْ يَعلَمَ أنَّه كلَّما غفَلَ عن ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يَقْسو قَلبُه، ورُبَّما يَموتُ قَلبُه -والعياذُ باللهِ-.

وأمَّا الحَديثانِ الأخيرانِ: ففيهما أيضًا دَليلٌ على فَضيلةِ الذكْرِ، وهو أنَّ الإنْسانَ إذا ذكَرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ في نَفْسِه ذَكَرَه اللهُ في نَفسِه، وإنْ ذَكَرَه في مَلَإٍ ذَكَرَه اللهُ في مَلَإٍ خَير منهم، يَعنـي: إذا ذَكَرْتَ ربَّكَ في نَفْسِكَ إمَّا أنْ تَنطِقَ بلِسانِكَ سِرًّا، ولا يَسمَعُكَ أحَدٌ، أو تَذكُرَ اللهَ في قَلبِكَ، فإنَّ اللهَ تَعالى يَذكُرُكَ في نَفْسِه، وإذا ذَكَرْتَه في مَلَإٍ أيْ: عندَ جَماعةٍ، فإنَّ اللهَ تَعالى يَذكُرُكَ في مَلَإٍ خَيرٍ منهم، أيْ في مَلَإٍ منَ المَلائكةِ يَذكُرُكَ عندَهم، ويُعْلي ذِكرَكَ، ويُثْني عليكَ جَلَّوَعَلَا.

ففي هذا: دَليلٌ على فَضيلةِ الذكْرِ، وأنَّ الإنْسانَ إذا ذَكَرَ اللهَ عندَ مَلَإٍ كان هذا أفضَلُ ممَّا إذا ذَكَرَه في نَفْسِه، إلَّا أنْ يَخافَ على نَفْسِه منَ الرياءِ، فإنْ خافَ الرياءَ فلا يَجهَرُ، ولكنْ لا يَكونُ في قَلبِه وَساوَسُ بأنْ يَقولَ: إذا ذكَرْتُ اللهَ جَهرًا فهذا رياءٌ، فلا أذكُرُ اللهَ، فلْيَدَعْ هذه الوَساوِسَ، ويَذكُرِ اللهَ تَعالى عندَ الناسِ وفي نَفْسِه حتى يَذكُرَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ كما ذكَرَ ربَّه.

وأمَّا حَديثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثالثُ: فهو أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**» قالوا: وما المُفَرِّدونَ؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثيرًا والذَّاكِراتُ**» فهذا دَليلٌ على أنَّ الذاكرينَ اللهَ كَثيرًا لهمُ السبْقُ على غَيرِهم؛ لأنَّهم عَمِلوا أكثَرَ من غَيرِهم، فكانوا أسبَقَ إلى الخَيرِ. واللهُ الموفِّقُ.

١٤٣٧- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لا إلهَ إِلَّا اللهُ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[١]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٤٣٨- وعَنْ عبدِ اللهِ بنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجلًا قَالَ: يَا رسولَ الله، إنَّ شَرَائِعَ الإسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قَالَ: «لا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٢]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٤٣٩- وعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَن قَالَ: سُبْحانَ اللهِ وبحَمدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ في الجَنَّةِ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٣]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٤٤٠- وعَنِ ابنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقِيتُ إبْرَاهِيمَ لَيلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الماءِ، وأَنَّهَا قِيعَانٌ وأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، وَلَا إلهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[٤]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

١٤٤١- وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمالِكُمْ، وأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وأَرْفَعِهَا في دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيرٍ لَكُمْ مِنْ إنْفَاقِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟»

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم (٣٣٨٣)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل، رقم (٣٤٦٤).

(٤) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل، رقم (٣٤٦٢).

قَالَوا: بَلَى، قَالَ: «ذِكرُ اللهِ تَعَالَى». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[1]، قَالَ الحاكِمُ أَبُو عبدِ اللهِ: «إسْنادُه صَحيحٌ».

الشَّرح

هذه الأحاديثُ التي ساقَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كلُّها في مَجْموعِها تَدُلُّ على فَضيلةِ الذكْرِ كما سبَقَ، ولكنْ في بَعضِها ما فيه مِنْ ضَعفٍ: فمنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال له رَجلٌ: إنَّ شَرائعَ الإسْلامِ قد كثُرَتْ عليَّ فقال له النبيُّ ﷺ: «لَا يَزالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» هذا الحَديثُ فيه ضَعفٌ، لكنْ إنْ صحَّ فالمَعنى: أنَّ هذا الرَّجلَ كثُرَتْ عليه النوافِلُ، أمَّا الفَرائضُ فلا يُغْني عنها قولُ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ولا غَيرُه، الفَرائضُ لا بُدَّ منها، أمَّا النوافِلُ إذا شقَّ على الإنسانِ بَعضُها فالذكْرُ قد يَسُدُّ ما يَحصُلُ به الخَلَلُ، ومنها أيضًا أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «أفضَلُ الذكْرِ لا إلهَ إلَّا اللهُ»، ولا شكَّ أنَّ هذه الكَلمةَ كَلمةٌ عَظيمةٌ، فهي التي يَدخُلُ بها الإنسانُ في دِينِ الإسْلامِ، فهي مِفْتاحُ الإسْلامِ كما جاءَ في الحَديثِ أنَّ «مِفْتاحَ الجَنَّةِ هو لا إلهَ إلَّا اللهُ»[2].

ومنها: أيضًا فَضيلةُ «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ» وأنَّ هذه غِراسُ الجَنَّةِ، يَعني أنَّ الإنْسانَ إذا قالَها يُغرَسُ له في الجَنَّةِ غَرسٌ في كلِّ كَلمةٍ.

ومنها: أنَّ ذِكرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ من أفضَلِ الأعْمالِ، وأوْفاها وأحَبِّها إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، بل هو من أسبابِ الثباتِ عندَ اللقاءِ كما قال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٠٤، رقم ٢٦٦٠)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه الأحاديثُ كلُّها تَدُلُّ على فَضيلةِ الذكْرِ، وأنَّه يَنبَغي للإنْسانِ أنْ يُكثِرَ من ذِكرِ اللهِ، وقد تقدَّم قولُ النبيِّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ». واللهُ الموفِّقُ[1].

١٤٤٢- وعَنْ سَعدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّه دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَلَى امْرأةٍ وَبَيْنَ يَدَيْها نَوًى -أَوْ حَصًى- تُسَبِّحُ بِهِ فَقَالَ: «أُخْبِرُكِ بما هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكِ مِنْ هَذَا -أَوْ أَفْضَلُ-» فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ، وسُبحَانَ اللهِ عَدَدَ مَا هو خَالِقٌ، واللهُ أَكْبَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، والحَمْدُ للهِ مِثْلَ ذَلِكَ؛ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ مِثْلَ ذَلِكَ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٤٤٣- وعَنْ أَبي مُوسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟» فقُلتُ: بَلى يَا رسولَ الله، قَالَ: «لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[3].

الشَّرْح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ فَضلِ الذكْرِ، وقد سبَقَتْ أحاديثُ كَثيرةٌ كلُّها تَدُلُّ على فَضلِ الذكْرِ، فحَديثُ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دُخولِ النبيِّ ﷺ على المَرأةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب التسبيح بالحصى، رقم (١٥٠٠)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ وتعوذه، رقم (٣٥٦٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٤٢٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤).

وبينَ يَدَيْها حَصًى، أو نَوًى تُسَبِّحُ به، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكِ بما هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟!» فذكَرَ لها تَسْبيحًا سبَقَ نَظيرُه، أو قَريبٌ منه، قولُه ﷺ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه عَدَدَ خَلقِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه زِنةَ عَرشِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه رِضا نَفْسِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه مِدادَ كَلماتِه» ثلاثَ مرَّاتٍ، هذه اثْنَتا عَشْرةَ مرَّةً فيها خَيرٌ كَثيرٌ، وسبَقَ بَيانُ ذلك.

أمَّا حَديثُ أبي موسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟» والاستِفْهامُ هُنا للتشْويقِ، يَعني: يُشَوِّقُه الرسولُ ﷺ إلى أنْ يَستَمِعَ إلى ما يقولُ، قُلتُ: بَلى يا رسولَ اللهِ، قال: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»؛ لأنَّ هذه الكَلمةَ فيها التبَرُّؤُ منَ الحَولِ والقُوَّةِ إلَّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالإنسانُ ليس له حَولٌ، وليس له قُوَّةٌ، فلا يَتحوَّلُ من حالٍ إلى حالٍ، ولا يَقْوى على ذلك إلَّا باللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهي كَلمةُ استِعانةٍ، إذا أعْياكَ الشيءُ، وعَجَزْتَ عنه قُلْ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، فإنَّ اللهَ تَعالى يُعينُكَ عليه، وليست هذه الكَلمةُ كَلمةَ استِرْجاعٍ كما يَفعَلُه كَثيرٌ منَ الناسِ إذا قيلَ له: حصَلَتِ المُصيبةُ الفُلانيَّةُ، قال: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ولكنْ كلمةُ الاسترْجاعِ أنْ تَقولَ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعونَ، أمَّا هذه فهي كَلمةُ اسْتِعانةٍ، وإذا أرَدْتَ أنَّ اللهَ يُعينُكَ على شيءٍ فقُلْ: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ.

وكما ذكَرَ اللهُ تَعالى في سورةِ الكَهفِ قِصةَ صاحِبِ الجَنَّتَيْنِ قال له صاحِبُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]. لكان هذا خَيرًا لكَ وأبْقى لجَنَّتِكَ، ولكنَّه دَخَلَها وقال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٥-٣٦]، فأُعجِبَ بها، وأنكَرَ قيامَ الساعةِ، فأرسَلَ اللهُ عليها حُسْبانًا منَ السماءِ فأصبَحَتْ صَعيدًا زَلَقًا.

فالمُهِمُّ: أنَّ كَلمةَ «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ» كَنزٌ من كُنوزِ الجَنَّةِ، تَقولُها أيُّها الإنسانُ عندَما يُعْييكَ الشيءُ، ويُثقِلُكَ، وتَعجِزُ عنه، قُلْ: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ» يُيَسِّرِ اللهُ لكَ الأمرَ؛ واللهُ الموفِّقُ.



٢٤٥- بابُ ذِكْرِ اللهِ تَعالى قائمًا، وقاعِدًا، ومُضْطَجِعًا، ومُحْدِثًا، وجُنُبًا، وحائِضًا إلَّا القُرآنَ فلا يَحِلُّ لجُنُبٍ، ولا حائضٍ

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

١٤٤٤- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَذكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ. رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٤٥- وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنِ النبيِّ ﷺ، قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذلك، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرح

قال الحافِظُ النَّوَويُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ ذِكرِ اللهِ تَعالى قائمًا، أو قاعِدًا، ومُضطَجِعًا...»: يَعني أنَّ الإنْسانَ يَنبَغي له أنْ يَذكُرَ اللهَ تَعالى في كلِّ حالٍ قائمًا، وقاعِدًا، وعلى جَنبِه.

ثم استَشهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ بقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤).

[آل عمران:١٩٠-١٩١]، قوله تَعالى: ﴿فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يَعني في ذاتِ السمَواتِ، وذاتِ الأرضِ بما فيهما من عَجائبِ مَخْلوقاتِ اللهِ تَعالى، ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أُولي العُقولِ الذين يُدْركونَ ما بآياتِ اللهِ منَ الحِكَمِ والأسْرارِ، فالسماءُ واسِعةٌ عاليةٌ، والأرضُ مُسَطَّحةٌ مُذَلَّلةٌ للخَلقِ، فيها من آياتِ اللهِ تَعالى منَ البِحارِ، والأنْهارِ، والأشْجارِ، والجِبالِ، وغَيرِ ذلك، ما يُستَدَلُّ به على خالِقِها جَلَّوَعَلَا.

وأمَّا ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فاخْتِلافُ الليلِ والنهارِ في الطولِ والقِصَرِ، والحَرِّ والبَردِ، والرَّخاءِ والشِّدَّةِ، والأمْنِ والخَوفِ، والبُؤسِ والعافيةِ، وغَيرِ ذلك، فيها أيضًا آياتٌ عَظيمةٌ، والإنسانُ إذا طالَعَ تاريخَ البُروجِ ورَأى تَقَلُّباتِ الليلِ والنهارِ واخْتِلافَها، رَأى من آياتِ اللهِ العَجيبةِ ما يَزْدادُ به إيمانُه، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩١]. هذا هو الشاهِدُ يَذْكُرونَ اللهَ في كلِّ حالٍ قيامًا وقُعودًا، وعلى جُنوبِهم، في كلِّ حالٍ.

ثم ذكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حَديثَ عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النبيُّ ﷺ يَذكُرُ اللهَ على كلِّ الأحْيانِ، أيْ على كلِّ الأزْمانِ، في كلِّ زَمَنٍ يَذكُرُ اللهَ قائمًا وقاعِدًا، ومُضطَجِعًا، حتى أنَّ النبيَّ ﷺ ندَبَ للمُسلِمِ أنْ يَذكُرَ اللهَ عندَ جِماعِ أهْلِه، فقال: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِذَا قُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ**».

ففي هذا: دَليلٌ على أنَّه يَنبَغي لكَ أنْ تُكثِرَ من ذِكرِ اللهِ في كلِّ حالٍ، إلَّا أنَّ العُلَماءَ قالوا: لا يَنبَغي أنْ يَذكُرَ اللهَ تَعالى في الأماكِنِ القَذِرةِ، مثلِ أماكِنِ قَضاءِ الحاجةِ (المَراحيضِ) ونَحوِها تَكْريمًا لذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن هذه المَواضِعِ، هكذا ذَكَرَ بَعضُ أهْلِ العِلمِ. واللهُ أعلَمُ.

٢٤٦- بابُ مَا يَقولُه عِنْدَ نَوْمِه واسْتيقاظِه

١٤٤٦- عن حُذَيْفةَ، وأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ، قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأموتُ» وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بعْدَمَا أَماتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ». رَواهُ البُخاريُّ[1].

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ ما يَقولُه عندَ نَوْمِه واسْتيقاظِه».

من نِعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا أنَّ اللهَ شرَعَ لنا أذْكارًا عندَ النومِ والاسْتيقاظِ، والأكْلِ والشُّربِ، ابْتِداءً وانْتِهاءً، بل حتى عندَ دُخولِ الخَلاءِ وعندَ اللِّباسِ، كلُّ هذا من أجْلِ أنْ تكونَ أوْقاتُنا مَعْمورةً بذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولولا أنَّ اللهَ شرَعَ لنا ذلك لَكان بِدْعةً، ولكنَّ اللهَ شرَعَ لنا هذا من أجْلِ أنْ تَزْدادَ نِعمَتُه علينا بفِعلِ هذه الطاعاتِ.

فمنها هذا الحَديثُ الذي ذَكَرَه المُؤلِّفُ عن حُذَيْفةَ، وأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أَوى إلى فِراشِه قال: «باسْمِكَ اللَّهُمَّ أموتُ وأحْيا» (إذا أَوى) يَعني: إذا ذهَبَ إلى فِراشِه وأرادَ أنْ يَنامَ قال: «باسْمِكَ اللَّهُمَّ أموتُ وأحْيا»؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المُحْيي المُميتُ، فهو المُحْيي يُحْيي مَن شاءَ، وهو المُميتُ يُميتُ مَن يَشاءُ، فتَقولُ: باسْمِكَ اللَّهُمَّ أموتُ وأحْيا، أيْ: أموتُ على اسْمِكَ وأحْيا على اسْمِكَ، مُناسَبةُ هذا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٣٩٤)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٧٣٩٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الذكْرِ عندَ النوْمِ هو أنَّ النوْمَ موتٌ، لكنَّه موتٌ أصغَرُ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال تَعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]، ولهذا كان رَسولُ اللهِ ﷺ، إذا قامَ منَ الليلِ قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بعْدَ مَا أماتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ» فتَحمَدُ اللهَ الذي أحْياكَ بعدَ المَوتِ، وتَذكُرُ أنَّ النُّشورَ -يَعني الإخْراجَ منَ القُبورِ- يَكونُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فتَتذَكَّرُ ببَعثِكَ من مَوتَتِكَ الصُّغْرى بَعثَكَ من مَوتَتِكَ الكُبْرى، وتَقولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بعْدَ مَا أماتَنا وإِلَيْهِ النُّشُورُ»، وفي هذا دَليلٌ على الحِكْمةِ العَظيمةِ في هذا النوْمِ الذي جَعَلَه اللهُ راحةً للبَدَنِ عمَّا سبَقَ، وتَنْشيطًا فيما يُستَقبَلُ، وأنَّه يُذَكِّرُ أيضًا بالحَياةِ الأُخْرى، تَذكُرُ بذلك إذا قُمْتَ من قَبرِكَ بعدَ مَوتِكَ حيًّا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يَزيدُكَ إيمانًا بالبَعْثِ، والإيمانُ بالبَعثِ أمرٌ مُهِمٌّ، لولا أنَّ الإنْسانَ يُؤمِنُ بأنَّه سوف يُبعَثُ ويُجازى على عَمَلِه ما عَمِلَ، ولهذا نَجِدُ كَثيرًا أنَّ اللهَ يَقرِنُ الإيمانَ باليومِ الآخِرِ بالإيمانِ به عَزَّوَجَلَّ كما قال تَعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:١٦٢]. وآياتٌ كَثيرةٌ في هذا.

فالحاصِلُ: أنَّه يَنبَغي لكَ إذا أوَيْتَ إلى فِراشِكَ أنْ تَقولَ: «باسمِكَ اللَّهُمَّ أموتُ وأحْيا» وإذا استَيقَظْتَ تَقولُ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بعْدَمَا أماتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ». واللهُ الموفِّقُ.

٢٤٧ - بابُ فَضلِ حِلَقِ الذِّكْرِ والنَّدْبِ إِلَى مُلازَمَتِها والنَّهيِ عن مُفارَقَتِها لغَيرِ عُذرٍ

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف:٢٨].

١٤٤٧ - وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ** ﷺ: «إنَّ للهِ تَعَالَى مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِم إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: مَا يَقولُ عِبَادي؟ قَالَ: يَقولونَ: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، ويُمَجِّدُونَكَ، فيَقولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ فيَقولونَ: لا واللهِ مَا رَأَوْكَ، فيَقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْني؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وأكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا، فَيَقُولُ: فماذا يَسْأَلونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقولُ: وَهل رَأَوْها؟ قَالَ: يَقولونَ: لا واللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ: يَقولُ: فَكيفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقولونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وأعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً، قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقولونَ: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فيَقولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقولونَ: لا واللهِ مَا رَأَوْهَا، فيَقولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقولونَ: لَوْ رَأَوْهَا كانوا أَشَدَّ مِنْهَا فِـرَارًا، وأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فيَقـولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم، قَالَ: يَقولُ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ: فِيهم فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ،

قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

وفي رِوايةٍ لمُسلِمٍ عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَؤُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فإذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ -وَهُوَ أَعْلَمُ-: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لَكَ فِي الأَرْضِ: يُسَبِّحُونَكَ، ويُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ، قَالَ: وَمَاذا يَسْأَلُونِي؟ قالوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قالوا: لا، أَيْ رَبِّ، قَالَ: فكيْفَ لَوْ رَأَوْا جَنَّتِي؟! قالوا: ويَستَجيرونَكَ، قَالَ: ومِمَّ يَسْتَجِيرُونِي؟ قالوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ، قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قالوا: لا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟! قالوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ؟ فيَقولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فيَقولونَ: ربِّ فيهم فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ، فيَقُولُ: ولهُ غَفَرْتُ، هُمُ القَومُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[٢].

الشَّرح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ فَضلِ حِلَقِ الذِّكْرِ» يَعني الاجْتِماعَ على ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم ذكَرَ الآيةَ الكَريمةَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨]، فأمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّه ﷺ أنْ يَصبِرَ نَفْسَه معَ هؤلاء القَومِ الفُضَلاءِ الشُّرَفاءِ الكُرَماءِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ رقم (٦٤٠٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩).

وصَبرُ النفْسِ يَعني حَبْسَها: احْبِسْ نَفْسَكَ معَهم، فإنَّ هؤلاء القومَ خَيرُ مَن تَجلِسُ إليهم.

قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ أيْ: في أوَّلِ النهارِ، وبالعَشيِّ في آخِرِ النهارِ، ومن ذلك إنْ شاءَ اللهُ الاجْتِماعُ على صَلاةِ الفَجرِ، وعلى صَلاةِ العَصرِ؛ لأنَّ الأُولى في الصباحِ، والثانيةَ في المَساءِ غَداةً وعَشيًّا.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أيْ: يُريدونَ وَجهَه، هذا دَليلٌ على إخْلاصِهم للهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّهم لا يُريدونَ من هذا الاجْتِماعِ والدُّعاءِ أنْ يُمْدَحوا بذلك، أو يُقالَ: ما أعظَمَ عِبادَتَهم، ما أكثَرَها، ما أصبَرَهم عليها! لا يُريدونَ هذا كلَّه، يُريدونَ وَجْهَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ يَعني: لا تَتَجاوَزْ عنهم، وتُفارِقْهم، وتَغُضَّ الطرْفَ عنهم من أجْلِ الدُّنْيا، أمَّا من أجْلِ مَصلَحةٍ أُخْرى أعظَمَ ممَّا هُم عليه فلا بَأسَ، لكنْ من أجْلِ الدُّنْيا فلا، هؤلاء هُمُ القومُ، وهُم أهلُ الدُّنْيا والآخِرةِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ يَعني: لا تُطِعِ الغافِلَ الذي غفَلَ قَلبُه عن ذِكرِ اللهِ، وكان أمرُه فُرُطًا، واتَّبَعَ هَواهُ، وضاعَتْ عليه دُنْياه، وضاعَتْ عليه أُخْراه.

ففي هذه الآيةِ الكَريمةِ فَضلُ الاجْتِماعِ على الذكْرِ والدُّعاءِ، وفيها فَضلُ الإخْلاصِ، وأنَّ الإخْلاصَ هو الذي عليه مَدارُ كلِّ شَيءٍ، وفيها أيضًا أنَّ الإنْسانَ لا يَنبَغي له أنْ يَدَعَ أحْوالَ الآخِرةِ والعِباداتِ إلى أحْوالِ الدُّنْيا.

أمَّا الأحاديثُ: فذَكَرَ المُؤلِّفُ حَديثَ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صَحيحِ البُخاريِّ، وصَحيحِ مُسلِمٍ: إنَّ اللهَ تَعالى وكَّلَ مَلائكةً يَسيحونَ في الأرضِ يَطلُبونَ حِلَقَ الذكْرِ،

والمَلائكةُ عالَمٌ غَيْبيٌّ فاضلٌ، خلَقَهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ منَ النورِ، وجعَلَهم صُمُدًا لا أجْوافَ لهم، فلا يَأكُلونَ ولا يَشرَبونَ، لا يَحْتاجونَ إلى هذا، ليست لهم بُطونٌ، ولا لهم أمْعاءٌ، فهم صُمُدٌ، ولهذا لا يَأكُلونَ، ولا يَشرَبونَ، وهم عالَمٌ غَيْبيٌّ لا يَراهمُ البَشَرُ، ولكنْ قد يُري اللهُ تَعالى الناسَ إيَّاهم أحْيانًا كما جاءَ جِبْريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على هَيْئةِ «رَجلٍ شَديدِ بَياضِ الثيابِ شَديدِ سَوادِ الشَّعرِ، لا يُرى عليه أثَرُ السفَرِ، ولا يَعرِفُه أحَدٌ منَ الصحابةِ»، وجلَسَ إلى النبيِّ ﷺ وسَأَلَه[1]، فهذا قد يَحدُثُ أحْيانًا، ولكنَّ الأصْلَ أنَّ عالَمَ المَلائكةِ عالَمٌ غَيْبيٌّ، والمَلائكةُ كلُّهم خَيرٌ، ولهذا لا يَدخُلونَ الأماكِنَ التي فيها ما يُغضِبُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

فلا يَدخُلونَ بَيتًا فيه صورةٌ، ولا يَصحَبونَ رُفْقةً فيها جَرَسٌ، ولا رُفْقةً معَهم كَلبٌ، إلَّا الكَلبَ المُحَلَّلَ الذي يَجوزُ اقْتِناؤُه، هؤلاء المَلائكةُ وكَّلَهمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ يَسيحونَ في الأرضِ، فإذا وَجَدوا حِلَقَ الذكْرِ جَلَسوا معَهم، ثم حَفُّوا هؤلاء الجالِسينَ بأجْنِحَتِهم إلى السماءِ، يَعني هؤلاء المَلائكةَ منَ الأرضِ إلى السماءِ، ثم إنَّ اللهَ تَعالى يَسأَلُهم ليُظهِرَ فَضيلةَ هؤلاء القَومِ الذين جَلَسوا يَذكُرونَ اللهَ ويُسَبِّحونَه، ويَحمَدونَه، ويُهَلِّلونَه، ويُكَبِّرونَه، ويَدْعونَه، وإلَّا فاللهُ أعلَمُ عَزَّوَجَلَّ لماذا جَلَسوا، لكنْ ليُظهِرَ فَضلَهم ونُبلَهم، يَسألُ المَلائكةَ: من أين جِئْتم؟ فيَقولونَ: جِئْنا من عندِ عِبادٍ لكَ في الأرضِ، يُسَبِّحونَ، ويُهَلِّلونَ، ويُكَبِّرونَ، ويَحمَدونَ، ويَدْعونَ، فيَقولُ لهم: ماذا يُريدونَ؟ قالوا: يُريدونَ الجَنَّةَ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنا ممَّن أرادَها، وكان من أهْلِها- قال: هل رَأَوْها؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رَأَوْها؟ قالوا: لَكانوا أشَدَّ لها طَلَبًا، وأشَدَّ فيها رَغْبةً؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨)، من حديث ابن عمر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقولُ: «أعْدَدْتُ لعِبادي الصالِحينَ ما لا عَينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ»[1]، ثم يَسألُهم: ماذا يَدْعونَ بالنَّجاةِ منه؟ قالوا: يَسألونَكَ النَّجاةَ منَ النارِ، هذا مَعنى الحَديثِ، قال: هل رَأَوْها؟ قالوا: لا. ما رَأَوْها. قال: فكيف لو رَأَوْها؟ قالوا: لَكانوا أشَدَّ منها مَخافةً، فيَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أُشهِدُكم أنِّي قد غَفَرْتُ لهم جَميعًا، وإذا غفَرَ اللهُ للإنْسانِ استَحَقَّ أنْ يَدخُلَ الجَنَّةَ، وأنْ يَنْجوَ منَ النارِ، فيَقولُ مَلَكٌ منَ المَلائكةِ: إنَّ فيهم فُلانًا، ما جاءَ للذكْرِ، لكنْ جاءَ لحاجةٍ، فوجَدَ هؤلاء القومَ، فجلَسَ معَهم، فيَقولُ جَلَّوَعَلَا: وله غَفَرْتُ، همُ القَومُ لا يَشْقى بهم جَليسُهم.

ففي هذا الحَديثِ: دَليلٌ على فَضيلةِ مُجالَسةِ الصالِحينَ، وأنَّ الجَليسَ الصالِحَ رُبَّما يَعُمُّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجَليسِه رَحمَتَه، وإنْ لم يَكُنْ مِثلَه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قال: قد غفَرْتُ لهذا، معَ أنَّه ما جاءَ من أجْلِ الذكْرِ والدُّعاءِ لكنَّه جاءَ لحاجةٍ، وقال: «همُ القَومُ لا يَشْقى بهم جَليسُهم»، وعلى هذا فيُستَحَبُّ الاجْتِماعُ على الذكْرِ، وعلى قِراءةِ القُرآنِ، وعلى التسْبيحِ، والتحْميدِ، والتهْليلِ، وكلٌّ يَدْعو لنَفْسِه، ويَسألُ اللهَ لنَفْسِه، ويَذكُرُ لنَفْسِه.

ومنَ الاجْتِماعِ -كما ذكَرْتُ من قَبلُ- أنْ يَجتَمِعَ المُسلِمونَ على صَلاةِ الفَجْرِ، وصَلاةِ العَصرِ؛ لأنَّها ذِكرٌ: تَسبيحٌ، وتَكْبيرٌ، وتَهْليلٌ، وقِراءةُ قُرآنٍ، ودُعاءٌ، وقد ثبَتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ المَلائكةَ المُوكَّلينَ ببَني آدَمَ يَجتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجْرِ، وصَلاةِ العَصرِ، وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكم إلى ما يُحِبُّه ويَرْضاه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٤٨- وعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، وعن أَبي سَعيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالا: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَقْعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا حَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ؛ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٤٩- وَعَنْ أَبي واقِدٍ الحارِثِ بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ في المَسْجِدِ، والنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَهَبَ واحِدٌ؛ فَوَقَفَا عَلَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فأَمَّا أَحَدُهُما فَرَأَى فُرْجةً في الحَلْقَةِ، فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالثُ فأَدْبَرَ ذاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ: أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ، فآوَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا الآخَرُ فاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وأَمَّا الآخَرُ، فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرْح

هذانِ الحَديثانِ منَ الأحاديثِ التي ذَكَرَها المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فالأوَّلُ أخبَرَ فيه النبيُّ ﷺ أنَّه ما جلَسَ قَومٌ يَذكُرونَ اللهَ تَعالى إلَّا نزَلَتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتْهمُ الرحْمةُ، وحَفَّتْهمُ المَلائكةُ، وذَكَرَهمُ اللهُ فيمَن عندَه، وهذا يَدُلُّ على فَضلِ الاجْتِماعِ على ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يَلزَمُ من هذا أنْ يَذْكروا اللهَ بصَوتٍ واحِدٍ، بلِ الحَديثُ مُطلَقٌ، لكنْ لم يُعهَدْ عنِ السلَفِ أنَّهم يَذْكُرونَ ذِكْرًا جَماعيًّا، كما يَفعَلُه بعضُ أهلِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، رقم (٦٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة، رقم (٢١٧٦).

الطرُقِ منَ الصوفيَّةِ وغيرِها، وفيه أنَّ هؤلاء المُجتَمِعينَ تَنزِلُ عليهمُ السَّكينةُ، والسَّكينةُ هي طُمَأْنينةُ القَلبِ، وخُشوعُه، وإنابَتُه إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، «وتَغْشاهمُ الرحْمةُ» أيْ: تُحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ، فيكونونَ أقرَبَ إلى رَحْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، «وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ» أيْ: كانوا حَوْلَهم يَحُفُّونَ بهم إكْرامًا لهم ورِضًا بما فَعَلوا، «وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، أيْ في المَلَأِ الأَعْلى، وقد مَرَّ علينا أنَّ اللهَ تَعالى قال: «مَن ذَكَرَني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نَفْسي، ومَن ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرْتُه في مَلَإٍ خيرٍ منهم»[1].

وأمَّا الحَديثُ الثاني: ففيه أيضًا أنَّ النبيَّ ﷺ كان جالِسًا معَ أصحابِه في المَسجِدِ، فأقبَلَ ثَلاثةُ نَفَرٍ، يَعني ثلاثةَ رِجالٍ، أمَّا أحَدُهم فولَّى، وأعرَضَ، ولم يَأْتِ إلى الحَلْقةِ، وأمَّا الثاني فوجَدَ في الحَلْقةِ فُرْجةً فجلَسَ، وأمَّا الثالثُ فجلَسَ خَلفَ الحَلْقةِ كأنَّه اسْتَحْيا أنْ يَزحَمَ الناسَ وأنْ يُضَيِّقَ عليهم، فلمَّا فرَغَ النبيُّ ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِنَبَأِ الْقَوْمِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فآوَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ -وهو الذي جلَسَ- فآوَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَيْهِ»؛ لأنَّه كان صادقَ النيَّةِ في الجُلوسِ معَ النبيِّ ﷺ، فيَسَّرَ اللهُ له، «وَأَمَّا الثَّانِي فاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ»؛ لأنَّه ما زاحَمَ ولا تَقدَّمَ، «وأمَّا الثَّالِثُ، فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ» لم يوَفِّقْه لأنْ يَجلِسَ معَ هؤلاء القَومِ البَرَرةِ الأطْهارِ.

وفي الحَديثِ: إثْباتُ الحَياءِ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّه ليس كحَياءِ المَخْلوقينَ، بل هو حَياءُ كَمالٍ يَليقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»[2]، وقال اللهُ تَعالى:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)، من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوصَفُ بهذه الصفةِ، لكنْ ليس مثلَ المَخْلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ في القُرآنِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فكلَّما مرَّ عليكَ صِفةٌ من صِفاتِ اللهِ مُشابِهةٌ لِصِفاتِ المَخْلوقينَ في اللفْظِ فاعلَمْ أنَّهما لا يَسْتَوِيانِ في المَعْنى؛ لأنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فإذا مرَّ بكَ مَثلًا أنَّ اللهَ اسْتَوى على العَرشِ، فلا تَظُنَّ أنَّ اسْتِواءَه على العَرشِ كاسْتِوائِكَ أنتَ على ظَهرِ البَعيرِ الذي قال فيه: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتَ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:١٣]، وإذا قال اللهُ تَعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، فلا تَظُنَّ أنَّ يَدَيِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا مثلُ يَدَيْكَ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمِثلِه شَيءٌ، فجَميعُ صِفاتِه هو مُنفَرِدٌ بها جَلَّ وَعَلَا، وكما أنَّنا نوَحِّدُه في ذاتِه، ونوحِّدُه في العِبادةِ، كذلك نوحِّدُه في صِفاتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، واللهُ الموفِّقُ.



١٤٥٠- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ مُعاوِيةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ، قَالَ: آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذاكَ؟ قالوا: مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي: إِنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا للإِسْلَامِ؛ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: آللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، ولكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ

يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

الشَّرح

إنَّ هذا الحَديثَ منَ الأحاديثِ التي تَدُلُّ على فَضيلةِ الاجْتِماعِ على ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو ما رَواهُ أبو سَعيدٍ الخُدْريُّ عن مُعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه خرَجَ على حَلْقةٍ في المَسجِدِ، فسَألَهم على أيِّ شَيءٍ اجْتَمَعوا، فقالوا: نَذكُرُ اللهَ، فاستَحلَفَهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهم ما أَرادوا إلَّا ذلك، فحَلَفوا له، ثم قال لهم: إنِّي لا أستَحْلِفُكم تُهمةً لكم، ولكِنِّي رَأيتُ النبيَّ ﷺ خرَجَ على قَومٍ وذكَرَ مِثلَه، فدَلَّ ذلك على فَضيلةِ هذا الاجْتِماعِ على ذِكرِ اللهِ، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُباهي بهمُ المَلائكةَ، فيَقولُ مَثلًا: انْظُروا إلى عِبادي اجْتَمَعوا على ذِكْري، وما أشبَهَ ذلك، ممَّا فيه المُباهاةُ، ولكنْ -كما ذَكَرْنا سابِقًا- ليس هذا الاجْتِماعُ أنْ يَجتَمِعوا على الذكْرِ بصوتٍ واحدٍ، ولكنْ يَتذَكَّرونَ نِعمةَ اللهِ عليهم بما أنعَمَ عليهم من نِعْمةِ الإسْلامِ وعافيةِ البَدَنِ والأمْنِ، وما أشبَهَ ذلك، فإنَّ ذِكرَ نِعْمةِ اللهِ من ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فيكونُ في هذا دَليلٌ على فَضلِ جُلوسِ الناسِ ليَتَذاكَروا نِعمةَ اللهِ عليهم، ولهذا كان بعضُ السلَفِ إذا مَرَّ بأَخيهِ أو جاءَه أخوهُ قال: اجلِسْ بنا نُؤمِنْ ساعةً، أي اجلِسْ بنا نَتذَكَّرْ نِعْمةَ اللهِ علينا حتى يَزْدادَ إيمانُنا، فدَلَّ ذلك على فَضيلةِ هذا الاجْتِماعِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٧٠١).

٢٤٨- بابُ الذكْرِ عِنْدَ الصباحِ والمَساءِ

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] **قَالَ أهلُ اللُّغَةِ: «الآصَالُ»: جَمْعُ أَصِيلٍ، وَهُوَ مَا بَيْنَ العَصْرِ وَالمَغْرِبِ.**

وقال تَعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠]، **وقال تَعالى:** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ [غافر:٥٥]، **قَالَ أهلُ اللُّغَةِ «العَشِيُّ»: مَا بَيْنَ زَوَالِ الشَّمْسِ وغُرُوبِهَا.**

وقال تَعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **الآيَةَ** [النور:٣٦-٣٧]، **وقال تَعالى:** ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

الشَّرْح

قال المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**بابُ الذكْرِ عند الصباحِ والمَساءِ**»، يَعني فَضيلَتَه في الصباحِ والمَساءِ، يَعني أوَّلَ النهارِ وآخِرَ النهارِ، وأوَّلَ الليلِ، ويَدخُلُ الصباحُ من طُلوعِ الفَجْرِ، ويَنْتَهي بارْتِفاعِ الشمسِ ضُحًى، ويَدخُلُ المَساءُ من صَلاةِ العَصرِ، ويَنتَهي بصَلاةِ العِشاءِ أو قَريبًا منها.

فالأذْكارُ التي أُريدَتْ بالصباحِ والمَساءِ هذا وَقْتُها، والأذْكارُ التي أُريدَتْ بالليلِ تكونُ بالليلِ، مِثلُ آيةِ الكُرسيِّ مَن قَرَأَها في ليلةٍ فلا بُدَّ أنْ تكونَ في الليلِ نَفْسِه،

ثم ذكَرَ المُؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ مُتعَدِّدةً في ذلك، منها قولُه تَعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾. يَعني: فيما بينَكَ وبينَ نَفْسِكَ ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ يَعني: تَضَرُّعًا إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ وافْتِقارًا إليه، وإظْهارًا للفَقرِ بينَ يَدَيْه، ﴿وَخِيفَةً﴾ يَعني: خِيفةً منه، أو خِيفةً ألَّا تُقبَلَ، لقولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، يَعني: يُؤْتونَ ما آتَوْا ومع هذا قُلوبُهم وَجِلةٌ، يَخافونَ ألَّا يُقبَلَ منهم؛ لأنَّ اللهَ تَعالى لا يَتقَبَّلُ إلَّا منَ المُتَّقينَ، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. يَعني الإسْرارَ، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ ثم ذكَرَ أيضًا قولَه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وقولُه تَعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨]، والآياتُ في هذا كَثيرةٌ، وسوف يَأْتي إنْ شاءَ اللهُ في الأحاديثِ تَفْسيرُ ذلك.



١٤٥١- وعنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِئَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ». رَواهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٥٢- وعنهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجلٌ إِلَى النبيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح، رقم (٢٦٩٢).

مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي البَارِحَةَ! قَالَ: «أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ: لَمْ تَضُرَّكَ». رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

١٤٥٣- وعنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عنِ النبيِّ ﷺ، أَنَّه كَانَ يقولُ إِذَا أَصْبَحَ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ». وإذا أمْسَى قَالَ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ». رَوَاهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

الشَّرح

هذه الأحاديثُ الثلاثةُ ذَكَرَها الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (بابِ الذكْرِ عند الصباحِ والمَساءِ)، الأوَّلُ فَضلُ قولِ الإنْسانِ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه مِئةَ مرَّةٍ» إذا قالَها الإنْسانُ مِئةَ مرَّةٍ حينَ يُصبحُ ومِئةَ مرَّةٍ حينَ يُمْسي لم يَأْتِ أحَدٌ يومَ القيامةِ بأفضَلَ ممَّا جاءَ به إلَّا مَن عمِلَ أكثَرَ ممَّا عمِلَ، وهذا الذكْرُ «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه» مَعْناه أنَّكَ تُنَزِّهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عن كلِّ ما لا يَليقُ بجَلالِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتُثْني عليه، بل وتَصِفُه بصِفاتِ الكَمالِ، وذلك في قولِكَ: «وبحَمدِه»، فيَنبَغي للإنْسانِ إذا أصبَحَ أنْ يَقولَ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه» مِئةَ مرَّةٍ، وإذا أمْسى أنْ يَقولَ: «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه» مِئةَ مرَّةٍ، وذلك ليَحوزَ هذا الفَضلَ الذي ذَكَرَه النبيُّ ﷺ.

ومن ذلك أنَّ الإنْسانَ يَقولُ إذا أصبَحَ، وإذا أمْسى: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، فهذا لُجوءٌ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واعْتِصامٌ به من شَرِّ ما خَلَقَ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في التعوذ من سوء القضاء، رقم (٢٧٠٩).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقال إذا أصبح، رقم (٥٠٦٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٣٩١).

فإذا قُلْتَه ثَلاثَ مرَّاتٍ في الصباحِ والمَساءِ فإنَّه لا يَضُرُّكَ شيءٌ، ولهذا اشْتكى رَجلٌ إلى النبيِّ ﷺ ما وَجَدَه من لَدْغةِ عَقرَبٍ، فقال: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ: لَمْ تَضُرَّكَ».

ومنَ الأذْكارِ الصباحيَّةِ قولُ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ» في الصباحِ، وفي المَساءِ: «اللَّهُمَّ بكَ أَمْسَيْنا، وبكَ أصبَحْنا، وبكَ نَموتُ، وبكَ نَحْيا، وإليكَ المَصيرُ»[1] فيَنبَغي للإنْسانِ أنْ يُحافِظَ على هذه الأذْكارِ الوارِدةِ عنِ النبيِّ ﷺ، لِيَكونَ منَ الذاكِرينَ اللهَ كَثيرًا والذاكِراتِ، واللهُ الموفِّقُ.

أما «كَلِمَاتُ اللهِ التَّامَّاتِ»: هي كَلِماتُه الكَوْنيَّةُ، فإنَّه يَقولُ للشيءِ: كُنْ فيَكونُ، وبذلك يَحْميهِ، إذا قالَها قبلَ ما تُسَلَّطُ عليه.



١٤٥٤ - وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا بَكرٍ الصدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا رسولَ اللهِ، مُرْني بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ، وإذا أَمْسَيْتُ، قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ؛ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ» قَالَ: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وإِذَا أَمْسَيْتَ، وإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ». رَوَاهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[2]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أمسى، رقم (١٠٣٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٩)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقال إذا أصبح، رقم (٥٠٦٧)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٣٩٢).

الشَّرح

هذا منَ الأذْكارِ التي تُقالُ في الصباحِ والمَساءِ، والذي علَّمَها النبيُّ ﷺ أبا بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينَ قال: عَلِّمْني. فعَلَّمَه النبيُّ ذِكرًا ودُعاءً يَدْعو به كلَّما أصبَحَ، وكلَّما أمْسى، يَقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَواتِ والأرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ؛ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ».

«قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَواتِ والأرْضِ». يَعني: يا اللهُ، يا فاطِرَ السمَواتِ والأرضِ، وفاطِرُهما يَعني: أنَّه خَلَقَهما عَزَّوَجَلَّ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ، بل أبْدَعَهما وأوْجَدَهما منَ العَدَمِ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ، «عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ» أيْ: عالمَ ما غابَ عنِ الخَلقِ وما شاهَدوه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يَعلَمُ الحاضِرَ، والمُستَقبَلَ، والماضيَ.

«رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ» يَعني: يا ربَّ كلِّ شيءٍ ومَليكَه، واللهُ تَعالى هو ربُّ كلِّ شيءٍ، وهو مَليكُ كلِّ شَيءٍ، والفَرقُ بينَ الربِّ، وبينَ المالِكِ في هذا الحَديثِ، أنَّ الربَّ هو الموجِدُ للأشْياءِ الخالِقُ لها، والمَليكُ هو الذي يَتصَرَّفُ فيها كيف يَشاءُ، «أَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا أنْتَ» أعتَرِفُ بلِساني وقَلْبي أنَّه لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا أنتَ، فكلُّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ فإنَّه باطلٌ، لا حقَّ له في العُبودِيَّةِ، ولا حقَّ في العُبودِيَّةِ إلَّا للهِ وَحْدَه عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «أعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي»؛ لأنَّ النفْسَ لها شُرورٌ، كما قال تَعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٣]. فإذا لم يَعصِمْكَ اللهُ من شُرورِ نَفْسِكَ فإنَّها تَضُرُّكَ، وتَأمُرُكَ بالسوءِ، ولكنَّ اللهَ إذا عصَمَكَ من شَرِّها، وفَّقَكَ إلى كلِّ خَيرٍ.

قوله: «وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ»، وفي لفظٍ: «وَشَرَكِهِ» يَعني تَسأَلُ اللهَ أنْ

يُعيذَكَ من شَرِّ الشيْطانِ، ومن شَرِّ شِرْكِه، أيْ: ما يَأمُرُكَ به منَ الشرْكِ، أو «شَرَكِهِ» والشَّرَكُ ما يُصادُ به الحوتُ والطيْرُ، وما أشبَهَ ذلك؛ لأنَّ الشيْطانَ له شَرَكٌ يَصْطادُ به بَني آدَمَ، إمَّا شَهواتٌ، أو شُبُهاتٌ، أو غَيرُ ذلك.

قوله: «وأنْ أقتَرِفَ على نَفْسي سوءًا، أو أجُرَّه إلى مُسلِم» هذا تَتِمَّةُ الحَديثِ، ولعلَّه سقَطَ من هذه النسْخةِ «أنْ أقْتَرِفَ على نَفْسي سوءًا» أقْتَرِفُ يَعني: أجُرُّ على نَفْسي سوءًا، «أو أجُرَّه إلى مُسلِمٍ» فهذا الذكْرُ أمَرَ النبيُّ ﷺ أبا بَكرٍ أنْ يَقولَه إذا أصبَحَ، وإذا أمْسى، وإذا أخَذَ مَضجَعَه.

نَسألُ اللهَ لنا ولكمُ الهِدايةَ والتوْفيقَ لِمَا يُحِبُّ ويَرْضى.

١٤٥٥ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ نبيُّ اللهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وأَمْسَى المُلْكُ للهِ، والحَمْدُ للهِ، لا إلهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» قَالَ الراوي: أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: «لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ، وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ، وَسُوءِ الكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي القَبْرِ»، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أيضًا «أَصْبَحْنَا وأَصْبَحَ المُلْكُ للهِ». رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

الشَّرْح

هذا الحَديثُ منَ الأذْكارِ الوارِدةِ في الصباحِ والمَساءِ، وهو ما رَواهُ ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أمْسى يَقولُ: «أَمْسَيْنَا وأَمْسَى المُلْكُ للهِ، والحَمْدُ للهِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل، رقم (٢٧٢٣).

لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ» وقد سبَقَ أنْ أوْضَحْنا مَعانيَ هذه الكَلماتِ.

والنبيُّ ﷺ يُكثِرُ من ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، على وُجوهٍ مُتَنوِّعةٍ، ومنها: «لَا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، رَبِّ أسْألُكَ خَيْرَ مَا في هذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا في هذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ، وَالْهَرَمِ، وَسُوءِ الكِبَرِ». في لفظٍ: «وسوءِ الكِبْرِ»، «وأعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ في النَّارِ، وَعَذَابٍ في القَبْرِ» وإذا أصبَحَ يقولُ مثلَ ذلك، إلَّا أنَّه يَقولُ: «أصبَحْنا وأصبَحَ المُلكُ للهِ».

ومَن أرادَ الاسْتِزادةَ من هذه الأذْكارِ فعليه بكِتابِ (الأذْكارِ) للمُؤلِّفِ الحافِظِ النَّوَويِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أوِ (الوابِلُ الصيِّبُ منَ الكَلِمِ الطيِّبِ) لابنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو غيرِ ذلك ممَّا أَلَّفَه العُلَماءُ في هذا البابِ. واللهُ الموفِّقُ.

١٤٥٦- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ خُبَيْبٍ -بضَمِّ الخاءِ المُعْجَمةِ- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: «اقْرَأْ: قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ، والمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ تَكْفيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». رَواهُ أَبُو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

١٤٥٧- وَعَنْ عُثْمَانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ في صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ في

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٨٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، رقم (٣٥٧٥).

الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ». رَواهُ أَبو داوُدَ والتِّرْمِذيُّ[1]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ».

الشَّرْح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ أَذْكارِ الصباحِ والمَساءِ، ذَكَرَهما الحافِظُ النَّوَويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، الأَوَّلُ: حَديثُ عبدِ اللهِ بنِ خُبَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَه أَنْ يَقرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١]، في الصباحِ والمَساءِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، وبيَّنَ أَنَّ هذا يَكْفيه كلَّ شيءٍ.

أَمَّا السورةُ الأُولى: فهي سورةُ الإِخْلاصِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ التي أَخْلَصَها اللهُ تَعالى لنَفْسِهِ، فلم يَذكُرْ فيها شَيئًا إِلَّا يَتعَلَّقُ بنَفْسِه جَلَّ وَعَلَا، ليس فيها ذِكرٌ لأَحْكامِ الطهارةِ أَوِ الصلاةِ أَوِ البَيعِ أو غيرِ ذلك، بل كلُّها مُخلَصةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ثم إِنَّ الذي يَقرَؤُها يَكمُلُ إِخْلاصُه للهِ تَعالى، فهي مُخْلَصةٌ ومُخَلِّصةٌ، تُخَلِّصُ قارئَها منَ الشِّرْكِ، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أَنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ[2]، ولكنَّها لا تُجْزِئُ عنه، تَعدِلُه ولا تُجْزِئُ عنه، والشيءُ قد يَكونُ عَديلًا للشيءِ، ولكنْ لا يُجْزِئُ عنه، ألم تَرَوْا أَنَّ الإِنْسانَ إذا قال: «لا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قَديرٌ» كان كمَن أعتَقَ أَرْبعةَ أَنْفُسٍ من وَلَدِ إِسْماعيلَ، ومعَ ذلك لا تُجْزِئُ عن عِتقِ رَقَبةٍ، ففَرقٌ بينَ المُعادَلةِ في الأَجْرِ وبينَ الإِجْزاءِ في الكفَّارةِ، ولهذا لو قَرَأَ الإِنْسانُ:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٦٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، رقم (٥٠٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٣٨٨)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، رقم (٣٨٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد، رقم (٥٠١٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الصلاةِ ثلاثَ مرَّاتٍ ما أجْزَأَتْ عنِ الفاتحةِ، معَ أنَّه لو قرَأها ثلاثَ مرَّاتٍ كأنَّما قرَأَ القُرآنَ كلَّه؛ لأنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ.

وأمَّا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فهُما السورتانِ اللَّتانِ نَزَلَتا على رسولِ اللهِ ﷺ حينَ سَحَرَه الخَبيثُ لَبيدُ بنُ الأعصَمِ اليَهوديُّ، فأنزَلَ اللهُ هاتَيْنِ السورتَيْنِ، فرَقاهُ بهما جِبْريلُ، فحَلَّ اللهُ عنه السحْرَ[1]، قال النبيُّ ﷺ: «ما تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بمِثلِهما»[2] تَستَعيذُ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، فالفَلَقُ فَلَقُ الإصْباحِ، وهو فالِقُ الحَبِّ والنَّوى جَلَّوَعَلَا ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ كلِّ ما خَلَقَ، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يَعني الليلَ إذا دخَلَ؛ لأنَّ الليلَ تَكثُرُ فيه الهَوامُّ والوُحوشُ وغيرُ ذلك، فنَستَعيذُ باللهِ من شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ، ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أي: الساحِراتِ اللاتي يَعقِدْنَ عُقَدَ السحْرِ، ويَنفُثْنَ فيها بالطلاسِمِ، والتَّعْويذاتِ، والاعْتِصامِ بالشياطينِ، والاسْتِعانةِ بهم -والعياذُ باللهِ-، ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ هو العائنُ يُصيبُ بعَينِه؛ لأنَّ الساحِرَ يُؤَثِّرُ، والعائنَ يُؤَثِّرُ، فأُمِرْتَ أنْ تَستَعيذَ ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ جَلَّوَعَلَا: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، وتأمَّلْ تَناسُبَ هذه الآياتِ الثلاثةِ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الليلِ؛ لأنَّ البَلاءَ يَكونُ فيه خَفيًّا، والسحْرُ كذلك خَفيٌّ، والعَينُ كذلك خَفيَّةٌ، فنَستَعيذُ برَبِّ الفَلَقِ الذي يَفلِقُ الإصْباحَ حتى يَتبيَّنَ ويَفلِقُ النَّوى حتى يَظهَرَ ويَبرُزَ، فهذه من مُناسَبةِ المُقسَمِ به، والمُقسَمِ عليه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٦٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في المعوذتين، رقم (١٤٦٣)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أمَّا ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فهي السورةُ الأُخْرى أيضًا التي بها الاسْتِعاذةُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، فهو الربُّ المَلِكُ ذو السلْطانِ الأعظَمِ الذي لا يُمانِعُه شيءٌ، ولا مُبَدِّلَ لكَلِماتِه جَلَّ وَعَلَا، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، أيْ: مَعبودُهم الذي يُعبَدُ بحقٍّ، فلا مَعبودَ حقٌّ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، هذه وَساوِسُ الصدورِ التي يُلْقيها الشيْطانُ في قَلبِ ابنِ آدَمَ، وما أكثَرَ ما يُلْقي الشيْطانُ في هذا العَصرِ منَ الوَساوِسِ العَظيمةِ التي تُقلِقُ الإنْسانَ، وسُبحانَ اللهِ العَظيمِ، الدُّنْيا اسمٌ على مُسَمًّى، دَنيئةٌ لا تَتِمُّ من وَجهٍ إلَّا نقَصَتْ من وُجوهٍ، تَرَفُنا في هذه الأيامِ في هذا العَهدِ لا يوجَدُ نَظيرُه فيما سبَقَ، النِّعَمُ مُتَوافِرةٌ، والأمْوالُ والبَنونَ وكلُّ شيءٍ، والتَرَفُ الجَسَديُّ ظاهِرٌ، لكنْ كَثُرَتْ في الناسِ الآنَ الوَساوِسُ والأمراضُ النفْسيَّةُ، والبَلاءُ، حتى لا تَتِمَّ الدُّنيا، فيَركَنَ الإنسانُ إليها؛ لأنَّ الدُّنْيا لو تَمَّتْ من كلِّ وَجهٍ أنْسَتِ الآخِرةَ، كما قال النبيُّ ﷺ: «واللهِ ما الفَقرَ أخْشى عليكم، ولكنْ أخْشى أنْ تُفتَحَ عليكمُ الدُّنْيا فَتَنافَسوها كما تَنافَسَها مَن قبلَكم فتُهلِكَكم كما أهْلَكَتْهم»[1]، واللهُ عَزَّوَجَلَّ إذا فتَحَ الدُّنْيا من جانبٍ صارَ صَفْوُها كَدَرًا من جانبٍ آخَرَ، أو من جوانِبَ أُخْرى، والشاعرُ الجاهِليُّ يقولُ:

فيَومٌ علينا ويَومٌ لنا ... ويَومٌ نُساءُ ويَومٌ نُسَرّ[2]

فالحاصِلُ: أنَّ هذه السورةَ فيها الاسْتِعاذةُ منَ الوَسْواسِ، والوَسْواسُ يَقَعُ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم (٦٤٢٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١)، من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت للنمر بن تولب، انظر: الكتاب لسيبويه (١/ ٨٦)، وشرح الكافية الشافية لابن مالك (١/ ٣٤٦).

الإنْسانِ أحْيانًا في أُصولِ الدِّينِ، وفي ذاتِ الربِّ، وفي القُرآنِ، وفي الرسولِ ﷺ، حتى يوَسْوِسُ للإنْسانِ في أشياءَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ فَحْمةً ولا يَتكَلَّمَ بها، يوَسْوِسُ أيضًا في الطهارةِ، فبعضُ الناسِ يُصابُ بالوَسْواسِ -والعياذُ باللهِ- يَدخُلُ الحَمَّامَ للوُضوءِ الذي لا يَستَغرِقُ خَمسَ دَقائقَ فيَبْقى خَمسَ ساعاتٍ -نَسأَلُ اللهَ العافيةَ- وفي الصلاةِ تَجِدُه يُكَرِّرُ تَكْبيرةَ الإحْرامِ، يُكَرِّرُ الكافَ عِشرينَ مرَّةً «اللهُ أكْبَرُ» وربَّما يَعجِزُ، حتى إنَّ بَعضَهم يقولُ: إنِّي لا أستَطيعُ أنْ أُصَلِّيَ إطْلاقًا، فيُؤدِّي به الوَسْواسُ إلى تَركِ الصلاةِ، يَقَعُ الوَسْواسُ في مَعاملةِ الأهلِ، حتى إنَّ بَعضَهم يُخَيَّلُ إليه أنَّ أهلَه وَضَعوا له سِحْرًا في أكْلِه وشُربِه، فيَأكُلُ منَ المَطاعِمِ، وحتى إنَّ الرَّجلَ لَيتكَلَّمُ لأهْلِه فيقولُ: يا أُمَّ فُلانٍ (زَوْجَتُه)، فيقولُ له الشيْطانُ: طَلَّقْتَها، ويُنكِّدُ عليه الحالَ، حتى إنَّ بعضَهم إذا فتَحَ المُصحَفَ لِيَقرَأَ، كلَّما قلَّبَ وَرَقةً خيَّلَ له الشيْطانُ أنَّه قال لامرأتِه: أنتِ طالقٌ فتَرَكَ قِراءةَ القُرآنِ فالوَساوِسُ عَظيمةٌ، لكنَّ طَرْدَها سَهلٌ جِدًّا، بيَّنَه النبيُّ ﷺ الذي أعْطاهُ اللهُ جوامِعَ الكَلِمِ، وفَواتِحَ الكَلِمِ، وخَواتِمَ الكَلِمِ، حينَ شُكِيَ إليه هذا الأمرُ فقال ﷺ: «إذا وَجَدَ أحَدُكم ذلك فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنتَهِ»[1]، كَلِمتانِ «يَسْتَعِذْ باللهِ»: يَقولُ: أعوذُ باللهِ منَ الشيْطانِ الرجيمِ، ولكنْ يَقولُها بصِدقٍ وإخْلاصٍ، وأنَّه مُلتَجِئٌ إلى اللهِ حقًّا، لا مَفَرَّ له منَ اللهِ إلَّا إليه، «ولْيَنتَهِ»: أيْ يُعرِضْ عن هذا، فيُعرِضُ إطْلاقًا، إذا استَعْمَلَ هذا وإنْ كان سوف يَضغَطُ على نَفْسِه، وسوف يَتعذَّبُ، لكنَّ هذا في أوَّلِ الأمرِ فقطْ، ثم بعدَ ذلك يَزولُ بالكُلِّيَّةِ؛ لأنَّ الرسولَ ﷺ لا يَنطِقُ عنِ الهَوى، قال: «فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنتَهِ» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه الجُمَلُ الثلاثةُ -الآياتُ الثلاثُ- يُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّها استَوْعَبَتْ أقْسامَ التوْحيدِ، ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ تَوْحيدِ الرُّبوبيَّةِ، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، الأسماءِ والصفاتِ؛ لأنَّ المَلِكَ لا يَستَحِقُّ أنْ يَكونَ مَلِكًا إلَّا بتَمامِ أسمائِه وصِفاتِه، ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الأُلوهيَّةِ، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

قال العُلَماءُ: الخنَّاسُ هو الذي يَخنَسُ عندَ ذِكرِ اللهِ، ولهذا جاءَ في الحَديثِ: «إذا تَغَوَّلَتِ الغِيلانُ فبادِروا بالأذانِ»[1].

الغِيلانُ: هي الأوْهامُ والخَيالاتُ التي تَعرِضُ للإنْسانِ في سَفَرِه، ولاسيَّما في الأسْفارِ الأُولى على الإبِلِ، أو الإنْسانِ الذي يُسافِرُ وَحْدَه، فتَتَهَوَّلُ له الشياطينُ، تَتَلَوَّنُ بألوانٍ مثلِ: أسَدٍ، ذِئبٍ، ضَبُعٍ، شَيْطانٍ، جِنٍّ «إذا تَغَوَّلَتِ الغِيلانُ فبادِروا بالأذانِ» يَعني قولوا: «اللهُ أكبَرُ» فتَتَلاشى؛ لأنَّ الشيْطانَ يَخنِسُ عندَ ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، يَعني هذا الوَسْواسُ يَكونُ منَ الجِنَّةِ، ويَكونُ منَ الناسِ، الجِنَّةُ هي الجِنُّ، والمُرادُ بهمُ الشياطينُ تَوَسْوِسُ في الصدورِ، والناسُ أيضًا من بَني آدَمَ، وما أكثَرَ الشياطينَ في زمانِنا، وقبلَ زمانِنا، وإلى يومِ القيامةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١] الآيةَ، كذلك لأتْباعِ الأنْبياءِ أعداءٌ منَ الشياطينِ يَأْتونَ إلى الناسِ يوَسْوِسونَ هذا كذا، وهذا كذا، رُبَّما يوَسْوِسونَ على السُّذَّجِ منَ العوامِّ سَواءً في مذاهبَ باطلةٍ، ومِلَلٍ كاذبةٍ، أو غيرِ ذلك، فيَجِبُ الحَذَرُ منَ شياطينِ الإنْسِ الذين يوَسْوِسونَ لكَ في أُمورٍ يُزَيِّنونَها في نَفْسِكَ، وهي فاسدةٌ، فالمُهِمُّ أنَّ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه السوَرَ الثلاثَ يَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَقرَأَها كلَّ صباحٍ، وكلَّ مَساءٍ، لأمرِ النبيِّ ﷺ بها.

الحَدِيثُ الثَّاني: عن عُثْمانَ بنِ عفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من عبدٍ يقولُ حينَ يُمْسي وحينَ يُصبِحُ: بسمِ اللهِ الذي لا يَضُرُّ معَ اسمِه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ وهو السميعُ العليمُ، ثلاثَ مرَّاتٍ، إلَّا وقاهُ اللهُ تَعالى شرَّ ذلك اليومِ» وهذه الكَلِماتُ كَلِماتٌ يَسيرةٌ، لكنَّ فائدتَها عَظيمةٌ «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ»؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيَدِه مَلَكوتُ السمَواتِ والأرضِ، واسمُه مُبارَكٌ، إذا ذُكِرَ على الشيءِ، ولهذا يُسَنُّ ذِكرُ اللهِ تَعالى بالتسميةِ على الأكْلِ، إذا أردْتَ أنْ تَأكُلَ تَقولُ: «بسمِ اللهِ»، إذا أردْتَ أنْ تَشرَبَ تقولُ: «بسمِ اللهِ»، إذا أردْتَ أنْ تَأْتيَ أهلَكَ تَقولُ: «بسمِ اللهِ»، فالتسميةُ مَشْروعةٌ في أماكنَ كَثيرةٍ، ولكنَّها على القولِ الراجِحِ على الأكْلِ والشُّربِ واجبةٌ، يَجِبُ على الإنسانِ إذا أرادَ أنْ يأكُلَ أنْ يَقولَ: «بسمِ اللهِ»، وإذا أرادَ أنْ يَشرَبَ أنْ يَقولَ: «بسمِ اللهِ»، لأمرِ النبيِّ ﷺ بذلك، ولأنَّ النبيَّ ﷺ ذكَرَ أنَّ مَن لم يُسَمِّ اللهَ على أكْلِه شارَكَه الشيْطانُ في ذلك، فلا تَنْسَ أنْ تَقولَ في كلِّ مَساءٍ، وفي كلِّ صباحٍ «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» ثلاثَ مرَّاتٍ.

وقولُه: «وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ» فالسميعُ من أسْماءِ اللهِ، والعَليمُ من أسْماءِ اللهِ، فالسميعُ من أسْماءِ اللهِ تَعالى، وله مَعْنَيانِ:

الأوَّلُ: السمْعُ الذي هو إدْراكُ كلِّ صوتٍ، فاللهُ تَعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ، كلُّ صَوتٍ فاللهُ يَسمَعُه مَهما بعُدَ، ومَهما ضعُفَ، لَمَّا أنزَلَ اللهُ تَعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى

﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١]، وهي امْرأةٌ جاءَتْ تَشْتكي إلى الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَقولُ: إنَّ زَوْجَها ظاهَرَ منها، يَعني قال لها: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، وهذا القولُ يُعَدُّ في الجاهليَّةِ طَلاقًا بائنًا مثلَ الطلاقِ بالثلاثةِ، وهو كَذِبٌ ومُنكَرٌ، كما قال تَعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢]، فجاءَتْ تَشْتكي إلى الرسولِ ﷺ فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الحَمدُ للهِ الذي وسِعَ سَمعُه الأصواتَ، واللهِ لقد جاءَتِ المُجادِلةُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تُكَلِّمُه وإنِّي لَفي الحُجْرةِ، ويَخْفى عليَّ بعضُ حَديثِها، واللهُ تَعالى من فوقِ سَبعِ سَمَواتٍ يَسمَعُ كَلامَهما، فاللهُ تَعالى يَسمَعُ كَلامَكَ وإنْ خَفَتَ (ضعُفَ)، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فإيَّاكَ أنْ تُسمِعَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كَلامًا لا يَرْضاهُ منكَ، واحرِصْ على أنْ تُسمِعَه ما يَرْضاهُ منكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن مَعاني السميعِ: أنَّه سَميعُ الدُّعاءِ، أيْ مُجيبُ الدُّعاءِ، كما قال إبْراهيمُ ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أيْ: مُجيبُه، فهو جَلَّوَعَلَا يُجيبُ دُعاءَ المُضْطَرِّ وإنْ كان كافِرًا، ولهذا يُجيبُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ دُعاءَ المُضْطَرِّينَ في البَحرِ، إذا غَشِيَهم مَوجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ فيُنَجِّيهم، ويُجيبُ جَلَّوَعَلَا دَعوةَ المَظلومِ، قال النبيُّ ﷺ: «واتَّقِ دَعوةَ المَظلومِ؛ فإنَّه ليس بينَها وبينَ اللهِ حِجابٌ»[1]، ويُجيبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَن تَعبَّدَ له، وحَمِدَه، وأثْنى عليه، كما يَقولُ المُصَلِّي: «سمِعَ اللهُ لَمن حَمِدَه».

وأمَّا العَليمُ: فهو من أسمائِه أيضًا، وعِلمُ اللهِ تَعالى علمٌ واسعٌ مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترك في الفقراء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

يَعلَمُ ما في الأرْحامِ، ومَفاتيحُ الغيبِ خَمسٌ مَذْكورةٌ في قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ عندَه مَفاتِحُ الغَيبِ، ما تَسقُطُ من وَرقةٍ من شَجرةٍ إلَّا يَعلَمُها، إذا سقَطَتْ وَرقةٌ من شَجرةٍ في أبعدِ الفَيافي، ولو كانتِ الوَرَقةُ صَغيرةً فاللهُ يَعلَمُها، وإذا كان يَعلَمُ الساقِطَ فهو جَلَّوَعَلَا يَعلَمُ الحادِثَ الذي يَخلُقُه، فكلُّ شيءٍ اللهُ به عَليمٌ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، أنتَ الآنَ مَثلًا في بلدِكَ مُستَقِرٌّ وليستْ عندَكَ نيَّةٌ أنْ تُسافِرَ يَمينًا ولا شِمالًا، فإذا أرادَ اللهُ أنْ تَموتَ بأرضٍ جعَلَ لكَ حاجةً فيها، تَحمِلُكَ تلك الحاجةُ إلى تلك الأرضِ، وتَموتُ هُناك.

ولقد حدَّثَني الثِّقةُ عن قِصةٍ غَريبةٍ، يقولُ: إنَّهم خَرَجوا من مكَّةَ عندَما كان الناسُ يَحُجُّونَ على الإبلِ، خَرَجوا من مكَّةَ بعدَ الحجِّ، وفي أثناءِ الطريقِ مرِضَتْ أُمُّه فجعَلَ يُمَرِّضُها، فارتَحَلَ القومُ في آخِرِ الليلِ، وبقِيَ هو يُمَرِّضُ أُمَّه، ويُمَهِّدُ لها الفِراشَ على الراحِلةِ، ثم ركِبَتِ الأُمُّ، وسارَ يَقودُها، وضلَّ الطريقَ، وارتفَعَتِ الشمسُ، وارتفَعَتْ حَرارةُ الجوِّ، فإذا بخِباءٍ صَغيرٍ عندَ باديةٍ فعرَّجَ عليهم، ونزَلَ، وسلَّمَ عليهم، وقال لهم: أين طريقُ نَجدٍ؟ قالو: طريقُ نَجدٍ بعيدٌ جدًّا، ولكنِ انزِلْ، واستَرِحْ، ثم ندُلُّكَ على الطريقِ، يقولُ: فأنَخْتُ الراحِلةَ وأنزَلْتُ والِدَتي،

وحينَما نزَلَتْ على الأرضِ قبَضَ اللهُ رُوحَها، فسُبحانَ اللهِ، لقد جاءَتْ من بَلدِها إلى هذه الأماكِنِ المَجهولةِ، فماتَتْ في المَكانِ الذي قدَّرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنْ تَموتَ فيه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بكلِّ شَيءٍ، حتى ما في نَفْسِكَ، إذا كُنتَ تُفكِّرُ في شيءٍ، فاللهُ يَعلَمُ ما يَدورُ بنَفْسِكَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، فإيَّاكَ أنْ تُخفيَ في نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْديهِ، إيَّاكَ أنْ تُخفيَ في نَفْسِكَ ما لا يُرْضي اللهَ جَلَّوَعَلَا.

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا الدُّعاءَ مَشروعٌ في كلِّ صَباحٍ، وفي كلِّ مَساءٍ «بِسْمِ اللهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ». واللهُ الموفِّقُ.

٢٤٩- بابُ مَا يَقولُه عِنْدَ النوْمِ

قَالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

١٤٥٨- وعَنْ حُذَيْفةَ، وأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِراشِهِ، قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وأَحْيَا». رَواهُ البُخاريُّ[(١)].

١٤٥٩- وَعَنْ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ ولِفَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إِذَا أَوَيْتُما إِلَى فِرَاشِكُما -أَوْ إِذَا أَخَذْتُما مَضَاجِعَكُما- فَكَبِّرا ثَلَاثًا وَثَلاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، واحْمِدا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ»[(٢)]، وفي رِوايةٍ: «التَّسْبيحُ أَرْبعًا وثَلاثينَ»، وفي رِوايةٍ: «التَّكْبِيرُ أَرْبعًا وَثَلَاثينَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٣)].

١٤٦٠- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ؛ فإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٣٩٤)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم (٧٣٩٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التكبير والتسبيح عند المنام، رقم (٦٣١٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم (٢٧٢٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله، رقم (٣١١٣).

بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

هذانِ الحَديثانِ في بَيانِ ما يَقولُه الإنْسانُ عندَ نَوْمِه، الحَديثُ الأوَّلُ حَديثُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفاطمةَ بنتِ مُحَمَّدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على أَبيها، وذلك أنَّ فاطمةَ اشتكَتْ إلى النبيِّ ﷺ ما تَجِدُه منَ الرَّحى (أداةٌ لطَحْنِ الحَبِّ)، وطلَبَتْ من أَبيها خادِمًا فقال ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكما على ما هو خَيرٌ منَ الخادِمِ؟»، ثُمَّ أَرْشَدَهُما إلى هذا، أنَّهما إذا أَوَيَا إلى فِراشِهما وأَخَذَا مَضجَعَيْهما يُسبِّحانِ ثَلاثةً وثَلاثينَ، ويَحْمَدانِ ثَلاثةً وثَلاثينَ ويُكبِّرانِ أربعةً وثَلاثينَ، قال ﷺ: «فهذا خَيرٌ لكما من الخادمِ»، وعلى هذا فيُسَنُّ للإنْسانِ إذا أَخَذَ مَضجَعَه لِيَنامَ أنْ يُسبِّحَ ثَلاثًا وثَلاثينَ، ويَحمَدَ ثَلاثًا وثَلاثينَ، ويُكبِّرَ أربعةً وثَلاثينَ، فهذه مِئةُ مرَّةٍ، فإنَّ هذا ممَّا يُعينُ الإنْسانَ في قَضاءِ حاجاتِه، كما أنَّه أيضًا إذا نامَ فإنَّه يَنامُ على ذِكرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك حَديثُ أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أرادَ الإنْسانُ أنْ يَنامَ أنْ يَنفُضَ فِراشَه بداخِلةِ إزارِه ثَلاثَ مرَّاتٍ، وداخِلةُ الإزارِ طَرَفُه ممَّا يَلي الجَسَدَ، وكأنَّ الحِكْمةَ من ذلك -واللهُ أعلَمُ- بأَلَّا يَتلوَّثَ الإزارُ بما قد يَحدُثُ من أذًى في الفِراشِ، ولْيَقُلْ: «بِاسمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» وذلك أنَّ الإنْسانَ إذا نامَ فإنَّ اللهَ تَعالى يَقبِضُ رُوحَه كما قال تَعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند المنام، رقم (٦٣٢٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٤).

ولكنَّ قَبضَ الرُّوحِ في المَنامِ ليس كقَبضِها في المَوتِ، إلَّا أنَّه نَوعٌ منَ القَبضِ، ولهذا يَفقِدُ الإنْسانُ وَعيَه، ولا يُحَسُّ بمَن حولَه، فلهذا سمَّاهُ اللهُ تَعالى وفاةً، وقال تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠]، يَنبَغي للإنْسانِ أنْ يَقولَ هذا الذكْرَ: «بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبي، وَبِكَ أرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإنْ أَرْسَلْتَهَا، فاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» واللهُ الموفِّقُ.

١٤٦١- وَعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ، كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ في يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بالمُعَوِّذَاتِ، ومَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وفي رِوايةٍ لهما: أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إذا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فيهِما: «قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ، وَقُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، وَقُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ»، ثُمَّ مَسَحَ بِهِما مَا استَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بهما عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

قَالَ أهلُ اللُّغَةِ: «النَّفْثُ» نَفْخٌ لَطِيفٌ بِلَا رِيقٍ.

١٤٦٢- وَعَنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأيْمَنِ، وَقُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إليكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة عند النوم، رقم (٦٣١٩).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل المعوذات، رقم (٥٠١٧).

لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فإنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

١٤٦٣- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وكفَانَا وآوانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ». رَواهُ مُسلِمٌ[(٢)].

١٤٦٤- وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْقُدَ، وَضَعَ يَدَهُ اليُمْنَى تَحْتَ خَدِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ». رَواهُ التِّرْمِذيُّ[(٣)]، وقال: «حَديثٌ حَسَنٌ».

ورَواه أَبُو داوُدَ[(٤)]؛ من رِوايةِ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيهِ أَنَّه كَانَ يَقولُه ثَلاثَ مرَّاتٍ.

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ من بَقيَّةِ الأحاديثِ التي ساقَها المُؤلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في بابِ (أذْكارِ النوْمِ)، فمنها حَديثُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أخَذَ مَضجَعَه جَمَعَ كَفَّيْه يَعني: ضَمَّ بَعضَهما إلى بعضٍ ونفَثَ فيهما، والنفْثُ هو النفْخُ معَ ريقٍ يَسيرٍ، ثم يَقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٥).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب منه، رقم (٣٣٩٨).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٧)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما يُقال عند النوم، رقم (٥٠٤٥).

يَمسَحُ بهما، أيْ: بيَدَيْه ما استَطاعَ من جَسَدِه، يَبدَأُ برَأسِه ومُقَدَّمِ جَسَدِه ثَلاثَ مرَّاتٍ.

فيَنبَغي للإنْسانِ إذا أخَذَ مَضجَعَه أنْ يَفعَلَ ذلك، يَنفُخُ في يَدَيْه مَجْموعتَيْنِ، ويَقرَأُ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثلاثَ مرَّاتٍ، يَمسَحُ رَأْسَه، ووَجْهَه، وصَدْرَه، وبَطنَه، وفَخِذَيْه، وساقَيْه، وكلَّ ما يَستَطيعُ من جَسَدِه.

أمَّا الحَديثُ الثاني: فهو حَديثُ البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد سبَقَ شَرحُه.

وأمَّا الحَديثُ الثالثُ: فهو حَديثُ أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوى إلى فِراشِه قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وكفَانَا وآوانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ» يَحمَدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ الذي أطْعَمَه وسَقاه، بأنَّه لولا أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَسَّرَ لكَ هذا الطعامَ، وهذا الشرابَ ما أكَلْتَ، وما شَرِبْتَ، كما قال تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٧]، فتَحمَدُ اللهَ الذي أطعَمَكَ وسَقاكَ «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وكفَانَا وآوانَا» كَفانا يَعني: يَسَّرَ لنا الأُمورَ وكَفانا المَؤونةَ، وآوانا أيْ: جعَلَ لنا مَأْوًى نَأْوي إليه، فكم من إنسانٍ لا كافيَ له، ولا مَأْوى، أو ولا مُؤْويَ، فيَنبَغي لكَ إذا أتيْتَ مَضجَعَكَ أنْ تَقولَ هذا الذكْرَ.

ومن ذلك أيضًا: حَديثُ حُذَيْفةَ وحَفْصةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا اضطَجَعَ وضَعَ يَدَه اليُمْنى تحتَ خَدِّه الأيمَنِ وقال: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ».

فكلُّ هذه أذْكارٌ وارِدةٌ عنِ النبيِّ ﷺ يَنبَغي على الإنسانِ أنْ يَحفَظَها، ويَقولَها كما كان النبيُّ ﷺ يَقولُها، واللهُ الموفِّقُ.

١٦ - كِتابُ الدَّعواتِ

٢٥٠ - بابُ الأمْرِ بالدُّعاءِ وفَضْلِهِ وبيانِ جُمَلٍ مِنْ أدْعِيَتِهِ ﷺ

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]. **وقال تَعالى:** ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]. **وقال تَعالى:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ **الآيَةَ** [البقرة:١٨٦]. **وقال تَعالى:** ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ **الآيَةَ** [النمل:٦٢].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابُ الدَّعواتِ: الدَّعواتُ جَمْعُ دَعْوةٍ، وهي دعوةُ الإنْسانِ ربَّهُ عَزَّوَجَلَّ، يقولُ: يا ربِّ، يا ربِّ. وما أَشْبَهَ ذلك، يسألُ اللهَ تَعالى أنْ يُعْطِيَهُ ما يُرِيدُ، وأنْ يَكْشِفَ عنه ما لا يُرِيدُ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمْرُ بالدُّعاءِ وفَضْلُهُ وبيانُ جُمَلٍ مِن أدْعِيَتِهِ ﷺ» ثم ذكَرَ الآياتِ ومنها قولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]. وهذا قَوْلٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ووعْدٌ، واللهُ تَعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ، ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. والمرادُ بالدُّعاءِ هنا دُعاءُ العِبادةِ ودعاءُ المسْأَلةِ، أمَّا دُعاءُ العِبادةِ فهو أنْ يَقُومَ الإنْسانُ بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّ القائمَ بعبادةِ اللهِ لوْ سَأَلْتَهُ: لماذا أقمْتَ الصَّلاةَ؟ لماذا آتَيْتَ الزَّكاةَ؟ لماذا صُمْتَ؟ لماذا حَجَجْتَ؟ لماذا جاهَدْتَ؟ لماذا بَرَرْتَ الوالِدَيْنِ؟ لما وصَلْتَ الرَّحِمَ؟ لقال: أُرِيدُ بذلك رِضا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهذه عبادةٌ مُتَضَمِّنةٌ للدُّعاءِ.

أمَّا دُعاءُ المسْألةِ: فهو أنْ تَسْأَلَ اللهَ الشَّيْءَ فتقولَ: يا ربِّ اغْفِرْ لي، يا ربِّ ارْحَمْني، يا ربِّ ارْزُقْني. وما أشْبَهَ ذلك. وهذا أيضًا عِبادةٌ كما جاءَ في الحديثِ: «الدُّعاءُ هو العِبادَةُ»[1]، وهو عِبادَةٌ لِمَا فيه من صِدْقِ التَّوَجُّهِ إلى اللهِ تَعالى والاعْتِرافِ بفضلِهِ، فيكونُ قَولُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ يَشْمَلُ دُعاءَ العِبادةِ ودُعاءَ المسْألةِ.

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: والاسْتِجابةُ في دُعاءِ العِبادةِ هي قَبولُها، والاسْتجابةُ في دُعاءِ المسْألةِ إعطاءُ الإنْسانِ مسألتَهُ، وهذا وعْدٌ منَ اللهِ تَعالى، لكنْ لا بُدَّ منْ أُمورٍ، فلا بُدَّ لإجابةِ الدُّعاءِ مِنْ شُروطٍ:

الشَّرطُ الأوَّلُ: الإخْلاصُ، أنْ تُخْلِصَ للهِ فتكونَ داعِيًا له حقًّا، إنْ كُنْتَ في عِبادةٍ، لا تُشْرِكْ به شيئًا، لا تَعْبُدْهُ رِياءً ولا سُمْعَةً، ولا مِنْ أجلِ أنْ يُقالَ: فُلانٌ حَجَّ، فلانٌ سَخِيٌّ، فلانٌ كثيرُ الصَّومِ.

إذا قُلْتَ هذا أحْبطتَ عَمَلَكَ، فلا بُدَّ منَ الإخْلاصِ في المسْألةِ أيضًا، ادعُ اللهَ وأنتَ تَشْعُرُ بأنَّكَ في حاجةٍ إليه وأنَّهُ غَنِيٌّ عنك وقادِرٌ على إعطائِكَ ما تَسْأَلُ.

الشَّرْطُ الثاني: أنْ يكونَ الدُّعاءُ لا عُدْوانَ فيه، فإنْ كان فيه عُدْوانٌ فإنَّ اللهَ لا يَقْبَلُهُ ولو منَ الأبِ لابْنِهِ أو منَ الأُمِّ لابْنِها؛ لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف:٥٥]، فلو دَعا الإنْسانُ بإثْمٍ بأنْ سألَ ربَّهُ شيئًا مُحَرَّمًا -والعياذُ باللهِ- فهذا لا يُقْبَلُ؛ لأنَّهُ مُعْتَدٍ، ولو سَأَلَ ما لا يُمْكِنُ شَرْعًا، مِثْلَ أنْ يَقولَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْني نَبِيًّا، فلا يجوزُ وهو عُدْوانٌ لا يُقْبَلُ، ولو دَعا على مَظْلُومٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٢)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨)، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

فإنَّهُ لا يُقْبَلُ، ولو دَعَتِ المَرْأَةُ على ابْنِهَا لأَنَّهُ يُحِبُّ زَوجتَهُ فإنَّهُ لا يُقْبَلُ، وكذلك الأبُ لو دَعا على ابنِهِ لأَنَّهُ صاحَبَ أُناسًا طَيِّبِينَ فإنَّهُ لا يُقْبَلُ، فيُشْتَرَطُ أنْ لا يَكُونَ في الدُّعاءِ عُدْوانٌ.

الشَّرْطُ الثالثُ: يُشْتَرَطُ أنْ يَدْعُوَ اللهَ تَعالى وهو مُوقِنٌ بالإجابةِ لا دُعاءَ تجربةٍ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ قدْ يَدْعُو لِيُجَرِّبَ، ليَرَى هل يُقْبَلُ الدُّعاءُ أمْ لا، هذا لا يُقْبَلُ منه، ولكنِ ادْعُ اللهَ وأنت مُوقِنٌ بأنَّ اللهَ تَعالى سيُجِيبُكَ، فإنْ دَعَوْتَهُ وأنت في شكٍّ فإنَّهُ لا يَقْبَلُهُ منك.

الشَّرْطُ الرابعُ: اجْتنابُ الحَرامِ، بأنْ لا يَكُونَ الإنْسانُ آكلًا للحرامِ، فمَنْ أكَلَ الحرامَ مِنْ رِبًا أو فوائِدِ غِشٍّ أو كَذِبٍ أو ما أَشْبَهَ ذلك فإنَّهُ لا يُستجابُ له، والدَّليلُ على هذا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وإنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ» قال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]. وقال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثم ذَكَرَ «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ. ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ وغُذِيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»[1].

فاسْتَبْعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ لهذا، مع أنَّهُ فَعَلَ مِنْ أسبابِ الإجابةِ ما يَكُونُ جَدِيرًا بالإجابةِ، ولكنْ لَمَّا كان يَأْكُلُ الحرامَ صارَ بَعِيدًا أنْ يَقْبَلَ اللهُ منهُ، نسألُ اللهَ العافِيةَ. فهذه أرْبَعَةُ شُرُوطٍ للدُّعاءِ لا بُدَّ منها. واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ **الآية** [البقرة:١٨٦]. **وقال تعالى:** ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ **الآية** [النمل:٦٢].

الشرح

سَبَقَ لنا الكلامُ على بيانِ فضيلةِ الدُّعاءِ وشُروطِ الإجابةِ، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يَقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

الخطابُ إلى النَّبيِّ ﷺ يَقولُ اللهُ له: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾. يعْني: هل أنا قَريبٌ أو لَسْتُ بقريبٍ، فالجوابُ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. وقُرْبُهُ جَلَّوَعَلَا قُرْبٌ يَليقُ بجلالِهِ وعَظمَتِهِ، ليس قُرْبَ مَكانٍ؛ لأنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فوْقَ كُلِّ شيءٍ، فَوْقَ السماواتِ السَّبْعِ، فَوْقَ العَرْشِ، ولكنَّهُ قُرْبٌ يَليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ، فهو مع عُلُوِّهِ العظيمِ الذي لا مُنْتَهَى له إلَّا بذاتِهِ المُقدَّسةِ فهو مع ذلك قريبٌ في عُلُوِّهِ بَعِيدٌ في دُنُوِّهِ جَلَّوَعَلَا، قال النَّبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ لأصحابِهِ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[1] ولكنَّهُ فَوْقَ سماواتِهِ.

السَّماواتُ السَّبْعُ والأرضونَ السَّبْعُ في كَفِّهِ جَلَّوَعَلَا كخَرْدلةٍ في كفِّ أحَدِنا[2]، فهو مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ لا إلهَ إلَّا هو.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. قُرْبًا يَليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ وليس

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٢)، والنسائي في الكبرى: كتاب النعوت، باب السميع البصير، رقم (٦٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٦)، وتفسير الطبري (٢٠/ ٢٤٦).

قُرْبَ مكانٍ، بمعْنَى أَنَّهُ ليس عندنا في الأرْضِ بلْ هو فَوْقَ سماواتِهِ جَلَّ وَعَلَا ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. هذا الشَّاهِدُ أَنَّهُ يُجيبُ دَعوةَ الدَّاعِي إذا دعاهُ حقيقةً والْتَجَأَ إليه وافْتَقَرَ إليه، وعَلِمَ أَنَّهُ لا يَكْشِفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ، وأَنَّهُ مُحتاجٌ إلى رَبِّهِ، فإنَّهُ إذا دعاهُ في هذا الحالِ أجابَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنْ لا بُدَّ من مُلاحظةِ الشُّرُوطِ السَّابِقةِ.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾: أيْ: لِمَا دَعَوْتُهُمْ إليه، مِنْ عبادتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومنها أنْ يَدْعوني؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بذلك ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾ إيمانًا حَقِيقيًّا لا شكَّ معه، ولا كُفْرَ معه.

وحينئذٍ يكونُ اللهُ تَعالى أسْرَعَ إليهم بالإجابةِ.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ لعلَّ هنا للتَّعليلِ، أيْ: لأجْلِ أنْ يَرْشُدُوا، فيكونوا في جميعِ تَصرُّفاتِهِمْ على وجْهِ الرُّشْدِ، والرُّشْدُ ضِدُّهُ السَّفَهُ، وهذه أيضًا منَ الآياتِ التي تَحُثُّ الإنسانَ أنْ يَدْعُوَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بإيمانٍ وإخلاصٍ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ الآيةَ الرابعةَ، وهي قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]. الاستفهامُ هنا للإنكارِ والنَّفْيِ، يعني: لا أَحَدَ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاهُ إلَّا اللهُ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ يُجِيبُ دَعْوَةَ المُضْطَرِّ ولو كان كافرًا، حتَّى الكافِرُ إذا اضْطَرَّ ودَعا اللهَ أجابَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله تَعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:٣٢]. فالمضْطَرُّ الذي تُلْجِئُهُ الضَّرُورةُ إلى دُعاءِ اللهِ ولو كان كافِرًا يُجِيبُ اللهُ دَعْوتَهُ، فما بالُكَ إذا كان مُؤْمِنًا، فمِنْ بابٍ أَوْلَى، فلا أحدَ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاهُ إلَّا اللهُ، أمَّا غيرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فقدْ يُجِيبُ وقدْ لا يُجِيبُ، رُبَّما تَسْتَغِيثُ

بإنسانٍ وأنت غَرِيقٌ أو حَرِيقٌ، تَسْتَغِيثُ به ولا يُجِيبُكَ، ولا يُنْقِذُكَ، لكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذا اضْطُرِرْتَ إليه ودَعَوْتَهُ أجابَكَ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]. ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أيْ: يُزِيلُهُ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢] أيْ: لا إلهَ مع اللهِ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ، وفي هذا ردٌّ وإبطالٌ لِمَا يَدَّعِيهِ عُبَّادُ الأصْنامِ مِنْ أنَّها تُجِيبُهُمْ وتُغِيثُهُمْ، فإنَّ هذا لا حقيقةَ له، أيَّ أحدٍ تَدْعُوهُ مِنْ دونِ اللهِ فإنَّهُ لا يُجِيبُكَ، حتَّى الرَّسُولُ ﷺ لو دَعَوْتَهُ وقُلْتَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَنْقِذْنِي مِنَ الشِّدَّةِ، فإنَّكَ مُشْرِكٌ كافِرٌ، والرَّسُولُ ﷺ مُتَبَرِّئٌ منك ويُقاتِلُكَ لو كان حَيًّا؛ لأنَّهُ لا أحَدَ يُدْعَى إلَّا اللهُ، كُلُّ مَنْ يُدْعَى من دونِ اللهِ فإنَّهُ لا يَسْتَجِيبُ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]. فهذه الآياتُ وأمثالُها تَدُلُّ على فضيلةِ الدُّعاءِ والدَّعْوةِ إليه، وأنَّهُ لا يَنْبَغِي ولا يُمْكِنُ للإنسانِ أنْ يَسْتَغْنِيَ عن رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

نسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكُمْ مِمَّنْ إذا دعاهُ أجابَهُ، وإذا اسْتَغْفَرَهُ غَفَرَ له، وإذا تابَ إليه تابَ عليه.



١٤٦٥- وَعَنِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ». رواهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[1]، وقالَ: «حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٧٩)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء، رقم (٣٣٧٢)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم (٣٨٢٨).

الشَّرْح

لَمَّا ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآياتِ الدَّالَّةَ على فضلِ الدُّعاءِ والأمرِ به ذَكَرَ الأحاديثَ، وذلك أنَّ الأدِلَّةَ هي الكِتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ المُسْلِمينَ والقِياسُ الصَّحِيحُ، هذه هي الأدِلَّةُ الأربعةُ التي بَنى المُسْلِمُونَ عليها أحْكامَ شريعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ (الكِتابُ والسُّنَّةُ والإجْماعُ والقِياسُ الصَّحِيحُ) وكلُّهَا تَدُورُ على القُرْآنِ الكريمِ، وهو الأصْلُ، فلولا أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ طاعةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ من طاعَتِهِ وأمَرَ باتِّباعِ رَسُولِهِ ﷺ ما كانتِ السُّنَّةُ دَلِيلًا، ولولا أنَّ اللهَ تَعالى جَعَلَ إجْماعَ هذه الأُمَّةِ على حقٍّ وأنَّها لا يُمْكِنُ أنْ تَجْتَمِعَ على ضَلالَةٍ ما كانَ الإجماعُ دَلِيلًا، ولولا أنَّ الاعْتبارَ والنَّظَرَ وإلْحاقَ النظيرِ بالنظيرِ من أدِلَّةِ الشَّرْعِ التي دلَّ عليها القُرْآنُ ما كان القِياسُ أيضًا دليلًا، ولكنَّ كُلَّ هذا قد دلَّ القُرْآنُ على أنَّهُ دليلٌ تَثْبُتُ به الأحْكامُ الشَّرْعِيَّةُ.

فذكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ آياتٍ من كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في فضلِ الدُّعاءِ والأمْرِ به، ثم ذَكَرَ الأحاديثَ، ومنها حديثُ النُّعْمانِ بنِ بَشِيرٍ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» يعني: أنَّ الدُّعاءَ من العِبادةِ، ويَشْهَدُ لهذا قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. لم يقل: يَسْتَكْبِرُونَ عنْ دُعائي. قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدلَّ هذا على أنَّ الدُّعاءَ هو العِبادةُ، ووجْهُ ذلك مِنَ النَّظَرِ أنَّ الإنْسانَ إذا دَعا ربَّهُ فقدِ اعْتَرَفَ للهِ عَزَّوَجَلَّ بالكمالِ وإجابةِ الدُّعاءِ، وأنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّ العطاءَ أحبُّ إليه مِنَ المَنْعِ، ثم هو لم يَلْجَأْ إلى غيرِهِ، لم يَدْعُ غيْرَ اللهِ لا مَلَكًا ولا نَبِيًّا ولا وَلِيًّا ولا قَرِيبًا ولا بَعِيدًا، وهذا هو حقيقةُ العِبادةِ، وبذلكَ نَعْرِفُ أنَّكَ إذا دَعَوْتَ اللهَ أُثِبْتَ على هذا الدُّعاءِ سواءٌ استُجِيبَ لك أمْ لا؛ لأنَّكَ تَعَبَّدْتَ للهِ عَزَّوَجَلَّ وعَبَدْتَ اللهَ، فإذا قُلْتَ: يا ربِّ

اغْفِرْ لي، يا ربِّ ارْحَمْنِي، يا ربِّ ارْزُقْنِي، يا ربِّ اهْدِنِي، فهذه عِبادةٌ تُقَرِّبُكَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويَكْتُبُ اللهُ لك بها ثَوابًا عنده يَوْمَ القِيامةِ. وفَّقَ اللهُ الجميعَ لِمَا فيه الخيرُ والصَّلاحُ.

١٤٦٦- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَت: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ. رَواهُ أَبُو دَاوُدَ[1] بإسْنادٍ جَيِّدٍ.

١٤٦٧- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أكثرُ دُعاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

زادَ مُسْلِمٌ في روايتِهِ قَالَ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أرادَ أنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، وَإِذَا أرادَ أنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ.

الشَّرح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضْلِ الدُّعاءِ أحاديثَ: منها حديثُ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُحِبُّ الجوامِعَ مِنَ الدُّعاءِ ويَدَعُ ما سِوى ذلك، يعني أنَّهُ إذا دعَا يختارُ مِنَ الدُّعاءِ أجْمَعَهُ، كلماتٍ جامعةً عامَّةً، ويدَعُ التفاصيلَ؛ ذلك لأنَّ الدُّعاءَ العامَّ أبلغُ في العُمومِ والشُّمولِ مِنَ التفاصيلِ، فمثلًا إذا أرادَ أنْ يَدْعُوَ الإنْسانُ ربَّهُ أنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ قال: اللَّهُمَّ أدْخِلْنِي الجَنَّةَ. ولا يحتاجُ إلى أنْ يُفَصِّلَ ويَقُولَ:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «ربنا آتنا...»، رقم (٦٣٨٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء بـ«اللهم آتنا في الدنيا حسنة»، رقم (٢٦٩٠).

فيها كذا وكذا، لأنَّهُ قدْ يكونُ هناك أشياءُ لا يَعْلَمُهَا، فيكونُ هذا التفصيلُ كالحاصِرِ لها، فإذا دَعا دُعاءً عامًّا كان هذا أشْمَلَ وأجْمَلَ.

وأمَّا تَكْرارُ الدُّعاءِ فإنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُكَرِّرُ الدُّعاءَ، فإذا دَعا، دَعا ثَلاثًا[1].

ومِنْ أجمعِ ما يكونُ من الدُّعاءِ ما ذَكَرَهُ في حديثِ أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُكْثِرُ أنْ يقولَ في دُعائِهِ: «اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» هذا الدُّعاءُ أجْمَعُ الدُّعاءِ «رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً» يَشْمَلُ كُلَّ حسناتِ الدُّنْيا، منْ زَوجةٍ صالِحةٍ، ومَرْكَبٍ مُريحٍ، وسَكَنٍ مُطْمَئِنٍّ وغيرِ ذلك، «وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً» كذلك يَشْمَلُ حَسَنَةَ الآخِرةِ كُلَّها، مِنَ الحسابِ اليسيرِ وإعطاءِ الكتابِ باليمينِ، والمرورِ على الصِّراطِ بسُهولةٍ، والشُّرْبِ من حَوْضِ الرَّسُولِ ﷺ ودُخولِ الجَنَّةِ، إلى غيْرِ ذلك منْ حسناتِ الآخِرةِ. فهذا الدُّعاءُ منْ أجْمَعِ الأدْعِيةِ، بل هو أجْمَعُها؛ لأنَّهُ شامِلٌ، وكان أنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدْعُو بذلك، وإذا دَعا بشيءٍ آخَرَ دَعا بذلك أيضًا، يعْنِي كأنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يَدَعُهُ أبدًا إذا دَعا، وهذا يَدُلُّ على فَضِيلةِ هذا الدُّعاءِ، وأنَّهُ يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَدْعُوَ به؛ ولهذا كان الرَّسُولُ ﷺ يَخْتِمُ به أشْواطَ الطَّوافِ، يقولُ بَيْنَ الرُّكْنِ اليَمانِي والحَجَرِ الأسْودِ: «رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» في آخِرِ كُلِّ شوطٍ. واللهُ المُوَفِّقُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤٦٨- وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفَافَ، والغِنَى». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرْح

لَمَّا ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بعضَ الأحاديثِ الوارِدةِ في الدُّعاءِ ذَكَرَ حَدِيثَ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفَافَ، والغِنَى» هذه كلماتٌ أَرْبَعٌ يَسْأَلُهَا النَّبِيُّ ﷺ ربَّهُ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى» والهُدَى يعني العِلْمَ النَّافِعَ، والهُدَى نَوْعانِ: هُدى عِلْمٍ، وهُدى عَمَلٍ. وبعضُهُمْ يَقولُ: هُدى دَلالةٍ، وهُدى تَوْفيقٍ. فإذا سألَ الإنْسانُ ربَّهُ الهُدى فهو يسألُ الأمْرَينِ، يعني يسألُ اللهَ أنْ يُعَلِّمَهُ وأنْ يُوَفِّقَهُ للعَملِ، وهذا داخلٌ في قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سُورةِ الفاتِحةِ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦]. يعني: دُلَّنَا على الخيْرِ ووفِّقْنا إلى القيامِ به؛ لأنَّ النَّاسَ يَنْقسِمونَ إلى أربعةِ أقسامٍ في هذا البابِ.

الأوَّلُ: قِسْمٌ علَّمَهُ اللهُ ووفَّقَهُ للعَملِ، وهذا أكملُ الأقْسامِ.

الثَّاني: قِسْمٌ حُرِمَ العِلْمَ والعَمَلَ.

الثَّالثُ: قِسْمٌ أُوتِيَ العِلْمَ وحُرِمَ العَمَلَ.

الرَّابعُ: قِسْمٌ أُوتِيَ العَمَلَ لكنْ بدونِ عِلْمٍ، فَضَلَّ كَثِيرًا.

وخيْرُ الأقسامِ الذي أُوتِيَ العِلْمَ والعَمَلَ مَعًا، وهذا داخِلٌ في دُعاءِ الإنْسانِ «اللَّهُمَّ اهْدِنِي» أو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وأمَّا «التُّقَى» فالتُّقى بمعْنَى التَّقْوى، والتَّقْوى اسمٌ جامِعٌ لِفِعْلِ ما أمرَ اللهُ به،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم (٢٧٢١).

وتَرْكِ ما نَهى عنه؛ لأنَّهُ مأخوذٌ منَ الوِقايةِ، ولا يَقِيكَ مِنْ عذابِ اللهِ إلَّا فِعْلُ أوامرِهِ واجْتنابِ نَواهِيهِ.

«وَالعَفَافَ» يعنِي العَفافَ عنِ الزِّنا، ويَشْمَلُ زِنا النَّظرِ، وزِنا اللَّمْسِ، وزِنا الفَرْجِ، وزِنا الاسْتِمْتاعِ، كُلَّ أنْواعِ الزِّنا، فتسألُ اللهَ العَفافَ عنِ الزِّنا كُلِّهِ بأنْواعِهِ وأقْسامِهِ؛ لأنَّ الزِّنا والعياذُ باللهِ مِنَ الفَواحِشِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢].

وهو مُفْسِدٌ للأخْلاقِ ومُفْسِدٌ للأنْسابِ ومُفْسِدٌ للقُلوبِ ومُفْسِدٌ للأدْيانِ.

وأمَّا «الغِنَى» فالمرادُ الغِنَى عنِ الخَلْقِ بأنْ يَسْتَغْنِيَ الإنْسانُ بما أعطاهُ اللهُ عمَّا في أيْدِي النَّاسِ، سواءٌ أعطاهُ اللهُ مالًا كثيرًا أو قَليلًا، والقَناعةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى، وكثيرٌ منَ النَّاسِ يُعْطِيهِ اللهُ تَعالى ما يَكْفِيهِ لكنْ يكونُ في قَلْبِهِ الشُّحُّ -والعياذُ باللهِ- فنَجِدُهُ دائمًا في فَقْرٍ، وإذا سَأَلْتَ اللهَ الغِنَى فهو سُؤالُ أنْ يُغْنِيَكَ اللهُ تَعالى عمَّا في أيْدِي النَّاسِ بالقَناعةِ والمالِ الذي تَسْتَغْنِي به عنْ غَيْرِهِ جَلَّوَعَلَا. فهذه الأدْعِيةُ الأرْبَعةُ يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَدْعُوَ بها كما كان النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بها «اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ الهُدَى، والتُّقَى، والعَفَافَ، والغِنَى». واللهُ المُوَفِّقُ.



١٤٦٩ - وَعَنْ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٧).

وفي رِوايةٍ له عنْ طارِقٍ: أنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، وأتاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟ قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وارْزُقْنِي، فإنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ»(١).

الشَّرح

ساقَ المُؤَلِّفُ عنْ طارِقِ بنِ أَشْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان إذا أَسْلَمَ الرَّجُلُ علَّمَهُ الصَّلاةَ؛ لأنَّ الصَّلاةَ هي أهمُّ وأعْظَمُ أركانِ الإسْلامِ بعدَ الشَّهادَتَيْنِ، وأركانُ الإسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصَوْمُ رمضان، وحَجُّ بَيْتِ اللهِ الحرامِ، فكان النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُ الرَّجُلَ إذا أسْلَمَ كيْفَ يُصَلِّي ويَأْمُرُهُ بهذا الدُّعاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وارْزُقْنِي» خَمْسُ كَلماتٍ يُعَلِّمُهَا النَّبِيُّ ﷺ الرَّجُلَ إذا أسْلَمَ.

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يعْنِي اغْفِرْ لي الذُّنوبَ، والكافِرُ إذا أسْلَمَ غَفَرَ اللهُ له ذُنوبَهُ كما قال اللهُ تَعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. ولكنْ طَلَبُ المَغْفِرةِ مَشْروعٌ حتَّى بعدَ الإسْلامِ من كُلِّ مُسلِمٍ؛ لأنَّ الإنْسانَ لا يَخْلُو مِنَ الذُّنوبِ، كما جاءَ في الحديثِ: «وخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٢).

«وَارْحَمْنِي» يعْنِي: أَسْبِغْ عَلَيَّ رَحْمَتَكَ، ففي طلبِ المَغْفِرةِ النَّجاةُ مِنَ السَّيِّئاتِ والآثامِ والعُقوباتِ، وفي طَلَبِ الرَّحْمةِ حُصولُ المَطْلوباتِ؛ لأن الإنْسانَ لا يَتِمُّ له الأمْرُ إلَّا إذا نَجا مِنَ المَكْرُوبِ وفازَ بالمطلوبِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«واهْدِنِي» وقد سَبَقَ لنا بيانُ معْنَى (الهِدايةِ) أنَّها هِدايةُ عِلْمٍ وبَيانٍ، وهِدايةُ تَوْفيقٍ ورُشْدٍ.

«وَعَافِنِي» أي: مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، والأمْراضُ نَوْعانِ: مَرَضٌ قَلْبِيٌّ كما قال تَعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠]. ومَرَضٌ جِسْمِيٌّ في أعضاءِ البَدَنِ، وإذا سَأَلْتَ اللهَ المُعافاةَ فالمرادُ مِن هذا ومِن هذا، ومَرَضُ القَلْبِ أعْظَمُ مِن مَرَضِ البَدَنِ؛ لأنَّ مرضَ البَدَنِ إذا صَبَرَ الإنْسانُ واحْتَسَبَ الأجْرَ مِنَ اللهِ صارَ رِفْعَةً في دَرجاتِهِ وتَكْفِيرًا لِسَيِّئاتِهِ والنِّهايَةُ فيه المَوْتُ، والمَوْتُ مآلُ كُلِّ حيٍّ ولا بُدَّ منه.

لكنْ مَرَضُ القَلْبِ والعياذُ باللهِ فسادُ الدُّنْيا والآخِرةِ، إذا مَرِضَ القَلْبُ بالشَّكِّ أو الشِّرْكِ أو النِّفاقِ أو كَراهةِ ما أنْزَلَ اللهُ، أو بُغْضِ أولياءِ اللهِ أو ما أشْبَهَ ذلك، فقدْ خَسِرَ الإنْسانُ دُنْياهُ وآخِرتَهُ؛ ولهذا يَنْبَغِي لك إنْ سَأَلْتَ العافِيةَ أنْ تَسْتَحْضِرَ أنَّكَ تَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ مِن مَرَضِ القَلْبِ ومَرَضِ البَدَنِ، مَرَضُ القَلْبِ الذي مَدارُهُ على شَكٍّ أو شِرْكٍ أو شَهْوَةٍ.

وكذلك اللَّفْظُ الآخَرُ الذي ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سألَهُ رَجُلٌ عمَّا يَنْفَعُهُ وما يَحْتاجُهُ، فأمَرَهُ أنْ يَدْعُوَ بهذا الدُّعاءِ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وارْزُقْنِي».

«وارْزُقْنِي» يعْنِي الرِّزْقَ الذي يقومُ به البَدَنُ مِنَ الطَّعامِ والشَّرابِ واللِّباسِ والمَسْكَنِ وغيْرِ ذلك، والرِّزْقَ الذي يَقُومُ به القَلْبُ وهو العِلْمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالِحُ، وهذا يَشْمَلُ هذا وهذا، فالرِّزْقُ نَوْعانِ: رِزْقٌ يَقُومُ به البَدَنُ، ورِزْقٌ يَقُومُ به القَلْبُ، والإنْسانُ إذا قال: «وارْزُقْنِي» فهو يَسْأَلُ اللهَ هذا وهذا.

فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَحْرِصَ على هذه الدَّعَواتِ التي عَلَّمها النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ والتي يُبادِرُ بتَعْلِيمِها الإنْسانَ إذا أَسْلَمَ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٧٠- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1] رَواهُ مُسْلِمٌ.

الشَّرح

نَقَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما يَسُوقُهُ مِن أحاديثِ الدُّعاءِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبنَا عَلَى طَاعَتِكَ» القلوبُ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، كُلُّ قَلْبٍ مِن قُلُوبِ بَنِي آدمَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ يُقَلِّبُهُ حيثُ يشاءُ، وكيفَ شاءَ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا كان يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَسْأَلَ اللهَ دائمًا أنْ يُثَبِّتَهُ وأنْ يُصَرِّفَ قَلْبَهُ على طاعتِهِ، وإنَّما خَصَّ القَلْبَ؛ لأنَّ القَلْبَ إذا صَلَحَ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذا فَسَدَ فَسَدَ الجَسَدُ، كما صَحَّ ذلك عنِ النَّبِيِّ ﷺ حينَ قال: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[2].

وقَولُهُ ﷺ: «صَرِّفْ قُلُوبنَا عَلَى طَاعَتِكَ» قدْ يَتبادَرُ إلى الذِّهْنِ أنَّ الأَوْلَى أنْ يُقالَ: «إِلَى طَاعَتِكَ» لكنْ قَولُهُ: «عَلَى طَاعَتِكَ» أبْلَغُ، يعْنِي قَلِّبِ القَلْبَ على الطَّاعةِ فلا يَتَقَلَّبُ على مَعْصِيةِ اللهِ؛ لأنَّ القَلْبَ إذا تَقَلَّبَ على الطَّاعةِ صارَ يَنْتَقِلُ مِنْ طاعةٍ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إلى أُخْرَى مِنْ صَلاةٍ إلى ذِكْرٍ إلى صَدَقةٍ إلى صِيامٍ إلى عِلْمٍ إلى غَيْرِ ذلك مِنْ طاعةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فينبغي لنا أنْ نَدْعُوَ بهذا الدُّعاءِ «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

١٤٧١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وفي رِوايةٍ: قَالَ سُفْيانُ: أَشُكُّ أَنِّي زِدْتُ واحِدَةً مِنْهَا.

الشَّرْح

نَقَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضْلِ الدُّعاءِ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» فهذه أَرْبَعةُ أشياءَ أَمَرَنَا الرَّسُولُ ﷺ أنْ نَتَعَوَّذَ منها:

أَوَّلًا: جَهْدُ البلاءِ: أيْ مِنَ البَلاءِ الذي يَبْلُو الجَهْدَ، أي الطَّاقَةَ، والبلاءُ نَوْعانِ: بَلاءٌ جِسْمِيٌّ كالأمْراضِ، وبَلاءٌ مَعْنَوِيٌّ بأنْ يُبْتَلَى الإنْسانُ بمَنْ يَتَسَلَّطُ عليه بلسانِهِ فيَنْشُرُ مَعايِبَهُ ويُخْفِي مَحاسِنَهُ، وما أَشْبَهَ ذلك، هذا من البَلاءِ الذي يَشُقُّ على الإنْسانِ، ورُبَّما يَكونُ مَشَقَّةُ هذا عَلى الإنْسانِ أَبْلَغَ من مَشقَّةِ جَهْدِ البَلاءِ الجِسْمِيِّ، فيَتَعَوَّذُ الإنْسانُ من جَهْدِ البَلاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء، رقم (٦٦١٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره، رقم (٢٧٠٧).

أمَّا البَلاءُ البَدَنيُّ فأمْرُهُ ظاهِرٌ، أمْراضٌ وأوْجاعٌ في الأعْضاءِ، في البَطْنِ، أو الصَّدْرِ، أو الرَّأسِ، أو الرَّقَبةِ، أو في أيِّ مكانٍ، هذا مِن البلاءِ، ورُبَّما يَكونُ أيضًا مِن البَلاءِ قِسْمٌ ثالِثٌ، وهو ما يَبْتَلِي اللهُ به العَبْدَ مِن المَصائِبِ الكبيرةِ العظيمةِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، والعياذُ باللهِ، إذا أصابَهُ خَيْرٌ وراحةٌ وطُمأنِينةٌ اطْمَأنَّ، وإنْ أصابَتْهُ فِتْنةٌ دِينِيَّةٌ أو دُنْيَوِيَّةٌ انْقَلَبَ على وجْهِهِ، تَجِدُ إيمانَهُ مُتَزَعْزِعًا، فأدْنَى شُبْهَةٍ تَرِدُ عليه تَصْرِفُهُ عنِ الحقِّ، تَجِدُهُ لا يَصْبِرُ، فيَتَسَخَّطُ على قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، ورُبَّما يَقَعُ في قَلْبِهِ أشْياءُ لا تَلِيقُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ أجْلِ هذا البَلاءِ.

ثانيًا: «وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ» أيْ: تَعَوَّذْ باللهِ من أنْ يُدْرِكَكَ الشَّقاءُ، والشَّقاءُ ضِدُّ السَّعادةِ، والسَّعادةُ سَبَبُها العملُ الصَّالِحُ، والشَّقاءُ سَبَبُهُ العملُ السَّيِّئُ، فإذا اسْتَعَذْتَ باللهِ من دَرَكِ الشَّقاءِ فهذا يَتَضَمَّنُ الدُّعاءَ بألَّا تَعْمَلَ عَمَلَ الأشْقياءِ.

ثالثًا: «وَمِنْ سُوءِ القَضَاءِ» سُوءُ القضاءِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ:

المَعْنَى الأوَّلُ: أنْ أقْضِيَ قَضاءً سَيِّئًا.

والمَعْنَى الثَّاني: أنْ يَقْضِيَ اللهُ على الإنْسانِ قضاءً يَسُوؤُهُ، والقضاءُ يعني الحُكْمَ.

فالإنسانُ رُبَّما يَحْكُمُ بالهَوَى، ويَتَعَجَّلُ الأُمورَ ولا يَتَأنَّى ويَضْطَرِبُ، هذا سُوءُ قَضاءٍ، كذلك القضاءُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قدْ يَقْضِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ على الإنْسانِ قَضاءً يَسُوؤُهُ ويُحْزِنُهُ، فتَسْتَعينُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ سُوءِ القضاءِ.

رابِعًا: «وَمِنْ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» الأعداءُ جَمْعُ عَدُوٍّ، وقدْ ذَكَرَ الفُقهاءُ ضابِطًا للعَدُوِّ، فقالوا: مَنْ سَرَّهُ ما ساءَ شَخْصًا أو غَمَّهُ فَرَحُهُ فهو عَدُوُّهُ، كلُّ إنْسانٍ يَسُرُّهُ ما ساءكَ أو يَغُمُّهُ فَرَحُكَ فإنَّهُ عَدُوٌّ لك.

«وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ» إنَّ الأعْداءَ يَفْرَحُونَ عليك، يَفْرَحُونَ بما أصابَكَ، والعَدُوُّ لا شكَّ أنَّهُ يَفْرَحُ في كُلِّ ما أصابَ الإنْسانَ مِنْ بلاءٍ، ويَحْزَنُ بكُلِّ ما أصابَهُ من خَيْرٍ، فأنت تَسْتَعِيذُ باللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ شَماتةِ الأعْداءِ.

لقدْ أمَرَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ أنْ نَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ هذه الأُمورِ الأرْبعةِ، فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَمْتَثِلَ أمْرَ الرَّسُولِ وأنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ منها لعلَّ اللهَ أنْ يَسْتَجِيبَ له. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٧٢ - وعَنْهُ، قَالَ: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أصْلِحْ لِي دِيني الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا مَعَاشِي، وأصْلِحْ لِي آخِرتِي الَّتي فِيهَا مَعَادي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرْح

ومِنْ هذه الأحاديثِ التي ساقَها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضْلِ الدُّعاءِ، حَدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أصْلِحْ لِي دِيني الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتي فِيهَا مَعَاشِي، وأصْلِحْ لِي آخِرتِي الَّتي إلَيْهَا مَعَادِي (أوِ الَّتي فِيهَا مَعَادِي)، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يُعمل، رقم (٢٧٢٠).

فبدأ بالدِّينِ، وقال: «أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي» أي اجْعَلْهُ صالِحًا بأنْ يَكُونَ خالِصًا صَوابًا. والدِّينُ هو الذي يَعْتَصِمُ به الإنْسانُ مِنَ الشَّرِّ، ويَعْتَصِمُ به مِنَ العَذابِ؛ لأنَّهُ كُلَّما صَلَحَ الدِّينُ اعْتَصَمَ الإنْسانُ به مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وصَلاحُ الدِّينِ يكونُ بالإخْلاصِ للهِ، والمُتابَعةِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ، فمَنْ أشْرَكَ باللهِ فدِينُهُ غَيْرُ صالِحٍ، فمَنْ صَلَّى رِياءً، أو تَصَدَّقَ رِياءً، أو صامَ رِياءً، أو قَرَأَ القُرآنَ رِياءً، أو ذَكَرَ اللهَ رِياءً، أو طَلَبَ العِلْمَ رِياءً، أو جَاهَدَ رِياءً، فكُلُّ هذا عَمَلُهُ غيْرُ صالِحٍ والعياذُ باللهِ، وهو مَرْدُودٌ عليه لِقَوْلِ اللهِ تَعالى في الحديثِ القُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ بِهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»[1] كذلك المُبْتَدِعُ لا عِصْمَةَ له، فليس مَعْصُومًا مِنَ الشَّرِّ، بل الذي وقَعَ فيه هو الشَّرُّ، قال الرَّسُولُ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلُّ ضَلالَةٍ في النَّارِ»[2].

فالمُبْتَدِعُ وإنْ ذَكَرَ اللهَ وإنْ سَبَّحَ وإنْ حَمِدَ وإنْ صلَّى على وجْهٍ ليس بمَشْرُوعٍ فعَمَلُهُ مَرْدودٌ عليه، قدْ يُزَيِّنُ الشَّيْطانُ للإنْسانِ عِبادةً فيَلِينُ قَلْبُهُ ويَخْشَعُ ويَبْكِي، ولكنَّ ذلك لا يَنْفَعُهُ إذا كان بِدْعةً، بل هو مَرْدُودٌ عليه، ألَمْ تَرَ إلى النَّصارى يَأْتُونَ إلى الكَنِيسةِ، ويَبْكُونَ ويَخْشَعُونَ أشدَّ من خُشُوعِ بَعْضِ المُسْلِمِينَ، ومع ذلك لا يَنْفَعُهُمْ هذا؛ لأنَّهُمْ على ضلالَةٍ، كذلك أهْلُ البِدَعِ، مثلًا نَجِدُ من أهْلِ البِدَعِ -ولا سِيَّما الصُّوفِيَّةُ- أذْكارًا كَثِيرةً يَذْكُرونَ اللهَ ويَبْكُونَ ويَخْشَعُونَ وتَلِينُ قُلوبُهُمْ، لكنَّ هذا كلَّهُ لا يَنْفَعُهُمْ؛ لأنَّهُ على غَيْرِ شَرْعِ اللهِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[١]، أي: مَرْدُودٌ عليه، وقال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٢].

وقَولُهُ: «هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي» يعني الذي أَعْتَصِمُ به مِنَ الشَّرِّ والفِتَنِ وغيرِ ذلك.

«وأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي» الدُّنْيا معاشٌ، تُقِيمُ فيه أو تَسْكُن فيها إلى أنْ تَمُوتَ، ولكنَّها ليست دارَ قَرارٍ، وأين الذين اسْتَقَرُّوا فيها؟ أين المُلوكُ وأبْناءُ المُلوكِ؟ أين الأغْنياءُ؟ أين الأثْرياءُ؟ أين الفُقراءُ؟ أين الأسْيادُ؟ أين المَسُودُونَ؟! كلُّهُم ذَهَبُوا فصَارُوا أحاديثَ، وأنت في يومٍ من الأيَّامِ ستكونُ أحاديثَ، قال الشَّاعِرُ الحكيمُ:

بَيْنَا يُرَى الإنْسانُ فيها مُخْبِرًا ... حَتَّى يُرى خَبَرًا مِنَ الأَخْبارِ[٣]

هو الآن مُخْبِرٌ، يقولُ: صار كذا وصار كذا وماتَ فُلانٌ ووُلِدَ فُلانٌ، ولكنَّهُ سوفَ يَكُونُ هو خَبَرًا مِنَ الأخْبارِ، نحنُ الآنَ نَتَحَدَّثُ عن مَشايِخِنا، وزُملائِنا، وإخْوانِنا، وآبائِنا، وجَمِيعُهُمْ خَبَرٌ مِنَ الأخْبارِ كأنْ لم يُوجَدُوا بالدُّنْيا، كأنَّهُم أحْلامٌ، وهكذا أنت أيضًا، فالدُّنْيا مَعاشٌ فقط وليستْ قَرارًا، ولكنَّها إنْ وُفِّقَ الإنْسانُ فيها إلى العَمَلِ الصَّالِحِ وجَعَلها مَنْفَعَةً للآخِرةِ فيا حَبَّذَا، وإنْ كانتِ الأُخْرى وصار يَعْمَلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على ما صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري معلقا: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم فحكمه مردود، (٩/ ١٠٧)، ووصله مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (٣٢٤٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) البيت لأبي الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي، انظر: تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٢)، فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٢٦٩).

للدُّنْيا لا للآخِرَةِ خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرةَ والعياذُ باللهِ؛ ولهذا قال: «الَّتي فِيهَا مَعَاشِي» فقط مَعاشٌ يَعِيشُ الإنْسانُ ثم يَتْرُكُها.

«وأَصْلِحْ لِي آخِرتِي الَّتي إليهَا مَعَادي» الآخِرةُ هي التي إليها المَعادُ ولا مَفَرَّ منها، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كِتابِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠].

الأوَّلُونَ والآخِرُونَ كُلُّهُمْ سوفَ يَجْمَعُهُمُ اللهُ تَعالى في صَعِيدٍ واحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ويَنْفُذُهُمُ البَصَرُ. وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٤]. لأجلٍ مَعْدُودٍ، وليس لِأجَلٍ مَمْدُودٍ بل مَعْدُودٍ، يُعَدُّ عَدًّا، لكنَّهُ كُلَّهُ يَفْنى سَرِيعًا، حالُ اليَوْمِ هو مَعادُ كُلِّ أحدٍ، كُلُّ أحَدٍ مَعادُهُ إلى يَوْمِ القِيامةِ، والشَّاعِرُ الحكيمُ يَقولُ:

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وإِنْ طَالَتْ سَلامَتُهُ ... يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ[1]

كُلُّنا سنُحْمَلُ على النَّعْشِ مهما طالتْ بِنا الحياةُ، أو نَحْتَرِقُ فتَأْكُلُنا النَّارُ، أو نَمُوتُ في فلاةٍ مِنَ الأرْضِ فتَأْكُلُنا السِّباعُ، أو في البَحْرِ فتَأْكُلُنا الحِيتانُ، لا نَدْرِي، المُهِمُّ أنَّ كُلَّ إنْسانٍ مآلُهُ إلى الآخِرةِ؛ ولهذا قال: «أَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتي إِلَيْهَا مَعَادِي» وصَلاحُ الآخِرَةِ أنَّ اللهَ تَعالى يُنَجِّيكَ مِنْ عذابِ النَّارِ ويُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، نسألُ اللهَ أنْ يُصْلِحَ لي ولكم الآخِرةَ.

«وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ» إذا وُفِّقَ الإنْسانُ في هذا الحياةِ وصارَ يَزْدَادُ خَيْرًا كُلَّ يومٍ يَكْتَسِبُ عَمَلًا صالِحًا ويَحُسُّ بذلك في نفسِهِ، وتَجِدُهُ يَفْرَحُ إذا عَمِلَ

(١) كعب بن زهير، انظر ديوانه (١/ ٤٩).

عَمَلًا صالِحًا ويَقولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]. كُلَّ يومٍ يَزْدادُ، يُصَلِّي، يُسَبِّحُ، يَقْرَأُ، يَأْمُرُ بالمَعْروفِ، يَنْهَى عنِ المُنْكَرِ، يَلْقَى أخاهُ بوجْهٍ طَلْقٍ، إلى آخِرِهِ، مِنَ الأعْمالِ الصَّالِحَةِ وهي خَيْرَاتٌ كثيرةٌ، فكُلَّما ازْدادَ الإنْسانُ في حياتِهِ خيرًا كانت حَياتُهُ خيْرًا؛ ولهذا جاءَ في الحديثِ: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وحَسُنَ عَمَلُهُ»[1].

«وَاجْعَلِ المَوتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ» المَوْتُ فَقْدُ الحياةِ، لكنْ دَعا النَّبيُّ ﷺ أنْ يَجْعَلَ اللهُ المَوْتَ له راحةً من كُلِّ شَرٍّ؛ لأنَّ الإنْسانَ لا يَدْرِي ما يُصِيبُهُ في هذه الدُّنْيا، قدْ يَبْقَى في الدُّنْيا طَوِيلًا ولكنَّهُ يَنْتَكِسُ والعياذُ باللهِ، يُفْسِدُ دِينَهُ، قدْ يَبْقَى في الدُّنْيا وتَحْدُثُ فِتَنٌ عَظِيمةٌ يَتْعَبُ فيها يقولُ: يا ليتَ أُمِّي لم تَلِدْني، يا لَيْتَنِي مِتُّ قبْلَ هذا وكنتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا، يُواجِهُ فِتَنًا عظيمةً، قد يكونُ المَوْتُ الذي عَجَّلَهُ اللهُ له راحةً له من كُلِّ شرٍّ؛ ولهذا كان مِنْ دُعاءِ الرَّسُولِ ﷺ: «وَاجْعَلِ المَوتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

فعليكَ يا أخي المُسْلِمِ بهذا الدُّعاءِ «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِيني الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِي، وأَصْلِحْ لِي دُنْيايَ الَّتي فِيهَا مَعَاشِي، وأَصْلِحْ لِي آخِرتِي الَّتي فِيهَا مَعَادي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

١٤٧٣ - وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «قُلِ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وسَدِّدْنِي». وفي رِوايةٍ: «اللَّهمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى والسَّدَادَ»[2]. رَواهُ مُسْلِمٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٠)، والترمذي: أبواب الزهد، باب منه، رقم (٢٣٣٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يُعمل، رقم (٢٧٢٥).

الشَّرح

حديثُ عَلِيِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَهُ أنْ يَقُولَ: «اللَّهمَّ إنِّي أسْألُكَ الهُدَى والسَّدَادَ» أمَّا الهُدى فقدْ سَبَقَ الكلامُ على معناهُ، وأمَّا السَّدادُ فهو تَسْدِيدُ الإنْسانِ في قولِهِ وفِعْلِهِ وعَقِيدَتِهِ، والتَّسْديدُ معناهُ أنْ يُوَفَّقَ الإنْسانُ إلى الصَّوابِ، بحيثُ لا يَضِلُّ، وقدْ قال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أيْ صَوابًا ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]. ذَكَرَ اللهُ تَعالى في القَوْلِ السَّدِيدِ فائِدتَيْنِ:

الأُولَى: صلاحُ الأعْمالِ.

والثَّانِيةُ: مَغْفِرَةُ الذُّنوبِ.

فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَسْألَ اللهَ هذا الدُّعاءَ: «اللَّهمَّ إنِّي أسْألُكَ الهُدَى والسَّدَادَ» أو يَقُولَ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وسَدِّدْنِي» المعْنَى واحِدٌ.

١٤٧٤- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ، والهَرَمِ، والبُخْلِ، وأعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وأعوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ». وفي رِوايةٍ: «وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الاستعانة من الجبن، رقم (٦٣٦٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، رقم (٢٧٠٦).

الشَّرْح

هذا منَ الأحاديثِ التي ذكَرَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضْلِ الدُّعاءِ عن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، وَالكَسَلِ» العَجْزُ عَدَمُ القُدْرةِ، والكَسَلُ عَدَمُ الإرادةِ، وذلكَ أنَّ الإنْسانَ إذا لم يَفْعَلْ فإمَّا لِعَجْزِهِ عنِ الفعلِ لِمَرَضٍ، أو كِبَرٍ أو غيرِهِ، وإمَّا لِعَدَمِ عَزِيمَتِهِ وإرادتِهِ، فكانَ الرَّسُولُ ﷺ يستعيذُ باللهِ منَ العَجْزِ والكَسَلِ.

«وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ، والهَرَمِ، والبُخْلِ» الجُبْنُ هو الشُّحُّ بالنَّفْسِ وألَّا يَكُونَ الإنْسانُ شُجاعًا، فلا يُقْدِمُ في مَحَلِّ الإقْدامِ. والهَرَمُ الشَّيْخوخةُ، وأمَّا البُخْلُ فهو الشُّحُّ بالمالِ، لا يَبْذُلُ المالَ بل يُمْسِكُهُ حتَّى في الأُمورِ الواجِبةِ لا يَقُومُ بها.

«وأَعُوذُ بِكَ مِن ضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ» فالدَّيْنُ -والعياذُ باللهِ- هَمٌّ بالنَّهارِ وسَهَرٌ باللَّيْلِ، والإنْسانُ المَدِينُ يَقْلَقُ ويَتْعَبُ، ولكنْ بُشْرَى للإنْسانِ أنَّهُ إذا أَخَذَ أمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ أدَاءَها أدَّى اللهُ عنه، وإذا أخَذَها يُرِيدُ إتْلافَها أتْلَفَهُ اللهُ.

فإذا أخَذْتَ أمْوالَ النَّاسِ بقَرْضٍ أو ثَمَنِ مَبِيعٍ أو أُجْرةِ بَيْتٍ أو غيرِ ذلك وأنتَ تُرِيدُ الأداءَ أدَّى اللهُ عنك، إمَّا في الدُّنْيا يُعِينُكَ حتَّى تُسَدِّدَ، وإمَّا في الآخِرةِ، صحَّ ذلك عنِ النَّبِيِّ ﷺ. أمَّا المُتلاعِبُ بأمْوالِ النَّاسِ والذي يأْخُذُها ولا يُرِيدُ أداءَها ولكنْ يُرِيدُ إتْلافَها فإنَّ اللهَ يُتْلِفُهُ والعياذُ باللهِ.

وكان مِن دُعائِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ» الحَزَنُ لِمَا مَضَى والهَمُّ لِمَا يُسْتَقْبَلُ، والإنْسانُ إذا كان حَزِينًا فيما مَضَى مُهْتَمًّا لِمَا يُسْتَقْبَلُ فإنَّهُ يَتَنَكَّدُ عَيْشُهُ، لكنْ إذا كان لا يَهْتَمُّ إلَّا بحاضِرِهِ ويَسْتَعِدُّ لِمُسْتَقْبَلِهِ على الوَجْهِ الذي أُمِرَ به

كان ذلك سببًا في طُمَأْنِينَتِهِ، فكان الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَعِيذُ باللهِ منَ الهَمِّ والحَزَنِ، كثيرٌ منَ النَّاسِ تَجِدُهُ يَهْتَمُّ اهْتمامًا عَظِيمًا للمُسْتَقْبَلِ، اهْتِمامًا لا دَاعِيَ له، فتَتَنكَّدُ عليه حَياتُهُ ويَتْعَبُ، وإذا وَصَلَ إلى حَدِّ الفِعْلِ وجَدَهُ سَهْلًا، وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ أيضًا لا يَنْسَى ما مَضَى فيَتَجَدَّدُ له الحَزَنُ، فيَتْعَبُ.

١٤٧٥- وَعَنْ أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه قَالَ لرسُولِ اللهِ ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وفي رِوايةٍ: «وفِي بَيْتِي» وَرُوِيَ: «ظُلْمًا كَثِيرًا» ورُوِيَ: «كَبِيرًا» بالثاءِ المُثَلَّثة وبالباءِ المُوحَّدةِ؛ فينْبَغِي أنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُما فيُقالُ: كَثِيرًا كَبِيرًا.

الشَّرح

ساقَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سألَ النَّبِيَّ ﷺ دُعاءً يَدْعُو به في صَلاتِهِ.

وتَأَمَّلْ مَنْ هو السَّائِلُ ومَنْ هو المَسْئُولُ، السَّائِلُ هو أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أَحَبُّ النَّاسِ إلى الرَّسُولِ ﷺ، والرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحَبُّ النَّاسِ إلى أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا شَكَّ، والمَسْئُولُ هو النَّبِيُّ ﷺ، فسُؤالٌ من حبيبٍ لِحَبِيبِهِ لا بُدَّ أنْ يكونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

الجوابُ من أفْضَلِ الأجْوِبةِ، وقَوْلُهُ: «أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي» يُحْتَمَلُ في السُّجودِ، أو بعد التَّشَهُّدِ الأخِيرِ.

فقال ﷺ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» هذا دُعاءٌ جامِعٌ نافِعٌ، «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا» وهذا اعترافٌ منَ العبدِ بالظُّلْمِ، وهو مِنْ وسائِلِ الدُّعاءِ، أنْ يَذْكُرَ الإنْسانُ حالَهُ لرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ ضِمْنَ الدُّعاءِ، كما قال مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] فتَوَسَّلَ إلى اللهِ بحالِهِ.

قال ﷺ: «وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» هذا ثناءٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ واعْترافٌ بالعَجْزِ وأنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا اللهُ، كما قال تَعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]. لو اجْتَمَعَ النَّاسُ كلُّهُم على أنْ يَغْفِرُوا لك ذَنْبًا واحِدًا ما اسْتطاعُوا، وإنَّما الذي يَغْفِرُ لك هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقَولُهُ ﷺ: «اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ» أضافَها إلى اللهِ؛ لأنَّها تكونُ أبْلَغَ وأعْظَمَ، فإنَّ عِظَمَ العطاءِ مِنْ عِظَمِ المُعْطِي.

وقَولُهُ ﷺ: «وارْحَمْنِي» في المُسْتَقْبَلِ ووفِّقْنِي لكُلِّ خَيْرٍ.

وقَولُهُ ﷺ: «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» هذا تَوسُّلٌ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ باسمَيْنِ مُناسبَيْنِ للدُّعاءِ؛ لأنَّهُ قال: «اغْفِرْ لِي...، وارْحَمْنِي» فالمُناسِبُ «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَقُولَ هذا الدُّعاءَ في صلاتِهِ، إمَّا في سُجودِهِ أو بَعْدَ التَّشَهُّدِ الأخِيرِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٧٦- وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّه كَانَ يدْعُو بِهذا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وإِسْرافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي؛ وَخَطَئِي وَعَمْدِي؛ وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٤٧٧- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يقولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ ومنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ». رَواهُ مُسْلِمٌ(٢).

١٤٧٨- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ مِن دُعاءِ رسُولِ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجَاءةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ». رَواهُ مُسْلِمٌ(٣).

١٤٧٩- وَعَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ، والبُخْلِ والهَرَمِ، وَعَذابِ القَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «اللهم...»، رقم (٦٣٩٨)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عُمل ومن شر ما لم يُعمل، رقم (٢٧١٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم (٢٧١٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٣٩).

عِلْمٍ لا يَنْفَعُ؛ وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ؛ وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجابُ لَهَا». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

١٤٨٠ - وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وإِلَيْكَ حَاكَمْتُ. فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ، وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ، وَمَا أَعْلَنْتُ، أنتَ المُقَدِّمُ، وأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ».

زَادَ بَعْضُ الرُّوَاةِ: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ المُتَعَدِّدةُ ذَكَرَها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ فَضْلِ الدُّعاءِ وتَشْتَمِلُ على جُمَلٍ كَثيرةٍ، منها أنَّ النَّبيَّ ﷺ سألَ اللهَ تَعالى أنْ يَغْفِرَ له ما قَدَّمَ وما أَخَّرَ، فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي» وهذا يُغْنِي عنهُ كَلِمةٌ واحِدةٌ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ» لكنَّ التفصيلَ في مقامِ الدُّعاءِ أمْرٌ مَطْلُوبٌ؛ لأنَّهُ يُؤدِّي إلى أنْ يَتَذَكَّرَ الإنْسانُ كُلَّ ما عَمِلَ، مما أَسَرَّ وأَعْلَنَ وما عَلِمَ وما لَمْ يَعْلَمْ، ولأنَّهُ كُلَّما أَكْثَرَ منْ سُؤالِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ازْدادَ تَعَلُّقًا باللهِ ومَحَبَّةً له وخَوْفًا منه ورَجاءً؛ فلذلكَ كان النَّبيُّ ﷺ يُفَصِّلُ فيما يَسْأَلُ ربَّهُ عَزَّوَجَلَّ من مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ وغيْرِ ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شمر ما لم يعمل، رقم (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب التهجد بالليل، رقم (١١٢٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٦٩).

وكذلك أيضًا اسْتعاذَ الرَّسُولُ ﷺ منْ أُمورٍ كَثيرةٍ، من شَرِّ الذُّنوبِ وآفاتِها، وعَذابِ القَبْرِ، وغيْرِ ذلكَ ممَّا جاءَ في هذه الأحاديثِ، وهذه الأحاديثُ يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَكْتُبَها عنده ويُقَيِّدَها من هذا الكِتابِ، ويَذْكُرَ اللهَ تَعالى بها، ويَدْعُوَ بها حتَّى يَنْتَفِعَ، وأمَّا قِراءَتُها هكذا فهي حَسَنَةٌ ولا بَأْسَ بها، لكنْ خَيْرٌ من هذا أنْ تَكْتُبوها من هذا الكِتابِ وتَحْفَظُوها ولا تَذْهَبَ عن قُلوبِكُمْ، ثم تَدْعُوا اللهَ تَعالى بها. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٨١- **وَعَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: **أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهؤُلاءِ الكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ الغِنَى وَالفَقْرِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»؛ وهذا لَفْظُ أَبِي دَاوُدَ.**

١٤٨٢- **وَعَنْ زِيادِ بنِ عِلاقَةَ عَنْ عَمِّهِ، وَهُوَ قُطْبَةُ بنُ مالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ، والأَهْواءِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[2]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».**

١٤٨٣- **وَعَنْ شَكَلِ بنِ حُمَيْدٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي دُعاءً، قَالَ: «قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي». رَواهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[3]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».**

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٤٣)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٤٩٥).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب دعاء أم سلمة، رقم (٣٥٩١).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥١)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٤٩٢)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر السمع والبصر، رقم (٥٤٥٦).

١٤٨٤ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ البَرَصِ، والجُنُونِ، والجُذَامِ، وَسَيِّءِ الأَسْقَامِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1] بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

١٤٨٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وأعوذُ بِكَ منَ الخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ البِطَانَةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[2] بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

١٤٨٦ - وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ مُكَاتَبًا جاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي عَجِزْتُ عَنْ كِتَابَتِي فَأَعِنِّي، قَالَ: ألا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ؟ قُلِ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[3]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

الشَّرْح

هذه جُمْلَةُ أحاديثَ مِنَ الأَدْعِيةِ التي كان النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو بها، منها أَنَّهُ كان ﷺ يَعُوذُ باللهِ منْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلاقِ والأَعْمالِ والأَهْواءِ والأَدْواءِ (الأَمْراضِ) كما في رِوايةٍ أُخْرَى.

«سَيِّئَاتِ الأَعْمَالِ والأَخْلاقِ» سَيِّئَاتُ الأَعْمالِ هي المَعاصي، وسَيِّئاتُ الأَخْلاقِ هي سُوءُ المُعامَلةِ مع الخَلْقِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٢)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة، رقم (١٥٤٧)، والنسائي: كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الجوع، رقم (٥٤٦٨)، وابن ماجه: كتاب الأطعمة، باب التعوذ من الجوع، رقم (٣٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٥٣)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٣).

«والأهْواءِ»: الإنْسانُ له أهْواءٌ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يكونُ هواهُ تَبَعًا لِمَا جاءَ به الرَّسُولُ ﷺ، ومنهم مَنْ يَكُونُ هَواهُ تَبَعًا لنفسِهِ وما تَهْوَاهُ. «والأدْواءِ» فهي الأمْراضُ، فهذه أيضًا مما يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَسْتَعِيذَ باللهِ منها، فإذا أعاذَهُ اللهُ من ذلك حَصَلَ على خيْرٍ كثيرٍ.

ومنها أنَّهُ كان ﷺ يَسْتَعِيذُ من البَرَصِ والجُنُونِ والجُذامِ وسَيِّئِ الأسْقامِ، وهذه أيضًا من أمْراضِ البَدَنِ والعَقْلِ والعياذُ باللهِ.

الجُذامُ هو مَرَضٌ -والعياذُ باللهِ- يُصِيبُ الإنْسانَ في أطْرافِهِ أحيانًا فإذا بَدَأَ بالطَّرَفِ تآكَلَ حتَّى يَقْضِيَ على البَدَنِ كُلِّهِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ؛ ولهذا قال العلماءُ: إنَّهُ لا يَجُوزُ أنْ يُخالِطَ الجُذَماءُ النَّاسَ، وأنَّهُ يَجِبُ على وليِّ الأمْرِ أنْ يَجْعَلَهُمْ في مكانٍ خاصٍّ، وهو ما يُعْرَفُ عند النَّاسِ اليَوْمَ بالحَجْرِ الصِّحِّيِّ؛ لأنَّ هذا المَرَضَ والعياذُ باللهِ (الجُذامَ) من أشدِّ الأمْراضِ عَدْوَى، يَسْرِي سَيْرَ الهواءِ، نسألُ اللهَ العافِيَةَ.

«وَسَيِّئِ الأسْقَامِ» وهو جَمْعُ سَقَمٍ وهو المَرَضُ، ويَشْمَلُ هذا كُلَّ الأمْراضِ السَّيِّئةِ ومنها ما عُرِفَ في الوَقْتِ الحاضِرِ بالسَّرطانِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، فإنَّهُ منْ أسْوأِ الأسْقامِ. فمِثْلُ هذه الأحاديثِ يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَحْرِصَ عليها وأنْ يَقْتَدِيَ بالنَّبِيِّ ﷺ فيها.

ومن ذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يَسْتَعِيذُ باللهِ منَ الجُوعِ ويَقُولُ: «إنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ» ويَسْتَعِيذُ مِنَ «الخِيَانَةِ، فَإنَّهَا بِئْسَتِ البِطَانَةُ». فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يُقَيِّدَ هذه الأحاديثَ من هذا الكِتابِ في صَحائِفَ يَخْتَصُّ بها ويَحْفَظُهَا شيئًا فشيئًا، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٨٧ - وَعَنْ عِمْرَانَ بنِ الحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَ أَبَاهُ حُصَيْنًا كَلِمَتَيْنِ يَدْعُو بهما: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٤٨٨ - وَعَنْ أَبِي الفَضلِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ تَعَالَى، قَالَ: «سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ» فَمَكَثْتُ أَيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ تَعَالَى، قَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٢]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٤٨٩ - وَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوشَبٍ، قَالَ: قُلْتُ لأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قالتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعائِهِ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٣]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٤٩٠ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «كَانَ مِنْ دُعاءِ دَاوُدَ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وأَهْلِي، وَمِنَ الماءِ البارِدِ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٤]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٤٩١ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلِظُّوا بِيَاذَا

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٤٨٣).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٩)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٥١٤).
(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٥٢٢).
(٤) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٤٩٠).

الجَلَالِ والإكْرامِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وَرَواهُ النَّسَائِيُّ[٢] مِنْ رِوايَةِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ الصَّحابِيِّ، قَالَ الحاكِمُ[٣]: «حَدِيثٌ صَحِيحُ الإسْنادِ».

«أَلِظُّوا»: بكَسْرِ اللَّامِ وتَشْدِيدِ الظَّاءِ المُعْجَمةِ، معناهُ: الْزَمُوا هذِهِ الدَّعْوَةَ وأكْثِرُوا مِنْهَا.

١٤٩٢- وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعا رَسُولُ اللهِ ﷺ، بدُعاءٍ كَثِيرٍ، لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا؛ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعَوْتَ بِدُعاءٍ كَثِيرٍ لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ؟ تَقُول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ؛ وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وأنتَ المُسْتَعانُ، وَعَلَيْكَ البَلَاغُ، وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[٤]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٤٩٣- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ من دُعاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، والسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، والغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، والفَوْزَ بالجَنَّةِ، والنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ». رَواهُ الحاكِمُ أَبُو عبدِ اللهِ[٥]، وقال: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ».

الشَّرح

هذه أحاديثُ في بيانِ فَضْلِ الدُّعاءِ، الذي كان النَّبِيُّ ﷺ يَدْعو به ويَأْمُرُ به،

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٧)، والترمذي: أبواب الدعوات، باب منه، رقم (٣٥٢٥).
(٢) في السنن الكبرى (٧/ ١٤٨).
(٣) المستدرك (١/ ٦٧٦).
(٤) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب منه، رقم (٣٥٢١).
(٥) المستدرك (١/ ٧١٦).

فمنها حديثُ عِمْرانَ بنِ الحُصَيْنِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ألْهِمْنِي رُشْدِي، وأعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسي» وفي رِوايَةٍ: «وقِنِي شَرَّ نَفْسِي». و«أَلْهِمْنِي رُشْدِي» يعني اجْعَلْنِي مُوَفَّقًا للرُّشْدِ، والرُّشْدُ ضِدُّ الغَيِّ، والغَيُّ هو المَعاصِي والشَّرُّ والفَسادُ، والإنْسانُ إذا وُفِّقَ إلى الرُّشْدِ فإنَّهُ مُوَفَّقٌ، وهذا هو غايةُ المُؤْمِنِينَ الذين قال اللهُ عنهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات:٧]. فهذا هو الرُّشْدُ.

ومن ذلك أيضًا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سألَهُ العَبَّاسُ عن شيءٍ يَدْعُو اللهَ به، فقال: قلِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ» ثم جاءَهُ بعدَ أيَّامٍ فسألَهُ -أي سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ- فقال: قلِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ في الدُّنيَا والآخِرَةِ» والعافِيَةُ هي السَّلامةُ من كُلِّ شرٍّ، وإذا وَفَّقَكَ اللهُ لها وعافاكَ من كُلِّ شَرٍّ، منْ شرِّ الأبْدانِ والقُلوبِ والأهْوَاءِ وغيرها فأنت في خَيْرٍ.

ومن ذلك أيضًا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يُكْثِرُ هذا الدُّعاءَ: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ» وقدْ مرَّ بنا أنَّهُ ﷺ كان يَدْعُو بدُعاءٍ آخَرَ مُقارِبٍ له، وهو: «اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»[1] فإذا جَمَعْتَ بينهما وقُلْتَ: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ» كان هذا خَيْرًا.

ومن ذلك أيضًا هذا الدُّعاءُ الذي أُثِرَ عن دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالعَمَلَ الَّذِي يُقَرِّبُنِي إلى حُبِّكَ» هذا أيضًا من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الأدْعِيَةِ المُهِمَّةِ، إذا أَحَبَّكَ اللهُ وأَحْبَبْتَ مَنْ أَحَبَّهُ اللهُ، كُنْتَ من أَوْلِيائِهِ، وكذلكَ إذا أَحْبَبْتَ العَمَلَ الذي يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهذا أيضًا مِنَ الدُّعاءِ الذي يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَلْزَمَهُ دائمًا؛ فإنَّ حُبَّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو الغايةُ، كما قال تَعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

ومن ذلك أيضًا: «اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ العَزِيمةَ عَلى الرُّشْدِ، والسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إثْمٍ، والغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، والفَوْزَ بالجَنَّةِ، والنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ» إلى غيْرِ ذلك من الأحاديثِ التي ذكَرَهَا المُؤَلِّفُ، وقد سَبَقَ لنا أنْ ذَكَرْنا أنَّهُ يُفَضَّلُ أنْ تُكْتَبَ هذه الأحاديثُ وتُقْرَأَ؛ لأنَّ حِفْظَها في هذا الدَّرْسِ قد يَكُونُ صعبًا على الإنْسانِ، لكنْ إذا أخَذَها وحَفِظَها شيئًا فشيئًا، هانَ عليه، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٥١- بابُ فَضْلِ الدُّعاءِ بظَهْرِ الغَيْبِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]، وقال تَعَالَى إِخْبَارًا عَن إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١].

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بابُ فَضْلِ الدُّعاءِ بظَهْرِ الغَيْبِ**» -يعني الدُّعاءَ لأخِيكَ- بظَهْرِ الغَيْبِ -أيْ: في حالِ غَيْبَتِهِ- وذلك أنَّ الدُّعاءَ بظَهْرِ الغَيْبِ يَدُلُّ دلالةً واضِحَةً على صِدْقِ الإيمانِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1] فإذا دَعَوْتَ لأخيكَ بظَهْرِ الغَيْبِ بدونِ وصِيَّةٍ منه كان هذا دَلِيلًا على مَحَبَّتِكَ إيَّاهُ، وأنَّكَ تُحِبُّ له من الخَيْرِ ما تُحِبُّ لنفسِكَ.

ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ -بثلاثِ آياتٍ من كِتابِ اللهِ تعالى، الآيَةُ الأُولَى: قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]. وهَؤُلاءِ هُمُ الصِّنْفُ الثالِثُ من الأصْنافِ الثَّلاثةِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، رقم (٤٥)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر:٨]. فوصَفَهُمُ اللهُ بالهِجْرةِ والنُّصْرةِ.

الصِّنْفُ الثَّاني -قال اللهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩]. وهَؤُلاءِ هم الأنْصارُ، أنْصارُ المَدِينةِ.

والصِّنْفُ الثَّالِثُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠]. وهذه دَعْوَةٌ لإخْوانِهِمْ بظَهْرِ الغَيْبِ.

الآيةُ الثانيةُ: قولُهُ تَعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾. فأمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهِ، وأنْ يَسْتَغْفِرَ للمُؤْمِنِينَ والمُؤْمناتِ، وما أكْثَرَ الأحاديثَ التي فيها أنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لذَنْبِهِ، ونحنُ نعلمُ أنَّهُ يَسْتَغْفِرُ للمُؤْمِنِينَ أيضًا؛ لأنَّهُ أُمِرَ بذلك، ومعنى ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ يعني: اطْلُبِ المَغْفِرَةَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يَغْفِرَ ذَنْبَكَ، والمَغْفِرَةُ: سَتْرُ الذَّنْبِ والتَّجاوُزُ عنه؛ لأنَّ هذا هو الذي يَدُلُّ عليه الاشْتقاقُ، فإنَّهُ مُشْتَقٌّ من المِغْفَرِ: وهو وِقايةُ الرَّأْسِ بالبَيْضةِ المَعْرُوفةِ (الخَوْذةِ) تُوضَعُ على الرأسِ عند القِتالِ، فتَقِيهِ مِنَ السِّهامِ وتَسْتُرُهُ.

وأمَّا الآيةُ الثالثةُ: فقال اللهُ تَعالى إخبارًا عن إبْراهيمَ ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]. فقولُهُ: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا دُعاءٌ للمُؤْمِنِينَ بظَهْرِ الغَيْبِ.

إذنِ: الدُّعاءُ للمُؤْمِنِينَ بظَهْرِ الغَيْبِ من طُرُقِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومنْ سَبِيلِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومِنْ ذلك أَنَّنا نَدْعُو لإخْوانِنا في صلاتِنا بظَهْرِ الغَيْبِ، كُلُّنَا يقولُ: السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ، وهذا دُعاءٌ، وقدْ قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ»[1]، فأنت إذا قُلْتَ: «السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ»[2] هذا دُعاءٌ لإخْوَانِكَ بظَهْرِ الغَيْبِ.

١٤٩٤ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يدعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلَّا قَالَ المَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ». رَواهُ مُسْلِمٌ[3].

١٤٩٥ - وَعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يقولُ: «دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ». رَواهُ مُسْلِمٌ[4].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب: السلام اسم من أسماء الله تعالى، رقم (٦٢٣٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٣).

الشَّرح

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى حديثَ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظَيْهِ أنَّ الإنْسانَ إذا دعا لأخِيهِ بظَهْرِ الغَيْبِ قال المَلَكُ: آمينَ، ولك بِمِثْلٍ. يعني: لك بمِثْلِ ذلك، فالمَلَكُ يُؤَمِّنُ على دُعائِكَ إذا دَعَوْتَ لأخِيكَ بظَهْرِ الغَيْبِ ويقولُ: «وَلَكَ بِمِثْلٍ» وهذا يَدُلُّ على فضيلةِ هذا.

لكنْ هذا فيمَنْ لم يَطْلُبْ منك أنْ تَدْعُوَ له، أمَّا مَنْ طَلَبَ منك أنْ تَدْعُوَ له، فدَعَوْتَ له، فهذا كأنَّهُ شاهِدٌ، كأنَّهُ يَسْمَعُ كلامَكَ؛ لأنَّهُ هو الذي طَلَبَ منك، لكنْ إذا دَعَوْتَ له بظَهْرِ الغَيْبِ بدون أنْ يَطْلُبَ منك، فهذا هو الذي فيه الأجْرُ، وفيه الفَضْلُ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٥٢- بابٌ في مَسائِلَ منَ الدُّعاءِ

١٤٩٦- عَنْ أُسَامةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

الشَّرح

هذه مَسائِلُ مُخْتلِفةٌ من أنْواعِ الدُّعاءِ منها حديثُ أُسامةَ بنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيرًا، فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» إذا صَنَعَ إليك إنْسانٌ مَعْرُوفًا بمالٍ أو مُساعَدةٍ، أو عِلْمٍ أوْ جَاهٍ أو غيرِ ذلك، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أن تُكافِئَ صانِعَ المَعْرُوفِ فقال: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فكَافِئُوهُ»[2].

والمُكافأةُ تَكُونُ بحَسَبِ الحالِ، منَ النَّاسِ مَنْ تكونُ مُكافَأَتُهُ أنْ تُعْطِيَهُ مثلَ ما أعْطاكَ أو أكْثَرَ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ مُكافأتُهُ أنْ تَدْعُوَ له ولا يَرْضَى أنْ تُكافِئَهُ بمالٍ، فإنَّ الإنْسانَ الكبيرَ الذي عنده أمْوالٌ كَثيرةٌ، وله جاهٌ وشَرَفٌ في قومِهِ، إذا أَهْدَى إليك شَيْئًا، فأعْطَيْتَهُ مِثْلَ ما أَهْدَى إليكَ، رَأى في ذلك قُصورًا في حقِّهِ، لكنْ مِثْلُ هذا ادعُ اللهَ له «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الثناء بالمعروف، رقم (٢٠٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، رقم (١٦٧٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومنْ ذلك أنْ تَقُولَ له: «جَزَاكَ اللهُ خَيرًا» إذا أعطاكَ شيئًا، أو نَفَعَكَ بشيءٍ فقُلْ له: «جَزَاكَ اللهُ خَيرًا» فقدْ أَبْلَغْتَ في الثَّناءِ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تَعالى إذا جزاهُ خيرًا كانَ ذلك سعادةً له في الدُّنْيا والآخِرةِ.

١٤٩٧- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءً، فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرح

ساقَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى حديثَ جابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ» فإنَّهُ رُبَّما يُصادِفُ ساعةَ إجابةٍ فتُجابُ، فهذا يَقَعُ كثيرًا عند الغَضَبِ، إذا غَضِبَ الإنْسانُ رُبَّما يَدْعُو على نفسِهِ ورُبَّما يَدْعُو على ولدِهِ، ويَقُول مثلًا: قاتَلَكَ اللهُ، جَزاكَ اللهُ بسُوءٍ... وما أَشْبَهَ ذلك، حتَّى أنَّ بَعْضَهُمْ يَدْعُو على ولدِهِ باللَّعْنةِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، وكذلك نَجِدُ بعضَ النَّاسِ يَدْعُو على أهْلِهِ، على زَوْجَتِهِ، على أُخْتِهِ، بل رُبَّما دَعا على أُمِّهِ والعياذُ باللهِ مع الغَضَبِ، وكذلك أيضًا يَدْعُو على مالِهِ، يقولُ مثلًا على سَيارةٍ يَكْثُرُ عُطْلُهَا: اللهُ لا يُبارِكُ في هذه السَّيَّارةِ، هذه الدَّارِ، هذا الفَراشِ، وما أَشْبَهَ ذلك، كُلُّ ذلك نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أنْ نَدْعُوَ عليها؛ لأنَّهُ رُبَّما يُصادِفُ ساعةَ إجابةٍ فإذا صادَفَ ساعةَ إجابةٍ فإنَّهُ يُسْتَجابُ، لو قُلْتَ مَثلًا لوَلَدِكَ: تعالَ قاتَلَكَ اللهُ، لماذا فَعَلْتَ كذا وكذا،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، رقم (٣٠٠٩).

اللهُ لا يُوَفِّقُكَ، اللهُ لا يُرْبِحُكَ، اللهُ لا يُصْلِحُكَ، كُلُّ هذا حرامٌ لا يَجُوزُ؛ لأَنَّهُ رُبَّما تُصادِفُ ساعةَ إجابَةٍ.

كذلك المالُ: المالُ الذي يَتَعَسَّرُ عليك، السَّيَّارةُ، أو الشُّغْلُ في البيتِ، أو غيرُ ذلك لا تَدْعُ عليه، لا تَقُلِ: اللهُ لا يُبارِكُ في كذا. لكنْ قلِ: اللَّهُمَّ يَسِّرِ الأَمْرَ، اللَّهُمَّ سَهِّلْ؛ حتَّى يَحْصُلَ التَّسْهِيلُ والتَّيْسِيرُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٤٩٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرْح

ثم ساقَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى حديثَ أبي هُرَيْرَةَ ففيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ» الإنْسانُ إذا كان يَدْعُو اللهَ تَعالى، فإنَّهُ قَرِيبٌ منَ اللهِ، واللهُ تَعالى قريبٌ منه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]. وأقربُ ما يَكُونُ الإنْسانُ منْ رَبِّهِ إذا كان ساجدًا؛ وذلك لأنَّ في السُّجودِ كمالَ الخُضوعِ للهِ عَزَّوَجَلَّ لأَنَّكَ تَضَعُ أَشْرَفَ أعْضائِكَ وأعْلَى أعْضائِكَ في الأسْفَلِ، وفي موضِعِ الأقْدامِ؛ تَعْظِيمًا للرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ فاللهُ تَعالى يَقْرُبُ منك في هذا الحالِ وأنت تَقْرُبُ من رَبِّكَ، فأكْثِرْ منَ الدُّعاءِ في السُّجودِ سَواءً كُنْتَ ساجدًا في فريضةٍ أو نافلةٍ، وسواءً كان الدُّعاءُ في أُمورِ الدُّنْيا أو في أُمورِ الآخِرةِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يُقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢).

فكُلُّهُ خيْرٌ؛ لأنَّ الدُّعاءَ نفسَهُ عِبادةٌ، لو قُلْتَ: اللَّهُمَّ كَثِّرْ مالي، اللَّهُمَّ هَيِّئْ لي سَكَنًا جميلًا، اللَّهُمَّ هَيِّئْ لي سَيَّارةً مُريحةً، وما أَشْبَهَ ذلك فهذا لا بَأْسَ به، حتَّى ولو كان في الفريضةِ: وقد جاءَ في الحديثِ: «لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَتَّى شِراكَ نَعْلِهِ»[1] شِراكُ النَّعْلِ: شيءٌ زَهِيدٌ ولكنِ اسْأَلِ اللهَ كُلَّ شيءٍ؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ تَسْأَلُهُ اللهَ فهو عِبادةٌ له، ثم اعْلَمْ أَنَّكَ إذا سألْتَ اللهَ فإنَّكَ رابحٌ في كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهُ إمَّا أنْ يُعْطِيَكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما تَسْأَلُ، أو يَصْرِفَ عنك من السُّوءِ ما هو أَعْظَمُ، أو يَدَّخِرَ ذلك لكَ يَوْمَ القِيامةِ أجْرًا، فمَنْ دَعا اللهَ تَعالى فإنَّهُ لا يَخِيبُ، فأَكْثِرْ من دُعاءِ اللهِ، وأَكْثِرْ منِ استغفارِ اللهِ، والتَّوْبَةِ إليه، فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ يقولُ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[2] وهو الذي قدْ غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ يَسْتَغْفِرُ اللهَ، ويَتُوبُ إليه في اليومِ مائةَ مَرَّةٍ، ولا تَغْفُلْ عن هذا في اليومِ فهذا أمْرٌ يَسِيرٌ، يعني لو قُلْتَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وأَتُوبُ إليه، تَقُولُهَا مِائَةَ مَرَّةٍ خِلالَ عَشْرِ دقائِقَ أو أَقَلَّ، فالأمْرُ يَسِيرٌ وبِهِ تَحْصُلُ على خَيْرٍ وعلى الاقْتداءِ بالرَّسُولِ ﷺ. واللهُ المُوَفِّقُ.



١٤٩٩- وَعَنْهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ: يقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب، رقم (٣٦٠٤/ ٨)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل، رقم (٦٣٤٠)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم (٢٧٣٥).

وفي رِوايةٍ لِمُسْلِمٍ: «لَا يَزالُ يُسْتَجَابُ لِلعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بإثْمٍ، أَوْ قَطيعَةِ رحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ» قيل: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الاسْتِعْجالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أرَ يَسْتَجِيبُ لي، فَيَسْتحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[1].

الشَّرح

ساقَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى هذا الحديثَ في (بابٌ: مَسائِلُ منَ الدُّعاءِ) عنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ» يعني أنَّ الإنْسانَ حَرِيٌّ أنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ دُعاءَهُ إلَّا إذا عَجِلَ، ومعنى العَجَلَةِ فسَّرَها النَّبِيُّ ﷺ بأنَّ الإنْسانَ يقولُ: «دَعَوْتُ ودَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ مَنْ يَسْتَجِيبُ لِي» فحينئذٍ يَسْتَحْسِرُ ويَدَعُ الدُّعاءَ، وهذا مِنْ جَهْلِ الإنْسانِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَمْنَعُكَ ما دَعَوْتَهُ به إلَّا لِحِكْمةٍ أو لِوجودِ مانِعٍ يَمْنَعُ من إجابةِ الدُّعاءِ، ولكنْ إذا دَعَوْتَ اللهَ فادعُ اللهَ تَعالى وأنتَ مُغَلِّبٌ للرَّجاءِ على اليَأْسِ وأحْسِنِ الظَّنَّ باللهِ حتَّى يُحَقِّقَ لك ما تُرِيدُ.

ثم إنْ أعْطاكَ اللهُ ما سَأَلْتَ فهذا المَطْلُوبُ، وإنْ لم يُعْطِكَ ما سَأَلْتَ فإنَّهُ يَدْفَعُ عنك منَ البلاءِ أكْثَرَ، وأنت لا تَدْرِي، أو يَدَّخِرُ ذلك لك عنده يَوْمَ القِيامةِ، فلا تَيْأَسْ ولا تَسْتَحْسِرْ، بل ادعُ رَبَّكَ، ولا تُسِئِ الظَّنَّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّ اللهَ تَعالَى حكيمٌ، يقولُ اللهُ تَعالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦]، وما دام الدُّعاءُ عبادةً فلماذا لا تُكْثِرْ منه؟ نَسْأَلُ اللهَ أنْ يُوَفِّقَنَا وإيَّاكُمْ لِمَا يُحِبُّهُ ويَرْضَاهُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل، رقم (٢٧٣٥).

١٥٠٠- وَعَنْ أَبِي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قيلَ لِرسولِ اللهِ ﷺ: أيُّ الدُّعاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ، ودُبُرَ الصَّلَواتِ المَكْتُوباتِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٥٠١- وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاها، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[٢]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

وَرَواهُ الحاكِمُ مِنْ رِوايةِ أَبِي سَعِيدٍ وزادَ فِيهِ: «أَوْ يَدَّخِرَ لَهُ مِن الأَجْرِ مِثْلَهَا»[٣].

١٥٠٢- وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاواتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٤].

الشَّرح

هذه الأحاديثُ من بَقِيَّةِ الأحاديثِ التي جَمَعَهَا الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المقامِ، منها: الحديثُ الأوَّلُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ الدُّعاءِ أَسْمَعُ؟ يعني: أيُّ الدُّعاءِ

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد، رقم (٣٤٩٩).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٨)، من حديث أنس سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والترمذي: أبواب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، رقم (٣٥٧٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) المستدرك (١/ ٦٧٠).
(٤) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب، رقم (٦٣٤٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب دعاء الكرب، رقم (٢٧٣٠).

أَقْرَبُ إجابةً؟ فقال: «جَوْفَ اللَّيْلِ، وَدُبُرَ الصَّلَواتِ المَكْتُوباتِ» جَوْفَ الليلِ الآخِرِ يعني آخِرَ اللَّيْلِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تَعالى يَنْزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فيقولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فيَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَجْتَهِدَ بالدُّعاءِ في هذا الجُزْءِ مِنَ اللَّيْلِ، رجاءَ الإجابةِ.

الثَّانيةُ: أدبارَ الصَّلواتِ المَكْتوباتِ، وأدْبارَ الصَّلواتِ يعني أواخِرَهَا، وهذا قدْ أرْشَدَ إليه النَّبِيُّ ﷺ حين ذَكَرَ التَّشَهُّدَ، ثم قال بعد ذلك: «ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ مِنَ الدُّعاءِ ما يَشَاءُ»[1]، وليس المرادُ بأدبارِ الصَّلواتِ ما بعدَ السَّلامِ؛ لأنَّ ما بَعْدَ السَّلامِ في الصَّلواتِ ليس مَحَلَّ دُعاءٍ إنَّما هو مَحَلُّ ذِكْرٍ؛ لقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]. ولكنَّ المرادَ بأدبارِ الصَّلواتِ المَكْتُوبةِ أواخِرُ الصَّلواتِ المَكْتُوبةِ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ حديثَ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، أَوِ ادَّخَرَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَهَا» وقدْ سَبَقَ لنا بيانُ هذا وبَيَّنَّا أنَّهُ لا يَخِيبُ مَنْ سَأَلَ اللهَ. بلْ لا بُدَّ أنْ يَحْدُثَ له واحِدٌ من هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ إلَّا أنْ يَدْعُوَ بإثْمٍ، أيْ بِشَيْءٍ مُحَرَّمٍ فإنَّهُ لا يُستجابُ له؛ لأنَّ الدُّعاءَ بالإثْمِ ظُلْمٌ، وقدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

وأمَّا الحديثُ الأخيرُ -حديثُ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فهو في دُعاءِ الكَرْبِ، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ» فهذه الكلماتُ إذا قالَها الإنْسانُ عند الكَرْبِ كانت سَبَبًا لِتَفْرِيجِ كَرْبِهِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢).

٢٥٣- بابُ كَراماتِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، **وقال تَعَالَى:** ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ [مريم:٢٥-٢٦].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «**بابُ كراماتِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ**».

الكَرامةُ: هي كُلُّ أمْرٍ خارِقٍ للعادةِ، يُظْهِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على يدِ مُتَّبِعِي الرَّسُولِ ﷺ، إمَّا تَكْرِيمًا له، وإمَّا نُصْرَةً للحقِّ.

والكراماتُ ثابِتَةٌ بالكِتابِ، والسُّنَّةِ، والواقِعِ. ولكنْ من هُمُ الأوْلياءُ؟ الأوْلياءُ هم مَنْ بَيَّنَهُمُ اللهُ في قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]. هَؤُلاءِ هم الأوْلياءُ، جَمَعُوا بين الإيمانِ والتَّقْوى، وليس الذين يدَّعونَ أنهم أوْلياؤُهُ وهم من أعدائِهِ كما يُفْعَلُ في بعضِ البلادِ، يأْتِي الرَّجُلُ يدَّعِي أنَّهُ وَلِيٌّ، وهو عاصٍ فاسقٌ يدْعُو النَّاسَ إلى أن يَعْبُدوهُ ويُطِيعوهُ في كُلِّ شيءٍ، ويَدَّعي أنَّ اللهَ قدْ أحَلَّ له كُلَّ شيءٍ، حتَّى المُحرَّماتِ أحلَّهَا اللهُ له؛ لأنَّهُ بَلَغَ الغايةَ، هَؤُلاءِ ليسوا أولياءَ اللهِ، هَؤُلاءِ أعداءُ اللهِ، وليُّ اللهِ هو

الْمُؤْمِنُ التَّقِيُّ، كما في هذه الآيةِ الكريمةِ التي ساقَها المُؤَلِّفُ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وسوف يَذْكُرُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآياتِ والأحاديثَ الدَّالَّةَ على ذلك، والواقِعَ أيضًا.

والفَرْقُ بين الآيةِ -آيةِ النَّبِيِّ ﷺ- وكرامةِ الوَلِيِّ وشَعْوَذةِ المُشَعْوِذِ، أنَّ آيةَ النَّبِيِّ ﷺ أمْرٌ خارِقٌ للعادةِ يُظْهِرُهُ اللهُ تَعالى على يدِ النَّبِيِّ ﷺ تَأْيِيدًا له وتَصْدِيقًا له، مثلُ إحياءِ عِيسَى للمَوْتَى، حيثُ كان عِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحْيِي المَوْتَى، بل ويُخْرِجُهُمْ من القُبُورِ بعد الدَّفْنِ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]. فيَقِفُ على القَبْرِ ويدْعُو صاحِبَهُ فيَخْرُجُ من قَبْرِهِ حَيًّا، ويُبْرِئُ الأكْمَهَ، والأبْرَصَ، ويَخْلُقُ من الطِّينِ على صُورةِ الطَّيْرِ، يعني يَصْنَعُ شيئًا كصُورةِ الطَّيْرِ، ثم يَنْفُخُ فيه فيكونُ طائرًا بإذنِ اللهِ، يَطِيرُ من بين يَدَيْهِ، كان بالأوَّلِ طِينًا فإذا نَفَخَ فيه طارَ، هذا أيضًا من آياتِ اللهِ. فآياتُ الأنْبياءِ هي أُمورٌ خارقةٌ للعادةِ، يُظْهِرُها اللهُ تَعالى على أيْدِيهِمْ؛ تَأْيِيدًا لهم.

أمَّا كراماتُ الأوْلياءِ فهي أُمورٌ خارقةٌ للعادةِ، ولكنَّها لا تكونُ للأنْبياءِ بل تكونُ لِمُتَّبِعي الأنْبياءِ، من ذلك مثلًا ما جَرَى لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٣-٢٥]. هذه من آياتِ اللهِ؛ كرامةً لِمَرْيَمَ، امْرأةٌ في المخاضِ تحت نَخْلَةٍ تَهُزُّ الجِذْعَ، وهَزُّ الجِذْعِ ليس بالهَيِّنِ، هَزُّ رَأْسِ النَّخْلَةِ مُمْكِنٌ، لكنْ هَزُّ الجِذْعِ صَعْبٌ، تَهُزُّ الجِذْعَ ثم يَتَساقَطُ الرُّطَبُ من النَّخْلةِ جَنِيًّا؛ يعني لا يَفْسُدُ إذا نَزَلَ إلى الأرْضِ كأنَّهُ مَحْرُوفٌ خرفًا، فهذه آيةٌ من آياتِ اللهِ، وكذلك ما حَصَلَ لها من الحَمْلِ والوِلادةِ،

كُلُّهُ من آياتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كَرامةً لها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

أمَّا الثالِثُ: الذي يُظْهِرُهُ اللهُ على يدِ المُشَعْوِذِينَ الذين يَسْتَخْدِمونَ الجِنَّ، يُظْهِرُهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ على أيْديهِمْ فِتْنَةً لهم وفِتْنَةً بهم، فإنَّهُ يُوجَدُ منَ النَّاسِ مَنْ يَأْتِي بأشياءَ خارقةٍ للعادةِ ولكنَّهُ ليس وليًّا، ومعلومٌ أيضًا أنَّهُ ليس بِنَبِيٍّ؛ لأنَّهُ لا نَبِيَّ بعدَ مُحَمَّدٍ ﷺ إذنْ فهي مِنَ الشَّياطِينِ.

الأمْرُ الرَّابعُ: ما يكونُ خارقًا للعادةِ، يُظْهِرُهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على يدِ الكاذبِ؛ تَكْذِيبًا له، مثلُ ما يُذْكَرُ عن مُسَيْلِمَةَ الكذَّابِ، وهو رَجُلٌ ادَّعَى النُّبُوَّةَ في آخِرِ حياةِ النَّبِيِّ ﷺ وقال: إنَّهُ نَبِيٌّ وتَبِعَهُ مَنْ تَبِعَهُ مِنَ النَّاسِ، وفي يومٍ منَ الأيَّامِ أتاهُ قَوْمٌ أهْلُ حَرْثٍ يَشْكُونَ إليه أنَّ بِئْرَهُمْ قدْ غارَ ماؤُها ولم يَبْقَ فيه إلَّا القليلُ، وطلَبُوا منه أنْ يَأْتِيَ إلى البِئْرِ ويَمُجَّ فيه مِنْ رِيقِهِ لَعَلَّهُ يعودُ الماءُ، فذَهَبَ فأَعْطَوْهُ ماءً تَمَضْمَضَ به ثم مَجَّهُ في البِئْرِ، وكان في البِئْرِ شيءٌ من الماءِ، ولمَّا مَجَّهُ في البِئْرِ غارَ الماءُ كُلُّهُ ولم يَبْقَ شيءٌ، فهذا ولا شكَّ أنَّهُ آيةٌ خارِقةٌ للعادةِ، ولكنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَهُ إهانةً لذلك الرَّجُلِ الكذَّابِ وإظهارًا لِكَذِبِهِ.

فهذه أربعةُ أشياءَ: آيةُ النَّبِيِّ، وكَرامةُ الوَلِيِّ، وشَعْوَذَةُ المُشَعْوِذِ، وإهانةُ الكذَّابِ المُفْتَرِي، كلُّها أُمُورٌ خارقةٌ للعادةِ، لكنْ تَخْتَلِفُ بحسبِ مَنْ أظْهَرَهَا اللهُ على يَدَيْهِ، ويأْتِي -إنْ شاءَ اللهُ- الكلامُ على الآياتِ التي ذكَرَها المُؤَلِّفُ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى في بابِ كَراماتِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]. وتَقَدَّمَ الكلامُ على أوَّلِهَا وأنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ أنَّ أولياءَهُ هم المُؤْمِنُونَ المُتَّقُونَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

وقدْ أخَذَ شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ من هذه الآيةِ عبارةً قال فيها: «مَنْ كان مُؤْمِنًا تَقِيًّا كان لله وَلِيًّا»[1]. فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: إنَّ هَؤُلاءِ الأوْلياءَ ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. لا خَوْفٌ عليهم فيما يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِهِمْ، ولا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما مَضَى من أَمْرِهِمْ؛ لأنَّهُم أدْرَكُوا معْنَى الحياةِ الدُّنْيا فعَمِلُوا عَمَلًا صالحًا وآمَنُوا باللهِ واتَّقَوْهُ فصارُوا من أوليائِهِ، ثم قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾. البُشْرَى تعني البِشارةَ في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرةِ.

والبِشارةُ في الحياةِ الدُّنْيا أنْواعٌ:

فمنها: الرُّؤْيا الصالِحَةُ يَراهَا المُؤْمِنُ أو تُرى له؛ يعْنِي يَرى في المنامِ ما يَسُرُّهُ، أو يَرَى له أحدٌ منْ أهْلِ الصَّلاحِ ما يَسُرُّهُ، مثلُ أنْ يَرَى أنَّهُ يُبَشَّرُ بالجَنَّةِ، أو يَرَى أحَدٌ منَ النَّاسِ أنَّهُ من أهْلِ الجَنَّةِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، أو يُرى على هيئةٍ صالِحةٍ، المُهِمُّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في الرُّؤْيا الصالِحَةِ يَراها أو تُرى له: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤)، والفتاوى الكبرى (١/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنها: أنَّ الإنْسانَ يُسَرُّ بالطاعةِ، ويَفْرَحُ بها وتكونُ قُرَّةَ عَيْنِهِ، فإنَّ هذا يَدُلُّ على أنَّهُ منْ أوْلياءِ اللهِ. قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ»[1] فإذا رَأَيْتَ من نَفْسِكَ أنَّ صَدْرَكَ يَنْشَرِحُ بالطَّاعةِ، وأنَّهُ يَضِيقُ بالمَعْصِيةِ فهذه بُشْرَى لك، أنَّكَ من عِبادِ اللهِ المُؤْمِنِينَ ومنْ أوليائِهِ المُتَّقِينَ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ»[2].

ومِنْ ذلك أيضًا أنَّ أهلَ الخَيْرِ يُثْنُونَ عليه ويُحِبُّونَهُ ويَذْكُرونَهُ بالخَيْرِ، فإذا رَأَيْتَ أنَّ أهْلَ الخيرِ يُحِبُّونكَ ويُثْنُونَ عليك بالخَيْرِ، فهذه بُشْرَى للإنْسانِ أنَّهُ يُثْنَى عليه من أهْلِ الخَيْرِ، ولا عِبْرَةَ بثناءِ أهْلِ الشَّرِّ ولا قَدْحِهِمْ؛ لأنَّهُم لا مِيزانَ لهم ولا تُقْبَلُ شَهادَتُهُمْ عندَ اللهِ، لكنْ أهلُ الخيْرِ إذا رَأَيْتَ أنَّهُم يُثْنُونَ عليك وأنَّهُم يَذْكُرونَكَ بالخيْرِ ويُقَرِّبُونَ منك ويَتَّجِهُونَ إليك، فاعْلَمْ أنَّ هذه بُشْرَى منَ اللهِ لك.

ومِنَ البُشْرَى في الحياةِ الدُّنْيا: ما يُبَشَّرُ به العَبْدُ عند فراقِ الدُّنْيا، حيثُ تَتَنَزَّلُ عليه الملائكةُ ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣٠-٣٢].

ومِنَ البِشارةِ أيضًا: أنَّ الإنْسان يُبَشَّرُ عند مَوْتِهِ بِشارةً أُخْرَى، فيقالُ لنفسِهِ: اخْرُجِي أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ التي كانت في الجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي إلى رَحْمةٍ منَ اللهِ ورِضْوانٍ، فتَفْرَحُ وتُسَرُّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٥)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٤٠).

ومن ذلك أيضًا: البِشارةُ في القَبْرِ، فإنَّ الإنْسانَ إذا سُئِلَ عن ربِّهِ ودِينِهِ ونَبِيِّهِ وأجابَ بالحقِّ، نادَى مُنادٍ منَ السَّماءِ: أنْ صدَقَ عَبْدِي، فأَفْرِشُوهُ منَ الجَنَّةِ، وأَلْبِسُوهُ منَ الجَنَّةِ، وافْتَحُوا له بابًا إلى الجَنَّةِ.

ومنها أيضًا: البِشارةُ يومَ الحَشْرِ، تَتَلَقَّاهُمُ الملائكةُ ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]. و﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

فالحاصلُ: أنَّ أولياءَ اللهِ لهم البُشْرى في الحياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرةِ، نسألُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكُمْ منهم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٤]. يعني لا أَحَدَ يُبَدِّلُ كلماتِ اللهِ تَعالى: أمَّا الكَوْنِيَّةُ فلا يَسْتَطِيعُ أحدٌ أنْ يُبَدِّلَهَا، وأمَّا الشَّرْعِيَّةُ فقدْ يُحَرِّفُهَا أهْلُ الباطِلِ، كما فَعَلَ اليَهُودُ والنَّصارى في كُتُبِهِمْ، فقد حَرَّفوها وبَدَّلوها وغَيَّروها، وأمَّا الكلماتُ الكَوْنِيَّةُ فلا أحَدَ يُبَدِّلُهَا: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. واللهُ المُوَفِّقُ.



وقال تَعالَى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]، **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:١٦-١٧].

الشَّرح

تَقَدَّمَ لنا الكلامُ على كراماتِ الأَوْلياءِ، وأنها -أي الكراماتُ- كُلُّ أمْرٍ خارِقٍ للعادةِ يُظْهِرُهُ اللهُ تَعالى على يدِ الوَلِيِّ؛ تَكْرِيمًا له أو نُصْرةً لِدينِ اللهِ، وذكَرْنا أنَّ هناك آياتٍ، وهُناك كَرامةُ الوَلِيِّ، وهناك شعوذةٌ، وهناك إهاناتٍ، أرْبَعةُ أشياءَ كُلُّها تَخْرُجُ عنِ العادةِ وبَيَّناها فيما سَبَقَ.

واعْلَمْ أنَّ كُلَّ كَرامةٍ لوَلِيٍّ فهي آيةٌ للنَّبِيِّ الذي اتَّبَعَهُ هذا الوَلِيُّ؛ لأنَّ هذا الوَلِيَّ الذي اتَّبَعَ هذا النَّبِيَّ إذا أُكْرِمَ بكرامةٍ فهي شهادةٌ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على صِحَّةِ طَريقتِهِ، وعلى صِحَّةِ الشَّرْعِ الذي اتَّبَعَهُ؛ ولهذا نقولُ: كُلُّ كَرامةٍ لِوَلِيٍّ فهي آيةٌ للنَّبِيِّ الذي اتَّبَعَهُ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ آياتٍ فيها كراماتٌ، منها: قال تَعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]. مَرْيَمُ ابنةُ عِمْرانَ نَذَرَتْها أُمُّها: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٧]. فزَكَرِيَّا إذا دَخَلَ على مَرْيَمَ المِحْرابَ -أيْ مكانَ صلاتِها- وجَدَ عندها رِزْقًا أي وجَدَ عندها طَعامًا لم تَجْرِ العادةُ بوجودِهِ فيقولُ: أنَّى لكِ هذا؟ مَنْ جاءَ به؟ قالت: هو مِن عند اللهِ، لم تَقُلْ: جاءَ به فُلانٌ أو فُلانٌ، بل هو مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ واللهُ تَعالى

على كُلِّ شيءٍ قديرٌ. يَأْتِي بهذا الرِّزْقِ من عندِهِ، لا مِنْ سَعْيِ بَشَرٍ، ولكنَّهُ مِن عندِ اللهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعندئِذٍ دعا زَكَرِيَّا ربَّهُ وكان قد بَلَغَهُ الكِبَرُ ولم يَأْتِهِ أولادٌ، فقال: إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، واسْتَدَلَّ بقُدْرةِ اللهِ الذي جاءَ بهذا الرِّزْقِ إلى مَرْيَمَ بدونِ سَبَبٍ بَشَرِيٍّ، فاسْتَدَلَّ بذلك على كمالِ قُدْرةِ اللهِ، فدَعا ربَّهُ أنْ يَرْزُقَهُ ولدًا فجاءَهُ الولدُ. وفيه أيضًا كراماتٌ لذلك، فمَرْيَمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لها كراماتٌ منها هذه المسْألةُ، رِزْقُها يَأْتِي من عندِ اللهِ لا يُشْتَرَى منَ السُّوقِ ولا يَأْتِي به فُلانٌ أو فُلانٌ، بل مِنْ عندِ اللهِ.

ومِنَ الكراماتِ أيضًا: ما وَقَعَ لأصْحابِ الكَهْفِ، والكَهْفُ: هو غارٌ فَسيحٌ في الجَبَلِ، وكان هَؤُلاءِ القَوْمُ سَبْعةَ رِجالٍ، رأَوْا ما عليه أهلُ بَلْدَتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ والكُفْرِ ولم يَرْضَوْا بذلك، فاعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ وهاجَرُوا مِنْ بَلدِهِمْ؛ لأنَّها بَلَدُ شِرْكٍ وكُفْرٍ فاعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ ولَجَأُوا إلى غارٍ، كما قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف:١٣-١٦]. يَعْني لَمَّا اعْتَزَلوهُم وشِرْكَهُمْ أُمِرُوا أنْ يَأْوُوا إلى الكَهْفِ ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف:١٦]. ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ اذْهَبُوا إلى الكَهْفِ، وهذا الكَهْفُ كما قُلْنا: هو غارٌ في الجَبَلِ، ذَهَبُوا إليه، وهذا الغارُ وجْهُهُ إلى الشِّمالِ الشَّرْقِيِّ بحيثُ لا تَدْخُلُ الشَّمْسُ عليه لا أوَّلَ النَّهارِ ولا آخِرَهُ، يسَّرَهُ اللهُ لهم؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يقولُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وهَؤُلاءِ خَرَجُوا يُريدونَ وجْهَ اللهِ، فيَسَّرَ اللهُ أَمْرَهُمْ، أَوَوْا إلى الكَهْفِ وألْقَى اللهُ عليهم النَّوْمَ، قال اللهُ تَعالى مُوضِّحًا هذا: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]. يعني لا تَدْخُلُ عليهم الشَّمْسُ دُخولًا كامِلًا فيُصِيبُهُمُ الحَرُّ لكنْ تَقْرِضُهُمْ، شَيْءٌ يَسِيرٌ يَأْتِيهِمْ مِنَ الشَّمْسِ لكيْ لا يَتَبَخَّرَ الغارُ فيَفْسَدَ، يَدْخُلُ عليه مِنَ الشَّمْسِ بقَدْرِ الحاجةِ فقط ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:١٧]. أيْ: في مكانٍ مُتَّسِعٍ كما جاءَ في الحديثِ: «فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةً...»[1] أي: شَيْئًا مُتَّسِعًا، هم في مكانٍ مُتَّسِعٍ مِنَ الغارِ، ذلك منْ آياتِ اللهِ أنْ يَسَّرَ اللهُ لهم هذا المكانَ، لَمَّا دَخَلُوا في هذا المكانِ آمِنِينَ مُتَوَكِّلِينَ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ مُفَوِّضِينَ أَمْرَهُمْ إليه، ألْقَى اللهُ عليهم النَّوْمَ فناموا، كم ناموا؟ يومًا... يومَيْنِ... ثلاثةً؟ لا، ناموا ثَلاثَمائةِ سَنَةٍ وتِسْعَ سِنِينَ وهم نائمونَ لا يَسْتَيْقِظُونَ من حَرٍّ، ولا بَرْدٍ، ولا جُوعٍ، ولا عَطَشٍ، هذا مِنْ كراماتِ اللهِ هل يَبْقَى الواحِدُ منَّا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ نائمًا لا يَجُوعُ ولا يَعْطَشُ، ولا يَحْتَرُّ، ولا يَبْرُدُ؟ لا؛ أمَّا هَؤُلاءِ فقد بَقُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَمائةِ سَنَةٍ وتِسْعَ سِنِينَ ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ [الكهف:٢٥].

ويَقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٨]. اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الذي يُقَلِّبُهُمْ، لماذا لم يَقُلْ: يَتَقَلَّبُونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ، بلْ قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾؟ لأنَّ النائِمَ لا فِعْلَ له، مَرْفُوعٌ عنه القَلَمُ، حتَّى لو فَعَلَ ليس مِنْ فِعْلِهِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨] عند البابِ يَحْرُسُهُمْ بإذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وإنَّما قَلَّبَهُمُ اللهُ تَعالى؛ لأنَّهُم لو بَقُوا هذه المُدَّةَ الطَّوِيلَةَ على جَنْبٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السير إذا دفع من عرفة، رقم (١٦٦٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة واستحباب صلاتي المغرب والعشاء جميعًا بالمزدلفة في هذه الليلة، رقم (١٢٨٦)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واحِدٍ لفَسَدَ الدَّمُ ولم يَتَحَرَّكْ، لكنْ يُقَلِّبُونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ، إذا رَآهُمُ الإنْسانُ حَسِبَهُمْ أيْقاظًا يعني ليس على وُجُوهِهِمْ وجْهُ النَّائِمِ، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نائِمونَ، وألْقَى اللهُ عليهم المَهابَةَ العَظِيمَةَ ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:١٨]. لوَلَّيْتَ منهم فِرارًا بِبَدَنِكَ ولَمُلِئْتَ منهم رُعْبًا بقَلْبِكَ، القَلْبُ يَفْزَعُ والبَدَنُ يَهْرَبُ؛ لئلَّا يَحُومَ أحدٌ حوْلَهُمْ فيُوقِظَهُمْ، ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أكْرَمَهُمْ بهذا، وكراماتُ أصحابِ الكَهْفِ كَثِيرَةٌ نَقْتَصِرُ منها على هذا، نسألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكُمْ من أوْلِيائِهِ المُكْرَمِينَ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.



قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف:١٦-١٧].

الشَّرح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى في بابِ كراماتِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ عِدَّةَ آياتٍ تَشْتَمِلُ على كراماتِ الأوْلياءِ، ومنها قِصَّةُ أصْحابِ الكَهْفِ، وكانوا فِتْيَةً آمَنُوا باللهِ واعْتَزَلُوا قَوْمَهُمْ، وخَرَجُوا من بَلَدِهِمْ فهَيَّأَ اللهُ لهم كَهْفًا، يعني غارًا واسعًا في الجَبَلِ، فدَخَلُوا فيه فألْقَى اللهُ عليهم النَّوْمَ، فنامُوا ثَلاثَمائةٍ وتِسْعَ سِنِينَ، لم يَحْتاجُوا إلى أكْلٍ ولا شُرْبٍ ولم تَتَأَثَّرْ أبْدانُهُمْ، وكان اللهُ تَعالى يُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ، وهذه مِنْ كراماتِ اللهِ لهم، أنَّ اللهَ تَعالى هَيَّأَ لهم مَقَرًّا آمِنًا، حتَّى أنَّ اللهَ

تَعالى يقولُ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف:١٨]. لا أَحَدَ يَحُومُ حَوْلَهُمْ.

ومِنْ كراماتِ اللهِ لهم: أنَّهُم بَقُوا هـذه المُدَّةَ الطَّوِيلَةَ ولم يَتَغَـيَّرْ منـهم ظُفْرٌ ولا شَعَرٌ ولا غَيْرُهُ، مع أنَّ العادةَ أنَّ الشُّعورَ تَطُولُ، والأظْفارَ تَطُولُ، لكنْ هَؤُلاءِ لم تَطُلْ شُعُورُهُمْ ولا أظْفارُهُمْ وكأنَّهُم نامُوا بالأمْسِ.

ولهذا قال اللهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩]. وإنَّما قالوا ذلك لأنَّهُم لم يَتَغَيَّرْ منهم شيءٌ، وأمَّا ما ذَكَرَ بعضُ النَّاسِ أنَّهُم طالتْ أظْفارُهُمْ وشُعورُهُمْ فهذا خطأٌ؛ لأنَّهُ لو كان كذلك لَعَرفُوا أنَّهُم بَقُوا مُدَّةً طويلةً ولكنَّهم لم يَتَغَيَّرُوا.

ومنْ كراماتِ اللهِ لهم: أنَّ اللهَ أبْقاهُمْ على هذه النَّوْمةِ حتَّى أبْدَلَ اللهُ تَعالى مَلِكَهُمُ الظالِمَ بمَلِكٍ صالحٍ، ولمَّا اسْتَيْقَظُوا بَعَثُوا واحدًا منهم إلى البلدةِ لِيَأْتِيَ بطعامٍ لهم، وكان معهم نُقودٌ قديمةٌ مِنَ النُّقودِ التي مرَّ عليها ثلاثُمائةٍ وتِسْعُ سِنِينَ فلمَّا جاءُوا يشترونَ من البَلْدةِ ودَفَعُوا النُّقُودَ تَعَجَّبَ أهْلُ البَلْدةِ، من أين هذه النُّقودُ؟! حتَّى أطْلَعَ اللهُ النَّاسَ عليهم، فهذا من كراماتِ اللهِ لهم.

ويَحْسُنُ أنْ تُجْمَعَ هذه الآياتُ وغيْرُها وتُتَأَمَّلَ ويُسْتَخْرَجَ ما فيها من الكراماتِ الدَّالَّةِ على قُدْرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وعلى أنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أكْرَمُ من خلْقِهِ، إذا تَعَبَّدَ الإنْسانُ له بما يُرْضِي اللهَ، أعْطاهُ اللهُ تَعالى ما يَرْضَى. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٠٣- وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ مَرَّةً: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ، فَلْيَذْهَبْ بثَالِثٍ، وَمنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ، فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ بِسَادِسٍ» أَوْ كما قَالَ، وأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وانْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَشَرَةٍ، وأَنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ، فجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللهُ. قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ؟ قَالَ: أَوَمَا عَشَّيْتِهِمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَذَهَبتُ أَنَا فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ، وقَالَ: كُلُوا لَا هَنِيئًا[1] وَاللهِ لا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: وايْمُ اللهِ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبَا مِن أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنهَا حَتَّى شَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةِ عَيْنِي لَهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ! فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ، يَعني: يَمِينَهُ. ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ. وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَمَضَى الأَجَلُ، فَتَفَرَّقْنَا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُنَاسٌ، اللهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ[2].

---

(١) قال فضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى في التعليق على صحيح البخاري(٢/ ٦٨٨-٦٨٩): (أي: أنني لا أهنأ بذلك، هذا هو الظاهر، وليس مراده أن يدعو عليهم بعدم الهناء؛ لأن الدعاء على أضيافه بعدم الهناء لهم مخالف لإكرام الضيف، لكن كأنه قال: لا هنيئًا بالنسبة لي؛ لأنكم تأخرتم، ولم تأكلوا، ويحتمل أنه قال ذلك بالنسبة إليهم؛ لأنه عُرِضَ عليهم الطعام، ولكنهم أبوا، فيكون هذا من جملة الكلام الذي يقوله الإنسان في حال الغضب دون قصدٍ لمعناه).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب السمر مع الضيف والأهل، رقم (٦٠٢)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم (٢٠٥٧).

وَفِي رِوَايَةٍ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لا يَطْعَمُهُ، فَحَلَفَتِ المَرْأَةُ لا تَطْعَمُهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ -أَوِ الأَضْيَافُ- أَنْ لَا يَطْعَمَهُ أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ! فَدَعَا بالطَّعَامِ فَأَكَلَ وأَكَلُوا، فَجَعَلُوا لا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إِلَّا رَبَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتَ بَنِي فِرَاسٍ، مَا هَذَا؟ فَقَالَتْ: وَقُرَّةِ عَيْنِي إِنَّهَا الآنَ لَأَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ، فَأَكَلُوا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمنِ: دُونَكَ أَضْيَافَكَ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَافْرُغْ مِنْ قِرَاهُمْ قَبْلَ أَنْ أَجِيءَ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمنِ، فَأَتَاهُمْ بِمَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: اطْعَمُوا؛ فَقَالُوا: أَيْنَ رَبُّ مَنْزِلِنَا؟ قَالَ: اطْعَمُوا، قَالُوا: مَا نَحْنُ بِآكِلِينَ حَتَّى يَجِيءَ رَبُّ مَنْزِلِنَا، قَالَ: اقْبَلُوا عَنَّا قِرَاكُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا لَنَلْقَيَنَّ مِنْهُ، فَأَبَوْا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَجِدُ عَلَيَّ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ، فَسَكَتُّ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمنِ، فَسَكَتُّ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَوْتِي لَمَا جِئْتَ! فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ: سَلْ أَضْيَافَكَ، فَقَالُوا: صَدَقَ، أَتَانَا بِهِ، فَقَالَ: إِنَّمَا انْتَظَرْتُمُونِي واللهِ لَا أَطْعَمُهُ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ الآخَرُونَ: واللهِ لَا نَطْعَمُهُ حَتَّى تَطْعَمَهُ، فَقَالَ: وَيْلَكُمْ مَا لَكُمْ لا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَاكُمْ؟ هَاتِ طَعَامَكَ، فَجَاءَ بِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، الأُولَى مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الضيف لصاحبه لا آكل حتى تأكل، رقم (٦١٤١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يُكره من الغضب والجزع عند الضيف، رقم (٦١٤٠) ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره، رقم (٢٠٥٧).

قَوْله: «غُنْثَرٌ» بغَيْنٍ مُعْجَمةٍ مَضمُومَةٍ ثُمَّ نُونٍ ساكِنَةٍ ثُمَّ ثاءٍ مُثَلَّثةٍ وَهُوَ: الغَبِيُّ الجَاهِلُ. وقولُهُ: «فَجَدَّعَ» أَيْ: شَتَمَهُ، والجَدْعُ: القَطْعُ. قولُه: «يَجِدُ عَلَيَّ» هُوَ بكَسْرِ الجِيمِ، أيْ: يَغْضَبُ.

الشَّرح

هذه القِصَّةُ في بابِ كراماتِ الأَوْلياءِ التي رَواها عَبْدِ الرَّحمن بْنِ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عمَّا حَصَلَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وذلك أنَّ قوْمًا من المُهاجِرِينَ، كانوا يَأْتُونَ إلى المدينةِ وهم فُقراءُ، ليس عليهم إلَّا ثِيابُهُمْ، وليس عندَهُم شيءٌ، وكان في المسجِدِ صُفَّةٌ يَأْوُونَ إليها، ثم يُيَسِّرُ اللهُ لهم مَنْ يَأْتِي إليهم ويَحْمِلُهُمْ معه إلى بَيْتِهِ ويُطْعِمُهُمْ، وفي ذات ليلةٍ قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ، فَلْيَذْهَبْ بثَالِثٍ، وَمنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ، فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ» وهكذا، أيْ: أمَرَ أصْحابَهُ أنْ يَحْمِلُوا معهم أصحابَ الصُّفَّةِ لِيُطْعِمُوهُمْ، وكان النَّبِيُّ ﷺ أكْرَمَ النَّاسِ، ذَهَبَ بعَشَرَةٍ ﷺ، وَذَهَبَ أبو بَكْرٍ بأرْبَعةٍ، وذَهَبَ النَّاسُ بعضُهُمْ بثَلاثةٍ، وبعَضْهُم بأرْبَعةٍ، حَسَبَ حالِهِم.

أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ بأضْيافِهِ إلى بَيْتِهِ وأوْصَى ابْنَهُ عبدَ الرَّحْمَنِ أنْ يَقُومَ بضِيافَتِهِمْ، وانْطَلَقَ هو إلى النَّبِيِّ ﷺ؛ لأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان أَشَدَّ النَّاسِ مُلازَمةً للرَّسولِ ﷺ، يكونُ معهُ دائِمًا، فذَهَبَ إلى النَّبِيِّ ﷺ وتَعَشَّى عنده، ثم رَجَعَ إلى أهْلِهِ وقد مَضَى شيءٌ منَ اللَّيْلِ، فسألَهُمْ: أطْعَمْتُمْ أضْيافَكُمْ؟ فقالوا: لا، فظَنَّ أنَّهُم هم الذين تَأَخَّرُوا عن أضْيافِهِمْ حتَّى يَأْتِيَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجَعَلَ يَسُبُّ ويُجَدِّعُ، يعني معناهُ أنَّهُ اشْتَدَّ في سَبِّهِ، ونادى ابْنَهُ عبْدَ الرَّحْمَنِ، يا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فلم يُجِبْهُ؛ خَوْفًا منه؛ لأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان شَدِيدًا على أهْلِهِ في تَأْدِيبِهِمْ، فلم يُجِبْهُ خَوْفًا من أنْ يَتكَلَّمَ عليه،

أو ما أَشْبَهَ ذلك، حتَّى أقْسَمَ عليه أَنَّهُ إذا كان يَسْمَعُهُ فلْيُجِبْهُ، فأَجابَهُ، فقال لهم: لماذا أَخَّرْتُمْ ضِيافةَ القَوْمِ؟

قالوا: اسألْ أضْيافَكَ، فسألَهُمْ، قالوا: نعم، هم عَرَضوا علينا الضِّيافةَ، ولكِنَّنا أَبَيْنَا حتَّى تَأْتِيَ، فأقْسَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ لا يَأْكُلَ، قال: واللهِ ما آكُلُ، يعني أَنَّكُم تَأَخَّرْتُمْ من أَجْلِي إذَنْ أنا لا آكُلُ، فأقْسَمَ أنْ لا يَأْكُلَ، فأقْسَمَ الأضْيافُ أنْ لا يَأْكُلُوا؛ إكْرامًا له، فصار عندنا الآن قَسَمانِ، قَسَمُ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنْ لا يَأْكُلَ، وقَسَمُ الأضْيافِ أنْ لا يأْكُلوا، فأيُّهُم أوْلَى؟ أنْ نَبرَّ بقَسَمِ أبي بَكْرٍ وَلا يَأْكُل، وَيَأْكُل الأضْيافُ؟ أمْ بِقَسَمِ الأضْيافِ ويَأْكُلُونَ، الأول أوْلَى، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّما ذلك منَ الشَّيْطانِ، يعْنِي كوْنَهُ يَحْلِفُ أنْ لا يَأْكُلَ؟ هذا من الشَّيْطانِ، ثم أَكَلَ وأَكَلَ الأضْيافُ، لكنَّ الكَرامةَ التي حَصَلَتْ أنَّ الواحِدَ منهم إذا أَخَذَ لُقْمةً من الإناءِ ارْتَفَعَ الإناءُ، صار بَدَلَ اللُّقْمةِ أكْثَرُ منها في نَفْسِ الإناءِ، من أين جاءَ هذا؟ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كرامةً لأبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأَنَّهُ أفْضَلُ أوْلياءِ هذه الأُمَّةِ على الإطْلاقِ؛ لأَنَّهُ خَيْرُ هذه الأُمَّةِ بعد نَبِيِّها ﷺ، ثم انْتَهَوْا فبَقِيَ في الإناءِ أكْثَرُ ممَّا كان فيه من قَبْلُ، فأخَذَهُ أبو بكرٍ وذَهَبَ به إلى النَّبِيِّ ﷺ، ودَعا النَّبِيُّ ﷺ إليه أقْوامًا فأكَلُوا.

وإنَّما حَمَلَهُ أبو بَكْرٍ لِيُرِيَهُ النَّبِيَّ ﷺ وكيفَ كان هذا الأمْرُ من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الذي بيده ملكوتُ كُلِّ شيءٍ، وإذا أرادَ شيئًا فإنَّما يقولُ له كُنْ فيَكُونُ.

الشَّاهِدُ من هذا الحديثِ: هذه الكَرامَةُ لِوَلِيٍّ من أوْلياءِ اللهِ وهو أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونحنُ نَشْهَدُ أَنَّهُ وَلِيٌّ من أوْلياءِ اللهِ، وأَنَّهُ أفْضَلُ أوْلياءِ اللهِ على الإطْلاقِ ما عدا النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ؛ لأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصِّدِّيقِينَ يعني في المَرْتَبةِ الثَّانِيةِ من صالِحِ الأُمَمِ،

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

فهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفْضَلُ الصِّدِّيقِينَ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدمَ إلى يَوْمِ القِيامةِ، وهو من أوْلياءِ اللهِ، وهذه من كرامَتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الحديثِ فَوائِدُ كثيرةٌ.

أنَّ فيه: دَلِيلًا على فَضيلةِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنَّهُ من أوْلياءِ اللهِ، وذكَرْنَا أنَّ أبا بَكْرٍ هو أفْضَلُ أوْلياءِ اللهِ بعد النَّبِيِّينَ؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ من الصِّدِّيقِينَ الذين هم في المرتبةِ الثَّانيةِ من أصنافِ الذين أنْعَمَ اللهُ عليهم من النَّبِيِّينَ، والصِّدِّيقِينَ، والشُّهداءِ، والصَّالِحِينَ.

ومن فَوائِدِ هذا الحديثِ: أنَّ الإنْسانَ إذا غَضِبَ بسببٍ يَقْتَضِي الغَضَبَ فإنَّهُ لا يُلامُ عليه؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَضِبَ فسَبَّ وجَدَّعَ، حتَّى أنَّ ابنَهُ عبدَ الرَّحْمَنِ اخْتَفَى منه، خَوْفًا منه، وجَعَلَ يُنادِي ويقولُ: «يا غُنْثَرُ» والغُنْثَرُ هو الغَبِيُّ الجاهِلُ، فهذا دليلٌ على أنَّ الإنْسانَ إذا غَضِبَ لِسَبَبٍ يَقْتَضِي الغَضَبَ فإنَّهُ لا يُلامُ عليه، ولا يَخْدِشُ من فَضْلِهِ ولا مَرْتَبَتِهِ.

وفيه أيضًا: أنَّهُ لا بَأْسَ أنَّ الإنْسانَ يَصِفُ ابنَهُ أو مَنْ له وِلايةٌ عليه بالغباوةِ والجَهْلِ إذا فَعَلَ فِعْلًا يقتضي أنَّهُ غَبِيٌّ جاهِلٌ.

وفيه: أنَّهُ من عادةِ النَّاسِ، حتَّى في العَهْدِ القديمِ، أنَّ الضَّيْفَ والمَضِيفَ يَحْصُلُ منهم الحَلِفُ والأَيْمانُ، مثلُ: واللهِ تَأْكُلُ، واللهِ ما آكُلُ، واللهِ تَدْخُلُ، واللهِ ما أدْخُلُ، ولكنَّهُم يَحْلِفُونَ باللهِ، أمَّا ما يفعلُهُ كثيرٌ من الجَهلَةِ اليَوْمَ، يَحْلِفُونَ بالطَّلاقِ، فهذا غَلَطٌ، كثيرٌ من أهْلِ البادِيةِ إذا نَزَلَ به ضَيْفٌ، وخافَ الضَّيْفُ أنَّ صاحبَ البَيْتِ يَذْبَحُ

له ذَبِيحةً، قال: عليَّ الطَّلاقُ، وعليَّ الحرامُ، وامْرَأتي كأُمِّي -والعياذُ باللهِ- إن ذَبَحْتَ لي ذَبِيحَةً، وهذا حرامٌ، لا يجوزُ، «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

أمَّا الحَلِفُ باللهِ فهذا قد جَرَتْ به العادةُ قديمًا، وهو من عاداتِ العَرَبِ وشِيَمِهِمْ، ومع هذا الأفْضَلُ أنَّك إذا حَلَفْتَ على إنسانٍ أنْ تَقْرِنَهَا بكلمةِ «إنْ شاءَ اللهُ» تقولُ: واللهِ إنْ شاءَ اللهُ؛ لأنَّكَ إذا قُلْتَ: (واللهِ إنْ شاءَ اللهُ) اسْتَفَدْتَ فائِدَتَيْنِ عَظِيمتَيْنِ:

الفائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ لك الأمْرَ.

الفائِدَةُ الثانِيةُ: أنَّهُ إذا لم يَتَيَسَّرْ، لم يَكُنْ عليك كفَّارةٌ، فاقْرِنْ يَمِينَكَ دائمًا بقَوْلِ: (إنْ شاءَ اللهُ) حتَّى تَسْلَمَ من الحِنْثِ وحتى يَتَيَسَّرَ لك الأمْرُ.

ألم يَأْتِكُمْ نَبَأُ سُلَيْمانَ نَبِيِّ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ قال في يَوْمٍ من الأيَّامِ: واللهِ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ على تِسْعِينَ امْرَأَةً تَلِدُ كُلُّ واحدةٍ منهُنَّ غُلامًا يُقاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ، يعْنِي يُجامِعُ تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ امْرَأَةٍ تَلِدُ غُلامًا يُقاتِلُ في سَبِيلِ اللهِ، انْظُرْ كيفَ كان الأنبياءُ يُحِبُّونَ القِتالَ في سَبِيلِ اللهِ، تَمَنَّى أنْ يَرْزُقَهُ اللهُ هذا العَدَدَ الكَبِيرَ من الأوْلادِ لِيُقاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ، لم يَقُلْ لِيُعِينُوهُ على التِّجارةِ، أو الحِراثَةِ، أو أمْرٍ من أُمورِ الدُّنْيا، بل قال: «يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ» فقِيلَ له: قلْ: إنْ شاءَ اللهُ، فلم يَقُلْ إنْ شاءَ اللهُ؛ لأنَّهُ جازمٌ وعازمٌ لكنْ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فجامَعَ تِسْعِينَ امْرَأَةً تلك اللَّيْلَةَ، وقد أعطاهُ اللهُ قُوَّةً، فما الذي حَدَثَ؟ ولَدَتْ واحِدَةٌ فقط منهُنَّ نِصْفَ إنْسانٍ أيْ مَشْلُولٍ -سُبْحانَ اللهِ العَظِيمِ- إنَّها آيةٌ من آياتِ اللهِ لِيُرِيَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ الأمْرَ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٤٨٢).

قال نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»[1]، يعني لو قال: إنْ شاءَ اللهُ لَسَهُلَ الأمْرُ.

والنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا جاءَهُ قُرَيْشٌ، قالوا: أخْبِرْنَا عن قَوْمٍ كانوا في الزَّمَنِ الأوَّلِ خَرَجُوا من بِلادِهِمْ وكانوا في غارٍ، أو قالوا: حدِّثْنَا عن ذِي القَرْنَيْنِ، قال: غدًا أُحَدِّثُكُمْ، والنَّبِيُّ ﷺ لا يَدْرِي ما قِصَّتُهُمْ؛ لأنَّهُ لا أَدْرَكَها ولا هناك تَواريخُ مَوْثُوقَةٌ، فقال: غدًا أُخْبِرُكُمْ، جاءَ الغَدُ وما نَزَلَ عليه الوَحْيُ؛ لأنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ظَنَّ أنَّ الوَحْيَ يَنْزِلُ عليه باللَّيْلِ، ما نَزَلَ الوَحْيُ، واليَوْمَ الثَّانِيَ ما نَزَلَ الوَحْيُ، الثَّالِثَ، الرَّابِعَ، الخَامِسَ، مَضَى خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا، وما نَزَلَ عليه الوَحْيُ، وهذا سيكونُ شَدِيدًا على الرَّسُولِ ﷺ لأنَّهُ وَعَدَ قُرَيْشًا -أعداءَهُ- أنَّهُ سَوْفَ يُخْبِرُهُمْ في الغدِ، ولم يُخْبِرْهُمْ، فأنْزَلَ اللهُ القِصَّةَ وقِيلَ له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] [الكهف:٢٣-٢٤].

فالأمْرُ بِيَدِ اللهِ؛ لهذا نقولُ: إنْ أرَدْتَ أنْ تَحْلِفَ، أيَّ حَلِفٍ على نَفْسِكَ، على أوْلادِكَ، على ضَيْفِكَ على أيِّ إنْسانٍ، أَقْرِنْ ذلك بكلمةِ: «إنْ شاءَ اللهُ» لِتَحْصُلَ على هاتَيْنِ الفائِدَتَيْنِ، وهُما: التَّيْسِيرُ، أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ الأمْرَ ويُعْطِيكَ ما حَلَفْتَ عليه، والثانيةُ: أنَّهُ لو اخْتَلَفَتِ الأُمورُ فإنَّهُ لا كَفَّارةَ عليك. واللهُ المُوَفِّقُ.

ومِنْ فوائِدِ هذا الحديثِ: أنَّ الإنْسانَ إذا حَلَفَ على شيءٍ، ثم رَأَى غيْرَهُ خيرًا منه فإنَّهُ يُكَفِّرُ عن يَمِينِهِ ويَفْعَلُ ما هو خَيْرٌ، وهذا قدْ دَلَّ عليه حَدِيثٌ صَرِيحٌ عنِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٧٢٠)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٢٨)، والدر المنثور (٥/ ٣٥٨)، وفتح الباري (٨/ ٧١٠).

النَّبِيِّ ﷺ فقال: «إِنِّي -واللهِ- إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي» أو قال: «إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[1]، فإذا حَلَفْتَ أنْ لا تُكَلِّمَ فُلانًا فالأفْضَلُ أنْ تَحْنَثَ، وتُكَفِّرَ عن يَمِينِكَ وتُكَلِّمَهُ، وإذا صارَ بينكَ وبينَهُ شيءٌ، وقُلْتَ: واللهِ ما أُطْرِقُ عليه البَيْتَ، ولا أَزُورُهُ، قلنا له: زُرْهُ وكَفِّرْ عن يَمِينِكَ ما لم يَكُنْ في ذلك إثْمٌ، وكذلك إذا حَلَفَ الإنْسانُ على ولدِهِ إنْ فَعَلَ شيئًا أنْ لا يُكَلِّمَهُ، ففَعَلَ الولَدُ الشيءَ، فلْيُكَلِّمْهُ ولْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ، المُهِمُّ أنَّكَ إذا حَلَفْتَ على شيءٍ ثم رَأَيْتَ أنَّ الخَيْرَ في عدمِ وفائِكَ باليمينِ، فلا تَفِ بيَمِينِكَ وكَفِّرْ عنه.

ومِنْ فوائِدِ الحديثِ أيضًا: أنَّ الإنْسانَ إذا حَلَفَ على شَخْصٍ يُريدُ إكْرامَهُ، ثم لم يَفْعَلْ فإنَّهُ لا كفَّارةَ عليه؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ، يعني لم يُنْقَلْ أنَّهُ كَفَّرَ، هكذا اسْتَدَلَّ بعضُ العُلماءِ بهذا الحديثِ، لكنَّهُ اسْتِدْلالٌ ضَعِيفٌ؛ لأنَّ حديثَ أبي بَكْرٍ هذا ليس فيه أنَّهُ كَفَّرَ ولا أنَّهُ لم يُكَفِّرْ.

فهو إذًا مُحْتَمِلٌ أنْ يَكُونَ كَفَّرَ ولم يُذْكَرْ، ومُحْتَمِلٌ أنْ يَكُونَ لم يُكَفِّرْ، لكنْ عندنا نصوصٌ بَيِّنَةٌ واضِحةٌ على أنَّ مَنْ حَنِثَ في يَمِينِهِ فعليه الكَفَّارةُ، سواءٌ كان الحِنْثُ من فِعْلِهِ أو من فِعْلِ غَيْرِهِ، وعلى هذا فنقولُ: إذا حَلَفْتَ على شخصٍ إكْرامًا له ولم يَفْعَلْ فعليكَ الكفَّارةُ.

مثالُ ذلك، وقَفْتَ أنت وشَخْصٌ عند البابِ في دَعْوَةٍ دعاكُما إليها صاحبُ البَيْتِ ففَتَحَ البابَ، فقال لك: ادْخُلْ، قُلْتَ: واللهِ ما أَدْخُلُ، واللهِ تَدْخُلُ أنت،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾، رقم (٧٥٥٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، رقم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال: لا أَدْخُلُ، فهنا نقولُ: إذا دَخَلْتَ فإنَّكَ تُكَفِّرُ عن يَمِينِكَ وإنْ كان حَلِفُكَ من أجْلِ الإكْرامِ لَكِنَّكَ حَنِثْتَ، فإذا حَنِثْتَ في يَمِينِكَ فعليْكَ الكَفَّارةُ سَوَاءً كان ذلك إكْرامًا أو حِنْثًا أو غيْرَ ذلك.

فإذا قال قائِلٌ: أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي حَلَفَ أوَّلًا وكان على الضُّيُوفِ أنْ يَبَرُّوا بِيَمِينِهِ، ولكنَّهُم حَلَفُوا، فإذا تَحالَفَ اثْنانِ، أحَدُهُمْ يَقولُ كذا، والثَّاني يقولُ كذا، فأيُّهُما أوْلَى؟

قُلْنا: الأَوْلَى أنْ يَكُونَ الذي حَلَفَ الأوَّلَ هو الذي تُبَرُّ يَمِينُهُ؛ لأنَّهُ أسْبَقُ وقد أمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بإبْرارِ القَسَمِ، فعلى هذا فيكونُ الثَّاني هو الذي حَصَلَ منه نَوْعُ الخطأِ، فإذا قَال: واللهِ لَتَفْعَلَنَّ كذا فقُلْتَ أنت: واللهِ لا أَفْعَلُهُ، فأيُّهُما الذي تَسْرِي يَمِينُهُ الأوَّلُ أم الثَّاني؟ الأوَّلُ؛ لأنَّهُ هو الذي حَلَفَ أوَّلًا، لكنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَواضُعِهِ أَكَلَ من أجْلِ إكْرامِ الضُّيوفِ.

وفي حَدِيثِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منَ الفَوَائِدِ: أنَّ الإنْسانَ يَنْبَغِي له أنْ يُكْرِمَ الضَّيْفَ، بل إنَّ إكْرَامَ الضَّيْفِ من تمامِ الإيمانِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1] وحقُّ الضِّيافةِ الوَاجِبُ يَوْمٌ ولَيْلَةٌ، وثَلاثةُ أيَّامٍ سُنَّةٌ، وما زادَ على ذلك فهو أمْرٌ مُباحٌ، لكنَّ الواجِبَ يَوْمٌ ولَيْلَةٌ، وقدْ قَيَّدَ بعضُ العُلماءِ هذا فيما إذا كان البَلَدُ ليس فيها مَطاعِمُ، أمَّا إذا كان فيها مَطاعِمُ فلا يَجِبُ عليك، ولكنْ تُعِينُهُ بما تَيَسَّرَ من النُّقُودِ، والصَّحِيحُ في هذه المسْأَلةِ أنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، رقم (٦١٣٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منَ النَّاسِ -أيْ من الضُّيوفِ- مَنْ يرَى أنَّ ذَهابَهُ إلى المَطْعَمِ فيه إهانةٌ، فهذا لا بُدَّ أنْ تُضَيِّفَهُ في بَيْتِكَ، ومنهم مَنْ يكونُ الأمْرُ عنده سواءً، فهنا لا حَرَجَ عليك أنْ تَقُولَ: يا أَخِي هذه دَراهِمُ اذْهَبْ إلى المَطْعَمِ الفُلانِيِّ، كذلك أيضًا إذا كانت البَلَدُ فيها فَنادِقُ، فإنَّهُ في هذا الحالِ لو قيل بأنَّهُ لا يَجِبُ كما قال بعضُ أهْلِ العِلْمِ، لَكانَ له وجْهٌ؛ لأنَّ الفُنْدُقَ يأتي إليه الشَّرِيفُ والوَضِيعُ وكُلُّ أحدٍ، لكنْ لا شكَّ أنَّ الإنْسانَ إذا قَصَدَكَ وأتى إلى بَيْتِكَ وقال: أنا ضَيْفُكَ، أنَّ الأَوْلَى أنْ تُضَيِّفَهُ، إلَّا أنْ يَكُونَ عليك في ذلك ضَرَرٌ أو تَفْوِيتُ مَصالِحَ أَهَمَّ، فلِكُلِّ مقامٍ مَقالٌ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٠٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

ورَواهُ مُسْلِمٌ من رِوايةِ عائِشَةَ[2]، وفي رِوايَتِهِما قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: «مُحَدَّثُونَ» أيْ مُلْهَمُونَ.

الشَّرح

ساقَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ في كرامةٍ لأميرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ قال النَّبِيُّ ﷺ: «كَانَ فِيمَا كَانَ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ» يعني: مُلْهَمُونَ للصَّوَابِ، يقولونَ قولًا فيكونُ مُوافقًا للحَقِّ، وهذا من كرامةِ اللهِ للعَبْدِ أنَّ الإنْسانَ إذا قال قَوْلًا، أو أَفْتَى بفَتْوَى، أو حَكَمَ بحُكْمٍ تَبَيَّنَ له بعد ذلك أنَّهُ مُطابِقٌ للحَقِّ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم (٣٦٨٩).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٩٨).

فعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أشدِّ النَّاسِ تَوْفِيقًا للحقِّ، كما سَيَأْتِي إنْ شاءَ اللهُ تَعالى فيما سَيَذْكُرُهُ المُؤَلِّفُ منْ أمثلةٍ لذلكَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنْ يَكُنْ فِيكُمْ مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ» يعني إنْ كان فيكم مُحَدَّثُونَ فعُمَرُ، ويَحْتَمِلُ قَوْلُهُ: «إِنْ يَكُنْ فِيكُمْ» أَنَّهُ خِطابٌ لِقَوْمٍ مُجْتَمِعِينَ ليس فيهم أبو بَكْرٍ، ويَحْتَمِلُ أَنَّهُ خِطابٌ للأُمَّةِ كُلِّهَا، ومن بينِهِمْ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنْ كان الأوَّلَ فلا إشْكالَ، وإن كان الثانِيَ فقد يقولُ قائِلٌ: كيفَ يكونُ عُمَرُ مُلْهَمًا وأبو بَكْرٍ ليس كذلك، فيُقالُ: إنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوَفَّقُ للصَّوابِ بدُونِ إلْهَامٍ. بمعنى أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذاتِ نفسِهِ بتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُوَفَّقُ للصَّوابِ، ويَدُلُّ على هذا عِدَّةُ مَسائِلَ، يعني يَدُلُّ على أنَّ أبا بَكْرٍ أَشَدُّ تَوْفِيقًا للصَّوابِ من عُمَرَ عِدَّةُ مَسائِلَ:

أَوَّلًا: في صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ لَمَّا اشْتَرَطَتْ قُرَيْشٌ على النَّبِيِّ ﷺ شُروطًا يَبْدُو أنَّها ثقيلةٌ عظيمةٌ، عَمِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على إبْطالِهَا، وجاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ يُراجِعُهُ في ذلك ويقولُ: كيفَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا، كيفَ نَشْتَرِطُ على أنْفُسِنَا أنَّ مَنْ جاءَنا منهم مُسْلِمًا، رَدَدْناهُ إليهم، ومَنْ جاءَهُمْ منَّا لا يَرُدُّونَهُ هذا ثَقِيلٌ، ولكنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ ولَسْتُ عَاصِيَهُ وهُوَ نَاصِرِي»[1] فذَهَبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُرِيدُ أنْ يَسْتَنْجِدَ به في إقْناعِ الرَّسُولِ ﷺ فكَلَّمَ أبا بَكْرٍ فقال له أبو بَكْرٍ مِثْلَ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ لعُمَرَ سَوَاءً بسَواءٍ قال: إنَّهُ رَسُولُ اللهِ وليس بِعاصِيهِ وهو ناصِرُهُ فاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ، يعني لا يَكُنْ عندك شكٌّ في أمْرِهِ، فهذا واحدةٌ، إذَنْ مَنِ المُوافِقُ للصَّوابِ في هذا؟ أبو بَكْرٍ لا شَكَّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثانيًا: في مَوْتِ الرَّسُولِ ﷺ لمَّا شاعَ الخَبَرُ في المَدِينةِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ ماتَ، اجْتَمَعَ النَّاسُ في المسجِدِ وقامَ عُمَرُ فيهم وقال: «إنَّهُ لَمْ يَمُتْ وإنَّما صُعِقَ ولَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَ أَقْوَامٍ وأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ»[1]، وأنْكَرَ أنْ يَكُونَ قد ماتَ، وكان أبو بَكْرٍ قد خَرَجَ ذلك اليَوْمَ إلى بُسْتانٍ له خارجَ المدينةِ فلمَّا رَجَعَ وَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ قد ماتَ حقًّا، فخَرَجَ إلى المسجِدِ وصَعِدَ المِنْبَرَ، وقال كَلِماتِهِ المَشْهُورةَ التي تُكْتَبُ بأغْلَى من ماءِ الذَّهَبِ. قال: أمَّا بَعْدُ أيُّها النَّاسُ، مَنْ كان يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فإنَّ مُحَمَّدًا قدْ ماتَ، ومَنْ كان يَعْبُدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ، ثم قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقَولَهُ تَعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فواللهِ ما إنْ تَلاها أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتَّى عُقِرْتُ، فما تَحْمِلُني رِجْلايَ، يعني أنَّ الإنْسانَ إذا خافَ واشْتَدَّ به الشَّيْءُ لا يَقْدِرُ أنْ يَقِفَ.

ثالثًا: أنَّهُ لمَّا تُوُفِّيَ الرَّسُولُ ﷺ ارْتَدَّ مَنِ ارْتَدَّ من العربِ -كَفَروا والعياذُ باللهِ- وكان النَّبِيُّ ﷺ قد جَهَّزَ جَيْشًا أمِيرُهُ أُسامةُ بنُ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيقاتِلَ أدْنَى أهلِ الشَّامِ، والجيشُ كان ظاهِرَ المدينةِ ولكنْ لم يَسِيرُوا بَعْدُ، ولمَّا ارْتَدَّ العربُ جاءَ عُمَرُ لأبي بَكْرٍ، وقال لا تُرْسِلِ الجَيْشَ، نحنُ في حاجةٍ، فقال له أبو بَكْرٍ: واللهِ لا أَحُلَّنَّ رايةً عقَدَها رَسُولُ اللهِ ﷺ، وسيَّرهم أبو بَكْرٍ، فكان الصَّوابُ مع أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنَّ النَّاس لمَّا سَمِعُوا أنَّ أهلَ المَدِينةِ أرْسَلُوا الجَيْشَ إلى أطْرافِ الشَّامِ، قالوا: هَؤُلاءِ عندَهُمْ قُوَّةٌ ولا يُمْكِنُ أنْ نَرْتَدَّ، فامْتَنَعَ كثيرٌ منَ النَّاسِ عنِ الرِّدَّةِ وبَقُوا في الإسْلامِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ «لو كنت...»، رقم (٣٦٦٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالمُهِمُّ أنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبْلَغُ من عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إصابةِ الصَّوابِ، لا سيَّما في المواضِعِ الضَّيِّقةِ، وعلى كُلِّ حالٍ كِلا الرَّجُلَيْنِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وجَمَعَنا وإيَّاكُمْ بهما في جَنَّاتِ النَّعِيمِ- مُوَفَّقٌ للصَّوابِ، وكُلَّما كان الإنْسانُ أقْوَى إيمانًا باللهِ وأكْثَرَ طاعةً للهِ وفَّقَهُ اللهُ تَعالى إلى الحقِّ بقَدْرِ ما معه من الإيمانِ والعِلْمِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، تَجِدُهُ مثلًا يَعْمَلُ عَمَلًا يَظُنُّهُ صَوابًا لكنْ بدُونِ أنْ يكونَ عندَهُ دَلِيلٌ منَ القُرْآنِ والسُّنَّةِ، فإذا راجَعَ أو سَأَلَ وجَدَ أنَّ عَمَلَهُ مُطابِقٌ للكِتابِ والسُّنَّةِ، وهذه من الكراماتِ، فعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال فيه الرَّسُولُ ﷺ: «إِنْ يَكُنْ فِيكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنَّهُ عُمَرُ».

١٥٠٥- وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا يعني: ابنَ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَزَلَهُ، واسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعَمُونَ أَنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي، فَقَالَ: أَمَّا أَنَا وَاللهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا أُخْرِمُ عَنْها، أُصَلِّي صَلَاةَ العِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ، وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ.

قَالَ: ذَلِكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، وأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا -أَوْ رِجَالًا- إِلَى الكُوفَةِ يَسْأَلُ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ، فَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، يُقالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يُكَنَّى أَبَا سَعْدَةَ، فَقَالَ: أَمَا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ. قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا،

قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمُرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ لِلْفِتَنِ. وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ.

قَالَ عَبدُ المَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ الرَّاوِي عَن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: فَأنا رَأَيْتُهُ بَعْدُ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوارِي فِي الطُّرُقِ فَيَغْمِزُهُنَّ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

هذه من الكراماتِ التي نَقَلَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهي ما رَواهُ جابِرُ بْنُ سَمُرَةَ في قِصَّةِ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان سَعْدٌ مَعْرُوفًا بإجابةِ الدَّعْوةِ، يعني أنَّ اللهَ أعطاهُ كرامَةً وهو أنَّ اللهَ تَعالى يُجِيبُ دَعْوتَهُ إذا دَعا، وقدْ جَعَلَهُ أميرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أميرًا على أهلِ الكُوفةِ؛ لأنَّ المُسْلِمِينَ لَمَّا فتَحُوا العِراقَ ومَصَّرُوا الأمْصارَ، وشَيَّدُوا مَدينَتَي البَصْرةِ والكُوفةِ وهما أشْهَرُ ما يكونُ في العِراقِ، ثم إنَّ أميرَ المُؤْمِنِينَ جَعَلَ للأمْصارِ أُمراءَ، فأمَّرَ سَعْدَ بْنَ أبي وَقَّاصٍ على الكُوفةِ، فشَكاهُ أهلُ الكُوفةِ إلى أميرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حتَّى قالوا إنَّهُ لا يُحْسِنُ أنْ يُصَلِّيَ، وهو صَحابِيٌّ جليلٌ شَهِدَ له النَّبيُّ ﷺ بالجَنَّةِ، فأرْسَلَ إليه عُمَرُ، فحَضَرَ وقال: إنَّ أهْلَ الكُوفةِ شَكَوْكَ حتَّى قالوا: إنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي، فأخْبَرَهُ سَعْدٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ كان يُصَلِّي بهم صلاةَ النَّبيِّ ﷺ وذكَرَ صَلاةَ العِشاءِ، وكأنَّها -واللهُ أعْلَمُ- هي التي وقَعَ تَعْيِينُهَا من هَؤُلاءِ الشُّكاةِ، فقال: إنِّي لَأُصَلِّي بهم صلاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا أَخْرِمُ عنْهَا، يعني لا أَدَعُهَا، أسْتَمِرُّ عليها، فكنتُ أُطَوِّلُ في العِشاءِ بالأُولَيَيْنِ وأُقَصِّرُ في الأُخْرَيَيْنِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٥).

فقال له عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ذلك الظَّنُّ بك يا أبا إسْحاقَ، فزكَّاهُ عُمَرُ؛ لأنَّ هذا هو الظَّنُّ به، إنَّهُ يُحْسِنُ الصَّلاةَ وإنَّهُ يُصَلِّي بقَومِهِ الذين أُمِّرَ عليهم صلاةَ النَّبِيِّ ﷺ، ولكنْ مع ذلك تَحَرَّى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّهُ يَتَحَمَّلُ المَسْئُولِيَّةَ ويَعْرِفُ قَدْرَ المَسْئُولِيَّةِ، فأرْسَلَ رِجالًا إلى أهلِ الكُوفةِ، يَسْألونهم عن سَعْدٍ وعن سِيرتِهِ، فكان هَؤُلاءِ الرِّجالُ لا يَدْخُلونَ مَسْجِدًا ويَسْأَلُونَ عن سَعْدٍ إلَّا أَثْنَوْا عليه مَعْرُوفًا.

حتَّى أتى هَؤُلاءِ الرِّجالُ إلى مسجِدِ بني عَبْسٍ، فسَأَلُوهم، فقامَ رَجُلٌ فقال: أمَا إذا ناشَدْتُمونا، فإنَّ هذا الرَّجُلَ لا يَعْدِلُ في القَضِيَّةِ، ولا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ، ولا يَعْدِلُ في القَضِيَّةِ، فقولُهُ: لا يَسِيرُ بالسَّرِيَّةِ، يعني لا يَخْرُجُ في الجهادِ، ولا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ إذا غَنِمَ، ولا يَعْدِلُ في القَضِيَّةِ إذا حَكَمَ بين النَّاسِ، فاتَّهَمَهُ هذه التُّهَمَ، فهي تُهَمٌ ثلاثٌ، فقال: أمَا واللهِ لَأَدْعُوَنَّ بثلاثِ دَعواتٍ، دَعا عليه أنْ يُطِيلَ اللهُ تَعالى عُمُرَهُ وفَقْرَهُ ويُعَرِّضَهُ للفِتَنِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، ثلاثُ دَعواتٍ عظيمةٌ، ولكنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَثْنَى قال: إنْ كان عَبْدُكَ هذا قام رِياءً وسُمْعَةً؛ يعني لا بحَقٍّ، فأجابَ اللهُ دُعاءَهُ، فكان هذا الرَّجُلُ طَوِيلَ العُمُرِ، عَمَّرَ طَوِيلًا حتَّى أنَّ حَاجِبَيْهِ سَقَطا على عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وكان فَقِيرًا وعُرِّضَ للفِتَنِ، حتَّى أنَّهُ في هذه الحالِ وهو كَبِيرٌ إلى هذا الحدِّ يَتَعَرَّضُ للجَواري يعني للبناتِ، يَتَعَرَّضُ لَهُنَّ في الأسْواقِ يَغْمِزُهُنَّ والعياذُ باللهِ، وكان يقولُ عن نفسِهِ: شَيْخٌ مَفْتُونٌ كَبِيرٌ أصابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ.

فهذا منَ الكراماتِ التي أكْرَمَ اللهُ بها سَعْدَ بنَ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه مِنَ الفوائِدِ فوائِدُ عديدَةٌ.

منها: أنَّ مَنْ تَوَلَّى أمرًا للنَّاسِ فإنَّهُ لا يَسْلَمُ منهم مهما كانت مَنْزِلَتُهُ، لا بُدَّ أنْ يَنالَهُ السُّوءُ؛ ولهذا قال ابنُ الوَرْدِيِّ في منظومتِهِ المَشْهُورةِ، التي أوَّلُهَا:

اعْتَـزِلْ ذِكْـرَ الأَغَـانِي والغَـزَلْ وَقُـلِ الفَصْـلَ وَجَانِـبْ مَـنْ هَـزَلْ
ودَعِ الـذِّكْرَى لِأَيَّـامِ الصِّـبَا فَلِأَيَّـامِ الصِّـبَا نَجْـمٌ أَفَـلْ

قال فيها من جملة ما قال من حكم:

إِنَّ نِصْـفَ النَّـاسِ أَعْـدَاءٌ لِمَـنْ وَلِيَ الأَحْكَـامَ، هَـذَا إِنْ عَـدَلْ

ومِنَ الفوائِدِ أيضًا: جوازُ دُعاءِ المَظْلومِ على ظالِمِهِ بمِثْلِ ما ظَلَمَهُ كما دَعا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الدَّعَواتِ على مَنْ ظَلَمَهُ.

ومِنْ فوائِدِهِ: أنَّ اللهَ تَعالى يَسْتَجِيبُ دُعاءَ المَظْلومِ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ لِمُعاذِ بنِ جَبَلٍ حينَ بَعَثَهُ إلى اليَمَنِ وأمَرَهُ أنْ يَأْخُذَ الزَّكاةَ من أمْوالِهِمْ، قال: «إِيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[1]، فالمظلومُ يستجيبُ اللهُ دُعاءَهُ؛ لأنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ عَزَّوَجَلَّ يَأْخُذُ بالإنْصافِ والعَدْلِ لِمَنْ كان مَظْلُومًا ولو كان كافرًا، فكيفَ إذا كان مُسْلِمًا؟

ومِن فوائِدِ هذا الحديثِ: أَنَّهُ يَجُوزُ للإنْسانِ أنْ يَسْتَثْنِيَ في الدُّعاءِ، إذا دَعا على شخصٍ يَسْتَثْنِي فيقولُ: اللَّهُمَّ إنْ كان كذا فافْعَلْ به كذا، اللَّهُمَّ إنْ كان ظَلَمَنِي فأَنْصِفْنِي منه أو فَابْتَلِهِ بكذا وكذا، تَدْعُو بمِثْلِ ما ظَلَمَكَ، وقدْ جاءَ الاسْتِثْناءُ في الدُّعاءِ في القُرْآنِ الكريمِ فقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور:٦-٩].

ومِن فوائِدِ هذا الحديثِ أيضًا: حِرْصُ أمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الرَّعِيَّةِ، وتَحَمُّلُهُ المَسْئُولِيَّةَ وإحْساسُهُ بها، وشُعورُهُ بها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولهذا اشْتُهِرَ بعَدْلِهِ وحُسْنِ سِياسَتِهِ في الأُمورِ كُلِّها، الحَرْبِيَّةِ والسِّلْمِيَّةِ والدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ، فهو في الحقيقةِ خيرُ الخُلفاءِ بعد أبي بَكْرٍ، بل هو حَسَنَةٌ من حَسناتِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنَّ الذي ولَّاهُ على المُسْلِمِينَ هو أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالحاصِلُ: أنَّ هذا الحديثَ فيه فوائِدُ عَدِيدَةٌ نَقْتَصِرُ منها على ذلك. واللهُ المُوَفِّقُ.



١٥٠٦- وعَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ: أنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَاصَمَتْهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوْسٍ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، وادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: أنا كُنْتُ آخُذُ شَيئًا مِنْ أَرْضِهَا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ!؟ قَالَ: مَاذَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا، طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ» فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا، فَقَالَ سَعِيدٌ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كاذِبَةً، فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا في أَرْضِهَا، قَالَ: فَما مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، وَبَيْنَما هِيَ تَمْشِي في أَرْضِهَا إذ وَقَعَتْ في حُفْرَةٍ فَماتَتْ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

وفي رِوَايةٍ لِمُسْلِمٍ عنْ مُحَمَّدِ بنِ زَيْدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بِمَعْنَاهُ، وأَنَّهُ رَآها عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الجُدُرَ تقولُ: أَصابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدٍ، وأَنَّها مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ في الدَّارِ الَّتي خَاصَمَتْهُ فِيهَا، فَوَقَعَتْ فِيهَا، وكانتْ قَبْرَهَا[1].

الشَّرْح

منْ كراماتِ الأَوْلياءِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُجِيبُ دَعْوتَهُمْ، حتَّى يُدْرِكُوهَا بأَعْيُنِهِمْ، فهذا سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحدُ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بالجَنَّةِ، خاصَمَتْهُ امْرَأَةٌ ادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شيئًا مِنْ أَرْضِها فخَاصَمَتْهُ عند مَرْوانَ، فقال: أنا آخُذُ من أَرْضِهَا شَيْئًا بعدَ ما سَمِعْتُ منْ رَسُولِ اللهِ ﷺ! قالوا: وما سَمِعْتَ؟ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» أو «طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ» يعني فكيفَ آخُذُ منها بعدَ أنْ سَمِعْتُ هذا منَ النَّبِيِّ ﷺ. كُلُّ مُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ باللهِ ورَسُولِهِ إذا سَمِعَ مِثْلَ هذا الخَبَرِ الصَّادِرِ عنِ الصَّادقِ المَصْدُوقِ ﷺ فإنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَظْلِمَ أحدًا من أَرْضِهِ ولا شِبْرًا، فالرَّسُولُ ﷺ يُخْبِرُ أَنَّكَ لو أَخَذْتَ شِبْرًا منَ الأَرْضِ، وقيَّدَهُ بالشِّبْرِ مِن بابِ المُبالغةِ وإلَّا فإنْ أَخَذَ أقَلَّ من ذلك ولو سنتيمترًا واحدًا فإنَّهُ يُطَوَّقُ به يَوْمَ القِيامةِ من سَبْعِ أَرَضِينَ، إذا كان يَوْمُ القِيامَةِ جاءَتِ هذه القِطْعَةُ التي أَخَذَها مُطَوَّقَةً في عُنُقِهِ من سَبْعِ أَرَضِينَ؛ لأنَّ الأَرَضِينَ سَبْعُ طِباقٍ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

والإنْسانُ إذا مَلَكَ أَرْضًا، ملَكَ قَعْرَهَا إلى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، إلى الأرضِ السابِعَةِ، وإذا مَلَكَهَا أيضًا مَلَكَ هَواءَهَا إلى الثُّرَيَّا، لا أحَدَ يستطيعُ أنْ يَبْنِيَ فوْقَهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠).

جِسْرًا أو يَحْفِرَ تَحْتَهُ خَنْدَقًا؛ لأنَّ الأرْضَ له إلى أسْفَلِ السَّافِلِينَ، وإلى أعْلَى السَّماءِ، كلُّها له، إذا كان يَوْمُ القِيامةِ وهذا قدِ اقْتَطَعَ شِبْرًا منَ الأرْضِ بغَيْرِ حقٍّ، فإنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيامةِ مُطَوَّقًا به عُنُقُهُ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

وفي اليومِ المَشْهُودِ يَوْمِ القِيامةِ حيثُ تُحْشَرُ جميعُ الخلائِقِ حتَّى الوُحُوشُ كلُّها تُحْشَرُ يَوْمَ القِيامةِ، وهذا المُعْتَدِي يُشاهَدُ حاملًا هذه الأرْضَ والعياذُ باللهِ من سَبْعِ أرَضِينَ؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنارَ الأَرْضِ»[1] غيَّرَ مَنارَها أيْ غيَّرَ مَراسِيمَها فأدْخَلَ شيئًا ليس له، وفي هذا دليلٌ على أنَّ أخْذَ شيءٍ من الأرْضِ بغيْرِ حقٍّ منْ كبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ عليه هذا الوَيْلَ العظيمَ، اللَّعْنَ، وأنَّهُ يُحَمَّلُ به يَوْمَ القِيامةِ، فما بالُكَ بقَوْمٍ هم اليومَ يَأْخُذُونَ أمْيالًا بل أمْيالَ الأمْيالِ والعياذُ باللهِ بغيْرِ حقٍّ، يَأْخُذونَها يُضَيِّقونَ بها مَراعِيَ المُسْلِمِينَ، ويَحْرِمُونَ المُسْلِمِينَ من مَراعِيهِمْ أو من طُرُقِهِمْ أو من مَسِيلِ أوْدِيَتِهِمْ أو ما أشْبَهَ ذلك، هَؤُلاءِ سوفَ يُطَوَّقُونَ ما أخَذُوا يَوْمَ القِيامةِ والعياذُ باللهِ؛ لأنَّهُم أخَذُوها بغيرِ الحقِّ، المَراعِي للمُسْلِمِينَ عُمومًا، الخُطوطُ والطُّرقاتُ للمُسْلِمِينَ عُمومًا، الأوْدِيَةُ -أوْدِيَةُ الأمْطارِ- للمُسْلِمِينَ عُمومًا؛ ولهذا قال العلماءُ: إنَّ الإنْسانَ لا يَمْلِكُ بالإحْياءِ ما قَرُبَ من عامِرٍ وهو يَتَعَلَّقُ بِمَصْلَحَةِ هذا العامِرِ، حتَّى لو أحْياها وغَرَسها وبَناها بل يُقْلَعُ غَرْسُهُ ويُهْدَمُ بِناؤُهُ إذا كان هذا يَتَعَلَّقُ بمَصالِحِ البلدِ، والبَلدُ ليست مِلْكًا لفُلانٍ أو عِلَّانٍ بل هي لِعُمومِ المُسْلِمِينَ، حتَّى لو فرَضْنا أنَّ وَلِيَّ الأمْرِ أقْطَعَ هذا الرَّجُلَ منَ الأرْضِ التي يَحْتاجُهَا أهْلُ البَلَدِ فإنَّهُ لا يَمْلِكُهَا بذلك؛ لأنَّ وَلِيَّ الأمْرِ إنَّما يَسْعَى لِمصالِحِ المُسْلِمِينَ، لا يَخُصُّ أحدًا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بمصالِحِ المُسْلِمِينَ دونَ أحَدٍ، وهذه المسْألةُ خَطِيرةٌ للغايةِ؛ ولهذا لَمَّا ارْتَفَعَتْ قِيمُ الأراضي صار النَّاسُ والعياذُ باللهِ يعْتَدِي بعْضُهُم على بعضٍ، يدَّعي أنَّ الأرْضَ له وهي ليست له، يكونُ جارًا لشخصٍ ثم يُدْخِلُ شيئًا من أرْضِهِ إلى أرْضِهِ. وهذا على خطرٍ عظيمٍ حتَّى أنَّ العُلماءَ -وقد يَتعَجبُ القارِئُ من هذا- قالوا: لو أنَّ الإنْسانَ بني جِدارًا ثم زاد في تَشْيِيدِهِ أي في لِياصَتِهِ (المَحارَةِ) ودَخَلَ على السُّورِ سنتيمترًا فإنَّهُ يكونُ ظالمًا، ويكونُ بذلك مُعاقبًا عند اللهِ يَوْمَ القِيامةِ. فانْظُرْ وتَأَمَّلْ هذا التحذيرَ مِنَ العُلماءِ إلى هذا الحدِّ، والنَّاسُ الآنَ والعياذُ باللهِ يأْخُذُونَ أمْيالًا أو أمْتارًا مع هذا الوَعيدِ الشَّدِيدِ.

ومَرْوَانُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا حَدَّثَهُ سَعِيدُ بنُ زَيْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بهذا الحديثِ قال: الآنَ لا أَطْلُبُ عليك بَيِّنَةً؛ لأنَّهُ يَعْرِفُ أنَّ سَعِيدًا لا يُمْكِنُ أبدًا أنْ يَأْخُذَ من أرْضِ هذه المَرْأَةِ بدونِ حَقٍّ.

أمَّا المَرْأَةُ فقال سَعِيدٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُمَّ إنْ كانت كاذِبةً فأَعْمِ بَصَرَها وأهْلِكْها في أرْضِها، فماذا كان؟ أعْمَى اللهُ عَزَّوَجَلَّ هذه المَرْأَةَ قبل أنْ تَمُوتَ، وبينما هي تَمْشِي في أرْضِهَا ذاتَ يومٍ إذْ سَقَطَتْ في بِئْرٍ فماتتْ، فكانت البِئْرُ قَبْرَهَا في نفس الأرْضِ التي كانت تُخاصِمُ فيها سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا من كَرامةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لسَعِيدِ بنِ زَيْدٍ، أنَّ اللهَ أجابَ دَعْوَتَهُ وشاهَدَها حَيًّا قَبْلَ أنْ يَمُوتَ.

وقد سَبَقَ لنا أنَّ المَظْلُومَ تُجابُ دعوتُهُ ولو كان كافرًا إذا كان مَظْلُومًا؛ لأنَّ اللهَ تَعالى يَنْتَصِرُ لِلمَظْلُومِ منَ الظَّالِمِ؛ لأنَّهُ جَلَّوَعَلَا حَكَمٌ عَدْلٌ لا يَظْلِمُ ولا يُمَكِّنُ أحدًا من الظُّلْمِ، وقدْ قال اللهُ تَعالى في القُرْآنِ الكريمِ كلامِ ربِّ العالمينَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

فالظَّالِمُ لا يُفْلِحُ أبدًا، فتأمَّلْ واعْتَبِرْ بهذه القِصَّةِ وقِصَّةِ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي ذَكَرْناها سابقًا وكيفَ أجابَ اللهُ الدَّعْوَةَ؟ وهذه هي سُنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عِبادِهِ، نسألُ اللهَ أنْ يَحْمِيَنَا وإيَّاكُمْ من الظُّلْمِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٠٧- وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وإِنِّي لا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا، فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ، وَدَفَنْتُ مَعَهُ آخَرَ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ آخَرَ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ غَيْرَ أُذُنِهِ، فَجَعَلْتُهُ فِي قَبْرٍ عَلَى حِدَةٍ. رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

الشَّرْح

سَبَقَ لنا بيانُ شيءٍ من كراماتِ الأوْلياءِ التي ذَكَرَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ كَرامةِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ، وذَكَرَ في هذا الحديثِ ما جَرَى لعَبْدِ اللهِ بنِ حَرامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والِدِ جَابِرِ بنِ عبدِ اللهِ، فإنَّهُ أيْقَظَ ابنهُ جابرًا ليلةً من اللَّيالي، وقال: ما أُرانِي إلَّا أوَّلَ قَتِيلٍ منْ أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ وذلك قُبَيْلَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، ثم أَوْصاهُ وقال: إنِّي لن أَتْرُكَ من بَعْدِي أحدًا أَعَزَّ عَلَيَّ منك غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وأوْصاهُ بأنْ يَقْضِيَ دَيْنًا كان عليه، وأوْصاهُ بأخَواتِهِ، ثم كانت الغَزْوَةُ فقُتِلَ عَبْدُ اللهِ بنُ حَرامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان القَتْلى في ذلك اليومِ سَبْعِينَ رَجُلًا فكان يَشُقُّ على المُسْلِمِينَ أنْ يَحْفِرُوا لكُلِّ رَجُلٍ قبرًا،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة، رقم (١٣٥١).

فَجَعَلُوا يَدْفِنُونَ الاثْنَيْنِ أو الثلاثةَ في قبرٍ واحِدٍ فدُفِنَ مع أبي جابِرٍ (عبدِ اللهِ بنِ حَرامٍ) رَجُلٌ آخَرُ، ولكنْ جابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم تَطِبْ نفسُهُ حتَّى فَرَّقَ بين أبيه وبين مَنْ دُفِنَ معه، فحَفَرَهُ بعد سِتَّةِ أشْهُرٍ من دَفْنِهِ فوَجدَهُ كأنَّهُ دُفِنَ اليومَ، لم يَتَغَيَّرْ إلَّا شيءٌ في أُذُنِهِ شَيْئًا يَسِيرًا، ثم أفْرَدَهُ في قبْرٍ.

أمَّا جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد وَفَّى دَيْنَ أبيه، واسْتَوْصى بأخواتِهِ خيرًا حتَّى أنَّهُ تَزَوَّجَ بعد ذلك، وتَزَوَّجَ امْرَأَةً ثَيِّبًا، فسألَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تَزَوَّجْتَ؟» قال: نعم. قال: «بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» قال: ثَيِّبًا قال: «فَهَلَّا تَزَوَّجْتَ بِكْرًا تُلاعِبُكَ وتُلاعِبُهَا، وتُضاحِكُكَ وتُضَاحِكُهَا»[1] فقال: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ أبي تَرَكَ أخواتٍ لي، وذكر أنَّهُ أخَذَ الثَّيِّبَ لِتَقُومَ عليهن، لِتَقُومَ على خِدْمَتِهِنَّ.

وفي هذه كَرامَةٌ لأبي جابِرٍ، وهو عبدُ اللهِ بنُ حرامٍ، أنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَدَقَ اللهُ رُؤْياهُ فصارَ أوَّلَ قَتِيلٍ في أُحُدٍ، ودُفِنَ ولم تَأْكُلِ الأرْضُ منه شيئًا إلَّا يَسِيرًا، وقد مَضَى عليه سِتَّةُ أشْهُرٍ، وهذا من كَراماتِهِ.

واعْلَمْ أنَّ الإنْسانَ إذا دُفِنَ فإنَّ الأرْضَ تَأْكُلُهُ لا يَبْقَى إلَّا عَجْبُ الذَّنَبِ، وعَجْبُ الذَّنَبِ هذا يكونُ كالنَّواةِ لِخَلْقِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامةِ، تَنْبُتُ منه الأجْسادُ، إلَّا الأنْبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّ الأرْضَ لا تَأْكُلُهُمْ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الأرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[2] أمَّا غيرُ الأنْبياءِ فإنَّ الأرْضَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب استئذان الرجل الإمام، رقم (٢٩٦٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحية المسجد بركعتين، وباب استحباب الركعتين في المسجد لمن قدم من سفر، رقم (٧١٥)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: باب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه:

تَأْكُلُ أجْسادَهُمُ، ولكنْ قد يَمْنَعُ اللهُ الأرْضَ أنْ تَأْكُلَ أحدًا كَرامةً له. واللهُ المُوَفِّقُ.



١٥٠٨- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا. فَلَمَّا افْتَرَقَا، صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ». رواهُ البُخارِيُّ[1] مِنْ طُرُقٍ؛ وفي بَعْضِهَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ: أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بنُ بِشْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الشَّرْح

هذا حديثٌ ذَكَرَهُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ كراماتِ الأوْلياءِ وفَضْلِهِمْ وهو حديثُ الرَّجُلَيْنِ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ وعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا عند النَّبِيِّ ﷺ في ليلةٍ مُظْلِمةٍ وكان في ذاك الوقْتِ ليس في الأسْواقِ أنْوارٌ، بل ولا في البُيوتِ مَصابيحُ، فخَرَجا من عندِ النَّبِيِّ ﷺ في تلكَ الليلةِ المُظْلِمةِ، فجَعَلَ اللهُ تَعالى بين أيْدِيهِمَا مِثْلَ المِصْباحَيْنِ، يعني مِثْلَ لَمبةِ الكهرباءِ تُضِيءُ لهما الطريقَ، وليس هذا من فِعْلِهِمَا ولا بِسَبَبٍ منهما، ولكنَّ اللهَ تَعالى خَلَقَ نُورًا يَسْعَى بين أيْدِيهِمَا حتَّى تَفَرَّقَا وتَفَرَّقَ النُّورُ معَ كُلِّ واحدٍ منهما، حتَّى بَلَغَا بُيُوتَهُما، وهذا كَرامةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، من كَرامةِ اللهِ تَعالى أَنَّهُ يُضِيءُ للعَبْدِ الطَّريقَ، الطَّريقَ الحِسِّيَّ وفائدتُهُ حِسِّيَّة، فإنَّ هذيْنِ الرَّجُلَيْنِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وأرْضاهُما- مَشَيَا في إضاءةٍ ونُورٍ بينما الأسْوَاقُ ليس فيها إضاءَةٌ ولا أنْوارٌ والليلةُ مُظْلِمةٌ، فقَيَّضَ اللهُ لهما هذا النُّورَ.

كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥)، من حديث أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب، رقم (٤٦٥).

هناك أيضًا نُورٌ مَعْنَوِيٌّ يَقْذِفُهُ اللهُ تَعالى في قَلْبِ المُؤْمِنِ كَرامةً له، تَجِدُ بعضَ العُلماءِ يَفْتَحُ اللهُ عليه من العُلومِ العظيمةِ الواسِعةِ في كُلِّ فَنٍّ ويَرْزُقُهُ الفَهْمَ والحِفْظَ والمُجادلةَ لِنُصْرَةِ الحقِّ.

ومن هَؤُلاءِ العُلماءِ شَيْخُ الإسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحْمَةُ اللهِ عليه- فإنَّ هذا الرَّجُلَ مَنَّ اللهُ به على الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ، وما زالتِ الأُمَّةُ الإسْلامِيَّةُ تَنْتَفِعُ بكُتُبِهِ إلى يَوْمِنا هذا، وقد تُوُفِّيَ سنة (٧٢٨هـ) يعني منذُ مئاتِ السِّنِينَ، والأُمَّةُ تَنْتَفِعُ بكُتُبِهِ، وقد أعْطاهُ اللهُ تَعالى عِلْمًا عَظِيمًا وفَهْمًا ثاقِبًا، وقُوَّةً في المُجادَلةِ ولا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُجادِلَهُ في شيءٍ أبدًا، حتَّى أنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أيُّ إنسانٍ يُجادِلُنِي بالباطِلِ ويَسْتَدِلُّ بآيةٍ أو حَدِيثٍ فإنِّي سأَجْعَلُ الآيةَ والحديثَ دَلِيلًا عليه وليستْ دَلِيلًا له.

وهذا من نِعْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّ اللهَ تَعالى يُعْطِي الإنْسانَ قُدْرةً إلى هذا الحدِّ، وحتَّى أنَّهُ يَتَكَلَّمُ مع المُجادِلِينَ ويُناظِرُهُمْ ثم يقولُ لهم: انْظُرُوا إلى قولِ فُلانٍ من زُعمائِهِمْ في كِتابِهِ الفُلانِيِّ، وأتْباعُ هذا الرَّجُلِ الذي يُجادلونَ فيه -شيخَ الإسْلامِ- لا يَعْلَمُونَ عن كُتُبِهِ شيئًا وهو يَعْلَمُ ما في كُتُبِهِ، ومُناظَرَتُهُ في العَقِيدةِ الواسِطِيَّةِ مع القاضي المالِكِيِّ عَجِيبَةٌ، كان القاضي المالِكِيُّ يُحاوِلُ أنْ يَجْعَلَ السُّلطانَ يَبْطِشُ به، لكنَّهُ يقولُ: هذا لا يُمْكِنُ، ولا يَجْرِي على مَذْهَبِكُمْ وأنتم أيها المالِكِيَّةُ قُلْتُمْ كذا وكذا. ولا يُمْكِنُ أنْ يَدِينَ للوَالِي بهذا الذي ذَكَرْتَ بِناءً على مَذْهَبِكُمْ، فيُبْهَتُ الرَّجُلُ، كيفَ يَعْرِفُ من مَذْهَبِنَا ما لا نَعْرِفُ؟!

وله أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ في كُلِّ فنٍّ يَدٌ واسِعةٌ، كان عالِمًا في النَّحْوِ والعَرَبِيَّةِ والصَّرْفِ والبَلاغةِ، حتَّى أنَّ تِلْمِيذَهُ ابنَ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في بدائِعِ الفَوائِدِ بَحَثَ بَحْثًا دَقِيقًا جدًّا جدًّا في الفَرْقِ بَيْنَ (مَدَحَ) و(حَمِدَ) وكيفَ تُفَرِّقُ اللُّغةُ العَرَبِيَّةُ بين المَعاني في الكلماتِ

بتَقْدِيمِ حَرْفٍ أو تَأْخِيرِهِ وأَتى ببحثٍ عجيبٍ، ثم قال: وكان شَيْخُنا رَحِمَهُ اللَّهُ إذا تَكَلَّمَ بهذا أَتَى بالعَجَبِ العُجابِ، يعني في مَسْأَلَةِ اللُّغةِ والصَّرْفِ، ولكنَّهُ كما قال الشَّاعِرُ:

تَـأَلَّقَ الـبَرْقُ نَجْـدِيًّا فَقُلْـتُ لَـهُ يَا أَيُّهَا الـبَرْقُ إِنِّي عَنْـكَ مَشْـغُولُ[1]

يعني أنَّ شَيْخَ الإِسْـلامِ مُشْتَغِلٌ بما هو أكْـبَرُ مـن مَسْألةٍ نَحْـوِيَّةٍ أو بَلاغِيَّةٍ أو صَرْفِيَّةٍ، فهو مَشْغُولٌ بأكْبَرَ من هذا.

وفي يَوْمٍ من الأَيَّامِ قَدِمَ مِصْرَ وكان فيها أبو حَيَّانَ اللُّغَوِيُّ المَشْهُورُ المُفَسِّرُ منَ العُلماءِ الكِبارِ في هذا البابِ، وكان أبو حَيَّانَ يَمْدَحُ شَيْخَ الإِسْلامِ ابنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وله في مَدْحِهِ قَصِيدةٌ عَصْماءُ، منها قَوْلُهُ:

قَـامَ ابْـنُ تَيْمِيَّـةَ فِي نَصْـرِ شَرْعَتِنَـا مُقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَـتْ مُضَـرُ[2]

والمقصودُ بسَيِّدِ تَيْمٍ هو أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يعنـي أَنَّهُ قام في الإِسْلامِ في مِحْنَةِ الإِسْلامِ والبِدَعِ مُقامَ أبي بَكْرٍ في يَوْمِ الرِّدَّةِ ومَدَحَهُ في قَصِيدةٍ عَصْماءَ، فلما قَدِمَ مِصْرَ، جاءَ النَّاسُ إلى شَيْخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ يَسْتَفِيدونَ من عِلْمِهِ ويُناقِشُونَهُ، وكان من بينهم أبو حَيَّانَ، فنَاقَشَهُ في مَسْألةٍ نَحْوِيَّةٍ؛ لأنَّ أبا حَيَّانَ بَحْرٌ مُحِيطٌ في النَّحْوِ، ناقَشَهُ في مَسْألةٍ نَحْوِيَّةٍ فقال له شَيْخُ الإِسْلامِ: هذا غَلَطٌ ليس هذا من كلامِ العَرَبِ، فقال له: كيفَ وسِيبَوَيْهِ إمامُ النَّحْوِيِّينَ ذَكَرَ هذا في كِتابِهِ، فقال له شَيْخُ الإِسْلامِ: وهل سِيبَوَيْهِ نَبِيٌّ النَحْو يَجِبُ علينا أنْ نَتَّبِعَهُ؟ لقد أخْطَأَ سِيبَوَيْهِ في كِتابِهِ في أكْثَرَ من

(١) معجم البلدان (٥/ ٢٤٦) منسوبًا إلى عبد الرحمن بن دارة.

(٢) المقصد الأرشد (١/ ١٣٨) منسوبًا إلى أبي حيان الأندلسي.

ثَمانِينَ مَوْضِعًا لا تَعْلَمُهَا أنت ولا سِيبَوَيْهِ، سُبحانَ اللهِ! وسِيبَوَيْهِ عند النَّحْوِيِّينَ مِثْلُ البُخارِيِّ عند أهْلِ الحديثِ، فتَعَجَّبَ أبو حَيَّانَ، كيفَ يَقُولُ هذا الكلامَ، ثم إنَّهُ ذَهَبَ عنه فأَنْشَأَ فيه قَصِيدةً يَذُمُّهُ، والعياذُ باللهِ، بالأمسِ يَمْدَحُهُ والآن يَذُمُّهُ.

والمُهِمُّ أنِّي أَقُولُ: إذا كان اللهُ تَعالى يُعْطِي في الكراماتِ نُورًا حِسِّيًّا يَسْتَضِيءُ به الإنْسانُ، كما حَدَثَ لِهَذَيْنِ الصَّحابِيَّيْنِ، فكذلك يُعْطِي اللهُ نُورًا مَعْنَوِيًّا يَقْذِفُهُ في قَلْبِ العَبْدِ المُؤْمِنِ، نسألُ اللهَ أنْ يَجْعَلَنَا وإيَّاكُمْ من هَؤُلاءِ، وأنْ يَقْذِفَ في قُلوبِنا نُورًا وهُدًى، يَسْتَطِيعُ الإنْسانُ به أنْ يَتَكَلَّمَ في شَريعةِ اللهِ، وكأنَّ النُّصوصَ بين عَيْنَيْهِ، وهذا من نِعْمةِ اللهِ على العَبْدِ، فنَسْألُ اللهَ تَعالى أنْ يَجْعَلَنا منْ أوْلِيائِهِ المُتَّقِينَ وحِزْبِهِ المُفْلِحِينَ وعِبادِهِ الصَّالِحِينَ.



١٥٠٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ رَهْطٍ عَيْنًا سَرِيَّةً، وأَمَّرَ عَلَيْهَا عاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بالهَدْأَةِ؛ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ؛ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقالُ لَهُمْ: بَنُو لحيَانَ، فَنَفَرُوا لَهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِئَةِ رَجُلٍ رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وأَصْحَابُهُ، لَجَؤُوا إِلَى مَوْضِعٍ، فَأَحاطَ بِهِمُ القَوْمُ، فَقَالُوا: انْزِلُوا فَأَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمُ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أحَدًا. فَقَالَ عَاصِمُ بنُ ثَابِتٍ: أَيُّهَا القَوْمُ، أَمَّا أنا، فَلَا أَنْزِلُ عَلَى ذِمَّةِ كَافِرٍ: اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا، وَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ عَلَى العَهْدِ والمِيثاقِ، مِنْهُمْ خُبَيْبٌ، وَزَيدُ بنُ الدَّثِنَةِ وَرَجُلٌ آخَرُ. فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ، فَرَبطُوهُمْ بِهَا. قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ: هَذَا أَوَّلُ الغَدْرِ واللهِ

لا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ لِي بِهؤُلاءِ أُسْوَةً، يُرِيدُ القَتْلَى، فَجَرُّوهُ وعَالَجُوهُ، فأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ، فَقَتَلُوهُ، وانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ، وزَيْدِ بنِ الدَّثِنَةِ، حَتَّى بَاعُوهُما بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ؛ فابْتَاعَ بَنُو الحارِثِ بنِ عامِرِ بنِ نَوْفَلِ بنِ عَبْدِ مَنَافٍ خُبَيْبًا، وكان خُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ. فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا حَتَّى أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ، فاسْتَعَارَ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الحَارِثِ مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ، فَدَرَجَ بُنَيٌّ لَهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتَّى أَتَاهُ، فَوَجَدتهُ مُجْلِسَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَالموسَى بِيَدِهِ، فَفَزِعَتْ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ. فَقَالَ: أَتَخْشَيْنَ أن أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ ذَلِكَ! قالتْ: واللهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، فواللهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّهُ لَرِزْقٌ رَزَقَهُ اللهُ خُبَيْبًا. فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الحِلِّ، قَالَ لَهُمْ خُبَيْبٌ: دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فَقَالَ: واللهِ لَوْلَا أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَزِدْتُ: اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَاقْتُلْهُمْ بِدَدًا، وَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا. وقال:

فَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وكان خُبَيبٌ هُوَ سَنَّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلَاةَ. وأَخْبَرَ -يعني: النَّبِيَّ ﷺ- أَصْحَابَهُ يَوْمَ أُصِيبُوا خَبَرَهُمْ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمِ بنِ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتَوْا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وكَانَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ لِعَاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا. رَوَاهُ البُخَارِيُّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، رقم (٣٩٨٩).

قَوْلُهُ: «الهَدْأَةُ»: مَوْضِعٌ، «والظُّلَّةُ»: السَّحَابُ. «الدَّبْرُ»: النَّحْلُ. وَقَوْلُهُ: «اقْتُلْهُمْ بِدَدًا» بِكَسْرِ الباءِ وفَتْحِهَا، فَمَنْ كَسَرَ قَالَ: هُوَ جَمْعُ بِدَّةٍ بكَسْرِ الباءِ وهي النَّصِيبُ، ومعناهُ: اقْتُلْهُمْ حِصَصًا مُنْقَسِمَةً لِكُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ نَصيبٌ، وَمَنْ فَتَحَ قَالَ معناهُ: مُتَفَرِّقِينَ في القَتْلِ واحدًا بَعْدَ واحِدٍ مِنَ التَّبْدِيدِ.

وفي البابِ أحاديثُ كَثيرةٌ صَحيحةٌ سَبقَتْ في مَوَاضِعِها مِنْ هَذَا الكِتَابِ، مِنْهَا حديثُ الغُلامِ الَّذِي كَانَ يأتِي الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ[١]، ومنْها حَدِيثُ جُرَيْجٍ[٢]، وحديثُ أصْحابِ الغَارِ الذين أَطْبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ[٣]، وَحديثُ الرَّجُلِ الَّذِي سَمِعَ صَوْتًا في السَّحَابِ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ[٤]، وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَالدَّلائِلُ في البابِ كَثيرةٌ مَشهُورةٌ، وباللهِ التَّوْفِيقُ.

١٥١٠- وعنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَا سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولُ لِشَيءٍ قَطُّ: إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا، إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ. رواهُ البُخاريُّ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود، رقم (٣٠٠٥)، من حديث صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إذا هدم حائطًا فليبن مثله، رقم (٢٤٨٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، رقم (٢٥٥٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٨٦٦). وانظر: التعليق على صحيح البخاري لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٧/ ٦٦٦).

الشَّرْح

ساقَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ كَراماتِ الأَوْلياءِ وفَضْلِهِمْ عِدَّةَ أَحادِيثَ، ومنها حَدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قِصَّةِ عاصِمِ بْنِ ثابِتٍ الأَنْصارِيِّ وصَحْبِهِ، أَرْسَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً وهم عَشَرَةٌ عَيْنًا يعني مِثْلَ الجَواسِيسِ على العَدُوِّ، حيثُ أَخْفاهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلمَّا وصَلُوا قُرْبَ مَكَّةَ شَعَرَ بهم جَماعةٌ من هُذَيْلٍ فخَرَجُوا إليهم في نحوِ مائةِ رَجُلٍ رامٍ يعني يُجِيدونَ الرَّمْيَ، فاتَّبَعُوا آثارَهُمْ حتَّى أحاطوا بهم، ثم طَلَبُوا منهم -أي الهُذَلِيُّونَ- أنْ يَنْزِلُوا بأمانٍ وأَعْطَوْهُمْ عهدًا أنْ لا يَقْتُلوهُمْ، فأمَّا عاصِمٌ فقالَ: واللهِ لا أَنْزِلُ على ذِمَّةِ كافِرٍ أي على عَهْدِهِ؛ لأنَّ الكافِرَ قد خانَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ومَنْ خانَ اللهَ خانَ عِبادَ اللهِ؛ ولهذا لمَّا كَتَبَ أبو مُوسى الأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ عنده رَجُلًا نَصْرانِيًّا جَيِّدًا في المُحاسبةِ وطَلَبَ من عُمَرَ أنْ يَأْذَنَ له أن يُوَظِّفَ هذا النَّصْرانِيَّ على بيتِ المالِ؛ لأنَّهُ رَجُلٌ جَيِّدٌ في الحِسابِ، فكتَبَ إليه عُمَرُ: إنِّي لا آمَنُ مَنْ خانَ اللهَ ورسولَهُ؛ لأنَّ كُلَّ كافِرٍ فهو خائِنٌ ولا تُوَلِّهِ على بَيْتِ المالِ، فكَتَبَ إليه أبو مُوسى مَرَّةً ثانيةً قال: هذا الرَّجُلُ قلَّما يُوجَدُ مِثْلُهُ في الحسابِ والجَوْدةِ، فكتَبَ إليه عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، من أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَر بن الخَطَّابِ: ماتَ النَّصْرانِيُّ، والسَّلامُ»[1].

جُملةٌ واحِدةٌ، «ماتَ النَّصْرانِيُّ» يعني قَدِّرْ أَنَّهُ ماتَ، هل إذا ماتَ تَتَعَطَّلُ المُحاسَبةُ عندنا في بيتِ المالِ، فَقَطَعَ طَمَعَ أبي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المُهِمُّ: أنَّ عاصِمَ بنَ ثابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبى أنْ يَنْزِلَ على عَهْدِ الكُفَّارِ؛ لأنَّهُم لا يُؤْتَمَنُونَ، كُلُّ كافِرٍ فهو غيرُ أَمِينٍ، ثم إنَّ هَؤُلاءِ الهُذَلِيِّينَ رَمَوْا هَؤُلاءِ الصَّحابةَ

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٣)، والآداب الشرعية (٢/ ٤٤٨).

العَشَرَةَ بالنَّبْلِ، فقَتَلُوا عاصِمًا وقَتَلُوا سِتَّةً آخرينَ، وبَقِيَ ثلاثةٌ، وقالوا: نَنْزِلُ ونَنْظُرُ هل يُوَفُّونَ أم لا، فأخَذَهُمُ الهُذَلِيُّونَ ثم حَلُّوا قِسِيَّهُمْ ورَبَطُوا أيْدِيَهُمْ، فقالَ الثَّالِثُ: هذا أوَّلُ الغَدْرِ، لا يُمْكِنُ أنْ أَصْحَبَكُمْ، فحَاوَلُوا معه قال: أبدًا فقَتَلُوهُ، ثم ذَهَبُوا بخُبَيْبٍ وصاحِبِهِ إلى مَكَّةَ فباعوهما، فاشْتَرى خُبَيْبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُناسٌ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ وكان قد قَتَلَ زَعِيمًا لهم في بَدْرٍ، ورَأَوْا أنَّ هذه فُرْصَةٌ أنْ يَقْتُلوهُ، ثم أَبْقَوْهُ عندهم أَسِيرًا مَغْلُولةٌ يداهُ، وفي يومٍ منَ الأيَّامِ كان في البَيْتِ، وكان أَسِيرًا مَغْلُولةٌ يَدُهُ، فدَرَجَ صَبِيٌّ من أهْلِ البَيْتِ إلى خُبَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكأنَّهُ رَقَّ له ورَحِمَهُ كعادةِ الإنْسانِ يَرْحَمُ الصِّغارَ ويَرِقُّ لهم، ولهذا إذا رأيْتَ من نَفْسِكَ أنَّكَ تَرِقُّ للصِّغارِ وتَرْحَمُهُمْ فهذه من علامةِ رَحْمةِ اللهِ لك؛ لأنَّ الرَّاحمينَ يَرْحَمُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال الأقْرَعُ بْنُ حابِسٍ لَمَّا رأى النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُ الحَسَن قال: إنَّ لي عَشَرَةً منَ الوَلَدِ ما قَبَّلْتُهُمْ، قال: «أَوَأَمْلِكُ أَنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ»[1]، «إنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[2].

خُبَيْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخَذَ الصَّبِيَّ ووضَعَهُ على فَخِذِهِ، وكان قد اسْتعارَ منْ أهْلِ البَيْتِ مُوسَى (يعني مُوسًى) يَسْتَحِدُّ به، أي يَحْلِقُ به عانتَهُ، لَمَّا ذَهَبَ الصَّبِيُّ يَدْرُجُ (يَلْعَبُ) وأمُّهُ غافِلةٌ عنه، لَمَّا تَفَطَّنَتْ له وهو على فَخِذِ خُبَيْبٍ، وخُبَيْبٌ معه المُوسُ فظَنَّتْ أنَّ هذه فُرْصَةٌ لِخُبَيْبٍ، ماذا يَصْنَعُ، يَذْبَحُ الوَلَدَ، المُوسُ معه والوَلَدُ صَبِيٌّ وهو مُنْفَرِدٌ به، لكنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمِينٌ، صحابِيٌّ جَلِيلٌ، لَمَّا أَحَسَّ أنَّها ارْتاعتْ (فَزِعَتِ) الأُمُّ، قال: واللهِ ما كنتُ لِأَذْبَحَهُ، قالتْ: واللهِ ما رَأَيْتُ أسيرًا خَيْرًا من خُبَيْبٍ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم (٥٩٩٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «يُعذب...»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رأيتُهُ ذات يومٍ وفي يَدِهِ قِطْفُ عِنَبٍ يَأْكُلُهُ، ومَكَّةُ ما فيها شيءٌ من ثَمَرٍ، فعَلِمتُ أنَّ ذلك من عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقدْ هَيَّأَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له هذا العِنَبَ، وهو أَسِيرٌ لا يَمْلِكُ لنفسِهِ شيئًا، لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَخْرُجَ إلى السُّوقِ يَشْتَرِي أو يَطْعَمُ، تحتَ رَحْمةِ هَؤُلاءِ، ولكنَّ اللهَ جَلَّوَعَلَا يَسَّرَ له هذا القِطْفَ من العِنَبِ، يَأْكُلُ عِنَبًا وهو في مَكَّةَ فعَلِمتُ أَنَّهُ من عندِ اللهِ.

وهذا كقِصَّةِ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]. فهذه من كرامةِ اللهِ تَعالى لِخُبَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أكْرمهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تَنْزِلُ عليه مائدةٌ من العِنَبِ يَأْكُلُهَا وهو أَسِيرٌ في مكَّةَ، وبَقِيَ أسيرًا ثم أجْمَعَ هَؤُلاءِ القومُ الذين قُتِلَ والِدُهم على يدِ خُبَيْبٍ، على أنْ يَقْتُلُوهُ، لَكِنَّهم لاحْترامِهِمْ للحَرَمِ قالوا: نَقْتُلُهُ خارِجَ الحَرَمِ؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا قَتَلَ أحدًا خارِجَ الحَرَمِ ودَخَلَ إلى الحَرَمِ فإنَّهُ لا يَجُوزُ أنْ يُقْتَلَ في الحَرَمِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران:٩٧].

فهذه سُنَّةٌ كانتْ في الجاهِلِيَّةِ، وأقَرَّها الإسْلامُ على أنَّ الإنْسانَ إذا فَعَلَ ما يُوجِبُ القَتْلَ خارِجَ الحَرَمِ ثم لَجَأَ إلى الحَرَمِ، فإنَّ الحَرَمَ يُعِيذُهُ، ولا يَجُوزُ أنْ يُقْتَلَ؟ فماذا يَصْنَعُونَ به، **لو قال قائِلٌ**: لو سَلَّمْنا بهذه القاعِدةِ، كان كُلُّ إنسانٍ مُجْرِمٍ يَذْهَبُ إلى الحَرَمِ ويَلوذُ به، قلنا: لا، نَحْنُ لا نَقْتُلُهُ في الحَرَمِ، لكنْ نُضَيِّقُ عليه حتَّى يَخْرُجَ، كيفَ نُضَيِّقُ عليه؟

قال العُلماءُ: لا يُؤاكَلُ ولا يُشارَبُ ولا يُبايَعُ ولا يُشْتَرَى منه ولا يُكَلَّمُ، نُضَيِّقُ عليه حتَّى تَضِيقُ عليه الأرْضُ بما رَحُبَتْ، حينئذٍ ماذا يَفْعَلُ؟ يَخْرُجُ، وإذا خَرَجَ أقَمْنا عليه ما يَجِبُ عليه.

المُهِمُّ: أنَّهُم خَرَجُوا بخُبَيْبٍ خارِجَ الحَرَمِ إلى الحِلِّ لِيَقْتُلُوهُ، فطَلَبَ منهم أنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ؛ لأنَّ أشْرَفَ الأعْمالِ البَدَنِيَّةِ الصَّلاةُ، ولأنَّها صلةٌ بينَ العبْدِ وبيْنَ ربِّهِ عَزَّوَجَلَّ، فأَذِنُوا له أنْ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ، ثم قال: لولا أني أخافُ أنْ تَظُنُّوا أنَّ ما بي جَزَعٌ لَزِدْتُ؛ لأنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان حريصًا على الصَّلاةِ، ويُحِبُّ أنْ يُكْثِرَ منها عند مَوْتِهِ، ثم دَعا عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه الدَّعواتِ الثلاثِ، اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، واقْتُلْهُمْ بِدَدًا، ولا تُبْقِ منهم أحَدًا. فأجابَ اللهُ دَعْوتَهُ، وما دار الحَوْلُ على واحِدٍ منهم، كلُّهُم قُتِلُوا وهذا من كراماتِهِ. ثم أنْشَدَ هذا الشِّعْرَ:

ولَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ فَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فصار مِنَ الكَرامةِ لهذا الرَّجُلِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان يَرْزُقُهُ الفاكِهَةَ التي لا تُوجَدُ في مَكَّةَ، وأنَّهُ كان يَأْكُلُها بِيَدِهِ، ويَدُهُ مُوَثَّقَةٌ بالحديدِ، وأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سنَّ الصَّلاةَ عند القَتْلِ، فإنَّهُ فَعَلَ ذلك وأقرَّهُ اللهُ تَعالى ورَسُولُهُ ﷺ، وأنَّهُ دَعا على هَؤُلاءِ القومِ، فأجابَ اللهُ دَعْوتَهُ.

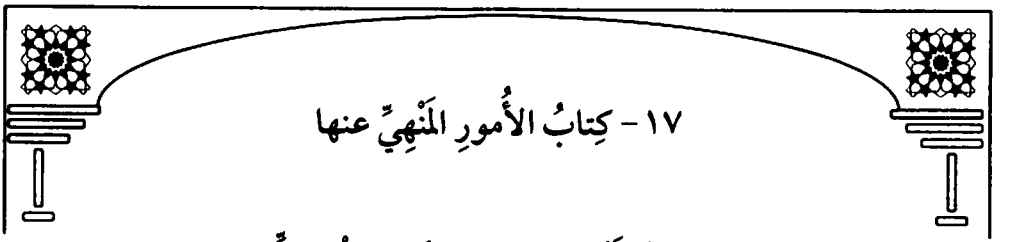
أمَّا عاصِمُ بنُ ثابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قُتِلَ فإنَّهُ شَعَرَ به قَوْمٌ من قُرَيْشٍ وكان قد قَتَلَ رَجُلًا من عُظمائِهِمْ، فأرْسَلُوا إليه جماعةً يَأْتُونَ بشيءٍ من أعضائِهِ يُعْرَفُ به حتَّى يَطْمَئِنُّوا أنَّه قُتِلَ، فلمَّا جاءَ هَؤُلاءِ القَوْمُ لِيَأْخُذُوا شيئًا من أعضائِهِ، أرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه شيئًا مِثْلَ الظُّلَّةِ منَ الدَّبْرِ -أي: مِنَ النَّحْلِ- نَحْلٌ عَظِيمٌ، يَحْمِيهِ به اللهُ تَعالى من هَؤُلاءِ القوْمِ، فعَجَزُوا أنْ يَقْرَبُوهُ ورَجَعُوا خائِبِينَ، وهذا أيضًا من كَرامةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعاصِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَمَى جُثَّتَهُ بعدَ مَوْتِهِ منْ هَؤُلاءِ الأعْداءِ الذين يُريدونَ أنْ يُمَثِّلُوا به.

والكراماتُ كثيرةٌ ذَكَرَ المُؤَلِّفُ منها ما ذكر في هذا الباب، وذكر أيضًا أشياءَ مُتَفَرِّقَةً في هذا الكِتابِ.

قال شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنْ عَقِيدَةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ التَّصْدِيقُ بكراماتِ الأوْلياءِ، وما يُجْرِي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أيْدِيهِمْ مِنْ أنْواعِ العُلومِ والمُكاشفاتِ، والقُدْرةِ والتَّأْثِيراتِ[1]. وقال: الكَراماتُ مَوْجُودَةٌ قَبْلَ هذه الأُمَّةِ، وفي صَدْرِ هذه الأُمَّةِ إلى يَوْمِ القِيامةِ، وذكَرَ شيئًا كثيرًا منها في كِتابِهِ (الفُرْقانُ بَيْنَ أوْلياءِ الشَّيْطانِ وأوْلياءِ الرَّحْمَنِ).



(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٦).



١٧- كِتابُ الأُمورِ المَنْهِيِّ عنها

٢٥٤- بابُ تَحْرِيمِ الغِيبةِ والأمْرِ بحِفْظِ اللِّسانِ



الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بابُ تَحْريمِ الغِيبةِ والأمْرُ بحِفْظِ اللِّسانِ، والغِيبةُ بَيَّنَها النَّبِيُّ ﷺ حين قال لأصحابِهِ: «أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟» قالوا: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ قال: «الغِيبَةُ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إنْ كان في أخي ما أَقُولُ، قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1]، فالغِيبةُ منْ كَبائِرِ الذُّنوبِ التي لا تُكَفِّرُها الصَّلاةُ ولا الصَّدَقةُ ولا الصِّيامُ ولا غَيْرُها مِنَ الأعْمالِ الصَّالِحةِ، بل تَبْقَى على المُوازَنةِ، قال ابنُ عبْدِ القَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في نَظْمِهِ الآدابِ[2]:

وقَدْ قِيلَ صُغْرَى غِيبَةٌ ونَمِيمَةٌ ... وكِلْتاهُما كُبْرَى عَلَى نَصِّ أَحْمَد

أي الإمامِ أحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يعني أَنَّهُ قد نَصَّ على أنَّ الغِيبةَ والنَّمِيمةَ مِنْ كَبائِرِ الذُّنوبِ، وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ في تَعْريفِ الغِيبةِ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» يَشْمَلُ ما يَكْرَهُهُ من عَيْبٍ خِلْقِيٍّ وعَيْبٍ خُلُقيٍّ وَعَيْبٍ دِينِيٍّ، فكُلُّ شيءٍ يَكْرَهُهُ فإنَّكَ إذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الألفية في الآداب الشرعية (ص:٢٧).

ذَكَرْتَهُ به فهي غِيبةٌ، منَ العَيْبِ الخِلْقِيِّ مثلًا لو اغْتَبْتَهُ بأَنَّهُ أعْرَجُ، أَعْوَرُ، أو طويلٌ، أو قصيرٌ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، هذه غِيبَةٌ، أو خُلُقِيٌّ كما لو اغْتَبْتَهُ بأَنَّهُ ليس بعفيفٍ، يعني يَتَتَبَّعُ النِّساءَ، يَنْظُرُ إلى النِّساءِ، يَنْظُرُ إلى المُرْدانِ، وما أَشْبَهَ ذلك، أو عَيْبٍ دِينِيٍّ، بأنْ تَقُولَ: إنَّهُ مُبْتَدِعٌ، أو إنَّهُ لا يُصَلِّي مع الجماعةِ، إنَّهُ لا يَفْعَلُ كذا وكذا، تَعِيبُهُ في غَيْبَتِهِ؛ ولهذا سُمِّيَتْ غِيبَةً، لأنَّها في غَيْبَةِ الإنْسانِ، أمَّا لو كان ذلك في وجْهِهِ فإنَّهُ يُسَمَّى سَبًّا وشَتْمًا ولا يُسَمَّى غِيبةً.

وقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ». يعني بَهَتَّهُ مع الغِيبةِ، فحذَفَ الشِّقَّ الثَّانِيَ؛ لأنَّهُ معلومٌ، ونظيرُ ذلك في الكَلامِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال ذات يَوْم: «وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قالوا: أَوَلَسْنَا إخْوانَكَ؟ قال: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ»[1].

يعني فيُؤْمِنُونَ به وهم لا يَرَوْنَهُ، فقولُهُ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي» لا يعني بذلك نَفْيَ الأُخُوَّةِ بل الصَّحابةُ إخْوانُهُ وأصْحابُهُ، ومَنْ بَعْدَهُ إخْوانُهُ وليسوا أصحابَهُ، هذا أيضًا.

«فَقَدْ بَهَتَّهُ» يعني أنَّهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ غِيبةً بل هو غِيبةٌ وبُهْتانٌ، واعْلَمْ أنَّ الغِيبةَ تَزْدَادُ قبْحًا وإثْمًا بحَسَبِ ما تُؤدِّي إليه، فغِيبةُ العامِّيِّ من النَّاسِ ليست كغِيبةِ العالِمِ، أو ليست كغِيبةِ الأميرِ، أو المديرِ، أو الوزيرِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك؛ لأنَّ غِيبةَ وُلاةِ الأُمورِ صغيرًا كان الأمْرُ أو كبيرًا أَشَدُّ من غِيبةِ مَنْ ليس له إمْرَةٌ وليس له أمْرٌ ولا وِلايةٌ؛ لأنَّكَ إذا اغْتَبْتَ عامَّةَ النَّاسِ إنَّما تُسِيءُ إليه شخصيًّا فقط، أمَّا إذا اغْتَبْتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَنْ له أمْرٌ فقد أَسَأْتَ إليه وإلى ما يَتَوَلَّاهُ من أُمورِ المُسْلِمِينَ، مثلًا لو أنَّكَ اغْتَبْتَ عالِمًا منَ العُلماءِ، فهذا لا شَكَّ أنَّهُ عُدْوانٌ عليه شخصيًّا كغيرِهِ من المُسْلِمِينَ، لَكِنَّكَ أيضًا أَسَأْتَ إساءةً كبيرةً إلى ما يَحْمِلُهُ منَ الشَّريعةِ، رَجُلٌ عالِمٌ يَحْمِلُ الشَّريعةَ إذا اغْتَبْتَهُ سَقَطَ في أعْيُنِ النَّاسِ، وإذا سَقَطَ من أَعْيُنِ النَّاسِ لن يَقْبَلُوا قولَهُ، ولنْ يَأْتُوا إليه ولنْ يَرْجِعُوا إليه في أُمورِ دِينِهِمْ، وصارَ ما يَقُولُهُ من الحقِّ مَشْكُوكًا فيه؛ لأنَّكَ اغْتَبْتَهُ، فهذه جِنايةٌ عظيمةٌ على الشَّريعةِ.

كذلك الأُمراءُ، إذا اغْتَبْتَ أميرًا أو مَلِكًا، أو رَئِيسًا أو ما أَشْبَهَ ذلك، فليست هذه غِيبةً شَخْصِيَّةً له فقط بل هي غِيبةٌ له وفسادٌ لولايةِ أَمْرِهِ؛ لأنَّك إذا اغْتَبْتَ الأميرَ أو الوزيرَ أو المَلِكَ معْناها أنَّك تَشْحِنُ قُلوبَ الرَّعِيَّةِ على وُلاتِهِمْ، وإذا شَحَنْتَ قُلوبَ الرَّعِيَّةِ على وُلاتِهَا فإنَّك في هذه الحال أَسَأْتَ إلى الرَّعِيَّةِ إساءَةً كبيرةً؛ إذْ إنَّ هذا سَبَبٌ لِنَشْرِ الفَوْضَى بين النَّاسِ، وتَمَزُّقِ النَّاسِ وتَفَرُّقِهِمْ، واليَـوْمَ يَكُونُ رَمْيًا بالكلامِ، وغدًا يَكُونُ رَمْيًا بالسِّهامِ؛ لأنَّ القُلوبَ إذا شُحِنَتْ وكَرِهَتْ وُلاةَ أُمورِها، فإنَّها لا يُمْكِنُ أنْ تَنْقادَ لأوامِرِهِمْ، إذا أُمِرَتْ بخَيْرٍ رَأَتْهُ شَرًّا؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ كَلِمةً صادِقةً، قالَ:

وعَيْنُ الرِّضَا عَـنْ كُـلِّ عَيْـبٍ كَلِيلَـةٌ ... كَمَا أنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَـاوِيَا[1]

فأنت مثلًا إذا اغْتَبْتَ أحدًا مِنْ كِبارِ الذين لهم وِلايةُ أَمْرٍ على المُسْلِمِينَ، قِيادةٌ دِينِيَّةٌ، أو قِيادةٌ تَنْفِيذِيَّةٌ وسُلْطَةٌ، فإنَّك تُسِيءُ إلى المُسْلِمِينَ عُمومًا من حيثُ لا تَشْعُرُ، قد يَظُنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هذا يَشْفِي من غَلِيلِهِ وغَليانِهِ، لكنْ كيفَ يَصُبُّ جامَّهُ على أمْنٍ مُسْتَقِرٍّ؛ لِيَقْلِبَ هذا الأمْنَ إلى خَوْفٍ، وهذا الاسْتقرارَ إلى قَلَقٍ، أو يَقْلِبَ

(١) لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، من ديوانه، (ص: ٩٠).

هذه الثِّقةَ بالعالِمِ إلى عَدَمِ الثِّقةِ، إذا كُنْتَ ذا غَلَيانٍ أو إذا كان صَدْرُكَ مَمْلُوءًا غَيْظًا فصُبَّهُ على نَفْسِكَ قبلَ أنْ تَصُبَّهُ على غَيْرِكَ، انْظُرْ في مَساوِئِكَ أنت، هل أنت ناجٍ من المَساوِئِ؟ هل أنت سالِمٌ؟ أوَّلُ عَيْبٍ فيك أنَّك تَسُبُّ وُلاةَ الأُمورِ وتَغْتابُ وُلاةَ الأُمورِ.

قد يَقولُ: أنا أُرِيدُ أنْ آمُرَ بالمَعْرُوفِ وأنْهَى عنِ المُنْكَرِ.

نقولُ: حَسَنًا ما قَصَدْتَ، ولكنَّ البُيُوتَ تُؤْتَى من أبْوابِها، فليس طَرِيقُ الأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ أنْ تَنْشُرَ مَعايِبَ وُلاةِ أُمورِكَ؛ لأنَّ هذا ممَّا يَزِيدُ المُنْكَرَ، لا يَثِقُ النَّاسُ بأَحَدٍ، فإذا قال العالِمُ: هذا مُنْكَرٌ، قالوا: هذا اجْعَلُوهُ على جَنْبٍ، وإذا قال الأميرُ: هذا مُنْكَرٌ، وأرادَ أنْ يَمْنَعَ منه، يَقُولونَ: لا، أنت ما أَصْلَحْتَ نَفْسَكَ حتَّى تُصْلِحَ غَيْرَكَ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

فيَحْدُثُ بهذا ضَرَرٌ كبيرٌ على المُسْلِمِينَ، والعَجَبُ أنَّ بعضَ المَفْتُونِينَ بهذا الأمْرِ، أي بِسَبِّ وُلاةِ الأُمورِ منَ العُلماءِ والأُمراءِ، العَجَبُ أنَّهم لا يَأْتُونَ بحَسناتِ هَؤُلاءِ الذين يَغْتابُونَهُمْ، حتَّى يَقُوموا بالقِسْطِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أيْ: لا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُهُمْ على ألَّا تَعْدِلُوا، والعَجَبُ أيضًا أنَّك لا تَكادُ تَجِدُ في مَجالِسِهِمْ أو في أَفْواهِهِمْ يومًا منَ الدَّهْرِ إلَّا قليلًا أنَّهم يقولونَ للنَّاسِ: يا أيها النَّاسُ اتَّقُوا كذا، اتَّقُوا الغِشَّ، اتَّقُوا الكَذِبَ. الغِشُّ مَوْجودٌ في الأسْواقِ، في البَيْعِ والشِّراءِ والمُعاملاتِ، والكَذِبُ مَوْجودٌ أيضًا، والغِيبةُ مَوْجودةٌ، لا تَكادُ تَجِدُ أنَّهم يَصُبُّونَ غَضَبَهُمْ على إصْلاحِ العامَّةِ ويُحَذِّرُونَهُمْ،

ومنَ المَعْلومِ أنَّ العامَّةَ إذا صَلَحَتْ فالشَّعْبُ هو العامَّةُ، الشَّعْبُ يَتكَوَّنُ من أفرادٍ من زَيْدٍ وعَمْرٍو وبَكْرٍ وخالدٍ، إذا صَلَحَتِ الأفْرادُ صَلَحَ الشَّعْبُ، وإذا صَلَحَ الشَّعْبُ فلا بُدَّ أنْ تَصْلُحَ الأُمَّةُ كُلُّها، لكنَّ بعضَ النَّاسِ يكونُ فيه مَرَضٌ، يُحِبُّ مِثْلَ هذا الأمْرِ، يُحِبُّ أنْ يَطْرَحَ على بِساطِ البحثِ عالِمًا منَ العُلماءِ فيَتَتَبَّعُ عَوراتِهِ ولا يَذْكُرُ خَيْراتِهِ، ويُشِيعُ هذه العَوراتِ بينَ النَّاسِ، أو يَأْخُذُ أميرًا، أو وَزِيرًا، أو رَئِيسًا، أو مَلِكًا، فيَضَعُهُ على البِساطِ، ثم يُشَرِّحُهُ، ويَتكَلَّمُ فيه، ولا يَذْكُرُ شيئًا من حَسناتِهِ، سُبْحانَ اللهِ، أين العَدْلُ؟ إذا كانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]. حتَّى في مُعاملةِ المُشْرِكِينَ، يقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف:٢٨]. قالوا كَلِمَتَيْنِ: وجَدْنَا عليها آباءَنا.

والثَّانِيةُ: واللهُ أمَرَنَا بها، حَكَمَ اللهُ بينهم فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فقَبِلَ منهم الحقَّ وهو أنَّهم وجَدُوا آباءَهُم عليها وردَّ الباطِلَ وهو قَوْلُهُم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

فإذا كُنْتَ تُرِيدُ أنْ تَتكَلَّمَ فتكَلَّمْ بالعَدْلِ، أمَّا أنْ تَتَبَّعَ عَوراتِ المُسْلِمِينَ ولا سِيَّما وُلاةُ الأُمورِ منهم، فاعْلَمْ أنَّ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرةَ أخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرتَهُ، وأنَّ مَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرتَهُ فَضَحَهُ ولو في بَيْتِ أُمِّهِ.

المهم أنَّ علينا أنْ نَتَجَنَّبَ الغِيبةَ، وأنْ نَكُفَّ ألْسِنَتَنا، وأنْ نَعْلَمَ أنَّ كُلَّ كَلِمةٍ تكونُ غِيبةً لشخصٍ هي نَقْصٌ من حَسناتِنَا وزِيادةٌ في حَسناتِ هذا الذي ظُلِمَ بِسَبَبِهِ، كما جاءَ في الحديثِ: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟» قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَنْ لا دِرْهَمَ له ولا متاعَ، فقال: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيامةِ بِصَلاةٍ وصِيامٍ وَزَكاةٍ ويَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وضَرَبَ هَذَا، فيُعْطَى

هَذَا مِنْ حَسَناتِهِ، وهَذَا مِنْ حَسَناتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

حتَّى أَنَّنا سَمِعْنا عنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ سَمِعَ عن شَخْصٍ يَغْتابُهُ، فأرْسَلَ الذي اغْتِيبَ إلى الذي اغتابَهُ بهَدِيَّةٍ. وقال له: أنت أَهْدَيْتَنِي حَسَناتٍ أَنْتَفِعُ بها يَوْمَ القِيامةِ وأنا أُهْدِيكَ هذه الهَدِيَّةَ تَنْتَفِعُ بها في الدُّنْيا الزَّائِلةِ.

المُهِمُّ يا إِخْوانِي: فنَصِيحَتِي لنَفْسي ولكم أنْ تَتَجَنَّبوا الغِيبَةَ، وأنْ تَتَجَنَّبُوا الخَوْضَ في مَساوِئِ وُلاةِ الأُمورِ منَ العُلماءِ والأُمراءِ والسَّلاطينِ، وغيرهم، وإذا كنتم تُرِيدُونَ الخَيْرَ والإِصْلاحَ فالبابُ مفتوحٌ، والطُّرُقُ مَوْجودةٌ، اتَّصِلُوا مُباشرةً بأَنْفُسِكم، أو اتَّصِلُوا بقَنواتٍ أُخْرَى إذا لم تَسْتَطِيعُوا أنْ تَتَّصِلُوا بأَنْفُسِكم، ثم إذا أَدَّيْتُمُ الواجبَ سَقَطَ عنكم ما وراءَ ذلك.

ثم اعْلَمْ يا أخي هل غِيبَتُكَ هذه -للعُلماءِ أو للأُمراءِ- تُصْلِحُ منَ الأُمورِ شيئًا؟ أبدًا بل هي إفْسادٌ في الواقعِ ولا تَزِيدُ الأمْرَ إلَّا شِدَّةً، ولا تَرْتَفِعُ بها مَظْلمةٌ، ولا يَصْلُحُ بها فاسِدٌ. نسألُ اللهَ أنْ يَحْمِيَ ويَحْفَظَ ألْسِنَتَنا مِمَّا يَكْرَهُهُ، وأنْ يُوَفِّقَنا لِمَا فيه الخيرُ والصَّلاحُ.



قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]. **وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾** [الإسراء:٣٦].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابُ تَحْريمِ الغِيبةِ والأمْرِ بحِفْظِ اللِّسانِ، وسَبَقَ لنا أنَّ الغِيبةَ هي: أنْ تَذْكُرَ أَخاكَ بما يَكْرَهُ، في دِينِهِ أو خُلُقِهِ أو خِلْقَتِهِ أو غيْرِ ذلك، وسَبَقَ لنا أنَّ الغِيبةَ من الكبائِرِ، وأنَّهُ لا تُكَفِّرُها الصَّلاةُ ولا الصَّدقةُ ولا الصِّيامُ ولا الحَجُّ، إلَّا أنَّها كغَيْرِها من الكَبائِرِ يُوازَنُ بينها وبين الحَسناتِ، وسَبَقَ لنا أنَّ الغِيبةَ تَخْتَلِفُ حُكْمُها بحَسَبِ ما تُؤَدِّي إليه من مفاسِدَ، وسَبَقَ لنا أنَّ غِيبةَ وُلاةِ الأُمورِ منَ العُلماءِ والأُمراءِ أَشَدُّ من غِيبةِ غَيْرِهِمْ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ على ذلك منَ المفاسِدِ العظيمةِ.

أمَّا ما ساقهُ المُؤَلِّفُ منَ الآياتِ فأَوَّلُها قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾. وهذه معطوفةٌ على ما ذُكِرَ في أوَّلِ الآيةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]. فنَهى اللهُ عنِ الغِيبةِ، ثم ضَرَبَ مثلًا يَنْفِرُ منه كُلُّ أحدٍ، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. لو قُدِّمَ لك أَخُوكَ المُسْلِمُ مَيِّتًا هل تُحِبُّ أنْ تَأْكُلَ لَحْمَهُ؟

الجوابُ: لا. الكُلُّ يقولُ: لا أُحِبُّ ذلك، ولا يُمْكِنُ.

فإذا قال قائلٌ: ما هي مُناسَبةُ الغِيبةِ لهذا المَثَلِ؟

قُلْنا: لأنَّ الذي تَغْتابُهُ غائِبٌ لا يُمْكِنُ أنْ يُدافِعَ عن نفسه، كالمَيِّتِ إذا قَطَّعْتَ لَحْمَهُ لا يُمْكِنُ أنْ يَقُومَ لِيُدافِعَ عن نفسِهِ؛ ولهذا إذا ذَكَرْتَ أَخاكَ بما يَكْرَهُ في حالِ وُجودِهِ فإنَّ ذلك لا يُسَمَّى غِيبةً بل يُسَمَّى سَبًّا وشَتْمًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فأمَرَ بتَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بعد أنْ نَهَى عنِ الغِيبةِ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الذين يَغْتابونَ النَّاسَ لم يَتَّقُوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، واعْلَمْ أنَّك إذا سَلَّطْتَ على عَيْبِ أخيكَ ونَشَرْتَهُ وتَتَبَّعْتَ عَوْرتَهُ فإنَّ اللهَ تعالى يُقَيِّضُ لك مَنْ يَفْضَحُكَ ويَتَتَبَّعُ عَوْرَتَكَ حَيًّا كنت أو مَيِّتًا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحُهُ ولَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ»[1].

إلَّا أنَّ الغِيبةَ إذا كانتْ للنُّصْحِ والبيانِ فإنَّهُ لا بَأْسَ بها. كما لو أرادَ الإنْسانُ أنْ يُعامِلَ شَخْصًا منَ النَّاسِ، وجاءَ إليك يَسْتَشِيرُكَ يَقُولُ: ما تقولُ؟ هل أُعامِلُ فُلانًا؟ وأنت تَعْلَمُ أنَّ هذا سَيِّئُ المُعامَلةِ، ففي هذه الحالِ يَجِبُ عليك أنْ تُبَيِّنَ ما تَعْلَمُ فيه منَ العَيْبِ من بابِ النُّصْحِ، ودليلُ ذلك أنَّ فاطمةَ بنتَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَطَبَها ثَلاثةٌ منَ الصَّحابةِ: أُسامةُ بْنُ زَيْدٍ، ومُعاوِيةُ بْنُ أبي سُفْيانَ، وأبو جَهْمٍ، فجاءتْ تَسْتَشِيرُ النَّبِيَّ ﷺ، تقولُ له: خَطَبَنِي فُلانٌ وفُلانٌ وفُلانٌ، فقالَ لها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصاهُ عَنْ عَاتِقِهِ، وأَمَّا مُعاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، انْكِحِي أُسامَةَ بْنَ زَيْدٍ»[2] فذَكَرَ هذيْنِ الرَّجُليْنِ بما يَكْرهانِ لكنْ من بابِ النَّصيحةِ لا منْ بابِ نَشْرِ العَيْبِ والفضيحةِ، وفَرْقٌ بين هذا وهذا.

وكذلك لو جاءَ إنْسانٌ يَسْتَشِيرُكَ قال: أَطْلُبُ العِلْمَ عند فُلانٍ؟ وأنت تَعْلَمُ أنَّ فلانًا ذو مَنْهَجٍ مُنْحَرِفٍ، فلا حَرَجَ عليك أنْ تقولَ له: لا تَطْلُبِ العِلْمَ عنده. مثل أنْ يَكُونَ في عَقيدَتِهِ شيءٌ، أو في فِكْرِهِ شيءٌ، أو في مَنْهجِهِ شيءٌ، وتَخْشَى أنْ يُؤَثِّرَ على هذا الذي جاءَ يَسْتَشِيرُكَ أَيَطْلُبُ العِلْمَ عنده أم لا؟ وجَبَ عليك أنْ تُبَيِّنَ له،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، رقم (٢٠٣٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

تَقُولُ: لا تَطْلُبِ العِلْمَ عند هذا، هذا فيه كذا وفيه كذا منَ العُيُوبِ، والأمْثِلةُ على هذا كثيرةٌ، والمُهِمُّ أنَّهُ إذا كان ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ من أجلِ النَّصِيحةِ فلا بَأْسَ.

وقد شاعَ عند النَّاسِ كَلِمةٌ غيْرُ صحيحةٍ وهي قوْلُهُم: «لا غِيبةَ لِفاسِقٍ» هذا ليس حديثًا، وليس قَوْلًا مَقْبُولًا، بل الفاسِقُ له غِيبةٌ مثلُ غَيْرِهِ، فإذا ذكَرْنا فِسْقَهُ على وجْهِ العَيْبِ والسَّبِّ فإنَّ ذلك لا يجوزُ، لكنْ إذا ذَكَرْناهُ على سَبِيلِ النَّصِيحةِ والتَّحْذيرِ منه فلا بَأْسَ به بل قد يَجِبُ.

والمُهِمُّ أنَّ هذه العِبارةَ ليست حديثًا عنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وليست على إطْلاقِها أيضًا، بل في ذلك تفصيلٌ كما تَقَدَّمَ، واللهُ المُوَفِّقُ.



قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. **وقال تعالى:** ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

الشَّرْح

الآيةُ الثانيةُ: هي قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾. يعني: لا تَتَّبِعْ ما ليس لك به عِلْمٌ. وهذا النَّهْيُ يَشْمَلُ كُلَّ شيءٍ، فكُلُّ شيءٍ ليس لك به عِلْمٌ فلا تَتَّبِعْهُ، أَعْرِضْ عنه ولا تَتَكَلَّمْ فيه؛ لأنَّك على خَطَرٍ، وهذا إذا كان بالنِّسْبةِ لِمَا تَنْسِبُهُ إلى اللهِ تَعالى ورَسولِهِ ﷺ كان مُحَرَّمًا من أشَدِّ المُحرَّماتِ إثْمًا، إذا قُلْتَ مثلًا: قال اللهُ تَعالى كذا واللهُ لم يَقُلْهُ، أو تُفَسِّرُ الآيةَ بما تَهْواهُ، لا بما تَدُلُّ

عليه فقدْ قُلْتَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُهُ؛ ولهذا جاءَ في الحديثِ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1]، ولا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يُفَسِّرَ آيةً منْ كِتابِ اللهِ وهو لا يَعْلَمُ مَعْناهَا، وإنَّما يُفَسِّرُها بالظَّنِّ والتَّخْمينِ؛ لأنَّ الأمرَ خطيرٌ فإنَّكَ إذا فَسَّرْتَ آيةً إلى معْنًى منَ المَعانِي فقدْ شَهِدْتَ على اللهِ أنَّهُ أرادَ كذا وكذا وهذا خَطَرٌ عَظِيمٌ؛ ولهذا يَجِبُ على الإنْسانِ التَّحَرُّزُ من التَّسَرُّعِ فيما ليس له به عِلْمٌ بالنِّسْبةِ للأحْكامِ الشَّرْعيةِ، وكذلك غيْرِها لكنْ هي أَشَدُّ، وقدْ قَرَنَ اللهُ تَعالى القَوْلَ عليه بلا عِلْمٍ بالشِّرْكِ، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وكذلك إذا قَفَوْتَ ما ليس لك به عِلْمٌ بالنِّسْبةِ للآدَمِيِّينَ بأنْ تَنْقُلَ عن شخصٍ أنَّهُ قال كذا وكذا وهو لم يَقُلْهُ، حتَّى لو قِيلَ لك: إنَّهُ قال كذا وكذا فلا تَعْتَمِدْ على هذا حتَّى تَتَيَقَّنَ، لا سِيَّما إذا كَثُرَ الخَوْضُ بين النَّاسِ في الأُمورِ، فإنَّهُ يَجِبُ التَّحَرُّزُ أَكْثَرَ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا كَثُرَ فيهم الخَوْضُ والقِيلَ والقالُ فإنَّهم يَبْنُونَ من الكَلِمةِ كَلِماتٍ ولا يَتَحَرَّزونَ في النَّقْلِ؛ ولهذا يَسْمَعُ الإنْسانُ أنَّهُ يُنْقَلُ عنه أو عن غيرِهِ ما ليس بِصَحِيحٍ إطْلاقًا؛ لأنَّ النَّاسَ مع الخَوْضِ والقِيلِ والقالِ يَكُونُ لهم هَوًى، والعياذُ باللهِ، فيقولونَ ما لا يَعْلَمونَ.

ثم ذَكَرَ الآيةَ الثالِثةَ: وهي قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦]. المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يَسُقْ إلَّا هذه الآيةَ الثالِثةَ،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، رقم (٢٩٥١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولَيْتَهُ ساقَ الآياتِ كُلَّهَا لكانَ أحْسَنَ، فاللهُ تَعالى يُخْبِرُ أَنَّهُ خَلَقَ الإنْسانَ، وهذا أمْرٌ مَعْلومٌ بالضَّرُورةِ والفِطْرةِ، فاللهُ وحْدَهُ هو الخالِقُ، والخالِقُ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ كما قال تَعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]. فهو جَلَّوَعَلَا يَعْلَمُ بأحْوالِنا ونِيَّاتِنَا ومُسْتَقْبَلِنا وكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بنا؛ ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾. الشَّيْءُ الذي تُحَدِّثُ به نَفْسَكَ يَعْلَمُهُ اللهُ قَبْلَ أنْ تَتَكَلَّمَ، ولكنْ هل يُؤاخِذُكَ به، في هذا تَفْصِيلٌ، إنْ أثْبَتَّهُ في قَلْبِكَ عَقِيدةً، فإنَّ اللهَ يُؤَاخِذُكَ به، وإلَّا فلا شيءَ عليك؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»(١).

فمثلًا لوْ أنَّ إنسانًا صار يُوَسْوِسُ ويُفَكِّرُ، هل يُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ أو لا، ومَثَّلْتُ بهذا؛ لأنَّهُ يَكْثُرُ بين النَّاسِ، فإنَّها لا تُطَلَّقُ حتَّى ولو عَزَمَ على أنْ يُطَلِّقَهَا فإنَّها لا تُطَلَّقُ إلَّا بالقَوْلِ أو بالكِتابةِ الدَّالَّةِ على القَوْلِ، أو بالإشارةِ الدَّالَّةِ على القَوْلِ؛ لأنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن هذه الأُمَّةِ ما حَدَّثَتْ به أنْفُسَهَا ما لم تَعْمَلْ أو تَتَكَلَّمْ، قال تَعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧]. فإنَّ اللهَ تَعالى وكَّلَ بالإنْسانِ مَلَكَيْنِ يُلازِمانِهِ، أَحَدُهُما عنِ اليمينِ والثَّاني عنِ الشِّمالِ، يُلازِمانِهِ دائمًا ويَكْتُبانِ عليه كُلَّ ما نَطَقَ به وكُلَّ ما فَعَلَ؛ ولهذا قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. و﴿مِن﴾ هنا زائدةٌ للتَّوْكِيدِ، يعني: ما يَلْفِظُ قَوْلًا من الأقْوالِ أيَّ قَوْلٍ كان، إلَّا لديْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، ﴿رَقِيبٌ﴾ أي مُراقِبٌ، ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضِرٌ لا يَغِيبُ عنه، وأنت الآنَ لو جَعَلْتَ في جَيْبِكَ مُسَجِّلًا يُسَجِّلُ ما تقولُ لَوَجَدْتَ العَجَبَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، رقم (١٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العُجابَ مِمَّا يَصْدُرُ منك أحيانًا وأنت لا تُفَكِّرُ فيه، والرَّجُلُ قد يَتكَلَّمُ بالكلمةِ من سُخْطِ اللهِ لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في النَّارِ كذا وكذا خَريفًا والعياذُ باللهِ.

ويُذْكَرُ عنِ الإمامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ دَخَلَ عليه أحدُ أصحابِهِ وهو مَرِيضٌ، يَئِنُّ منَ المَرَضِ، فقال له: إنَّ فُلانًا منَ التَّابعينَ يقولُ: إنَّ المَلَكَ يَكْتُبُ حتَّى أنينَ المريضِ، فأَمْسَكَ رَحِمَهُ اللَّهُ عنِ الأنينِ[1]؛ خَوْفًا من أنْ يُكْتَبَ عليه؛ ولهذا يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يُقَلِّلَ من الكلامِ ما اسْتطاعَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[2] «فَلْيَقُلْ خَيْرًا» أي كلامًا فيه الخَيْرُ، إمَّا لأنَّهُ خَيْرٌ بذاتِهِ، وإمَّا لأنَّهُ خيْرٌ لِمَا يُفْضِي إليه منَ الأُلْفةِ بين الجُلساءِ والمَحَبَّةِ؛ لأنَّك إذا حَضَرْتَ مَجْلِسًا مثلًا ولم تَتكَلَّمْ فيه لم يَسْتَحِبَّ النَّاسُ الجُلوسَ معك، لكنْ إذا انْطَلَقْتَ في الكلامِ المُباحِ من أجْلِ أنْ تَتَأَلَّفَهُمْ وتَتَوَدَّدَ إليهم فهذا خيْرٌ، داخِلٌ في قولِهِ ﷺ: «فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» والمُهِمُّ أنَّ من جُمْلةِ الأقْوالِ التي تُكْتَبُ: الغِيبةُ، فاحْذَرْ أنْ تُكْتَبَ عليك؛ لأنَّك إذا اغْتَبْتَ أحدًا فإنَّهُ يَوْمَ القِيامةِ يَأْخُذُ من حَسناتِكَ التي هي أغْلَى ما يَكُونُ عندك في ذلك الوَقْتِ، فإنْ بَقِيَ من حَسناتِكَ شيءٌ، وإلَّا أُخِذَ من سَيِّئاتِ الذين اغْتَبْتَهُمْ وطُرِحَ عليك ثم طُرِحَ في النَّارِ.

نَسْأَلُ اللهَ أنْ يَحْمِيَنا وإيَّاكُمْ مِمَّا يُغْضِبُهُ، وأنْ يُوَفِّقَنا وإيَّاكُمْ لِمَا يُرْضِيهِ.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (٩/ ١٨٣)، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص:٥٤٦)، وعدة الصابرين لابن القيم (ص:٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الكَلَامِ إِلَّا كَلَامًا ظَهَرَتْ فِيهِ المَصْلَحَةُ، ومَتَى اسْتَوَى الكَلَامُ وَتَرْكُهُ فِي المَصْلَحَةِ، فالسُّنَّةُ الإِمْسَاكُ عَنْهُ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَنْجَرُّ الكَلَامُ المُبَاحُ إِلَى حَرَامٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، وذَلِكَ كَثِيرٌ فِي العَادَةِ، والسَّلَامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ.

١٥١١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ لا يَتَكَلَّمَ إِلَّا إِذَا كَانَ الكلامُ خَيْرًا، وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ، ومَتَى شَكَّ فِي ظُهُورِ المَصْلَحَةِ، فَلَا يَتَكَلَّمْ.

١٥١٢- وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ المُسْلِمِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ الغِيبَةِ والأَمْرِ بِحِفْظِ اللِّسانِ: اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسانَهُ عن جَمِيعِ الكلامِ إِلَّا كلامًا ظَهَرَتْ فيه المَصْلحةُ الدِّينِيَّةُ أو الدُّنْيَوِيَّةُ، وهذا الكلامُ مَأْخُوذٌ من قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» وهو الحديثُ الذي ساقَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فإذا اسْتَوى الأَمْرانِ، أَنْ يَسْكُتَ أو يَتَكَلَّمَ، فالسَّلامةُ أَفْضَلُ، يعني لا يَتَكَلَّمُ إذا كان

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل، رقم (١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم (٤٢).

يَشُكُّ هل في كلامِهِ خيرٌ أو لا، فالأفْضَلُ ألَّا يَتكَلَّمَ؛ لأنَّ السَّلامةَ لا يَعْدِلُها شيءٌ، والساكِتُ سالِمٌ، إلَّا إذا اقْتَضَتِ الحالُ أنْ يَتكَلَّمَ فلْيَتكَلَّمْ، مثلًا لو رأى مُنْكَرًا فهنا لا يَسْكُتُ، يَجِبُ أنْ يَتكَلَّمَ ويَنْصَحَ ويَنْهَى عن هذا المُنْكَرِ، وأمَّا إذا لم تَقْتَضِ المَصْلحةُ أنْ يَتكَلَّمَ فلا يَتكَلَّمُ؛ لأنَّ ذلك أسْلَمُ له.

ثم اعْلَمْ أنَّ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» يَدُلُّ على أنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَسْكُتَ إذا لم يَكُنِ الكلامُ خيْرًا؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ شَرَطَ للإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ أنْ يَقُولَ الخيْرَ وإلا فلْيَسْكُتْ، لكنَّ الخَيْرَ نَوْعانِ:

الأوَّلُ: خَيْرٌ في ذاتِ الكلامِ، كقِراءةِ القُرآنِ والتَّسْبيحِ والتَّكْبِيرِ والتَّهْليلِ وتَعْلِيمِ العِلْمِ وما أشْبَهَ ذلك، هذا خَيْرٌ.

الثَّاني: خَيْرٌ لِمَا يُفْضِي إليه، بمعنى أنَّ الكلامَ مُباحٌ لكنْ يَجُرُّ إلى مَصْلحةٍ، كما لو كان يَجُرُّ إلى تَأْليفِ القَلْبِ وانْبساطِ الإخْوانِ وسُرورِهِمْ بمَجْلِسِكَ فهذا أيضًا من الخَيْرِ؛ لأنَّ الإنْسانَ لو بَقِيَ ساكِتًا من أوَّلِ المَجْلِسِ لآخِرِهِ مَلَّهُ النَّاسُ وكَرِهُوهُ، وقالوا: هذا رَجُلٌ فَظٌّ غليظٌ، لكنْ إذا تَكَلَّمَ بما يُدْخِلُ السُّرُورَ عليهم، وكان كلامًا مُباحًا فإنَّهُ من الخَيْرِ.

وأمَّا مَنْ تَكَلَّمَ بكلامٍ يُضْحِكُ النَّاسَ وهو كَذِبٌ فإنَّهُ قد وَرَدَ فيه الوعيدُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ»[1]، وهذا يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ،

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: أبواب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويُسَمُّونها (النُّكَتَ)، يَتكَلَّمُ بكلامٍ كَذِبٍ ولكنْ من أجْلِ أنْ يُضْحِكَ النَّاسَ فهذا غَلَطٌ، والأَوْلَى أنْ يَتكَلَّمَ بكلامٍ مُباحٍ من أجْلِ أنْ يُدْخِلَ السُّرورَ على قُلوبِهِمْ، وأمَّا الكلامُ الكَذِبُ فهو حرامٌ.

ثم ذَكَرَ حديثَ أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ: أيُّ المُسْلِمِ خَيْرٌ؟ يعني أيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قال: «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ» أيْ: لا يَعْتَدِي على المُسْلِمِينَ لا بِلسانِهِ بغِيبةٍ أو نَميمةٍ أو سَبٍّ أو ما أَشْبَهَ ذلك، «ويَدِهِ» يعني لا يَأْخُذُ أمْوالَهُم ولا يَضْرِبُ أبْشارَهُمْ، بل قد كفَّ أذاهُ، لا يَأْتِي إلى النَّاسِ إلَّا بما هو خيْرٌ، هذا هو المُسْلِمُ، وفي هذا حثٌّ على أنْ يَسْلَمَ الإنْسانُ من لِسانِكَ ويَدِكَ، احْفَظْ لِسانَكَ لا تَتَكَلَّمْ في عِبادِ اللهِ إلَّا بخيرٍ، كذلك احْفَظْ يَدَكَ لا تَجْنِ على أمْوالِهم ولا على أبْشارِهِمْ، بل كُنْ سالمًا يُسْلَمُ منك فإنَّ هذا هو خيْرُ المُسْلِمِينَ، نسألُ اللهَ أنْ يُوَفِّقَنا وإيَّاكُمْ لِمَا يُحِبُّ ويَرْضَى.



١٥١٣- وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٥١٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

ومعنى: «يَتَبَيَّنُ» يُفَكِّرُ أنَّها خَيْرٌ أم لا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٧)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، رقم (٢٩٨٨).

١٥١٥- وَعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجاتٍ، وإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلَمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا في جَهَنَّمَ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

الشَّرْح

هذه أحاديثُ ثلاثةٌ في بيانِ خطرِ اللِّسانِ وأَنَّهُ من أعْظمِ ما يكونُ من الأعْضاءِ خُطورةً، ففي الحديثِ الأوَّلِ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ» الذي بين اللَّحْيَيْنِ هو اللِّسانُ، والذي بين الرِّجْلَيْنِ هو الفَرْجُ، سواءً للرَّجُلِ أو المَرْأَةِ، يعني مَنْ حَفِظَ لسانَهُ وحَفِظَ فَرْجَهُ، حَفِظَ لسانَهُ عنِ القَولِ المُحَرَّمِ، من الكَذِبِ والغِيبةِ والنَّميمةِ والغِشِّ وغير ذلك، وحَفِظَ فَرْجَهُ من الزِّنا واللِّواطِ ووسائِلِ ذلك، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَضْمَنُ له الجَنَّةَ، يعني أنَّ جَزاءَهُ هو الجَنَّةُ، إذا حَفِظْتَ لِسانَكَ وحَفِظْتَ فَرْجَكَ، فزَلَّةُ اللِّسانِ كزَلَّةِ الفَرْجِ، خطيرةٌ جدًّا، وإنَّما قَرَنَ النَّبِيُّ ﷺ بينهما لأنَّ في اللِّسانِ شَهْوَةَ الكلامِ، فكثيرٌ من النَّاسِ يَتَنَطَّعُ ويَتَلَذَّذُ إذا تَكَلَّمَ في أعْراضِ النَّاسِ، ويَتَفَكَّهُ والعياذُ باللهِ ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين:٣١].

فتَجِدُهُ أَحَبُّ شيءٍ عنده أنْ يَتَكَلَّمَ في أعْراضِ النَّاسِ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى الكَذِبَ، فتَجِدُ أحْسَنَ شيءٍ عنده هو الكَذِبُ نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، والكَذِبُ من كبائِرِ الذُّنوبِ لا سِيَّما إذا كَذَبَ بالكَلِمةِ لِيُضْحِكَ بها القَوْمَ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «وَيْلٌ لِمَنْ حَدَّثَ فَكَذَبَ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٧)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)،

وأمَّا الثَّاني: الذي قَرَنَ بينه وبين شَهْوَةِ الكلامِ فكذلك شَهْوَةُ النِّساءِ، فإنَّ الإنْسانَ مَجْبُولٌ على ذلك، ولا سيَّما إذا كان شابًّا، فإذا حاولَ حِفْظَ هاتيْنِ الشَّهْوَتَيْنِ، ضَمِنَ النَّبِيُّ ﷺ له الجَنَّةَ، أي هذا جزاؤُهُ؛ لأنَّهما خَطِيرانِ.

كذلك أيضًا الحديثُ الثاني: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ لَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ» الكَلمةُ «لَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا» يعني ما يَتَأَكَّدُ، يَنْقُلُ ما سَمِعَ و«كَفَى بالمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[1]، فتَجِدُهُ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ ولا يَتَبَيَّنُ ولا يَتَثَبَّتُ ولا يَدْري معْناها ولا يَدْري ماذا تُوَصِّلُ إليه، هذا والعياذُ باللهِ يَزِلُّ بها في النَّارِ أبْعَدَ مما بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

ومسافةُ ما بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ بَعيدةٌ جدًّا، نِصْفُ الكُرةِ الأرْضِيَّةِ، ومع ذلك كلمةٌ واحدةٌ زَلَّ بها في النَّارِ أبْعدَ مِمَّا بين المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، وهذا يَدُلُّ على وُجوبِ التَّأَكُّدِ مِمَّا تَتَكَلَّمُ به، سواءً نَقَلْتَهُ إلى غيْرِك أو نَقَلْتَهُ عن غيْرِك، فتَثَبَّتْ، واصْبِرْ، ولا تَسْتَعْجِلْ، ما الذي يُوجِبُ لك أنْ تَسْتَعْجِلَ في المقالِ، اصْبِرْ حتَّى تَتَثَبَّتَ ويَتَبَيَّنَ لك الأمْرُ، ثم إنْ رَأَيْتَ مَصْلَحةً في الحديثِ فتَحَدَّثْ وإذا لم تَرَ مَصْلَحةً في الحديثِ فاسْكُتْ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

وأمَّا الحديثُ الثالثُ: فهو أنَّ الرَّجُلَ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ من رِضْوانِ اللهِ، يعني كلمةً تُرْضِي اللهَ، كقُرْآنٍ، وتَسْبيحٍ، وتَكْبيرٍ، وتَهْليلٍ، وأمْرٍ بمَعْرُوفٍ، ونَهْيٍ عن مُنْكَرٍ، وتَعْليمِ عِلْمٍ، وإصْلاحِ ذاتِ البَيْنِ، وما أَشْبَهَ ذلك، يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ تُرْضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ

والترمذي: أبواب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه مسلم: المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما يسمع، رقم (٥)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا يُلْقِي لها بالًا، بمعنى أَنَّهُ لا يَظُنُّ أنها تَبْلُغُ به ما بَلَغَتْ، وإلَّا فهو قد نَواها وعَرَفها وألْقَى لها البالَ، لكنْ لا يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، يَرْفَعُ اللهُ له بها درجاتٍ في الجَنَّةِ.

وعلى العَكْسِ من ذلك رَجُلٌ يَتَكَلَّمُ بالكلمةِ من سَخَطِ اللهِ لا يُلْقِي لها بالًا يَهْوِي بها في النَّارِ؛ لأَنَّهُ تَكَلَّمَ بها ولا ظَنَّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ، وهذا يَقَعُ كثيرًا، كثيرٌ من النَّاسِ والعياذُ باللهِ تَجِدُهُ يَسْأَلُ عن فُلانٍ العاصي وما أَشْبَهَ ذلك، فيقولُ: هذا اتْرُكْهُ، اتْرُكْ هذا، وهذا واللهِ ما يَهْتَدِي، واللهِ ما يَغْفِرُ اللهُ له، والعياذُ باللهِ، هذه كلمةٌ خَطِيرةٌ.

كان رَجُلٌ عابِدٌ يَمُرُّ برَجُلٍ عاصٍ، فيقولُ هذا الرَّجُلُ العابِدُ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لفُلانٍ، انْظُرْ، والعياذُ باللهِ تَحَجَّرَ واسعًا وتَأَلَّى على اللهِ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لفُلانٍ؛ لأنَّ الرَّجُلَ العابِدَ هذا مُعْجَبٌ بعَمَلِهِ، يَرَى نفسَهُ، ويَمُنُّ بعَمَلِهِ على رَبِّهِ، وكأنَّ له المِنَّةَ على اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقالَ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلانٍ» المُلْكُ والسُّلْطانُ لِمَنْ؟ للهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو ليس لك حتَّى تقولَ: واللهِ ما يَغْفِرُ اللهُ لفُلانٍ. والمُلْكُ والسُّلْطانُ للهِ لا يُنازِعُهُ فيه مُنازِعٌ إلَّا أذلَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ. قال: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1] كلمةٌ واحدةٌ صارت سَبَبًا لِحُبوطِ عَمَلِهِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

إذًا: احْذَرْ زَلَّةَ اللِّسانِ، ومن ذلك أيضًا -أيْ من زَلَلِ اللِّسانِ- إذا قال مثلًا: يا فُلانُ إنَّ جارَنا لا يُصَلِّي لعلك تَنْصَحُهُ جزاكَ اللهُ خيرًا، قال له: هذا ما يُمْكِنُ أنْ يَهْتَدِيَ أبدًا، هذا طاغٍ، هذا فاسِقٌ، أعوذُ باللهِ، مَنْ قال لك لا يُمْكِنُ أنْ يَهْتَدِيَ؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القُلُوبُ بِيَدِ مَنْ؟ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كما أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ يقول: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ»[1].

وهذا شيءٌ مُسَلَّمٌ به، حتَّى الآنَ الإنْسانُ أحيانًا يَجِدُ في قلبِهِ أَشْياءَ يَعْرِفُ أنها من الشَّيْطانِ، وأَنَّهُ إنْ لم يُثَبِّتْهُ اللهُ زَلَّ، فالقُلوبُ بِيَدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيفَ تقولُ: هذا لا يُمْكِنُ أنْ يَهْتَدِيَ؟! فهذا القَولُ حرامٌ ولا يجوزُ، ادعُ اللهَ بالهدايةِ ولا تَيْأَسْ، أليس يُوجَدُ في هذه الأُمَّةِ مَنْ كان مِن أَلَدِّ أعْدائِها وأشَدِّ خُصومِها؟ وكان ثَانِيَ اثنيْنِ في زعامةِ الأُمَّةِ بعد نبيِّها مُحَمَّدٍ ﷺ، مَنْ؟ إنه عُمَرُ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كان مُناوِئًا للدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ، وكان يُحَذِّرُ منها، وكان يَفِرُّ منها، وكان من أَلَدِّ أعْدائِها، فهداهُ اللهُ فصارَ هو الخليفةَ الثانِيَ بعد الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك خالدُ بنُ الوَلِيدِ وعِكْرِمةُ بنُ أبي جَهْلٍ، ماذا فعَلا في أُحُدٍ؟ كرَّا على المُسْلِمِينَ من الخَلْفِ على فَرَسَيْهما ومعهما فُرْسانٌ آخرونَ واخْتَلَطُوا بالمُسْلِمِينَ وحَصَلَتِ الهزيمةُ، وفي النِّهايةِ كانا قائِدَيْنِ عظيمَيْنِ من قُوَّادِ المُسْلِمِينَ، فلا تَيْأَسْ يا أخِي، واسألِ اللهَ الهدايةَ والثَّباتَ، ولا تَزِلَّ بلِسانِكَ فتَهْلِكَ. حَمانا اللهُ من مَعاصِيهِ، ووفَّقَنا لِمَا يُرْضِيهِ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

١٥١٦ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِلالِ بنِ الحارِثِ المُزَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٩٩)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنسائي في الكبرى: كتاب النعوت، باب قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، رقم (٧٦٩٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يومِ يَلْقَاهُ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ». رَواهُ مالِكٌ في المُوَطَّأِ، والتِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٥١٧ - وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ: «قُلْ: رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[2]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٥١٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلقَلْبِ! وإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[3].

١٥١٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[4]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٥٢٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟

---

(١) أخرجه مالك: كتاب الكلام، باب ما يُؤمر به من التحفظ في الكلام، رقم (٥) (٢/ ٩٨٥)، والترمذي: أبواب الزهد، باب في قلة الكلام، رقم(٢٣١٩)، وابن ماجة: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم(٣٩٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣)، والترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٤٢١٠)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٢).

(٣) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب منه، رقم (٢٤١١).

(٤) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٩).

قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٥٢١- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّما نَحْنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[٢].

معنى: «تُكَفِّرُ اللِّسَانَ»: أيْ تَذِلُّ وَتَخْضَعُ لَهُ.

١٥٢٢- وَعَن مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيمٍ، وإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومُ رَمَضَانَ، وتَحُجُّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَما يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ» ثُمَّ تَلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦] ثُمَّ قَالَ: «أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سِنَامِهِ» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سِنَامِهِ الجِهادُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!» قُلْتُ: بلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسانِهِ وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٩٦)، والترمذي: أبواب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم (٢٤٠٧).

رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[١]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُهُ في بابِ قَبْلَ هَذَا.

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ التي ساقَها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ كلُّها فيها التَّحْذِيرُ منَ اللِّسانِ وشُرُورِهِ وآفاتِهِ، وأنَّ الإنْسانَ رُبَّما يَتَكَلَّمُ بالكَلِمةِ من سَخَطِ اللهِ لا يُلْقِي لها بالًا ولا يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ ما بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ بها عليه سَخَطَهُ إلى يَوْمِ يَلْقاهُ، وكلُّها فيها التَّحْذيرُ منَ اللِّسانِ وآفاتِهِ؛ ولهذا قِيلَ:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولُ فَتُبْتَلَى ... إِنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ[٢]

كَثِيرٌ منَ النَّاسِ يَدْعُو على نفسِهِ بشَرٍّ وهو لا يَشْعُرُ، يَدْعُو على ولدِهِ، يَدْعُو على مالِهِ، يَدْعُو على صَديقِهِ، وعلى قَرِيبِهِ من حيثُ لا يَشْعُرُ فرُبَّما يُصادِفُ ذلك بابًا مَفْتُوحًا فيُصِيبُهُ الدُّعاءُ.

وفي حديثِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ!» أيْ: بما يَمْلِكُ هذا كُلَّهُ، قلتُ: بَلى يا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فأخَذَ بلِسانِهِ، أي أخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بلِسانِ نفسِهِ وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا» فقلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ به؟ يعني: هل نُؤاخَذُ بما نَتَكَلَّمُ به، فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! يَا مُعَاذُ» وهذه كَلِمَةٌ يُقْصَدُ بها تعظيمُ الأمْرِ، «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!».

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

(٢) فيض القدير (٣/ ٢٢٣) منسوبًا للكسائي.

فاحْذَرْ يا أخي هذه الحَصائِدَ، واحْفَظْ لِسانَكَ، ومن حِفْظِ اللِّسانِ: أنْ يَحْفَظَ الإنْسانُ لِسانَهُ منَ الكَذِبِ والغِشِّ وقَوْلِ الزُّورِ والنَّمِيمةِ والغِيبةِ وكُلِّ قَوْلٍ يُبْعِدُهُ عنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ويُوجِبُ عليه العذابَ، فإنَّهُ يَجِبُ عليه أنْ يَتَنَزَّهَ منه، نسألُ اللهَ أنْ يَحْفَظَ علينا وعليكم دِينَنَا الذي هو عِصْمةُ أمْرِنا؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

١٥٢٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟» قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

١٥٢٤ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «إِنَّ دِماءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وأَعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

١٥٢٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذَا وكَذَا. قَالَ بعضُ الرُّواةِ: تَعْنِي قَصِيرَةً، فقالَ: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ: «مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسانًا وإِنَّ لِي كَذَا وَكَذَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[3]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، رقم (٦٧)، ومسلم: كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض، رقم (١٦٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، رقم (٢٥٠٢، ٢٥٠٣)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٧٥).

ومعنى: «مَزَجْتَهُ» خَلَطْتَهُ مُخَالَطَةً يَتَغَيَّرُ بِهَا طَعْمُهُ أَوْ رِيحُهُ؛ لِشِدَّةِ نَتْنِها وَقُبْحِهَا.

وهذا مِنْ أبلَغِ الزَّواجِرِ عَنِ الغِيبَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

١٥٢٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَومٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ فَقُلْتُ: مَنْ هؤُلاءِ يَا جِبرِيلُ؟ قَالَ: هؤُلاءِ الَّذِينَ يَأكُلُونَ لُحومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أعْرَاضِهِمْ!». رَواهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

١٥٢٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ». رَواهُ مُسْلِمٌ[2].

الشَّرْح

هذه بَقِيَّةُ الأحاديثِ التي سَقاها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْريمِ الغِيبةِ والأمْرِ بحِفْظِ اللِّسانِ، واشْتَمَلَتْ على أشياءَ مُتَعَدِّدةٍ منها بيانُ الغِيبةِ، وأنَّها ذِكْرُكَ أَخاكَ بما يَكْرَهُ، في دِينِهِ أو خُلُقِهِ أو بَدَنِهِ أو أهْلِهِ أو غيرِ ذلكَ، إلَّا إذا كان المَقْصُودُ النَّصِيحةَ كما لو اسْتَشارَكَ شَخْصٌ في مُعامَلةِ إنْسانٍ وأنت تَعْرِفُ من هذا الإنْسانِ أنَّهُ ليس أهْلًا للمُعامَلةِ، وأنَّهُ مثلًا خَدَّاعٌ كَذَّابٌ أو ما أَشْبَهَ ذلك، وتُرِيدُ أنْ تُبَيِّنَ له ما فيه من عَيْبٍ، فلا بَأْسَ فيه، وبَيَّنَّا دَلِيلَ هذا في حديثِ فاطِمةَ بِنْتِ قَيْسٍ حين اسْتَشارَتِ النَّبِيَّ ﷺ فيمَنْ خَطَبُوها: مُعاوِيةُ بْنِ أبي سُفْيانَ، وأبو جَهْمٍ، وأُسامةُ بنُ زَيْدٍ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ تَرِبٌ لَا مَالَ لَهُ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَرَجُلٌ ضَرَّابٌ لِلنِّسَاءِ،

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب الغيبة، رقم (٤٨٧٨/ ١).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم السلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم (٢٥٦٤).

وَلَكِنْ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ»[1]. فهذا من بابِ النَّصيحةِ فلا بَأْسَ به.

وتَضَمَّنَتْ هـذه الأحاديثُ إعْلانَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ تَحْريمَ الدِّماءِ والأمْـوالِ والأعْراضِ في حَجَّةِ الوَداعِ في أكْبَرِ مُجْتَمَعٍ حَصَلَ بين النَّبِـيِّ ﷺ وبينَ الصَّحابةِ؛ لأنَّ الذين حَجُّوا معهُ قَرِيبٌ من مِائةِ ألْفٍ، ومع ذلك أعْلَنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: «إنَّ دِماءكُمْ، وَأمْوَالَكُمْ، وأعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

وكذلك أيضًا بَيَّنَتْ هذه الأحاديثُ أنَّ ذِكْرَكَ أخاكَ بما يَكْرَهُ ولو فيما يَتَعَلَّقُ بِخِلْقتِهِ كالطَّوِيلِ والقَصِيرِ وما أَشْبَهَ ذلك يُعْتَبَرُ غِيبةً مُحَرَّمةً، كما في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت في صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ إحْدَى أُمَّهاتِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كذَا» تعني أنها قصيرةٌ، تقولُ ذلك للرَّسُولِ ﷺ فقال: «لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْهُ!» يعني: لو خُلِطَتْ بماءِ البَحْرِ على كِبَرِهِ وسَعَتِهِ لَمَزَجَتْهُ، أي أَثَّرَتْ فيه وهي كلمةٌ يَسِيرَةٌ جِدًّا لكنَّها عظيمةٌ؛ حيثُ إنَّها في ضَرَّتِها وحيثُ إنَّهُ قد يَحْدُثُ من هذه الكَلِمةِ أنْ يَكْرَهَ النَّبِيُّ ﷺ صَفِيَّةَ، فلِعِظَمِها صارَ لها هذا الأثرُ العظيمُ.

كذلك أيضًا العُقوبةُ التي رَآها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقْتَ أُسْرِيَ به، أَنَّهُ مرَّ بأقْوامٍ لهم أظْفارٌ من النُّحاسِ يَخْمِشُونَ بها وُجوهَهُمْ وصُدُورَهُمْ، فقال: «يَا جِبرِيلُ، مَنْ هؤُلاءِ؟ قَالَ: الَّذِينَ يَقَعُونَ في أَعْرَاضِ النَّاسِ، يَأكُلُونَ لُحومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ في أعْرَاضِهِمْ!».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠)، من حديث فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالمُهِمُّ أنَّ الواجِبَ على الإنْسانِ الحَذَرُ من إطْلاقِ اللِّسانِ وألَّا يَتكَلَّمَ إلَّا بخيرٍ إنْ كان يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1].

نَسْأَلُ اللهَ أنْ يَحْمِيَنا وإيَّاكُمْ مِنْ سَخَطِهِ، وأنْ يُعِينَنا وإيَّاكم على ذِكْرِهِ وشُكْرِهِ وحُسْنِ عِبادَتِهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٥٥- بابُ تَحْرِيمِ سَماعِ الغِيبةِ وأمْرِ مَنْ سَمِعَ غِيبةً مُحَرَّمةً بِرَدِّها والإنْكارِ عَلَى قائِلِها، فإنْ عَجَزَ أَوْ لَمْ يُقْبَلْ منه فارَقَ ذلك المَجْلِسَ إنْ أمْكَنَهُ

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص:٥٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

١٥٢٨- وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يومَ القيامَةِ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٥٢٩- وَعَنْ عِتْبَانَ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ المَشْهُورِ الَّذِي تَقَدَّمَ في بابِ الرَّجاءِ قَالَ: قامَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فَقَالَ: «أَيْنَ مَالِكُ بنُ الدُّخْشُمِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللهَ ولا رَسُولَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ! وإنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥٠)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم، رقم (١٩٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، رقم (٤٢٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم (٣٣).

«وَعِتْبانُ» بكَسْرِ العَيْنِ عَلَى المَشْهُورِ، وحُكِيَ ضَمُّها، وبَعْدَها تاءٌ مُثَنَّاةٌ مِن فَوْقُ ثُمَّ مُوَحَّدَةٌ. و«الدُّخْشُمُ» بضَمِّ الدَّالِ وإسْكانِ الخاءِ وضَمِّ الشِّينِ المُعْجمَتَيْنِ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ سماعِ الغِيبةِ...».

لَمَّا ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ النُّصوصَ الوارِدةَ في تَحْرِيمِ الغِيبةِ وبيانِ مَضارِّها ومَفاسِدِهَا وآثامِها، أعْقَبَ ذلك بهذا البابِ وهو تَحْرِيمُ سماعِ الغِيبةِ، يعني أنَّ الإنْسانَ إذا سَمِعَ شَخْصًا يَغْتابُ آخَرَ فإنَّهُ يَحْرُمُ عليه أنْ يَسْتَمِعَ إلى ذلك، بل يَنْهاهُ عن هذا ويُحاوِلُ أنْ يَنْقُلَهُ إلى حديثٍ آخَرَ، فإنَّ هذا فيه أجرٌ عظيمٌ، كما في حديثِ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنْ أَصَرَّ هذا الذي يَغْتابُ النَّاسَ، إلَّا أنْ يَبْقى على غِيبَتِهِ وَجَبَ عليه أنْ يَقُومَ عنِ المَكانِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]. فدَلَّ ذلك على أنَّ الإنْسانَ إذا اسْتَمَعَ إلى المُحَرَّمِ، فهو مُشارِكٌ لِمَنْ يَفْعَلُ هذا المُحَرَّمَ فالواجِبُ أنْ يَقُومَ.

ثم ذَكَرَ آياتٍ مُتَعَدِّدةً في بيانِ الإعْراضِ عنِ اللَّغْوِ، واللَّغْوُ هو كُلُّ كلامٍ لا فائدةَ فيه، وقد قال اللهُ تَعالى في وصْفِ عِبادِ الرَّحمنِ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]. يعني سالِمينَ منه لا يَلْحَقُهُمْ شيءٌ منه؛ لأنَّهم لا يَسْتَمِعُونَ إليه ولا يُقِرُّونَهُ، ثم ذَكَرَ حديثَ عِتْبانَ بن مالِكٍ في قَضِيَّةِ مالِكِ بن الدُّخْشُمِ، وتَكَلُّمِ الرَّجُلِ في عِرْضِهِ عند النَّبِيِّ ﷺ، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ نهاهُ عن ذلك وقال: «أَلَا تَراهُ قَدْ قَالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ يُرِيدُ بِذَلكَ وَجْهَ اللهِ».

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الإنْسانَ إذا لم يَكُنْ كذلك فإنَّهُ لا غِيبةَ له، فالكافِرُ مثلًا ليس مُحْتَرَمًا في الغِيبةِ، لك أنْ تَغْتابَهُ، إلَّا أنْ يَكُونَ له أقاربُ مُسْلِمُونَ يَتَأَذَّوْنَ بذلك فلا تَغْتَبْهُ وإلَّا فلا غِيبةَ له. أمَّا الفاسِقُ فقدْ سَبَقَ لنا أنَّهُ مُحْتَرَمٌ إلَّا إذا كانتِ المَصْلحةُ تَقْتَضِي بيانَ فِسْقِهِ، فلا بَأْسَ أنْ يُذْكَرَ بفِسْقِهِ؛ لأنَّ هذا من بابِ النَّصِيحةِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٣٠- وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ تَوْبَتِهِ وَقَدْ سَبَقَ فِي بابِ التَّوْبَةِ. قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ جالِسٌ فِي القَوْمِ بِتَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ والنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ. فَقَالَ لَهُ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنا عَلَيْهِ إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

«عِطْفَاهُ»: جَانِبَاهُ، وهو إشارةٌ إلى إعْجابِهِ بنفسِهِ.

الشَّرح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ سَماعِ الغِيبةِ فيما نَقَلَهُ عن كَعْبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قِصَّةِ تَوْبَتِهِ، وكان كَعْبٌ من الذين تَخَلَّفُوا عن غَزوةِ تَبُوكَ بلا عُذْرٍ، وصَدَقُوا النَّبِيَّ ﷺ وهُم ثَلاثَةُ نَفَرٍ: مُرارةُ بن الرَّبيعِ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ، وكَعْبُ بنُ مالِكٍ، تَخَلَّفُوا عن رَسُولِ اللهِ ﷺ بلا عُذْرٍ، فلما رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تَبُوكَ جاءَهُ ﷺ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩).

المُعَذِّرُونَ يَعْتَذِرُونَ ويَقولُونَ: واللهِ إنَّنا لا نَسْتَطِيعُ، ويَحْلِفُونَ على ذلك، فكانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ اعْتِذارَهُمْ ويَكِلُ سَرائِرَهُمْ إلى اللهِ، أمَّا كَعْبُ بنُ مالِكٍ وصاحِباهُ فقد نَطَقُوا بالحَقِّ.

وقالوا: تَخَلَّفْنا بلا عُذْرٍ فأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بهَجْرِهِمْ، فهَجَرَهُم المُسْلِمُونَ حتَّى أنَّ الرَّجُلَ منهم لَيُسَلِّمُ ولا يَرُدُّ عليه أحدٌ السَّلامَ، حتَّى كان كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَأْتِي فيُسَلِّمُ على النَّبِيِّ ﷺ يقول: فلا أَدْرِي أَحَرَّكَ شَفتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ أم لا؟ وبعدَ تَمامِ أرْبَعينَ يَوْمًا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ زَوْجاتِهِمْ أنْ يَنْفَصِلْنَ عنهم، فذَهَبَتِ النِّساءُ إلى أهْلِيهِنَّ إلَّا أنَّ هِلالًا ومُرارةَ بْنَ الرَّبِيعِ بَقِيَتْ زَوْجَتاهما عندهما؛ لأنَّهما مُحتاجانِ إليهما، أمَّا كَعْبٌ فذَهَبَتِ امرأتُهُ إلى أهْلِها، وهذه القِصَّةُ العجيبةُ العَظِيمةُ أنْزَلَ اللهُ تَعالى فيها آيةً من كِتابِ اللهِ، تُتْلى ويُثابُ مَنْ تَلاها على الحَرْفِ الواحِدِ عَشْرَ حَسناتٍ، فأيُّ فَضْلٍ يُساوي هذا الفَضْلَ، أنْ يَكُونَ تاريخُ إنسانٍ في حياتِهِ إذا تلاهُ المُسْلِمُونَ كان لهم بكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسناتٍ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

في تَبُوكَ كان النَّبِيُّ ﷺ جالسًا، فَسَأَلَ عن كَعْبٍ فقال رَجُلٌ منَ النَّاسِ: يا رَسُولَ اللهِ شَغَلَهُ بُرْداهُ والنَّظَرُ في عِطْفَيْهِ، هذا الكلامُ الذي قالَهُ هذا الرَّجُلُ لا شكَّ أنَّهُ منَ الغِيبةِ، وأنَّهُ ذَكَرَ كَعْبًا بما يَكْرَهُ، إلَّا أنَّ اللهَ وفَّقَ له مَنْ دَافَعَ عنه، وقال: إنَّهُ لا يَعْلَمُ عنه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ.

فيُسْتفادُ من ذلك: أنَّ الواجِبَ على الإنْسانِ إذا سَمِعَ مَنْ يَغْتابُ أحدًا أنْ يَكُفَّ غِيبَتَهُ، وأنْ يَسْعَى في إسْكاتِهِ، إمَّا بالقُوَّةِ إذا كان قادِرًا بأنْ يَقُولَ: اسْكُتِ،

اتَّقِ اللهَ، خَفِ اللهَ، وإمَّا بالنَّصِيحةِ المُؤَثِّرةِ، فإنْ لم يَفْعَلْ فإنَّهُ يَقُومُ ويَتْرُكُ المكانَ؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا جَلَسَ في مَجْلِسٍ يَغْتابُ فيه الجالِسُونَ أَهْلَ الخَيْرِ والصَّلاحِ، فإنَّهُ يَجِبُ عليه أوَّلًا أنْ يُدافِعَ، فإنْ لم يَسْتَطِعْ فعليه أنْ يُغادِرَ وإلَّا كان شَرِيكًا لهم في الإثْمِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٥٦- بابُ مَا يُباحُ مِنَ الغِيبةِ

اعْلَمْ أنَّ الغِيبةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرْعِيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَا، وَهُوَ سِتَّةُ أسْبَابٍ:

الأَوَّلُ: التَّظَلُّمُ، فَيَجُوزُ لِلمَظْلُومِ أنْ يَتَظَلَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهِما مِمَّنْ لَهُ وِلَايَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فيقولُ: ظَلَمَنِي فُلَانٌ بكذا.

الثَّاني: الاسْتِعانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ المُنْكَرِ، وَرَدِّ العَاصِي إِلَى الصَّوابِ، فيقولُ لِمَنْ يَرْجُو قُدْرَتَهُ عَلَى إِزالَةِ المُنْكَرِ: فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فازْجُرْهُ عَنْهُ ونحو ذَلِكَ، ويكونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلَ إِلَى إِزالَةِ المُنكَرِ، فَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ كَانَ حَرَامًا.

الثَّالِثُ: الاسْتِفْتَاءُ، فيقُولُ لِلمُفْتِي: ظَلَمَنِي أَبي أَوْ أخي، أَوْ زَوْجِي، أَوْ فُلانٌ بِكَذَا فَهَلْ لَهُ ذَلِكَ؟ وَمَا طَرِيقِي فِي الخَلاصِ مِنْهُ، وتَحْصِيلِ حَقِّي، وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟ وَنَحْو ذَلِكَ، فهذا جَائِزٌ لِلْحَاجَةِ، ولكِنَّ الأحْوطَ والأفضَلَ أنْ يقولَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ، أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ، كَانَ مِنْ أمْرِهِ كذا؟ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الغَرَضُ مِنْ غَيرِ تَعْيِينٍ، وَمَعَ ذَلِكَ، فالتَّعْيِينُ جَائِزٌ كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِي حَدِيثِ هِنْدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرَّابعُ: تَحْذِيرُ المُسْلِمينَ مِنَ الشَّرِّ وَنَصِيحَتُهُمْ، وذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: جَرْحُ المَجْرُوحينَ مِنَ الرُّواةِ والشُّهُودِ، وذلكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المُسْلِمينَ، بَلْ وَاجِبٌ لِلْحَاجَةِ.

ومنها: المُشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ أو مُشاركتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أَوْ مُعامَلَتِهِ، أَوْ غيرِ ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المُشَاوَرِ أنْ لا يُخْفِيَ حَالَهُ، بَلْ يَذْكُرُ المَسَاوِئَ الَّتي فِيهِ بِنِيَّةِ النَّصيحَةِ.

ومنها: إذَا رأى مُتَفَقِّهًا يَتَرَدَّدُ إلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ فَاسِقٍ يَأْخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وخَافَ أنْ يَتَضَرَّرَ المُتَفَقِّهُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْهِ نَصِيحَتُهُ بِبَيانِ حَالِهِ، بِشَرْطِ أنْ يَقْصِدَ النَّصِيحَةَ، وَهَذا مِمَّا يُغْلَطُ فِيهِ. وَقَدْ يَحْمِلُ المُتَكَلِّمَ بِذلِكَ الحَسَدُ، وَيُلَبِّسُ الشَّيطانُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، ويُخَيِّلُ إلَيْهِ أَنَّهُ نَصِيحَةٌ فَلْيَتَفَطَّنْ لِذلِكَ.

وَمِنها: أنْ يَكُونَ لَهُ وِلايَةٌ لا يَقُومُ بِهَا عَلَى وَجْهِها: إمَّا بِأنْ لا يَكُونَ صَالِحًا لَهَا، وإمَّا بِأنْ يَكونَ فَاسِقًا، أَوْ مُغَفَّلًا، وَنَحوَ ذَلِكَ، فَيَجِبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ لَهُ عَلَيْهِ ولايةٌ عامَّةٌ لِيُزِيلَهُ، وَيُوَلِّيَ مَنْ يَصْلُحُ، أَوْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ؛ لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حالِهِ، وَلَا يَغْتَرَّ بِهِ، وأنْ يَسْعَى في أنْ يَحُثَّهُ عَلَى الاسْتِقَامَةِ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ.

الخامِسُ: أنْ يَكُونَ مُجَاهِرًا بِفِسْقِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ كالمُجَاهِرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المَكْسِ، وجِبَايَةِ الأمْوَالِ ظُلْمًا، وَتَوَلِّي الأُمُورِ الباطِلَةِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ، وَيَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلَّا أنْ يَكُونَ لِجوازِهِ سَبَبٌ آخَرُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ.

السَّادِسُ: التَّعْرِيفُ، فإذا كَانَ الإنْسانُ مَعْرُوفًا بِلَقَبٍ، كالأعْمَشِ، والأعرَجِ، والأَصَمِّ، والأعْمى، والأحْوَلِ، وغَيْرِهِمْ جازَ تَعْرِيفُهُمْ بذلِكَ، وَيَحْرُمُ إطْلاقُهُ عَلَى جِهَةِ التَّنْقِيصِ، ولو أمكَنَ تَعْريفُهُ بِغَيرِ ذَلِكَ كَانَ أَوْلَى.

فهذه ستَّةُ أسْبابٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ وأكثَرُها مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلائِلُهَا مِنَ الأحادِيثِ الصَّحيحَةِ مَشْهُورَةٌ. فمِنْ ذَلِكَ:

الشَّرح

هذا البابُ ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى فيما يجوزُ منَ الغِيبةِ، وذَكَرَ لذلكَ سِتَّةَ أسْبابٍ، وكلامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ ليس بعده كلامٌ؛ لأنَّهُ كُلَّهُ كلامٌ جَيِّدٌ وصوابٌ، وله أَدِلَّةٌ وسَيَذْكُرُهَا -إنْ شاءَ اللهُ تَعالى- في هذا البابِ، وسَنَتَكَلَّمُ عليها في مكانِها إنْ شاءَ اللهُ، فنَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يَغْفِرَ للمُؤَلِّفِ الحافِظِ النَّوَوِيِّ، وأنْ يَجْمَعَنا به في جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٥٣١- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ؟». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

احتَجَّ بِهِ البُخارِيُّ في جَوازِ غِيبَةِ أَهْلِ الفَسادِ وأَهْلِ الرِّيَبِ.

١٥٣٢- وَعَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَظُنُّ فُلَانًا وفُلَانًا يَعْرِفَانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا». رَواهُ البُخارِيُّ[(٢)].

قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ أَحَدُ رُواةِ هَذَا الحديثِ: هذانِ الرَّجُلانِ كانا مِنَ المُنافِقِينَ.

١٥٣٣- وَعَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فقلتُ: إنَّ أَبَا الجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطَبَانِي؟ فَقَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، وأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَلَا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، رقم (٦٠٥٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب مداراة من يُتقى فحشه، رقم (٢٥٩١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكون من الظن، رقم (٦٠٦٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

وفي رِوايةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّساءِ»[1] وَهُوَ تفسيرٌ لِرِوَايةِ: «لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» وقيل: معناهُ: كَثِيرُ الأَسْفَارِ.

١٥٣٤- وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رسُولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عبدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى يَنْفَضُّوا، وقال: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ بذلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عبدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعَلَ، فقالوا: كَذَبَ زَيْدٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، ثُمَّ دَعاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[2].

الشَّرْح

تَقَدَّمَ أَنَّ المُؤَلِّفَ النَّوَوِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَرَ بابًا في بيانِ ما يَجُوزُ مِنَ الغِيبةِ، وذكر لذلك أحاديثَ، فمِنْها: حديثُ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَأْذَنَ عليه رَجُلٌ، يعني لِيَدْخُلَ بَيْتَهُ فقال: «ائْذَنُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو العَشِيرَةِ؟» وفي لفظ: «بِئْسَ ابْنُ العَشِيرَةِ» وكان هذا الرَّجُلُ من أَهْلِ الفسادِ والرِّيَبِ، فدَلَّ هذا على جَوازِ غِيبةِ مَنْ كان مِن أَهْلِ الفَسادِ والرِّيَبِ؛ وذلك مِن أَجْلِ أَنْ يَحْذَرَ النَّاسُ فسادَهُ حتَّى لا يَغْتَرُّوا فيه، فإذا رَأَيْتَ شخصًا ذا فسادٍ ورِيَبٍ لكنَّهُ قد سَحَرَ النَّاسَ بِبيانِهِ وكلامِهِ، يَأْخُذُ النَّاسُ منه ويَظُنُّونَ أَنَّهُ على خيرٍ، فإنَّهُ يَجِبُ عليك أَنْ تُبَيِّنَ أَنَّ هذا الرَّجُلَ لا خَيْرَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثًا لا نفقة لها، رقم (١٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، رقم (٤٩٠٣)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٧٧٢).

فيه وأنْ تُثْنِيَ عليه شَرًّا؛ لِأَجْلِ ألَّا يَغْتَرَّ النَّاسُ به، كم من إنْسانٍ طَلِيقِ اللِّسانِ فَصِيحِ البيانِ إذا رَأَيْتَهُ يُعْجِبُكَ جِسمُهُ، وإنْ يَقُلْ تَسْمَعْ لقَوْلِهِ، ولكنَّهُ لا خَيْرَ فيه! فالواجِبُ بيانُ حالِهِ.

كذلك أيضًا ذَكَرَ من حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أيضًا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَا أظُنُّ أَنَّ فُلانًا وفُلانًا يَعْرِفانِ مِنْ دِينِنَا شَيْئًا» وكانا مِنَ المُنافِقِينَ فأثْنَى عليهما شَرًّا، وأنَّهما لا يَعْرِفانِ منَ الدِّينِ شيئًا؛ لأنَّ المُنافِقَ لا يَعْرِفُ مِن دينِ اللهِ شيئًا في قَلْبِهِ، وإنْ كان يَعْرِفُ بِأُذُنِهِ، لكنْ لا يَعْرِفُ بقَلْبِهِ والعياذُ باللهِ، فهو مُنافِقٌ يُظْهِرُ أنَّهُ مُسْلِمٌ ولكنَّهُ كافِرٌ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٨-٩].

وذكَرَ أيضًا حديثَ فاطِمةَ بِنْتَ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في المَشُورةِ أنَّها جاءَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخْبَرَتْهُ أنَّهُ خَطَبَها ثلاثةٌ من الرِّجالِ مُعاويةُ بنُ أبي سُفْيانَ، وأبُو الجَهْمِ، وأُسامةُ بنُ زَيْدٍ، فقال لها النَّبِيُّ ﷺ: «أمَّا مُعَاوِيَةُ، فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ» لكنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَقِيَ حتَّى صارَ خليفةً من خُلفاءِ المُسْلِمِينَ، لكنَّهُ في ذلك الوقتِ فقيرٌ، قال: «أمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوكٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ لِلنِّساءِ» وفي رِوايةٍ: «أنَّهُ لَا يَرْفَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» وهما بمعْنًى واحدٍ، يعني أنَّهُ سَيِّئُ العِشْرَةِ مع النِّساءِ يَضْرِبُهُنَّ، والمَرْأةُ لا يَجُوزُ ضَرْبُهَا إلَّا لسببٍ بَيَّنَهُ اللهُ في قَولِهِ: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤]. أمَّا أنْ تَضْرِبَ امْرأتَكَ كلما خالَفَتْ أدْنَى مُخالَفةٍ فهذا غَلَطٌ، ولا يَحِلُّ؛ لِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]. لكنْ إذا خِفْتَ نُشُوزَها وتَرَفُّعَها عليك وعَدَمَ قِيامِها بِوَاجِبِكَ فاسْتَعْمِلْ معها هذه الرُّتَبَ:

أوَّلًا: عِظْها، خَوِّفْها باللهِ، بَيِّنْ لها أنَّ حقَّ الزَّوْجِ لا يَجُوزُ تَضْيِيعُهُ، فإنِ اسْتَقامَتْ فهذا المَطْلُوبُ.

وإلَّا فالرُّتْبَةُ الثَّانِيةُ: اهْجُرْها في المَضْجَعِ، لا تَنَمْ مَعها، أمَّا الكَلامُ فلا تَهْجُرْها، لكنْ لك رُخْصَةٌ أنْ تَهْجُرَهَا في الكَلامِ ثلاثةَ أيَّامٍ؛ لأنَّهُ لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثلاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فيُعْرِضُ هذا ويُعْرِضُ هذا، وخَيْرُهُما الذي يَبْدَأُ بالسَّلامِ.

الرُّتْبَةُ الثَّالِثَةُ: إذا لم يُجْدِ بها هذا فاضْرِبُوهُنَّ، لكنْ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، يعني ليس شديدًا، بل ضَرْبًا يَحْصُلُ به التَّأْدِيبُ فقط.

وفي لَفْظٍ: «أنَّهُ لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» وهما بمَعْنًى واحدٍ، وقيلَ: إنَّ معْنَى قولِهِ: «أنَّهُ لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» أنَّهُ كثيرُ الأسْفارِ؛ لأنَّ صاحبَ السَّفَرِ في ذلك الوَقْتِ يُسافِرُ بالإبِلِ ويحتاجُ العَصا. والظَّاهِرُ أنَّ المعْنَى واحدٌ، يعني «ضَرَّابٌ للنِّساءِ» و«لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» بمعْنًى واحدٍ؛ لأنَّ الرِّواياتِ يُفَسِّرُ بَعْضُها بَعْضًا، ثم قال: انْكِحِي أُسامةَ بْنَ زَيْدِ بنِ حارِثةَ، فَنَكَحَتْهُ فاغْتَبَطَتْ به ورَأَتْ به خيرًا.

ففي هذا دَلِيلٌ على أنَّ الإنْسانَ إذا جاءَ يَسْتَشِيرُكَ في شخصٍ فذَكَرْتَ عُيُوبَهُ فلا بَأْسَ؛ لأنَّ هذا من بابِ النَّصِيحةِ وليس من بابِ الفَضِيحةِ، وفَرْقٌ بين مَنْ يَغْتابُ النَّاسَ لِيُظْهِرَ مَساوِءَهُمْ ويَكْشِفُ عَوْراتِهِمْ وبين إنْسانٍ يَتَكَلَّمُ بالنَّصِيحةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

أمَّا الحديثُ الرَّابعُ: فهو حديثُ زَيْدِ بْنِ الأرْقَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان النَّبِيُّ ﷺ في سَفَرٍ وكان معهُ المُؤْمِنُونَ والمُنافِقُونَ فأصابَ النَّاسَ شِدَّةٌ، فتكَلَّمَ المُنافقونَ وقالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]. يعني: لا تُعْطُوهُمْ

شَيْئًا من النَّفقةِ حتَّى يَجُوعوا ويَتْرُكوا النَّبِيَّ ﷺ وكَذَبُوا، فالمُؤْمِنُونَ لا يُمْكِنُ أنْ يَتْرُكُوا النَّبِيَّ ﷺ ولو ماتُوا جُوعًا وظَمَأً، لكنْ هذه هي حالُ المُنافِقِينَ الذين يَلْمِزُونَ النَّبِيَّ ﷺ في الصَّدقاتِ إذا أُعْطُوا رَضُوا وإنْ لم يُعْطَوْا إذا هم يَسْخَطُونَ، أمَّا المُؤْمِنُونَ فلنْ يَتْرُكوا الرَّسُولَ ﷺ ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧]، حتَّى هنا للتَّعْلِيلِ وليست للغايةِ يعني لأجْلِ أنْ يَنْفَضُوا عنه، ولكنْ كَذَبُوا في ذلك، وقالوا أيضًا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]. ويعني بالأعَزِّ نَفْسَهُ وقَوْمَهُ وبالأذَلِّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فسَمِعَ ذلك زَيْدُ بْنُ الأرْقَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأتَى إلى النَّبِيِّ ﷺ فأخْبَرَهُ بأنَّ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ قال هذا الكَلامَ، فأرْسَلَ إليه النَّبِيُّ -أي إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ- فاجْتَهَدَ يَمِينَهُ أنَّهُ لم يَقُلْ هذا، يعني حَلَفَ وأقْسَمَ واشْتَدَّ في القَسَمِ أنَّهُ ما قال ذلك؛ لأنَّ المُنافِقِينَ هذا دَأْبُهُمْ، يَحْلِفونَ على الكَذِبِ وهم يَعْلَمُونَ، فأقْسَمَ أنَّهُ ما قال ذلك، وكان النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ عَلانِيَتَهُمْ ويَكِلُ سَرِيرَتَهُمْ إلى اللهِ، فلما بَلَغَ ذلك زَيْدَ بنَ أرْقَمَ اشْتَدَّ عليه الأمْرُ؛ لأنَّ الرَّجُلَ حَلَفَ وأقْسَمَ عند الرَّسُولِ ﷺ أو عند رَسُولِ الرَّسُولِ، واجْتَهَدَ بيَمِينِهِ في ذلك، فاشْتَدَّ هذا على زَيْدِ بْنِ الأرْقَمِ، فقال النَّاسُ: كَذَبَ زَيْدُ بْنُ أرْقَمَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يعني أخْبَرَهُ بالكَذِبِ حتَّى أنْزَلَ اللهُ تَصْدِيقَ زَيْدِ بنِ أرْقَمَ في قَولِهِ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٧-٨].

وتَأمَّلْ جَوابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِقَوْلِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ حَيْثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: إنَّ اللهَ هو الأعَزُّ؛ لأنَّهُ لو قال:

هو الأَعَزُّ لَصارَ في ذلك دَلِيلٌ على أنَّ المُنافِقِينَ لهم عِزَّةٌ، وهم لا عِزَّةَ لهم، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّهُ لا بَأْسَ أنَّ الإنْسانَ يَنْقُلُ كلامَ المُنافِقِ إلى وَلِيِّ الأمْرِ حتَّى يَتَّخِذَ فيه ما يَنْبَغِي اتِّخاذُهُ، وكذلك يَنْقُلُ كلامَ المُفْسِدِ إلى وَلِيِّ الأَمْرِ حتَّى لا يَتمادَى في إفسادِهِ، وإذا كان الإنْسانُ يَخْشَى مِنَ الكلامِ أنْ يَحْصُلَ فيه فسادٌ وَجَبَ عليه أنْ يُبْلِغَهُ إلى وَلِيِّ الأمْرِ حتَّى يَقْضِيَ على الفساد قبلَ أنْ يَسْتَشْرِيَ، ولا يُقالُ: أخْشَى أنَّ وَلِيَّ الأمْرِ يَفْعَلُ فيه، فإنْ فَعَلَ فهو الذي جَنَى على نَفْسِهِ إذا كان يَتَكَلَّمُ بكلامٍ يُخْشَى منه الفَسادُ، فالوَاجِبُ رَفْعُ الكلامِ إلى وَلِيِّ الأمْرِ، لكنْ لا بُدَّ منَ التَّثَبُّتِ؛ لِئلَّا يَقَعَ الإنْسانُ في حَرَجٍ.

في عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا أنْكَرَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ما قِيلَ عنه نَزَلَ الوَحْيُ بتَصْدِيقِ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ، لكنْ وبعدَ انْقطاعِ الوَحْيِ بوَفاةِ الرَّسُولِ ﷺ لا يُوجَدُ وَحْيٌ يُؤَيِّدُ أو يُفَنِّدُ، فإذا سَمِعْتَ منْ بعضِ النَّاسِ كلامًا يُؤَدِّي إلى الشَّرِّ والفسادِ وتَثَبَّتَّ وَجَبَ عليك أنْ تُبْلِغَ به وَلِيَّ الأمْرِ؛ حتَّى لا يَسْتَشْرِيَ الشَّرُّ والفسادُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٣٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قالت هِنْدُ امْرَأَةُ أَبي سفْيَانَ للنَّبِيِّ ﷺ: إنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وولَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ وَهُوَ لا يَعْلَمُ؟ قَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ، رقم (٥٣٦٤)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند، رقم (١٧١٤).

الشَّرْح

وأمَّا البُخْلُ بما يَجِبُ فهذا حرامٌ لا يَجُوزُ، ومَنْ وَقَعَ عليه ذلك فله أنْ يَتَظَلَّمَ إلى شخصٍ يَقْدِرُ أنْ يَأْخُذَ الحقَّ له، فهذه هِنْدُ تَظَلَّمَتْ عندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالَ لَها: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمَعْرُوفِ» فأَذِنَ لها أنْ تَأْخُذَ من مالِهِ بغَيْرِ عِلْمِهِ ما يَكْفِيها ويَكْفِي ولَدَها، ولكنْ بالمَعْرُوفِ، يعني لا تَزِيدُ على ذلك، فدلَّ هذا على مَسائِلَ:

منها: جَوازُ غِيبةِ الإنْسانِ للتَّظَلُّمِ منه، لكنْ بشَرْطِ أنْ يكونَ ذلك عند مَنْ يُمْكِنُهُ أخْذُ الحَقِّ لصاحِبِهِ، وأمَّا إذا لم يَكُنْ كذلك فلا فائِدةَ من التَّظَلُّمِ.

ومنها: أنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يُنْفِقَ على أهْلِهِ -زوْجَتِهِ ووَلَدِهِ- بالمَعْرُوفِ، حتَّى لو كانتِ الزَّوْجةُ غَنِيَّةً، فإنَّهُ يَجِبُ على الزَّوجِ أنْ يُنْفِقَ، ومن ذلك ما إذا كانتِ الزَّوْجةُ تُدَرِّسُ، وقد شُرِطَ على الزَّوجِ تَمْكِينُها منَ التَّدْريسِ فإنَّهُ لا حقَّ له فيما تَأْخُذُهُ من راتبٍ لا نِصْفًا ولا أكْثَرَ ولا أقَلَّ، الرَّاتِبُ لها ما دام قد شُرِطَ عليه عند العَقْدِ أنَّهُ لا يَمْنَعُها من التَّدْريس فرَضِيَ بذلك، فليس له الحقُّ أنْ يَمْنَعَها من التَّدْرِيسِ وليس له الحَقُّ أنْ يَأْخُذَ من مُكافأتِها -أيْ من راتِبِهَا- شَيْئًا، هو لها.

أمَّا إذا لم يُشْتَرَطْ عليه أنْ يُمَكِّنَها منَ التَّدْرِيسِ، ثم لمَّا تَزَوَّجَ قال لا تُدَرِّسي، فهنا لهما أنْ يَصْطَلِحا على ما يَشاءانِ، يعني مثلًا له أنْ يَقُولَ: أُمَكِّنُكِ من التَّدْرِيسِ بشَرْطِ أنْ يكونَ لي نِصْفُ الرَّاتِبِ أو ثُلُثاهُ أو ثَلاثةُ أرْباعِهِ أو رُبُعُهُ وما أَشْبَهَ ذلك، على ما يَتَّفِقانِ عليه، وأمَّا إذا شُرِطَ عليه أنْ تُدَرِّسَ وقَبِلَ فليس له الحقُّ أنْ يَمْنَعَها وليس له الحَقُّ أنْ يَأْخُذَ من راتِبِها شَيْئًا.

ومِنْ فوائِدِ هذا الحديثِ أيضًا: أنَّهُ يَجُوزُ لِمَنْ له النَّفَقةُ على شَخْصٍ وامْتَنَعَ مَنْ عليه النَّفَقةُ مِنْ بَذْلِ النَّفقةِ، أنْ يَأْخُذَ من مالِهِ بقَدْرِ النَّفَقةِ، سواءٌ عَلِمَ أمْ لم يَعْلَمْ،

وسَواءٌ أَذِنَ أمْ لم يَأْذَنْ، فللمَرْأةِ مثلًا أنْ تَأْخُذَ من جَيْبِ زَوْجِها ما يَكْفِيها ويَكْفِي أوْلادَها، وكذلك أيضًا تَأْخُذُ من شَنْطَتِهِ أو صُنْدُوقِهِ ما يَكْفِيها ويَكْفِي أوْلادَها، سَواءٌ عَلِمَ أم لم يَعْلَمْ.

فإنْ قال قائِلٌ: إذا كان لي حَقٌّ على إنْسانٍ وجَحَدَ وأنْكَرَ وقَدَرْتُ على أخْذِ شَيْءٍ من مالِهِ، فهل يجوزُ أنْ آخُذَ مِقْدارَ حَقِّي من مالِهِ؟

الجوابُ: لا يَجُوزُ، والفَرْقُ بين هذا وبين النَّفَقةِ أنَّ النَّفَقةَ لإنْقاذِ النَّفْسِ وسَبَبُها ظاهِرٌ، كُلُّنا يَعْرِفُ أنَّ هذه زَوْجةُ فُلانٍ وأنَّ الزَّوْجةَ لها نَفَقةٌ، بخلافِ الدَّيْنِ فإنَّهُ أمْرٌ خَفِيٌّ لا يُطَّلَع عليه، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»[1].

فهذا هو القَوْلُ الرَّاجِحُ في هذه المسْألةِ، ويُعَبَّرُ عنها عند العُلماءِ بمسألةِ (الظَّفَرِ)، يعني مَنْ ظَفَرَ بمالِ مَنْ له حَقٌّ عليه هل يَأْخُذُ منه أم لا؟ والجوابُ: التَّفْصِيلُ أنَّهُ إذا كان في مُقابِلِ النَّفَقةِ الوَاجِبةِ فلا بَأْسَ، وأمَّا إذا كان في مُقابِلِ دَيْنٍ واجبٍ، فإنَّهُ لا يَجُوزُ لِعُمُومِ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ». واللهُ المُوَفِّقُ.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٤)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (٣٥٣٤)، والترمذي: كتاب البيوع، باب، رقم (١٢٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٢٥٧- بابُ تَحْرِيمِ النَّمِيمةِ وهِيَ نَقْلُ الكَلامِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى جِهةِ الإفْسادِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

١٥٣٦- وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

١٥٣٧- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ! بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)]. وهذا لَفْظُ إِحْدَى رِواياتِ البُخارِيِّ.

قَالَ العُلَمَاءُ: معنى: «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» أَيْ كَبِيرٍ فِي زَعْمِهِمَا. وقِيلَ: كَبِيرٌ تَرْكُهُ عَلَيْهِمَا.

الشَّرْح

سَبَقَ أَنَّ المُؤَلِّفَ الحافِظَ النَّوَوِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكَرَ بابًا مُفِيدًا في بابِ ما يجوزُ من الغِيبةِ، وذَكَرَ من ذلك سِتَّ مَسائِلَ، ذكَرَ لها أَدِلَّةً سَبَقَ الكَلامُ عليها، ومن ذلك التَّظَلُّمُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، رقم (٦٠٥٦)، ولفظه: «قتات» بدلًا من «نمام»، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم (١٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، رقم (١٣٧٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول، رقم (٢٩٢).

يعني إذا تَظَلَّمَ إنْسانٌ عند وَلِيِّ الأمْرِ من شَخْصٍ ظَلَمَهُ، فإنَّ ذلك لا بَأْسَ به؛ لأنَّهُ حَقُّهُ ولنْ يَتَمَكَّنَ منه إلَّا بذلك، والدَّليلُ على هذا حديثُ هِنْدَ بِنْتِ عُتْبَةَ امْرأةِ أَبِي سُفْيَانَ، جاءتْ إلى النَّبِيِّ ﷺ فقالت له: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ أبا سُفْيانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، يعني بَخِيلٌ، لا يُعْطِينِي ما يَكْفِينِي ووَلَدِي بالمَعْرُوفِ، فوَصَفَتْهُ بأنَّهُ شَحِيحٌ، وهذا وصْفُ ذَمٍّ يَكْرَهُهُ الإنْسانُ، لكنْ إنَّما قالت ذلك تَظَلُّمًا من أجْلِ رَفْعِ الظُّلْمِ عنها، وذلك أنَّ الواجِبَ على الإنْسانِ أنْ يُنْفِقَ على زَوْجَتِهِ وعلى أوْلادِهِ بالمَعْرُوفِ لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، لا يُقَصِّرُ ولا يَزِيدُ كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].



١٥٣٨ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هي النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

«العَضْهُ»: بفَتْحِ العَيْنِ المُهْمَلَةِ، وإسْكانِ الضَّادِ المُعْجَمَةِ، وبالهاءِ عَلَى وزن الوَجْهِ، ورُوِيَ «العِضَةُ» بكَسْرِ العَيْنِ وفَتْحِ الضَّادِ المُعْجَمَةِ عَلَى وَزْنِ العِدَةِ، وهي: الكَذِبُ والبُهْتانُ، وعلى الرِّوايةِ الأُولَى: العَضْهُ مَصْدرٌ، يُقالُ: عَضَهَهُ عَضْهًا، أيْ: رَماهُ بالعَضْهِ.

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ النَّمِيمَةِ، فيما نَقَلَهُ عن عبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ». هذا من أساليبِ التَّعْليمِ الجَيِّدَةِ وهي أنْ يُلْقِيَ المُعَلِّمُ السُّؤَالَ على المُخاطَبِينَ للتَّنْبِيهِ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم النميمة، رقم (٢٦٠٦).

حتَّى يَسْتَثِيرَ أفْهامَهُمْ ويُعْطُوا الكَلامَ انْتِباهَهُمْ «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟» والنَّبأُ والخَبَرُ في اللُّغةِ العَربيَّةِ مَعْناهُما واحدٌ، والعَضْهُ منَ القَطْعِ والتَّمْزِيقِ، ومنه قَولُهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]. يعني قِطَعًا وأجْزاءً، يُؤْمِنُونَ ببَعْضِهِ ويَكْفُرُونَ ببَعْضِهِ، فما هي العَضْهُ المُفَرِّقَةُ للأُمَّةِ المُمَزِّقَةُ لهم، قال: هي النَّمِيمةُ، أنْ يَنْقُلَ الإنْسانُ كَلامَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ في بَعْضٍ من أجْلِ الإفْسادِ بينهم، وهي مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ، وقد كُشِفَ للنَّبيِّ ﷺ عن رَجُلَيْنِ يُعَذَّبانِ في قَبْرَيْهِما، وأخْبَرَ أنَّ أحَدَهُما كان يَمْشِي بالنَّمِيمةِ، وذلك أنَّ بَعْضَ النَّاسِ والعياذُ باللهِ يُفْتَنُ فيَكُونُ شَغُوفًا بِنَقْلِ الكَلامِ، كلامِ النَّاسِ بعْضِهِم في بَعْضٍ، يَتَزَيَّنُ بها عندَ النَّاسِ، يَأْتِي لفُلانٍ ويقولُ: فُلانٌ قال فيك كذا وكذا، قد يَكُونُ صادقًا وقد يَكُونُ كاذبًا، وحتَّى إنْ كان صادقًا فإنَّهُ حَرامٌ، ومِنْ كبائِرِ الذُّنوبِ، وقد نَهَى اللهُ تَعالى أنْ يُطاعَ مِثْلُ هذا الرَّجُلِ، قال تَعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١٠-١١].

وقال بعضُ أهْلِ العِلْمِ: مَنْ نَمَّ إليك الحديثَ نَمَّهُ منك، يعني: مَنْ نَقَلَ كَلامَ النَّاسِ فيك فإنَّهُ يَنْقُلُ كلامَكَ أنت، فاحْذَرْهُ ولا تُطِعْهُ، ولا تَلْتَفِتْ إليه.

وفي هذا دَلِيلٌ على حُسْنِ تَعْلِيمِ النَّبيِّ ﷺ؛ حيثُ يَأْتِي بالأساليبِ التي يَكُونُ فيها انْتِباهُ المُخاطَبِ، ولا سِيَّما إذا رَأى مِنَ المُخاطَبِ غَفْلةً، فإنَّهُ يَنْبَغِي أنْ يَأْتِيَ بالأُسلوبِ الذي يُنَبِّهُهُ؛ لأنَّ المَقْصُودَ منَ الخِطابِ هو الفَهْمُ والاستيعابُ والحفظُ، فيَأْتِي الإنْسانُ بالأساليبِ المُفيدةِ في ذلك.

فإنْ قال قائِلٌ: إذا كان الشَّخْصُ يَنْقُلُ كلامَ الإنْسانِ في الإنْسانِ نَصِيحةً، مثل أنْ يَرَى شخصًا مَغْرُورًا بشخصٍ، يُفْضِي إليه أسْرارَهُ ويُلازِمُهُ، والشَّخْصُ هذا يُفْضِي أسرارَ صاحِبِهِ الذي يُفْضِي إليه أسْرارِهِ ويَخْدَعُهُ، فهل له أنْ يَتكَلَّمَ فيه؟

فالجوابُ: نعم، له أنْ يَتكَلَّمَ فيه، ويقولَ: يا فُلانُ احْذَرْ هذا الشَّخْصَ، فإنَّهُ يَنْقُلُ كَلامَكَ ويقولُ فيك كذا وكذا؛ لأنَّ هذا من بابِ النَّصِيحةِ، وليس غَرَضُهُ أنْ يُفَرِّقَ بين النَّاسِ، ولكنَّ غرضَهُ أنْ يُسْدِيَ النَّصِيحةَ إلى صاحِبِهِ، واللهُ تَعالى يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة:٢٢٠]. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٥٨- بابُ النَّهْيِ عن نَقْلِ الحَديثِ وكَلامِ النَّاسِ إِلَى وُلاةِ الأُمورِ إِذَا لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ حاجةٌ كخَوْفِ مَفْسَدَةٍ ونَحْوِها

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]. وفي البابِ الأحاديثُ السَّابِقةُ في البابِ قبلهُ.

١٥٣٩- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْ أصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فإنِّي أُحِبُّ أنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وأنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ». رَواهُ أَبو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[1].

الشَّرْح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى بابَ النَّهْيِ عن نَقْلِ الحديثِ وكلامِ النَّاسِ إلى وُلاةِ الأُمورِ إذا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى ذلك، يعني أَنَّهُ أرادَ به رَحِمَهُ اللَّهُ أَلَّا يَنْقُلَ النَّاسُ إلى الوُلاةِ كَلامَ النَّاسِ وأحْوالَهُمْ إذا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى ذلك؛ لأنَّ نَقْلَ الكَلامِ إلى وُلاةِ الأُمورِ -إذا لم يَكُنْ هناك مَصْلحةٌ- يُوجِبُ إمَّا العُدْوانَ على الشَّخْصِ الذي نُقِلَ عنه الكَلامُ، وإمَّا أنَّ وُلاةَ الأُمورِ يَتَصَوَّرُونَ أشياءَ لا حَقِيقةَ لها، وأنَّ النَّاسَ يَكْرَهُونَهُمْ ويَسُبُّونَهُمْ وما أَشْبَهَ ذلك؛ فلهذا يَنْبَغِي أنْ لا يُنْقَلَ إلى وُلاةِ الأُمورِ حَدِيثُ النَّاسِ وكَلامُ النَّاسِ إلَّا إذا دَعَتِ الحاجةُ أو المَصْلحةُ إلى ذلك، فإنْ دعتِ الحاجةُ أو المَصْلحةُ إلى ذلك فإنَّهُ يُنْقَلُ كلامُ النَّاسِ إلى وُلاةِ الأُمورِ؛ خَوْفًا منَ المَفْسدةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في رفع الحديث من المجلس، رقم (٤٨٦٠)، والترمذي: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ، رقم (٣٨٩٦).

فمثلًا: إذا كان أحدٌ منَ النَّاسِ يَتكَلَّمُ في وُلاةِ الأُمورِ في المجالِسِ ويَقُولُ: فيهم كذا وفيهم كذا، ويَسُبُّهُمْ، فإنَّ الأَوْلَى ألَّا يُنْقَلَ هذا الكَلامُ إلى وُلاةِ الأُمورِ؛ لئلَّا تَحْصُلَ المَفْسَدةُ التي أَشَرْتُ إليها، وهي العُدْوانُ على هذا الشَّخْصِ، وتَصَوُّرُ وُلاةِ الأُمورِ أنَّ النَّاسَ يَكْرَهُونَهُمْ، فيَكْرَهُونَ النَّاسَ ولا يَأْتُونَ بالأمْرِ الذي يَنْبَغِي أنْ يَأْتُوا به من مَصالِحِ المُسْلِمِينَ.

أمَّا إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلك -إلى نَقْلِ كَلامِ النَّاسِ إلى وُلاةِ الأُمورِ- لِدَفْعِ مَفْسدةٍ أو حُصولِ مَصْلحةٍ فإنَّهُ لا بُدَّ من نقلِهِ إليهم، فإذا رَأَينا رَجُلًا يَتكَلَّمُ في وُلاةِ الأُمورِ بما فيهم من المَعاصِي والفُسوقِ وما أَشْبَهَ ذلك، ويَنْشُرُهَا بين النَّاسِ، فإنَّهُ لا بد أنْ تُعْلَمَ وُلاةُ الأُمورِ بهذا؛ لأنَّ هذا منَ النَّصِيحةِ لهذا الشَّخْصِ؛ لئلَّا يَتَمادى في طُغْيانِهِ وهُجُومِهِ على وُلاةِ الأُمورِ، ومنَ النَّصِيحةِ لوُلاةِ الأُمورِ أيضًا ألَّا يَحْمِلَ النَّاسُ في قُلوبِهِمْ على وُلاةِ الأُمورِ، وأمَّا تَرْكُ المُفْسِدِ يُفْسِدُ ويَتكَلَّمُ بما شاءَ من غيْرِ رَدْعٍ له ولا زَجْرٍ فهذا خلافُ المَصْلَحةِ، بل فيه المَفْسدةُ العَظِيمةُ.

فالحاصِلُ: أنَّ الحافِظَ النَّوَوِيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذَكَرَ في هذا البابِ أنَّهُ لا يَنْبَغِي أنْ يُنْقَلَ إلى وُلاةِ الأُمورِ كلامُ النَّاسِ وحَدِيثُهُمْ ما لم تَقْتَضِ المَصْلَحةُ ذلك، فإنِ اقْتَضَتِ المَصْلَحةُ ذلك لِكَبْحِ الشَّرِّ والفسادِ والطُّغيانِ فإنَّهُ يَجِبُ أنْ يُنْقَلَ إلى وُلاةِ الأُمورِ بعد التَّثَبُّتِ والتَّحَقُّقِ منَ الأمْرِ حتَّى تَرْدَعَ وُلاةُ الأُمورِ أهْلَ الشَّرِّ والفسادِ، وإلَّا فلو تُرِكَ النَّاسُ يَتكَلَّمُونَ كما يَشاؤُونَ لَحَصَلَ في هذا مَفْسَدَةٌ كَبيرةٌ.

ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ لهذا بآيةٍ وحديثٍ، أمَّا الآيةُ: فقَولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]. ومنَ التَّعاوُنِ على الإثْمِ والعُدْوانِ أنْ يَنْقُلَ الإنْسانُ كلامَ النَّاسِ أو كلامَ الشَّخْصِ المُعَيَّنِ إلى وُلاةِ الأُمورِ بدُونِ مصلحةٍ تَقْتَضِي ذلكَ، فإنَّ هذا

قد يَحْصُلُ به -كما أشَرْنا- عُدْوَانٌ منْ وُلاةِ الأُمورِ على الشَّخصِ بلا سَبَبٍ شَرْعِيٍّ.

وأمَّا الحديثُ: فيَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إلَيْكُمْ وأنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**» وهذا من حِكْمةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّهُ لا أحَدَ يَنْقُلُ إليه كلامَ النَّاسِ؛ لكيْ لا يَقَعَ في قَلْبِهِ شيءٌ على هذا المُتكَلَّمِ فيهِ، فيُحِبُّ أنْ يَخْرُجَ إليهم وهو سَلِيمُ الصَّدْرِ؛ ولهذا كَثِيرًا ما يكونُ الإنْسانُ مُحِبًّا لشخصٍ يُقَدِّرُهُ ويَرَى أنَّهُ رَجُلٌ كريمٌ ورَجُلٌ سَلِيمٌ، ثم إذا نُقِلَ إليه شيءٌ عن هذا الرَّجُلِ كَرِهَهُ ونَفَرَ منه وصار يَبْغَضُهُ، لكنْ كما قلنا أولًا: إذا اقْتَضَتِ المَصْلَحةُ أنْ نَتكَلَّمَ فلا بُدَّ أنْ نَتكَلَّمَ؛ لكيْ لا يَنْتَشِرَ الشَّرُّ والفَسادُ وتَحْصُلَ الفِتَنُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٥٩- بابُ ذَمِّ ذِي الوَجْهَيْنِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

١٥٤٠- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعادِنَ: خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا، وتَجِدُونَ خِيَارَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٥٤١- وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ: أَنَّ نَاسًا قالوا لِجَدِّهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلْطَانِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ خِلَافَ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رسُولِ الله ﷺ. رَواهُ البُخارِيُّ(٢).

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ ذَمِّ ذِي الوَجْهَيْنِ»، ذُو الوَجْهَيْنِ: هو الذي يَأْتِي هَؤُلاءِ بوَجْهٍ وهَؤُلاءِ بوَجْهٍ، كما يَفْعَلُ المُنافِقُونَ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم...﴾، رقم (٣٤٩٣، ٣٤٩٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب خيار الناس، رقم (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب ما يكره من ثناء السلطان وإذا خرج قال...، رقم (٧١٧٨).

وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤]. وهذا يُوجَدُ في كثيرٍ منَ النَّاسِ والعياذُ باللهِ وهو شُعْبَةٌ منَ النِّفاقِ، تَجِدُهُ يَأْتِي إليك يَتَمَلَّقُ ويُثْنِي عليك، وربَّما يَغْلُو في ذلك الثَّناءِ، ولكنَّهُ إذا كان مِن وَرائِكَ عَقَرَكَ وذَمَّكَ وشَتَمَكَ وذَكَرَ فيك ما ليس فيك، فهذا والعياذُ باللهِ كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَينِ، الَّذِي يَأتِي هؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[1]. وهذا من كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَفَ فاعِلَهُ بأنَّهُ شَرُّ النَّاسِ، والواجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَكُونَ صريحًا، لا يقولُ إلَّا ما في قَلْبِهِ فإنْ كان خَيْرًا حُمِدَ عليه وإن كان سِوَى ذلك وُجِّهَ إلى الخَيْرِ، أمَّا كَوْنُهُ يَأْتِي هَؤُلاءِ بوَجْهٍ وهَؤُلاءِ بوَجْهٍ، سواءً كان فيما يَتَعَلَّقُ بعِبادَتِهِ يُظْهِرُ أنَّهُ عابِدٌ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وهو بالعَكْسِ، أو فيما يَتَعَلَّقُ بمُعامَلَتِهِ مع الشَّخْصِ يُظْهِرُ أنَّهُ ناصِحٌ له ويُثْنِي عليه ويَمْدَحُهُ ثم إذا غابَ عنه عَقَرَهُ، فهذا لا يَجُوزُ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآيةَ الكريمةَ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨]. هذه الآيةُ نَزَلَتْ في قومٍ يُخْفُونَ في أنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَهُ للنَّاسِ، يُحَدِّثُونَ النَّاسَ بما ليس في قُلُوبِهِمْ، فإذا صارُوا في الوِحْدةِ واجْتَمَعُوا في اللَّيْلِ أظْهَرُوا ما في نُفُوسِهِمْ -والعياذُ باللهِ- الذي كانوا أَخْفَوْهُ عنِ النَّاسِ من قَبْلُ، فيقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾.

ومثل ذلك أيضًا مَنْ يَعْمَلُ المَعْصِيةَ خَفاءً ولا يَعْمَلُها أمامَ النَّاسِ؛ حَياءً

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم...﴾، رقم (٣٤٩٣، ٣٤٩٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب خير الناس، رقم (٢٥٢٦).

منهم وخَجلًا، وأمَّا اللهَ فلا يَسْتَحْيِي منه ولا يَخْجَلُ والعياذُ باللهِ، وهذا يَدْخُلُ في الآيةِ الكريمةِ.

وأمَّا مَنْ عَمِلَ المَعْصِيَةَ ونَدِمَ وتَابَ فإنَّهُ لا يَجُوزُ له أنْ يُحَدِّثَ النَّاسَ بما فَعَلَ، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إلَّا المُجَاهِرِينَ»[1]، والمُجاهِرُ هو الذي إذا فَعَلَ المَعْصِيَةَ حَدَّثَ بها، فالواجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَكُونَ صريحًا، ظاهِرُهُ كباطِنِهِ، وهو إذا كان صَرِيحًا إنْ كان على خَيْرٍ ثَبَّتَهُ أهْلُ الخَيْرِ عليه واسْتَمَرَّ، وإنْ كان على خِلافِ ذلك بَيَّنُوا له ما هو عليه منَ الشَّرِّ حتَّى يَرْتَدِعَ، نَسْأَلُ اللهُ تَعالى أنْ يَجْعَلَ بَواطِنَنا خَيْرًا من ظَواهِرِنَا، وأنْ يُوَفِّقَنا وإيَّاكُم إلى ما يُحِبُّ ويَرْضَى؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (٦٠٦٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (٢٩٩٠).

٢٦٠- بابُ تَحْرِيمِ الكَذِبِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦]. **وقال تَعَالَى:** ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ تَحْرِيمِ الكَذِبِ»، الكَذِبُ هو أنْ يُخْبِرَ الإنْسانُ بخلافِ الواقِعِ، فيقول: حَصَلَ كذا، وهو كاذِبٌ، أو قال فُلانٌ كذا، وهو كاذِبٌ، وما أَشْبَهَ ذلك، فالكَذِبُ هو الإخْبارُ بخلافِ الواقِعِ.

واعْلَمْ أنَّ الكَذِبَ أنْواعٌ:

الأوَّلُ: الكَذِبُ على اللهِ ورُسُلِهِ، وهذا أعْظَمُ أنْواعِ الكَذِبِ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٤٤] واللامُ في قولِهِ: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اللامُ لامُ العاقِبةِ وليست لامَ التَّعْلِيلِ، فهي كقولِهِ تَعالى في مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وهم ما الْتَقَطُوهُ لهذا، ولكنَّ اللهَ تَعالى جَعَلَ العاقِبةَ أنْ كان لهم عَدُوًّا وحَزَنًا، وهكذا منِ افْتَرَى على اللهِ كذبًا، فإنَّهُ بافْترائِهِ يُضِلُّ النَّاسَ بغَيْرِ عِلْمٍ.

والافْتِراءُ على اللهِ نَوْعانِ:

النَّوْعُ الأوَّلُ: أنْ يقولَ: قال اللهُ كذا، وهو يَكْذِبُ.

والنَّوْعُ الثَّاني: أنْ يُفَسِّرَ كلامَ اللهِ بغَيْرِ ما أرادَ اللهُ؛ لأنَّ المَقْصُودَ منَ الكَلامِ معناهُ، فإذا قال: أرادَ اللهُ بكذا كذا وكذا، فهو كاذِبٌ على اللهِ، شاهِدٌ على اللهِ بما لم يُرِدْهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، لكنَّ الثانِيَ إذا كان عنِ اجْتهادٍ سائِغٍ وأخْطَأَ في تفسيرِ الآيةِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَعْفُو عنه؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. وأمَّا إذا تَعَمَّدَ أنْ يُفَسِّرَ كلامَ اللهِ بغَيْرِ ما أرادَ اللهُ اتِّباعًا لِهَواهُ أو إرْضاءً لِمصالِحَ أو ما أَشْبَهَ ذلك فإنَّهُ كاذِبٌ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهكذا مِنْ بَعْدِهِ الكَذِبُ على رَسُولِ اللهِ ﷺ بأنْ يقولَ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ كذا، ولم يَقُلْهُ، لكنْ كَذَبَ عليه، وكذلك أيضًا إذا فَسَّرَ حديثَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بغَيْرِ معناهُ، فقد كَذَبَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1] المعْنَى أنَّ مَنْ كَذَبَ على الرَّسُولِ ﷺ مُتَعَمِّدًا قدْ تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ منَ النَّارِ، وسَكَنَ في مَقْعَدِهِ من النَّارِ والعياذُ باللهِ. فهذانِ النَّوْعانِ منَ الكذِبِ هما أشَدُّ أنْواعِ الكَذِبِ: الكَذِبُ على اللهِ، والكَذِبُ على رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وأكْثَرُ النَّاسِ كَذِبًا على رَسُولِ اللهِ ﷺ هم الرَّافِضةُ، فإنَّهُ لا يُوجَدُ في طوائِفِ أهْلِ البِدَعِ أحدٌ أكْثَرُ منهم كَذِبًا على رَسُولِ اللهِ ﷺ، كما نَصَّ على هذا عُلماءُ مُصْطلحِ الحديثِ رَحِمَهُمُ اللهُ لمَّا تكَلَّمُوا على الحديثِ المَوْضُوعِ قالوا: إنَّ أكْثَرَ مَنْ يَكْذِبُ على الرَّسُولِ ﷺ هم الرَّافِضةُ، وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ ومَعْروفٌ لِمَنْ تَتَبَّعَ كُتُبَهُمْ.

أمَّا النَّوْعُ الثاني من الكَذِبِ: فهو الكَذِبُ على النَّاسِ، والكَذِبُ على النَّاسِ نَوْعانِ أيضًا:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (١٢٩١)، ومسلم: المقدمة، باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (٣).

الأوَّلُ: كَذِبٌ يُظْهِرُ الإنْسانُ فيه أنَّهُ منْ أهْلِ الخَيْرِ والصَّلاحِ والتُّقَى والإيمانِ وهو ليس كذلك، بل هو من أهْلِ الكُفْرِ والطُّغْيانِ -والعياذُ باللهِ- فهذا هو النِّفاقُ الأكْبَرُ، أصحابُهُ هم الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]. ولكنَّهُم يَقُولُونَ بألْسِنَتِهِمْ ويَحْلِفُونَ على الكَذِبِ وهم يَعْلَمُونَ، وشواهِدُ ذلك في القُرآنِ والسُّنَّةِ كثيرةٌ، إنَّهُم -أعني المُنافِقِينَ- أهلُ الكَذِبِ، يَكْذِبُونَ على النَّاسِ في دَعْوى الإيمانِ وهم كاذِبُونَ، وانْظُرْ إلى قَوْلِ اللهِ تَعالى في سُورةِ المُنافِقُونَ حيثُ صَدَّرَ هذه السُّورَةَ ببَيانِ كَذِبِهِمْ فقالَ تَعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. أكَّدُوا هذه الجُملةَ؟ بثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ، (نَشْهَدُ) و(إنَّ) و(اللامُ) أنهم يَشْهَدُونَ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فقال اللهُ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. في قَوْلِهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هذا أيضًا من أنْواعِ الكَذِبِ، وهو أشَدُّ أنْواعِ الكَذِبِ على النَّاسِ؛ لأنَّ فاعِلَهُ -والعياذُ باللهِ- مُنافِقٌ.

والنَّوْعُ الثَّالِثُ منَ الكَذِبِ: هو الكَذِبُ في الحَديثِ بين النَّاسِ، الحديثُ الجاري بين النَّاسِ، يقولُ: قُلْتُ لفُلانٍ كذا وهو لم يَقُلْهُ، قال فُلانٌ كذا وهو لم يَقُلْهُ، جاءَ فُلانٌ وهو لم يَأْتِ، وهكذا، وهذا أيضًا مُحَرَّمٌ، ومنْ علاماتِ النِّفاقِ كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ»[1].

ثم ساقَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الأدِلَّةَ على تَحْرِيمِ الكَذِبِ، منها قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(لا تَقْفُ) أيْ: لا تَتَّبِعْ ما ليس لك به عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كان عنه مَسْؤُولًا، وإذا كان هذا نَهْيًا عمَّا لم تُحِطْ به علمًا فما بالُكَ بما أَحَطْتَ به عِلْمًا وأَخْبَرْتَ بخلافِهِ، يَكونُ هذا أشَدَّ وأعْظَمَ، وبهذا نَعْرِفُ أنَّ الإنْسانَ إذا تَكَلَّمَ بكلامٍ فإمَّا أنْ يَكُونَ قد أحاطَ به عِلْمًا، فكلامُهُ هذا مُباحٌ في الأصلِ ما لم يَجُرَّ إلى مَفْسدَةٍ.

الثاني: أنْ يَقْفُوَ ما يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ بخلافِهِ، فهذا كَذِبٌ واضِحٌ وصَرِيحٌ.

والثالِثُ: أنْ يَقْفُوَ ما لم يُحِطْ به عِلْمًا، ولا يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ بخلافِهِ، فهذا أيضًا مَنْهِيٌّ عنه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فيُنْهَى أنْ يَتَكَلَّمَ الإنْسانُ في حالَيْنِ:

في الحال الأُولَى: أنْ يَعْلَمَ أنَّ الأمْرَ بخلافِ ما يَتَكَلَّمُ به.

والحال الثانيةُ: أنْ يَتَكَلَّمَ في أمْرٍ لا يَعْلَمُهُ.

هذا كُلُّهُ مَنْهِيٌّ عنه، أمَّا إذا تَكَلَّمَ بما يَعْلَمُ فهذا أمْرٌ لا بَأْسَ به.

وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآيةَ الأُخْرَى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نكِرَةٌ في سِياقِ النَّفْيِ، ومُؤَكَّدٌ عُمُومُها بـ(من) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. أيَّ قَوْلٍ تَقُولُهُ عندك رَقِيبٌ عَتِيدٌ، يعني حاضِرٌ يُراقِبُ ويَكْتُبُ ما تقولُ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ﴾ [الزخرف:٨٠]. يعني: نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهُمْ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما أعْظَمَ الأمْرَ! كُلُّ كَلِمةٍ تَخْرُجُ منك تُكْتَبُ وسوفَ تَلْقَى ذلك يَوْمَ القِيامةِ كما قال تَعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]. أنت حَسِيبُ نَفْسِكَ.

قال بعضُ السَّلَفِ: واللهِ لقد أنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا على نَفْسِكَ.

والحاصِلُ: أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. هذا الرَّقيبُ العَتيدُ أي الحاضِرُ يَكْتُبُ كُلَّ شيءٍ، كُلَّ قَوْلٍ، سواءً كان لك أو عليك أو مِنَ اللَّغْوِ الذي ليس لك ولا عليك، ولمَّا كان الإمامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ مريضًا يَئِنُّ من مَرَضِهِ، قيل له: إنَّ طَاوُوسًا يقولُ: إنَّ المَلَكَ يَكْتُبُ حتَّى أنينَ المَرِيضِ، أنِينُ المريضِ وهو يَئِنُّ من شِدَّةِ المَرَضِ يُكْتَبُ عليه، فأَمْسَكَ رَحِمَهُ اللَّهُ -أعْنِي الإمامَ أَحْمَدَ- عنِ الأَنِينِ، وصار يَتَصَبَّرُ ولا يَئِنُّ؛ خَوْفًا منْ أنْ يُكْتَبَ عليه[1].

هَؤُلاءِ المُوَفَّقُونَ الذين يَحْفَظُونَ ألْسِنَتَهُمْ وجَوارِحَهُمْ ويَعْرِفُونَ قَدْرَ الأُمورِ، أَمْسَكَ حتَّى عنِ الأنِينِ، أمَّا نحنُ نسألُ اللهَ أنْ يُعامِلَنا وإيَّاكُمْ بالعَفْوِ، فإطلاقُ اللِّسانِ عندنا كَثِيرٌ، وقد قال الرَّسُولُ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[2] نسألُ اللهَ أنْ يُعِينَنَا وإيَّاكُمْ على أنْفُسِنا، وأنْ يُوَفِّقَنا إلى ما يُحِبُّهُ ويَرْضاهُ مِنَ القَوْلِ والعَمَلِ.

١٥٤٢- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإِنَّ الرَّجُلَ

(١) مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه (١/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، وقول النبي ﷺ، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى تلك الأحاديثَ، منها حديثُ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ» ففي هذا الحديثِ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ من الكَذِبِ فقال: «إِيَّاكُمْ والكَذِبَ» يعني ابْتَعِدُوا عنه واجْتَنِبُوهُ، وهذا يَعُمُّ الكَذِبَ في كُلِّ شيءٍ، ولا يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ قال: إنَّ الكَذِبَ إذا لم يَتَضَمَّنْ ضَررًا على الغَيْرِ فلا بَأْسَ به، فإن هذا قولٌ باطِلٌ؛ لأنَّ النُّصوصَ ليس فيها هذا القَوْلُ، النُّصُوصُ تُحَرِّمُ الكَذِبَ مُطْلقًا.

ثم بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجورِ، يعني إذا كَذَبَ الرَّجُلُ في حَدِيثِهِ فإنَّهُ لا يَزالُ فيه الأمْرُ حتَّى يَصِلَ به إلى الفُجُورِ، والعياذُ باللهِ، وهو الخُرُوجُ عنِ الطَّاعةِ، والتَّمَرُّدُ والعِصيانُ، والفُجُورُ يَهْدِي إلى النَّارِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطففين:٧-١١].

ثم قال: «وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» والعياذُ باللهِ أيْ: مِنَ الكذَّابِينَ؛ لأنَّ الكَذِبَ -نَسْأَلُ اللهَ لنا ولكم السَّلامةَ منه ومن سائِرِ الآثامِ- إذا اعتادَهُ الإنْسانُ صار يَكْذِبُ في كُلِّ شيءٍ، وصَدَقَ عليه وصْفُ المُبالَغةِ فكُتِبَ عند اللهِ كذَّابًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ...﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

وأمَّا الصِّدْقُ فحثَّ عليه النَّبِيُّ ﷺ فقال: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ» إذا تَحَدَّثْتُم فاصْدُقوا، «فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ وإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ» وقال اللهُ تَعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:١٨-٢١]. فإذا صَدَقَ الإنْسانُ وعوَّدَ لِسانَهُ على الصِّدقِ، هداهُ إلى البِرِّ، والبِرُّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، يعني يُوَصِّلُ إليها، «وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا» والصِّدِّيقِيَّةُ مَنْزِلةٌ عاليةٌ، هي التي تَلِي مَنْزِلَةَ النُّبُوَّةِ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

واعْلَمْ أنَّ الكَذِبَ يَتضاعَفُ جُرْمُهُ بحَسَبِ ما يُؤَدِّي إليه، فالكَذِبُ في المُعاملاتِ أشَدُّ من الكَذِبِ في مُجَرَّدِ الإخْبارِ، فإذا صارَ الرَّجُلُ يَكْذِبُ في بَيْعِهِ وشِرائِهِ وأخْذِهِ وعَطائِهِ صارَ هذا أشَدَّ؛ لأنَّهُ إذا كَذَبَ في البَيْعِ والشِّراءِ فإنَّهُ تُمْحَقُ بَرَكةُ بَيْعِهِ قال النَّبِيُّ ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وإِنْ كَذَبَا وكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»[1].

وما تَرَتَّبَ على الكَذِبِ في البَيْعِ والشِّراءِ منْ زيادةٍ في الثَّمنِ أو زِيادةٍ في المَبِيعِ فإنَّهُ سُحْتٌ والعياذُ باللهِ؛ لأنَّهُ مَبْنِيٌّ على الكذِبِ، والكَذِبُ باطلٌ، وما بُنِيَ على الباطِلِ فهو باطِلٌ، وكذلكَ الكَذِبُ في وصْفِ السِّلْعةِ، يقولُ الإنْسانُ مثلًا: هذه السِّلْعةُ فيها كذا وكذا من الصِّفاتِ المَرْغوبةِ وهو كاذبٌ، هذا أيضًا من أكْلِ المالِ بالباطِلِ، ومِن ذلك ما يَفْعَلُهُ بعضُ بائِعِي السَّياراتِ -تحتَ جهازِ مُكَبِّرِ الصَّوْتِ-

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونصحا، رقم (٢٠٧٩)، ومسلم: كتاب البيوع، باب الصدق في البيع والبيان، رقم (١٥٣٢)، من حديث حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حيثُ يَعْرِضُ الإنْسانُ سَيَّارَتَهُ للبَيْعِ وهو يَعْلَمُ أنَّ فيها العَيْبَ المُعَيَّنَ المَعْلُومَ ويَكْتُمُهُ، ثم يَقُولُ للمُشْتَرِي عند عَرْضِها للبَيْعِ إنَّ فيها جَمِيعَ العُيوبِ، ولا يُظْهِرُ العَيْبَ الحَقِيقِيَّ، فهذا حرامٌ ولا يَجُوزُ، أمَّا إذا كان لا يَعْلَمُ لكنَّهُ يَخْشَى أنْ يَكُونَ فيها عَيْبٌ لم يَطَّلِعْ عليه فلا بَأْسَ أنْ يَشْتَرِطَ البراءَةَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ مَشْبُوهٍ، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٤٣ - وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَقَدْ سَبَقَ بيانُهُ مَعَ حديثِ أَبي هُرَيْرَةَ بنَحْوِهِ في «بابِ الوَفاءِ بالعَهْدِ».

الشَّرح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نَقَلَهُ في بابِ تَحْرِيمِ الكَذِبِ عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِفاقِ حَتَّى يَدَعَهَا».

قَولُهُ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ» أي مَنِ اتَّصَفَ بهن كان مُنافقًا خالِصًا؛ لأنَّهُ أتى بجَمِيعِ الأعْمالِ التي يَتَّصِفُ بها المُنافِقُونَ -والعياذُ باللهِ- والمرادُ بالنِّفاقِ هنا النِّفاقُ العَمَلِيُّ وليس نفاقَ الاعْتقادِ؛ لأنَّ نِفاقَ الاعْتقادِ نفاقُ كُفْرٍ والعياذُ باللهِ، وهو الذي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة النفاق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم (٥٨).

يُظْهِرُ الإسْلامَ ويُبْطِنُ الكُفْرَ، أما هَؤُلاءِ الذين يَتَّصِفُونَ بهذه الصِّفاتِ فإنَّهُم يُؤْمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ إيمانًا حَقِيقيًّا ولكنَّهُم يَسْتَعْمِلُونَ هذه الصِّفاتِ وفيها شيءٌ من النِّفاقِ.

الخَصْلةُ الأُولَى: قال: «إذَا اؤْتُمِنَ خانَ» إذا ائْتَمَنَهُ الإنْسانُ على شيءٍ خانَهُ، فمثلًا إذا أُعْطِيَ وَدِيعةً وقِيلَ له: خُذْها احْفَظْها، دَراهِمَ أو ساعةً أو قَلَمًا أو متاعًا، أو غيرَ ذلك، فيَسْتَعْمِلُها لنَفْسِهِ أو يَتْرُكها فلا يَحْفَظُها في مَكانِهَا، أو يُخْبِرُ بها مَنْ يَتَسَلَّطُ عليها ويأْخُذُها، المُهِمُّ أنَّهُ لا يُؤَدِّي الأمانةَ فيها، كذلك إذا اؤْتُمِنَ على حديثٍ سِرِّيٍّ وقيلَ له: لا تُخْبِرْ أحدًا، ذَهَبَ يُخْبِرُ، قال لي فُلانٌ، قال لي فُلانٌ، وبعضُ النَّاسِ -والعياذُ باللهِ- يُبْتَلى بحُبِّ الظُّهورِ والشُّهْرةِ، إذا ائْتَمَنَهُ أحدٌ من وُلاةِ الأُمورِ أو مِن كُبراءِ القَومِ ووُجهائِهِمْ ذَهَبَ يَتَحَدَّثُ: قال لي الأميرُ كذا، قال لي الوزيرُ كذا، قال لي الشَّيْخُ كذا، يَتَجَمَّلُ عندَ النَّاسِ بأنَّهُ مِمَّنْ يُحادِثُهُ الكُبراءُ والشُّرفاءُ، وهذا من خيانةِ الأمانَةِ والعياذُ باللهِ.

ومن ذلك أيضًا: الأماناتُ في الولاياتِ، يَكُونُ الإنْسانُ وَلِيًّا على يَتِيمٍ؛ على مالِهِ وحَضانَتِهِ وتَأْدِيبِهِ فلا يَقُومُ بالواجِبِ، يُهْمِلُ مالَهُ وربَّما يَسْتَقْرِضُهُ لنفسِهِ، ولا يَدْرِي هل يَسْتَطِيعُ الوفاءَ فيما بَعْدُ أم لا، ولا يَقْرَبُهُ بالتي هي أَحْسَنُ، هذا أيضًا من خِيانةِ الأمانةِ، ومن ذلك أيضًا أنَّ الإنْسانَ لا يَقُومُ بواجِبِ التَّرْبيةِ في أهلِهِ وأوْلادِهِ، وقدِ ائْتَمَنَهُ اللهُ عليهم فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]. ولم يَجْعَلِ اللهُ لك سُلْطانًا عليهم إلَّا لِيَسْأَلَكَ عنهم يَوْمَ القِيامةِ حتَّى تَتَمَنَّى أنَّك لم يَكُنْ بينك وبيْنَهم صِلةٌ، قال اللهُ تَعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

ومن خِيانةِ الأمانةِ أنْ يكونَ الإنْسانُ إمامًا للنَّاسِ يُصَلِّي بهم الجُمُعةَ والجماعاتِ فلا يَقُومُ بالواجِبِ، تَجِدُهُ مَرَّةً يَتَقَدَّمُ ومَرَّةً يَتَأَخَّرُ، ومَرَّةً يُطِيلُ بهم إطالةً غيرَ مَشْرُوعةٍ ومَرَّةً لا يَطْمَئِنُّ في صلاتِهِ، ومَرَّةً لا يَهْتَمُّ بمَنْ وراءَهُ، هذا من خيانةِ الأمانةِ.

فخِيانةُ الأمانةِ تكونُ في جَميعِ الأحْوالِ: في الأماناتِ، وفي المُعاملاتِ، وفي الأخْلاقِ، وفي كُلِّ شيءٍ.

الخَصْلَةُ الثانيةُ: «وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ» هذا الشَّخْصُ إذا حَدَّثَ النَّاسَ بالحديثِ كَذَبَ عليهم يقولُ: قال فُلانٌ، أو حَصَلَ كذا، أو لم يحصل كذا، وهو كاذِبٌ، وهذا من علاماتِ النِّفاقِ، ومنَ النَّاسِ مَنْ يُبْتَلَى بهذا الأمْرِ، فتَجِدُهُ يَكْذِبُ على النَّاسِ، يَمْزَحُ عليهم لِيُوَرِّطَهُمْ فإذا تَوَرَّطُوا قال: أَمْزَحُ، سُبْحانَ اللهِ! تَكْذِبُ على النَّاسِ تَمْزَحُ عليهم لِتُوَرِّطِهِمْ!

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُبْتَلى بالكَذِبِ لأجْلِ أنْ يُضْحِكَ الحاضرينَ، وقدْ قال النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ حَدَّثَ فَكَذَبَ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ»[1]، وقد سَبَقَ أنَّ أعْظَمَ الكَذِبِ الكَذِبُ على اللهِ وعلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثم الكَذِبُ على العُلماءِ، فإنَّ العُلماءَ إذا كَذَبَ عليهم إنسانٌ في الشَّرْعِ، بأنْ قال: قال فُلانٌ هذا حَلالٌ، أو هذا حَرامٌ، أو هذا واجِبٌ، وهو يَكْذِبُ عليه صار هذا كاذبًا على الشَّرْعِ؛ لأنَّ العُلماءَ هم الذين يُمَثِّلُونَ الشَّرْعَ وهم الذين يُبَيِّنُونَهُ للنَّاسِ، فإذا كَذَبَ الإنْسانُ عليهم قالوا: إنَّ فُلانًا العالِمَ قال كذا وقال كذا، وهو كاذِبٌ فإنَّهُ يَقْرُبُ مِمَّنْ كَذَبَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب، رقم (٤٩٩٠)، والترمذي: أبواب الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس، رقم (٢٣١٥)، من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمُهِمُّ أنَّ مَنْ حَدَّثَ فكَذَبَ فإنَّ فيه خَصْلَةً مِن خِصالِ النِّفاقِ، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكُمْ من ذلك.

الخَصْلةُ الثالِثةُ: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ» يعني إذا أعْطَى شَخْصًا عَهْدًا على أيِّ شيءٍ منَ الأشْياءِ غَدَرَ به وَنَقَضَ العَهْدَ، وهذا يَشْمَلُ المُعاهَدةَ مع الكُفَّارِ، والمُعاهَدةَ مع المُسْلِمِ في بعضِ الأشْياءِ، ثم يَغْدِرُ بذلك، فالمُعاهَدةُ مع الكُفَّارِ إذا عاهَدْنا الكُفَّارَ على تَرْكِ الحَرْبِ بيْنَنا وبيْنَهم مُدَّةً مُعَيَّنَةً، كما فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مع قُرَيْشٍ حين عاهَدَهُمْ في صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ على تَرْكِ القِتالِ لِمُدَّةِ عَشْرِ سَنَواتٍ، فإذا عاهَدْنا هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ فلنا معهم ثَلاثُ حالاتٍ:

الحال الأُولَى: أنْ يَنْقُضُوا العَهْدَ، فحينئذٍ يَبْطُلُ العَهْدُ الذي بيْنَنا وبيْنَهم، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢]. كما فَعَلَتْ قُرَيْشٌ في العَهْدِ الذي بيْنَها وبيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الحُدَيْبِيَةِ، فإنَّها لم تَمْضِ سَنَتانِ إلَّا ونَقَضَتْ قُرَيْشٌ العَهْدَ؛ حيثُ أعانُوا حُلفاءَهُمْ على حُلفاءِ النَّبِيِّ ﷺ.

الحال الثانيةُ: أنْ يَسْتَقِيمُوا على العَهْدِ، فحينئذٍ يجبُ علينا أنْ نَسْتَقِيمَ على العَهْدِ، وأنْ نَبْقَى حتَّى تَنْتَهِيَ المُدَّةُ؛ لقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٧].

الحال الثالثةُ: أنْ نَخْشَى أنْ يَنْقُضوا العَهْدَ، يعني لم يَنْقُضوهُ فِعْلًا ولم يَظْهَرْ لنا استقامةٌ تامَّةٌ، فنَخْشَى أنْ يَنْقُضوا العَهْدَ، فهنا نَنْبِذُ إليهم العَهْدَ، ونقولُ لهم صَراحةً: إنَّهُ لا عَهْدَ بيننا وبينكم، دَلِيلُ ذلك قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

أمَّا العُهُودُ التي بينَ المُسْلِمِينَ بأنْ تُعاهِدَ شَخْصًا على أنْ تَفْعَلَ كذا أو لا تَفْعَلَ، على أنْ تَكْتُمَ سِرَّهُ أو ما أَشْبَهَ ذلك فيَجِبُ الوفاءُ به، وجُوبًا، واخْتَلَفَ العُلماءُ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالى- فيما إذا وَعَدْتَ شَخْصًا مَوْعِدًا فهل يجوزُ أنْ تُخْلِفَهُ بلا ضَرُورةٍ أو لا؟ مثلَ أنْ تَقُولَ: سآتيكَ غدًا، لدَعْوَةٍ، دعاكَ على غداءٍ أو عَشاءٍ أو ما أَشْبَهَ ذلك، فهل يَجُوزُ أنْ تُخْلِفَ المَوْعِدَ؟

مِنَ العُلماءِ مَنْ يَقُولُ: إنك إذا أَخْلَفْتَ المَوْعِدَ لا تَأْثَمُ، ولكنَّ الصَّحيحَ أنَّك تَأْثَمُ، إلَّا لِعُذْرٍ شَرْعِيٍّ، فإذا وعَدْتَ أخاكَ مَوْعدًا يَجِبُ أنْ تُوَفِّيَ به لأنَّك وعَدْتَهُ، وإخلافُ المَوْعِدِ من علاماتِ النِّفاقِ، فهل تَرْضَى أنْ تكونَ مُنافِقًا؟ كُلُّ واحدٍ لا يَرْضَى.

فالصَّوابُ الذي دَلَّتْ عليه السُّنَّةُ: وُجوبُ الوفاءِ بالوَعْدِ، وهو اختيارُ شيخِ الإسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]؛ لأنَّ إخلافَهُ منَ النِّفاقِ لكنْ إذا كان لك عُذْر أو لم تُعْطِ مَوْعِدًا صريحًا بأنْ قلتَ لصاحِبِكَ: آتيكَ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى إذا لم يَكُنْ لي عُذْرٌ، فهنا إذا كان لك عُذْرٌ فلا بَأْسَ، أنت في حِلٍّ؛ لأنَّكَ لم تُعْطِهِ مَوْعِدًا صريحًا، وكذلك أيضًا إذا أَخْلَفْتَ لِعُذْرٍ، مثلَ أنْ يَكُونَ تمامُ الوعْدِ يحتاجُ إلى سيَّارةٍ وخَرَجْتَ وتَعَطَّلَتِ السَّيارةُ ولم تَتَمَكَّنْ منَ الوُصولِ إليه في مَوْعِدِهِ فإنَّ هذا عُذْرٌ بلا شَكٍّ تُعْذَرُ به.

أمَّا الخَصْلةُ الرَّابِعةُ فهي: «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، إذا وَقَعَتْ خُصومةٌ بيْنَه وبين غيْرِهِ فَجَرَ، والفُجورُ في الخُصومةِ يَنْقَسِمُ إلى قسمَيْنِ:

الأوَّلُ: أنْ يَجْحَدَ ما كان عليه.

والثاني: أنْ يَدَّعِيَ ما ليس له.

---

(١) الفتاوى الكبرى (٥/ ٥٥٥).

مثالُ الأوَّلِ: إنْسانٌ مَطْلُوبٌ لشخصٍ بألْفِ ريالٍ، فأقامَ الطالِبُ دَعْوَى على المطلوبِ، وأنْكَرَ المطلوبُ، والطالِبُ قد وَثِقَ منه ولم يُشْهِدْ عليه فهنا يقولُ القاضي للمَطْلُوبِ: احْلِفْ وتَبْرَأُ ذِمَّتُكَ، فحَلَفَ المَطْلُوبُ أنَّهُ ليس له عِنْدِي شيءٌ، فهنا سوفَ يَقْضِي القاضي بأنَّ هذا المُدَّعَى عليه المطلوبَ ليس عليه شيءٌ، هذا فُجُورٌ في الخُصومةِ.

أمَّا القِسْمُ الثاني: فأنْ يَدَّعِيَ ما ليس له، بأنْ يَقُولَ عند القاضي أنا أُطالِبُ هذا الرَّجُلَ بمِائةِ ريالٍ فيُنْكِرُ المطلوبُ، فيقولُ الطالِبُ: عندي بَيِّنَةٌ ويَأْتِي بِبَيِّنَةِ زُورٍ، يَشْهَدُونَ بأنَّ لهُ على فُلانٍ مِئةَ ريالٍ، فسوفَ يَحْكُمُ القاضي بالبَيِّنةِ فإذا حَكَمَ لهذا المُدَّعِي بِبَيِّنَةِ الزُّورِ، فإنَّ هذا يُعْتَبَرُ مِمَّنْ خاصَمَ ففَجَرَ، والعياذُ باللهِ؛ ولهذا يَجِبُ التَّحَرُّزُ في الخُصوماتِ منَ الكَذِبِ أو الالْتِوَاءِ أو المُخادَعةِ؛ لأنَّ كُلَّ هذا من الفُجورِ في الخُصومةِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعالى أنْ يُطَهِّرَ قُلوبَنَا وقُلوبَكُمْ من النِّفاقِ والشَّكِّ والشِّرْكِ والرِّياءِ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.



١٥٤٤ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ، كُلِّفَ أنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، صُبَّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً عُذِّبَ وَكُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها، رقم (٥٩٦٣)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١١٠).

«تَحَلَّمَ»: أيْ قَالَ إنَّه حَلَمَ في نَوْمِهِ ورَأى كذا وكذا، وَهُوَ كاذِبٌ، و«الآنُكُ» بالمدِّ وضَمِّ النُّونِ وتخفيفِ الكافِ: وَهُوَ الرَّصَاصُ المُذابُ.

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ الكَذِبِ فيما نَقَلَهُ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيس بِعَاقِدٍ» يعني مَنْ كَذَبَ في الرُّؤْيا، قال: رَأَيْتُ في المَنامِ كذا وكذا وهو كاذبٌ، فإنَّهُ يَوْمَ القِيامةِ مُكَلَّفٌ أنْ يَعْقِدَ بين شَعِيرَتَيْنِ، والمَعْلُومُ أنَّ الإنْسانَ لو حاوَلَ مهما حاوَلَ أنْ يَعْقِدَ بين شَعِيرَتَيْنِ فإنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ، ولكنَّهُ لا يزالُ يُعَذَّبُ، ويقالُ: لا بُدَّ أنْ تَعْقِدَ بيْنَهما، وهذا وَعِيدٌ يَدُلُّ على أنَّ التَّحَلُّمَ بحُلْمٍ لم يَرَهُ الإنْسانُ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، وهذا يَقَعُ من بعضِ السُّفهاءِ، يَتَحَدَّثُ ويقولُ: رأيتُ البارحةَ كذا وكذا؛ لأجْلِ أنْ يُضْحِكَ النَّاسَ وهذا حرامٌ عليه، وأشَدُّ من ذلك أنْ يَقُولَ: رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ وقال لي كذا وكذا وما أشْبَهَ ذلك، فإنَّهُ أشَدُّ وأشَدُّ؛ لأنَّهُ كَذِبٌ على رَسُولِ اللهِ ﷺ، أمَّا مَنْ تَحَلَّمَ بحُلْمٍ رآهُ فهذا لا بأسَ به، ولكنْ يَنْبَغِي للإنسانِ أنْ يَعْلَمَ أنَّ ما يراهُ في مَنامِهِ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقْسامٍ:

القِسْمُ الأوَّلُ: قِسْمٌ يكونُ خَيْرًا ويَسْتَبْشِرُ به الإنْسانُ ويَفْرَحُ به، فهذا لا يُحَدِّثُ به إلَّا مَنْ يُحِبُّ؛ لأنَّ الإنْسانَ له حُسَّادٌ كَثِيرُونَ فإذا رَأى رُؤْيَا حَسَنَةً وحَدَّثَ بها مَنْ لا يُحِبُّ فإنَّهُ ربما يَكِيدُ له كَيْدًا، يحولُ بينه وبين هذا الخَيْرِ الذي رآهُ، كما فَعَلَ إخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّ يُوسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ قال لأبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف:٤]. يعني رأيتُ هَؤُلاءِ أحَدَ عَشَرَ، ﴿كَوْكَبًا﴾ يعني: نُجومًا والشَّمْسَ والقَمَرَ كُلَّهَا تَسْجُدُ لي فقالَ له: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ

رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف:٥]. فلا تُخْبِرْ إنسانًا ليس من أحْبابِكَ وأصْدِقائِكَ الذين يَوَدُّونَ لك ما يَوَدُّونَ لأنْفُسِهِمْ بما تَرَى من رُؤْيا الخَيْرِ.

القِسْمُ الثاني: رُؤْيا شَرٍّ، تُزْعِجُ وتُخَوِّفُ، فلا تُخْبِرْ بها أحدًا أبدًا لا صديقًا ولا عَدُوًّا، وإذا قُمْتَ من مَنامِكَ فانْفُلْ عن يَسارِكَ ثلاثًا وقلْ: أَعُوذُ باللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطانِ ومِنْ شَرِّ ما رَأَيْتُ، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ أنْ تُواصِلَ النَّوْمَ فنَمْ على الجَنْبِ الآخَرِ، يعني لا على الجَنْبِ الذي رأيتَ فيه ما تَكْرَهُ، فإنَّها لا تَضُرُّ، فمَنْ رأى ما يَكْرَهُ يَعْمَلُ ما يلي:

إنِ اسْتَيْقَظَ يَتْفُلُ عن يَسارِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ ويقولُ: أعوذُ باللهِ من شَرِّ الشَّيْطانِ ومن شَرِّ ما رأيتُ، وإنْ أرادَ أنْ يُواصِلَ النَّوْمَ يَنامُ على الجَنْبِ الثَّاني، وإذا قام فلا يُخْبِرُ بها أحَدًا؛ لأنَّ ذلك لا يَضُرُّهُ، فإذا فَعَلَ هذا فإنَّهُ لا يَضُرُّهُ بإذْنِ اللهِ.

وكان الصَّحابةُ يَرَوْنَ الرُّؤْيا تُمْرِضُهُمْ وتُقْلِقُهُمْ فلمَّا حَدَّثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بهذا الحديثِ فعَلُوا ما أرْشَدَهُمْ إليه واسْتَراحُوا، وكثيرٌ منَ النَّاسِ مُبْتَلًى يَبْحَثُ عنِ الشَّرِّ لنفسِهِ، يَرَى الرُّؤْيا يَكْرَهُهَا ثم يُحاوِلُ أنْ يَقُصَّها على النَّاسِ لِيَعْبُرُوها له، وهذا غَلَطٌ. إذا رَأَيْتَ رُؤْيَا تَكْرَهُها فلدَيْكَ دواءٌ من أحْسَنِ الأدْوِيَةِ بل هو أحْسَنُ الأدْوِيَةِ، عَلَّمَكَ إيَّاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

القِسْمُ الثالثُ: رُؤْيا أضْغاثُ أحْلامٍ، ليس لها رَأْسٌ ولا قَدَمٌ، يَرى الإنْسانُ أشياءَ مُتناقِضَةً ويَرَى أشياءَ غَرِيبةً، وهذه لا تُحَدِّثْ بها أحدًا ولا تَهْتَمَّ بها، وقد حَدَّثَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ حديثًا قال: يا رَسُولَ اللهِ، رأيتُ في المنامِ أنَّ رجلًا قَدْ قَطَعَ رَأْسِي، فذَهَبَ الرَّأْسُ شاردًا، فذَهَبْتُ ورَاءَهُ لاحقًا له. فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُحَدِّثِ

النَّاسَ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطانِ بِكَ في مَنامِكَ»[1]. وهذا من الشَّيْطانِ يَقْطَعُ رَأْسَكَ ويُشَرِّدُ بها وأنت تُلاحِقُهُ، هذا ليس له أصل، فمِثْلُ هذه الأشياءِ لا تَهْتَمَّ بها ولا تُحَدِّثْ بها أحدًا.

أمَّا مَنْ رأى الرَّسُولَ ﷺ فإذا رَأى الرَّسُولَ ﷺ على الوَصْفِ المَعْرُوفِ الوارِدِ في السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ، ورآهُ على هيئةٍ حَسَنةٍ فهذا يدلُّ على خَيْرٍ لهذا الرَّائِي، وأنَّهُ قد تَأَسَّى به أُسْوَةً حَسَنَةً، وإنْ رآهُ على خلافِ ذلك فلْيُحاسِبْ نَفْسَهُ، فإذا رأى -مثلًا- أنَّهُ يُحَدِّثُ الرَّسُولَ ولكنَّ الرَّسُولَ مُعْرِضٌ عنه أو الرَّسُولُ قدِ انْصَرَفَ وتَرَكَهُ، أو رآهُ على هيئةٍ غيرِ حَسَنَةٍ، يعني مثلًا مِنْ ثِيابِهِ أو رِدائِهِ أو إزارِهِ أو ما أَشْبَهَ ذلك فلْيُحاسِبْ نفسَهُ، فإنَّهُ مُقَصِّرٌ في اتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ.

أمَّا المسْألةُ الثانيةُ: «مَنْ تَسَمَّعَ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، صُبَّ في أُذُنِهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيَامَةِ» يعني الإنْسانُ الذي يَتَسَمَّعُ إلى أُناسٍ وهم يَكْرَهُونَ أنْ يَسْمَعَ فإنَّهُ يُصَبُّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيامةِ.

قال العُلماءُ: الآنُكُ هو الرَّصاصُ المُذابُ والعياذُ باللهِ، والرَّصاصُ المُذابُ بنارِ جَهَنَّمَ أعْظَمُ من نارِ الدُّنْيا بِتِسْعٍ وسِتِّينَ مَرَّةً، يُصَبُّ في أُذُنَيْهِ؛ لأنَّهُ تَسَمَّعَ لِقَوْمٍ وهم يَكْرَهُونَ أنْ يَسْمَعَ، وسواءٌ كانوا يَكْرَهُونَ أنْ يَسْمَعَ لغَرَضٍ صَحِيحٍ أو لغَيْرِ غَرَضٍ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يَكْرَهُ أنْ يَسْمَعَهُ غيرُهُ ولو كان الكَلامُ ليس فيه خَطَرٌ ولا فيه سَبٌّ، لكنْ لا يُرِيدُ أنَّ أحدًا يَسْمَعُهُ.

وهذا يَقَعُ فيه بعضُ النَّاسِ -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ-، تَجِدُهُ مثلًا إذا رَأى اثْنَيْنِ يَتَكَلَّمُونَ يَأْخُذُ المُصْحَفَ ويَجْلِسُ قريبًا منهم، ثم يَبْدَأُ يُطالِعُ المُصْحَفَ كأنَّهُ يَقْرَأُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الرؤيا، باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام، رقم (٢٢٦٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهو يَسْتَمِعُ إليهم وهم يَكْرَهُونَ ذلك، هذا الرَّجُلُ يُصَبُّ في أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ القِيامةِ فيُعَذَّبُ هذا العذابَ والعياذُ باللهِ.

وأمَّا الشَّطْرُ الثاني من الحديثِ وهو التَّصْوِيرُ فسَيَأْتِي الكَلامُ فيه إنْ شاءَ اللهُ في مَوْضِعٍ قادِمٍ.

١٥٤٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا». رَواهُ البُخارِيُّ[1]. ومَعناهُ: يَقولُ: رَأَيْتُ، فِيما لَمْ يَرَهُ.

١٥٤٦ - وَعَنْ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ. وإِنَّهُ قَالَ لنا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِيَ اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وإِنَّهُمَا قَالا لِي: انْطَلِقْ، وإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأَوْلَى!».

قَالَ: «قُلْتُ لهما: سُبْحانَ اللهِ! مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجانبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَما يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الجانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجانِبُ كما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي المَرَّةِ الأُولَى».

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب من كذب في حلمه، رقم (٧٠٤٣).

قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا هَذانِ؟ قال: قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ» فَأَحْسِبُ أَنَّهُ قَالَ: «فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ، وأَصْوَاتٌ، فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فإذا فِيهِ رِجَالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فإذا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا. قُلْتُ: مَا هَؤلاءِ؟ قَالا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ» حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَحْمَرَ مِثْلَ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كثيرةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَينْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لهُم: مَا هذانِ؟ قالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ، أَوْ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رجُلًا مَرْأًى، فإذا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا يَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لا أَكادُ أَرَى رَأسَهُ طُولًا فِي السَّماءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلدانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلاءِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقْ.

فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ عَظِيمةٍ لَمْ أَرَ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ! قَالَا لِي: ارْقَ فِيهَا، فارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنٍ ذَهَبٍ وَلَبِنٍ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا، فَفُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاها، فَتَلَقَّانَا رِجالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كأَحْسَنِ مَا أنت راءٍ! وَشَطْرٌ مِنْهُمْ كأَقْبَحِ مَا أنتَ راءٍ! قَالَا لَهُمُ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، وَإِذَا هُوَ نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كأَنَّ ماءَهُ المَحْضُ فِي البَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ».

قَالَ: «قَالَا لِي: هذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وهَذاكَ مَنْزِلُكَ، فسَمَا بَصَري صُعُدًا، فإذا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ البَيضاءِ، قَالَا لِي: هذا مَنْزِلُكَ؟ قُلْتُ لَهُمَا: بارِكَ اللهُ فيكُما، فذَراني فأَدْخُلَهُ. قَالَا لِي: أَمَّا الآنَ فَلَا، وأَنْتَ دَاخِلُهُ.

قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا؟ فما هَذَا الَّذِي رأيتُ؟ قَالَا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ:

أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بالحَجَرِ، فإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرآنَ فَيَرْفُضُهُ، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المَكتُوبَةِ.

وأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، ومِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكِذْبَةَ تَبْلُغُ الآفاقَ.

وأَمَّا الرِّجَالُ والنِّسَاءُ العُراةُ الَّذِينَ هُمْ في مثْلِ بِناءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ والزَّوانِي.

وأَمَّا الرَّجُلُ الذي أَتَيْتَ عَليهِ يَسْبَحُ في النَّهْرِ، ويُلْقَمُ الحِجارةَ، فإِنَّهُ آكلُ الرِّبَا.

وأَمَّا الرَّجُلُ الكَرِيهُ المَرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ.

وأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي في الرَّوْضَةِ، فإِنَّهُ إِبْراهِيمُ، وأَمَّا الوِلْدانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فكُلُّ مَوْلُودٍ ماتَ عَلَى الفِطْرَةِ». وفي رِوايةِ البَرْقانِيِّ: «وُلِدَ عَلَى الفِطْرَةِ» فَقَالَ بعضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وأَوْلادُ المُشْرِكِينَ؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وأَوْلادُ المُشْرِكِينَ. وأَمَّا القَوْمُ الذين كانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبيحٌ، فإِنَّهُمْ قَومٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا، تَجاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ». رَواهُ البُخارِيُّ.

وفي رِوايةٍ لَهُ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ» ثُمَّ ذَكَرَهُ وقال: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقْبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلاهُ ضَيِّقٌ وَأَسْفَلُهُ واسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نارًا، فإذا ارْتَفَعَتِ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا خَمَدَتْ! رَجَعُوا فِيهَا، وفيها رِجالٌ ونِساءٌ عُرَاةٌ». وفيها: «حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ» ولم يَشُكَّ «فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ وعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ، وبَيْنَ يَدَيْهِ حِجارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي في النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ في فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَرْمِي في فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعْ كما كَانَ».

وفيها: «فَصَعِدَا بي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ».

وفيها: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالكِذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ».

وَفِيهَا: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بالنَّهارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، والدَّارُ الأُولَى الَّتي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ المُؤمِنِينَ، وأَمَّا هذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَداءِ، وأنا جِبْرِيلُ، وهذا مِيكائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فإذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَهُ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

قَوْله: «يَثْلَغُ رَأْسَهُ» هُوَ بالثاءِ المُثَلَّثةِ والغَيْنِ المُعْجَمةِ، أيْ: يَشْدَخُهُ وَيَشُقُّهُ. قَوْلُهُ: «يَتَدَهْدَهُ» أيْ: يَتَدَحْرجُ. و«الكَلُّوبُ» بفتحِ الكافِ وضَمِّ اللامِ المُشَدَّدَةِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم (١٣٨٦).

وَهُوَ مَعْرُوفٌ. قَوْله: «فَيُشَرْشِرُ»: أيْ: يُقَطِّعُ. قَوْله: «ضَوْضَوْا» وَهُوَ بِضادَيْنِ مُعْجَمَتَيْنِ: أيْ صاحُوا. قَوْلُهُ: «فَيَفْغَرُ» هُوَ بالفاءِ والغَيْنِ المُعْجَمةِ، أيْ: يَفْتَحُ. قَوْله «المَرْآةُ» هُوَ بفَتْحِ المِيمِ، أيِ: المَنْظَرُ. قَوْلُهُ: «يَحُشُّها» هُوَ بفتحِ الياءِ وضَمِّ الحاءِ المُهْمَلةِ والشِّينِ المُعْجَمةِ، أيْ: يُوقِدُها. قَوْله: «رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ» هُوَ بضَمِّ الميمِ وإسْكانِ العَيْنِ وفتْحِ التاءِ وتَشْدِيدِ الميمِ، أيْ: وافيةِ النَّباتِ طَويلَتِهِ. قَولُهُ: «دَوْحَةٌ» وهي بفتحِ الدَّالِ وإسْكانِ الواوِ وبالحاءِ المُهْملةِ: وهي الشَّجَرَةُ الكَبيرَةُ. قَوْلهُ: «المَحْضُ» هُوَ بفَتْحِ الميمِ وإسْكانِ الحاءِ المُهْملةِ وبالضَّادِ المُعْجمةِ، وَهُوَ: اللَّبَنُ. قَوْلُهُ: «فَسَمَا بَصَري» أيِ: ارْتَفَعَ. و«صُعُدًا» بضَمِّ الصادِ والعَيْنِ، أيْ: مُرْتَفعًا. وَ«الرَّبابَةُ» بفتحِ الرَّاءِ وبالباءِ المُوَحَّدةِ مُكَرَّرةً، وهي: السَّحابَةُ.

الشَّرْح

سَبَقَ الكَلامُ على أوَّلِ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على جُمْلَتَيْنِ منه:

الجُملةُ الأُولَى: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ».

والثانيةُ: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ».

أمَّا الثالثةُ: فهو «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّهُ يُكَلَّفُ أنْ يَنْفُخَ فِيها الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ» واعلم أنَّ الصُّورةَ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأوَّلُ: صُورةٌ مُجَسَّمةٌ، بأنْ يَصْنَعَ الإنْسانُ تِمْثالًا على صُورةِ إنْسانٍ أو حيوانٍ، فهذا مُحَرَّمٌ، سواءٌ أرادهُ لِغَرَضٍ مُحَرَّمٍ أو لِغَرَضٍ مُباحٍ، مُجَرَّدُ هذا التَّصْوِيرِ مُحَرَّمٌ، بل هو من كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ المُصَوِّرِينَ وبَيَّنَ أنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عذابًا يَوْمَ القِيامةِ الذين يُضاهِئُونَ بخَلْقِ اللهِ.

والقِسْمُ الثاني: المُلَوَّنُ، يعني ليس له جِسْمٌ بل هو بالتَّلْوِينِ، فهذا قد اخْتَلَفَ العلماءُ فيه.

فمنهم مَنْ أجازَهُ وقال: لا بَأْسَ به إلَّا إذا قَصَدَ به غَرَضًا مُحَرَّمًا، مثلَ أنْ يَقْصِدَ به تَعْظِيمَ المُصَوَّرِ فإنَّهُ يُخْشَى إذا طال بالنَّاسِ زَمَنٌ أن يَعْبُدُوهُ، كما جَرَى لقَوْمِ نُوحٍ فيما يُذْكَرُ أنَّهُم صَوَّرُوا صُورةً لرِجالٍ صالِحِينَ، ثم عَبَدُوها لمَّا طال بهم الزَّمَنُ.

واسْتَدَلُّوا بحديثِ زَيْدِ بنِ خالِدٍ وفيه: «إلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»[1] قالوا: هذا يَدُلُّ على أنَّ هذا مُسْتَثْنًى فيَدُلُّ على أنَّ المُحَرَّمَ ما له رُوحٌ فقط.

ولكنَّ الرَّاجِحَ الذي عليه جُمْهُورُ العُلماءِ: أنَّهُ لا فَرْقَ بين المُجَسَّمِ وبين المُلَوَّنِ الذي يكونُ بالرَّقْمِ كُلُّهُ مُحَرَّمٌ؛ لأنَّ الذي يَرْقُمُ باليَدِ صُورَةً يُحاوِلُ أنْ يَكُونَ مُبْدِعًا مُشابِهًا لِخَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيَدْخُلُ في العُمومِ.

وأمَّا الصُّوَرُ التي تُلْتَقَطُ الْتِقاطًا بالآلةِ المَعْرُوفةِ، آلةِ التَّصْوِيرِ الفُوتوغرافِيَّةِ، فهذه منَ المَعْلُومِ أنَّها لم تَكُنْ مَعْرُوفةً في عهدِ الرَّسُولِ ﷺ والمَعْرُوفُ في عهدِهِ إنَّما هو التَّصْوِيرُ باليدِ الذي يُضاهِي به الإنْسانُ خَلْقَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أمَّا هذه الآلةُ فغيرُ مَعْرُوفةٍ، وليس الإنْسانُ يُصَوِّرها بيدِهِ ويُخَطِّطُها، فلا يُخَطِّطُ الوَجْهَ مثلًا، والعَيْنَين، والأنْفَ، والشَّفَتَيْنِ، وما أَشْبَهَ ذلك، لكنَّهُ هو يُلْقِي ضَوْءًا مُعَيَّنًا تَقَدَّمَتْ به مَعْرِفةُ النَّاسِ فتَنْطَبِعُ هذه الصُّورةُ في وَرَقةٍ، وهو لم يُحْدِثْ شيئًا في الصُّورةِ لم يُصَوِّرها إطْلاقًا وإنَّما الْتُقِطَتْ هذه الصُّورةُ بواسِطةِ هذا الضَّوْءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة، رقم (٥٩٥٨)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب أو صورة، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا لا شَكَّ أَنَّهُ فيما نَرَى أَنَّهُ لم يُصَوِّرْ، غايةُ ما هُنالِكَ أنَّ الصُّورةَ انْطَبَعَتْ بالوَرقةِ، فكان الذي بالوَرقةِ هو خَلْقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، يعني هذه هي الصُّورةُ التي خَلَقَها اللهُ، والدَّليلُ على ذلك أنَّ الإنْسانَ لو كَتَبَ كِتابًا بيدِهِ ثم صَوَّرَهُ بآلةِ التَّصْوِيرِ، فإنَّها إذا طَلَعَتِ الصُّورةُ لا يُقالُ: إنَّ هذا هو كِتابةُ الذي حَرَّكَ الآلةَ وصَوَّرَهُ، بل يُقالُ: هذا كِتابَةُ الأوَّلِ الذي خَطَّهُ بيَدِهِ، فهذا مِثْلُهُ.

ولكنْ يَبْقَى النَّظَرُ: لماذا صَوَّرَ الإنْسانُ هذه الصُّـورَ الفُوتوغرافِيَّةَ، إذا كان لِغَرَضٍ مُحَرَّمٍ فهو حَرامٌ من بابِ تَحْرِيمِ الوسائِلِ، كما لو اشْتَرَى الإنْسانُ سِلاحًا في فِتْنةٍ أو بَيْضًا لِقِمارٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، يعني أنَّ هذا في أصْلِهِ مُباحٌ، ولكنْ لِغَرَضٍ مُحَرَّمٍ فلا يَجُوزُ من بابِ تَحْرِيمِ الوسائِلِ.

أمَّا إذا كان الغَرَضُ مُباحًا كتصـويرٍ لاسْتِخْراجِ رُخْصةِ السَّيارةِ أو البِطاقةِ الشَّخْصيَّةِ وما أَشْبَهَ ذلك فهذا لا بَأْسَ به، هذا هو الذي نَراهُ في هذه المسْأَلةِ، والنَّاسُ ابْتُلُوا بها الآنَ بَلْوى عظيمةً وصارتْ مُنْتَشِرَةً في كُلِّ شيءٍ، ولكنْ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَعْرِفَ ويُحَقِّقَ ويُمَيِّزَ بين ما حَرَّمَهُ اللهُ ورسولُهُ وبين ما لم يأتِ تَحْرِيمُهُ، فلا نُضَيِّقُ على عِبادِ اللهِ ولا نُوقِعُهُمْ في مَحارِمِ اللهِ.

هذا إذا كان المُصَوَّرَ له رُوحٌ؛ لقَوْلِهِ ﷺ: «كُلِّفَ أنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ» أمَّا إذا كان المُصَوَّرُ لا رُوحَ له، كتصـويرِ الأشْجارِ والشَّمْـسِ والقَمَرِ والنُّجـومِ والجِبالِ والأنْهارِ، فهذا لا بَأْسَ به؛ لأنَّهُ ليس فيه رُوحٌ.

وقال بعضُ العُلماءِ: ما كان نامِيًا كالشَّجرةِ والزَّرْعِ فإنَّهُ لا يجوزُ تَصْوِيرُهُ؛ لأنَّهُ جاءَ في الحديثِ: «فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً أوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» وهذا نامٍ فيُشْبِهُ ما كان له رُوحٌ، لكنْ هذا خلافُ قَوْلِ جُمْهُورِ العُلماءِ، والصحيحُ أنَّهُ لا بَأْسَ به، أمَّا ما يَصْنَعُهُ الإنْسانُ

فلا شكَّ أَنَّهُ يجوزُ تَصْوِيرُهُ، كالقُصورِ والسَّياراتِ وما أَشْبَهَها فصارتِ الآنَ الأَقْسامُ مُتَعَدِّدةً:

١- ما يَصْنَعُهُ الإنْسانُ بيده فهذا لا بَأْسَ من تَصْوِيرِهِ، مثلُ السَّياراتِ والقُصُورِ والأبْوابِ، وما أَشْبَهَ ذلك.

٢- وما هو مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وليس يَنْمُو، كالشَّمْسِ والقَمَرِ والنُّجُومِ والجِبالِ والأَقْمارِ والأنْهارِ، فهذا أيضًا لا بَأْسَ به، وهذا مَحَلُّ اتِّفاقٍ.

٣- وما كان مِنْ خَلْقِ اللهِ وليس له رُوحٌ ولكنَّهُ يَنْمُو كالشَّجَرِ والزَّرْعِ وما أَشْبَهَهُ، فجُمْهُورُ العُلماءِ على أَنَّهُ لا بَأْسَ به، وذَهَبَ بعضُ العُلَماءِ ومنهم التَّابِعِيُّ المَشْهُورُ مُجاهِدُ بْنُ جَبْرٍ إلى أَنَّهُ حرامٌ، والصَّحِيحُ أَنَّهُ لا بَأْسَ به.

٤- وأمَّا ما فيه رُوحٌ فهذا لا يَجُوزُ أنْ يُصَوَّرَ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ المُصَوِّرِينَ، ولا فَرْقَ بين أنْ يَكُونَ بالرَّقْمِ أو باللَّوْنِ.

٥- وأمَّا مَسْأَلَةُ الْتِقاطِ الصُّوَرِ فهذا لا نَرَى أَنَّهُ داخِلٌ في التَّصْوِيرِ إطْلاقًا؛ لأنَّ المُلْتَقِطَ لم يَحْصُلْ منه فِعْلٌ يكونُ به التَّصْوِيرُ، ولكنْ يَبْقَى النَّظَرُ في النِّيَّةِ فهل يَلْتَقِطُ هذه الصُّورَ لشيءٍ مُحَرَّمٍ أو لا، هذا هو مَحَلُّ التَّفْصِيلِ في هذه المسْأَلَةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦١- بابُ بَيانِ مَا يَجُوزُ من الكَذِبِ

اعلَمْ أنَّ الكَذِبَ، وإنْ كَانَ أصْلُهُ مُحَرَّمًا، فَيَجُوزُ في بَعْضِ الأحْوَالِ بِشُروطٍ قَدْ أوْضَحْتُهَا في كِتابِ: (الأذْكَارِ)، ومُخْتَصَرُ ذَلِكَ: أنَّ الكَلامَ وَسيلَةٌ إلَى المَقَاصِدِ، فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٍ يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِغَيْرِ الكَذِبِ يَحْرُمُ الكَذِبُ فِيهِ، وإنْ لَمْ يُمْكِنْ تَحْصِيلُهُ إلَّا بالكَذِبِ، جازَ الكَذِبُ. ثُمَّ إنْ كَانَ تَحْصِيلُ ذَلِكَ المَقْصُودِ مُبَاحًا كَانَ الكَذِبُ مُبَاحًا، وإنْ كَانَ وَاجِبًا كَانَ الكَذِبُ وَاجِبًا.

فإذا اخْتَفَى مُسْلِمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُرِيدُ قَتْلَهُ، أَوْ أَخْذَ مَالِهِ وأخْفَى مالَهُ وَسُئِلَ إنْسَانٌ عَنْهُ، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْفَائِها. وكذا لو كانَ عِندَهُ وديعَةٌ، وأرادَ ظالِمٌ أخْذَهَا، وَجَبَ الكَذِبُ بإخْفائِهَا. وَالأحْوَطُ في هَذَا كُلِّهِ أنْ يُوَرِّيَ. ومعْنَى التَّوْرِيَةِ: أنْ يَقْصِدَ بِعِبَارَتِهِ مَقْصُودًا صَحِيحًا لَيْسَ هُوَ كَاذِبًا بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ، وإنْ كَانَ كَاذِبًا في ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وبالنِّسْبَةِ إلَى مَا يَفْهَمُهُ المُخَاطَبُ، وَلَوْ تَرَكَ التَّوْرِيَةَ وَأطْلَقَ عِبَارَةَ الكَذِبِ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ في هَذَا الحَالِ.

وَاسْتَدَلَّ العُلَمَاءُ لِجَوازِ الكَذِبِ في هَذَا الحَالِ بِحَديثِ أُمِّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها سَمِعَتْ رسُولَ اللهِ ﷺ، يقولُ: «لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

زاد مُسْلِمٌ في رِوايةٍ: قالتْ أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم (٢٦٩٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه، رقم (٢٦٠٥).

النَّاسُ إِلَّا في ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الحَرْبَ، والإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحديثَ المَرْأَةِ زَوْجَهَا.

الشَّرْح

سَبَقَ لنا أنَّ الكَذِبَ مُحَرَّمٌ وأنَّ منه ما هو كَبِيرةٌ من كبائِرِ الذُّنوبِ كالكَذِبِ على اللهِ ورسولِهِ ﷺ وذَكَرَ المُؤَلِّفُ في هذا البابِ أنَّ الكَذِبَ يَجُوزُ أحْيانًا إذا كان لِمَصْلحةٍ كبيرةٍ عظيمةٍ، وأنَّهُ قد يَجِبُ الكَذِبُ إذا كان فيه دَفْعُ مَضَرَّةٍ وظُلْمٍ، مثالُ ذلك لِدَفْعِ المَضَرَّةِ والظُّلْمِ: أنْ يَكُونَ شَخْصٌ ظالِمٌ يُرِيدُ أنْ يَقْتُلَ شَخْصًا مَعْصُومًا، فيَخْتَفي هذا الشَّخْصُ المَعْصُومُ عنِ الظالِمِ، وأنت تَعْلَمُ مَكانَهُ، فسَأَلَكَ هذا الظالِمُ الذي يُرِيدُ قَتْلَهُ بغيرِ حقٍّ أين فُلانٌ؟ هل فُلانٌ في هذا؟ فتقولُ: لا، ليس فُلانٌ في هذا، وأنت تَدْرِي أنَّهُ فيه، فهذا لا بَأْسَ به، بل هو واجبٌ لإنْقاذِ المَعْصُومِ من الهَلَكَةِ، فإنَّ إنْقاذَ المَعْصُومِ من الهَلَكَةِ واجِبٌ، وما لا يَتِمُّ الوَاجِبُ إلَّا به فهو وَاجِبٌ.

ولكنَّ الأفْضَلَ أنْ تُوَرِّيَ يعني تَنْوِيَ مَعْنًى صَحِيحًا ليس فيه كَذِبٌ وإنْ كان ظاهِرُ اللَّفْظِ أنَّهُ كَذِبٌ، فتقولُ مثلًا إذا قال هذا الظالِمُ: فُلانٌ في هذا؟ تقولُ: ليس في هذا، وتُشِيرُ إلى شيءٍ مُعَيَّنٍ ليس فيه، كما يُذْكَرُ أنَّ الإمامَ أحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ جاءَهُ رَجُلٌ يَسْأَلُ عن أحدِ التَّلاميذِ: أيْنَ فُلانٌ؟ فقال الإمامُ أحْمَدُ: ليس فُلانٌ هاهنا، وما يَصْنَعُ فُلانٌ هاهنا؟ وَيَلْمِسُ يدَهُ، يعني ليس في يَدِي وما يَصْنَعُ في يَدِي، هذه تَوْرِيةٌ، فإذا جاءَكَ الذي يُرِيدُ أنْ يَقْتُلَ هذا الشَّخْصَ بغيرِ حقٍّ، وقال: هل فُلانٌ هاهنا؟ تقولُ: لا، وتَلْمِسُ بِيَدِكَ الأُخْرَى يعني ليس في يَدِي، أو إنْسَانٌ أَلَحَّ عليك بشيءٍ وأنت لا تُرِيدُ أنْ تُعْطِيَهُ؛ لأنَّهُ يُفْسِدُ المالَ، فتقولُ: واللهِ ما بِيَدِي شيءٌ ويَدَكُ ليس فيها شيءٌ، ليس فيها دَرَاهِمُ ولا غيْره.

تقولُ: ليس في يَدِي شيءٌ وأنت صادِقٌ ويَفْهَمُ المُخاطَبُ أَنَّهُ ليس عندك شيءٌ، أو يكونُ عندك وَدِيعةٌ، دَراهِمُ لشَخْصٍ -مثلًا- وقال: احْفَظْها لي، فجاءَ ظالِمٌ يُرِيدُ أنْ يَأْخُذَ هذه الدَّراهِمَ، وسَأَلَ: أين الوَدِيعةُ التي أعْطاها لك فُلانٌ؟ أعْطِنِي إيَّاها. فقُلْتَ: واللهِ ما عِنْدِي له وديعةٌ، فتَنْوِي بقَوْلِكَ: واللهِ ما عندي له وَدِيعةٌ، يعني واللهِ إنَّ الذي عندي له وَدِيعةٌ، وتَجْعَلُ (ما) بمعنى (الذي) وأنت صادِقٌ، الذي لفُلانٍ عندك وَدِيعةٌ، لكنْ يَفْهَمُ المُخاطَبُ أنَّ (ما) نافيةٌ وأَنَّهُ ليس له عندكَ وديعةٌ.

فالحاصِلُ: أَنَّهُ إذا كان هناك ظُلْمٌ وأرادَ الإنْسانُ أنْ يَدْفَعَهُ وكَذَبَ فهذا لا بَأْسَ به، ولكنَّ الأوْلَى والأحْسَنَ أنْ يُوَرِّي، يعني ينوي معْنًى صحيحًا ليس فيه كَذِبٌ.

وكذلك أيضًا: إذا كان لِمَصْلحةٍ كبيرةٍ كالكَذِبِ في الحَرْبِ، فلا بَأْسَ به؛ لأَنَّهُ فيه مَصْلحةٌ كبيرةٌ، مثلَ أنْ تَأْتِيَ عُيُونُ العَدُوِّ يعني جَواسِيسَهُ يَسْأَلُونَ، يقولونَ مثلًا: هل الجَيْشُ كَبِيرٌ؟ وهل معهُ عُدَّةٌ؟ وهل هو قَوِيٌّ؟ فتقولُ: نعم الجَيْشُ كبيرٌ، وعظيمٌ وقَوِيٌّ ومعه عُدَّةٌ، ولو كُنْتَ تَعْرِفُ خلافَ ذلك فهذا لا بَأْسَ به؛ لأنَّ فيه مَصْلحةً كبيرةً، وهي إلْقاءُ الرُّعْبِ في قُلوبِ الأعْداءِ.

وكذلك: الإصْلاحُ بين النَّاسِ، يَأْتِيكَ شَخْصٌ قد ذُكِرَ له أنَّ شَخْصًا آخَرَ يَغْتابُهُ ويَسُبُّهُ، فيَأْتِي إليك ويقولُ: سَمِعْتُ أنَّ فُلانًا قال فيَّ كذا وكذا؟ فتقولُ: أبدًا ما قال فيك شيئًا، فهذا لا بَأْسَ به؛ لأنَّ فيه إصْلاحًا بين النَّاسِ.

كذلك منَ المَصْلَحةِ: حديثُ الرَّجُلِ زَوْجَتَهُ وحديثُ المَرْأَةِ زَوْجَهَا فيما يُوجِبُ الأُلْفةَ والمَوَدَّةَ، مثلَ أنْ يقولَ لها: أنتِ عندي غاليةٌ، وأنتِ أَحَبُّ إليَّ من سائِرِ النِّساءِ، وما أَشْبَهَ ذلك وإنْ كان كاذبًا، لكنْ من أجْلِ إلْقاءِ المَوَدَّةِ، والمَصْلَحةُ تَقْتَضِي هذا.

فالحاصلُ: أَنَّهُ يَجِبُ الكَذِبُ إذا كان لإنْقاذِ مَعْصُومٍ من هَلَكةٍ، أو حِمايةِ مالِ مَعْصُومٍ منْ تَلَفٍ، ويُباحُ إذا كان فيه مَصْلحةٌ عَظِيمةٌ، ومع ذلك فالأَوْلَى أنْ يَجْعَلَ الكَلامَ تَوْرِيةً؛ حتَّى يَسْلَمَ مِنَ الكَذِبِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦٢- بابُ الحثِّ على التَّثَبُّتِ فيما يَقُولُهُ ويَحْكِيهِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

١٥٤٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

١٥٤٨- وَعَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

١٥٤٩- وَعَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ امْرَأَةً قالتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

«الْمُتَشَبِّعُ»: هُوَ الَّذِي يُظْهِرُ الشِّبَعَ وَلَيْسَ بِشَبْعَانَ. وَمَعْنَاهُ هُنَا: أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ فَضِيلَةٌ وَلَيْسَتْ حَاصِلَةً. و«لابِسُ ثَوْبَيْ زُورٍ» أَيْ: ذِي زُورٍ، وَهُوَ الَّذِي يُزَوِّرُ عَلَى النَّاسِ، بِأَنْ يَتَزَيَّى بِزِيِّ أَهْلِ الزُّهْدِ أَو العِلْمِ أَو الثَّرْوَةِ؛ لِيَغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وَلَيْسَ هُوَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، واللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) أخرجه مسلم: المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم (٥).

(٢) أخرجه مسلم: المقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب، رقم (٥٢١٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع، رقم (٢١٣٠).

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ الحثِّ على التَّثَبُّتِ فيما يقولُهُ ويَحْكِيهِ».

لَمَّا ذَكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَحْرِيمَ الكذبِ -والكَذِبُ أنْ يُخْبِرَ الإنْسانُ بما لم يَكُنْ على وجْهِ صَحِيحٍ- أعْقَبَهُ بهذا البابِ، أنَّ على الإنْسانِ أنْ يَتَثَبَّتَ فيما يَنْقُلُ ويَتَكَلَّمُ به لا سِيَّما في زَمَنِ الأهْواءِ وكَثْرَةِ القِيلِ والقالِ والتَّحَدُّثِ بما كان أو لم يَكُنْ، ثم اسْتَدَلَّ لذلك بالآياتِ والأحاديثِ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾. يعْنِي: لا تَتَّبِعْ ما ليس لك به عِلْمٌ ولا تَتَكَلَّمْ إلَّا بما تَعْلَمُ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[1] وقال تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. يعني إلَّا عندَهُ رَقِيبٌ أيْ مُراقِبٌ يُراقِبُ ما يقولُ، ﴿عَتِيدٌ﴾ حاضِرٌ فلا يَغِيبُ عنه، وهذا تَحْذِيرٌ من أنْ يَتَكَلَّمَ الإنْسانُ بشيءٍ لا يَعْلَمُ عنه؛ لأنَّهُ بذلك آثِمٌ، ثم ذَكَرَ في ذلك أحاديثَ:

«كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبًا أنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[2] يعني أنَّ الإنْسانَ إذا صارَ يُحَدِّثُ بكُلِّ ما سَمِعَ من غيْرِ تَثَبُّتٍ وتَأَنٍّ، فإنَّهُ يكونُ عُرْضةً للكَذِبِ، وهذا هو الوَاقِعُ؛ ولهذا يَجِيءُ إليك بَعْضُ النَّاسِ يقولونَ: صارَ كذا وكذا، ثم إذا بَحَثْتَ وَجَدْتَ أنَّهُ لم يَكُنْ، أو يَأْتِي إليك ويقولُ: قال فُلانٌ كذا وكذا، فإذا بَحَثْتَ وَجَدْتَهُ لم يَقُلْ، وأعْظَمُ شيءٍ أنْ يكونَ هذا فيما يَتَعَلَّقُ بحُكْمِ اللهِ وشَرِيعَتِهِ، بأنْ يَكْذِبَ على اللهِ فيَقُولُ في القُرآنِ بِرَأْيِهِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان وقول النبي ﷺ، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما يسمع، رقم (٥)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يُفَسِّرُ القُرآنَ بغَيْرِ ما أرادَ اللهُ، أو يَكْذِبُ على النَّبِيِّ ﷺ يقولُ: قال النَّبِيُّ ﷺ كذا، وهو كاذبٌ، أو يَنْقُلُ حديثًا يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ وهو لم يُكَذِّبْهُ ولكنْ يقولُ: قال فُلانٌ كذا وكذا عن رَسُولِ اللهِ ﷺ، وهو يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فإنَّهُ يكونُ أحدَ الكَاذِبِينَ كما بَيَّنَ ذلك النَّبِيُّ ﷺ، ويَزْدادُ إثْمًا إذا تَشَبَّعَ الإنْسانُ بما لم يُعْطَ، كما في حَدِيثِ المَرْأَةِ أنَّها يكونُ لها ضَرَّةٌ يعني زَوْجَةٌ أُخْرَى مع زَوْجِها، فتقولُ: إنَّ زَوْجِي أعْطاني كذا وأعْطاني كذا وهي كاذبةٌ، لكنْ تُرِيدُ أنْ تُراغِمَ (وتَغِيظَ) ضَرَّتَها وتُفْسِدَها على زَوْجِها، فهذا كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» أي كَذِبٍ.

والحاصلُ: أَنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَتَثَبَّتَ فيما يقولُ، وأنْ يَتَثَبَّتَ فيمَنْ يَنْقُلُ إليه الخَبَرَ، هل هو ثِقَةٌ أو غَيْرُ ثِقَةٍ كما قال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. ولا سيَّما إذا كَثُرَتِ الأهْواءُ وصارَ النَّاسُ يَتَخَبَّطُونَ ويُكْثِرُونَ منَ القِيلِ والقالِ بلا تَثَبُّتٍ ولا بَيِّنَةٍ، فإنَّهُ يكونُ التَّثَبُّتُ أشَدَّ وُجُوبًا، حتَّى لا يَقَعَ الإنْسانُ في المَهْلَكَةِ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦٣- بابُ بيانِ غِلَظِ تَحْرِيمِ شَهادةِ الزُّورِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤]، وقال تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢].

١٥٥٠- وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «الإِشْراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» وكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلَا وَقولُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ بيانِ غِلَظِ تَحْرِيمِ شَهادةِ الزُّورِ». شَهادةُ الزُّورِ أنْ يَشْهَدَ بما يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ بخِلافِهِ، أو يَشْهَدُ بما لا يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ بخلافِهِ أو بوِفاقِهِ، أو يَشْهَدُ بما يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ على وِفاقِهِ لكنَّهُ على صِفَةٍ غيْرِ الواقِعِ.

هذه ثَلاثةُ أحْوالٍ وكُلُّها حَرامٌ، لا يَحِلُّ لإنْسانٍ أنْ يَشْهَدَ إلَّا بما عَلِمَ على الوَجْهِ الذي عَلِمَهُ، فإنْ شَهِدَ بما يَعْلَمُ أنَّ الأمْرَ بخلافِهِ مثْلَ أنْ يَشْهَدَ لفُلانٍ بأنَّهُ يَطْلُبُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، رقم (٢٦٥٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧).

فُلانًا بكذا وكذا وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ كاذِبٌ، فإنَّ هذا -والعياذُ باللهِ- شَهادةُ زُورٍ، ومِثْلَ أنْ يَشْهَدَ لفُلانٍ أَنَّهُ فَقِيرٌ يَسْتَحِقُّ الزَّكاةَ وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ غَنِيٌّ، ومِثْلَ ما يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ أمامَ الدَّوْلةِ يَشْهَدُ بأنَّ فُلانًا له عائِلَةٌ عددُ أفرادِها كذا وكذا وهو يَعْلَمُ أَنَّهُ كاذِبٌ، والأمْثِلةُ على هذا كثيرةٌ ويَظُنُّ هذا المِسْكينُ الذي شَهِدَ بشَهادةِ الزُّورِ أَنَّهُ نافِعٌ لأخِيهِ وأَنَّهُ بارٌّ به، والواقِعُ أَنَّهُ ظالِمٌ لنَفْسِهِ وظالِمٌ لأخِيهِ، أمَّا كَوْنُهُ ظالمًا لنَفْسِهِ فظاهِرٌ؛ لأَنَّهُ آثِمٌ وآتٍ كَبيرةً من كَبائِرِ الذُّنوبِ، وأمَّا كَوْنُهُ ظالمًا لأخِيهِ فلأَنَّهُ أعْطاهُ ما لا يَسْتَحِقُّهُ وجَعَلَهُ يَأْخُذُ المالَ بالباطِلِ، وقدْ قال النَّبِيُّ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، هذا المَظْلُومُ، كيفَ نَنْصُرُ الظَّالِمَ؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُهُ»[1]. فهَؤُلاءِ الذين يَشْهَدُونَ بالزُّورِ -والعياذُ باللهِ- يَظُنُّونَ أَنَّهُم يَنْفَعُونَ إخْوانَهُمْ وهم يَضُرُّونَ أنْفُسَهُم وإخْوانَهُمْ.

ثم اسْتَشْهَدَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بآياتٍ بعْضُها سَبَقَ قريبًا وبَعْضُها لم يَسْبِقْ فقال: قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]. وأوَّلُ ما يَدْخُلُ في قَوْلِ الزُّورِ شَهادةُ الزُّورِ، وقدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى ذلك مع الرِّجْسِ من الأوْثانِ أيْ مع الشِّرْكِ، فدَلَّ هذا على عِظَمِ شَهادةِ الزُّورِ.

وقال اللهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان:٧٢]. يَمْدَحُهم، وإذا كان هَؤُلاءِ مُدِحُوا بعَدَمِ شُهودِ الزُّورِ فأَوْلَى أنْ يُمْدَحُوا إذا لم يقولوا الزُّورَ، وإذا كان عَدَمُ شَهادةِ الزُّورِ مَدْحًا دلَّ ذلك على أنَّ شَهادةَ الزُّورِ أو القَوْلَ بالزُّورِ قَدْحٌ وضَرَرٌ.

ثم ذَكَرَ حديثَ أبي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه، رقم (٦٩٥٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(ألا) أداةُ عَرْضٍ اسْتَفْتَحَ بها النَّبِيُّ ﷺ كلامَهُ لِتَنْبِيهِ المُخاطَبِ إلى أمْرٍ ذي شَأْنٍ؛ ولهذا قال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قالوا: بلى يا رَسُولَ اللهِ، قال: «الإِشْرَاكُ باللهِ» وهذا أعْظَمُ الظُّلْمِ وأكْبَرُ الكبائِرِ وأشَدُّ الذُّنوبِ عُقوبةً؛ لأنَّ مَنْ يُشْرِكُ باللهِ فإنَّ اللهَ قدْ حرَّمَ عليه الجَنَّةَ ومأواهُ النَّارُ وما للظَّالِمِينَ مِنْ أنْصارٍ.

والثَّاني: «عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» يعني: قَطْعَ بِرِّهِما، والولدانِ هم الأبُ والأمُّ، والواجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَبَرَّهُما وأنْ يَخْدِمَهُما بقَدْرِ ما يَسْتَطِيعُ وأنْ يُطِيعَهُما إلَّا ما فيه عليه ضررٌ أو مَعْصِيةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّهُ لا يُطِيعُهُما.

قال: «وكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ» تَعْظِيمًا لِمَا سَيَقُولُ قال: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» وإنَّما عَظَّمَ النَّبِيُّ ﷺ أمْرَها لِكَثْرةِ الوُقوعِ فيها، وَعَدَمِ اهْتمامِ النَّاسِ بها، فأرَى النَّاسَ أنَّ أمْرَها عَظِيمٌ، كان يُحَدِّثُ عنِ الشِّرْكِ وعُقوقِ الوالِدَيْنِ وهو مُتَّكِئٌ، ثم جَلَسَ؛ اهْتِمامًا بالأمْرِ «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلنا: لَيْتَهُ سَكَتَ. وهذا دليلٌ على عِظَمِ شَهادةِ الزُّورِ وقَوْلِ الزُّورِ، فعلى الإنْسانِ أنْ يَتُوبَ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ من هذا؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ -كما قُلْتُ- ظُلْمَ نفسِهِ وظُلْمَ مَنْ شَهِدَ لهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦٤- بابُ تَحْرِيمِ لَعْنِ إنْسانٍ بعَيْنِهِ أَوْ دَابَّةٍ

١٥٥١- عَنْ أَبي زَيْدٍ ثابِتِ الضَّحَّاكِ الأنْصارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلَامِ كاذِبًا مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ كَما قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ بِهِ يومَ القِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لا يَمْلِكُهُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

١٥٥٢- وعنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا». رواهُ مُسْلِمٌ[2].

١٥٥٣- وعنِ أَبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ». رواهُ مُسْلِمٌ[3].

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ لَعْنِ إنْسانٍ بعَيْنِهِ أو دابَّةٍ». اللَّعْنُ معناهُ: الطَّرْدُ والإبْعادُ عنْ رحمةِ اللهِ فإذا قُلْتَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا، فإنَّكَ تَعْنِي أنَّ اللهَ يُبْعِدُهُ ويَطْرُدُهُ عن رَحْمَتِهِ والعياذُ باللهِ؛ ولهذا كان لَعْنُ المُعَيَّنِ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، يعني لا يَجُوزُ أنْ تَلْعَنَ إنْسانًا بعَيْنِهِ، فتَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا أو تَقُولُ: لَعْنَةُ اللهِ عليكَ، أو ما أَشْبَهَ ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، رقم (٢٥٩٧).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، رقم (٢٥٩٨).

حتَّى لو كان كافِرًا وهو حَيٌّ فإنَّهُ لا يَجُوزُ أنْ تَلْعَنَهُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا صارَ يقولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا، اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا، يُعَيِّنُهُمْ، قال اللهُ له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٨].

ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ الغَيْرَةُ فيَلْعَنُ الرَّجُلَ المُعَيَّنَ إذا كان كافِرًا وهذا لا يَجُوزُ؛ لأنَّكَ لا تَدْرِي فلَعَلَّ اللهَ أنْ يَهْدِيَهُ، وكم مِنْ إنْسانٍ كان من أَشَدِّ النَّاسِ عَداوةً للمُسْلِمِينَ والإسْلامِ هداهُ اللهُ وصارَ مِنْ خِيارِ عِبادِ اللهِ المُؤْمِنِينَ! ونَضْرِبُ لهذا مثلًا: عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرَّجُلُ الثاني بعدَ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الأُمَّةِ، كان مِن أَلَدِّ أعْداءِ الإسْلامِ ففَتَحَ اللهُ عليه فأسْلَمَ، وخَالِدُ بْنُ الوليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُقاتِلُ المُسْلِمِينَ في أُحُدٍ وهو من جُملةِ مَنْ كَرَّ عليهم وداهَمَهُمْ، وعِكْرِمَةُ بْنُ أبي جَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَغَيْرُهُمْ من كِبارِ الصَّحابةِ الذين كانوا من أَلَدِّ أعْداءِ الإسْلامِ فهَداهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أمَّا إذا ماتَ الإنْسانُ على الكُفْرِ وعَلِمْنا أنَّهُ ماتَ كافِرًا فلا بَأْسَ أنْ نَلْعَنَهُ؛ لأنَّهُ مَيْئُوسٌ من هِدايتِهِ -والعياذُ باللهِ- لأنَّهُ ماتَ على الكُفْرِ. ولكنْ ما الذي نَسْتَفِيدُهُ مِنْ لَعْنِهِ؟ ربَّما يَدْخُلُ هذا -أعْنِي لَعْنَهُ- في قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[1]، ونحن نقولُ لهذا الرَّجُلِ الذي يَلْعَنُ الكافِرَ أو الذي ماتَ على الكُفْرِ: إنَّ لَعْنَكَ إيَّاهُ لا فائِدَةَ منه في الواقِعِ؛ لأنَّهُ قدِ اسْتَحَقَّ الطَّرْدَ والإبْعادَ عن رَحْمَةِ اللهِ، بل هو من أصْحابِ النَّارِ هم فيها خالِدُونَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكذلك أيضًا البَهائِمُ، لا يَجُوزُ أنْ تُلْعَنَ البَهِيمةُ، وسَيَأْتِي إنْ شاءَ اللهُ في الأحاديثِ ما يُبَيِّنُ حُكْمَ ذلك.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ حَدِيثَ أبي زَيْدٍ بن ثابتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الإسْلَامِ وَهُوَ فِيهَا كَاذِبٌ مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ كَمَا قَالَ». مثال ذلك إذا قال الإنْسانُ: هو يَهُودِيٌّ أو نَصْرانِيٌّ، إنْ كان كذا وكذا، وكان الأمْرُ على خلافِ ما يقولُ، فإنَّهُ كما قال، يعني أنَّهُ يَهُودِيٌّ أو نَصْرانِيٌّ -نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ- مثالُ هذا: لو أخْبَرَنَا أنَّ فُلانًا منَ النَّاسِ قد قَدِمَ أَمْسِ وقلنا ليس بصَحِيحٍ فقال: هو يَهُودِيٌّ إن كان ما قَدِمَ، فتَبَيَّنَ أنَّهُ لم يَقْدَمْ، والرَّجُلُ قال: هو يَهُودِيٌّ مُتَعَمِّدًا، فبَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أنَّهُ كما قال عن نَفْسِهِ أيْ أنَّهُ يَصِيرُ يَهُودِيًّا أو نَصْرَانِيًّا، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الحَلِفَ بِمِلَّةٍ غيرِ الإسْلام كاذبًا مُتَعَمِّدًا منْ كَبائِرِ الذُّنوبِ، فإنْ كان غَيْرَ كاذِبٍ بأنْ كان صادِقًا فإنَّهُ لا يَلْحَقُهُ هذا الوَعِيدُ، لَكِنَّنا نقولُ له: إذا كُنْتَ حالِفًا فاحْلِفْ باللهِ، كما قال الرَّسُولُ ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[1]، وكذلك إنْ كان قال ذلك غيْرَ مُتَعَمِّدٍ بأنْ يَظُنَّ أنَّ الأمْرَ كذلك، وتَبَيَّنَ أنَّ الأمْرَ على خِلافِ ما اعْتَقَدَ فإنَّهُ لا يَدْخُلُ في هذا الوَعِيدِ.

ويُسْتَفادُ من هذا الحديثِ: أنَّ الإنْسانَ إذا حَلَفَ باللهِ على شيءٍ مُعْتَقِدًا أنَّهُ كما حَلَفَ ثم تَبَيَّنَ أنَّهُ على خلافِ اعْتقادِهِ فإنَّهُ لا إثْمَ عليه ولا كَفَّارَةَ عليه.

مثالُ ذلك، لو قالَ: فُلانٌ سَيَقْدَمُ غدًا وهو مُتَأَكِّدٌ، يقولُ: إنِّي مُتأكِّدٌ واللهِ لَيَقْدَمَنَّ غدًا، قال ذلك بِناءً على ظَنِّهِ ثم لم يَقْدَمْ فلا كَفَّارةَ عليه؛ لأنَّهُ حَلَفَ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم (١٦٤٦)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

غالِبِ ظَنِّهِ، ولذلك أقَرَّ النَّبِيُّ ﷺ الرَّجُلَ الذي قال: واللهِ ما بَيْنَ لَابَتَيْهَا أهْلُ بَيْتٍ أفْقَرُ منهُ[1]، يعني ما بين لابَتَي المَدِينَةِ أهْلُ بَيْتٍ أفْقَرُ منه، مع أنَّ هذا الرَّجُلَ لم يَأْتِ على كُلِّ البُيوتِ يُفَتِّشُ فيها، لكنْ حَلَفَ على غالِبِ ظَنِّهِ، فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ على ذلك.

وقولُهُ ﷺ: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ بِهِ يومَ القِيَامَةِ» أيْ: أنَّ مَنْ قَتَلَ نفسَهُ بشيءٍ عُذِّبَ به في جَهَنَّمَ، يعني إذا قَتَلَ الإنْسانُ نفسَهُ بشيءٍ فإنَّهُ يُعَذَّبُ به في جَهَنَّمَ. رَجُلٌ أكَلَ سُمًّا لِيَمُوتَ فماتَ، فإنَّهُ يَأْكُلُ هذا السُّمَّ في نارِ جَهَنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها -والعياذُ باللهِ- أو صَعِدَ إلى السَّقْفِ فأَسْقَطَ نفسه حتَّى هَلَكَ فإنَّهُ يُعَذَّبُ بِمِثْلِ ذلك في جَهَنَّمَ. أو قَتَلَ نفسَهُ بِسِكِّينٍ فإنَّهُ يُعَذَّبُ بها في نارِ جَهَنَّمَ، أو قَتَلَ نفسَهُ بعصاهُ فإنَّهُ يُعَذَّبُ بها في جَهَنَّمَ.

ومن ذلك مَنْ يُضْرِبُ عنِ الطَّعامِ، فإنَّ هذا مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ، أو قَتَلَ نفسَهُ بقَنابِلَ فإنَّهُ يُعَذَّبُ بها في جَهَنَّمَ، ومِنْ ذلك فِعْلُ بَعْضِ النَّاسِ حينما يَنْتَحِرُونَ، يَلْبِسُ الإنْسانُ قَنابِلَ يَحْزِمُها على بَطْنِهِ ثم يَذْهَبُ إلى فِئَةٍ من العَدُوِّ ويُطْلِقُها فيكونُ هو أوَّلَ مَنْ يَمُوتُ، هذا يُعْتَبَرُ قاتِلًا لنفسِهِ ويُعَذَّبُ بما قَتَلَ به نفسَهُ في جَهَنَّمَ -والعياذُ باللهِ- وهَؤُلاءِ يُطْلِقُونَ على أنْفُسِهِمُ الفِدائِيِّينَ ولكنَّهم قَتَلُوا أنْفُسَهم فيُعَذَّبُونَ في نارِ جَهَنَّمَ بما قَتَلُوا به أنْفُسَهم، ولَيْسُوا بشُهَداءَ؛ لأنَّهُم فعَلُوا فِعْلًا مُحَرَّمًا، والشَّهِيدُ هو الذي يَتَقَرَّبُ إلى اللهِ بِفِعْلِ ما أمَرَهُ اللهُ به لا بِفِعْلِ ما نهاهُ عنه، واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] ويقولُ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، رقم (١٩٣٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم، رقم (١١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكنَّنا نقولُ: هَؤُلاءِ الذين نَسْمَعُ عنهم يَفْعَلُونَ ذلك نَرْجُو أَلَّا يُعَذَّبُونَ؛ لأنَّهُم جاهِلُونَ مُتَأَوِّلونَ لكنَّهُم ليس لهم أجْرٌ، وليسوا بشُهداءَ؛ لأنَّهم فَعَلُوا ما لم يَأْذَنْ به اللهُ بل ما نَهَى اللهُ عنه.

فإنْ قال قائِلٌ: أليس الصَّحابةُ يُغامِرُونَ فيَدْخُلونَ صَفَّ الأعْداءِ من الرُّومِ وغيْرِ الرُّومِ؟

قلنا: بلى، لكنْ هل هذا قَتْلٌ لأنْفُسِهِمْ؟ لا، هذا ليس بقَتْلٍ، صحيحٌ أنَّهُم على خَطَرٍ لكنْ فيه احْتِمالُ النَّجاةِ؛ ولهذا يَدْخُلُونَ صُفوفَ الرُّومِ فيَقْتُلُونَ مَنْ شاءَ اللهُ ثم يَرْجِعُونَ إلى الجَيْشِ، وكذلك ما فَعَلَهُ البَراءُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقْعةِ اليَمامةِ فإنَّهُم لَمَّا وصَلُوا إلى حائِطِ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّابِ، وَجَدُوا البابَ مُغْلقًا ولم يَتَمَكَّنُوا من دُخولِهِ، وكان البَراءُ بْنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شُجاعًا، فطَلَبَ من الجَيْشِ أنْ يُلْقُوهُ من وراءِ الجِدارِ لِيَفْتَحَ لهم البَابَ، فأَلْقَوْهُ من وراءِ الجِدارِ من أجْلِ أنْ يَفْتَحَ لهم البابَ حتَّى يَدْخُلوا على مُسَيْلِمَةَ الكذَّابِ في حِصْنِهِ، وفِعْلًا فَتَحَ لهم البابَ ونَجا، فلا يُمْكِنُ أنْ يُسْتَدَلَّ بمِثْلِ هذه الوَقائِعِ على جَوازِ الانْتحارِ الذي يَفْعَلُهُ هَؤُلاءِ الجُهَّالُ؟

ولكنْ نقولُ: نَرْجُو منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ لا يُؤَاخِذُهُمْ بما صَنَعُوا؛ لأنَّهُم صَنَعُوا ذلك عن جَهْلٍ وحُسْنِ نِيَّةٍ، فمَنْ قَتَلَ نفسه بشيءٍ فإنَّهُ يُعَذَّبُ به في نارِ جَهَنَّمَ، واعْلَمْ أنَّهُ قد وَرَدَ فيمن قَتَلَ نفسَهُ بشيءٍ أنَّهُ يُعَذَّبُ به في جَهَنَّمَ خالِدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا فذَكَرَ التَّأْبِيدَ، فهل يعني ذلك أنَّهُ كافِرٌ؛ لأنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ الخُلودَ المُؤَبَّدَ إلَّا الكُفَّارُ؟

الجوابُ: لا، ليس بكافِرٍ، بل يُغَسَّلُ ويُكَفَّنُ ويُصَلَّى عليه ويُدْعى له بالمَغْفِرةِ. كما فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ في الرَّجُلِ الذي قَتَلَ نفسَهُ بمَشاقِصَ، فقُدِّمَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ

لِيُصَلِّيَ عليه، لكنَّهُ لم يُصَلِّ عليه وقال: «صَلُّوا عَلَيْهِ»[١]، فصَلَّوْا عليه بأمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ ليس بكافِرٍ، وحينئذٍ لا يَسْتَحِقُّ الخُلودَ المُؤَبَّدَ، فما ذُكِرَ في الحديثِ من ذِكْرِ التَّأْبِيدِ -إنْ كانت اللَّفْظَةُ مَحْفُوظَةً عنِ النَّبِيِّ ﷺ- فالمرادُ شِدَّةُ التَّهْديدِ والتَّنْفِيرِ من هذا العَمَلِ، وإلَّا فليس بكافِرٍ.

الجُمْلةُ الثَّالثةُ: وهي قَولُهُ ﷺ: «وَلَا نَذْرَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»[٢]، يعني أنَّ الإنْسانَ ليس عليه نَذْرٌ فيما لا يَمْلِكُ، فلو نَذَرَ وقال: للهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أنْ أَتَصَدَّقَ بمالِ فُلانٍ -فهذا لَغْوٌ ولا يَنْعَقِدُ النَّذْرُ؛ لأنَّ مالَ فُلانٍ ليس مِلْكًا له.

ولْيُعْلَمْ أنَّ النَّذْرَ مَكْرُوهٌ، نَهى عنهُ النَّبِيُّ ﷺ وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَلَا يَرُدُّ قَضَاءً وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ»[٣]، وكثيرٌ منَ النَّاسِ يكونُ عنده مريضٌ أو يَضِيعُ له مالٌ فيَنْذُرُ إنْ شَفَى اللهُ مَرِيضَهُ أنْ يَصُومَ أو يَتَصَدَّقَ أو يَحُجَّ أو يَعْتَمِرَ أو يَفْعَلَ شيئًا من الطَّاعاتِ، ثم إذا قَدَّرَ اللهُ الشِّفاءَ ذَهَبَ يَسْأَلُ العُلَماءَ يُرِيدُ أنْ يَتَخَلَّصَ مِمَّا نَذَرَ، ورُبَّما يُكْسِلُ ويَتْرُكُ ما نَذَرَ، وهذا خَطَرٌ عظيمٌ، إذا نَذَرْتَ للهِ تَعالى شَيْئًا على شيءٍ يُحَقِّقُهُ اللهُ لك، ثم تَحَقَّقَ فلم تُوَفِّ فإنَّ هذا خَطَرٌ عَظِيمٌ، يُفِيدُهُ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ترك الصلاة على القاتل نفسه، رقم (٩٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٢)، والترمذي: أبواب النذور والأيمان، باب النذر فميا لا يملك، رقم: (١٥٢٧)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين في قطيعة الرحم، رقم (٣٢٧٤)، والنسائي: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك، رقم (٣٨١٢)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النذر في المعصية، رقم (٢١١٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب إلقاء النذر العبد إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم: كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئًا، رقم (١٦٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

يعني أَلْقَى اللهُ في قُلوبِهِمُ النِّفاقَ إلى المَوْتِ -والعياذُ باللهِ- وهذا وعيدٌ شديدٌ؛ ولذلكَ نهى النَّبِيُّ ﷺ عنِ النَّذْرِ؛ لأنَّ الإنْسانَ يُوجِبُ على نفسِهِ ما هو في غِنًى عنه، وما هو في سَعَةٍ منه، وإذا أَرَدْتَ أنْ يَشْفِيَ اللهُ مَريضكَ أو يَرُدَّ مالَكَ فاسْأَلِ اللهَ: اللَّهُمَّ اشْفِ مَرِيضي، اللَّهُمَّ رُدَّ عليَّ مالي، ليس هناك طَرِيقٌ يعني لم تَنْسَدَّ الطُّرُقُ إلَّا بالنَّذْرِ.

وعلى كُلِّ حالٍ: قال أَهْلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ النَّذْرَ أقْسامٌ:

الأوَّلُ: نَذْرُ الطَّاعةِ بأنْ يَنْذُرَ الإنْسانُ أنْ يُصَلِّيَ أو يَصُومَ أو يَتَصَدَّقَ أو يَحُجَّ أو يَعْتَمِرَ فهذا يَجِبُ الوفاءُ به؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ»[1]، وسواءٌ كان مُعَلَّقًا على شَرْطٍ أو غَيْرَ مُعَلَّقٍ.

الثَّاني: نَذْرُ المَعْصِيةِ فهذا لا يَجُوزُ الوفاءُ به، مثلَ أنْ يَنْذُرَ الإنْسانُ أنْ لا يُكَلِّمَ فُلانًا وفُلانًا منَ المُؤْمِنِينَ الذين لا يُهْجَرُونَ لكنْ صارتْ بينه وبينه عَداوةٌ يعني سوءَ تَفاهُمٍ، فقالَ: للهِ عليَّ نَذْرٌ ما أُكَلِّمُ فُلانًا، أو للهِ عليَّ نَذْرٌ ما أَزُورُ أخي، أو قَريبِي أو ما أَشْبَهَ ذلك، هذه معصيةٌ حرامٌ، ولا يَجُوزُ الوفاءُ بهذا النَّذْرِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ»[2] ولكنْ ماذا يَفْعَلُ؟ يَجِبُ عليه أنْ يُكَفِّرَ كَفَّارةَ اليمينِ.

الثالِثُ: ما يُسَمَّى عند العُلَماءِ بنَذْرِ اللَّجاجِ والغَضَبِ وهو الذي يَقْصِدُ به

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة، رقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر التخريج السابق.

الإنْسانُ المَنْـعَ أو الحَـثَّ أو التَّصْدِيقَ أو التَّكْـذِيبَ، مثلَ أنْ يقـولَ: للهِ عليَّ نَذْرٌ أنْ لا أَفْعَلَ كذا وكذا، يَحْمِلُهُ على ذلك أنَّهُ يريدُ الامْتناعَ، ما أرادَ النَّذْرَ لكنْ أرادَ معنى اليمينِ، فهذا يُخَيَّرُ بين فِعْلِهِ إنْ كان فِعْلًا أو تَرْكِهِ إنْ كان تَرْكًا وبين كفَّارةِ اليمينِ، مِثالُهُ أنْ يقولَ: للهِ عليَّ نَذْرٌ لا أَلْبَسُ هذا الثَّوْبَ، نقولُ: أنت الآنَ بالخيارِ إن شِئْتَ تَلْبَسُهُ وكَفِّرْ كفَّارةَ اليمينِ وإنْ شِئْتَ لا تَلْبَسُهُ ولا كَفَّارَةَ عليك.

الرَّابعُ: النَّذْرُ المُطْلَقُ يعنـي ليس في شيءٍ مُحَدَّدٍ، كأنْ يقولَ: للهِ عليَّ نَذْرٌ فقط فهذا عليه كَفَّارةُ يمينٍ؛ لقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ إِذَا لَمْ يُسَمَّ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»[1]. والحاصلُ: أنَّهُ لا يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَنْذُرَ، فالخيْرُ يَأْتِي بدونِ نَذْرٍ والقضاءُ لا يُرَدُّ بالنَّذْرِ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَلَا يَرُدُّ قَضَاءً».

وكم مِنْ أُناسٍ الآن يَسْأَلُونَ: نَذَرْتُ إنْ شَفَى اللهُ مَريضي لَأَصُومَنَّ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ! نقولُ: مَنْ حَثَّكَ على هذا فإنْ شَفى اللهُ مريضَهُ لَزِمَهُ أنْ يَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ. وبعضُ النَّاسِ يقولُ: نَذَرْتُ إنْ شَفَى اللهُ مَرِيضي أنْ أَذْبَحَ سَبْعًا من الإبِلِ -أَعُوذُ باللهِ- إنْ شَفَـى اللهُ مَريضَهُ لَزِمَـهُ أنْ يَذْبَحَ سَبْعًا منَ الإبِلِ ويَتَصَـدَّقَ بها ولا يَأْكُلَ منها شَيْئًا. نَذَرَ إنْ رَدَّ اللهُ غائِبَهُ أنْ يَذْبَحَ شاةً! ولو ردَّ اللهُ غائِبَهُ وجَبَ عليه أنْ يَذْبَحَ شاةً ويَتَصَدَّقَ بها ولا يَأْكُلَ منها شيئًا. ما الدَّاعي لهذه النُّذُورِ؟ فاتْرُكِ النَّذْرَ، ولكنْ إذا نَذَرْتَ طاعةً وَجَبَ عليْكَ أنْ تَفِيَ بِما نَذَرْتَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

الجُملةُ الرَّابعةُ: أنَّ لَعْنَ المُؤْمِنِ كقَتْلِهِ، يعني إذا قلت للمُؤْمِنِ: لَعَنَكَ اللهُ فكأنَّما قَتَلْتَهُ؛ لأنَّ اللَّعْنَ هو الطَّرْدُ والإبْعادُ عن رَحْمةِ اللهِ، ومَنْ طُرِدَ وأُبْعِدَ عن رَحْمةِ اللهِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب النذور الأيمان، باب ما جاء في كفارة النذر إذا لم يُسمَّ، رقم (١٥٢٨)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صارَ كالمَقْتُولِ الذي عُدِمَ الحياةَ الدُّنْيا فإنَّ ذاك المَطْرُودَ المُبْعدَ عن رَحْمةِ اللهِ حُرِمَ حياةَ الآخِرةِ. والقَتْلُ يُحْرَمُ به المَقْتُولُ منَ الحياةِ الدُّنْيا.

واعْلَمْ أنَّ لَعْنَ المُؤْمِنِ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، وأنَّهُ لا يَحِلُّ، وأنَّ مَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فإنَّ اللَّعْنةَ تَذْهَبُ إلى المَلْعونِ إنْ كان أهْلًا لها فقدِ اسْتَحَقَّها، وإنْ لم يَكُنْ أهْلًا لها رَجَعَتْ إلى قائِلِها -والعياذُ باللهِ- فصارَ هو المَلْعُونَ المَطْرُودَ عن رَحْمةِ اللهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٥٤ - وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ[1]، وقالا: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١٥٥٥ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ المُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيِّ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[2]، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ».

١٥٥٦ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ العَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا، صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّماءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّماءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُهَا دُونَها، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمينًا وَشِمالًا، فَإِذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فإنْ كَانَ أَهْلًا لِذلِكَ، وإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب النهي عن اللعن، رقم (٤٩٠٦)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٥)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم (١٩٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في اللعن، رقم (٤٩٠٥).

١٥٥٧ - وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا رسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَامْرأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ، فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» قَالَ عِمْرانُ: فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ. رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

١٥٥٨ - وَعَنْ أَبِي بَرْزَةَ نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ القَوْمِ إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَتَضَايَقَ بِهِمُ الجَبَلُ فَقَالَتْ: حَلِ، اللَّهُمَّ الْعَنْهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ». رَواهُ مُسْلِمٌ[2].

قَوْله: «حَلْ» بفَتْحِ الحاءِ المُهْملةِ وَإِسْكانِ اللَّامِ: وَهِيَ كَلِمَةٌ لِزَجْرِ الإِبِلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ قَدْ يُسْتَشكَلُ مَعْنَاهُ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، بَلِ المُرَادُ النَّهْيُ أَنْ تُصَاحِبَهُمْ تِلْكَ النَّاقَةُ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ بَيْعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِي غَيْرِ صُحْبَةِ النبيِّ ﷺ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جائِزٌ لا مَنْعَ مِنْهُ، إِلَّا مِنْ مُصَاحَبَتِهِ ﷺ بِهَا؛ لأَنَّ هذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلَّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَعْضٌ مِنْهَا، فَبَقِيَ البَاقِي عَلَى مَا كَانَ، واللهُ أَعْلَمُ.

الشَّرح

تلك أحاديثُ ساقَها الحافِظُ النَّـوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في التَّحْذيرِ منَ اللَّعْـنِ، فمنها حديثُ سَمُرةَ بنُ جُنْدُبٍ أنَّ النَّبِـيَّ ﷺ قال: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ، وَلَا بِغَضَـبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ». يعني لا يَلْعَنْ بَعْضُكُم بعضًا بلَعْنةِ اللهِ، فيقولُ لصاحِبِهِ: لعَنَكَ اللهُ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٥).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم (٢٥٩٦).

ولا بِغَضَبِهِ، فيقولُ: غَضِبَ اللهُ عليك، ولا بالنَّارِ فيقولُ: أَدْخَلَكَ اللهُ النَّارَ، كُلُّ هذا حَذَّرَ منه النَّبِيُّ ﷺ لأَنَّهُ قد يُقالُ لِمَنْ لا يَسْتَحِقُّهُ.

وكذلك حديثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلَا باللَّعَّانِ، وَلَا بالفَاحِشِ، وَلَا بالبَذِيِّ» وهذا يَدُلُّ على أَنَّ هذه الأُمورَ نَقْصٌ في الإيمانِ، وأَنَّها تَسْلُبُ عنِ المُؤْمِنِ حَقيقةَ الإيمانِ وكمالَ الإيمانِ، فلا يَكُونُ طَعَّانًا يَطْعَنُ النَّاسَ بأَنْسابِهِمْ أو بأَعْراضِهِمْ أو بشَكْلِهِمْ وهَيْئاتِهِمْ. ولا باللَّعَّانِ الذي ليس له هَمٌّ إِلَّا اللَّعْنةُ. كُلُّ كَلِمةٍ يقولُ معها: لَعَنَكَ اللهُ، قُلْ كذا لَعَنَكَ اللهُ، لماذا تقولُ كذا، أو يقولُ لأولادِهِ: لَعَنَكُمُ اللهُ هاتوا هذا، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فالمُؤْمِنُ ليس باللَّعَّانِ ولا بالفاحِشِ الذي يَفْحُشُ في كلامِهِ بصُراخٍ أو نحو ذلك ولا بالبَذِيِّ الذي يَعْتَدِي على غيرِهِ، فالمُؤْمِنُ مُؤْمِنٌ مُسالِمٌ ليس عنده فُحْشٌ في قولِهِ ولا في فِعْلِهِ ولا غير ذلك؛ لأَنَّهُ مُؤْمِنٌ.

وكذلك حديثُ أبي الدَّرْداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ العَبْدَ إذا لَعَنَ شخصًا أو شيئًا منَ الأَشْياءِ، صَعِدَتِ اللَّعْنةُ إلى السَّماءِ فتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّماءِ دُونَها، ثم تَهْبِطُ إلى الأَرْضِ فتُغْلَقُ أَبْوابُ الأَرْضِ دُونَها، ثم تَذْهَبُ يَمِينًا وشِمالًا، ثم تَرْجِعُ إلى الذي لُعِنَ فإِنْ كان أَهْلًا لها فقدِ اسْتَحَقَّهَا، وإِلَّا رَجَعَتْ إلى قائِلِها.

وهذا وَعيدٌ شَديدٌ على مَنْ لَعَنَ مَنْ ليس أهلًا لِلَّعْنِ فإِنَّ اللَّعْنةَ تَتَجَوَّلُ في السَّماءِ والأَرْضِ واليمينِ والشِّمالِ ثم تَرْجِعُ في النِّهايةِ إلى قائِلِها إذا لم يَكُنِ المَلْعونُ أَهْلًا لها.

ثم ذَكَرَ حديثَ عِمْرانَ بنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً كانت على بعيرٍ لها فضَجِرَتْ منها وتَعِبَتْ وسَأَمَتْ ولَعَنَتْها، قالت: لَعَنَكِ اللهُ، فسَمِعَ ذلك النَّبِيُّ ﷺ

فأمَرَ أنْ يُؤْخَذَ ما عليها من الرَّحْلِ والمَتاعِ وتُعَرَّى -يعني البَعِيرَ- ثم تُصْرَفُ، قال: فلقدْ رَأَيْتُها في النَّاسِ لا يَتَعَرَّضُ لها أحدٌ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ أنْ تُتْرَكَ.

وهذا مِن بابِ تَعْزِيرِ هذه المَرْأةِ أنْ تَلْعَنَ دابَّةً لا تَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ؛ ولهذا قال: «لَا تُصَاحِبْنَا دَابَّةٌ مَلْعُونٌ» لأنَّ هذه المَرْأَةَ لَعَنَتْها، والمَلْعُونُ لا يَنْبَغِي أنْ يُسْتَعْمَلَ، فلِذَلكَ نَهى النَّبِيُّ ﷺ عنها وتَرَكَها فيكونُ هذا تَعْزِيرًا للمَرْأةِ التي لَعَنَتْ هذه الدَّابَّةَ وهي لا تَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦٥- بابُ جَوَازِ لَعْنِ أصْحابِ المَعاصي غَيْرِ المُعَيَّنِينَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨]، وقال تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوْصِلَةَ»(١)، وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبَا»(٢)، وأَنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرِينَ(٣).

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى لَمَّا ذَكَرَ تَحْرِيمَ ذِكْرِ المُعَيَّنِ وأَنَّهُ لا يَجُوزُ أنْ تَلْعَنَ شَخْصًا مُعَيَّنًا ولو كان كافِرًا ما دام حَيًّا؛ لأَنَّك لا تَدْرِي فلَعَلَّ اللهَ أنْ يَهْدِيَهُ عَزَّوَجَلَّ فيعودَ إلى الإسْلامِ إنْ كان مُرْتَدًّا أو يُسْلِمَ إنْ كان كافرًا أَصْلِيًّا.

ذكَرَ بعد ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ بابًا في جوازِ لَعْنِ أصْحابِ المَعاصِي على سَبِيلِ العُمومِ إذا كان ذلك لا يَخُصُّ شخصًا بِعَيْنِهِ، ثم اسْتَدَلَّ بآياتٍ وأحاديثَ رَحِمَهُ اللَّهُ منها قولُ اللهِ تَعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨]. وقولُهُ تَعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤]. وعلى هذا فيجوزُ أنْ تقولَ: اللَّهُمَّ الْعَنِ الظَّالِمِينَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب وصل الشعر، رقم (٥٩٣٤)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة...، رقم (٢٢١٢)، من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٠٨).

على سَبِيلِ العُمومِ، وليس شَخْصًا واحدًا مُعَيَّنًا، فيَشْمَلُ كُلَّ ظالِمٍ، وكذلك ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَعَنَ الواصِلةَ والمُسْتَوْصِلةَ وهذا في النِّساءِ.

الواصِلةُ: التي تَصِلُ الشَّعَرَ بشَعَرٍ آخَرَ حتَّى يُرَى شَعَرُها وكأَنَّهُ طَوِيلٌ أو كأَنَّهُ ثخينٌ، يعني: مُنْتَشِرٌ.

والمُسْتَوْصِلةُ: التي تَطْلُبُ مَنْ يَصِلُ هذا.

فهاتانِ امْرأتانِ مَلْعُونتانِ على لِسانِ الرَّسُولِ ﷺ الوَاصِلةُ والمُسْتَوْصِلةُ، لكنْ لو رَأَيْتَ امْرأةً مُعَيَّنَةً تَصِلُ امْرَأَةً مُعَيَّنَةً أو تَطْلُبُ مَنْ يَصِلُ شَعَرَ رَأْسِها فلا يجوزُ أنْ تَلْعَنَ هذه المُعَيَّنَةَ.

وكذا نَشْهَدُ لكُلِّ من قُتِلَ شَهِيدًا أَنَّهُ في الجَنَّةِ عُمومًا، لكنْ لو قُتِلَ إنْسانٌ مُعَيَّنٌ في المَعْركةِ في جِهادٍ في سَبِيلِ اللهِ فلا نَقُلْ: هذا الرَّجُلُ شَهِيدٌ بعَيْنِهِ أو نَشْهَد أَنَّهُ في الجَنَّةِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ في الجَنَّةِ لها شَأْنٌ آخَرُ، وكذلك لَعْنُ المُعَيَّنِ له شَأْنٌ آخَرُ.

وضَرَبَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أمْثلةً لذلك، منها: لَعْنُ اللهِ مَنْ غَيَّرَ منارَ الأَرْضِ، يعني حُدُودَها؛ وذلك إذا أدْخَلَ شَيْئًا من أرْضِ جارِهِ إلى أرْضِهِ، فهذا مَلْعُونٌ على لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ وهو مع كوْنِهِ مَلْعُونًا -والعياذُ باللهِ- سوفَ يُكَلَّفُ يَوْمَ القِيامةِ بأنْ يَحْمِلَ ما أدْخَلَ من أرْضِ جارِهِ على عُنُقِهِ من سَبْعِ أَرَضِينَ، قال ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ القِيامةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1]. نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، ونعوذُ باللهِ منَ الخِزْيِ والعارِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم(٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب ا لأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك أيضًا لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ لَعَنَ وَالدَيْهِ، إذا قال لوالدِهِ، أو لأُمِّهِ: لَعَنَكِ اللهُ أو عليكِ لَعْنةُ اللهِ فإنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلَعْنةِ اللهِ؛ لأنَّ الوالديْنِ حَقُّهُما البِرُّ والإحْسانُ ولِينُ القَوْلِ، فإذا لَعَنَهُما -والعياذُ باللهِ- اسْتَحَقَّ اللَّعْنةَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ»[1] فيجوزُ أنْ تقولَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ لَعَنَ والِدَيْهِ.

وكذلك المُصَوِّرُونَ فيُمْكِنُ أنْ تقولَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ كُلَّ مُصَوِّرٍ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ المُصَوِّرينَ، وهكذا الأحاديثُ التي ذكَرَها المُؤَلِّفُ، فيُفَرَّقُ بين العامِّ والخاصِّ، العامُّ لا يَخُصُّ أحدًا بعينِهِ، والخاصُّ هو أنْ يَخُصَّ أحدًا بعينِهِ، فتَخْصِيصُ أحدٍ بعينِهِ باللَّعْنِ هذا حرامٌ ولا يجوزُ، أمَّا على سَبِيلِ العُمومِ فلا بَأْسَ. ويأْتِي إنْ شاءَ اللهُ الكَلامُ على بَقِيَّةِ الأحاديثِ التي مَثَّلَ بها المُؤَلِّفُ، واللهُ أعلمُ.

وهذه الأحاديثُ التي ذكَرَها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لبيانِ جَوازِ لَعْنِ أهْلِ المعاصي غيْرِ المُعَيَّنِينَ، وقد سَبَقَ في البابِ الذي قبْلهُ أنَّهُ لا يجوزُ لَعْنُ المُعَيَّنِ ولو كان كافرًا، أمَّا غيرُ المُعَيَّنِ بأنْ يَلْعَنَ الإنْسانُ مِنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفةِ فهذا لا بَأْسَ به، فقد ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ لَعَنَ الواصِلةَ والمُسْتَوْصِلةَ، الوَاصِلةُ هي التي تَصِلُ الشَّعَرَ، والمُسْتَوْصِلةُ هي التي تَطْلُبُ مَنْ يَصِلُهُ، يعني بأنَّ المَرْأَةَ يكونُ شَعَرُها قصِيرًا وقليلًا فتُضِيفُ إليه شيئًا من الشَّعَرِ؛ لأجْلِ أنْ يكونَ طويلًا عندما يراهُ النَّاسُ وكثيفًا، فعَلَنَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ فعلتْ ذلك، وبعضُ الأحاديثِ حتَّى ولو كان شَعَرُها قليلًا جدًّا فإنَّهُ لا يجوزُ لها ذلك، ومن هذا ما يُسَمَّى بـ(الباروكةِ) فإنَّ بعضَ عُلمائِنا المُحَقِّقينَ قالوا:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إنَّ لُبْسَ الباروكةِ من الوَصْلِ، وأنَّ التي تَلْبَسُ الباروكةَ ولو للتَّجَمُّلِ مَلْعُونةٌ -والعياذُ باللهِ- وهل يَلْحَقُ بذلك ما يُسَمَّى بالعدساتِ المُلَوَّنةِ التي تَلْبَسُها بعضُ النِّساءِ؟ رُبَّما يُقالُ: إنَّهُ يُلْحَقُ بذلك لأنَّ المَرْأَةَ تَضَعُ شيئًا يُجَمِّلُ عَيْنَها، كأنَّها عَيْنُ إنسانةٍ أُخْرى، إمَّا حمراءُ أو خضراءُ وما أَشْبَهَ ذلك، فالاحتياطُ أنْ يُقالَ: إنَّها تُلْحَقُ بذلك؛ لأنَّهُ لا فَرْقَ بينها وبين الشَّعَرِ.

فإنْ قال قائِلٌ: هذا مِثْلُ الكُحْلِ لا تَثْبُتُ.

قلنا: وكذلك وصْلُ الشَّعَرِ لا يَثْبُتُ؛ فلهذا أَخْشَى أنْ تكونَ هذه العَدساتُ المُلَوَّنةُ من جِنْسِ الوَصْلِ. ثم إنَّهُ قد ذُكِرَ أنَّهُ ثَبَتَ من الناحيةِ الطِّبِّيَّةِ أنَّها مُضِرَّةٌ بالعينِ، وإن كان ضَرَرُها لا يُرَى على المَدَى القصيرِ، لكنْ يُرى على المَدَى الطَّوِيلِ[1].

قال: وثَبَتَ أنَّهُ لَعَنَ آكِلَ الرِّبا، يعني ومُوكِلَهُ. وقد لَعَنَ الرَّسُولُ ﷺ في الرِّبا خَمْسَةً:

آكِلَهُ: وهو الذي يَأْخُذُ الرِّبا.

مُوكِلَهُ: وهو الذي يُعْطِي الرِّبا.

---

(١) وقد سُئل فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العدسات اللاصقة في العينين سواء كانت طبية أو تجميلية أو هما معًا وسواء كان ذلك للرجال أو للنساء.

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشرط الوحيد في هذه المسألة أنه لا بد من مراجعة الطبيب لينظر هل وضعها على العين يضر بها أم لا؟ إن ثبت أنه يضر بها فلا يجوز وضعها؛ لأن الضرر ممنوع شرعًا، وإن ثبت أنه لا يضرها نظرنا، فإن كانت للتجميل فإنه لا يجوز للرجال أن يفعلوا ذلك، فإنهم في غنى عن تجميل صورهم وأشكالهم، وأما النساء فلا بأس أن يضعنها للتجميل؛ لأن هذه العدسة اللاصقة ليست من جنس الوشم الثابت الدائم؛ لأنه يمكن إزالتها في أي وقت كان، وإن كانت هذه العدسات طبية وغير ملونة فلا بأس باستعمالها للرجال والنساء.

(انظر: فتاوى نور على الدرب-فتوى رقم ٥٦٢٥)

وشَاهِدَيْهِ: وهما اللَّذانِ يَشْهدانِ به.

وكاتِبَهُ: الذي يَكْتُبُ بين المُرابينَ.

كُلُّ هَؤُلاءِ مَلْعونونَ على لسانِ الرَّسُولِ ﷺ لكنْ لا يَجُوزُ إذا رَأَيْتَ شخصًا يَبِيعُ بالرِّبا أنْ تقولَ: لَعَنَكَ اللهُ. بل تقولُ على سَبِيلِ العُمومِ: لَعَنَ اللهُ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَهُ وشَاهِدَيْهِ وكاتِبَهُ؛ لأنَّ هناك فَرْقًا بين التَّعْيِينِ وبين التَّعْمِيمِ. فالتَّعْميمُ لا بَأْسَ به لكنَّ التَّخْصِيصَ لا يجوزُ.

وكذلك ثَبَتَ عنه أنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرينَ، لكنْ ليس كُلَّ مُصَوِّرٍ بل المرادُ مَنْ صَوَّرَ ما فيه رُوحٌ، إذا صوَّرَ الإنْسانُ ما فيه رُوحٌ كالآدمِيِّ والحيوانِ فإنَّهُ حرامٌ عليه لا يجوزُ، بل هو ملعونٌ على لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ فلك أنْ تقولَ: اللَّهُمَّ الْعَنِ المُصَوِّرينَ. لكنْ لا تَقُلِ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا ولو كان يُصَوِّرُ؛ لأنَّهُ مَخْصوصٌ، فالتَّعْيينُ لا يجوزُ.

ثم إنَّ الصُّورَ التي تَحْرُمُ هي الصُّورةُ التي مِثْلُ التِّمثالِ، يعني يَصْنَعُ إنسانًا من العَجِينِ أو منَ الجِبْسِ أو الجِصِّ أو غيْرِها من الموادِّ، يَصْنَعُ شيئًا على صُورةِ إنْسانٍ أو حيوانٍ، فهذا حرامٌ، وأمَّا الأشْجارُ وشِبْهُها فإنَّهُ لا بَأْسَ به على القَوْلِ الرَّاجِحِ الذي عليه جُمْهورُ العُلَماءِ، وأمَّا ما يَصْنَعُهُ الإنْسانُ فلا بَأْسَ به قَطْعًا، مثلَ أنْ يُصَوِّرَ سيَّارةً أو ما أَشْبَهَ ذلك، واختلفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في التَّصْوِيرِ باللَّوْنِ على ورقةٍ أو على خِرْقةٍ أو ما أَشْبَهَ ذلك.

منَ العُلَماءِ مَنْ قال: لا بَأْسَ به، واحْتَجُّوا بحديثِ زيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنِيِّ، وهو أنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «إِنَّ المَلائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ... إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللباس الزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة، رقم (٢١٠٦)، من حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فقالوا: إلَّا رَقْمًا في ثَوْبٍ هذه الصُّـورةُ التي تُرْسَمُ باليدِ على ورقةٍ أو على ثَوْبٍ وما أَشْبَهَ ذلك.

لكنَّ الصَّحيحَ أَنَّهُ لا يجـوزُ حتَّى الرَّقْمُ في الثَّـوْبِ أو في الورقةِ، لا يجـوزُ أنْ تُصَوِّرَ صُورةً بيدِكَ. وأمَّا الصُّورةُ بالآلةِ الفُوتوغرافيَّةِ فقد تَقَدَّمَ الكَلامُ عليها[١].

وثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ»[٢] أيْ حُدُودَهَا، وأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ»[٣]، وأَنَّهُ قَالَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ»[٤].

الشَّـرْح

مثلَ أنْ يكونَ الإنْسانُ له جارٌ، فيَأْتي من أرْضِ جارِهِ على أرضِهِ فيُوَسِّعُ أرْضَهُ ويُضَيِّقُ أرْضَ جارِهِ، فهذا مَلْعُونٌ، لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ وقد ثَبَتَ عنه ﷺ: «أَنَّ مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٥]، وإذا كان هذا فيمَنْ غيَّرَ حُدودَ الأرْضِ يعني المراسيمَ. فكيفَ بمَنْ أَخَذَ الأرْضَ كُلَّها واجْتاحها

(١) انظر: (ص:٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب لعن السارق...، رقم (٦٧٨٣)، ومسلم: كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، رقم (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم(٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

-والعياذُ باللهِ- فهو أَوْلَى باللَّعْنِ والطَّرْدِ عن رَحْمةِ اللهِ، كما يُوجَدُ أُناسٌ يَعْتدونَ على أراضي غيْرِهم يَأْخُذُونها بالباطِلِ، ويَدَّعونَ أنَّها لهم ورُبَّما يَأْتُونَ بشُهودِ زُورٍ يَشْهَدُونَ لهم فيُحْكَمُ لهم بذلك فيَدْخُلونَ في اللَّعْنِ، ويومَ القِيامةِ يَأْتُونَ بها مُطَوَّقينَ بها في أعْناقِهِمْ -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ- أمامَ عِبادِ اللهِ.

ومن ذلك أنَّ النَّبِيَّ ﷺ «لَعَنَ السَّارِقَ يَسْرِقُ البَيْضَةَ فتُقْطَعُ يَدُهُ، ويَسْرِقُ الحَبْلَ فتُقْطَعُ يَدُهُ»[1]، والسَّارِقُ هو الذي يَأْخُذُ المالَ بخُفْيةٍ من حِرْزِ مِثْلِهِ. مثلَ أنْ يَأْتِيَ بالليلِ أو في غَفْلةِ النَّاسِ فيَفْتَحُ الأبْوابَ ويَسْرِقُ، هذا السَّارِقُ إذا سَرَقَ نِصابًا وهو رُبُعُ دِينارٍ أو ما يُساوِيهِ من الدَّراهِمِ أو المتاعِ فإنَّهُ تُقْطَعُ يَدُهُ اليُمْنى من مَفْصِلِ الكفِّ؛ لقَولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

ولا فَرْقَ بين أنْ يَكُونَ السَّارِقُ شريفًا أو وضيعًا أو ذَكَرًا أو أُنْثى؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ بقَطْعِ يدِ المَرْأةِ المَخْزُومِيَّةِ التي كانت تَسْتَعِيرُ المَتاعَ فتَجْحَدُهُ، فأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ تُقْطَعَ يَدُهَا. فأهَمَّ قُرَيْشًا ذلك، وطلَبُوا مَنْ يَشْفَعُ لها إلى الرَّسُولِ ﷺ فطَلَبُوا من أُسامةَ بنِ زَيْدٍ أنْ يَشْفَعَ برَفْعِ العُقوبةِ عنها، فاخْتَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ وقال: «إنَّما أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الوَضِيعُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وايْمُ اللهِ لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[2] فأقْسَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّهُ لو سَرَقَتِ ابْنَتُهُ فاطِمةُ -أشْرَفُ النِّساءِ نَسَبًا- لَقَطَعَ يَدَها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب لعن السارق...، رقم (٦٧٨٣)، ومسلم: كتاب الحدود، باب حد السرقة ونصابها، رقم (١٦٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٧٥)، ومسلم كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، رقم (١٦٨٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولكنَّ هذا الحديثَ الذي أشارَ إليه الحافِظُ النَّـوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: «يَسْرِقُ البَيْضَةَ». والبَيْضةُ لا تَبْلُغُ نِصابَ السَّرِقةِ؛ لأنَّ نِصابَ السَّرِقةِ رُبُعُ دِينارٍ فكيفَ قال يَسْرِقُ البَيْضةَ فتُقْطَعُ يَدُهُ ويَسْرِقُ الحَبْلَ فتُقْطَعُ يَدُهُ؟

قال بعضُ العلماءِ: إنَّ المرادَ بالبَيْضةِ هنا بَيْضَةُ الرَّأْسِ التي يَجْعَلُها الإنْسانُ عند القِتالِ على رَأْسِهِ تَقِيهِ السِّهامَ، وهي مُثَمَّنةٌ تُساوي رُبُعَ دينارٍ أو أكْثَرَ، والمرادُ بالحَبْلِ حَبْلُ السُّفُنِ الذي تُرْبَطُ به في المَرْسَى حتَّى لا تَأْخُذُها الأمْوَاجُ وهو أيضًا ذو قيمةٍ.

وقال بعضُ العُلماءِ: المرادُ بالبَيْضةِ بَيْضةُ الدَّجاجةِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أطْلَقَها، والبَيْضةُ عند الإطْلاقِ لا يُفْهَمُ منها إلَّا بَيْضةُ الدَّجاجةِ. والحَبْلُ هو الحَبْلُ الذي يُرْبَطُ به الحَطَبُ، وما أَشْبَهَ ذلك.

ولكنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «تُقْطَعُ يَدُهُ» لأنَّهُ إذا اعتادَ سَرِقَةَ الطَّفِيفِ تَجَرَّأَ على سَرِقَةِ الغالي والمُثَمَّنِ، فقُطِعَتْ يَدُهُ. وهذا أقْرَبُ إلى الصَّوابِ أنَّ السَّارِقَ -والعياذُ باللهِ- إذا سَرَقَ الشَّيْءَ اليسيرَ تَجَرَّأَ فَسَرَقَ الشَّيْءَ الكبيرَ فتُقْطَعُ يَدُهُ.

الثَّالثُ: قال إنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «لَعَنَ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ» سواءً كانتِ الأُمَّ أو الأبَ. يقولُ لأبيهِ: لَعْنةُ اللهِ عليكَ أو لأُمِّهِ، ولكنَّ الصَّحابةَ قالوا: يا رَسُولَ اللهِ أَيَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ هذا أمْرٌ لا يُمْكِنُ، قال ﷺ: «نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»[1]. يعني يَتنازَعُ اثنانِ، فيقولُ أحَدُهما للآخَرِ: لَعَنَ اللهُ والِدِيْكَ، فيقولُ الثاني: بل أنت لَعَنَ اللهُ والِدِيْكَ، فلمَّا كان هو السَّبَبَ في أنْ يَلْعَنَ الآخَرُ والدَيْهِ، أُعْطِيَ حُكْمَ مَنْ لَعَنَ والِدَيْهِ مُباشرةً، فهذانِ الشَّخصانِ لعَنَهُما الرَّسُولُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكنْ هل يُمْكِنُ أنْ تَأْتِيَ لشَخْصٍ مُعَيَّنٍ غيَّرَ حُدودَ الأرْضِ تقولُ: لَعَنَكَ اللهُ؟

الجواب: لا، لا يجوزُ أنْ تَلْعَنَهُ وهو مُعَيَّنٌ، أو سَمِعْتَ إنْسانًا يَلْعَنُ والِدَيْهِ تقولُ: لَعَنَكَ اللهُ هذا حرامٌ لكنْ تقولُ له: اتَّقِ اللهَ؛ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَعَنَ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرْضِ، وتقولُ للثَّاني السَّارِقِ: اتَّقِ اللهَ؛ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَعَنَ السَّارقَ يَسْرِقُ البَيْضةَ ويَسْرِقُ الحَبْلَ، وتقولُ للثالِثِ: اتَّقِ اللهَ، لا تَلْعَنْ والِدَيْكَ، ولا تَكُنْ سَببًا في لَعْنِهما؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ لَعَنَ والِدَيْهِ. أمَّا أنْ تَنُصَّ عليه فتقولَ: لَعَنَكَ اللهُ أو أنت مَلْعُونٌ، فهذا حرامٌ ولا يجوزُ؛ لأنَّهُ فَرْقٌ بين العامِّ وبين الخاصِّ كما سَبَقَ ذِكْرُهُ، واللهُ المُوَفِّقُ.

وَ«لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[1]، وَأَنَّه قَالَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[2]، وأَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ العَنْ رِعْلًا، وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ: عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ»[3] وهذِهِ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ العَرَبِ.

الشَّرح

هَؤُلاءِ ثلاثةُ أنْواعٍ ممَّنْ يجوزُ لَعْنُهُمْ على سبيلِ العُمومِ، وقدْ سَبَقَ أنَّهُ لا يجوزُ لَعْنُ المُعَيَّنِ ولو كان كافِرًا؛ لأنَّهُ لا يجوزُ أنْ تقولَ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا، وإنْ كان كافِرًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ثم من آوى محدثًا، رقم (٧٣٠٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبيِّ ﷺ، رقم (١٣٦٦)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت، رقم (٦٧٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكنْ على العُمومِ وَرَدَتْ أحاديثُ في أصْنافٍ مُتَعدِّدةٍ سَبَقَ منها ما سَبَقَ، ويَلْحَقُ منها ما يَلْحَقُ إنْ شاءَ اللهُ، ومن ذلك قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ» وذلك أنَّ الذَّبْحَ لغيْرِ اللهِ شِرْكٌ؛ لأنَّهُ عبادةٌ، والعِبادةُ إذا صَرَفَهَا الإنْسانُ لغيرِ اللهِ كان مُشْرِكًا. قال اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]. وقال تَعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]. فأمَرَ بالصَّلاةِ وأمَرَ بالنَّحْرِ وأنَّ ذلك للهِ عَزَّوَجَلَّ، فكما أنَّ مَنْ صَلَّى لغَيْرِ اللهِ فهو مُشْرِكٌ، فمَنْ ذَبَحَ لغَيْرِ اللهِ فهو مُشْرِكٌ، وهذا إذا وَقَعَ الذَّبْحُ عِبادةً وتَقَرُّبًا وتَعْظِيمًا، أمَّا إذا وقَعَ الذَّبْحُ لغَيْرِ اللهِ على سبيلِ الإكْرامِ، كإكْرامِ الضَّيْفِ مثلًا، لو نَزَلَ بك ضَيْفٌ فذَبَحْتَ له ذبيحةً من أجْلِ أنْ تُقَدِّمَها له لِيَأْكُلَها فلا بَأْسَ، بل هذا مِمَّا يُؤْمَرُ به؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1]. وتارةً يُرِيدُ أنْ يأكُلَ لَحْمًا فذَبَحَ ذَبِيحةً يُرِيدُ بها الأكْلَ، هذا أيضًا ليس بشِرْكٍ، لكنَّ الشِّرْكَ إذا ذَبَحَ تَعَبُّدًا وتَقَرُّبًا وتَعْظِيمًا لغيْرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، مثلُ ما يَفْعَلُ بعضُ النَّاسِ لِمُلوكِهِمْ أو رُؤسائِهِمْ أو عُلمائِهِمْ، إذا أقْبَلَ ذَبَحُوا الذَّبِيحةَ بوَجْهِهِ إكْرامًا وتعظيمًا. هذا شِرْكٌ أكْبَرُ مُخْرِجٌ عنِ المِلَّةِ، وهذا مع كَوْنِهِ شِرْكًا حرَّمَ اللهُ على فاعِلِهِ الجَنَّةَ ومأواهُ النَّارُ وما للظَّالمينَ من أنْصارٍ، هو أيضًا مَلْعُونٌ فاعِلُهُ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

ومنَ الأحاديثِ أيضًا ما ذَكَرَهُ بقولِهِ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ» من أحْدَثَ فيها، أيْ في المدينةِ «حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا» والحَدَثُ هنا يُرادُ به شَيْئانِ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته، رقم (٦١٣٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الضيف، رقم (٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأوَّلُ: البِدْعةُ: فمَنِ ابْتَدَعَ فيها بِدْعةً فقد أحْدَثَ فيها؛ لقَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[1]. فمَنْ أحْدَثَ فيها حَدَثًا أي ابْتَدَعَ في دِينِ اللهِ ما لم يَشْرَعْهُ اللهُ في المدينةِ فعليه لَعْنةُ اللهِ والملائِكةِ والنَّاسِ أجْمعينَ، يعني اسْتَحَقَّ أنْ يَلْعَنَهُ كُلُّ لاعِنٍ، والعياذُ باللهِ؛ لأنَّ المدينةَ مدينةُ السُّنَّةِ، مدينةُ النُّبُوَّةِ، فكيفَ يُحْدَثُ فيها حَدَثٌ مُضادٌّ لسُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ.

والنَّوْعُ الثاني: الفِتْنةُ: أنْ يُحْدِثَ فيها فِتْنةً بين المُسْلِمينَ، سواءً أدَّتْ إلى إراقةِ الدِّماءِ أو إلى ما دون ذلك منَ العَداوةِ والبَغضاءِ والتَّشتُّتِ. فإنَّ مَنْ أحْدَثَ هذا الحَدَثَ فعليه لَعْنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجْمعينَ، أمَّا مَنْ أحْدَثَ مَعْصِيةً، عصى اللهَ فيها -في المدينةِ- فإنَّهُ لا يَنْطَبِقُ عليه هذا الوعيدُ، بل يقالُ: إنَّ السَّيِّئَةَ في المدينةِ أعْظَمُ منَ السَّيِّئةِ فيما دُونها ولكنَّ صاحِبَها لا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ، وإنَّما الذي يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ هو الذي أحْدَثَ فيها واحدًا من أمْرَيْنِ: إمَّا بِدْعةً وإما فِتْنةً. هذا عليه لَعْنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجْمعينَ.

الحديثُ الثالثُ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ رِعْلًا، وَذَكْوَانَ، وعُصَيَّةَ: عَصَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ» هَؤُلاءِ قبائلُ منَ العربِ وقَعَ منهم عُدْوانٌ على أصْحابِ النَّبيِّ ﷺ فدَعى عليهم الرَّسُولُ ﷺ باللَّعْنةِ، اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ، ولم يَلْعَنْ شَخْصًا مُعَيَّنًا، بل لَعَنَ القبيلةَ كُلَّها، والمرادُ مَنْ حَدَثَ منهم هذا الحَدَثُ، وهو الاعتداءُ على أصْحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ولا أظُنُّ أنَّ مَنْ لم يَفْعَلْ ذلك تَلْحَقُهُ هذه اللَّعْنةُ؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥]. واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأنَّه قَالَ: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(١)]، وأنهُ «لَعَنَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّساءِ والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجالِ»[(٢)].

وَجَميعُ هـذِهِ الألْفاظِ في الصَّحِيحِ؛ بعضُها في صَحِيحَـيِ البُخارِيِّ ومُسْلِمٍ، وبعْضُها في أحَدِهِما، وإنَّما قَصَدْتُ الاختِصَارَ بالإشارةِ إلَيْهِما، وسأَذْكُرُ مُعْظَمَها في أبْوابِها من هَذَا الكِتابِ، إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

الشَّرْح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَقِيَّةَ الأصْنافِ التي يَجُوزُ الدُّعاءُ عليهم على سَبِيلِ العُمومِ، منها قولُهُ ﷺ: «لَعَنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ والنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» اليَهُودُ هم أتْباعُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والنَّصارى هم أتْباعُ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنْ بعد أنْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وعرَفُوهُ ولم يُؤْمِنُوا به كان حُكْمُهُم سَواءً في أنَّهُم مَغْضُوبٌ عليهم؛ لأنَّهُم تَرَكُوا الحقَّ مع عِلْمِهم به -والعياذُ باللهِ- وبيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ سَبَبَ لَعْنِهِ إيَّاهم في قَوْلِهِ: «اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يعني أنَّهُم يَبْنُونَ المساجِدَ على قُبورِ أنْبيائِهِم ويُصَلُّونَ فيها، فهذا مَنْ فَعَلَهُ فهو مَلْعُونٌ على لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ إنْ كان مِنَ اليَهُودِ أو مِنَ النَّصارَى أو مِمَّنْ يَدَّعِي أنَّهُ مُسْلِمٌ، فإنَّهُ مَلْعُونٌ على لِسانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وإذا بُنِيَ المَسْجِدُ على القبْرِ ولو صَلَّى الإنْسانُ فيه للهِ عَزَّوَجَلَّ لا لصاحِبِ القَبْرِ فإنَّ صلاتَهُ باطِلَةٌ مُحَرَّمَةٌ، يَجِبُ عليه إعادَتُها، وهذا المَسْجِدُ الذي بُنِيَ يَجِبُ هَدْمُهُ ولا تَجوزُ الصَّلاةُ فيه،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٤١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ، رقم (٥٢٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال، رقم (٥٨٨٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمَّا لو كان المَسْجِدُ قائمًا ثم دُفِنَ به أحدٌ من الصَّالِحِينَ أو منَ الأُمَراءِ أو منَ الوُزَراءِ أو منَ الرُّؤساءِ فإنَّهُ يَجِبُ أنْ يُنْبَشَ القَبْرُ وأنْ يُدْفَنَ في المكانِ الذي يُدْفَنُ فيه النَّاسُ ولا يجوزُ إبْقاؤُهُ؛ لأنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لِيُقْبَرَ فيها وإنَّما بُنِيَتْ للصَّلاةِ وذِكْرِ اللهِ وقِراءةِ القُرْآنِ.

وإذا شَكَكْنا هل بُنِيَ المَسْجِدُ أوَّلًا ودُفِنَ فيه المَيِّتُ، أم دُفِنَ المَيِّتُ ثم بُنِيَ عليه المَسْجِدُ؟ فالاحْتياطُ أنْ لا يُصَلِّيَ فيه الإنْسانُ، وأنْ يُبْتَعَدَ عنه؛ لئَلَّا يُعَرِّضَ صلاتَه للخَطَرِ.

فإنْ قال قائِلٌ: ما الجوابُ عن هذا الحديثِ في قِصَّةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فإنَّهُ الآن في المَسْجِدِ.

فالجوابُ أنْ يُقالُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يُدْفَنْ في المَسْجِدِ وإنَّما دُفِنَ في بَيْتِهِ ولم يُبْنَ عليه المَسْجِدُ بلْ كانَ المَسْجِدُ قائِمًا منَ الأوَّلِ، ولكنَّهُمُ احْتاجُوا لزِيادتِهِ فزَادُوهُ من هذا الجانِبِ، أيْ منَ الجانِبِ الَّذِي عنْ يَسارِ مُسْتَقْبِلِ القِبْلةِ، وكأنَّهُم -واللهُ أعْلَمُ- في ذلك الوقتِ لم يَتَيَسَّرْ لهم مكانٌ سِوى هذا فوَسَّعُوا من جِهةِ القِبْلةِ، فبَقِيَ القَبْرُ في مَقْصُورةٍ في البيتِ منْفصلًا عنِ المَسْجِدِ وبيْنَهُما جدارٌ، ثم بَعْدَ أنْ شاءَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُسَلِّطَ رَجُلَيْنِ يُريدانِ أنْ يَسْتَخْرِجا بدَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُحْرِقاهُ أو يَجْعَلاهُ في مُتْحفٍ أو ما لا نَعْلَمُ، وذلك أنَّ أحدَ الخُلَفاءِ جاءَهُ آتٍ في اللَّيْلِ وقال له: أَدْرِكْ رَسُولَ اللهِ ﷺ منَ الرَّجُلَيْنِ الأصْفَرَيْنِ، يعني في عُيُونِهما صُفْرةٌ، فجاءَهُ مرَّةً ومرَّتَيْنِ وثلاثةً، ففَزِعَ الخليفةُ ثم ارْتَحَلَ من بلدِهِ إلى المدينةِ فَزِعًا مُسْرِعًا، فلمَّا وَصَلَ المدينةَ أمَرَ أنْ تُصْنَعَ وَليمةٌ عظيمةٌ، وقال لِوالِيهِ على المدينةِ: ادْعُ لي جَمِيعَ أهْلِ المدينةِ فدَعاهُم، وهذا الخليفةُ يَنْظُرُ في الحاضِرِينَ فلم يَجِدِ الوَصْفَ الذي ذُكِرَ له في المنامِ، ثم أمَرَ أنْ

يَدْعُوَ مرَّةً ثانيةً وثالثةً ولم يَرَ الرَّجُلَيْنِ، فقال لوالِيهِ على المدينةِ: لماذا لم تَدْعُ أَهْلَ المدينةِ؟ قال: كُلَّهُمْ دَعَوْتُهُمْ، لم يَبْقَ إلَّا رَجُلانِ غَرِيبانِ في المَسْجِدِ منذُ جاءَا وهما مُعْتَكِفانِ في المَسْجِدِ، فقال: هاتِهما فجيءَ بهما وإذا هما على الوَصْفِ الذي قِيلَ له في المنامِ، فأمَرَ أنْ يُبْحَثَ عن حالِهما، فإذا هما في اللَّيْلِ يَنْقُبانِ خَنْدقًا من أسْفَلِ الأرْضِ وإذا هما قَرِيبانِ منَ القَبْرِ، فأَمَرَ بقَتْلِهما، ثم أمرَ أنْ يُحْفَرَ إلى القَبْرِ على جوانِبِهِ إلى أنْ وَصَلَ إلى الجَبَلِ ثم صَبَّهُ بالرَّصاصِ وبُنِيَ عليه ثلاثةُ جُدْرانٍ[1]، فأصْبَحَ القَبْرُ مُنْفَرِدًا تمامًا عنِ المَسْجِدِ ليس في المَسْجِدِ ولم يُبْنَ عليه المَسْجِدُ، فهذا هو الجوابُ عمَّا يُشَكِّكُ به أهلُ الشِّرْكِ وأهْلُ القُبُورِ من قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

أمَّا الصِّنْفُ الأخيرُ فقالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّساءِ والمُتَشَبِّهاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجالِ**» والتَّشَبُّهُ يكونُ بالأقْوالِ والأفْعالِ والهيئاتِ واللِّباسِ، فتَجِدُ الرَّجُلَ يَتَشَبَّهُ بالمَرْأَةِ في صَوْتِها، يَحْكِي صَوْتَ المَرْأَةِ ويَتَكَلَّمُ وكأَنَّهُ امرأةٌ، هذا مَلْعُونٌ على لسانِ النَّبِيِّ ﷺ، أو يَتَشَبَّهُ بالمَرْأَةِ في لُبْسِها، يَلْبَسُ الثِّيابَ التي لا يَلْبَسُها إلَّا النِّساءُ، ومن ذلك أنْ يَضَعَ الباروكةَ على رَأْسِهِ كأَنَّهُ امْرَأَةٌ، ومن ذلك أيضًا أن يَلْبَسَ اللُّبْسَ الخاصَّ بالنِّساءِ في الساعاتِ؛ لأنَّ النِّساءَ لهن ساعاتٌ خاصَّةٌ وللرَّجُلِ ساعاتٌ خاصَّةٌ فيَلْبَسُ الرَّجُلُ ساعةَ المَرْأَةِ.

وأمَّا الهيئةُ فأنْ يَضَعَ الحِلْيَةَ والزِّينةَ وإذا قام يَمْشِي كأَنَّهُ امرأةٌ، هذا أيضًا مَلْعُونٌ على لسانِ النَّبِيِّ ﷺ، فالمُهِمُّ أنَّ تَشَبُّهَ الرَّجُلِ بالمَرْأَةِ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، وتَشَبُّهَ المَرْأَةِ بالرَّجُلِ كذلك من كَبائِرِ الذُّنوبِ، بأنْ تَتَشَبَّهَ به في القَوْلِ أيْ في الكلامِ، تَتَكَلَّمُ كما يَتَكَلَّمُ الرِّجالُ في ضَخامةِ الصَّوْتِ ونَبَراتِهِ، أو تَجْعَلُ رَأْسَها كرَأْسِ الرَّجُلِ،

(١) انظر تمام القصة في خلاصة الوفاء بأخبار المصطفى ﷺ للسمهودي (٢/ ١٧٥).

تَقُصُّهُ حتَّى يَرْتَفِعَ عنِ الكَتِفَيْنِ، أو كذلك تَلْبَسُ الثِّيابَ والساعاتِ لُبْسَ الرَّجُلِ، فكُلُّ هذا مِنْ كَبائِرِ الذُّنوبِ، والمَرْأَةُ إذا فَعَلَتْ ذلك فإنَّها مَلْعُونةٌ على لسانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكنْ هل إذا رَأَينا رَجُلًا مُعَيَّنًا مُتَشَبِّهًا بامرأةٍ هل نقولُ: لَعَنَكَ اللهُ؟ لا نقولُ: لَعَنَكَ اللهُ. نَعِظُهُ، ونقولُ: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ المُتَشَبِّهينَ منَ الرِّجالِ بالنِّساءِ. وكذلك المَرْأَةُ؛ لأنَّ لَعْنَ المُعَيَّنِ لا يَجُوزُ حتَّى لو كان كافِرًا فكيفَ إذا كان فاسِقًا، فإنَّهُ لا يجوزُ لَعْنُهُ. لكنْ تقولُ: مَنْ تَشَبَّهَ منَ الرِّجالِ بالنِّساءِ فهو مَلْعُونٌ، ومَنْ تَشَبَّهَتْ مِنَ النِّساءِ بالرِّجالِ فهي مَلْعُونةٌ، هكذا على سَبِيلِ العُمومِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٦٦- بابُ تَحْرِيمِ سَبِّ المُسْلِمِ بغَيْرِ حقٍّ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

١٥٥٩- وعنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ سِبابُ المُسْلِمِ بغَيْرِ حقٍّ» سبُّهُ يعني عَيْبُهُ ووصْفُهُ بما يَكْرَهُ في حُضورِهِ، أمَّا إذا كان في غَيْبَتِهِ فهو غِيبةٌ. ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مُبْتدأٌ، ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ خَبَرُهُ، والمعنى أنَّ الذين يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ والمُؤْمناتِ بغَيْرِ ما اكْتَسَبَ المُؤْمِنُ والمُؤْمِنةُ اللَّذانِ أُوذِيا ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ أي كَذِبًا ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي عُقوبةً، والعياذُ باللهِ، وهذا يَشْمَلُ كُلَّ أَذِيَّةٍ، سواءً كان في القَوْلِ أو في الفِعْلِ، وكلما كان الإنْسانُ أحقَّ بالإكْرامِ كانت أَذِيَّتُهُ أعْظمَ وأكْبَرَ إثْمًا، فأذِيَّةُ القريبِ ليست كأذِيَّةِ البعيدِ، وأذِيَّةُ الجارِ ليست كأذِيَّةِ غيرِ الجارِ، وأذِيَّةُ مَنْ له حقٌّ عليك ليست كأذِيَّةِ مَنْ لا حقَّ له عليك، فالأذِيَّةُ يَتفاوَتُ إثْمُها وجُرْمُها بحسَبِ المُؤْذَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق»، رقم (٦٤).

والعَجَبُ أنَّ كثيرًا من المُسْلِمِينَ اليومَ يُؤْذُونَ جِيرانَهُم بالمُضايقاتِ والاطِّلاعِ على عَوراتِهِمْ وغيرِ ذلك، وهذا مِنْ أعْظمِ ما يكونُ من الإثْمِ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «واللهِ لا يُؤْمِنُ واللهِ لا يُؤْمِنُ واللهِ لا يُؤْمِنُ» -ثلاثَ مرَّاتٍ- قالوا: مَنْ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» يَعْنِي: ظُلْمَهُ وغُشْمَهُ[1].

وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ يُفْهَمُ منه، أنَّهُ إذا أُوذِيَ المُؤْمِنُ بما اكْتَسَبَ فليس في ذلك بَأْسٌ، يعني لو آذَيْتَ إنْسانًا رَدًّا على فِعْلٍ له آذاكَ به فآذَيْتَهُ، فلا بَأْسَ. أو آذَى إنْسانًا لإقامةِ حَدِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أو آذَى لأداءِ حقٍّ عليه أبى أنْ يَقُومَ به، فلا بَأْسَ، بلْ قدْ أمَرَ اللهُ تَعالى باللَّذَيْنِ يَأْتيانِ الفاحشةَ فقالَ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾. فأمَرَ بإيذائِهِما ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ [النساء:١٦]. وهذا قَبْلَ أنْ يُشْرَعَ قَتْلُ الفاعِلِ والمَفْعولِ به في اللِّواطِ، كان اللُّوطِيُّ في الأوَّلِ لا يُجْلَدُ ولا يُقْتَلُ، لكنْ يُؤْذَى حتَّى يَتُوبَ، ثم أَمَرَ اللهُ تَعالى بقَتْلِ الفاعِلِ والمَفْعُولِ به على لِسانِ نَبِيِّهِ ﷺ وأجْمَعَ الصَّحابةُ على ذلك.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ حديثَ عبدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتالُهُ كُفْرٌ». وهذا يَدُلُّ على أنَّ الفِسْقَ أهْوَنُ من الكُفْرِ؛ لأنَّهُ جَعَلَ السَّبَّ فُسوقًا وجَعَلَ القَتْلَ كُفْرًا، فعلى هذا إذا سَبَّ المُسْلِمُ أخاهُ صارَ هذا السابُّ فاسِقًا لا تُقْبَلُ شَهادَتُهُ، ولا يُجْعَلُ له وِلايةٌ ولا على ابْنتِهِ، فلا يُزَوِّجُ ابْنَتَهُ؛ لأنَّهُ صارَ فاسقًا، ولا يَصِحُّ أنْ يَكُونَ إمامًا للمُسْلِمِينَ، ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ مُؤَذِّنًا. هكذا قال كثيرٌ منَ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ وفي بعضِ هذه المسائِلِ خلافٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكنَّ المُهِمَّ أنَّ مَنْ سَبَّ أخاهُ فإنَّهُ يَفْسُقُ، أمَّا مَنْ قَاتَلَهُ فإنَّهُ يَكْفُرُ. إنِ اسْتَحَلَّ المُقاتَلَةَ بغَيْرِ حقٍّ فهو كافِرٌ كُفْرًا مُخْرِجًا عنِ المِلَّةِ، وإنْ لم يَسْتَحِلَّها ولكنْ هَوًى في نَفْسِهِ فإنَّهُ يكونُ كافِرًا لكنَّهُ كُفْرٌ لا يَخْرُجُ منَ المِلَّةِ، والدَّليلُ على ذلك قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:٩-١٠]. فجَعَلَ اللهُ الطَّائِفَتَيْنِ المُقْتَتِلَتَيْنِ إخْوَةً للطَّائفةِ المُصْلِحةِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّهما لا يَخْرُجانِ من الإيمانِ لكنَّهُ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٦٠- وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفِسْقِ أَوِ الكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذَلِكَ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

١٥٦١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِي منهُما حَتَّى يَعْتَدِيَ المَظْلُومُ». رَواهُ مُسْلِمٌ[2].

الشَّرح

نَقَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في سياقِ الأحاديثِ في بابِ تَحْرِيمِ سِبابِ المُسْلِمِ بغَيْرِ حقٍّ حديثَ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفِسْقِ أَوِ الكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذَلِكَ». يعني إذا قُلْتَ لإنْسانٍ: أنت فاسِقٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يُنهى من السباب واللعن، رقم (٦٠٤٥).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن السباب، رقم (٢٥٨٧).

أو يا فاسِقُ صِرْتَ أنتَ الفاسِقَ إلَّا إذا كان هو كذلك، وهكذا مَنْ كَفَّرَ أحدًا وقال: أنتَ كافِرٌ أو يا كافِرُ، وليس كذلك صار القائِلُ هو الكافِرَ.

وفي هذا دَلِيلٌ على أنَّ هذا من كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَوَعَّدَ هذا القاتِلَ أنْ يكونَ هو الذي يَتَّصِفُ بهذه الصِّفةِ. وعلى هذا فلا يَحِلُّ للإنْسانِ أنْ يَقُولَ لأخِيهِ المُؤْمِنِ: يا فاسِقُ، أو يَقُولَ: فُلانٌ فاسِقٌ إلَّا إذا كان كذلك، وأرادَ أنْ يُحَذِّرَ منه. فلا بَأْسَ. وكذلك لا يَقُولُ له: يا كافِرُ، أو يَقُولَ: فُلانٌ كافِرٌ، فإنَّهُ لا يَحِلُّ له ذلك ما لم يَكُنْ هكذا.

وفيه: التَّحْذِيرُ من تَكْفِيرِ المُسْلِمِينَ بغَيْرِ دليلٍ شَرْعِيٍّ خِلافًا لِمَا يَتَجاسَرُ به بعضُ النَّاسِ، والعياذُ باللهِ، فيُكَفِّرُ على أدْنَى شيءٍ ويقولُ: هذا كُفْرٌ، وهذا فِسْقٌ، وما أَشْبَهَ ذلك.

وأمَّا الحديثُ الثاني فهو عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِي مِنْهُمَا**» «المُسْتَبَّانِ» مُبْتَدأٌ، و«مَا» مُبْتَدَأٌ ثَانٍ، «فَعَلَى البَادِي» خبرُ المُبْتَدأِ الثَّاني، والجُمْلةُ خَبَرُ المُبْتَدأِ الأوَّلِ.

والمعنى أنَّ المُتَسابَّيْنِ إذا تَسابَّا وتَشاتَمَا بكلامٍ سَيِّءٍ فإنَّ الإثْمَ على البادي منهما، «**مَا قَالَا فَعَلَى البَادِي مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُومُ**» فإنِ اعْتَدَى صارَ عليه الإثْمُ، وفي هذا دَلِيلٌ على أنَّهُ يَجُوزُ للإنْسانِ أنْ يَسُبَّ صاحِبَهُ بمِثْلِ ما سَبَّهُ به ولا يَعْتَدِي؛ ولهذا لَمَّا قال النَّبِيُّ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيهِ**» قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، كيفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيْهِ؟ قال: «**يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، ويَسُبُّ أُمَّهُ فيَسُبُّ أُمَّهُ**»[1] فدلَّ هذا

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم (٥٩٧٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

على أنَّ الإنْسانَ إذا كان سَببًا للشَّرِّ فإنَّهُ ينالُهُ من شَرِّهِ.

ما قالا فعَلى البادِئِ منهما ما لم يَعْتَدِ المَظْلُومُ فإنِ اعْتَدَى فعليه، وإنْ أخَذَ بحَقِّهِ بدون زِيادةٍ فليس عليه شَيْءٌ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٦٢- وَعَنْهُ، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، والضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، والضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللهُ! قَالَ: «لا تَقُولُوا هَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ». رَوَاهُ البُخارِيُّ[1].

الشَّرْح

نَقَلَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في سياقِ الأحاديثِ في بابِ تَحْرِيمِ سَبِّ المُسْلِمِ بغيْرِ حقٍّ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ برَجُلٍ قد شَرِبَ يعني قد شَرِبَ الخَمْرَ وذلك بعد أنْ نَزَلَ تَحْرِيمُها.

والخَمْرُ: كُلُّ ما أَسْكَرَ فهو خَمْرٌ، سواءً كان منَ العِنَبِ أو منَ التَّمْرِ أو منَ الشَّعِيرِ أو منَ البُرِّ أو من غيرِ ذلك، كلُّ ما أَسْكَرَ فهو خَمْرٌ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ»[2]، والإسْكارُ هو تَغْطِيةُ العَقْلِ على وجْهِ اللَّذَّةِ والطَّرَبِ، وليس مُجَرَّدَ تَغْطِيةِ العَقْلِ؛ ولهذا فالبنجُ -وهو التَّخْدِيرُ للأغْراضِ الطِّبِّيَّةِ- ليس مُسْكِرًا وإنْ كان يُغَطِّي العَقْلَ، فهو لا يَدْرِي ماذا حَصَلَ له. لكنَّ الخَمْرَ -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ- يَجِدُ الإنْسانُ من السُّكْرِ لَذَّةً وطَرَبًا ونَشْوَةً حتَّى يَتَصَوَّرَ أنَّهُ مَلِكٌ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الضرب بالجريد والنعال، رقم (٦٧٧٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل مسكر حرام، رقم (٢٠٠٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المُلُوكِ وأنَّهُ فوقَ الثُّرَيَّا، وما أَشْبَهَ ذلك، كما قيل في هذا:

وَنَشْـــرَبُهَا فَتَتْرُكُنَـــا مُلُوكًـــا[1]

وكما قال حَمْزَةُ بن عبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنِ أخيهِ النَّبِيِّ ﷺ -حين رآهُ النَّبِيُّ ﷺ سَكْرانَ فتكَلَّمَ معه، فقال له حَمْزَةُ وهو سَكْرانُ: هل أنتم إلَّا عَبِيدُ أبي[2]، وهذه كَلِمةٌ بَشِعةٌ لكنَّهُ سَكْرانُ، والسَّكْرانُ لا يُؤاخَذُ بما يقولُ، وهذا قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ تَحْرِيمُ الخَمْرِ، وكان تَحْرِيمُ الخَمْرِ على أرْبَعِ مَراحِلَ:

المَرْحَلةُ الأُولى: الإباحةُ، أنَّ اللهَ أباحَهُ للعِبادِ إباحةً صريحةً، فقالَ تَعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل:٦٧]. يعني: تَشْرَبُونهُ فتَسْكَرُونَ، وتَتَّجِرُونَ به فتُحَصِّلُونَ رِزْقًا.

المَرْحَلةُ الثانيةُ: عَرَّضَ اللهُ تَعالى بتَحْريمِهِ، وقال تَعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]. ولم يَنْهَ عنهما.

المَرْحَلةُ الثالثةُ: قال اللهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]. فنَهى عن قُرْبانِ الصَّلاةِ في حال السُّكْرِ وهذا يَقْتَضِي أنَّهُ يُباحُ شُرْبُ الخَمْرِ في غيرِ أوقاتِ الصَّلاةِ.

المَرْحَلةُ الرابعةُ: التَّحْرِيمُ (الصريحُ البات) قال تَعالى في سُورةِ المائِدةِ، وهي من آخِرِ ما نَزَلَ، قال تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ

---

(١) صدر بيت لحسان بن ثابت، انظر: ديوانه (ص:١٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلأ، رقم (٢٣٧٥)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر وبيان أنها من عصير العنب، رقم (١٩٧٩)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة:٩٠] فاجْتَنَبَهُ النَّاسُ، لكنْ لَمَّا كانت النُّفوسُ تَدْعُو إلى الخَمْرِ وشُرْبِها جُعِلَ لها رادِعٌ يَرْدَعُ النَّاسَ عن شُرْبِها، وهو العُقُوبةُ.

ولم يُقَدِّرْ فيها النَّبِيُّ ﷺ شيئًا، فعُقوبةُ الشَّارِبِ ليست حَدًّا، لكنَّها تَعْزِيرٌ؛ ولهذا جِيءَ برَجُلٍ شَرِبَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «اضْرِبُوهُ». ولم يقل: أرْبَعينَ، ولا ثمانينَ، ولا مِائةً، ولا عَشَرَةً، فقاموا يَضْرِبونَهُ، منهم الضَّارِبُ بثَوْبِهِ، ومنهم الضَّارِبُ بيدِهِ، ومنهم الضَّارِبُ بنعلِهِ، فضَرَبُوهُ نحوَ أرْبعينَ جَلْدةً، فلمَّا انْصَرَفُوا، وانْصَرَفَ الرَّجُلُ، قال رَجُلٌ من القَوْمِ: أَخْزاهُ اللهُ، يعني: أَذَلَّهُ، وفَضَحَهُ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: لا تَقُلْ هكذا، لا تَدْعُ عليه بالخِزْيِ، رَجُلٌ شَرِبَ مُسْكِرًا وجُلِدَ، وتَطَهَّرَ بالجَلْدِ، «لَا تُعِينُوا عَلَيهِ الشَّيْطَانَ» فنَهاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يَسُبُّوهُ مع أَنَّهُ شارِبُ خَمْرٍ.

إذًا ما مَوْقِفُنا من شارِبِ الخَمْرِ، مَوْقِفُنا أنْ نَدْعُوَ له بالهدايةِ، قلِ: اللَّهُمَّ اهْدِهِ، اللَّهُمَّ أصْلِحْهُ، اللَّهُمَّ أبْعِدْهُ عن هذا وما أَشْبَهَ ذلك، أمَّا أنْ تَدْعُوَ عليه فإنَّكَ تُعِينُ عليه الشَّيْطانَ. وفي هذا دَلِيلٌ على أنَّ الخَمْرَ مُحَرَّمٌ، وأنَّ عليه عُقُوبةً.

وفي عَهْدِ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْتَشَرَتِ الفُتوحاتُ، ودَخَلَ في دِينِ الإسْلامِ أُناسٌ جُدُدٌ، وكَثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ في عَهْدِهِ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا حازمًا، فأرادَ أنْ يُعاقِبَ شارِبَ الخَمْرِ بعُقوبةٍ تكونُ أَشَدَّ وأرْدَعَ، إلَّا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِوَرَعِهِ وتَحَرُّزِهِ جَمَعَ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أيْ: جَمَعَ ذَوِي الرَّأْيِ، وليس المرادُ كُلَّ الصَّحابةِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ ونَشَرُوهُ، قال تَعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣] دلَّ هذا على أنَّ العامَّةَ ليسوا كأُولِي الأمْرِ وأُولِي الرَّأْيِ والمَشُورةِ، فليس الكَلامُ في السِّياسةِ في مَجالِسِ العامَّةِ، ومَنْ أرادَ أنْ تَكُونَ العامَّةُ مُشارِكةً لوُلاةِ الأُمورِ في

سِياسَتِها وفي رَأْيِها وفِكْرِها، فقد ضَلَّ ضلالًا بعيدًا، وخَرَجَ عن هَدْيِ الصَّحابةِ وهَدْيِ الخُلفاءِ الرَّاشِدِينَ، وهَدْيِ سَلَفِ الأُمَّةِ.

فالمُهِمُّ أنَّ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِحَزْمِهِ جَمَعَ ذَوِي الرَّأْيِ منَ الصَّحابةِ، وقال لهم ما معناهُ: كَثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، وإذا قَلَّ الوازِعُ الدِّينِيُّ، يَجِبُ أنْ يَقْوَى الرَّادِعُ السُّلْطانِيُّ، يعني إذا ضَعُفَ الأمْرُ منَ النَّاحِيَتَيْنِ: الوازِعُ الدِّينِيُّ، والرَّادِعُ السُّلْطانِيُّ، فَسَدَتِ الأُمَّةُ.

فاسْتَشارَهُمْ ماذا يَصْنَعُ، فقال عبدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أميرَ المُؤْمِنِينَ أَخَفُّ الحُدودِ ثَمانونَ جَلْدَةً[1]، ارْفَعِ العُقوبةَ إلى ثَمانِينَ جَلْدَةً. ويُشِيرُ عبدُ الرَّحْمنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى حدِّ القَذْفِ، فإنَّ اللهَ تَعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور:٤]. هذا أخفُّ الحُدودِ، فرَفَعَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عُقوبةَ شارِبِ الخَمْرِ إلى ثَمانينَ، وهذا كالنَّصِّ الصَّريحِ على أنَّ عُقوبةَ شارِبِ الخَمْرِ ليست حَدًّا، بل هذا صَرِيحٌ لأنَّهُ قال: أخفُّ الحُدودِ ثَمانينَ، ووافَقَهُ الصَّحابةُ على هذا، ولم يَقُلْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّهُ ليس كذلك فرَفَعَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعلَ ذلك ثَمانينَ جَلْدةً من أجْلِ أنْ يَرْتَدِعَ النَّاسُ، وقد جاءَ في السُّنَّةِ أنَّ شاربَ الخَمْرِ إذا شَرِبَ فجُلِدَ، ثم شَرِبَ فجُلِدَ، ثم شَرِبَ فجُلِدَ، ثم شَرِبَ الرَّابِعةَ، فإنَّهُ يَجِبُ قَتْلُهُ، هكذا جاءَ في السُّنَنِ[2]، وأخَذَ بظاهِرِهِ الظَّاهِرِيَّةُ[3].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الخمر، رقم (١٧٠٦)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٠)، وأبو داود: كتاب، باب إذا تتابع في شرب الخمر، رقم (٤٤٨٤)، والنسائي: كتاب الأشربة، باب ذكر الروايات المغلظات في شرب الخمر، رقم (٥٦٦٢)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من شرب الخمر مرارًا، رقم (٢٥٧٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: المحلى لابن حزم (١١/ ٣٦٦).

وقالوا: شارِبُ الخَمْرِ إذا جُلِدَ فإنَّهُ يُقْتَلُ في الرَّابعةِ؛ لأنَّهُ أَصْبَحَ عُنْصرًا فاسِدًا لم يَنْفَعْ به الإصْلاحُ والتَّقْوِيمُ، وقال جُمْهورُ العُلماءِ: إنَّهُ لا يُقْتَلُ، بل يُكَرَّرُ عليه الجَلْدُ، فكُلَّما شَرِبَ جُلِدَ، وتَوَسَّطَ شيخُ الإسْلامِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: إذا كَثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ في النَّاسِ، ولم يَنْتَهِ النَّاسُ بدون القَتْلِ فإنَّهُ يُقْتَلُ في الرَّابِعةِ، وهذا قَوْلٌ وَسَطٌ رُوعِيَ فيه الجَمْعُ بين المَصْلَحَتَيْنِ، مَصْلَحةِ ما يَدُلُّ عليه بعضُ النُّصوصِ الصَّرِيحةِ؛ لأنَّ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يَرْفَعِ العُقوبةَ إلى القَتْلِ، مع أنَّهُ يقولُ: إنَّ النَّاسَ كَثُرَ شُرْبُهُمْ، وبين هذا الحديثِ الذي اخْتَلَفَتِ النَّاسُ في صِحَّتِهِ، وفي بقاءِ حُكْمِهِ، هل هو مَنْسُوخٌ أو غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وهل هو صَحِيحٌ أو غيرُ صَحِيحٍ.

فعلى كُلِّ حالٍ فما اختارَهُ شيخُ الإسْلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهو عينُ الصَّوابِ: أنَّهُ إذا كَثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، ولم يَنْتَهِ النَّاسُ دُونَ قَتْلٍ فإنَّهُ يُقْتَلُ الشَّارِبُ في الرَّابِعةِ، وليت وُلاةَ الأُمورِ يَعْملونَ هذا العَمَلَ، ولو عَمِلُوا هذا العَمَلَ لَحَصَلَ خيرٌ كثيرٌ، وانْدَرَأَ شَرٌّ كثيرٌ، وقَلَّ شُرْبُ النَّاسِ للخَمْرِ الذي بَدَأَ يَنْتَشِرُ والعياذُ باللهِ في بعضِ البلادِ الإسْلامِيَّةِ كانْتشارِ الشَّرابِ المُباحِ، كعصيرِ اللَّيْمُونِ وعصيرِ البُرْتقالِ وما أَشْبَهَ ذلك.

وهذا لا شكَّ أنَّهُ مَظْهَرٌ غيرُ مَظْهَرِ المُسْلِمِينَ، وأنَّهُ اسْتِباحةٌ له في الواقِعِ؛ لأنَّ كَوْنَهُ يُصْبِحُ مَنْشُورًا بينَ النَّاسِ يَفْتَحُ الإنْسانُ الثَّلاجةَ ويَشْرَبُ الخَمْرَ والعياذُ باللهِ هكذا، كأنَّهُ اسْتباحَهُ، وهذا يَنْطَبِقُ عليه قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَّ، والحَرِيرَ، والخَمْرَ، والمَعَازِفَ**»[2] فإنَّ النَّاسَ الآنَ تَقاسَمُوا هذه الأشْياءَ الأرْبَعةَ، منهم مَنِ انْتَشَرَ في شُعُوبِهِمُ الزِّنا واللِّواطُ والعياذُ باللهِ، وصار عندهم يُباحُ،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٦-٣٣٧)، (٣٤/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يُذْكَرُ لنا أَنَّهُ في بعضِ البلادِ إذا نَزَلَتِ الطَّائِرةُ، وإذا في المطارِ فَتَياتٌ وفِتْيانٌ يُقالُ للنَّازِلِ: ما تُرِيدُ؟ جميلةً غيرَ جميلةٍ، شابَّةً غيرَ شابَّةٍ.

«الحِرَّ»: يعني الزِّنا، أو اللِّواطَ.

وفي بعضِ البلادِ الخَمْرُ مُنْتَشِرٌ، يُباعُ في الأسْواقِ، ويُشْرَبُ لَيْلًا وَنَهارًا وكأَنَّهُ شَرابٌ حلالٌ. وفي بعضِ البلادِ -ولا سيَّما في المُتْرَفِينَ من رَعِيَّتِهِمْ- نَجِدُ الرَّجُلَ كالمَرْأَةِ يَلْبَسُ الحَرِيرَ، واللَّيِّنَ مِنَ الثِّيابِ، ورُبَّما يَلْبَسُ حُلِيَّ الذَّهَبِ: قِلادةً، أو خاتَمًا، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

أمَّا المعازِفُ: فحدِّثْ ولا حَرَجَ، فالمعازِفُ مُنْتَشِرةٌ في غالِبِ بلادِ الإسْلامِ إنْ لم أَقُلْ في كُلِّ بلادِ الإسْلامِ، فقدِ انْتَشَرَتْ والعياذُ باللهِ المعازِفُ بجميعِ أنْواعِها، فنسألُ اللهَ السَّلامةَ والهِدايةَ، وأنْ يُصْلِحَ وُلاةَ الأُمورِ ورَعاياهُمْ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

١٥٦٣ - وَعَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا يُقَامُ عَلَيْهِ الحَدُّ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كما قَالَ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

الشَّرْح

ساقَ المُؤَلِّفُ الإمامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ سِبابِ المُسْلِمِ بغيْرِ حقٍّ الحديثَ الأخيرَ، عنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا يُقَامُ عَلَيْهِ يومَ القِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كما قَالَ**».

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب قذف العبيد، رقم (٦٨٥٨)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنا، رقم (١٦٦٠).

المَمْلُوكُ هو العَبْدُ يَمْلِكُهُ الإنْسانُ، والمَمْلُوكُ كالسِّلْعةِ يُباعُ ويُشْتَرى ويُوهَبُ، ويُرْهَنُ ويُوقَفُ إلَّا أنَّهُ في أحْكامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ هو والحُرُّ على حدٍّ سواءٍ في غيرِ الأُمورِ الماليَّةِ.

والسَّيِّدُ مالِكٌ للرَّقِيقِ لعَيْنِهِ -يعني رَقَبَتَهُ- ولِمَنافِعِهِ، فإذا قَذَفَ عَبْدَهُ بأنْ قالَ للعَبْدِ: يا زَانٍ أو يا لُوطِيُّ، أو ما أَشْبَهَ ذلك من كَلماتِ القَذْفِ فإنَّهُ لنْ يُحَدَّ في الدُّنْيا؛ لأنَّهُ سَيِّدٌ، والعَبْدُ مَمْلُوكٌ، لكنْ يُقامُ عليه في دارِ عَذَابُها أَشَدُّ والعياذُ باللهِ، وهي الدَّارُ الآخِرةُ، يُقامُ عليه الحَدُّ يَوْمَ القِيامةِ، وعلى هذا فيكونُ قَذْفُ المَمْلوكِ من كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّهُ رُتِّبَ عليه عُقوبةٌ في الآخِرةِ، وكُلُّ شيءٍ رُتِّبَ عليه عُقوبةٌ في الآخِرةِ فإنَّهُ يكونُ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، كما قال أهْلُ العِلْمِ رَحِمَهُمُ اللهُ في حدِّ الكبيرةِ، وأمَّا لو زَنَى المَمْلوكُ حَقِيقةً وقَذَفَهُ سَيِّدُهُ بذلك فإنَّهُ لا حَدَّ عليه؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إلَّا أنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ» يعني كما قال، ولكنْ متى يكونُ كما قال؟ يكونُ بأنْ يَشْهَدَ عليه أرْبَعةٌ، أرْبَعةُ رِجالٍ عُدُولٌ بأنَّهُ زَنى، ويُصَرِّحُونَ بذِكْرِ حَقيقةِ الوَطْءِ، أو يُقِرُّ هو بنفسِهِ على نفسِهِ، فحينئذٍ يَرْتَفِعُ الحدُّ عنِ السَّيِّدِ.

واعْلَمْ أنَّ الرَّقِيقَ إذا زَنَى فإنَّ عليه نِصْفَ حَدِّ الحُرِّ كما قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي الإماءُ ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء:٢٥] والذي يَتَنَصَّفُ من عذابِ المُحْصناتِ هو الجَلْدُ فيكونُ على الرَّقِيقِ إذا زَنَى خَمْسُونَ جَلْدةً فقط.

قال العُلماءُ: ويَسْقُطُ عنه التَّغْرِيبُ؛ لأنَّ الزَّانِيَ الحُرَّ إذا زَنَى وهو غيرُ مُحْصَنٍ فإنَّهُ يُجْلَدُ مِائَةَ جَلْدةٍ ويُطْرَدُ عنِ البَلَدِ عامًا كاملًا، أمَّا الرَّقِيقُ فإنَّهُ يُجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً ولا يُغَرَّبُ؛ لأنَّ التَّغْرِيبَ إضْرارٌ بسَيِّدِهِ، فيكونُ من بابِ تَحْمِيلِ الإنْسانِ ما لم يَحْتَمِلْهُ.

وللسَّيِّدِ أنْ يُقيمَ على عبدِهِ الحدَّ إذا زَنَى؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا»[1] فأمَرَ السَّيِّدَ أنْ يَجْلِدَها، أمَّا الحُرُّ فإنَّهُ لا يَتولَّى جَلْدَهُ إلَّا الإمامُ أو نائِبُهُ حتَّى لو كان ابْنَكَ وزَنَى وهو بالِغٌ عاقِلٌ فإنَّهُ لا يَتولَّى إقامةَ الحدِّ عليه إلَّا الإمامُ أو نائِبُهُ، وكذلك لو زَنَى أَخُوكَ بعد بُلوغِهِ وهو عاقِلٌ فإنَّهُ لا يُقِيمُهُ إلَّا الإمامُ أو نائِبُهُ، أمَّا السَّيِّدُ فيُقِيمُهُ على عبدِهِ خاصَّةً في الجَلْدِ.

وأمَّا لو سَرَقَ العَبْدُ فالسَّرِقةُ فيها قَطْعُ اليدِ، ولا يَتَوَلَّى قَطْعَ اليدِ إلَّا الإمامُ أو نائِبُهُ؛ ولهذا قال العلماءُ: إنَّ السَّيِّدَ لا يُقِيمُ الحدَّ على عَبْدِهِ إلَّا إذا كان الحَدُّ جَلْدًا. واللهُ أعْلَمُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع المدبر، رقم (٢٢٣٤)، ومسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، رقم (١٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٦٧- بابُ تَحْرِيمِ سَبِّ الأمْواتِ بِغَيْرِ حقٍّ ومَصْلَحةٍ شَرْعِيَّةٍ

وَهِيَ التَّحْذِيرُ مِنَ الاقْتِـدَاءِ بِهِ فِي بِدْعَتِهِ، وَفِسْـقِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَفِيـهِ الآيةُ والأحاديثُ السَّابِقَةُ فِي البَابِ قَبْلَهُ.

١٥٦٤- وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ سَبِّ الأمْواتِ بِغَيْرِ حقٍّ ومَصْلَحةٍ شَرْعِيَّةٍ» الأمواتُ يعني الأمواتَ منَ المُسْلِمِينَ، أمَّا الكافِرُ فلا حُرْمةَ له إلَّا إذا كان في سَبِّهِ إيذاءٌ للأحْياءِ من أقارِبِهِ فلا يُسَبُّ، وأمَّا إذا لم يَكُنْ هناك ضَرَرٌ فإنَّهُ لا حُرْمةَ له، وهذا هو معنى قَوْلِ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِغَيْرِ حقٍّ» لأنَّ لنا الحقَّ أنْ نَسُبَّ الأمْواتَ الكافِرِينَ الذين آذَوُا المُسْلِمِينَ وقَاتلُوهم ويُحاوِلونَ أنْ يُفْسِدُوا عليهم دِينَهُمْ، أو مَصْلحةٍ شَرْعِيَّةٍ مثلِ أنْ يكونَ هذا المَيِّتُ صاحبَ بِدْعةٍ قد نَشَرها ويَنْشُرُها بين النَّاسِ، فهنا مِنَ المَصْلَحةِ أنْ نَسُبَّهُ ونُحَذِّرَ منه ومن طَرِيقَتِهِ؛ لئلَّا يَغْتَرَّ النَّاسُ به.

ثم اسْتَدَلَّ على ذلك بحديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ» والأصلُ في النَّهْيِ التَّحْرِيمُ فلا نَسُبُّ الأمواتَ ثم عَلَّلَ «فَإِنَّهُمْ قَدْ أفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا».

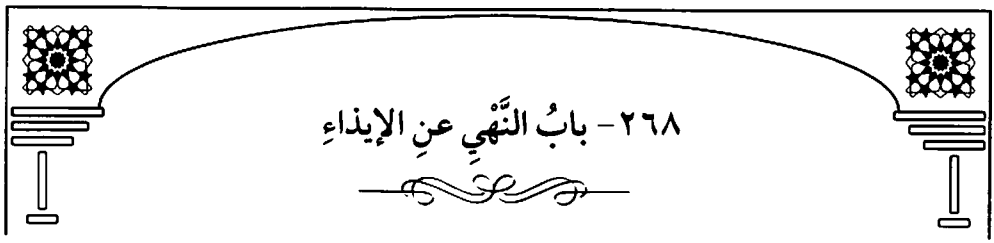
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات، رقم (١٣٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وسَبُكم إيَّاهم لا يُغْنِي شيئًا؛ لأنَّهُم أَفْضَوْا إلى ما قدَّموا حينَ انْتَقَلُوا إلى دارِ الجزاءِ من دارِ العَمَلِ، فكُلُّ مَنْ ماتَ فإنَّهُ أفْضَى إلى ما قدَّمَ، والْتَحَقَ بدارِ الجزاءِ وقامتْ قِيامَتُهُ، وانْقَطَعَ عَمَلُهُ ولم يَبْقَ له حَظٌّ منَ العَمَلِ إطْلاقًا إلَّا ما دلَّتِ السُّنَّةُ عليه مثلُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[1] وفي هذا دَلِيلٌ على أَنَّهُ يَنْبَغِي على الإنْسانِ أنْ يَحْفَظَ لِسانَهُ عمَّا لا فائدةَ منه فإنَّ هذا طريقُ أهْلِ التُّقَى، فإنَّ عبادَ الرَّحمنِ إذا مرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا. وأمَّا الزُّورَ فلا يَشْهَدُونَهُ إطلاقًا، ولا يَتَكَلَّمونَ إلَّا بالحقِّ. واللهُ أعْلَمُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



٢٦٨- بابُ النَّهْيِ عنِ الإيذاءِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

١٥٦٥- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

١٥٦٦- وَعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢)].

وَهُوَ بعضُ حديثٍ طويلٍ سَبَقَ في بابِ طاعَةِ وُلَاةِ الأُمُورِ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ النَّهْيِ عنِ الإيذاءِ». الإيذاءُ يَشْمَلُ الإيذاءَ بالقَوْلِ، والإيذاءَ بالفِعْلِ، والإيذاءَ بالتَّرْكِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (١٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم (٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤).

أمَّا الإيذاءُ بالقَوْلِ: فأنْ يُسْمِعَ أخاهُ كَلامًا يَتَأَذَّى به، وإنْ لم يَضُرَّهُ، فإنْ ضَرَّهُ كانَ أشَدَّ إثمًا.

والإيذاءُ بالفِعْلِ: أنْ يُضايِقَهُ في مكانِهِ، أو في جُلوسِهِ، أو في طَرِيقِهِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

والإيذاءُ بالتَّرْكِ: أنْ يَتْرُكَ شيئًا يَتَأَذَّى منه أخوهُ، كُلُّ هذا مُحَرَّمٌ وعليه هذا الوعيدُ الشديدُ وهو قَوْلُ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قَوْله تَعالى: ﴿ٱحْتَمَلُوا۟﴾ يعني تَحَمَّلُوا على أنْفُسِهِم البُهْتانَ وهو الكَذِبُ والإثْمُ المُبِينُ وهو العُقوبَةُ العظيمةُ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ.

وفي قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ دليلٌ على أنْ لو آذَى الإنْسانُ لارْتكابِهِ عَملًا يَحِقُّ أنْ يُؤْذَى عليه فإنَّهُ لا بَأْسَ به كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾[1] [النساء:١٦]. وكان هذا في أوَّلِ الأمْرِ أنَّ اللُّوطِيَّةَ والعياذُ باللهِ يُؤْذَى صاحِبُها حتَّى يَتُوبَ ثم بعد ذلك ثَبَتَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الفَاعِلَ والمَفْعُولَ بِهِ»[2].

---

(١) قال فضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى في تفسير سورة النساء (١/ ١٣٠): «قال بعض العلماء: إن المراد ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ هنا: الزاني والزانية.. وقال بعض العلماء: المراد بهما اللوطيان؛ أي: الفاعل والمفعول به، وأضاف الإتيان إلى المفعول به مع أنه مأتي؛ لأن القابل الراضي كالفاعل، ولهذا قال النبي ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»، والصحيح أن ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ يراد بهما اللائطان؛ أي: الرجل الذي يلوط بآخر، والعياذ بالله».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عَمِل عمَل قومِ لوطٍ، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عَمِل عمَل قوم لوط، رقم (٢٥٦١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أجْمَعَ الصَّحابةُ على أنَّ فاحِشةَ اللِّواطِ يُقْتَلُ فيها الفاعلُ والمَفْعولُ به، ولكنَّهُم اخْتَلَفُوا كيفَ يُقْتَلُ، فبعضُهُم قال: يُرْجَمُ؛ وبعضُهُم قال: يُلْقَى من أعْلَى شاهِقٍ في البلدِ، وبعضُهُم قال: يُحْرَقُ بالنَّارِ[1] -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ- فالمُهِمُّ أنَّ الإيذاءَ بحقٍّ لا بَأْسَ به، ومِن ذلك أنْ يَكُونَ الرَّجُلُ يَكْرَهُ الحقَّ ويَكْرَهُ الخَيْرَ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ والعياذُ باللهِ يَتَأَذَّى إذا رَأى رَجُلًا مُتَمَسِّكًا بالسُّنَّةِ، تأذَّى به وكَرِهَهُ، فهنا نقولُ: تَمَسَّكْ بالسُّنَّةِ وإنْ تَأَذَّى؛ لأنَّك آذَيْتَهُ بحقٍّ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ حَدِيثَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ» المُسْلِمُ هو الذي سَلِمَ المُسْلِمُونَ من لِسانِهِ، فلا يَلْعَنُهُمْ ولا يَسُبُّهُمْ ولا يَشْتُمُهُم ولا يَغْتابُهُمْ ولا يَنُمُّ فيهم، فكُلُّ آفاتِ اللِّسانِ المُتَعَلِّقةِ بالخَلْقِ قد كفَّها فسَلِمَ النَّاسُ منه، وسَلِمَ المُسْلِمُونَ من يدِهِ أيضًا، لا يَعْتِدي عليهم بضَرْبٍ ولا سَرِقةٍ ولا إفْسادِ مالٍ ولا غيرِ ذلك، هذا هو المُسْلِمُ، وهذا أيضًا ليس المرادُ بذلك أنَّهُ ليس هناك مُسْلِمٌ سواهُ، ولكنَّ المعنى أنَّ هذا منَ الإسْلامِ، وإلَّا فإنَّ المُسْلِمَ مَنِ اسْتَسْلَمَ للهِ تَعالى ظاهرًا وباطنًا لكنْ أحْيانًا يَأْتِي مثلُ هذا التعبيرِ من أجْلِ الحثِّ على هذا العَمَلِ، وإنْ كان يُوجَدُ سواهُ.

«والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ» ومعلومٌ أنَّ المُهاجرَ مَنْ خَرَجَ من بلدِ الكُفْرِ إلى بَلَدِ الإسْلامِ؛ ليُقِيمَ دِينَهُ، لكنْ تأْتِي الهِجْرةُ بمعنًى آخَرَ وهي أنْ يَهْجُرَ الإنْسانُ ما نَهَى اللهُ عنه فلا يَقُولُ قَولاً مُحَرَّمًا ولا يَفْعَلُ فِعْلًا مُحَرَّمًا، ولا يَتْرُكُ واجِبًا، بل يقومُ بالواجِبِ ويَدَعُ المُحَرَّمَ، هذا المُهاجِرُ؛ لأنَّهُ هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنه.

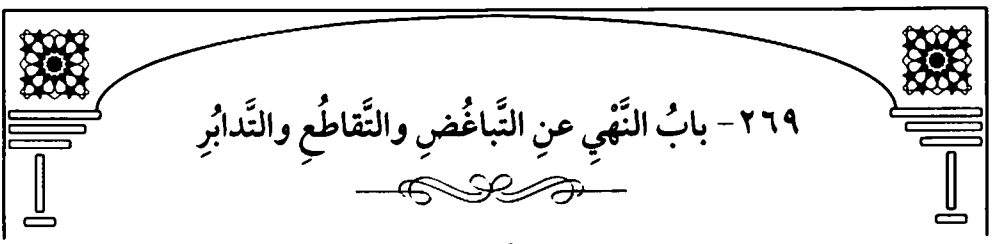
---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٤٣).

أمَّا الحديثُ الثاني: فهو قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ أحَبَّ أنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ». فقولُهُ ﷺ: «مَنْ أحَبَّ» كُلُّ واحدٍ يُحِبُّ أنْ يُزَحْزَحَ عنِ النَّارِ، ويُدْخَلَ الجَنَّةَ؛ لأنَّ مَنْ زُحْزِحَ عنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فقد فازَ، فمَنْ أَحَبَّ ذلك «فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ».

وبناءً على هذا يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يكونَ دائمًا على ذِكْرِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ وتَذَكُّرِهِ؛ لأنَّهُ لا يَدْرِي متى يَأْتِيهِ المَوْتُ، فلْيَكُنْ دائمًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، والإنْسانُ إذا آمَنَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وبمُقْتَضَى أسمائِهِ وصفاتِهِ وآمَنَ باليومِ الآخِرِ وما فيه من الثَّوابِ والعِقابِ فلا بُدَّ أنْ يَسْتَقِيمَ على دينِ اللهِ، وهذا حقُّ اللهِ، أعني قولَهُ: «وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ» أمَّا حقُّ الآدمِيِّ فقال: «وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» فلا يُؤْذِيهم؛ لأنَّهُ لا يُحِبُّ أنْ يُؤْذُوهُ، ولا يَعْتَدِي عليهم؛ لأنَّهُ لا يُحِبُّ أنْ يَعْتَدُوا عليه، ولا يَشْتُمُهم؛ لأنَّهُ لا يُحِبُّ أنْ يَشْتُمُوهُ، وهَلُمَّ جَرًّا، لا يَغُشُّهم في البيعِ والشِّراءِ وغيرِ ذلك، ولا يَكْذِبُ عليهم؛ لأنَّهُ لا يُحِبُّ أن يُفْعَلَ به ذلك، وهذه قاعدةٌ لو أنَّ النَّاسَ مشَوْا عليها في التَّعامُلِ فيما بينهم لنالوا خيرًا كثيرًا، ويُشْبِهُ هذا قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ»[1]. واللهُ المُوَفِّقُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه...، رقم (٤٥)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



٢٦٩- بابُ النَّهْيِ عنِ التَّباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّـوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ النَّهْيِ عنِ التَّباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ» والتَّباغُضُ بالقُلوبِ، والتَّقاطُعُ بالأفْعالِ والأقْوالِ، والتَّدابُرُ بالأفْعالِ.

أمَّا التَّباغُضُ بالقُلوبِ: أنْ يَبْغَضَ الإنْسانُ أخاهُ المُؤْمِنَ، وبُغْضُ المُؤْمِنِ حرامٌ، لأيِّ شيءٍ تَبْغَضُهُ؟! قد تَبْغَضُهُ لأنَّهُ يَعْصي اللهَ عَزَّوَجَلَّ فنقولُ: وإذا عَصى اللهَ لا تَبْغَضْهُ بُغْضًا مطلقًا، فالذي تَبْغَضُهُ بُغْضًا مُطْلقًا على كُلِّ حالٍ هو الكافِرُ؛ لأنَّهُ ليس فيه خيرٌ، أمَّا المُؤْمِنُ وإنْ عصى وإنْ أصَرَّ على مَعْصِيةٍ يَجِبُ أنْ تُحِبَّهُ على ما معه منَ الإيمانِ، وأنْ تَكْرَهَهُ على ما معه من الفِسْقِ والعِصْيانِ.

فإنْ قال إنْسانٌ: كيفَ يَجْتَمِعُ البُغْضُ والحُبُّ؟

قلنا: يَجْتمعانِ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما مُنْصَبٌّ على وجهٍ، لم يَتَّفِقا في مَحَلٍّ واحدٍ، أُحِبُّهُ لإيمانِهِ وأَكْرَهُهُ لِفُسوقِهِ، نظيرُ ذلك المريضُ يُعْطى دواءً مُرًّا رائِحَتُهُ كريهةٌ فيُحِبُّ هذا الدواءَ من وجـهٍ ويَكْرَهُهُ من وجهٍ، يُحِـبُّه لِمَا فيه من الشِّفاءِ، ويَكْرَهُهُ لطَعْمِهِ أو رائِحَتِهِ أو ما أَشْبَهَ ذلك، وكذلك أخوك المُؤْمِنُ، أنت وإيَّاهُ في أصلٍ واحدٍ وهو الإيمانُ، لماذا تَبْغَضُهُ بُغْضًا مطلقًا؟ ابْغَضْهُ على ما معه من المعصيةِ لا بَأْسَ، وأَحِبَّهُ على ما معه من الإيمانِ، إذا أحْبَبْتَهُ لِمَا معه من الإيمانِ وكَرِهْتَهُ لما معه منَ الفِسْقِ هذا يُؤَدِّي إلى أنْ تَنْصَحَهُ؛ لأنَّهُ أخوك، فتُحِبُّهُ وتَوَدُّ له ما تَوَدُّ لنفسك فتَنْصَحُهُ على ما تَكْرَهُ فيه من المعصيةِ.

ومن ذلك السلامُ عليه، ولو كان عنده معصيةٌ إلَّا إذا عَلِمْتَ أنَّك إذا تَرَكْتَ السلامَ عليه اهْتَدَى وصَلَحَتْ أُمُورُهُ، فهنا يكونُ الهَجْرُ دَواءً نافعًا.

وأمَّا التقاطعُ فهو قَطْعُ الصِّلةِ بينك وبين أخيك، أخوك المُؤْمِنُ له حقٌّ عليك أنْ تَصِلَهُ ولا يَحِلُّ لك أنْ تَقْطَعَهُ؛ لأنَّهُ أخوك حتَّى وإن كان عاصيًا؛ ولذلك تَجِدُ الإنْسانَ يُكْرِمُ جارَهُ ولو كان عاصيًا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»[1] أكْرِمْهُ ولو كان عاصيًا، ولكنِ انْصَحْهُ.

وكذلك بعضُ النَّاسِ يُقاطِعُ أقارِبَهُ لأنَّهم قَطعوهُ أو لأنَّهُم على مَعْصِيةٍ وهذا خطأٌ، صِلْ أقارِبَك ولو كانوا عُصاةً، صِلْهم وإنْ كانوا يُقاطِعونك، كما جاءَ رَجُلٌ للرَّسُولِ ﷺ قال: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ لي رَحِمًا أَصِلُهُم ويَقْطَعُونني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسِيئُونَ إليَّ، وأَحْلُمُ عليهم، وقال كَلِمةً أُخْرَى؛ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «إنْ كَانَ الأَمْرُ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ»[2] يعني كأنَّما تُدْخِلُ في قُلوبَهُم الرَّمادَ، أو التُّرابَ الحارَّ، يعني فاسْتَمِرَّ على صِلَتِهِمْ ولو كانوا يَقْطَعُونك، ولو كانوا يُسِيئُونَ إليك ولو كانوا يَعْتَدُونَ عليك، صِلْهم؛ لأنَّ مَنْ لا يَصِلُ إلَّا إذا وُصِلَ فليس بواصِلٍ بل هو مُكافِئٌ.

التَّدابُرُ أيضًا لا يَحِلُّ بين المُؤْمِنِينَ، لكنْ هل هو التَّدابُرُ في القُلوبِ أو التَّدابُرُ في الأبْدانِ أو هذا وهذا، إنَّهُ هذا وهذا، لا تَدَابَرُوا في القُلوبِ حتَّى لو وَجَدْتَ من أخيك أنَّهُ أَدْبَرَ عنك بقَلْبِهِ، فاقْرُبْ منه وأقْبِلْ عليه ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لو طَبَّقْنا هذه التَّوْجيهاتِ الإلَهِيَّةَ والنَّبَوِيَّةَ لَحَصَلَ لنا خيرٌ كثيرٌ، لكنَّ الشَّيْطانَ يَلْعَبُ علينا، ويقولُ: كيفَ تَصِلُهُ وهو يَقْطَعُكَ؟ كيفَ تُقْبِلُ عليه وهو يُدْبِرُ عنك؟ أمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ والنَّبِيُّ ﷺ فإنَّ نُصوصَ الكِتابِ والسُّنَّةِ كُلَّها تُحَرِّمُ التَّدابُرَ.

وكذلك التَّدابُرُ بالأبْدانِ بعضُ النَّاسِ لا يُهِمُّهُ أنْ يُصَعِّرَ وجْهَهُ للنَّاسِ وأنْ يُعْرِضَ، رُبَّما يكونُ من كِبْريائِهِ يَتَكَلَّمُ معك ووجْهُهُ لجانِبٍ آخَرَ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، هذا لا يَحِلُّ.

بعضُ النَّاس أيضًا كالبهائِمِ تَجِدُهم جُلوسًا في مكانٍ واحدٍ، كُلُّ واحدٍ يُوَلِّي دُبُرَهُ وظَهْرَهُ، وهذا ليس أَدَبًا شَرْعِيًّا ولا أدبًا عَرَبِيًّا ولا حُسْنَ خُلُقٍ، وقد وَصَفَ اللهُ تَعالى أهلَ الجَنَّةِ بأنَّهم على سُرُرٍ مُتقابِلِينَ، فالتَّقابُلُ صفةٌ حميدةٌ طَيِّبَةٌ، والتَّدابُرُ صفةٌ ذميمةٌ خبيثة، لكنَّ بعضَ النَّاسِ هَمَجٌ ليس عندهم تَرْبيةٌ إسْلامِيَّةٌ، وتَجِدُهم في المجالِسِ مُتدابِرِينَ، وهذا خطأٌ.

ومِمَّا يُشْبِهُ هذا الفِعْلَ ما يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ إذا سَلَّمَ منَ الصَّلاةِ وهو في الصَّفِّ تَقَدَّمَ قليلًا، وجَعَلَ النَّاس وراءَهُ واسْتَقْبَلَهُم بدُبُرِهِ، وفي ظَنِّي أنَّهُ يَتَخَيَّلُ في تلك اللَّحْظةِ أنَّهُ ذو عَظَمةٍ، وأنَّ النَّاسَ وراءَهُ؛ لأنِّي ما أَظُنُّ أحدًا يَتَقَدَّمُ هذا التَّقَدُّمَ إلَّا ويَشْعُرُ -وإنْ كان من غيرِ قصدٍ- بالعَظمةِ، ولقدْ رَأَيْتُموني أنْهَى عنه إذا وَجَدْتُ إنْسانًا فَعَلَ ذلك؛ لأنَّ هذا يُشْبِهُ التَّدابُرَ.

فإذا قال: ضاقَ عليَّ المكانُ، ولا أستطيعُ أنْ أبْقَى مُفْتَرِشًا.

قُلْنا: يا أخي، الأمْرُ واسِعٌ والحمدُ لله، قُمْ وتَقَدَّمْ وابْتَعِدْ وافْعَلْ ما شِئْتَ، أو تَأَخَّرَ، أمَّا أنْ تَتَقَدَّمَ على النَّاسِ وتكونَ بين أيْدِيهم والنَّاسُ مِن ورائِكَ، فهذا لا يَنْبَغِي.

هذه ثلاثةُ أشياءَ: الأوَّلُ التَّباغُضُ، والثاني التَّقاطُعُ، والثالِثُ التَّدابُرُ؛ كُلُّ هذا مَنْهِيٌّ عنه، واللهُ أعْلَمُ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، **وقال تَعَالَى:** ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، **وقال تَعَالَى:** ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّـوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بابُ النَّهْيِ عنِ التَّباغُـضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ، وسَبَقَ الحديثُ عمَّا وَرَدَ في هذا البابِ، ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك بقولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]. وهذه الآيةُ في سِياقِ ذِكْرِ الطَّائِفَتَيْنِ تَقْتَتِلانِ فتُصْلِحُ بينهما طائِفةٌ أُخْرى فقالَ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، وسياقُ الآياتِ يقـولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]. يعني لو اقْتَتَلَتْ طائِفتانِ أو قَبيلتانِ من المُسْلِمِينَ فيما بينهما ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ والخطابُ لِمَنْ له الأمْرُ منَ المُؤْمِنِينَ الذين لم يُقاتِلوا ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ وأبتْ أنْ تُصالِحَ فقاتِلوا التي تَبْغِي، يعني كونوا مع الطائفةِ العادلةِ التي ليست باغيةً، قاتِلُوا الباغيةَ ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي حتَّى تَرْجِعَ إليه ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أيْ فيما جرَى بينهم من إتلافِ أنْفُسٍ أو أمْوالٍ أو غيرِ ذلك ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

فيُقالُ مثلًا: كم أنْفُسًا قُتِلَتْ من الطَّائِفتيْنِ؟ وكم أُتْلِفَ من مالٍ؟ فيُعادَلُ ويُصْلَحُ بينهما، ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ

فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]. أي الذين يَعْدِلونَ فيما ولَّاهُمُ اللهُ عليه.

قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ المُؤْمِنُونَ كُلُّهم إِخْوَةٌ حتَّى الطَّائفتانِ المُقْتَتِلتانِ هم إِخْوةٌ للذين أَصْلَحُوا بينهما.

وفي هذه الآيةِ ردٌّ صريحٌ لِقَوْلِ الخوارِجِ الذين يقولون: إنَّ الإنْسانَ إذا فَعَلَ الكبيرةَ صار كافِرًا، فإنَّهُ من أكبرِ الكبائِرِ أنْ يَقْتَتِلَ المُسْلِمونَ بينهم، ومع ذلك قال اللهُ فيهم -أي المُقْتَتِلِينَ وفي الطائفةِ التي أَصْلَحَتْ بينهما: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

فإذا كان اللهُ تَعالى أَوْجَبَ الإصْلاحَ بين المُتقاتِلِينَ، فكذلك أيضًا بين المُتعادِينَ عَداءً دون القَتْلِ، يَجِبُ على الإنْسانِ إذا عَلِمَ أنَّ بين اثْنينِ عَداوةً وبَغْضاءَ وشَحْناءَ وتَباعُدًا أنْ يُحاوِلَ الإصْلاحَ بينهما، وفي هذه الحالِ يجوزُ أنْ يَكْذِبَ للمَصْلحةِ، فيقولُ مثلًا لأحَدِهِما: إنَّ فُلانًا لم يَفْعَلْ شيئًا يَضُرُّكَ، وما أَشْبَهَ ذلك، ويَتَأَوَّلُ شيئًا آخَرَ غيرَ الذي أَظْهَرَهُ لهذا الرَّجُلِ حتَّى يَتِمَّ الصُّلْحُ بينهما، والصُّلْحُ خَيْرٌ.

أمَّا الآيةُ الثانيةُ: فهي قولُهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤]. يعني أنَّكُم لو ارْتَددتُم عن دِينكُم فإنَّ ذلك لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، يَأْتِي اللهُ بقومٍ يُحِبُّهُم ويُحِبُّونهُ لِقيامِهِمْ بعِبادتِهِ واتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لأنَّ مِن أَقْوَى أَسْبابِ مَحَبَّةِ اللهِ للعَبْدِ أنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ كما قال اللهُ تَعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

فأنت إذا أَحْبَبْتَ أنَّ اللهَ يُحِبُّكَ فاتَّبِعِ الرَّسُولَ ﷺ، فالطَّرِيقُ بَيِّنٌ واضحٌ،

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. وهذا وصْفُ المُؤْمِنِ حَقًّا أَنَّهُ بالنِّسْبةِ لإخْوانِهِ المُسْلِمِينَ ذليلٌ مُتواضِعٌ مُتهاوِنٌ مُتسامِحٌ، أمَّا على الكافِرِينَ فهم أَعِزَّةٌ على الكافِرِينَ، يعني أَنَّهُم أقْوياءُ أمامَ الكافِرِ لا يَلِينُونَ له ولا يُداهِنُونَهُ ولا يُحِبُّونَهُ ولا يُوادُّونَهُ؛ لأنَّ كُلَّ هذا بالنِّسْبةِ للكافِرِ حرامٌ على المُؤْمِنِ، لا يجوزُ للمُؤْمِنِ أنْ يُوادَّ الكافِرَ، ولا يجوزُ له أنْ يَذِلَّ له؛ لأنَّ اللهَ تَعالى جَعَلَ له دِينًا يَعْلُو على الأدْيانِ كلِّها، بل يَجِبُ علينا أنْ نَبْغَضَ الكُفَّارَ، وأنْ نَعْتَبِرَهُم أعْداءً لنا، وأنْ نَعْلَمَ أنَّهُم لن يَفْعَلُوا بنا شيئًا هو في مَصْلَحَتِنا إلَّا لِينالُوا ما هو أَشَدُّ مما نَتَوَقَّعُ منَ الإضرارِ بنا؛ لأنَّهم أعْداءٌ، والعَدُوُّ يريدُ أنْ يَفْعَلَ بك كُلَّ سُوءٍ، وإنْ تَظاهَرَ بأَنَّهُ صديقٌ أو بأَنَّهُ وَلِيٌّ لك فهو كاذِبٌ، إنَّما يَسْعى لِمَصْلَحَتِهِ؛ لأنَّهُ لا أحَدَ أصْدَقُ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وهو يَعْلَمُ ما في الصُّدورِ.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة:١]. ويقولُ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]. ويقولُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]. مُحالٌ أنْ يَرْضُوا عنِ المُسْلِمِينَ إلَّا إذا تَهَوَّدُوا أو تَنَصَّرُوا؛ ولهذا هم الآنَ يُحاولونَ بكُلِّ ما يستطيعونَ أنْ يَصُدُّوا النَّاسَ عن دِينِهِمْ تارةً بالأخْلاقِ السافِلةِ، وتارةً بالمَجلَّاتِ، وتارةً بالدِّعاياتِ الخبيثةِ، وتارةً بالصَّراحةِ يَدْعُونَ إلى الكُفْرِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص:٤١]. ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢].

فيقولُ عَزَّوَجَلَّ في وصفِ هَؤُلاءِ القومِ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا هو الشَّاهِدُ.

يقولُ عَزَّوَجَلَّ في الآيةِ الثالثةِ التي ساقَها المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. هذا وصْفٌ للرَّسُولِ ﷺ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني أصْحابَهُ وصَفَهُم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أقوياءَ على الكُفَّارِ لا يَلِينُون لهم ولا يُداهِنُونَهم ولا يُوالُونَهم ولا يُوادُّونَهم، لكنْ فيما بينهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ يَرْحَمُ بعضُهُم بعضًا، ويَلِينُ بعضُهُم لبعضٍ، ويَرْأَفُ بعضُهُم لبعضٍ، وهذا حالُ المُؤْمِنِينَ، وضِدُّ ذلك نقصٌ في الإيمانِ، مَنْ لا يَرْحَمُ إخْوانَهُ المُؤْمِنِينَ فإنَّ ذلك يُعَدُّ نَقْصًا في إيمانِهِ، ورُبَّما يُحْرَمُ الرَّحْمَةَ؛ لأنَّ مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ -والعياذُ باللهِ- وأيضًا ضِدُّ ذلكَ التَّباغُضُ، فاحْرِصْ على أنْ تُزِيلَ كُلَّ سببٍ يكونُ سببًا للبَغْضاءِ بينكم أنتم المسلمونَ.

بعضُ النَّاسِ يَبْغَضُ أخاهُ من أجلِ شيءٍ من الدُّنْيا إمَّا لأجْلِ مالٍ أو لأجْلِ أنَّهُ لا يُقابِلُهُ ببَشاشةٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، وهذا خطأٌ، حَاوِلْ أنْ تُزِيلَ البَغْضاءَ بينك وبين إخْوانِكَ بقَدْرِ المُسْتطاعِ، وحاوِلْ أنْ تَبْتَعِدَ عن كُلِّ شيءٍ يُثِيرُ العداوةَ والبَغْضاءَ؛ لأنَّكم إخْوةٌ، نسألُ اللهَ تَعالى أنْ يُوَفِّقَنا وإيَّاكم لِمَا في خيرٌ وإصْلاحٌ.

١٥٦٧- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي التحاسد والتباغض والتدابر، رقم (٢٥٥٨).

الشَّرْح

لَمَّا ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الآياتِ الدَّالَّةَ على تَحْرِيمِ التَّباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ ذَكَرَ أحاديثَ منها حديثُ أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا**» هذه أَرْبعةُ أشياءَ نَهى عنها النَّبِيُّ ﷺ.

الأوَّلُ: التَّباغُضُ نهى عنه الرَّسُولُ ﷺ حتَّى لو وَقَعَ في قَلْبِكَ بُغْضٌ لإنْسانٍ فحاوِلْ أن تَرْفَعَ هذا عن قَلْبِكَ، وانْظُرْ إلى مَحاسِنِهِ حتَّى تَمْحُوَ سَيِّئاتِهِ، وقدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ إلى هذا حيثُ قال: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً**» يعني لا يَبْغَضِ المُؤْمِنُ المُؤْمنةَ -يعني زَوْجتَهُ- «**إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا خُلُقًا آخَرَ**»[1]، وهذا من المُوازَنةِ بين الحَسناتِ والسَّيئاتِ، وبعضُ النَّاسِ يَنْظُرُ إلى السَّيئاتِ والعياذُ باللهِ فيَحْكُمُ بها ويَنْسَى الحسناتِ، وبَعْضُهُم يَنْظُرُ للحسناتِ ويَنْسَى السَّيئاتِ، والعَدْلُ أنْ يُقارِنَ الإنْسانُ بين هذا وهذا، وأنْ يميلَ إلى الصَّفْحِ والعَفْوِ والتَّجاوُزِ، فإنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ العافينَ عنِ النَّاسِ، فإذا وجَدْتَ في قَلْبِكَ بَغضاءَ لشخصٍ فحاوِلْ أنْ تُزِيلَ هذه البغضاءَ، وذَكِّرْ نَفْسَكَ بمَحاسِنِهِ رُبَّما يكونُ بينك وبينه سُوءُ عِشْرَةٍ، أو سُوءُ مُعاملةٍ، لكنَّهُ رجلٌ فاضلٌ طَيِّبٌ مُحْسِنٌ إلى النَّاسِ، يُحِبُّ الخيرَ ويَبْذُلُ فيه، تَذَكَّرْ هذه المحاسِنَ حتَّى تكونَ المُعاملةُ السَّيئةُ التي يُعامِلُكَ بها مُضْمَحِلَّةً مُنْغَمِرةً في جانبِ الحسناتِ.

والثاني: المُناجَشةُ: الزِّيادةُ في الثَّمنِ بغَيْرِ إرادةِ الشِّراءِ، مثلًا رَأَيْتَ سِلْعةً -يُنادَى عليها في السُّوقِ للمُزايدةِ- ثَمَنُها مثلًا مائةُ رِيالٍ، فنَاجَشْتَ عليه وقُلْتَ بمائةٍ وعَشَرَةٍ وأنت لا تُرِيدُها، ولكنْ تُرِيدُ أنْ يَزِيدَ الثَّمنُ على المُشْتري، فهذا حرامٌ وعُدْوانٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أمَّا لو كُنْتَ رأيتَ السِّلْعةَ رخيصةً بمائةِ ريالٍ مثلًا، وزِدْتَ وقُلْتَ بـ(مائةٍ وعَشَرَةٍ) ولم يَكُنْ عندك نِيَّةٌ لشِرائِها لكنِ اسْتَرْخَصْتَها فزِدْتَ حتَّى بَلَغَتِ الثَّمنَ الذي لا تَرى فيه مَصْلَحة لك فتَرَكْتَها، فهذا لا بأسَ به، لكنْ إذا كان قَصْدُكَ العُدْوانَ على المُشْتري وأنْ تُنكِّدَ عليه، وتَزِيدَ عليه الثَّمنَ فهذا هو النَّجْشُ وهو حرامٌ، وكذلك لو زادتِ السِّلْعةُ من أجْلِ نَفْعِ البائِعِ وهو لا يَعْرِفُ المُشْتَرِيَ وليس بينه وبينه شيءٌ لكنْ يُرِيدُ أنْ يَنْتَفِعَ البائِعُ فزَادَ في الثَّمَنِ وهو لا يُرِيدُ الشِّراءَ وإنَّما يُرِيدُ نَفْعَ البائِعِ -فمثلًا- قُدِّرَتِ السلعةُ بمائةِ ريالٍ فقال بمائةٍ وعَشَرَةٍ لا إضْرَارًا بالمُشْتَري؛ لأنَّهُ ليس يَعْرِفُهُ وليس بينه وبينه شيءٌ لكنْ من أجْلِ نَفْعِ البائِعِ هذا أيضًا حرامٌ، لا يجوزُ، وهو منَ المُناجَشَةِ التي نهى عنها النَّبيُّ ﷺ وكذلك أيضًا إذا أرادَ الأمْرَيْنِ جميعًا، يعني أرادَ أنْ يَنْفَعَ البائِعَ ويَضُرَّ المُشْتَرِيَ، فهذا أيضًا حرامٌ وهو من النَّجْشِ الذي حرَّمَهُ الرَّسُولُ ﷺ.

الثالثُ: «**وَلَا تَدَابَرُوا**»: سَبَقَ الكَلامُ عليه[1].

الرَّابعُ: «**وَلَا تَقَاطَعُوا**»: يعني لا يَقْطَعُ أخٌ أخاهُ بل يُواصِلُهُ بحَسَبِ العُرْفِ، وبحَسَبِ السَّببِ الدَّاعي للصِّلةِ؛ لأنَّ القريبَ تَصِلُهُ لقُرْبِهِ، والجارَ لجِيرتِهِ، والصاحِبَ لِصُحْبَتِهِ، وهكذا لا تُقاطِعْ أخاكَ بل صِلْهُ، فإنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ الواصِلِينَ الذين يَصِلُونَ أرْحامَهُم، ولا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ، والهَجْرُ منَ التَّقاطُعِ أي يَلْقاهُ ولا يُسَلِّمُ عليه وهذا حرامٌ، إلَّا أنَّ النَّبيَّ ﷺ رَخَّصَ فيه ثلاثةَ أيَّامٍ؛ لأنَّ الإنْسانَ رُبَّما يكونُ في نفسِهِ شيءٌ لا يَعْفُو عن أحدٍ، فيجوزُ أنْ يَهْجُرَهُ رُخْصةً ثلاثةَ أيَّامٍ، وبعدَ الأيامِ الثلاثةِ لا يجوزُ أنْ يَلْقاهُ فلا يُسَلِّمُ عليه، إلَّا إذا كان على معصيةٍ،

(١) انظر: (ص:٤٤٤).

فإذا هَجَرْناهُ تَرَكَ المَعْصِيةَ فنَهْجُرُهُ للمَصْلحةِ كما هَجَرَ النَّبِيُّ ﷺ الثَّلاثةَ الذين خُلِّفُوا وتَخَلَّفُوا عن غَزْوَةِ تَبُوكَ، وإلَّا فالأصلُ أنَّ الهَجْرَ حرامٌ.

وأمَّا قَوْلُ بعضِ العُلَماءِ وهو إطْلاقُهُم أنَّ المُجاهِرَ بالمعصيةِ يُهْجَرُ فهذا فيه نظرٌ، فصارَ عندنا الهَجْرُ إلى ثلاثٍ جائزٌ، وفَوْقَ الثَّلاثِ فهو حَرامٌ إلَّا للمَصْلحةِ، واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٦٨- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «تُفْتَحُ أَبْوابُ الجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ويَوْمَ الخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بينهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْناءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا! أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا!». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

وفي رِوايةٍ لَهُ: «تُعْرَضُ الأعْمَالُ في كُلِّ يَوْمِ خَمِيسٍ واثْنَيْنِ» وذَكَرَ نَحْوَهُ.

الشَّرْح

هذا الحديثُ ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ التَّباغُضِ والتَّقاطُعِ والتَّدابُرِ عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ فِي كُلِّ يَوْمَ اثْنَيْنِ وخَمِيسٍ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَّا رَجُلَيْنِ بَيْنَهُمَا شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا». وفي رِوايةٍ: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ عَلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ كُلَّ يَوْمِ خَمِيسٍ واثْنَيْنِ فيُغْفَرُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَّا رَجُلَيْنِ بَيْنَهُمَا شَحْنَاءُ فيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حتَّى يَصْطَلِحَا» فدَلَّ ذلك على أَنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يُبادِرَ بإزالةِ الشَّحناءِ والعَداوةِ والبَغْضاءِ بينه وبين إخْوانِهِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم (٢٥٦٥).

حتَّى وإنْ رأى في نفسِهِ غَضاضةً وثِقَلًا في طلبِ إزالةِ الشَّحْناءِ فلْيَصْبِرْ ولْيَحْتَسِبْ؛ لأنَّ العاقِبةَ في ذلك حميدةٌ، والإنْسانُ إذا رأى ما في العَمَلِ من الخيرِ والأجْرِ والثَّوابِ سَهُلَ عليه، وكذلك إذا رَأى الوعيدَ على تَرْكِهِ سَهُلَ عليه، وإذا كان الإنْسانُ لا يستطيعُ أنْ يَذْهَبَ إلى الشَّخْصِ ويَقُولَ: يَجِبُ أنْ نُصالِحَ بَعْضَنا بَعْضًا ونُزِيلَ ما بَيْننا منَ العَداوةِ والبَغْضاءِ، فبإمكانِهِ أنْ يُوَسِّطَ رَجُلًا ثِقةً يرضاهُ الطَّرفانِ ويَذْهَبَ إليه ويَقُولَ: إنِّي أَجِدُ بينك وبين فُلانٍ كذا وكذا، فلو اصْطَلَحْتُمْ وأزَلْتُمْ ما بينكم منَ العَداوةِ والبَغضاءِ فيكون هذا حَسنًا جَيِّدًا. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٧٠- بابُ تَحْرِيمِ الحَسَدِ

وَهُوَ تَمَنِّي زَوالِ النِّعْمةِ عن صاحِبها، سَواءٌ كَانَتْ نِعْمةَ دِينٍ أَوْ دُنْيا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[النساء:٥٤] وفِيهِ حديثُ أنسٍ السابِقُ في البابِ قَبْلَهُ.

١٥٦٩- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالحَسَدَ؛ فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ» أَوْ قَالَ: «العُشْبَ». رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ[1].

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ تَحْرِيمِ الحَسَدِ».

والحَسَدُ: هو أنْ يَكْرَهَ الإنْسانُ ما أنْعمَ اللهُ به على غيرِهِ من عِلْمٍ أو مالٍ أو أهْلٍ أو جاهٍ أو غيرِ ذلك، وهو من كَبائِرِ الذُّنوبِ ومن سِماتِ اليَهودِ والعياذُ باللهِ كما قال اللهُ تَعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[البقرة:١٠٩]. وقال تَعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي أعْطاهُم من فَضْلِهِ ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء:٥٤]. وحَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ من الحَسَدِ وبيَّنَ أَنَّهُ يَأْكُلُ الحسناتِ كما تَأْكُلُ النَّارَ العُشْبَ أو قال الحَطَبَ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الحسد، رقم (٤٩٠٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحسد، رقم (٤٢١٠).

ثم إنَّ الحَسَدَ فيه اعْتراضٌ على قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ؛ لأنَّ الحاسِدَ لم يَرْضَ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، فهو لم يَرْضَ أنَّ اللهَ أعْطى هذا الرَّجُلَ مالًا أو أعْطاهُ أهْلًا أو أعطاهُ عِلْمًا، ففيه اعْتراضٌ على قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، ثم إنَّ الحَسَدَ جَمْرةٌ في القلبِ والعياذُ باللهِ، كلَّما أنْعَمَ اللهُ على عبدِهِ نِعْمةً احْتَرَقَ هذا القلبُ والعياذُ باللهِ؛ حيثُ أنْعَمَ اللهُ تَعالى على عبادِهِ، فتَجِدُهُ دائمًا في نَكدٍ وقَلقٍ، والحَسَدُ رُبَّما يَحْصُلُ منه بَغْيٌ وعُدْوانٌ على غيرِهِ ممَّنْ آتاهُ اللهُ منْ فضلِهِ، فرُبَّما يُشَوِّهُ سُمْعَتَهُ عندَ النَّاسِ، ويقولُ فيه كذا وكذا، وهو كاذِبٌ، أو صادقٌ لكنْ يُرِيدُ أنْ يَحْسُدَ هذا الرَّجُلَ على النِّعْمةِ، فرُبَّما يَحْصُلُ منه هذا العُدْوانُ على أخيهِ المُسْلِمِ.

ثم إنَّ الحَسَدَ لا يَرُدُّ نِعْمةَ اللهِ على عبدِهِ، مهما حَسَدْتَ ومهما أَرَدْتَ فإنَّكَ لنْ تَمْنَعَ قَدَرَ اللهِ على عبادِهِ، قال النَّبِيُّ ﷺ لعبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ**»[1]، وإلا فلنْ يَضُرُّوكَ.

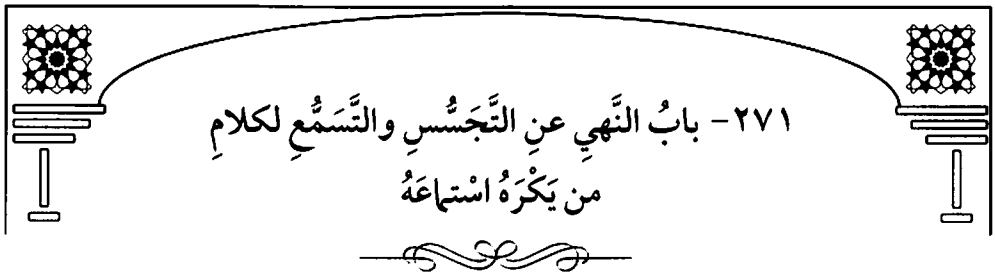
فالواجِبُ على الإنْسانِ إذا رأَى من نفسه حَسَدًا لأحدٍ أنْ يَتَّقِيَ اللهَ، وأنْ يُوَبِّخَ نفسَهُ، ويقولَ لها: كيفَ تَحْسُدِينَ النَّاسَ على ما آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ؟! كيفَ تَكْرَهِينَ نِعْمةَ اللهِ على عِبادِهِ؟! يقولُ: أرأيتِ لو كانت هذه النِّعْمةُ عندكِ أتُحِبِّينَ أنَّ أحدًا يَحْسُدُكِ عليها؟! ويُوَبِّخُ النَّفْسَ، وكذلك يقولُ لها: أنتِ لو حَسَدْتِ وكَرِهْتِ ما أعْطى اللهُ من فضلِهِ فإن ذلك لنْ يَضُرَّ المَحْسُودَ، بل هو ضررٌ على الحاسِدِ، وأشباهُ ذلك مما يُوَبِّخُ به نفسَهُ؛ حتَّى يَتَخَلَّصَ ويَدَعَ ما فيه من الحَسَدِ، وحينئذٍ يَطْمَئِنُّ ويَسْتَرِيحُ ولا يَتَكَدَّرُ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٥١٦).

اللهُمَّ اهْدِنا لأحْسَنِ الأخْلاقِ والأعْمالِ، لا يَهْدِي لأحْسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عنَّا سَيِّئَ الأخْلاقِ، لا يَصْرِفُ عنَّا سَيِّئَها إلَّا أنت.





٢٧١- بابُ النَّهيِ عنِ التَّجَسُّسِ والتَّسَمُّعِ لكلامِ من يَكْرَهُ اسْتِماعَهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات:١٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

١٥٧٠- وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، ولا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهُنَا التَّقْوَى هاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعِرْضُهُ، وَمَالُهُ. إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وأَعْمَالِكُمْ»[(١)].

وَفِي رِوايةٍ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، رقم (٢٥٦٣).

وفي رِوايةٍ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوانًا»[(١)].

وَفِي رِوايةٍ: «لَا تَهَجَّرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ»[(٢)].

رَواهُ مُسْلِمٌ بِكُلِّ هذِهِ الرِّواياتِ، وروى البُخارِيُّ أَكْثَرَهَا[(٣)].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ النَّهْيِ عنِ التَّجَسُّسِ».

والتَّجَسُّسُ: هو أنْ يَتَتَبَّعَ الإنْسانُ أخاهُ لِيَطَّلِعَ على عَوراتِهِ، سواءٌ كان ذلك عن طريقٍ مُباشِرٍ، بأنْ يَذْهَبَ هو بنفسِهِ يَتَجَسَّسُ لعلَّهُ يَجِدُ عَثْرَةً أو عَوْرةً، أو كان عن طريقِ الآلاتِ المُسْتَخْدمةِ في حِفْظِ الصَّوْتِ، أو كان عن طريقِ الهاتِفِ، فكُلُّ شيءٍ يُوَصِّلُ الإنْسانَ إلى عَوْراتِ أخيهِ ومَثالِبِهِ فإنَّ ذلك منَ التَّجَسُّسِ، وهو مُحَرَّمٌ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات:١٢] فنهى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنِ التَّجَسُّسِ.

ولمَّا كان التَّجَسُّسُ إيذاءً لأخيكَ المُسْلِمِ، أرْدَفَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ما اسْتَشْهَدَ به من هذه الآيةِ بقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش، رقم (٣٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، رقم (٢٥٦٣).

(٣) من روايات البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، رقم (٥١٤٣)، وكتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم (٦٠٦٤)، وكتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر، رقم (٢١٥٠).

﴿ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨]. لأنَّ التَّجَسُّسَ أذِيَّةٌ، يَتَأَذَّى به المُتَجَسَّسُ عليه، ويُؤَدِّي إلى البَغْضاءِ والعَداوةِ، ويُؤَدِّي إلى تَكْلِيفِ الإنْسانِ نفسَهُ ما لم يَلْزَمْهُ، فإنَّكَ تَجِدُ المُتَجَسِّسَ والعياذُ باللهِ، مرَّةً هنا ومرَّةً هنا، ومرَّةً هنا، ومرَّةً يَنْظُرُ إلى هـذا، ومرَّةً يَنْظُـرُ إلى هذا، فقد أَتْعَبَ نفسه في أَذِيَّةِ عِبادِ اللهِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

ومِنَ التَّجَسُّسِ أنْ يَتَجَسَّسَ على البُيوتِ، ويَقِفَ عندَ البابِ، ويَسْتَمِعَ لِمَا يُقالُ في المَجْلِسِ ثم يَبْنِيَ عليه الظَّنَّ الكاذِبَ، والتُّهَمَ التي ليس لها أصْلٌ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في رِواياتِهِ وأكْثَرُها قد تَقَدَّمَ لكنْ من أهَمِّ ما ذُكِرَ «إيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ» وهذا مُطابِقٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢] لكنْ في هذه الآيةِ قال اللهُ تَعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾. ولم يقل: الظَّنَّ كُلَّهُ؛ لأنَّ الظَّنَّ المَبْنِيَّ على القرائِنِ لا بَأْسَ به، فهو من طَبيعةِ الإنْسانِ أنَّهُ إذا وَجَدَ قَرائِنَ قَوِيَّةً تُوجِبُ الظَّنَّ الحَسَنَ أو غيْرَ الحَسَنِ، فإنَّهُ لا بُدَّ أنْ يَخْضَعَ لهذه القرائِنِ، ولا بَأْسَ بذلك، لكنَّ الظَّنَّ المُجَرَّدَ هو الذي حَذَّرَ منه النَّبِـيُّ ﷺ وقال: «إنَّهُ أَكْذَبُ الحَدِيثِ»؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا ظَـنَّ صارتْ نفسُهُ تُحَدِّثُهُ، تقولُ له فَعَلَ فُلانٌ كذا، وهو يَفْعَلُ كذا، وهو يُرِيدُ كذا وكذا، وما أَشْبَهَ ذلك، وهذا يقولُ الرَّسُولُ ﷺ فيه إنَّهُ أكْذَبُ الحديثِ.

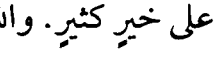
وفيه أيضًا مِمَّا لم يَتَقَدَّمْ شَرْحُهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ» يعني أنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَكُونَ أخًا لأخيهِ، بالمعْنَى المُطابِقِ للأُخُوَّةِ، لا يَكُنْ عَدُوًّا له، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا صارَ بينهُ وبين أخيهِ مُعاملةٌ وساءَ الفَهْمُ بينَهُما في هذه المُعاملةِ اتَّخَذَهُ عَدُوًّا، وهذا لا يجوزُ، بل الواجِبُ أنْ يكونَ الإنْسانُ أخًا لأخيهِ،

في المَحبَّةِ والأُلْفةِ وعدمِ التَّعَرُّضِ له بالسُّوءِ والدِّفاعِ عن عِرْضِهِ وغيرِ ذلك من مُقْتضياتِ الأُخُوَّةِ.

قولُهُ ﷺ: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ**» وهذا أيضًا قد تَقَدَّمَ.

وقال ﷺ: «**التَّقْوَى هاهُنَا**» يشيرُ إلى صَدْرِهِ، يعني في القَلْبِ، وإذا اتَّقَى القَلْبُ اتَّقَتِ الجَوارِحُ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»[1]، يعني القَلْبَ، وبعضُ النَّاس تَنهاهُمْ مثلًا عن شيءٍ منَ الأشْياءِ، تقولُ له: أَعْفِ اللِّحْيَةَ، حرامٌ عليك أنْ تَحْلِقَها، فيقولُ لك: التَّقْوى هاهنا، فيقالُ له: أين التَّقْوى؟ لو اتَّقَى ما هاهنا لاتَّقَى ما هاهنا، يعني لو اتَّقَى القَلْبُ لاتَّقَتِ الجَوارِحُ، وبعضُ النَّاسِ يَجْعَلُ ثَوْبَهُ إلى أسْفَلَ من كَعْبِهِ، فتَنْصَحُهُ في ذلك، فيقولُ لك: التَّقْوى هاهنا فيُقالُ له: أين التَّقْوى؟ لو كان عندك تَقْوَى في قلبِكَ، لاتَّقَيْتَ اللهَ تَعالى في قَوْلِكَ وفِعْلِكَ؛ لأنَّهُ «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**» لكنَّ بعضَ النَّاسِ والعياذُ باللهِ يُجادِلُ بالباطِلِ كالذين جادَلُوا بالباطِلِ لِيُدْحِضُوا به الحقَّ، ومع ذلك لا يَخْفَى جِدالُهُم بالباطِلِ على مَنْ عندَهُ بَصِيرةٌ، ويَعْرِفُ أنَّ هذا جدلٌ ليس له أصلٌ بل هو باطلٌ.

وهذا الحديثُ الذي ذكرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بألفاظِهِ، يَنْبَغِي للإنْسانِ أنْ يَتَّخِذَهُ مَسارًا له ومَنْهَجًا يَسِيرُ عليه ويَبْنِي عليه حياتَهُ فإنَّهُ جامِعٌ لكثيرٍ من مَساوِئِ الأخْلاقِ التي إذا تَجَنَّبها الإنْسانُ حَصَلَ على خيرٍ كثيرٍ. واللهُ المُوَفِّقُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٥٧١- وَعَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ». حديثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1] بِإِسْنَادٍ صحيحٍ.

١٥٧٢- وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فُلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا، فَقَالَ: إِنَّا نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، ولكِنْ إِنْ يَظْهَرْ لَنَا شَيْءٌ نَأْخُذْ بِهِ» حديثٌ حسنٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[2] بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ.

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ منَ الأحاديثِ التي يَتَبَيَّنُ فيها أنَّ الإنْسانَ لا يَتَجَسَّسُ على إخوانِهِ المُسْلِمِينَ، ولا يَتَتَبَّعُ عَوْراتِهِمْ، بل ما ظَهَرَ منها فإنَّهُ يُعامِلُ مَنْ أظْهَرَها بما يَلِيقُ به، وما لم يَظْهَرْ فلا يجوزُ التَّجَسُّسُ ولا التَّحَسُّسُ، كما في حديثِ مُعاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الإنْسانَ إذا تَتَبَّعَ عَوْراتِ المُسْلِمِينَ أهْلَكَهُم أو كادَ أنْ يُهْلِكَهُم؛ لأنَّ كثيرًا منَ الأُمورِ تَجْرِي بين الإنْسانِ وبين ربِّهِ، لا يَعْلَمُها إلَّا هو، فإذا لم يُعْلِمْ بها أَحَدًا، وبَقِيَ عليه سَتْرُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وتابَ إلى رَبِّهِ وأنابَ حَسُنَتْ حالُهُ، ولم يَطَّلِعْ على عَوْرَتِهِ أحدٌ.

ولكنْ إذا كان الإنْسانُ -والعياذُ باللهِ- يَتَتَبَّعُ عَوْراتِ النَّاسِ، ماذا قال فُلانٌ وماذا فَعَلَ، وإذا ذُكِرَ له عَوْرةُ مُسْلِمٍ ذَهَبَ يَتَجَسَّسُ، إمَّا أنْ يُصَرِّحَ، وإمَّا أنْ يُلَمِّحَ فيقولُ مثلًا: قالوا إنَّ فُلانًا قال كذا وكذا، أو فَعَلَ كذا وكذا، فيَنْشُرُ مَعايِبَهُ عندَ الخَلْقِ -والعياذُ باللهِ- وفي الحديثِ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الستر على المسلم، رقم (٤٨٨٨).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في الستر على المسلم، رقم (٤٨٩٠).

يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ، ومَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي بَيْتِهِ»[1] نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ، جَزاءً وِفاقًا.

مثلُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْراتِ المُسْلِمِينَ لِيَفْضَحَهُمْ، يَتَتَبَّعُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَوْرتَهُ حتَّى يَفْضَحَهُ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيَةَ؛ ولا يُغْنِيهِ جُدْرانٌ ولا سُتُورٌ.

وكذلك حديثُ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أُتِي برجُلٍ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ خَمْرًا، لكنَّهُ شَرِبَهُ مُخْتَفِيًا، ولكنَّ هَؤُلاءِ القَوْمَ تَجَسَّسُوا عليه حتَّى أَخْرَجُوهُ على هذه الحالةِ، فبيَّنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ مَنْ أَبْدَى لنا عَوْرَتَهُ أو عَيْبَهُ أخذناهُ به، ومنِ اسْتَتَرَ بِسِتْرِ اللهُ فلا نُؤَاخِذُهُ، وهذا أيضًا يدلُّ على أَنَّهُ لا يَجُوزُ التَّجَسُّسُ.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم (٤٨٨٠)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٧٢- بابُ النَّهْيِ عن سُوءِ الظَّنِّ بالمُسْلِمِينَ من غيرِ ضَرُورةٍ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

١٥٧٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

الشَّرح

أما الآيةُ الكريمةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢] فقد تَكَلَّمْنا عليها فيما سَبَقَ[٢].

وكذلك حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سَبَقَ الكَلامُ عليه[٣] أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ والظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَدِيثِ». واللهُ المُوَفِّقُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، رقم (٥١٤٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس، رقم (٢٥٦٣).

(٢) انظر: (ص:٤٥٩).

(٣) انظر: (ص:٤٥٩).

٢٧٣ - بابُ تَحْرِيمِ احْتِقارِ المُسْلِمِينَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١] وقال تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١].

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ احْتِقارِ المُسْلِمِ» احْتِقارُ المُسْلِمِ ازْدِرَاؤُهُ والسُّخْرِيةُ به والاسْتِهْزاءُ به والحطُّ من قَدْرِهِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وهذا مُحَرَّمٌ لِمَا فيه من العُدْوانِ على أخيكَ المُسْلِمِ، الذي يَجِبُ أنْ تَحْتَرِمَهُ، وأن تُكِنَّ له كُلَّ تقديرٍ؛ لأَنَّهُ أخوكَ، و«المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ»[1] كما قال النَّبِيُّ ﷺ.

ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١] فوَجَّهَ اللهُ الخِطابَ إلى المُؤْمِنِينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وتَوْجِيهُ الخِطابِ إلى المُؤْمِنِ يدلُّ على أنَّ ما يُتْلى عليه فهو منْ مُقْتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فقدَهُ ومُخالَفَتَهُ نَقْصٌ في الإيمانِ، كما أنَّ تَصْدِيرَ الحُكْمِ بالنداءِ يدلُّ على الاهتمامِ به؛ لأنَّ النِّداءَ يعني تَنْبِيهَ المُخاطَبِ لِمَا يُلْقَى إليه، يقولُ تَعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ وهم الرِّجالُ ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه، رقم (١٤١٤)، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنَّ الإناثُ، والسُّخْرِيَةُ قد تكونُ من هيئةِ هذا الرَّجُلِ، وقد يَسْخَرُ من خِلْقتِهِ قِصَرًا أو طُولًا أو ضَخامةً أو نحافةً، أو ما أَشْبَهَ ذلك، ويكونُ كذلك سُخْرِيةً بكلامِهِ وتقليدِ كلامِهِ، اسْتِهْزاءً وسُخْرِيةً، كما يَفْعَلُ بعضُ السُّفهاءِ، يُقَلِّدُ بعضَ القُرَّاءِ أو بعضَ العُلماءِ، يُقَلِّدُ أصْواتَهُمْ، سُخْرِيةً واسْتِهْزاءً والعياذُ باللهِ، ويكونُ كذلك في المُعاملةِ يَسْخَرُ به في مُعاملتِهِ النَّاسَ وكذلك بالمِشْيةِ، فكُلُّ شيءٍ فيه سُخْرِيةٌ بأخيكَ فإنَّهُ داخلٌ في هذه الآيةِ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾. ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾.

وبَيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّهُ رُبَّما يكونُ هَؤُلاءِ الذين سَخِرُوا منهم خَيْرًا منهم عندَ اللهِ وعندَ عِبادِ اللهِ؛ ولهذا قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا في القومِ، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذا في النِّساءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أيْ: لا تُعِيبُوها، وعبَّرَ بقولِهِ: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ مع أنَّهُ من المَعْلومِ أنَّ الإنْسانَ لنْ يَعِيبَ نفسَهُ، لكنَّهُ لَمَّا كان المُؤْمِنُونَ إخْوَةً صارَ أخوكَ كنفسكَ، فقولُهُ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعني: لا تَلْمِزُوا إخْوانَكُمْ، لكنَّهُ عبَّرَ بالنَّفْسِ لِيَتَبَيَّنَ أنَّ أخاكَ بمنزلةِ نَفْسِكَ فكما أنَّكَ تَكْرَهُ أنْ تَلْمِزَ نَفْسَكَ، فأنت مَأْمُورٌ أن تَكْرَهَ لَمْزَ أَخِيكَ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أيْ: يَنْبِزُ بعضُكُم بعضًا باللَّقَبِ؛ سُخْرِيةً به، إمَّا أنْ يُعْزى -مثلًا- إلى قبيلةٍ فيها شيءٌ من اللَّقَبِ المكروهِ، فيَنْسِبُهُ إليها، أو قبيلةٍ فيها شيءٌ من اللَّقَبِ المُضْحِكِ فيَنْسِبُهُ إليها، وما أَشْبَهَ ذلك ممَّا يكونُ نَبْزًا بالألْقابِ.

وقَوْلُهُ: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يعني إنكم إنْ فعلْتُم ذلك كنتم من الفاسِقِينَ ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فالإنْسانُ إذا لَمَزَ أخاهُ أو سَخِرَ منه أو ما

أَشْبَهَ ذلك، فإنَّهُ يكونُ بذلك فاسِقًا، وهذا يَدُلُّ على أنَّ السُّخْرِيةَ من المُؤْمِنِينَ وأنَّ لَمْزَهُمْ وأنَّ مُنابَزَتَهُم بالألْقابِ كُلَّها من كَبائِرِ الذُّنوبِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: مَنِ اسْتَمَرَّ على هذا ولم يَتُبْ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ فإنَّهُ ظالِمٌ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ آيةً أُخْرى وهي قَوْله تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، وويْلٌ كَلِمَةُ وعيدٍ جاءتْ في القُرآنِ في عِدَّةِ مَواضِعَ، وكلُّها تُفِيدُ الوعيدَ والتَّهْديدَ على مَنْ فَعَلَ هذا ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ أيْ: يَعِيبُ غيرَهُ، تارةً بالهَمْزِ وتارةً باللَّمْزِ، فاللَّمْزُ باللِّسانِ، والهَمْزُ بالجَوارِحِ، فالهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ مُتَوَعَّدٌ بهذا الوَيْلِ، والعياذُ باللهِ.

١٥٧٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1]، وَقَدْ سَبَقَ قريبًا بطُولِهِ.

١٥٧٥ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ!» فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

ومعنى «بَطَرُ الحَقِّ» دَفْعُهُ، «وغَمْطُهُمْ»: احْتِقَارُهُمْ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا فِي بابِ الكِبْرِ.

١٥٧٦- وَعَنْ جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَنْ ذا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلانٍ! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرْح

هذه الأحاديثُ في بيانِ تَحْرِيمِ احْتِقارِ المُسْلِمِ.

الحديثُ الأوَّلُ: فهو حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ» بِحَسْبِ، حَسْبُ هنا بمعنى كافٍ، يعني يَكْفِي المُؤْمِنَ من الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ، وهذا تَعْظِيمٌ لاحْتقارِ المُسْلِمِ، وأنَّهُ شَرٌّ عظيمٌ، لو لم يأتِ الإنْسانُ منَ الشَّرِّ إلَّا هذا لكانَ كافيًا، فلا تَحْقِرَنَّ أخاكَ المُسْلِمَ، لا في خِلْقَتِهِ، ولا في ثِيابِهِ، ولا في كلامِهِ ولا في خُلُقِهِ ولا غيرِ ذلك، فأخوكَ المُسْلِمُ حقُّهُ عليك عظيمٌ، فعليكَ أنْ تَحْتَرِمَهُ وأنْ تُوَقِّرَهُ، وأمَّا احْتقارُهُ فإنَّهُ مُحَرَّمٌ، ولا يَحِلُّ لك أنْ تَحْتَقِرَهُ.

حديثُ ابنِ مسعودٍ وحديثُ جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كِلاهُما يدلُّ على تَحْرِيمِ احْتِقارِ المُسْلِمِ، وأنَّهُ لا يَحِلُّ، حتَّى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا حَدَّثَ بحديثِ ابنِ مسعودٍ، أنَّهُ لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ في قلبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ، قالوا: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّ الرَّجُلَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١).

يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنًا، فظَنَّ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنَّ الإنْسانَ إذا تَلَبَّسَ لِباسًا حَسَنًا وانْتَعَلَ نَعْلًا حَسَنًا، فهو منَ التَّعاظُمِ والتَّعالي والتَّكَبُّرِ، فبَيَّنَ لهم النَّبِيُّ ﷺ أنَّ الأمْرَ ليس كذلك فقال: «**إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ**» جميلٌ بذاتِهِ جَلَّ وَعَلَا وبأفعالِهِ وبصِفاتِهِ، وكذلك يُحِبُّ الجمالَ، أيْ: يُحِبُّ التَّجَمُّلَ، وكلَّما كان الإنْسانُ مُتَجَمِّلًا كان ذلك أحَبَّ إلى اللهِ إذا كانَ هذا التَّجَمُّلُ ممَّا يَسَعُهُ، يعني ليس فقيرًا يَذْهَبُ يَتَكَلَّفُ الثِّيابَ الجميلةَ أو النَّعْلَ الجميلةَ، لكنَّهُ قد أنْعَمَ اللهُ عليه وتَجَمَّلَ، فإنَّ الله تَعالى يُحِبُّ أنْ يَرَى أثَرَ نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ[1].

وكذلك حديثُ جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخْبَرَ أنَّ رَجُلًا قال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**» وكان هذا الرَّجُلُ عابِدًا مُعْجَبًا بعملِهِ مُحْتَقِرًا لأخيهِ، الذي رآه مُفَرِّطًا، فأقْسَمَ أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ له، قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «**مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ!**» يعني مَنْ ذا الذي يَحْلِفُ عَلَيَّ أنْ لا أَغْفِرَ لفُلانٍ، والفَضْلُ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يشاءُ، «**فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**» نعوذُ باللهِ، تكَلَّمَ بكلمةٍ أوْبَقَتْ دُنياهُ وآخِرتَهُ وأهْلَكَتْهُ؛ لأنَّهُ قال ذلك مُعْجَبًا بنفسِهِ، مُحْتَقِرًا لأخيهِ، فأقْسَمَ أنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ له، فغَفَرَ اللهُ لهذا الرَّجُلِ؛ لأنَّ معاصِيَهُ دون الشِّرْكِ، أو لأنَّ اللهَ تَعالى مَنَّ عليه فتابَ، وأمَّا الآخَرُ فأحْبَطَ عَمَلَهُ؛ لأنَّهُ أُعجِبَ بعملِهِ، والعياذُ باللهِ وتألَّى على رَبِّهِ، وأقْسَمَ عليه أنْ لا يَغْفِرَ لفُلانٍ، واللهُ تَعالى كامِلُ السُّلطانِ، لا يَتَأَلَّى عليه أحدٌ، ولكنْ إذا حَسُنَ ظَنُّ المَرْءُ برَبِّهِ، وتَأَلَّى على اللهِ في أمْرٍ ليس فيه عُدْوانٌ على

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم (٢٨١٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

الغيرِ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[1].
واللهُ المُوَفِّقُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين، رقم (٢٦٢٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٧٤- بابُ النَّهْيِ عن إظْهارِ الشَّماتةِ بِالمُسْلِمِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور:١٩].

١٥٧٧- وعَن وَاثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيَكَ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ[1]، وقال: «حديثٌ حَسَنٌ».

وفي البابِ حديثُ أَبي هُرَيْرَةَ السَّابِقُ في بابِ التَّجسُّسِ: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ...» الحديثَ.

الشَّرْح

الشَّماتةُ هي: التَّعْيِيرُ بالذَّنْبِ أو بالعَملِ أو بحادثةٍ تقعُ على الإنْسانِ أو ما أَشْبَهَ ذلك، فيُشِيعُهَا الإنْسانُ ويُبَيِّنُها ويُظْهِرُهَا، وهذا مُحَرَّمٌ؛ لأَنَّهُ يُنافي قَوْلَ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]. فإنَّ الأخَ لا يَجِبُ أنْ يُظْهِرَ الشَّماتةَ في أخِيهِ، وكذلك يُنافي قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ حديثَ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللهُ وَيَبْتَلِيَكَ» يعني أنَّ الإنْسانَ إذا عيَّرَ أخاهُ بشيءٍ فرُبَّما يَرْحَمُ اللهُ هذا المُعَيَّرَ ويُشْفي من هذا الشَّيْءِ ويَزُولُ عنه ثم يَبْتَلي به هذا الذي عَيَّرَهُ، وهذا يَقَعُ كثيرًا؛ ولهذا جاءَ في حديثٍ آخرَ،

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٥٠٦).

في صِحَّتِهِ نظرٌ لكنَّهُ مُوافِقٌ لهذا الحديث: «مَنْ عَيَّرَ أَخاهُ بِذَنْبٍ لم يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ»[1]، فإيَّاكَ وتَعْيِيرَ المُسْلِمِينَ والشَّماتةَ فيهم فرُبَّما يَرْتَفِعُ عنهم ما شَمَتَّهم بهم به ويَحِلَّ فيك.



(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٥٠٥)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٢٧٥- بابُ تَحْرِيمِ الطَّعْنِ فِي الأَنْسابِ الثابتةِ فِي ظاهِرِ الشَّرْعِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٨].

١٥٧٨- وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

الشَّرح

«الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ» معناهُ التَّعْيِيرُ بالنَّسَبِ أو أنْ يَنْفِيَ نَسَبَهُ، فمثلًا يقولُ في التَّعْيِيرِ: أنت منَ القبيلةِ الفُلانيةِ التي لا تَدْفَعُ العَدُوَّ ولا تَرْحَمُ الفقيرَ، ويَذْكُرُ فيها مَعايبَ، أو مثلًا يقولُ: أنت تَدَّعِي أَنَّكَ من آل فُلانٍ ولست منهم، أنت ليس فيك خيرٌ، هَؤُلاءِ القَبِيلةُ لو كُنْتَ منهم لكان فيك خيرٌ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.

ثم ذَكَرَ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِم كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ» يعني خَصْلتانِ يَفْعَلُهما النَّاسُ وهما من خِصالِ الكُفْرِ.

الأُولَى: الطَّعْنُ في النَّسَبِ.

والثانيةُ: النِّياحةُ على المَيِّتِ، والنِّياحةُ على المَيِّتِ أنْ يَبْكِيَ عليه النِّساءُ أو الرِّجالُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة، رقم (٦٧).

ولكنَّ النِّساءَ أكثرُ، على شِبْهِ ما تَنُوحُ الحَمامةُ، يعني: يَأْتِينَ بالبكاءِ بِرَنَّةٍ معروفةٍ، وهذا حرامٌ، وقد لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ النَّائِحةَ والمُسْتَمِعةَ.

ومنَ النِّياحةِ ما يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ اليومَ، يَجْتَمِعُونَ في بيتِ الميِّتِ، ويُؤْتَى إليهم بالطَّعامِ أو يَصْنَعُونَ لهم الطَّعامَ ويَجْتَمِعُونَ عليه، فإنَّ هذا مُحَرَّمٌ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ النَّائِحةَ والمُسْتَمِعةَ، وهَؤُلاءِ نُوَّاحٌ؛ لحديثِ جَرِيرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كُنَّا نَرَى الاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ المَيِّتِ وصَنْعَةَ الطَّعَامِ مِنَ النِّيَاحَةِ**»[1]، وهو صَحابِيٌّ جليلٌ معروفٌ، فالصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَرَوْنَ أنَّ هذا منَ النِّياحةِ؛ ولهذا يُنْهَى أهلُ الميِّتِ إذا ماتَ الميِّتُ أنْ يَفْتَحُوا أبْوابَهُم للعَزاءِ؛ لأنَّ ذلك مُنْكَرٌ وبِدْعةٌ، فالصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْعَلُونَ ذلك، ثم هو فيه نوعٌ منَ الاعْتراضِ على قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، والواجِبُ على الإنْسانِ الرِّضا والتسليمُ وأنْ يُبْقِيَ بابَهُ مغلقًا، ومَنْ أرادَ أنْ يُعَزِّيَهُ يَجِدْهُ في السُّوقِ أو في المسجِدِ، بالنِّسْبةِ للرِّجالِ. وأمَّا النِّساءُ فلا حاجةَ إلى فَتْحِ البابِ لهنَّ واجتماعِهِنَّ.

فالمهِمُّ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: إنَّ النِّياحةَ منَ الكُفْرِ «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**».

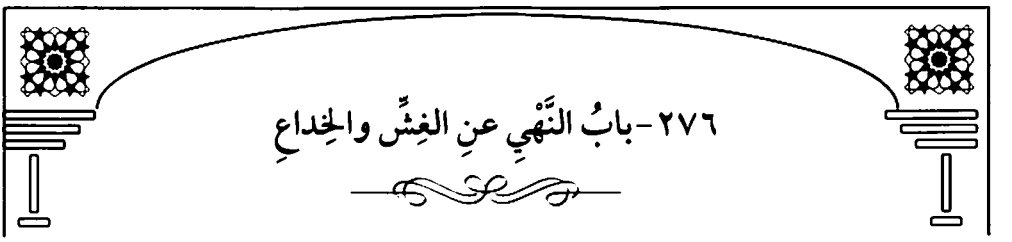
ولا يَغُرَّنَّكَ فِعْلُ النَّاسِ، فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]. فالمدارُ ليس على عَمَلِ النَّاسِ وأنَّ هذه عادةٌ، إنما المدارُ على كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ وعَمَلِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في النهي عن الاجتماع إلى أهل الميت، رقم (١٦١٢)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فما منهم أحدٌ فَتَحَ بابَهُ للمُعَزِّينَ أبدًا، وما اجْتَمَعُوا على الأكْلِ، بل كانوا يُعِدُّونَ هذا من النِّياحةِ، ويَبْتَعِدُونَ عنه أشَدَّ البُعْدِ؛ لأنَّ النِّياحةَ كما سَمِعْتُمْ كُفْرٌ، يعني من خِصالِ الكُفْرِ، ولأنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَعَنَ النَّائِحةَ والمُسْتَمِعَةَ. واللهُ المُوَفِّقُ.





٢٧٦- بابُ النَّهْيِ عنِ الغِشِّ والخِداعِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨].

١٥٧٩- وعن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». رَواهُ مُسْلِمٌ (١).

وفي رِوايةٍ لَهُ: أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أصابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «مَا هذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوقَ الطَّعَامِ حَتَّى يرَاهُ النَّاسُ! مَنْ غشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» (٢).

١٥٨٠- وَعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَنَاجَشُوا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (٣).

١٥٨١- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهى عنِ النَّجْشِ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (٤).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا» رقم (١٠١).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (١/ ٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «من غشنا» رقم (١٠٢).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (١/ ٣٠٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه، رقم (٢١٤٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه، رقم (١٤١٣).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٧/ ٥٢).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع، رقم (٢١٤٢)، ومسلم: كتاب البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، رقم (١٥١٦).

١٥٨٢- وَعَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي البُيُوعِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

«الخِلَابَةُ» بخاءٍ مُعْجَمةٍ مَكْسُورةٍ وباءٍ مُوَحَّدةٍ، وهيَ: الخَديعةُ.

١٥٨٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ، أَوْ مَمْلُوكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا». رواهُ أَبُو دَاوُدَ[2].

«خَبَّبَ» بخاءٍ مُعْجمةٍ، ثُمَّ باءٍ مُوَحَّدةٍ مُكَرَّرةٍ: أيْ أفْسَدَهُ وخَدَعَهُ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض وأداء الديون، باب ما يُنهى عن إضاعة المال، رقم (٢٤٠٧)، ومسلم: كتاب البيوع، باب من يخدع في البيع، رقم (١٥٣٣).
وانظر: التعليق على صحيح مسلم لفضيلة شيخنا الشارح رحمه الله تعالى (٨/ ٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٩٧)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب فيمن خبب مملوكًا على مولاه، رقم (٢١٧٥).

٢٧٧- بابُ تَحْرِيمِ الغَدْرِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٤].

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بابُ تَحْرِيمِ الغَدْرِ» والغَدْرُ خِيانةُ الإنْسانِ في مَوْضِعِ الاسْتِئمانِ، بمعنى أنْ يَأْتَمِنَكَ أحدٌ في شيءٍ ثم تَغْدِرُ به، سواءً أعْطَيْتَهُ عَهْدًا أم لم تُعْطِهِ؛ وذلك لأنَّ الذي ائْتَمَنَكَ: اعْتَمَدَ عليك ووَثِقَ بك، فإذا خُنْتَهُ فقد غَدَرْتَ به.

ثم اسْتدلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تَحْرِيمِ الغَدْرِ بوجُوبِ الوفاءِ؛ لأنَّ الشَّيْءَ يُعْرَفُ بضِدِّهِ، ووُجُوبُ الوفاءِ ساقَ له المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيتيْنِ من كِتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الآيةُ الأُولَى: قولُهُ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]. يعني ائْتوا بها وافيةً كاملةً على العَقْدِ الذي اتَّفَقْتَ مع صاحِبِكَ عليه، وهذا يَشْمَلُ كُلَّ العقودِ، فيَشْمَلُ عُقودَ البيعِ، فإذا بِعْتَ شيئًا على أخيكَ فالواجِبُ عليك أنْ تَفِيَ بالعقدِ، وشُروطِهِ، سواءً كان عَدَمِيًّا أم وُجُودِيًّا، فمثلًا إذا بِعْتَ على أخيكَ بَيْتًا، واشْتَرَطْتَ عليه أنْ تَسْكُنَهُ لِمُدَّةِ سَنةٍ فالواجِبُ على المُشْتَرِي أنْ يُمَكِّنَكَ من هذا وألا يَتَعَرَّضَ لكَ؛ لأنَّهُ شَرْطٌ بمُقْتَضى العقدِ، أو بِعْتَ على أخيك شيئًا واشْتَرَطْتَ عليه أنْ يَصْبِرَ بالعَيْبِ الذي فيه، وقُلْتَ له: فيه عَيْبٌ فاصْبِرْ به، ووافَقَ عليه المُشْتَرِي، فلا حَقَّ له بِرَدِّهِ.

وهاهنا مَسْألةٌ يفْعَلُها بعضُ النَّاسِ -والعياذُ باللهِ- وهي حرامٌ، يَبِيعُ الشَّيْءَ ويَعْرِفُ أنَّ فيه عَيْبًا، ثم يقولُ للمُشْتَري: اصْبِرْ بجميعِ العُيوبِ، وهذا ما يُعْرَفُ عندهم في مزادِ السَّياراتِ، تَجِدُ السِّمْسارَ يُنادي بأعْلَى صوتِهِ، ويقولُ: بِعْتُ عليك ما هو أمامكَ، وهو يَعْلَمُ أنَّ فيها العَيْبَ الفلانيَّ لكنْ لا يَذْكُرُهُ خِداعًا والعياذُ باللهِ، لأنَّهُ لو ذَكَرَهُ لنَقَصَتِ القيمةُ، فإذا لم يَذْكُرْهُ صارَ المشتري مُتَرَدِّدًا، يَحْتَمِلُ أنَّ فيها عَيْبًا، وَيَحْتَمِلُ غيرُ ذلك، فيَدْفَعُ ثمنًا أكثرَ ممَّا لو عَلِمَ بالعَيْبَ المُعَيَّنَ. وهذا الذي باع على هذا الشَّرْطِ، ولو الْتَزَمَ المُشْتَرِي بذلك، إذا كان بها عَيْبٌ حقيقةً فإنَّهُ لا يَبْرَأُ منه يَوْمَ القِيامةِ، وسوفَ يُطالَبُ به ولا يَنْفَعُهُ هذا الشَّرْطُ.

والواجِبُ إذا عَلِمْتَ في السِّلْعةِ عيبًا مُحَدَّدًا أنْ تُبَيِّنَ أنَّ فيها العَيْبَ الفُلانيَّ، نعم لو فُرِضَ أنَّ إنْسانًا اشْتَرى سيَّارةً وبَقِيَتْ عنده يومًا أو يومَيْنِ، ولم يَعْلَمْ بها عيبًا، ولم يَشْتَرِطْ عليه عيبًا، ثم أرادَ أنْ يَسْلَمَ منها فقال: بِعْتُ عليك هذا الذي أمامكَ، مَعِيبًا أو سَلِيمًا، فهذا لا بَأْسَ به.

والمهمُّ أنَّ مَنْ عَلِمَ العَيْبَ في السِّلعةِ يَجِبُ عليه أنْ يُبَيِّنَهُ، ومَنْ لم يَعْلَمْ فله أنْ يَشْتَرِطَ على المُشْتري أنَّهُ لا ردَّ له، ولا يَعُودَ عليه بشيءٍ، ولا بأسَ به.

ومنَ الوفاءِ بالعُقودِ ما يَحْصُلُ بين الزَّوْجيْنِ عند العقدِ، تَشْتَرِطُ المَرْأَةُ شُروطًا أو يَشْتَرِطُ الزَّوجُ شُروطًا، فيَجِبُ على مَنْ يُشْتَرَطُ عليه أنْ يُوَفِّيَ بالشَّرْطِ، مثلَ أنْ يُشْتَرَطَ عليه ألَّا تَسْكُنَ مع أَهْلِهِ، فيَجِبُ عليه أنْ يُوَفِّيَ؛ لأنَّ بعضَ النِّساءِ لا تَرْغَبُ في أنْ تَسْكُنَ مع أهْلِ الزَّوْجِ لكَوْنها سَمِعَتْ عنهم أنَّهُم أهْلُ نكَدٍ، وأنَّهم أهْلُ تَشْوِيشٍ وأهْلُ نَميمةٍ، فتقولُ: شَرْطَ ألَّا أَسْكُنَ مع أهْلِكَ فيَجِبُ عليه أنْ يُوَفِّيَ بذلك؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[المائدة:١].

أو شَرَطَتْ عليه أَلَّا يُخْرِجَها من بَيْتِها، فمثلًا هي رَبَّةُ أَوْلادٍ من زوجٍ سابِقٍ، وتَزَوَّجَها رَجُلٌ جديدٌ فقالت: شَرْطَ أَلَّا تُخْرِجَني من بيتي، فيَجِبُ عليه أنْ يُوَفِّيَ بهذا الشَّرْطِ وأَلَّا يُنكِّدَ عليها، حتَّى تَمِلَّ وتَتْعَبَ، فهذا حرامٌ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾.

أو اشْتَرَطَتْ عليه مَهْرًا مُعَيَّنًا، قالت: شَرْطَ أنْ تُعْطِيَني مَهْرِي -مثلًا عَشَرَةَ آلافٍ- فيَجِبُ عليه أنْ يُوَفِّيَ، وأنْ لا يُماطِلَ؛ لأنَّهُ مشروطٌ عليه.

ولكنْ لو اشْتَرَطَتْ هي أو هو شَرْطًا فاسدًا فإنَّهُ لا يُقْبَلُ، مثل لو اشْتَرَطَتْ عليه أنْ يُطَلِّقَ زَوْجتهُ الأُولَى فهذا الشَّرْطُ لا يُقْبَلُ ولا يُوَفَّى به ولا يَحِلُّ؛ وذلك لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَا تَسْأَلِ المَرْأَةُ طَلاقَ أُخْتِهَا لِتَسْتَفْرِغَ مَا فِي إِنَائِهَا»[1]، أو قال: «مَا فِي صَحْفَتِهَا»[2]، فهذا الشَّرْطُ مُحَرَّمٌ؛ لأنَّهُ عُدْوانٌ على الغيْرِ فيكونُ باطِلًا ولا يَجِبُ الوفاءُ به، بل لا يَجِبُ الالْتزامُ به أصلًا؛ لأنَّهُ شَرْطٌ فاسدٌ.

أمَّا لو اشْتَرَطَتْ أَلَّا يَتَزَوَّجَ عليها، وقَبِلَ فشَرْطٌ صحيحٌ؛ لأنَّهُ ليس فيه عُدْوانٌ على أحدٍ، فهذا فيه مَنْعُ الزَّوْجِ من أمْرٍ يجوزُ له باختيارِهِ، وهذا لا بأسَ به؛ لأنَّ الزَّوْجَ هو الذي أسْقَطَ حقَّهُ، وليس فيه عُدْوانٌ على أحدٍ، فإذا اشْتَرَطَتْ أَلَّا يَتَزَوَّجَ عليها فتَزَوَّجَ فلها أنْ تَفْسَخَ النِّكاحَ، رَضِيَ أم أَبَى، لأنَّهُ خالَفَ الشَّرْطَ.

فالمهمُّ أنَّ اللهَ أمَرَ بالوفاءِ بالعُقودِ في كُلِّ شيءٍ، فيَجِبُ أنْ تَفِيَ بالعَقْدِ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب لا يبيع على بيع أخيه، رقم (٢١٤٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه، رقم (١٤١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الشروط التي لا تحل في النكاح، رقم (٥١٥٢)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، رقم (١٤٠٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كُلِّ شيءٍ، وألَّا تَخُونَ ولا تَغْدِرَ ولا تَكْتُمَ عَيْبًا ولا تُدَلِّسَ، وهي قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

أمَرَ اللهُ أنْ يُوَفَّى بالعَهْدِ، يعني إذا عاهَدْتَ أحدًا وقُلْتَ: عليك عَهْدُ اللهِ ألَّا أفْعَلَ كذا أو ألَّا أُخْبِرَ بما أخْبَرْتَني به أو ما أَشْبَهَ ذلك، فإنَّهُ يَجِبُ عليك أنْ تَفِيَ بالعَهْدِ؛ لأنَّ العَهْدَ سوفَ تُسألُ عنه يَوْم القِيامةِ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: مَسْؤُولًا عنهُ يَوْمَ القِيامةِ.

١٥٨٤- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

١٥٨٥- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وابْنِ عُمَرَ، وَأَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالُوا: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِكُلِّ غادِرٍ لِواءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(٢)].

١٥٨٦- وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يومَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدَرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ». رَواهُ مُسْلِمٌ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة النفاق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، رقم (٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم (٦١٧٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم (١٧٣٥).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم (١٧٣٨).

١٥٨٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أنا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا، فَاسْتَوْفَى مِنْهُ، وَلَمْ يُعْطِهِ أجْرَهُ». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

الشَّرح

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أحاديثَ سَبَقَ لنا شَرْحُها، وأعْظَمُها أنَّهُ يُنْصَبُ لكُلِّ غادرٍ يَوْمَ القِيامةِ لِواءٌ، اللِّواءُ ما يكونُ في الحَرْبِ مثلَ العَلَمِ «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ» والعياذُ باللهِ، أيْ تحت مَقْعَدتِهِ، ويَرْتَفِعُ هذا اللِّواءُ بقَدْرِ غَدْرتِهِ إنْ كانت كبيرةً صار رَفِيعًا، وإنْ كانت صغيرةً صارَ صغيرًا، ويُقال: هذه غَدْرَةُ فُلانِ ابنِ فُلانٍ، والعياذُ باللهِ.

وفي هذا الحديثِ: دليلٌ على أنَّ الغَدْرَ من كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ فيه هذا الوعيدَ الشديدَ.

وفيه أيضًا: أنَّ النَّاسَ يُدْعَوْنَ يَوْم القِيامةِ بآبائِهِم لا بأُمَّهاتهم، وأنَّ ما ذُكِرَ من أنَّ الإنْسانَ يَوْم القِيامةِ يُدْعَى باسْمِ أُمِّهِ فيُقالُ: يا فُلانُ ابنَ فُلانةَ، فليس بصحيحٍ، بل إنَّ الإنْسانَ يُدْعَى باسمِ أبيه كما يُدْعَى به في الدُّنْيا.

وفي الحديثِ الأخيرِ أيضًا: التَّنْبِيهُ على مسألةٍ يَفْعَلُها كثيرٌ منَ النَّاسِ اليومَ، وهي أنَّهُم يَسْتَأْجِرُونَ الأُجراءَ ولا يُعْطُونَ لهم أَجْرًا، هذا الذي يَسْتَأْجِرُ الأجيرَ ولا يُعْطِيهِ أَجْرَهُ يكونُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ خَصْمَهُ يَوْمَ القِيامةِ، كما قالَ تَعالى في الحديثِ القُدْسِيِّ: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ» يعني: عاهَدَ بي

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٢٧، ٢٢٧٠).

ثم غَدَرَ، والثاني: «**رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ**» حتَّى لو كان ابنهُ أو أخاهُ الأصغرَ ثم باعَهُ وأكلَ ثَمَنَهُ فخَصْمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ، والثالثُ: هذا الرَّجُلُ الذي اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فاسْتَوْفى منه وقامَ الأجيرُ بالعَمَلِ كاملًا ثم لم يُعْطِهِ أُجْرَتَهُ.

ومن ذلك ما يَفْعَلُهُ بعضُ النَّاسِ اليومَ في العُمَّالِ القادمينَ من الخارِجِ، تَجِدُهُ يَسْتَأْجِرُهُ بِأُجْرَةٍ مُعَيَّنَةٍ -مثلًا- سِتِّمائةِ ريالٍ في الشَّهْرِ، ثم إذا حَضَرَ من بلدِهِ ماطَلَ به، وآذاهُ، ولم يَأْتِ له حقَّهُ، ورُبَّما انْتَقَصَ من راتبِهِ، هذا والعياذُ باللهِ يكونُ اللهُ خَصْمَهُ يَوْمَ القِيامةِ، ويَأْخُذُ من حسناتِهِ ويُعْطِيها هذا العاملَ، فيدْخُلُ في هذا الوعيدِ الشديدِ.

وهَؤُلاءِ الذين يَأْتُونَ بالعُمَّالِ ولا يُعْطُونهم أُجورَهُم، أو يَأْتُون بهم وليس عندهم شُغْلٌ، ولكنْ يَتْرُكونَهُم في الأسْواقِ، ويقولُ: اذْهَبْ وما حَصَّلْتَهُ فلي نِصْفُهُ، أو مثلًا يقولُ: اذْهَبْ وعليك في الشَّهْرِ ثَلاثُمائةِ ريالٍ أو أرْبَعُمائةِ ريالٍ، كُلُّ هذا حرامٌ والعياذُ باللهِ، ولا يَحِلُّ لهم، وما أَكَلُوهُ فإنَّهُ سُحْتٌ، وكُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ على السُّحْتِ فالنَّارُ أَوْلَى به، وهَؤُلاءِ الظَّلمةُ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوالَ هَؤُلاءِ المساكينِ لا تُقْبَلُ لهم دَعْوَةٌ والعياذُ باللهِ؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذكر «**الرَّجُلَ يُطِيلَ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ. ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِيَ مِنْ حَرَامٍ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ**»[1] نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

وهَؤُلاءِ الظَّلمةُ والعياذُ باللهِ، قدْ عاقَبَهُم اللهُ عُقوبةً عاجلةً، وهي اسْتمراءُ هذا العَمَلِ، والاستمرارُ فيه، والإصرارُ عليه، فإنَّ الإصرارَ على الذَّنْبِ عُقوبةٌ والعياذُ باللهِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (١٠١٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذا لم يَمُنَّ اللهُ على الإنْسانِ بالتَّوْبةِ من الذَّنْبِ؛ لأنَّهُ لا يَزْدادُ بهذا الذَّنْبِ منَ اللهِ إلَّا بُعْدًا، ولا تَزْدادُ سَيِّئاتُهُ إلَّا كَثْرةً، ولا يَزْدادُ إيمانُهُ إلَّا نَقْصًا، فنسألُ اللهَ لنا ولهم الهِدايةَ والتَّوْفيقَ.



٢٧٨- بابُ النَّهْيِ عنِ المنِّ بالعَطِيَّةِ ونحْوِها

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٢].

١٥٨٨- وعن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مَرَّات: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ». رَواهُ مُسْلِمٌ[(١)].

وفي رِوايةٍ لَهُ: «المُسْبِلُ إِزَارَهُ» يَعْنِي: المُسْبِلَ إِزَارَهُ وَثَوْبَهُ أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ لِلخُيَلَاءِ.

الشَّرح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ النَّهْيِ عنِ المَنِّ بالعَطِيَّةِ ونحوها»؛ وذلك أنَّ الإنْسانَ إذا أعْطَى أحدًا منَ النَّاسِ عطاءً، إنْ كان صدقةً فقد أعطاهُ لله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ كان إحْسانًا فالإحسانُ مطلوبٌ، فإذا كان كذلك فإنَّهُ لا يجوزُ للإنْسانِ أنْ يَمُنَّ بالعَطِيَّةِ، فيقول: أنا أعطيْتُك كذا، أنا أعطيْتُك كذا، سواءً قاله في مُواجَهَتِهِ أو في غيرِ مُواجَهَتِهِ، مثلَ أنْ يقولَ بين النَّاسِ: أَعْطَيْتُ فُلانًا كذا، وأعْطَيْتُ فُلانًا كذا؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، رقم (١٠٦).

لِيَمُنَّ بذلك عليه، ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ لذلك بقولِهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤].

فدلَّ هذا على أنَّ الإنْسانَ إذا مَنَّ فإنَّ الصدقةَ تَبْطُلُ ولا ثَوابَ له فيها، وهو من كبائِرِ الذُّنوبِ، وقال تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٦٢].

ثم ذَكَرَ حديثَ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكَاذِبِ**».

والمُسْبِلُ: يعني الذي يَجُرُّ إزارَهُ أو قميصَهُ أو مِشْلحَهُ خُيلاءَ وتَبَخْتُرًا، فهذا له هذا العقابُ الشديدُ، لا يُكَلِّمُهُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ ولا يُزَكِّيهِ وله عذابٌ أليمٌ.

والمَنَّانُ: المَنَّانُ بما أَعْطى، إذا أعْطَى أحدًا شيئًا صار يَمُنُّ به.

والمُنَفِّقُ سِلْعتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ: يعني الذي يَحْلِفُ على السِّلْعةِ حَلِفًا كاذبًا لأجْلِ أنْ تَزِيدَ قِيمَتُها، فهذا أيضًا من الذين لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامةِ ولا يُزَكِّيهم، ولهم عذابٌ أليمٌ. واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٧٩- بابُ النَّهْيِ عنِ الافْتِخارِ والبَغْيِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

١٥٨٩- وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَعَالَى أوْحَى إلَيَّ أنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أحَدٍ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

قَالَ أهلُ اللُّغةِ: البَغْيُ: التَّعَدِّي والاستطالَةُ.

الشَّرْح

قال الحافِظُ النَّوَوِيُّ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ النَّهْيِ عنِ الافْتِخارِ والبَغْيِ».

الافْتِخارُ: أنْ يَمْتَدِحَ الإنْسانُ في نفسِهِ ويَفْتَخِرَ بما أعطاهُ اللهُ تَعالى من نِعْمةٍ، سواءٌ نعمةَ الولَدِ أو المالِ أو العِلْمِ أو الجاهِ أو قُوَّةِ البَدَنِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، فَخْرًا وعُلُوًّا على النَّاسِ، وأمَّا التَّحَدُّثُ بنعمةِ اللهِ على وجْهِ إظْهارِ نعمةِ اللهِ على العَبْدِ مع التَّواضُعِ فإنَّ هذا لا بأسَ به؛ لقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] ولقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيامةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة، رقم (٢٨٦٥).

ولَا فَخْرَ»[1]، فقال: «وَلَا فَخْرَ» يعني لا أَفْتَخِرُ بذلك وأَزْهُو بنفسي.

وأمَّا البَغْيُ فهو العُدْوانُ على الغَيْرِ، بأنْ يَعْتَدِيَ الإنْسانُ على غيرِهِ، إمَّا على مالِهِ، أو على بدنِهِ، أو على أهلِهِ، أو على مَقامِهِ، وما أَشْبَهَ ذلك، فالعُدْوانُ أنْواعُهُ كثيرةٌ، لكنْ يَضُمُّها كُلَّها أنَّهُ انْتِهاكٌ لِحُرْمةِ أخيه المُسْلِمِ، وهذا أيضًا حرامٌ.

ثم اسْتدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢] فنهى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادَهُ أنْ يُزَكُّوا أنفُسَهم، يعني أنْ يَمْدَحُوها افْتِخارًا على الخَلْقِ، فيقولُ مثلًا لصاحِبِهِ: أنا أعْلَمُ منك، أنا أكْثَرُ منك طاعةً، أنا أكثرُ منك مالًا. وما أَشْبَهَ ذلك -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ- تَزْكِيةً للنُّفوسِ ونَوْعًا منَ الافْتخارِ.

ولا يُعارِضُهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] وذلك لأنَّ التَّزْكِيةَ المَنْهِيَّ عنها هي أنْ يَفْتَخِرَ الإنْسانُ ويَعْلُوَ ويَزْهُوَ بما أعطاهُ اللهُ تَعالى من خيرٍ، ومن عبادةٍ، ومن عِلْمٍ، وأمَّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فالمرادُ: مَنْ سَلَكَ بها طريقَ الزَّكاةِ، واجْتَنَبَ طريقَ الرَّدَى؛ ولهذا قال تَعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٠]. وهذه الآياتُ المُتشابهاتُ في القُرْآنِ يَتَّخِذُ منها أهْلُ الباطِلِ حُجَّةً في التَّلْبِيسِ على النَّاسِ، ولكنَّ هَؤُلاءِ كما وصَفَهُم اللهُ تَعالى هم الذين في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ والعياذُ باللهِ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٨١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم (٣١٤٨)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وإلَّا فالقُرْآنُ لا يُمْكِنُ أبدًا أنْ يكونَ فيه شيءٌ مُتناقِضٌ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

أمَّا القُرْآنُ فلا اخْتلافَ فيه، وقد أوْرَدَ نافِعُ بن الأزْرَقِ الخارِجِيُّ المشهورُ على ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كثيرًا من الآياتِ المُتشابهاتِ التي ظاهِرُها التَّعارُضُ، وأجابَ عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آياتٍ مُتَعَدِّدةٍ ذكرَها السُّيوطِيُّ في «الإتْقانِ في عُلومِ القُرْآنِ»[1].

ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ على تَحْرِيمِ البَغْيِ بقولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

والسَّبِيلُ: يعني التَّبِعةُ واللَّوْمُ والمَذَمَّةُ على هَؤُلاءِ الذين يَظْلِمُونَ النَّاسَ في أمْوالِهِمْ، أو في أعْراضِهِمْ، أو في أنْفُسِهِمْ، أو في أهْلِيهِمْ، هَؤُلاءِ هم الذين عليهم السَّبِيلُ والتَّبِعةُ ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يعني يَعْتَدُونَ بغيرِ الحقِّ، وإنما وصَفَ اللهُ البَغْيَ بغيْرِ حقٍّ؛ لأنَّهُ حقيقةً ليس بحَقٍّ، فكُلُّ البَغْيِ فهو بغيْرِ الحقِّ، فالقَيْدُ هنا ليس للاحْتِرازِ بل هو لبيانِ الواقِعِ، وهو أنَّ كُلَّ شيءٍ من البَغْيِ فإنَّهُ بغيْرِ الحقِّ، وهذا يَرِدُ في القُرْآنِ كثيرًا أنْ تَجِدَ قَيْدًا يُبَيِّنُ الواقِعَ وليس قَيْدًا يُخْرِجُ ما سواه، مثلُ قولِهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]. فهنا ليس هناك رَبٌّ لم يَخْلُقْنا ورَبٌّ خَلَقَنا، بل هو لبيانِ الواقِعِ أنَّ الرَّبَّ هو الذي خَلَقَنا، وهو الذي رَزَقَنا، فالحاصِلُ: أنَّ اللهَ تَعالى بيَّنَ أنَّ السبيلَ على الذين يَظْلِمُونَ النَّاسَ، ويَبْغُونَ في الأرْضِ بغيْرِ الحقِّ.

ثم ذَكَرَ حديثَ عِياضِ بنِ حِمارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ أوْحَى إلَيَّ أنْ لَا يَبْغِيَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ**» هذا الشاهِدُ من الحديثِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّ البَغْيَ أمرٌ عظيمٌ،

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٦٨).

وهي عِنايةٌ منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُبَيِّنُ لعبادِهِ أَنَّهُ لا يَبْغِي أحدٌ على أحدٍ، وأنَّ الإنْسانَ يَتواضعُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، ويَتواضَعُ في الحقِّ. واللهُ المُوَفِّقُ.

١٥٩٠- وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ». رَواهُ مُسْلِمٌ[1].

الرِّوايةُ المَشْهُورةُ: «أَهْلَكُهُمْ» بِرَفعِ الكافِ، ورُوِيَ بنَصْبِها، وهذا النَّهْيُ لِمَنْ قَالَ ذَلِكَ عُجْبًا بِنَفْسِهِ، وتَصَاغُرًا للنَّاسِ، وارْتِفاعًا عَلَيْهِمْ، فَهَذَا هُوَ الحَرامُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَهُ لِما يَرَى في النَّاسِ مِنْ نَقْصٍ في أمرِ دِينِهم، وقَالَهُ تَحَزُّنًا عَلَيْهِمْ، وعَلَى الدِّينِ، فَلَا بَأْسَ بِهِ. هكَذَا فَسَّرَهُ العُلَماءُ وفَصَّلُوهُ، وَمِمَّنْ قَالَهُ مِنَ الأئِمَّةِ الأعْلامِ: مالِكُ بنُ أَنَسٍ، وَالخَطَّابِيُّ، والحُمَيْدِيُّ وآخرونَ، وَقَدْ أَوْضَحْتُهُ في كتابِ: (الأذْكارِ)[2].

الشَّرح

حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» بأنْ يقولَ: هَلَكَ النَّاسُ، يعني وقَعُوا في المعاصي وفَسَقُوا، يريدُ بذلك أنْ يُزَكِّيَ نفسَهُ، وأنْ يَقْدَحَ في غيرِهِ، فهذا هو أهْلَكُ النَّاسِ، لأَنَّهُ يُحْبِطُ عَمَلَهُ وهو لا يَشْعُرُ، كما في قصَّةِ الرَّجُلِ الذي كان يَمُرُّ برَجُلٍ فاسِقٍ يَعْصِي اللهَ، وكان يَنْصَحُهُ، ولكنَّهُ بَقِيَ على ما عليه من الفُسُوقِ، فقال الرَّجُلُ: واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لفُلانٍ، قال هذا إعْجابًا بنفسِهِ، وتألَّى على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فقالَ اللهُ تَعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول هلك الناس، رقم (٢٦٢٣).
(٢) انظر: الأذكار (ص:٥٦٥).

لَا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»[1] لأَنَّهُ قال ذلك افْتِخارًا وإعْجابًا بنفسه، واحْتقارًا لهذا الرَّجُلِ، واسْتِبْعادًا لرَحْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ومنِ الذي يَسْتَبْعِدُ رحمةَ اللهِ إلَّا جاهلٌ باللهِ عَزَّوَجَلَّ! قال اللهُ تَعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

فهذا الذي يقولُ: هَلَكَ النَّاسُ، ضاعَ النَّاسُ، فَسَقَ النَّاسُ. وما أَشْبَهَ ذلك، يريدُ بهذا أنْ يُزَكِّيَ نفسَهُ وأنْ يَقْدَحَ في غيرِهِ، فهو أَهْلَكُ النَّاسِ، يعني أَشَدَّهُمْ هلاكًا، والعياذُ باللهِ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى، رقم (٢٦٢١)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢٨٠- بابُ تَحْرِيمِ الهِجْرانِ بين المُسْلِمِينَ فوقَ ثلاثةِ أيَّامٍ إلَّا لبِدْعةٍ في المَهْجورِ، أَوْ تَظاهُرٍ بفِسْقٍ أَوْ نحْوِ ذَلِكَ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠]، ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢].

١٥٩١- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

١٥٩٢- وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ: يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

١٥٩٣- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، فَيَغْفِرُ اللهُ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا امْرَأً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: اتْرُكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الهجرة، رقم (٦٠٧٦)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، رقم (٢٥٥٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة، رقم (٦٢٣٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الهجر فوق ثلاث بلا عذر شرعي، رقم (٢٥٦٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم (٢٥٦٥).

١٥٩٤- وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[1] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

«التَّحْرِيشُ»: الإفْسَادُ وتَغيِيرُ قُلُوبِهِمْ وتَقَاطُعُهُم.

١٥٩٥- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ، دَخَلَ النَّارَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[2] بِإِسْنَادٍ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ.

١٥٩٦- وَعَنْ أَبِي خِرَاشٍ حَدْرَدِ بنِ أَبِي حَدْرَدٍ الأَسْلَمِيِّ -ويقالُ: السُّلَمِيِّ- الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفْكِ دَمِهِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[3] بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

١٥٩٧- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوقَ ثَلَاثٍ، فإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ، فَلْيَلْقَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي الأَجْرِ، وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالإِثْمِ، وَخَرَجَ الْمُسَلِّمُ مِنَ الهِجْرَةِ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[4] بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «إِذَا كَانَتِ الهِجْرَةُ للهِ تَعَالَى فَلَيسَ مِنْ هَذَا فِي شَيْءٍ».

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، رقم (٢٨١٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم (٤٩١٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم (٤٩١٥).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب فيمن يهجر أخاه المسلم، رقم (٤٩١٢).

الشَّرح

الأحاديثُ التي ذَكَرَها المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بابِ تَحْرِيمِ الهِجْرانِ سَبَقَ لنا الكَلامُ عليها مُفَصَّلًا، وبَيَّنَّا أَنَّهُ لا يجوزُ للمُسْلِمِ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ المُسْلِمَ فوقَ ثلاثةِ أيّامٍ ولكنْ فيما دون الثلاثةِ له أنْ يَهْجُرَهُ، ولا يَنْبَغِي أيضًا، لكنْ له أنْ يَهْجُرَهُ؛ لأنَّ الإنْسانَ رُبَّما يكونُ بينه وبين أخيه شيءٌ فيَهْجُرُهُ، فهذا رخَّصَ له النَّبِيُّ ﷺ ثلاثةَ أيّامٍ فقط، وبعد ذلك لا بُدَّ أنْ يُسَلِّمَ.

لكنْ إذا كان الهَجْرُ لمصلحةٍ دِينِيَّةٍ، مثلَ أنْ يكونَ سَببًا لاستقامةِ المَهْجُورِ، وتَرْكِهِ المَعْصِيةَ فإنَّهُ لا بَأْسَ به، بل قد يكونُ واجبًا، وقد أمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بهَجْرِ كَعْبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصاحِبَيْهِ هلالِ بنِ أُمَيَّةَ ومُرارةَ بنِ الرَّبِيعِ، الذين تَخَلَّفُوا في غزوةِ تَبُوكَ، ولمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ من الغَزْوةِ جاءَ المُنافقونَ يَعْتَذِرُونَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ويَحْلِفُونَ أنهم مَعْذُورُونَ، فقالَ اللهُ تَعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٥-٩٦] حتَّى لو رَضِيتُم عنهم فلا يَنْفَعُ، أما هَؤُلاءِ الثلاثةُ فمَنَّ اللهُ عليهم بالصِّدْقِ، وصرَّحُوا للرَّسُولِ ﷺ أنهم تَخَلَّفُوا بلا عُذْرٍ، وقد تَقَدَّمَ شرحُ هذا الحديثِ.

فلمَّا هُجِرَ كَعْبُ بنُ مالِكٍ وصاحِباهُ كان فيه فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنهم لَجَئُوا إلى اللهِ، وصدَقُوا اللهَ، وصدَقُوا مع رَسُولِ اللهِ ﷺ وثَبَتُوا على إيمانِهِمْ فكان في هَجْرِهم فائدةٌ كبيرةٌ.

فإذا كان في هَجْرِ مَنْ فَعَلَ مَعْصِيةً لِتَرْكِ واجِبٍ أو فِعْلِ مُحَرَّمٍ فائدةٌ فإنَّهُ يُهْجَرُ

حتَّى تَتَحَقَّقَ الفائدةُ. وأمَّا مَنْ كان هَجْرُهُ لا يُفِيدُ شيئًا بل لا يَزِيدُ الأمرَ إلَّا شِدَّةً وإلَّا بُعْدًا عن أهْلِ الخيرِ فلا يُهْجَرُ؛ لأنَّ الشَّرْعَ جاءَ بالمصالِحِ ودَفْعِ المَفاسِدِ، فإذا عَلِمْنا أنَّنا لو هَجَرْنا هذا العاصيَ لم يَزْدَدْ إلَّا شرًّا وكراهةً لنا ولما معنا من الخَيْرِ، فإنَّنا لا نَهْجُرُهُ، بل نُسَلِّمُ عليه ونَرُدُّ عليه السَّلامَ؛ لأنَّهُ مُؤْمِنٌ وإنْ عَصى اللهَ، والمُؤْمِنُ لا يُهْجَرُ فوقَ ثلاثٍ، هذا هو الحُكْمُ فيما يتعَلَّقُ بالهَجْرِ.

وبهذه المُناسبةِ يَسُوءُني أنْ أَجِدَ بعضَ المُسْلِمِينَ اليومَ يَمُرُّ أحدُهُم بأخيهِ، ويَتلاقيانِ، يَضْرِبُ كَتِفُ أحدِهِم كَتِفَ الآخَرِ ولا يُسَلِّمُ عليه -والعياذُ باللهِ- وكأنَّما مرَّ بجيفةٍ أو يَهُودِيٍّ أو نَصْرانِيٍّ، مع أنَّهُ أَخُوهُ، وبسلامِهِ عليه يَسْتَفِيدُ عَشْرَ حسناتٍ، إيمانًا، مَحَبَّةً، أُلْفةً، دُخولَ الجَنَّةِ.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «**واللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، ولَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**»[1] فبيَّنَ أنَّ إفشاءَ السَّلامِ من أسْبابِ المَحَبَّةِ، وهي من الإيمانِ، والإيمانُ سببٌ في دُخولِ الجَنَّةِ.

إنَّهُ يُؤْسِفُنا جدًّا أنْ نرى المُسْلِمِينَ يَلْتَقي بعضُهُم ببعضٍ، بل رُبَّما كانا أَخَوَيْنِ زَمِيلَيْنِ في الدِّراسةِ -سواءً في دراسةِ المسجِدِ أو في دراسةِ الكُلِّيَّةِ أو المَعْهدِ أو المدارِسِ الأُخْرى- لا يُسَلِّمُ بعضُهُم على بعضٍ، فما فائدةُ طلبِ العِلْمِ إذا لم يَتَرَبَّ طالبُ العِلْمِ بالتربيةِ الحَسنةِ التي دلَّ عليها الكِتابُ والسُّنَّةِ وكان عليها رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! فما الفائدةُ من التَّعْليمِ فهو والجاهِلُ سواءٌ، إنْ لم يَكُنِ الجاهِلُ خيرًا منه؟! ولهذا أَحُثُّ كثيرًا على إفْشاءِ السَّلامِ لفوائِدِهِ العظيمةِ، وهو نافعٌ لا يَضُرُّ؛ لأنَّهُ عَمَلٌ اللِّسانِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واللِّسانُ لو يَعْمَلُ من الصَّباحِ إلى الغُروبِ ما كَلَّ ولا مَلَّ.

ورَدُّ السَّلام يكونُ بقَوْلِكَ: عليكمُ السَّلامُ؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء:٨٦]. فبدأ بالأحْسَنِ ثم ذكرَ الكِفايةَ ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ أمَّا أهلًا وسهلًا فقط فليس فيها دُعاءٌ، لكنَّ «السَّلامُ عليكُم» دعاءٌ فرُدَّ عليه بقولِكَ: «عليكمُ السَّلامُ».

فنسألُ اللهَ لنا ولكمُ الهِدايةَ والتَّوْفِيقَ والعِصْمةَ والتَّـوْبةَ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

٢٨١- بابُ النَّهْيِ عن تَناجِي اثْنَيْنِ دون الثَّالِثِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٠].

١٥٩٨- وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كانُوا ثَلاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١].

وَرَوَاهُ أَبُو دَاودَ[٢] وزادَ: قَالَ أَبُو صالِحٍ: قُلْتُ لابنِ عُمرَ: فَأَرْبَعَةً؟ قَالَ: لَا يَضُرُّكَ.

وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي (المُوَطَّأِ)[٣]: عن عبدِ اللهِ بنِ دِينارٍ، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بنِ عُقْبَةَ الَّتي فِي السُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِي دَعَا: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ».

١٥٩٩- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب لا يتناجى اثنان دون الثالث، رقم (٦٢٨٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم (٢١٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في التناجي، رقم (٤٨٥٢).

(٣) أخرجه مالك: كتاب الجامع، باب ما جاء في مناجاة اثنين دون واحد، رقم (١٣).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس، رقم (٦٢٩٠)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، رقم (٢١٨٤).

الشَّرح

من الآدابِ التي حَثَّ عليها الإسْلامُ ورَغَّبَ فيها ما أشارَ إليه الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بابِ النَّهْيِ عن تَناجِي اثْنَيْنِ دون الثَّالِثِ، واسْتَدَلَّ لذلك بقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة:١٠] يعني: التَّناجِي منَ الشَّيْطانِ، وبيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعَالَىٰ ماذا يُرِيدُ الشَّيْطانُ بهذه النَّجْوى، قال: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٠].

وكانوا إذا مَرَّ بهم المُسْلِمُونَ يَأْخُذُ بعضُهُم إلى بعضٍ في التَّناجِي، أي بالكَلامِ السِّرِّ، يَتَناجَوْنَ فيما بينهم؛ لأجْلِ أنْ يَحْزَنَ المُؤْمِنُونَ ويقولونَ: هَؤُلاءِ أرادُوا بنا شرًّا أو ما أَشْبَهَ ذلك، وذلك أنَّ أعداءَ المُؤْمِنِينَ من المُنافِقِينَ والكافِرِينَ يَحْرِصُونَ دائمًا على ما يُحْزِنُ أهْلَ الإيمانِ؛ لأنَّ هذا هو ما يُرِيدُهُ الشَّيْطانُ من أعْداءِ اللهِ، أي: يُرِيدُ أنْ يَحْزَنَ المُؤْمِنُونَ على كُلِّ حالٍ، به وبأوليائِهِ.

قال تَعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فمَنْ تَوَكَّلَ على اللهِ واعْتَمَدَ عليه فإنَّهُ لا يَضُرُّهُ أحدٌ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ لابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ**»[1] فهم يَتَناجَوْنَ فيما بينهم لإحْزانِ المُؤْمِنِينَ.

ثم ذَكَرَ حَدِيثَيِ ابْنِ عُمَرَ وابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في هذا المَعْنى، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى أنْ يَتَناجَى اثنانِ دون الثَّالِثِ، يعني إذا كانوا ثلاثةً فإنَّهُ لا يَحِلُّ لاثْنَيْنِ أنْ يَتناجَيا دون الثَّالِثِ؛ لأنَّ الثالِثَ يَحْزَنُ، ويقولُ: لماذا لم يُكَلِّموني؟ لماذا يَتَناجيانِ دُوني؟ هذا إذا أحْسَنَ بهما الظَّنَّ، ورُبَّما يُسِيءُ بهما الظَّنَّ.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم (٢٥١٦).

فإنْ قال قائلٌ: إذا كانت بيني وبين صاحبي مسألةٌ خاصَّةٌ لا أُحِبُّ أنْ يَطَّلِعَ عليها أحدٌ.

قلنا: افْعَلْ كما فَعَلَ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ادْعُ واحدًا لتكونوا أربعةً، فيَتَناجَى اثنانِ، واثنانِ يَتكَلَّمانِ فيما بينهما، كما كان ابنُ عُمَرَ يَفْعَلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكما دلَّ عليه حديثُ ابنِ مَسْعُودٍ «**حَتَّى تَخْتَلِطُوا بالنَّاسِ**» فإذا اخْتَلَطا بالنَّاسِ زالتِ المُشْكِلةُ، وإذا لم يُمْكِنْ ولم يُقابِلْهُمْ أحدٌ فإنَّهما يَسْتَأْذنانِ منه، فإنْ أَذِنَ لهما في ذلك فالحقُّ له، وحينئذٍ لا يَحْزَنُ ولا يَهْتَمُّ بالأمْرِ.

ومن ذلك -منَ التَّناجِي بين اثنيْنِ دون الثالِثِ- إذا كانوا ثلاثةً واثْنَيْنِ يُجِيدانِ لُغةً أجنبيَّةً والثالِثُ لا يُجِيدُها، فجَعَلا يَتَحَدَّثانِ بلُغَتِهِما، والثالِثُ يَسْمَعُ ولا يَفْهَمُ ما يقولانِ، فهذا منَ التَّناجِي؛ لأنَّ ذلك يُحْزِنُهُ، فيقولُ: لماذا تَركانِي وصارا يَتَحَدَّثانِ وحْدَهما؟ أو رُبَّما يُسِيءُ الظَّنَّ بهما، فيُنْهَى عن ذلك، واللهُ المُوَفِّقُ.

٢٨٢- بابُ النَّهْيِ عن تَعْذِيبِ العَبْدِ والدَّابَّةِ والمَرْأَةِ والولدِ بغيرِ سَبَبٍ شَرْعِيٍّ أَوْ زائِدٍ عَلَى قَدْرِ الأدَبِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

١٦٠٠- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

«خَشَاشُ الأرضِ» بفَتْحِ الخاءِ المُعْجَمةِ وبالشِّينِ المُعْجَمة المُكَرَّرةِ، وهي: هَوَامُّها وَحَشَرَاتُها.

١٦٠١- وَعَنْهُ: «أَنَّهُ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، حديث الغار، رقم (٣٤٨٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجتمعة، رقم (٥٥١٥)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، رقم (١٩٥٨).

«الغَرَضُ» بفتحِ الغَيْنِ المُعْجَمةِ والرَّاءِ وَهُوَ الهَدَفُ وَالشَّيءُ الَّذِي يُرْمَى إِلَيْهِ.

١٦٠٢ - وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ البَهَائِمُ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1]. ومعناه: تُحْبَسُ لِلقَتْلِ.

١٦٠٣ - وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ سُوَيْدِ بنِ مُقَرِّنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرِّنٍ مَا لَنَا خَادِمٌ إِلَّا وَاحِدَةٌ لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2]. وفي رِوايةٍ: «سَابِعَ إِخْوَةٍ لِي».

الشَّرْح

هذا البابُ ذَكَرَهُ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في النَّهْيِ عن تَعْذِيبِ العبْدِ والحَيوانِ والولَدِ والمَرْأَةِ ومَنْ لك وِلايةٌ عليه، فإنَّهُ يَحْرُمُ عليك أنْ تُعَذِّبَهُ بضَرْبٍ أو غيرِهِ إلَّا لسببٍ شَرْعِيٍّ.

ثم اسْتَشْهَدَ بقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦] هَؤُلاءِ كلُّهم أصحابُ الحقوقِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الأمُّ والأبُ وهما أعْظَمُ البَشَرِ حقًّا عليك، بعد حقِّ رَسُولِ اللهِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما يُكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، رقم (٥٥١٣)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب النهي عن صبر البهائم، رقم (١٩٥٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، رقم (١٦٥٨).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ القُرْبَى هم القَراباتُ من قِبَلِ الأُمِّ أو من قِبَلِ الأبِ. ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾: الصِّغارُ الذين ماتَ آباؤُهم. ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾: المساكينُ هم الفُقراءُ. ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: الجارُ القريبُ، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الجارُ البعيدُ. ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ قيل: هي الزَّوْجةُ، وقيل: هو الصَّاحِبُ في السَّفَرِ. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، المسافِرُ الذي انْقَطَعَ به السَّفَرُ. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، هذا الشَّاهِدُ، أي: ما ملكتْ أيمانُكم منَ الأرِقَّاءِ والبهائِمِ، فإنَّ الإنْسانَ مأمورٌ بالإحْسانِ إليهم، إنْ كان من بني آدم يُطْعِمُهُم مما يَطْعَمُ، ويَكْسُوهم مما يَكْتَسِي، ويُنْزِلُهُم المَنازِلَ اللَّائِقةَ بهم، ولا يُكَلِّفُهُم ما لا يُطِيقُونَ.

ثم ذَكَرَ حديثَ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ امرأةً دخلتِ النَّارَ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا، والهِرَّةُ هي القِطَّةُ، حَبَسَتْها ولم تَجْعَلْ عندها ماءً ولم تَجْعَلْ عندها طَعامًا حتَّى ماتتْ، فدخَلَتِ النَّارَ بسببِ هذه الهِرَّةِ، وعُذِّبَتْ بها، والعياذُ باللهِ، مع أنها هِرَّةٌ لا تُساوي شيئًا، ولكنَّها أساءتْ إليها هذه الإساءةَ؛ إذ حَبَسَتْهَا حتَّى ماتتْ جُوعًا.

وفُهِمَ من هذا الحديثِ أنَّها لو جَعَلَتْ عندها طَعامًا وشَرابًا يَكْفِي فإنَّ ذلك لا بَأْسَ به. ومن ذلك هذه الطُّيورُ التي تُحْبَسُ في الأقْفاصِ، إذا وضَعَ الإنْسانُ عندها الطَّعامَ والشَّرابَ ولم يُقَصِّرْ، وحَفِظَها من الحَرِّ والبَرْدِ فلا بَأْسَ، وأمَّا إذا قَصَّرَ وماتتْ بسببِ تَقْصِيرِهِ فإنَّهُ يُعَذَّبُ بها، والعياذُ باللهِ، كما عُذِّبَتْ هذه المَرْأةُ في الهِرَّةِ التي حَبَسَتْها، فدَلَّ ذلك على أنَّهُ يَجِبُ على الإنْسانِ أنْ يَحْرِصَ على ما مَلَكَتْ يَمِينُهُ منَ البهائِمِ، والآدَمِيُّونَ أَوْلَى وأحْرَى؛ لأنَّهم أحقُّ بالإكْرامِ.

أمَّا الحديثُ الثاني: فهو أنَّ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرَّ بفِتْيانٍ بقُرَيْشٍ وقد جَعَلُوا طائِرًا يَرْمُونَ عليه، أيُّهُم أَشَدُّ إصابةً، فلما رَأَوْا عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَفَرَّقُوا؛

هَرَبًا منه، ثم قال: ما هذا؟ فأخْبَرُوهُ، فقال: لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هذا، لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هذا، وذكر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شيئًا فيه الرُّوحُ غَرَضًا؛ وهذا لأنَّهُ يَتَأَلَّمُ؛ إذ إنَّ هذا يَضْرِبُهُ على جَناحِهِ، وهذا يَضْرِبُهُ على صَدْرِهِ، وهذا يَضْرِبُهُ على ظَهْرِهِ، وهذا على رَأْسِهِ فيَتَأَذَّى؛ فلهذا لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ من اتَّخَذَ شيئًا فيه الرُّوحُ غَرَضًا وهَدَفًا.

وكذلك الحديثُ الذي بعده وهو حديثُ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى أنْ يُقْتَلَ الحيوانُ صَبْرًا، ومعناهُ أنْ يُحْبَسَ ثم يُقْتَلَ، فإنَّ هذا لا يجوزُ؛ وذلك لأنَّهُ إذا حُبِسَ كان مَقْدُورًا على ذَبْحِهِ وتَذْكِيَتِهِ، ورَمْيُهُ إيلامٌ فلا يَحِلُّ أنْ يُرْمَى. واللهُ المُوَفِّقُ.



١٦٠٤- وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لِي بالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فإذا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلامِ». فَقُلْتُ: لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وَفِي رِوايةٍ: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيْبَتِهِ[1].

وفي رِوايةٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ». رَواهُ مُسْلِمٌ بهذه الرِّواياتِ[2].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، رقم (١٦٥٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، رقم (١٦٥٩).

١٦٠٥- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ، فإِنَّ كَفَارَتَهُ أَنْ يُعْتِقَهُ». رَواهُ مُسْلِمٌ[١].

١٦٠٦- وَعَنْ هِشَامِ بنِ حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّه مَرَّ بالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الأَنْبَاطِ، وَقَدْ أُقِيمُوا في الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الزَّيْتُ! فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قيل: يُعَذَّبُونَ في الخَرَاجِ -وفي رِوايةٍ: حُبِسُوا في الجِزْيَةِ- فَقَالَ هِشَامٌ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ في الدُّنْيَا». فَدَخَلَ عَلَى الأَمِيرِ، فَحَدَّثَهُ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا. رَواهُ مُسْلِمٌ[٢].

«الأَنْباطُ» الفَلَّاحونَ مِنَ العَجَمِ.

١٦٠٧- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ حِمَارًا مَوْسُومَ الوَجْهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «واللهِ لا أَسِمُهُ إِلَّا أَقْصَى شَيْءٍ مِنَ الوَجْهِ» وأَمَرَ بِحِمَارِهِ فَكُوِيَ في جَاعِرَتَيْهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَوَى الجَاعِرَتَيْنِ. رَواهُ مُسْلِمٌ[٣].

«الجَاعِرَتَانِ»: نَاحِيَةُ الوَرِكَيْنِ حَوْلَ الدُّبُرِ.

١٦٠٨- وَعَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ في وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللهُ الَّذِي وَسَمَهُ». رَواهُ مُسْلِمٌ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده، رقم (١٦٥٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، رقم (٢٦١٣) وما بعده.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، رقم (٢١١٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، رقم (٢١١٧).

وفي رِوايةٍ لِمُسْلِمٍ أَيضًا: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ في الوَجْهِ، وَعَنِ الوَسْمِ في الوَجْهِ»[1].

الشَّرح

هذه الأحاديثَ التي ساقَها الحافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في بابِ النَّهْيِ عن تَعْذِيبِ الحَيَوانِ والرَّقِيقِ والوَلَدِ وغَيْرِهِمْ ممَّنْ يُؤَدِّبُهُم الإنْسانُ، وذلك أنَّ المَقْصُودَ بالتَّأْدِيبِ هو الإصلاحُ وليس المَقْصُودُ بالتأديبِ الإيلامَ والإيجاعَ؛ ولذلك لا يجوزُ للإنْسانِ أنْ يَضْرِبَ الوَلَدَ ما دام يُمْكِنُ أنْ يَتَأَدَّبَ بدُونِ الضَّرْبِ، فإذا لم يَتَأَدَّبِ الوَلَدُ إلَّا بالضَّرْبِ فله أنْ يُضْرَبَ، وإذا ضُرِبَ فإنَّهُ يُضْرَبُ ضَرْبًا غيرَ مُبَرِّحٍ، وقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ في النِّساءِ: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء:٣٤] فجَعَلَ الضَّرْبَ في المرتبةِ الثالثةِ، والمَقْصودُ منَ الضَّرْبِ هو التأديبُ لا أنْ يَصِلَ إلى حدِّ الإيلامِ والإيجاعِ.

وذَكَرَ المُؤَلِّفُ أحاديثَ، منها حديثُ أبي مسعودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّهُ كان يَضْرِبُ غلامًا له، فسَمِعَ صوتًا من الخَلْفِ يقولُ: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ**» ولم يَفْقَهْ ما يقولُ من شِدَّةِ الغَضَبِ، فإذا الذي يَتكَلَّمُ هو رَسُولُ اللهِ ﷺ فقال: «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الغُلامِ**». يعني تَذَكَّرْ قُدْرةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّهُ أَقْدَرُ عليك من قُدْرتِكَ على هذا الغُلامِ، وإلى هذا يُشِيرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الآيةِ التي ذَكَرْناهَا ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤].

فلمَّا رأى أنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وذَكَّرَهُ بهذه المَوْعِظةِ العظيمةِ أنَّ اللهَ أَقْدَرُ عليه من

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، رقم (٢١١٦).

قُدْرتِهِ على هذا العبدِ، سَقَطَتِ العَصا من يدِهِ؛ هَيْبَةً لرَسُولِ اللهِ ﷺ ثم أعْتَقَ العَبْدَ، وهذا من حُسْنِ فَهْمِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] فبدلًا من أنَّهُ أساءَ إلى هذا العبْدِ أحْسَنَ إليه بالعِتْقِ؛ ولهذا أرْشَدَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا بأنَّ مَنْ ضَرَبَ عبْدَهُ أو لَطَمَهُ فإنَّ كفَّارةَ ذلك أنْ يُعْتِقَهُ؛ لأنَّ الحَسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ.

ثم ذَكَرَ حديثَ هِشامِ بنِ حَكِيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قِصَّةِ المَحْبُوسِينَ في الخَراجِ، وهم الأنْباطُ، وسُمُّوا أنْباطًا؛ لأنَّهُم يَسْتَنْبِطُونَ الماءَ أي يَسْتَخْرِجونَهُ، وهم (فلَّاحونُ) في الشامِ كان عليهم خَراجٌ، وكأنَّهم لم يُؤَدُّوهُ، فعاقَبَهُمُ الوَالي عُقوبةً عظيمةً مُوجِعةً، فدَخَلَ هِشامٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الأميرِ فأخْبَرَهُ ففكَّ الأميرُ أسْرَهُم وأطْلَقَهُم.

وفي هذا دليلٌ على حُسْنِ سِيرَةِ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في مُناصحةِ الحُكَّامِ، وأنَّهم يَتَقَدَّمُونَ إلى الحاكِمِ ويَنْصَحُونَهُ، فإنِ اهْتَدى فهذا المطلوبُ، وإنْ لم يَهْتَدِ بَرَأَتْ ذِمَّةُ الناصِحِ وصارتِ المسؤوليةُ على الحاكِمِ، لكنَّ الحُكَّامَ الذين يَخافُونَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ إذا ذُكِّرُوا بآياتِ ربِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا، فاتَّعظ هذا الحاكِمُ وأمَرَ بإطْلاقِهِمْ، فدَلَّ ذلك على أنَّ التعذيبَ الذي يَصِلُ إلى هذا الحدِّ أنَّهُ لا يجوزُ.

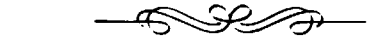
وكذلك أيضًا من الأحاديثِ التي ذَكَرَها المُؤَلِّفُ الوَسْمُ في الوَجْهِ، ووسْمُ الحيواناتِ في الوجْهِ حرامٌ، ومن كَبائِرِ الذُّنوبِ؛ وذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هذا، والوَسْمُ هو عبارةٌ عن كَيِّ الحيوانِ ليكونَ علامةً؛ ولهذا هو مُشْتَقٌّ من السِّمةِ، وهي العلامةُ، يَتَّخِذُ أهلُ المواشي علامةً لهم، كُلُّ قبيلةٍ لها وسْمٌ مُعَيَّنٌ إمَّا شَرْطتانِ أو شرطةٌ مُرَبَّعةٌ أو دائرةٌ أو هِلالٌ، فكُلُّ قبيلةٍ لها وسْمٌ مُعَيَّنٌ، والوَسْمُ هذا يَحْفَظُ

الماشيةَ إذا وُجِدَتْ ضالَّةً -يعني ضائعةً- عَرَفَ النَّاسُ أنها لهَؤُلاءِ القبيلةِ فذكَرُوها لهم، وكذلك أيضًا هي قرينةٌ في مسألةِ الدَّعْوى، لو أنَّ إنْسانًا وَجَدَ بهيمةً عليها وسْمٌ في يدِ إنْسانٍ وادَّعى أنَّها له فإنَّ هذه قرينةٌ تَدُلُّ على صِدْقِ دَعْواهُ تُرَجِّحُ بها دَعْوَى المُدَّعِي، وهي منَ الأُمورِ الثابتةِ بالسُّنَّةِ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يَسِمُ إبِلَ الصَّدقةِ، وكذلك الخلفاءُ مِن بعدِهِ.

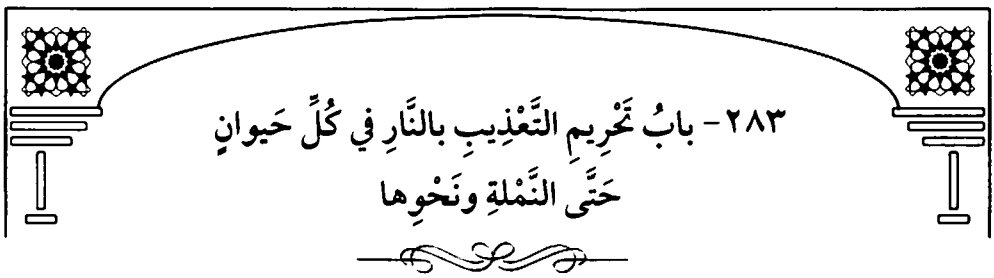
لكنَّ الوَسْمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ في الوَجْهِ؛ لأنَّ الوجْهَ لا يُضْرَبُ ولا يُوسَمُ ولا يُقَبَّحُ، فهو جمالُ البهيمةِ، وإنَّما يكونُ الوَسْمُ في الرَّقبةِ، ويكونُ في العَضُدِ، ويكونُ في الفَخِذِ، ويكونُ في أيِّ موضعٍ من الجِسْمِ إلَّا الوَجْهَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الإنْسانَ إذا رأى شَيْئًا مما يُلْعَنُ فاعِلُهُ فقال: «اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ فَعَلَ هذا» فلا إثْمَ عليه، لو وَجَدْنا بهيمةً مَوْسُومةً في الوَجْهِ، وقلنا: «اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ وَسَمَهَا» فلا بَأْسَ، لكنْ لا نقولُ: فُلانَ ابنَ فُلانٍ، نقولُ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ مَنْ وَسَمَها» كما قال النَّبِيُّ ﷺ ومثلُ ذلك إذا رَأَينا قَذَرًا في الشَّارِعِ يعني غائِطًا وجدناهُ في الشَّارِعِ، لنا أنْ نقولَ: لَعَنَ اللهُ مَنْ تَغَوَّطَ هاهنا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**اتَّقُوا المَلاعِنَ الثَّلاثَةَ: البَرَازَ في المَوَارِدِ، وقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، والظِّلِّ**»[1].

وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكم لِمَا يُحِبُّ ويَرْضَى، وجَعَلَنا هُداةً مُهْتَدينَ من عِبادِهِ الصَّالحينَ المُصْلِحِينَ.



(١) أبو داود: كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن...، رقم (٢٦)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسنتها، باب النهي عن الخلاء على قارعة الطريق، رقم (٣٢٨)، من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



٢٨٣- بابُ تَحْرِيمِ التَّعْذِيبِ بالنَّارِ في كُلِّ حَيوانٍ حَتَّى النَّمْلةِ ونَحْوِها

١٦٠٩- عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ في بَعْثٍ، فَقَالَ: «إنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلانًا» لِرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُمَا «فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّارِ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ: «إنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أنْ تُحْرِقُوا فُلانًا وفُلانًا، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إلَّا اللهُ، فَإنْ وَجَدْتُمُوهُما فاقْتُلُوهُما». رَواهُ البُخارِيُّ[1].

١٦١٠- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءتِ الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَّعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إلَيْهَا». ورأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا، فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هذِهِ؟» قُلْنَا: نَحْنُ قَالَ: «إنَّهُ لا يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا رَبُّ النَّارِ». رَواهُ أَبُو دَاوُدَ[2] بإسْنادٍ صَحِيحٍ.

قَوْلُهُ: «قَرْيَةَ نَمْلٍ» مَعْنَاهُ: مَوضِعُ النَّمْلِ مَعَ النَّمْلِ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى: «بابُ تَحْرِيمِ التَّعْذِيبِ بالنَّارِ» يعني أَنَّهُ لا يَحِلُّ لإنْسانٍ أنْ يُعَذِّبَ أحدًا بالإحْراقِ؛ لأَنَّهُ يُمْكِنُ التَّعْذِيبُ بدونِهِ، ويُمْكِنُ إقامةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، رقم (٣٠١٦).
(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، رقم (٢٦٧٥).

الحُدودِ بدون ذلك، فيكونُ الإحْراقُ زيادةَ تعذيبٍ لا حاجةَ لها.

ثم ذَكَرَ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رِجالًا في سَرِيَّةٍ وقال: «إنْ وَجَدْتُمْ فُلَانًا وَفُلانًا» لرجلَيْنِ سَمَّاهُما «فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّارِ» فاعْتَمَدَ الصَّحابةُ ذلك؛ امْتثالًا لأمْرِ النَّبِيِّ ﷺ فلمَّا أرادُوا الخُروجَ، قال: كُنْتُ قُلْتُ: كذا وكذا ولكنْ «لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُما فاقْتُلُوهُما» فنَسَخَ النَّبِيُّ ﷺ أمْرَهُ الأوَّلَ بأمْرِهِ الثاني، فدلَّ ذلك على أنَّ الإنْسانَ إذا اسْتَحَقَّ القَتْلَ فإنَّهُ لا يُحَرَّقُ بالنَّارِ، وإنَّما يُقْتَلُ قَتْلًا عادِيًّا حَسَبَ ما تَقْتَضِيهِ النُّصوصُ الشَّرْعِيَّةُ.

وكذلك الحديثُ الذي رَواهُ أبو دَاوُدَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَضى لِحاجَتِهِ فوَجَدَ الصَّحابةَ حُمَّرَةً -نوعًا من الطُّيورِ- معها ولَدَاها، فأخَذُوهُما، فجَعَلَتْ تَعْرِشُ، يعني تَحُومُ حَوْلَهُم، كما هو العادةُ أنَّ الطائِرَ إذا أُخِذَ أوْلادُهُ جَعَلَ يَحُومُ ويَصِيحُ لِفَقْدِ أوْلادِهِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ في قُلوبِ البهائِمِ رَحْمَةً لأوْلادها «حَتَّى أَنَّ البَهِيمَةَ لَتَرْفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[1] وهذا منْ حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فأمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أنْ يُطْلَقَ ولَداها لها، فأطْلَقُوا ولَدَيْها.

ثم مرَّ بقريةِ نَمْلٍ قد أُحْرِقتْ فقال: «مَنْ أَحْرَقَ هَذَا؟» قالوا: نحنُ يا رَسُولَ اللهِ. وقريةُ النَّمْلِ يعني مُجْتَمَعَ النَّمْلِ، وجُحورَها، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّهُ لا يَنْبَغِي أنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلَّا رَبُّ النَّارِ» فنهى عن ذلك، وعلى هذا إذا كان عندك نَمْلٌ فإنَّكَ لا تُحْرِقُها بالنَّارِ، وإنما تَضَعُ شيئًا منَ الوسائِلِ التي تُنَفِّرُها وتَطْرُدُها بإذْنِ اللهِ ولا تَرْجِعُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب جعل الله الرحمة مائة جزء، رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (٢٧٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وإذا لم يُمْكِنُ اتِّقاءُ شرِّ النَّمْلِ إلَّا بمُبِيدٍ يَقْتُلها نهائيًّا، فلا بَأْسَ؛ لأنَّ هذا دَفْعٌ لأَذاها، وإلا فإنَّ النَّمْلَ مما نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن قَتْلِهِ[1]، لكنْ إذا آذاكَ ولم يَنْدَفِعْ إلَّا بالقَتْلِ فلا بَأْسَ بقَتْلِهِ، واللهُ المُوَفِّقُ.



(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، رقم (٣٢٢٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢٨٤- بابُ تَحْرِيمِ مَطْلِ الغَنِيِّ بحقٍّ طلبَهُ صاحِبُهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، وقال تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة:٢٨٣].

١٦١١- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

معنى «أُتْبِعَ»: أُحِيلَ.

الشَّرْح

ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رحِمَه اللهُ تَعالى بابَ تَحْرِيمِ مَطْلِ الغَنِيِّ، يعني في الحقِّ الذي يَجِبُ عليه لغَيْرِهِ، والمَطْلُ هو التَّأْخِيرُ، وهو ظُلْمٌ، فإنْ كان لك حقٌّ حالٌّ على إنْسانٍ وطَلَبْتَهُ منه ولكنَّهُ صارَ يُماطِلُ فإنَّ ذلك ظُلْمٌ منه وحرامٌ وعُدْوانٌ.

ومن ذلك ما يَفْعَلُهُ بعضُ الكُفلاء لِمَكْفُولِيهِمْ، فإنَّهم -والعياذُ باللهِ- يُماطِلُونَهم ويُؤْذُونَهُم ولا يُؤْتُونَهُم حَقَّهُم، تَجِدُ هذا الفَقِيرَ المِسْكينَ الذي تَرَكَ أَهْلَهُ وبلدَهُ؛ لِينالَ لُقْمةَ العَيْشِ، يَبْقى أَرْبعةَ أَشْهُرٍ، أو خَمْسةَ أَشْهُرٍ، أو أكثرَ والكفيلُ يُماطِلُ به -والعياذُ باللهِ- ويُهَدِّدُهُ بأَنَّهُ إنْ تَكَلَّمَ أعادَهُ إلى بلادِهِ، ألا يَعْلَمُ هَؤُلاءِ أنَّ اللهَ فَوْقَهُمْ، وأنَّ اللهَ أعْلى منهم، وأنَّهُ رُبَّما يُسَلِّطُ عليهم قَبْلَ أنْ يَمُوتوا مَنْ يَسُومُهُم سُوءَ العذابِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم (٢٢٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني...، رقم (١٥٦٤).

نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ؛ لأنَّ هَؤُلاءِ مساكينُ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ عن رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قال: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ القِيامةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ» يعني عاهَدَ باللهِ وغَدَرَ، والعياذُ باللهِ، «ورَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، ورَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[1] فهَؤُلاءِ خُصماءُ اللهِ يَوْمَ القِيامةِ، نعوذُ باللهِ من حالِهم، وكُلُّ ساعةٍ بل كُلُّ لحظةٍ تَمُرُّ عليهم لا يُوَفُّونَ هذا حقَّهُ لا يَزْدَادُونَ منَ اللهِ إلَّا بُعْدًا، ولا يَزْدَادُونَ إلَّا ظُلْمًا، والعياذُ باللهِ، والظُّلْمُ ظُلماتٌ يَوْمَ القِيامةِ.

ثم اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ بقولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]. ومنَ الأماناتِ ثَمَنُ المَبِيعِ، إذا باع عليك إنْسانٌ شيئًا وبَقِيَ ثَمَنُهُ في ذِمَّتِكَ فهو يُشْبِهُ الأمانةَ، يَجِبُ أنْ تُؤَدِّيَها ولا يَحِلُّ لك أنْ تُماطِلَ بها.

واسْتَدَلَّ أيضًا بحديثِ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَإِذَا أُحِيلَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ» فجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديثِ بين حُسْنِ القَضاءِ وحُسْنِ الاقْتضاءِ، أمَّا حُسْنُ القضاءِ فقال: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ» وهذا يَتَضَمَّنُ الأمْرَ بالمُبادرةِ إلى إيفاءِ الحقِّ وأنْ لا يَتَأَخَّرَ، فإنْ فعل فهو ظالِمٌ، وما أكْثَرَ الذين يُؤْتَى إليهم يُطْلَبُ منهم الثَّمَنُ أو الأُجْرَةُ ويقولُ غدًا، بعد غَدٍ والدَّراهِمُ جاهزةٌ عنده! ولكن -والعياذُ باللهِ- يَلْعَبُ به الشَّيْطانُ، وكأنَّهُ إذا بَقِيَتْ عنده تَزِيدُ، أو كأنَّهُ يُنْقَصُ صاحبُ الحقِّ منها.

وعَجَبًا لهَؤُلاءِ الذين سَفَهُوا في عُقولِهم وضَلُّوا في دِينِهم، هل يَظُنُّونَ أنَّهُم إذا ماطَلُوا يَسْقُطُ عنهم الحقُّ أو يَنْقُصُ؟ أبدًا، الحقُّ باقٍ، سواءٌ أعطاهُ اليومَ أو بعدَ عَشَرَةِ أيَّامٍ أو بعدَ عَشْرِ سِنِينَ، لكنَّ الشَّيْطانَ يَلْعَبُ بهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٧٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقولُ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَطْلُ الغَنِيِّ**» يدلُّ على أنَّ مَطْلَ الفقيرِ ليس بظُلْمٍ، فإذا كان الإنْسانُ ليس عنده شيءٌ وماطَلَ فهذا ليس بظالِمٍ، بل الظَّالِمُ الذي يَطْلُبُهُ؛ ولهذا إذا كان صاحِبُكَ فقيرًا وَجَبَ عليك أنْ تُنْظِرَهُ وألَّا تَطْلُبَهُ ولا تُطالِبَهُ به؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فأوْجَبَ اللهُ الانْتظارَ إلى المَيْسَرَةِ.

وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يكونُ له الحَقُّ عند الفقيرِ ويَعْلَمُ أنَّهُ فقيرٌ، ويُطالِبُهُ ويُشَدِّدُ عليه، ويَرْفَعُ بشَكْواهُ إلى وُلاةِ الأُمورِ، ويُحْبَسُ وهو ليس بقادرٍ، هذا أيضًا حرامٌ وعُدْوانٌ، ويَجِبُ على القاضي إذا عَلِمَ أنَّ هذا فقيرٌ وطالَبَهُ مَنْ له الحقُّ أنْ يَنْهَرَ صاحبَ الحقِّ، وأنْ يُوَبِّخَهُ وأنْ يَصْرِفَهُ؛ لأنَّهُ ظالِمٌ، فإنَّ اللهَ أمَرَ بالانْتِظار ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ولا يَحِلُّ له أبدًا أنْ يَتَعَرَّضَ له، وهو يَدْرِي أنَّهُ فقيرٌ.

وقولُهُ ﷺ: «**مَنْ أُحِيلَ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**» يعني إذا كانَ إنسانٌ له حقٌّ على زَيْدٍ، وقال له زَيْدٌ: أنا أطْلُبُ عَمْرًا مِقْدارَ حَقِّكَ، يعني مثلًا زَيْدٌ مَطْلوبٌ بمائةِ ريالٍ وهو يُطالِبُ عَمْرًا بمائةِ رِيالٍ، فجاءَ الطَّالِبُ إلى زيدٍ، وقال: أعْطِني مائةَ ريالٍ، فقال زَيْدٌ: أنا أُحِيلُكَ على عَمْرٍو في مائةِ ريالٍ، فليس للطَّالِبِ أنْ يَقُولَ: لا أَقْبَلُ؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «**مَنْ أُحِيلَ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ**» إلَّا إذا كان المُحَوَّلُ عليه فَقِيرًا أو مُماطلًا أو قَرِيبًا للشَّخْصِ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَرْفَعَهُ عند الحاكِمِ، فإذا وُجِدَ مانِعٌ فلا بَأْسَ أنْ يَرْفُضَ الحَوالةَ، وأمَّا إذا لم يَكُنْ مانِعٌ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَرَ أنْ يَقْبَلَ الحَوالةَ، قال: «**فَلْيَتْبَعْ**» واخْتلَفَ العُلَماءُ هل هذا على سَبِيلِ الوُجوبِ أو أنَّ هذا على سبيلِ الاسْتِحْبابِ؟

فذَهَبَ الحَنابِلةُ[1] رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أنَّ هذا على سَبِيلِ الوُجوبِ، وأنَّهُ يَجِبُ على الطَّالِبِ أنْ يَتَحَوَّلَ إذا حُوِّلَ على إنسانٍ مَلِيءٍ.

وقال أكْثَرُ العُلَماءِ: إنَّهُ على سَبِيلِ الاسْتِحْبابِ؛ لأنَّ الإنْسانَ لا يَلْزَمُهُ أنْ يَتَحَوَّلَ، قد يقولُ: صاحِبي الأوَّلُ أهْوَنُ وأيْسَرُ، وأمَّا الثاني فأهابُهُ وأخافُ منه وما أشْبَهَ ذلك، لكنْ لا شكَّ أنَّ الأفْضَلَ أنْ يَتَحَوَّلَ إلَّا لمانِعٍ شَرْعِيٍّ. واللهُ المُوَفِّقُ.

(١) انظر: الإنصاف (١٣/ ١٠٢)، كشاف القناع (٣/ ٣٨٦).

٢٨٥- بابُ كَراهةِ عَوْدِ الإنْسانِ في هِبةٍ لَمْ يُسَلِّمْها إلَى المَوْهُوبِ لَهُ، وفي هِبةٍ وهَبَها لوَلَدِهِ وسَلَّمَها أَوْ لَمْ يُسَلِّمْها، وكراهةِ شِرائِهِ شَيْئًا تَصَدَّقَ بِهِ منَ الَّذِي تَصَدَّقَ عَلَيْهِ، أَوْ أخْرَجَهُ عن زكاةٍ أَوْ كفَّارةٍ ونَحْوِها، وَلَا بَأْسَ بشِرائِهِ من شَخْصٍ آخَرَ قَدِ انْتَقَلَ إلَيْهِ

١٦١٢- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي يَعُودُ في هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرْجِعُ في قَيْئِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وفي رِوايةٍ: «مَثَلُ الَّذِي يَرْجِعُ في صَدَقَتِهِ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقِيءُ، ثُمَّ يَعُودُ في قَيْئِهِ فَيَأْكُلُهُ»(٢).

وفي رِوايةٍ: «العَائِدُ في هِبَتِهِ كالعَائِدِ في قَيْئِهِ»(٣).

١٦١٣- وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ في سَبيلِ اللهِ فَأَضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِندَهُ، فَأَرَدْتُ أنْ أشْتَرِيَهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ، فَسَأَلْتُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢٢)، ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة شراء الإنسان ما تصدق به، رقم (١٦٢٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض، رقم (١٦٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢١)، ومسلم: كتاب الهبات، باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة بعد القبض، رقم (١٦٢٢).

النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «لَا تَشْتَرِهِ وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ؛ فَإِنَّ العَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالعَائِدِ فِي قَيْئِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

قَوْله: «حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ» مَعنَاهُ: تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَى بَعْضِ المُجَاهِدِينَ.

الشَّرْح

في هذا البابِ ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ ما يَدُلُّ على تَحْرِيمِ الرُّجُوعِ في الهِبَةِ، يعني أَنَّك إذا أَعْطَيْتَ إنْسانًا شيئًا مَجَّانًا تَبَرُّعًا من عندك فإنَّهُ لا يَحِلُّ لك أنْ تَرْجِعَ فيه، سواءً كان قَلِيلًا أم كَثِيرًا؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَبَّهَ العائِدَ في هِبَتِهِ بالكَلْبِ، والكَلْبُ يَقِيءُ ما في بَطْنِهِ ثم يعودُ فيَأْكُلُهُ، وهذا تَشْبِيهٌ قبيحٌ، شبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ العائدَ في هِبَتِهِ بهذا تَقْبِيحًا له وتَنْفِيرًا منه، ولا فَرْقَ بين أنْ يكونَ الذي وهَبْتَهُ من أقارِبِكَ أو منَ الأباعِدِ عنك، فلو وَهَبْتَ لأخيك ساعةً، أو قَلَمًا، أو سيَّارةً، أو بَيْتًا، فإنَّهُ لا يَحِلُّ لك أنْ تَرْجِعَ فيه، إلَّا أنْ تَرْضى لنفسك أنْ تَكُونَ كَلْبًا، ولا أَحَدَ يَرْضى لنفسِهِ أنْ يكونَ كَلْبًا، وكذلك الابْنُ لو وَهَبَ لأبيه شيئًا فإنَّهُ لا يَرْجِعُ فيه، كرَجُلٍ غَنِيٍّ له أبٌ فقيرٌ، فوَهَبَهُ بَيْتًا، فإنَّهُ لا يجوزُ له أنْ يَرْجِعَ في الهِبَةِ ولو كان أباهُ.

أمَّا العَكْسُ: لو أنَّ الرَّجُلَ وهَبَ ابنهُ شيئًا، فلا بَأْسَ أنْ يَرْجِعَ فيه؛ لقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً أَوْ يَهَبَ هِبَةً فَيَرْجِعُ فِيهَا، إِلَّا الوَالِدَ فِيمَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢٣) ومسلم: كتاب الهبات، باب كراهة شراء الإنسان ما تصدق به ممن تصدق عليه، رقم (١٦٢٠).

يُعْطِي وَلَدَهُ»[1]؛ لأنَّ الوالِدَ له الحقُّ أنْ يَأْخُذَ من مالِ ولدِهِ الذي لم يَهَبْهُ له ما لم يَضُرَّهُ.

ثم ذكر أيضًا حديثَ عُمَرَ بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَمَلَ على فَرَسٍ في سبيلِ اللهِ، يعني أعْطَى رَجُلًا فَرَسًا يُقاتِلُ عليه، فأضاعَهُ الرَّجُلُ وأهْمَلَهُ، فظَنَّ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ يَبيعُهُ بِرُخْصٍ وأَنَّهُ ليس قادرًا على تَحَمُّلِ مَؤُونَتِهِ، فذَكَرَ ذلك للنَّبِيِّ ﷺ فقال: «لَا تَشْتَرِهِ وَلَو أعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ» لأنَّكَ أخْرَجْتَهُ للهِ، ولا يُمْكِنُ للإنْسانِ أنْ يَشْتَرِيَ صَدَقَتَهُ؛ لأنَّ ما أخْرَجَهُ الإنْسانُ للهِ لا يعودُ فيه؛ ولهذا قال: «العَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كالكَلْبِ يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ» فتركَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا إذا قَبَضَ المَوْهُوبُ له الهِبةَ، أمَّا قَبْلَ قَبْضِها فهذا لا يَحْرُمُ عليه أنْ يَعُودَ، لكنْ يُوَفِّي بوَعْدِهِ، كما لو قال شَخْصٌ لآخَرَ: سوفَ أُعْطِيكَ ساعةً مثلًا. ولكنَّهُ لم يُسَلِّمْها له، فله أنْ يَرْجِعَ لكنْ يَنْبَغِي أنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ؛ لأنَّ الذي لا يَفِي بما وَعَدَ فيه خَصْلةٌ من خِصالِ النِّفاقِ، ولا يجوزُ للإنْسانِ أنْ يَتَّصِفَ بخِصالِ المُنافِقِينَ. واللهُ المُوَفِّقُ.



(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٧)، وأبو داود: كتاب البيوع، باب الرجوع في الهبة، رقم (٣٥٣٩)، والترمذي: كتاب الولاء والهبة، باب ما جاء في كراهية الرجوع في الهبة، رقم (٢١٣٢)، والنسائي: كتاب الهبة، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده، رقم (٣٦٩٠)، وابن ماجه: كتاب الهبات، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه، رقم (٢٣٧٧)، من حديث ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٢٨٦- بابُ تَأْكِيدِ تَحْرِيمِ مالِ اليتيمِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

١٦١٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ!» قالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحَقِّ، وأكلُ الرِّبَا، وأكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

«المُوبِقَاتِ»: المُهْلِكاتِ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى-: «بابُ تَأْكِيدِ تَحْرِيمِ مالِ اليتيمِ».

اليَتامَى: هم الذين ماتَ آباؤُهم قبل البُلُوغِ، سواءً كانوا ذُكُورًا أو إناثًا، وهَؤُلاءِ اليَتامى مَحَلُّ الرِّفْقِ والعِنايةِ والرَّحْمةِ والشَّفقةِ؛ لأنَّها كُسِرَتْ قُلُوبُهم بمَوتِ آبائِهم وليس لهم عائِلٌ إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكانوا مَحَلَّ الرِّفْقِ والعنايةِ؛ ولهذا أوْصَى اللهُ بهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، رقم (٢٧٦٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، رقم (٨٩).

في كِتابِهِ، وحثَّ على الرَّحْمةِ بهم في آياتٍ كثيرةٍ، ولا يَحِلُّ للإنْسانِ أنْ يَأْكُلَ أمْوالَ اليَتامى ظُلْمًا؛ لقَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

ويُوجَدُ بعضُ النَّاسِ، والعياذُ باللهِ، يموتُ أخوهُ ويكونُ له أولادٌ صغارٌ، فيَتَوَلَّى مالَهُ ويُتاجِرُ به لنفسِهِ، والعياذُ باللهِ، ويَتَصَرَّفُ فيه بغيْرِ حقٍّ وبغيْرِ مَصْلحةٍ للأيْتامِ، وهَؤُلاءِ يَسْتَحِقُّونَ هذا الوعيدَ أنهم يَأْكُلُونَ في بُطونِهِمْ نارًا، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

وقال تَعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] يعني: لا تَتعامَلُوا في أمْوالِ اليَتامى إلَّا بالتي هي أحْسَنُ، فإذا كان أمامكَ مَشْرُوعانِ تُرِيدُ أنْ تُشَغِّلَ مالَ اليتيمِ في واحدٍ منهما فانْظُرْ أيَّهُما أقْرَبُ إلى المَصْلَحةِ والرِّبْحِ والسلامةِ فافْعَلْه، ولا يَحِلُّ لك أنْ تَفْعَلَ ما هو أسوأُ لِحَظِّ نفسِك أو لِحَظِّ قريبٍ أو ما أَشْبَهَ ذلك، بل انْظُرْ للذي هو أحْسَنُ، فإن أشْكَلَ عليك هل فيه مَصْلحةٌ لليتيمِ أم لا؟ فلا تَتَصَرَّفْ، بل أَمْسِكِ الدَّراهِمَ؛ لأنَّ اللهَ تَعالى قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

ولا يَحِلُّ لك أنْ تُقْرِضَ أحدًا من مالِ اليَتامى؛ لأنَّهُ قد يَعْجِزُ عنِ الوفاءِ ولا مَصْلَحةَ لليتيمِ في قَرْضِهِ، وإذا كان لا يَصْلُحُ أنْ تُقْرِضَهُ غيْرَك فمِن بابٍ أوْلَى أنْ لا تَسْتَقْرِضَهُ أنت لنفسِك، وبعضُ أولياءِ اليَتامى -والعياذُ باللهِ- يَتَجَرَّءُونَ، يَسْتَقْرِضُ مالَ اليتيمِ لنفسِهِ ويَتَصَرَّفُ فيه لنفسِهِ والكَسْبُ له والرِّبْحُ له، ومالُ اليتيمِ لا يَسْتَفِيدُ، واللهُ يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

فإذا رَأَيْتَ أنَّ هذا المَشْرُوعَ أحْسَنُ وساهَمْتَ فيه، وقدَّرَ اللهُ أنْ يَخْسَرَ هذا

المشروعُ فليس عليك شيءٌ؛ لأنَّك مُجْتَهِدٌ، والمجتهدُ لو أصابَ له أجْرانِ وإنْ أخْطَأَ فله أجْرٌ، لكنْ أنْ تَتَعَمَّدَ أنْ تَتْرُكَ ما هو أحْسَنُ لِمَا دُونَهُ، فهذا حرامٌ عليكَ.

وقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠] وهذه الآيةُ ورَدَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ أوْرَدَهُ الصَّحابةُ على الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رَسُولَ اللهِ نحنُ عندنا أمْوالُ اليَتامى، والبيتُ واحِدٌ والطَّعامُ واحدٌ، كيفَ نَعْمَلُ، إنْ جَعَلْنا طَعامَ هَؤُلاءِ في إناءٍ خاصٍّ تَعِبْنا، وربَّما يَفْسَدُ عليهم، ماذا نَعْمَلُ؟[1] فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ يعني افْعَلُوا ما هو الأصْلَحُ وخالِطُوهم، اجْعَلُوا القِدْرَ واحدًا والإناءَ واحدًا، وما دُمْتُمْ تُرِيدُونَ الإصْلاحَ فاللهُ ﴿يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ وشَقَّ عليكم لكنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِيمٌ بالمُؤْمِنِينَ.

ثم ذَكَرَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ!» السَّبْعُ المُوبقاتُ المُهْلِكاتُ التي تُهْلِكُ الدِّينَ والعياذُ باللهِ، قالوا: وما هُنَّ يا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «الشِّرْكُ باللهِ» وهذا أعْظَمُ المُوبقاتِ أنْ تُشْرِكَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ وهو خَلَقَكَ، وأنْعَمَ عليك في بَطْنِ أُمِّكَ وبَعْدَ وضْعِكَ، وفي حالِ صِباكَ، أنْعمَ اللهُ عليك بنِعَمٍ كثيرةٍ فتُشْرِكُ به والعياذُ باللهِ! هذا أظْلَمُ الظُّلْمِ، فأظْلَمُ الظُّلْمِ أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ، وهو أعْظَمُ المُوبقاتِ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، رقم (٢٨٧١)، والنسائي: كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، رقم (٣٦٧٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والإشْراكُ باللهِ أنواعٌ كثيرةٌ:

منها: أنْ يُعَظِّمَ الإنْسانُ المخلوقَ كما يُعَظِّمُ الخالِقَ، وهذا موجودٌ عندَ بعضِ الخَدَمِ، الأحْرارِ وغيرِ الأحْرارِ، تَجِدُهُ يُعَظِّمُ رَئِيسَهُ، أو مَلِكَهُ، أو وَزِيرَهُ أكثرَ منْ تَعْظِيمِ اللهِ، والعياذُ باللهِ، هذا شِرْكٌ عظيمٌ، ويَدُلُّ لهذا أنَّ أَمِيرَهُ أو وَزِيرَهُ أو مَلِكَهُ، أو سَيِّدَهُ إذا قال افْعَلْ كذا وقْتَ الصَّلاةِ تَرَكَ الصَّلاةَ وفَعَلَ، حتَّى لو خَرَجَ وقْتُها لا يُبالي، فمعناهُ أنَّهُ جَعَلَ تَعْظِيمَ المَخْلُوقِ أعْظَمَ من تَعْظِيمِ الخالِقِ.

ومن ذلك أيضًا المَحَبَّةُ، أنْ يُحِبَّ أحَدًا منَ المَخْلُوقِينَ كمحبَّةِ اللهِ أو أعْظَمَ، تَجِدُهُ يُدارِي هذا الإنْسانَ ويَطْلُبُ مَحَبَّتَهُ أكْثَرَ من مَحَبَّةِ اللهِ، وهذا يُوجَدُ، والعياذُ باللهِ، في المَفْتُونِينَ بالعِشْقِ، الذين فُتِنُوا بالعِشْقِ، سواءً كان عِشْقَ نِساءٍ أو مُرْدانٍ -نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ- تَجِدُ قَلْبَهُ مَمْلُوءًا بمَحَبَّةِ غيرِ اللهِ أكْثَرَ من مَحَبَّةِ اللهِ، وقدْ قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

ومن ذلك الرِّياءُ وهو أمْرٌ خَفِيٌّ، فإنَّهُ منَ الشِّرْكِ باللهِ، يقومُ الإنْسانُ يُصَلِّي ويُزَيِّنُ صلاتَهُ؛ لأنَّ فُلانًا يراهُ، ويَنْظُرُ إليه، ويَصُومُ ليُقالَ: إنَّهُ رَجُلٌ عابدٌ، ويَتَصَدَّقُ ليُقالَ: إنَّهُ رَجُلٌ كريمٌ، وقد قالَ اللهُ تَعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ»[1].

ومنَ الشِّرْكِ وهو خَفِيٌّ أيضًا، أنْ تَأْخُذَ الدُّنْيا لُبَّ الإنْسانِ وعَقْلَهُ، فتَجِدُ عقْلَهُ وفِكْرَهُ وبَدَنَهُ ونَوْمَهُ ويَقَظَتَهُ كُلَّها في الدُّنْيا، ماذا كَسَبَ اليَوْمَ وماذا خَسِرَ؛ ولذلك تَجِدُهُ يَتَحَيَّلُ على الدُّنْيا بالحلالِ والحرامِ والكَذِبِ والخَديعةِ لوُلاةِ الأُمورِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

ولا يُبالي؛ لأنَّ الدُّنْيا اسْتَعْبَدَتْهُ والعياذُ باللهِ، والدَّليلُ على هذا الشِّرْكِ قَوْلُ النَّبيِّ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» هل تَظُنُّونَ أنَّ هذا يَسْجُدُ للدِّينارِ؟ لا، لكنَّ الدِّينارَ قد مَلَكَ قَلْبَهُ «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ» يعني: الثِّيابَ «تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ» يعني الفُرُشَ، هَمُّهُ في تَجْمِيلِ ثيابِهِ وتَجْمِيلِ فَراشِهِ أكْبَرُ عنده منَ الصَّلاةِ وغيْرِهَا من عِبادةِ اللهِ.

قوله ﷺ: «تَعِسَ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ» إنْ أنْعمَ اللهُ عليه قال: هذا الرَّبُّ الكريمُ العظيمُ الجليلُ الذي يَسْتَحِقُّ كُلَّ شيءٍ، وإنْ لم يُعْطَ سَخِطَ، والعياذُ باللهِ ﴿يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج:١١]. يقولُ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ».

«تَعِسَ» خَسِرَ، «وانْتَكَسَ» انْتَكَسَتْ عليه الأمورُ، وأفْسَدَ اللهُ عليه أَمْرَهُ «وإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ» يعني: أنَّ اللهَ يُعَسِّرُ عليه الأُمورَ حتَّى الشَّوْكَةَ لا يَقْدِرُ أنْ يُخْرِجَها من بدنِهِ «إِذَا شِيكَ» أي: أَصابَتْهُ الشَّوْكَةُ «فلا انْتَقَشَ».

ثم قال في مُقابِلِ هذا: «طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ في سَبِيلِ اللهِ» طُوبَى يعني الحياةَ الطَّيِّبَةَ في الدُّنْيا والآخِرةِ لهذا العَبْدِ «لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ»[1].

الأوَّلُ عبدُ خميصةٍ وخميلةٍ. أمَّا الثاني: فلا يُبالي بنفسِهِ، وأهمُّ شيءٍ عنده هو عِبادةُ اللهِ ورِضا اللهِ «أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، رقم (٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني أَنَّهُ لا يُبالي أَيَّةَ مَنْزِلَةٍ يَنْزِلُها، إذا كانت فيه مصلحةُ الجِهادِ فإنَّهُ يكونُ فيها، هذا هو الذي رَبِحَ الدُّنْيا والآخِرةَ.

فالحاصلُ: أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِكُ باللهِ وهو لا يَعْلَمُ، وأنت يا أخي إذا رأيتَ الدُّنْيا قد مَلَأَتْ قَلْبَكَ وأَنَّهُ ليس لك هَمٌّ إلَّا هي، تنامُ عليها وتَسْتَيْقِظُ عليها، فاعْلَمْ أنَّ في قَلْبِكَ شِرْكًا؛ لأنَّ الرَّسُولَ ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ» ويَدُلُّ لهذا أَنَّهُ يَحْرِصُ على الحُصولِ على المالِ سواءً بالحلالِ أو بالحرامِ.

والذي يَعْبُدُ اللهَ حقًّا لا يُمْكِنُ أنْ يَأْخُذَ المالَ بالحرامِ إطْلاقًا؛ لأنَّ الحرامَ فيه سَخَطُ اللهِ، والحلالُ فيه رِضا اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والإنْسانُ الذي يَعْبُدُ اللهَ حقًّا يقولُ: لا يُمْكِنُ أنْ آخُذَ المالَ إلَّا بطَرِيقِهِ ولا أَصْرِفُهُ إلَّا بطَرِيقِهِ.

الثَّاني السِّحْرُ: والسِّحْرُ عبارةٌ عن عُقَدٍ ورُقًى، يعني: قراءاتٍ مُطَلْسَمةً في صُورِ الشَّياطِينِ وعفاريتِ الجِنِّ، يَنْفُثُ بها الساحِرُ، فيُؤْذِي المَسْحُورَ بمَرَضٍ أو مَوْتٍ أو صَرْفٍ أو عَطْفٍ، والصَّرْفُ: يعني يَصْرِفُهُ عمَّا يُرِيدُ، والعَطْفُ: يعني يَعْطِفُهُ على ما لا يُرِيدُ، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة:١٠٢].

وهو من كَبائِرِ الذُّنوبِ، والساحِرُ يَجِبُ أنْ يُقْتَلَ حَدًّا، سواءً تابَ أو لم يَتُبْ؛ وذلك لِعِظَمِ مَضَرَّتِهِ على النَّاسِ وشِدَّةِ جَرْأتِهِ، والعياذُ باللهِ، ولهذا جاءَ في الحديثِ: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ»[1]، وفي رِوايةٍ: «ضَرْبُهُ بالسَّيْفِ».

ثم إنَّ السِّحْرَ منه ما يكونُ كُفْرًا، وهو أنْ يَسْتَعِينَ بالشَّياطِينِ والجِنِّ وهذا كُفْرٌ؛

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الحدود، باب ما جاء في حد السحر، رقم (١٤٦٠)، من حديث جندب ابن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِقَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورةِ البقرةِ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وهذا نَصٌّ صريحٌ بأنَّ السِّحْرَ كُفْرٌ إذا كان مُتَلَقًّى من الشَّياطينِ؛ لأنَّ الشَّياطينَ لا يُمْكِنُ أنْ تَخْدُمَ الإنْسانَ إلَّا بشيءٍ يكونُ شِرْكًا، وقد سَحَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ خبيثٌ، يقالُ له لَبِيدُ بنُ الأعْصَمِ، وَضَعَ له سِحْرًا في مُشْطٍ ومُشاطةٍ وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ يعني النَّخْلَةَ الفَحْلَ[1]، هذا الخَبيثَ وَضَعَ السِّحْرَ للرَّسُولِ ﷺ في بئرِ أَرِيسٍ في مُشْطٍ، وهو الذي يُمَشَّطُ به عادةً، ومُشاطةٍ يعني: ما سَقَطَ منَ الشَّعَرِ عندَ المَشْطِ فوضَعَهُ في هذا البِئْرِ، لكنْ لم يُؤَثِّرْ على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمْرٍ يَتَعَلَّقُ بالرِّسالةِ أبدًا، وصارَ يُخَيَّلُ إليه أنَّهُ أتَى أهْلَهُ أو أنَّهُ فَعَلَ الشَّيْءَ ولم يَفْعَلْهُ، حتَّى أنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سُورَتَيْ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]. و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [النَّاس:١].

فرقاهُ بهما جِبْرِيلُ، فشُفِيَ بإذْنِ اللهِ، ثم اسْتَخْرَجَ السِّحْرَ من هذه البِئْرِ وفَلَّهُ وأبْطَلَهُ، وهذا دليلٌ على خُبْثِ اليَهُودِ، وأنَّهُم منْ أشَدِّ النَّاسِ عَداوةً، بل قال اللهُ تَعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:٨٢]. فبدَأ باليَهُودِ قبلَ المُشْرِكينَ، فهم أشَدُّ النَّاسِ عَداوةً للمُسْلِمِينَ؛ ولهذا سَحَرُوا النَّبِيَّ ﷺ ولكنَّ اللهَ، ولله الحمدُ، أبْطَلَ سِحْرَهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب السحر، رقم (٥٧٦٣)، ومسلم كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فصارَ السِّحْرُ يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأوَّلُ: سِحْرُ كُفْرٍ وهو الاسْتِعانةُ بالأرْواحِ الشَّيْطانِيَّةِ.

القِسْمُ الثاني: غيرُ كُفْرٍ وهو أنْ يَكُونَ بالعُقَدِ والأدْوِيةِ والأعشابِ وما أَشْبَهَ ذلك.

أمَّا حُكْمُ الساحِرِ فإنَّهُ يَجِبُ أنْ يُقْتَلَ بكُلِّ حالٍ إنْ كان كافرًا فَلِرِدَّتِهِ، وإنْ كان سِحْرُهُ دونَ الكُفْرِ فلأَذِيَّتِهِ، قال اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٣٣].

والثالثةُ: «وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بالحَقِّ» والنَّفْسُ التي حَرَّمَ اللهُ قَلْتَهَا أرْبَعُ نُفُوسٍ: المُسْلِمُ، الذِّمِّيُّ، المُعاهَدُ، المُسْتَأْمِنُ، هذه أرْبَعُ نُفوسٍ مُحْتَرَمَةٌ لا يجوزُ قَتْلُها.

أمَّا المُسْلِمُ فظاهِرٌ.

وأمَّا الذِّمِّيُّ: فهو الذي يكونُ بيننا وفي بَلَدِنا من أهْلِ الكِتابِ أو غيْرِهِم، يَدْفَعُ الجِزْيةَ لنا ونَحْمِيهِ مما يُؤْذِيهِ، ونَحْتَرِمُهُ وإنْ كان على غيْرِ الإسْلامِ.

وأمَّا المُعاهَدُ: فهو الذي بيْنَنا وبيْنَهم عَهْدٌ وإنْ كانوا في بلادِنا كما جرَى بين النَّبِيِّ ﷺ وبين قُرَيْشٍ في صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ، فإذا كان منَ المُعاهَدِينَ حَرُمَ عليكَ أنْ تَقْتُلَهُ، وهو نَفْسٌ مَعْصُومةٌ.

وأمَّا المُسْتَأْمِنُ: فهو الذي يَدْخُلُ إلى بِلادِنا بأَمْنٍ، نُعْطِيهِ أَمانًا إمَّا لكونِهِ تاجِرًا يَجْلِبُ تِجارتَهُ وَيَشْتَرِي، أو لأنَّهُ يُرِيدُ أنْ يَبْحَثَ عنِ الإسْلامِ، ويَعْرِفَ الإسْلامَ، كما

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

أَمَّا الحَرْبِيُّ: الذي بيْنَنا وبيْنَهُ حَرْبٌ، وليس بيْنَنا وبيْنَه عَهْدٌ ولا ذِمَّةٌ ولا أمانٌ فهذا يَحِلُّ قَتْلُهُ؛ لأَنَّهُ ليس بيْنَنا وبيْنَه عَهْدٌ، بل هو مُحارِبٌ لنا، لو تَمَكَّنَ مِنَّا لَقَتَلَ مَنْ يَقْتُلُ من المُسْلِمِينَ، فهذا لا عَهْدَ له ولا ذِمَّةَ.

قَوْلُهُ ﷺ: «الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحَقِّ» يعني أنَّ النُّفوسَ المُحْتَرمةَ قد يكونُ منَ الحقِّ أنْ تُقْتَلَ وهي مُحْتَرَمةٌ، مثلُ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ»[1].

أَوَّلًا: الزِّنا: فإذا زَنَى الإنْسانُ وهو ثَيِّبٌ، قد تَزَوَّجَ بنِكاحٍ صحيحٍ وجامَعَ زَوْجتَهُ، ثم زَنَى بعد ذلك فإنَّهُ يُرْجَمُ بالحجارَةِ، يُوقَفُ ويَجْتَمِعُ النَّاسُ إليه، ويَأْخُذُونَ حِجارةً لا تكونُ كبيرةً تَقْضِي عليه بسُرْعةٍ ولا صَغِيرةً تَشُقُّ عليه، ثم يَرْجُمونَهُ، ويَتَّقُونَ المَقاتِلَ، يَرْجُمُونَهُ على الظَّهْرِ، على البَطْنِ، على الكَتِفِ، على الفَخِذِ حتَّى يَمُوتَ، كما فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ بالغامِدِيَّةِ وماعِزِ بْنِ مَالِكٍ، وغيْرِهِما.

ثانيًا: النَّفْسُ بالنَّفْسِ: إذا قَتَلَ الإنْسانُ شَخْصًا عَمْدًا وتَمَّتْ شُرُوطُ القِصاصِ فإنَّهُ يُقْتَلُ ولو كان مُسْلِمًا، النَّفْسُ بالنَّفْسِ.

ثالثًا: التَّارِكُ لِدِينِهِ المُفارِقُ للجَماعةِ: قيل إنَّ هذا هو المُرْتَدُّ، يعني بعدَ أنْ كان

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح من دم المسلم، رقم (١٦٧٦)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مُسْلِمًا تَرَكَ الدِّينَ، والعياذُ باللهِ، فارَقَ جماعةَ المُسْلِمِينَ فهذا يُقْتَلُ.

والرَّابعةُ: وأكْلُ الرِّبا: يعني أَنَّهُ مِنَ المُوبقاتِ السَّبْعِ، والرِّبا سيأْتي الكَلامُ على تعريفِهِ في البابِ الذي يليهِ، وعلى الأشْياءِ التي يَجْرِي فيها الرِّبا، وأن الرِّبا من أكبرِ الكبائِرِ التي دُونَ الشِّرْكِ.

والخامِسةُ: وأكْلُ مالِ اليتيمِ: منَ السَّبْعِ المُوبقاتِ، واليتيمُ هو الذي ماتَ أبوهُ قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ، فيَتَوَلَّى عليه الإنْسانُ ويَأْكُلُ مالَهُ، يُنْفِقُهُ على أهْلِهِ، أو يَتَّجِرُ به لنفسِهِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك، هذا أيضًا من السَّبْعِ المُوبِقاتِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ، ولا فَرْقَ بين أنْ يَكُونَ اليتيمُ ذَكَرًا أو أُنْثَى.

والسادِسةُ: والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ: أي التَّوَلِّي عن صَفِّ القِتالِ يَوْمَ الزَّحْفِ. يعني: يَوْمَ يَزْحَفُ المُسْلِمُونَ على الكُفَّارِ فيَأْتِي إنْسانٌ ويَتَوَلَّى، فإنَّ هذا منْ كبائِرِ الذُّنوبِ، من السَّبْعِ المُوبقاتِ؛ لأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَتَيْنِ:

المَفْسدةُ الأُولَى: كَسْرُ قُلُوبِ المُسْلِمِينَ.

والمَفْسدةُ الثانيةُ: تَقْوِيةُ الكُفَّارِ على المُسْلِمِينَ.

فإذا انْهَزَمَ بعْضُهُم لا شَكَّ أنَّهُم سوفَ يَزْدَادُونَ قُوَّةً على المُسْلِمِينَ، ويكونُ لهم بسببِ ذلك نشاطٌ، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ اسْتَثْنَى في القُرْآنِ فقال تَعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:١٦] فمَنْ تَوَلَّى لهَذَيْنِ الأمْرَيْنِ، مُتَحَيِّزًا إلى فئةٍ، يعني: بأنْ يُقالَ: إنَّ الفِئةَ الفُلانيَّةَ قد حَصَرَها العَدُوُّ، وخَطَرَ أنْ يَكْتَسِحَها، فانْصَرَفَ لإنْقاذِهِمْ فهذا لا بَأْسَ به؛ لأَنَّهُ انْتَقَلَ إلى ما هو أنْفَعُ.

والثاني: المُتَحَرِّفُ لِقِتالٍ، وهو المَذْكُورُ أوَّلًا في الآيةِ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ يعني مثلًا انْصَرَفَ لإصْلاحِ سِلاحِهِ، أو ارْتِداءِ دُرُوعِهِ، أو ما أَشْبَهَ ذلك من مَصْلحةِ القِتالِ، فهذا لا بَأْسَ به.

والسَّابِعةُ: قَذْفُ المُحْصناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ: يعني أنْ يَقْذِفَ المَرْأَةَ العفيفةَ المُؤْمِنةَ، فهذا من كَبائِرِ الذُّنوبِ، بأنْ يَقُولَ لامْرأةٍ: إنَّها زانيةٌ وما أَشْبَهَ ذلك، فهذا من كَبائِرِ الذُّنوبِ، والقائِلُ يُجْلَدُ ثَمانِينَ جَلْدَةً، ولا تُقْبَلُ شَهادَتُهُ، ويكونُ منَ الفاسِقِينَ لا من أهْلِ العَدْلِ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، هذه أوَّلُ عُقوبةٍ ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، هذه العقوبةُ الثانيةُ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٤-٥] فإنَّهُ يَرْتَفِعُ عنهم الفِسْقُ، ويكونونَ من أهْلِ العَدالةِ.

وقَوْلُهُ: «قَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ» مِثْلُها أيضًا قَذْفُ الغَافِلِ المُحْصَنِ المُؤْمِنِ، يعني الرَّجُلَ إذا قُذِفَ فإنَّهُ يُجْلَدُ القاذِفُ ثَمانِينَ جَلْدةً، كالذي يَقْذِفُ المَرْأَةَ.

هذه هي السَّبْعُ المُوبقاتُ، أعاذَنا اللهُ وإيَّاكُم منها، وأجارَنا وإيَّاكُم منَ الفِتَنِ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

٢٨٧- بابُ تغليظِ تَحْرِيمِ الرِّبا

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ [البقرة:٢٧٥- ٢٧٨].

وأما الأحاديثُ فكثيرةٌ في الصَّحيحِ مَشْهُورةٌ، ومِنْهَا حديثُ أَبي هُرَيْرَةَ السَّابِقُ في البابِ قبلَهُ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى-: «**بابُ تَغْلِيظِ تَحْرِيم الرِّبا**».

الرِّبا هو: الزِّيادةُ أو التَّأْخِيرُ؛ لأَنَّهُ إِمَّا زيادةٌ في شيءٍ على شيءٍ وإِمَّا تَأْخِيرُ قَبْضٍ، وقد بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ في كِتابِهِ حُكْمَ الرِّبا، وذَكَرَ فيه منَ الوعيدِ، وكذلك النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ حُكْمَ الرِّبا وما فيه منَ الوعيدِ، وبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أين يَكُونُ الرِّبا وكيفَ يَكُونُ، فذَكَرَ أنَّ الرِّبا يكونُ في سِتَّةِ أصْنافٍ: الذَّهَبُ، والفِضَّةُ، والبُرُّ، والشَّعِيرُ، والتَّمْرُ، والمِلْحُ، هذه سِتَّةُ أشياءَ هي التي فيها الرِّبا.

فإذا بِعتَ شيئًا بجِنْسِهِ فلا بُدَّ من أمْرَيْنِ:

الأوَّلُ: التَّساوِي.

الثَّاني: التَّقابُضُ قَبْلَ التَّفَرُّقِ.

فإذا بِعْتَ ذَهَبًا بذَهَبٍ، فلا بُدَّ أنْ يَكُونا سواءً في الميزانِ، وأنْ يَكُونَ القَبْضُ من الجانِبَيْنِ قبلَ التَّفَرُّقِ، وإذا بِعْتَ فِضَّةً بفِضَّةٍ فلا بُدَّ أنْ يكونَا سواءً في الميزانِ، وأنْ يكونَ القَبْضُ قبلَ التَّفَرُّقِ من الجانِبَيْنِ، وإذا بِعْتَ بُرًّا ببُرٍّ فلا بُدَّ أنْ يَكُونا سواءً في المِكْيالِ، وأنْ يَكُونَ القَبْضُ قبلَ التَّفَرُّقِ من الجانِبَيْنِ، وإذا بِعْتَ شَعِيرًا بشعيرٍ فلا بُدَّ أنْ يَكُونا سَواءً بالمِكْيالِ وأنْ يكونَ القَبْضُ قبلَ التَّفَرُّقِ من الجانِبَيْنِ، وإذا بِعْتَ تَمْرًا بتَمْرٍ فلا بُدَّ أنْ يَكُونا سواءً في المِكْيالِ وأنْ يَكُونَ القَبْضُ قبلَ التَّفَرُّقِ من الجانِبَيْنِ، وإذا بِعْتَ مِلْحًا بمِلْحٍ فلا بُدَّ أنْ يَكُونا سواءً في المِكْيالِ وأنْ يَكُونَ القَبْضُ قبلَ التَّفَرُّقِ.

هذا إذا بِعْتَ الشَّيْءَ بجِنْسِهِ من هذه الأصْنافِ السِّتَّةِ، وإنْ بِعْتَهُ بغيرِ جِنْسِهِ فلا بُدَّ منَ التَّقابُضِ قبلَ التَّفَرُّقِ من الجانِبَيْنِ، ولا يُشْتَرَطُ التَّساوي، فإذا بِعْتَ صاعًا من البُرِّ بصَاعَيْنِ من الشَّعِيرِ فلا بَأْسَ، ولكنْ لا بُدَّ من التَّقابُضِ قَبْلَ التَّفَرُّقِ، وإذا بِعْتَ صاعًا منَ التَّمْرِ بصاعَيْنِ منَ الشَّعِيرِ فلا بَأْسَ لكنْ بشَرْطِ التَّقابُضِ قَبْلَ التَّفَرُّقِ، وإذا بِعْتَ ذَهَبًا بفِضَّةٍ فلا بَأْسَ بالزِّيادةِ أو النَّقْصِ، لكنْ لا بُدَّ منَ القَبْضِ قَبْلَ التَّفَرُّقِ.

هذه هي الأصْنافُ السِّتَّةُ التي نَصَّ الرَّسُولُ ﷺ على جَرَيانِ الرِّبا فيها، وكذلك ما كان بمِعْناها فإنَّهُ يكونُ له حُكْمُها؛ لأنَّ هذه الشَّريعةَ الإسْلامِيَّةَ لا تُفَرِّقُ بين شَيْئَيْنِ مُتماثِلَيْنِ، كما أنَّها لا تُساوِي بين شَيْئَيْنِ مُتَفَرِّقَيْنِ.

أمَّا حُكْمُ الرِّبا فإنَّهُ منَ السَّبْعِ المُوبقاتِ، ومِن كَبائِرِ الذُّنوبِ، والعياذُ باللهِ، ومنَ تَعاطَى الرِّبا ففيه شَبَهٌ منَ اليَهُودِ، أَخْبَثِ عِبادِ اللهِ؛ لأنَّ اليَهُودَ هم الذين يَأْكُلونَ السُّحْتَ ويَأْكُلونَ الرِّبا، فمَنْ تَعامَلَ بالرِّبا من هذه الأُمَّةِ فإنَّ فيه شَبَهًا منَ اليَهُودِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

أمَّا الوعيدُ عليه فقال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ والشَّيْطان يُسَلَّطُ على بَنِي آدَمَ، نسألُ اللهَ السلامةَ، إلَّا أنْ يَمُنَّ اللهُ عليه بالأذْكارِ الشَّرْعيَّةِ التي تقيه من الشَّياطينِ، مثلِ قِراءةِ آيةِ الكُرْسِيِّ كُلَّ ليلةٍ، وغيْرِها مما هو معروفٌ، فالشَّيْطان يُسَلَّطُ على بني آدَمَ ويَصْرَعُهُ، ويَبْقَى الإنْسانُ يَبْطِشُ بيدَيْهِ ويَتَحَرَّكُ بيدَيْهِ ورجلَيْهِ ويَتَخَبَّطُ، هَؤُلاءِ هم أَكَلَةُ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلَّا كما يقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ منَ المَسِّ، بالجُنونِ.

واخْتَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل المعْنَى لا يقومونَ من قُبُورِهِمْ يَوْمَ القِيامةِ إلَّا على هذا الوَصْفِ، يعني يَقُومُونَ منَ القُبورِ كأنَّهُم مَجانِينَ، كأنَّهُم يَضْرِبُهُمُ الشَّيْطانُ منَ المَسِّ؟ أو أنَّ المعْنَى لا يَقُومونَ للرِّبا؛ لأنَّهُم يَأْكُلُونَ الرِّبا وكأنَّهُم مَجانِينَ، من شِدَّةِ طَمَعِهِمْ وجَشَعِهِمْ وشُحِّهِمْ، لا يُبالُونَ، فيكونُ هذا وصْفًا لهم في الدُّنْيا؟

والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ إذا كانت تَحْتَمِلُ المعنيَيْنِ فإنَّها تُحْمَلُ عليهما جَمِيعًا، يعني أنَّهُم في الدُّنْيا يَتَخَبَّطُونَ ويَتَصَرَّفُونَ تَصَرُّفَ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ منَ المسِّ، وفي الآخِرةِ كذلك يَقُومونَ من قُبُورِهِمْ على هذا الوَصْفِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ مُبَيِّنًا أنَّ هَؤُلاءِ قاسوا قِياسًا فاسدًا فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾ أيْ: لا فَرْقَ، كما أنَّكَ تَبِيعُ للرَّجُلِ مثلًا شاةً بمائةِ رِيالٍ تَبِيعُ عليه دِرْهمًا بدِرْهَمَيْنِ، فيقولونَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾ وقياسُهُم هذا كقِياسِ الشَّيْطانِ حين

أَمَرَهُ اللهُ أنْ يَسْجُدَ لآدَمَ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] فقابَلَ النَّصَّ بالقِياسِ الفاسِدِ.

هَؤُلاءِ أيضًا قاسُوا قِياسًا فاسدًا، فبيَّنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ لا قِياسَ مع الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، قال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ ولم يَحِلَّ اللهُ البَيْعَ ويُحَرِّمِ الرِّبا إلَّا للفَرْقِ العظيمِ بيْنَهُما وأنَّهُما ليسا سواءً، لكنْ مَنْ طَمَسَ اللهُ قلبَهُ رأى الباطِلَ حَقًّا والحَقَّ باطِلًا والعياذُ باللهِ، كما قال عَزَّوَجَلَّ فيمَنْ طَمَسَ اللهُ على قَلْبِهِ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣].

القُرْآنُ الكريمُ هو أعْظَمُ كلامٍ، وأبْيَنُ كلامٍ، وأفْصَحُ كلامٍ، وأنْفَعُ كلامٍ، يقولونَ عنه: أساطِيرُ الأوَّلينَ! لماذا؟ ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] إذا انْطَمَسَ القلبُ، والعياذُ باللهِ، رأى الباطِلَ حقًّا والحَقَّ باطِلًا، هَؤُلاءِ يقولونَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ فقال اللهُ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾.

ثم عَرَضَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ التَّوْبةَ على هَؤُلاءِ الأكَّالينَ للرِّبا- كعادَتِهِ جَلَّوَعَلَا- يَعْرِضُ التَّوْبةَ عَلى المُذْنِبينَ؛ لَعَلَّهُمْ يَتُوبونَ إليه؛ لأنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرينَ، حتَّى قال الرَّسُولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا»[1] كان رَجُلٌ في البَرِّ ومعه رَاحِلَتُهُ عليها طَعامُهُ وشَرابُهُ فضاعتْ منه، وهو في فَلاةٍ منَ الأرْضِ، ليس عنده أحدٌ، فطَلَبَها ولم يَجِدْها، فاضْطَجَعَ تحت شَجَرَةٍ، يَنْتَظِرُ أنْ يَقْبِضَ اللهُ رُوحَهُ، فبينما هو كذلك إذا بخِطامِ النَّاقةِ مُتَعَلِّقٌ بالشَّجَرةِ، وهو بين الحياةِ والمَوْتِ، فأخَذَ بخِطامِهَا وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

عَبْدِي وأَنَا رَبُّكَ»[1]، يُرِيدُ أنْ يقولَ: «أَنْتَ رَبِّي وأنَا عَبْدُكَ» لكنَّهُ أخْطَأَ من شِدَّةِ الفَرَحِ العظيمِ، رَجُلٌ مُقْبِلٌ على المَوْتِ، فَقَدَ مالَهُ وطَعامَهُ وشَرابَهُ وناقَتَهُ، فإذا بها عنده، تَصَوَّرْ شِدَّةَ هذا الفَرَحِ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوْبةِ العَبْدِ من هذا بِناقَتِهِ.

ويقولُ جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ الحمدُ للهِ، يعني الأكَّالُ للرِّبا إذا جاءَهُ مَوْعِظةٌ من رَبِّهِ فانْتَهى، فله ما سَلَفَ: يُغْفَرُ لهُ كُلُّ ما سَلَفَ، ولا يُؤاخَذُ عليه وأمْرُهُ إلى اللهِ، ولكنْ إذا جاءتِ المَوْعِظَةُ وله رِبًا في ذِمَمِ النَّاسِ وَجَبَ عليه أنْ يُسْقِطَهُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ أما ما بَقِيَ فليس له؛ ولهذا أعْلَنَ الرَّسُولُ ﷺ في حَجَّةِ الوَداعِ في عَرَفَةَ أعْلَنَ إعْلانًا إلى يَوْمِ القِيامةِ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ»[2] يعني الرِّبا الذي كانوا يَتَرابُونَ به في الجاهِلِيَّةِ موضوعٌ مُهْدَرٌ، حتَّى أقارِبُ الرَّسُولِ ﷺ الذين كانوا يُرابُونَ في الجاهِلِيَّةِ، يَجِبُ عليهم إسْقاطُ الرِّبا؛ ولهذا قال: «أَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ» والعَبَّاسُ عَمُّهُ، «أَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا العَبَّاسِ» هكذا الحُكْمُ، وهكذا السُّلْطانُ أوَّلَ ما يَبْدَأُ بأقارِبِهِ، خلافُ عادةِ النَّاسِ اليَوْمَ، فأقارِبُ السُّلْطانِ عندهم حِمايةٌ دُبْلُوماسيَّةٌ يفعلونَ ما يَشاءُونَ، لكنْ في عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «أَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ» وجملةُ «فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ» تأْكِيدِيَّةٌ.

وكان عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نهى النَّاسَ عن شيءٍ، جَمَعَ أهْلَهُ وأقارِبَهُ وقال: «نَهَيْتُ النَّاسَ عن كذا وكذا، وإنَّ النَّاسَ يَنْظُرونَ إليكم نَظَرَ الطَّيْرِ إلى اللَّحْمِ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، رقم (٢٧٤٧)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

واللهِ لا يَبْلُغُني عن أحدٍ منكم أنَّهُ فَعَلَهُ لَأُضاعِفَنَّ عليه العُقوبَةَ»[1] يُعاقِبُهُ مرَّتيْنِ؛ لأنَّ هَؤُلاءِ الأقارِبَ قد يُخالِفُونَ؛ مُتَستِّرِينَ أو لَائِذِينَ بقُرْبِهِمْ منَ الحاكِمِ، كما يَحْصُلُ في الأُمَمِ الأُخْرَى، أمَّا في الأُمَّةِ الإسْلامِيَّةِ والخِلافةِ الإسْلامِيَّةِ فإنَّ أوَّلَ مَنْ يُقامُ عليه تَنْفِيذُ هذه الأحْكامِ هم أقارِبُ الحاكِمِ، وبذلك مَلَكُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها ودانَتْ لهم الأُمَمُ.

فالحاصِلُ: أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالَى بمَنِّهِ وكَرَمِهِ ورَحْمَتِهِ ولُطْفِهِ يَعْرِضُ التَّوْبَةَ على المُذْنِبِينَ ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ نسألُ اللهَ أنْ يَتُوبَ علينا وعليكم.

وقال تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج:١٠] والقِصَّةُ هذه في أصحابِ الأُخْدُودِ، الذين حَفَرُوا حُفَرًا في الأرْضِ، وأضْرَمُوا فيها النِّيرانَ ومَنْ كان مُؤْمِنًا أَلْقَوْهُ في النَّارِ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج:٧-٨].

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج:١٠] يَعْرِضُ عليهم التَّوْبَةَ وهم يُحَرِّقُونَ أوْلياءَهُ، لكنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠] نسألُ اللهَ أنْ يَتُوبَ علينا وعليكم.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ بعد أنْ تَبَيَّنَ له الحُكْمُ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥] هذه عُقُوبَتُهُمْ في الآخِرةِ، أمَّا العُقُوبةُ في الدُّنْيا ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ [البقرة:٢٧٦] أي يُتْلِفُهُ، والتَّلَفُ نَوْعانِ:

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (١١/ ٣٤٣)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٦/ ١١١، رقم ٣١٢٨٥).

تَلَفٌ حِسِّيٌّ: كأنْ يُسَلَّطَ على مالِهِ آفةٌ أو جائِحَةٌ تُفْنِيهِ، وإمَّا أنْ يَمْرَضَ ويَحْتاجُ إلى دواءٍ ومُعالجاتٍ، أو يَمْرَضُ أهْلُهُ، أو يُسْرَقَ أو يُنْهَبَ عَنْوَةً أو يَحْتَرِقَ، أو غيرُ ذلك من عُقوباتِ الدُّنْيا ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾.

أو تَلَفٌ مَعْنَوِيٌّ: فالمالُ عنده كثيرٌ جدًّا لكنَّهُ كالفقيرِ لا يَنْتَفِعُ به، فهل يُقالُ: إنَّ هذا عنده مالٌ؟ أبدًا، بل هذا أَسْوَأُ حالًا منَ الفقيرِ؛ لأنَّ مالَهُ عنده مَكْنُوزٌ يَدَّخِرُهُ لِوَرَثَتِهِ، أمَّا هو فلا يَنْتَفِعُ به، ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا﴾ نسألُ اللهَ أنْ يَرْزُقَنا وإيَّاكم المَوْعِظَةَ التي نَحْيَا بِها قُلوبُنا وتَصْلُحُ بِها أحْوالُنا.

قال تَعالى: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] يُرْبِيها: أي يُنَمِّيها ويَزِيدُها، فإنَّهُ قدْ ثَبَتَ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ ويُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ» يعني فَرَسَهُ الصَّغِيرَ «حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»[1].

وقال تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١] فالصَّدقاتُ إحْسانٌ وعِبادةٌ للهِ، إذا تَصَدَّقَ الإنْسانُ بشيءٍ من مالِهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يُضاعِفُ له هذه الصَّدقةَ في ثَوابِها وأجْرِها ويُنْزِلُ البَرَكةَ فيما بَقِيَ من مالِهِ كما صَحَّ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»[2] وإنَّما ذَكَرَ اللهُ الصَّدقاتِ بجانِبِ الرِّبا؛ لأنَّ الرِّبا ظُلْمٌ، وأكْلٌ للمالِ بالباطِلِ، والصَّدقاتُ إحْسانٌ وخيرٌ، فقَارَنَ هذا بهذا لأجْلِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب، رقم (١٤١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنْ يَتبيَّنَ للإنْسانِ الفَرْقُ بين المُحْسِنِينَ وبين الظَّالمينَ أَكَلَةِ الرِّبا.

ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حثًّا على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ اتَّقُوا اللهَ، فأَمَرَ بتَقْوَى اللهِ ثم قال: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ يعني اتْرُكُوهُ لا تَأْخُذُوهُ، فخَصَّ بعْدَ أنْ عَمَّ؛ لأنَّ تَقْوى اللهِ تَعُمُّ اجْتنابَ كُلِّ مُحَرَّمٍ، وفِعْلَ كُلِّ واجِبٍ، فلما قال: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ صار تَخْصِيصًا بعدَ تَعْمِيمٍ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ يعني: وتدَعُوا ما بَقِيَ منَ الرِّبا ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وفي قِراءةٍ ﴿فَآذِنُوا﴾ بالمَدِّ. والمعنى: أعْلِنُوا الحَرْبَ على اللهِ ورسولِهِ، نَسْأَلُ اللهَ العافِيةَ.

قال اللهُ تَعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ إنْ تُبْتُمْ عن أكْلِ الرِّبا فلكُمْ رُؤُوسُ أمْوالِكُمْ، إنْ أعْطَيْتَ مائةً بمائةٍ وعِشْرينَ، فإنْ أنت صَدَقْتَ في التَّوبةِ فلا تَأْخُذْ إلَّا مائةً فقط؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وقد ابْتُلِيَ بعضُ النَّاسِ بالقِياسِ الفاسِدِ مع النَّصِّ فقال: إذا أوْدَعْتَ مالَكَ في بُنوكٍ أجْنَبِيَّةٍ، في أمريكا، أو في إنجلترا، أو في فرنسا، أو في أيِّ بلدٍ، فإنَّك تَأْخُذُ الرِّبا وتَتَصَدَّقُ به. سُبحانَ اللهِ! فهل يُلَوِّثُ الإنْسانُ يَدَهُ بالنَّجاسةِ ثم يَذْهَبُ ويَغْسِلُها، لماذا لا يَتَجَنَّبُ النَّجاسةَ منَ البِدايةِ؟ هذا قِياسٌ فاسِدٌ مُقابِلٌ للنَّصِّ، وفاسِدٌ في الاعْتبارِ أيضًا، إذا أَعْطَوْكَ فلا تَقْبَلْ وقل لهم: شَرْعُنا يُحَرِّمُ علينا الرِّبا.

يقولُ بعضُ النَّاسِ: إذا لم تَأْخُذْ منهم فإنَّهُم يَصْرِفُونها في الكَنائِسِ وحَرْبِ المُسْلِمِينَ.

نقولُ: مَنْ قال هذا؟ منَ المُمْكِنِ أنَّ صاحِبَ البنكِ يَأْخُذُها لنفسِهِ، أو لقرابَتِهِ، أو يَأْخُذُ لِمصالِحِهِ، ومَنْ يقولُ: إنها تُصْرَفُ في الكَنائِسِ؟! ثم على فَرْضِ أنَّها صُرِفَتْ في الكَنائِسِ، هل دَخَلَتْ في مِلْكِكَ حتَّى يُقالَ: إنَّك أَعَنْتَهُمْ؟ لم تَدْخُلْ في مِلْكِكَ أصْلًا، وإنَّما يُعْطُونَكَ رِبًا واضحًا مُحَدَّدًا منَ الأصْلِ، فليس هو رِبْحَ مالِكَ حتَّى تَقُولَ: أعْطَيْتُهُمْ شيئًا من مالي لِيَسْتَعِينُوا به على الحرامِ، أبدًا، ثم على فَرْضِ أنَّهُ رِبْحُ مالِكَ أو أنَّ مالَكَ رَبِحَ أكثرَ وأَبَيْتَ أنْ تَأْخُذَهُ لأنَّهُ رِبًا وصَرَفُوهُ في الكنائِسِ وفي حَرْبِ المُسْلِمِينَ، هل أنت أمَرْتَهُم بهذا؟ أبـدًا، فاتَّـقِ اللهَ تَعـالى، ولكَ رَأْسُ مالِكَ لا تَظْلِمُ ولا تُظْلَمُ.

ثم نقـولُ: مَنِ الذي يَضْمَـنُ أنَّهُ إذا جاءك مِنَ الرِّبا مِليونٌ أو مِلْيونانِ، ستَتَصَدَّقُ بها؟! فلرُبَّما يَغْلِبُكَ الشُّحُّ، وتَتَرَدَّدُ وتَنْتَظِرُ ثم تَمْضِي بك الأيَّامُ وتَمُوتُ وتَدَعُها لغَيْرِكَ، ثم إذا فَعَلْتَ ذلك صِرْتَ قُدْوةً للنَّاسِ يقولونَ: فُلانٌ تَقِيٌّ أوْدَعَ مالَهُ في البَنْكِ وأخَذَ الرِّبا، ثم إنَّنا إذا اسْتَمْرَأْنَا هذا الشَّيْءَ وأخَذْنا الرِّبا فمعناهُ أنَّنا لنْ نُحاوِلَ أنْ نُوجِدَ بَنْكًا إسْلاميًّا؛ لأنَّ إنْشاءَ البنكِ الإسْلامِيِّ ليس سَهْلًا، ولكنَّهُ صعبٌ وفيه موانِعُ، وهناكَ أناسٌ يَحُولُونَ بين المُسْلِمِينَ وبينه، فإذا اسْتَمْرَأَ النَّاسُ هذا، سَهُلَ عليهم الأمْرُ، وقالوا: نَأْخُذُ الرِّبا حتَّى يَتَواجَدَ بنكٌ إسْلامِيٌّ، أمَّا لو قُلْنا: هذا حرامٌ، حينئذٍ يَضْطَرُّ المُسْلِمُونَ إلى أنْ يُنْشِئُوا بُنُوكًا إسْلامِيَّةً تَكْفِيهِمْ هذه البُنُوكَ الرِّبَوِيَّةَ.

والحاصِلُ: أنَّ مَنْ قال خُذِ الرِّبا وتَصَدَّقْ به، فقدْ قَابَلَ النَّصَّ بالقِياسِ واللهُ عَزَّوَجَلَّ وَضَّحَ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وإذا كان عَقْدُ الرِّبا الذي حَصَلَ في الجاهِلِيَّةِ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ وقد وضَعَهُ الرَّسُولُ مع أنَّهُ قَبْلَ

الشَّرِيعةِ وأهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَتعاطَونَهُ على أنَّهُ مُباحٌ، ومع ذلك وَضَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ وقال: «رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ» فكيفَ بالمُسْلِمِ الذي يَعْرِفُ أنَّ الرِّبا حرامٌ يقولُ: آخُذُهُ وأَتَصَدَّقُ به؟

فالحاصِلُ: مِنْ هذا مع الأسَفِ اشْتَبَهَتْ على بعضِ العُلَماءِ الذين يُشارُ إليهم، وظَنُّوا أنَّهُ لا بَأْسَ به أنْ تَأْخُذَ هذا وتَتَصَدَّقَ به، ولو أَمْعَنُوا النَّظَرَ وفَكَّرُوا لَعَرَفُوا أنَّهُم مُخْطِئُونَ، وما حُجَّتُنا عندَ اللهِ يَوْمَ القِيامةِ عن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ولم يَقُلْ: إلَّا إذا تَعامَلْتُمْ مع الكُفَّارِ فخُذُوا الرِّبا، فالحقيقةُ أنَّنا نَأْسَفُ أنْ يُوجَدَ البعضُ يُفْتُونَ بمِثْلِ هذا، مع أنَّهُم لو أمْعَنُوا النَّظَرَ ودَقَّقوا لوَجَدُوا أنهم على خطأٍ.

نحنُ مَعَنا قولُ رَبِّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ونقولُ: سَمْعًا وطاعةً للهِ ربِّ العالمينَ، نَأْخُذُ رَأْسَ المالِ والباقي لا حاجةَ له، والحَرْبُ ضدَّ المُسْلِمِينَ شَعْواءُ، قائمةٌ بِدَراهِمِكَ وبغَيْرِها، والمسْأَلةُ غيرُ مُتَوَقِّفةٍ على دَراهِمِكَ.

وإذا اتَّبَعْنَا الشَّرْعَ جَعَلَ اللهُ لنا منْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومن كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، أمَّا إذا ذَهَبْنا نَقِيسُ بعُقولِنَا ونقولُ كالذين قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾ أو كالشَّيْطانِ الذي قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢] فهذا خطأٌ عظيمٌ، فالمهمُّ أنَّ هذا شيءٌ واضحٌ لا يحتاجُ إلى اجْتهادٍ ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾.

وإذا كان مُعْسِرًا وحلَّ وقْتُ الدَّيْنِ وليس عنده شيءٌ فلا يُضافُ عليه شيءٌ بَدَلَ إنْظارِهِ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ إذا حلَّ الأجَلُ على هذا الفقيرِ

وليس عنده ما يُوَفِّي به يَجِبُ إنْظارُهُ ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ومَنِ الذي قال: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾؟ إنَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي أعْطاكَ المالَ ومَنَّ به عليك، وأباحَ لك التَّصَرُّفَ فيه، وقال لك: إذا كان المُطَالَبُ فَقِيرًا فعليك أنْ تُنْظِرَهُ، أين الإيمانُ؟ أين العِبادةُ؟

عبدُ اللهِ حقًّا هو الذي يقولُ لأمْرِ اللهِ سَمْعًا وطاعةً ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١] أمَّا الذي يَعْبُدُ الدِّرْهَمَ والدِّينارَ وليس عنده هَمٌّ إلَّا الدِّرْهَمُ والدِّينارُ، ولا يُبالي من أيِّ مَصْدَرٍ فهذا عبدُ الدِّرْهمِ والدِّينارِ، وقد دعا عليه الرَّسُولُ ﷺ بالتَّعاسةِ والهلاكِ والانْتِكاسِ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

ثم تَأْتِي المَرْتَبةُ العُلْيا التي هي أفْضَلُ منَ الإنْظارِ، وهي ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إنْ كان مُعْسِرًا وعَرَفْتَ أنَّهُ مُعْسِرٌ تَصَدَّقْتَ عليه وقُلْتَ: يا فُلانُ أنت مُعْسِرٌ، وقدْ أَبرَأْتُكَ من دَيْنِكَ، فهذا خيرٌ لك، فقد خَرَجْتَ من بطنِ أُمِّكَ ليس معكَ شيءٌ، فمَنِ الذي أعدَّكَ وأَمَدَّكَ وأعْطاكَ المالَ؟ هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وقد قال: ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقُلْ: سَمْعًا وطاعةً للهِ ربِّ العالَمِينَ.

ثم خَتَمَ الآياتِ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ اتَّقُوا هذا اليومَ العظيمَ الذي تَرْجِعُونَ فيه إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، حُفاةً عُراةً غُرلًا ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧] وإنَّما تكونُ تَقْوى هذا اليومِ بطاعةِ اللهِ

عَزَّوَجَلَّ. نسألُ اللهَ أنْ يَمُنَّ علينا وعليكم بالتَّقْوى والبِرِّ والإحْسانِ؛ إنَّهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.



١٦١٤- عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ؛ وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1].

المُوبِقاتُ: المُهْلِكاتُ.

١٦١٥- وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ». رواهُ مُسْلِمٌ[2].

زاد التِّرْمِذِيُّ[3] وغيرُهُ: وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ.

الشَّرْح

قال المُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعالى- في بابِ التَّغْليظِ في تَحْرِيمِ الرِّبا، فيما نَقَلَهُ عنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ آكِلَ الرِّبا ومُوكِلَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، رقم (٢٧٦٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر، رقم (٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، رقم (١٥٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٨٧)، والترمذي: كتاب البيوع، باب ما جاء في آكل الربا، رقم (١٢٠٦)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، رقم (٢٢٧٧).

«آكِلَ الرِّبَا» يعني: الذي يَأْخُذُهُ، سواءً اسْتَعْمَلَهُ في أكْلٍ أو لِباسٍ أو مَرْكُوبٍ أو فِرَاشٍ أو مَسْكَنٍ أو غيرِ ذلك، المُهِمُّ أَنَّهُ أَخَذَ الرِّبا، كما قال تَعالى عنِ اليَهُودِ: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [النساء:١٦١] فآكِلُ الرِّبا مَلْعُونٌ على لِسانِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثَّانِي: «مُوكِلَهُ» يعني الذي يُعْطِي الرِّبا، مع أنَّ مُعْطِي الرِّبا مَظْلُومٌ؛ لأنَّ آخِذَ الرِّبا ظالِمٌ، ومعَ ذلك كان مَلْعُونًا على لِسانِ النَّبِيِّ ﷺ لأنَّهُ أعانَهُ على الإثْمِ والعُدْوانِ، وقدْ قال النَّبِيُّ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قالوا: يا رَسُولَ اللهِ هذا المَظْلُومُ، كيفَ نَنْصُرُ الظَّالِمَ؟ قال: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَذَلِكَ نَصْرُكَ إِيَّاهُ»[1].

فإذا احْتاجَ الإنْسانُ إلى دَراهِمَ وذَهَبَ إلى البَنْكِ وأخَذَ منه عَشَرَةَ آلافٍ بأحَدَ عَشَرَ ألفًا صارَ صاحبُ البَنْكِ مَلْعُونًا والآخِذُ مَلْعُونًا على لِسانِ أشْرَفِ الخَلْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وما أقْرَبَ الإجابةَ فيمَنْ لَعَنَهُ الرَّسُولُ ﷺ واللَّعْنُ هو الطَّرْدُ والإبْعادُ عن رَحْمةِ اللهِ، ويكونُ هذا المَلْعُونُ مُشاركًا لإبْلِيسَ في العُقوبةِ؛ لأنَّ اللهَ قال لإبْلِيسَ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر:٣٥].

كذلك آكِلُ الرِّبا عليه اللَّعْنةُ ومُوكِلُهُ عليه اللَّعْنةُ، أيْ مَطْرُودٌ مُبْعَدٌ عن رَحْمةِ اللهِ، ثم هذا الذي يَأْكُلُهُ، يَأْكُلُهُ سُحْتًا وكُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ من السُّحْتِ فالنَّارُ أوْلَى به، ثم إنَّ هذا الرِّبا الذي يَدْخُلُ عليه يَنْزِعُ اللهُ به البَرَكةَ من مالِهِ، ورُبَّما يُوالي عليه النَّكباتِ حتَّى يَتْلَفَ، قال اللهُ تَعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٩]. وأمَّا الذي أعْطى الرِّبا فإنَّ وجْهَ اللَّعْنةِ في حقِّهِ أنَّهُ أعانَ على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم (٦٩٥٢)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا قال قائِلٌ: هل للإنْسانِ من تَوْبَةٍ إذا كان يَتَعاطى الرِّبا ثم مَنَّ اللهُ عليه واهْتَدى؟

نقول: نعم له تَوْبَةٌ، ومن الذي يَحُولُ بينه وبين تَوْبَةِ اللهِ، ولكنْ لا بُدَّ من صِدْقِ التَّوْبةِ وإخْلاصِها والنَّدَمِ على الذَّنْبِ والعَزْمِ على ألَّا يَعُودَ، ثم يُخْرِجُ الرِّبا؛ تَخَلُّصًا منه لا تَقَرُّبًا إلى اللهِ به؛ لأنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طَيِّبًا، وذلك بإنْفاقِهِ في أيِّ سبيلٍ من سُبُلِ الخَيْرِ، ومنها: الصَّدقاتُ، أو يُجْعَلُ في بيتِ المالِ.

وذكَرَ التِّرْمِذِيُّ وغيرُهُ في رِوايةٍ أُخْرى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ شَاهِدَيِ الرِّبا وكاتِبَهُ، مع أنَّ الشَّاهِدَيْنِ والكاتِبَ ليس لهما مَنْفَعةٌ ولا مَصْلَحةٌ لكنْ أعانُوا على تَثْبِيتِ الرِّبا، الشَّاهدانِ والكاتبُ يَثْبُتُ بهما الرِّبا؛ لأنَّ الشَّاهديْنِ يُثْبتانِ الحقَّ والكاتبَ يُوَثِّقُهُ؛ ولهذا يكونُ هَؤُلاءِ الثَّلاثةُ: الشَّاهدانِ والكاتِبُ قد أعانوا على الإثْمِ والعُدْوانِ، فنالَهُم من ذلك نَصِيبٌ، فهَؤُلاءِ الخَمْسةُ كُلُّهم مَلْعُونونَ على لِسانِ مُحَمَّدٍ ﷺ: «آكِلُ الرِّبا ومُوكِلُهُ والشَّاهِدانِ والكاتِبُ».

وفي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ المُعِينَ على الإثْمِ مُشارِكٌ للفاعِلِ، وهو كذلك، وقد دلَّ عليه القُرْآنُ، قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨]. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وجَلَسْتَ ناسيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني بعدَ أنْ تَفْطِنَ ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء:١٤٠]. فالمشارِكُ لفاعِلِ الإثْمِ ولو بالجُلوسِ يكونُ له مِثْلُ ما على صاحِبِ الإثْمِ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

وفي هذا دليلٌ على التَّحْذيرِ منَ الرِّبا ووُجوبِ البُعْدِ عنه، وقد ضَرَّ المُسْلِمينَ اليومَ اسْتِعْمالُ الرِّبا، تَجِدُ الفقيرَ المِسْكينَ يَهُونُ عليه أنْ يَسْتَدِينَ بالرِّبا لأنَّهُ لا يُكَلِّفُهُ إلَّا زيادةَ الكَمِّيَّةِ واللهُ أعْلَمُ بِنِيَّتِهِ، قد يكونُ ليس بنِيَّتِهِ أنْ يُوَفِّيَ عند حُلولِ الأجَلِ، لكنْ يَسْتَسْهِلُ هذا ويَسْتَدِينُ، فتَتراكَمُ عليه الدُّيونُ بدونِ ضَرُورةٍ، حتَّى أنَّ بعضَ المساكينِ السُّفَهاءَ يَسْتَدِينُ من أجْلِ شراءِ أشْياءَ كَمالِيَّةٍ ليس له فيها حاجةٌ أو ضَرُورةٌ، لكنَّ الشَّيْطانَ يُغْرِيهِ ولم يَعْلَمْ هذا المسكينُ أنَّ الدائِنَ لا يَرْحَمُهُ إذا حلَّ الأجلُ فسوفَ يُطالِبُهُ بالوفاءِ أو بالحَبْسِ أو بمُضاعَفةِ الرِّبا عليه، كما هو الواقِعُ عند كثيرٍ من الذين لا يَمْتَثِلُونَ قَوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وغَفَلَ هذا المسكينُ عن كونِ نفسِهِ إذا ماتَ مُعَلَّقَةً بِدَيْنِهِ حتَّى يُقْضَى عنه، وغَفَلَ هذا المسكينُ عن كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ إذا قُدِّمَتْ إليه الجِنازةُ وخَطى خُطواتٍ يُصَلِّي عليها، فسألَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟» قالوا: نعم، قال: «عَلَيْهِ وَفَاءٌ» قالوا: لا. قال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»[1] وتَرَكَ الصَّلاةَ عليه، ممَّا يَدُلُّ على عِظَمِ الدَّيْنِ، وغَفَلَ هذا المسكينُ عن كَوْنِ القَتْلِ في سَبيلِ اللهِ إذا قُتِلَ الإنْسانُ في سَبيلِ اللهِ، فالشَّهادةُ تُكَفِّرُ كُلَّ شيءٍ إلَّا الدَّيْنَ، ومع هذا يَقَعُ في ذلك كثيرٌ من سُفهائِنا، يَسْتَهِينُ بالدَّيْنِ.

يكونُ عنده -مثلًا- سيَّارةٌ تَكْفِيهِ تُساوي عِشْرينَ ألْفًا، فيقولُ: لا تَكْفِي، أنا أَشْتَرِي بثَمانِينَ ألْفًا، بالتقسيطِ، أو أَتَحَيَّلُ على الرِّبا كما يَفْعَلُ بعضُ النَّاسِ، يَأْتي إلى المَعْرِضِ ويقولُ: بكم السَّيَّارةُ ويُحَدِّدُهَا ويَعْرِفُ سِعْرَها، ثم يَذْهَبُ إلى التاجِرِ ويقولُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النفقات، باب قول النبي ﷺ: «من ترك كلا أو ضياعا فإلي»، رقم (٥٣١٧)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته، رقم (١٦١٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

له: اشْتَرِها وبِعْها عليَّ -أعوذُ باللهِ- كلُّها حِيلٌ على ربِّ العالمينَ، مَكْرٌ وخِداعٌ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

يعني أنَّ هـذا التَّاجِـرَ لم يَقْصِـدْ شِراءَ السَّيَّارةِ ولا الإحْسانَ إلى المُشْتَرِي المُسْتَدِينِ، بل قَصَدَ الزِّيادةَ؛ ولهذا لو قيل له: بِعْها عليه برَأْسِ مالِكَ الذي اشْتَرَيْتَها به لأجابَ: ما الفائِدةُ؟ لا أَبِيعُهُ إلَّا بالزِّيادةِ، ثم إنَّ المَسْمُوعَ عن هَؤُلاءِ أَنَّهُ إذا تَرَكَ المُسْتَدِينُ الشِّراءَ كُتِبَ اسْمُهُ في القائمةِ السَّوْداءِ حتَّى لا يُعامَلَ مَرَّةً أُخرى، وهذا كالإجْبارِ، فكيفَ نَتَحايَلُ على ربِّ العالمينَ!

لو جاءَ هذا الرَّجُلُ إلى البَنْكِ، وقال أعْطِني مائةَ ألْفِ ريالٍ قَرْضًا بزيادةٍ فهذا أهْوَنُ من ذلك الدَّيْنِ؛ لأنَّ الخِداعَ أشدُّ منَ الصَّرِيحِ، فالمُخادِعُ ارْتَكَبَ الإثْمَ مع زِيادةِ الخِداعِ، والصَّرِيحُ ارْتَكَبَ الإثْمَ مُعْتَرِفًا بذلك، ويُحاوِلُ أنْ يَتُوبَ عنه؛ لأنَّ نفسَهُ لا تَرْضى عن هذا الشَّيْءِ، لكنَّ المُشْكِلةَ في المُخادِعِ الذي يرى أنَّ هذا حلالٌ ويَسْتَمْرِئُ هذا الفِعْلَ، وقد قال الرَّسُولُ ﷺ: «البِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ واطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي القَلْبِ وتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وأَفْتَوْكَ»[1] لا تَسْأَلْ أحدًا، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ هل قَصَدْتَ شِراءَ السَّيَّارةِ فِعْلًا أم اسْتِجابةً لطَلَبِ المُسْتَدِينِ وبَيْعَها عليه مُباشَرةً بقَصْدِ الزِّيادةِ في الثَّمَنِ؟ والذي يَسْأَلُكَ ويُحاسِبُكَ يَوْمَ القِيامةِ هو اللهُ ربُّ العالمينَ، وهو الذي يَعْلَمُ ما في قَلْبِكَ.

وإذا كان شَيْخُ الإسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: لو احْتَجْتَ سِلْعةً من عندِ إنْسانٍ، وأنت لا تَجِدُ دَراهِمَ وذَهَبْتَ إلى الذي عنده السِّلْعةَ تَشْتَرِيها منه، وهي تُساوي

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، رقم (٢٥٥٣)، من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآنَ (نقدًا) خمسينَ، وقُلْتَ له: بِعْها بسِتِّينَ إلى سَنَةٍ، ثم أخَذْتَها وبِعْتَها، يقولُ شَيْخُ الإسْلامِ[1]: هذا حرامٌ، وحِيلةٌ، وهي منَ العِينةِ التي حَذَّرَ منها الرَّسُولُ ﷺ وقال: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، ورَضِيتُمْ بالزَّرْعِ، وتَرَكْتُمُ الجِهادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لا يَنْزِعُهُ حتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[2]؟ وهذه الحِيلةُ فيها واضحةٌ.

أمَّا مَسْألةُ التَّوَرُّقِ فالسِّلعةُ مَوْجودةٌ عند البائِعِ لهذا ولغيرِهِ، إنْ جاءَهُ من يَشْتَرِي بنَقْدٍ باعَها بخمسينَ، وإنْ جاءَهُ مَنْ يَشْتَرِيها مُؤَجَّلةً باعَها بسِتِّينَ فهذا لا بَأْسَ به.

والحاصلُ: أنَّهُ يَجِبُ الحَذَرُ كُلَّ الحَذَرِ من طُرُقِ التَّحايُلِ على الرِّبا، والابْتعادُ عنها، ولو لم يَجِدِ النَّاسُ مَنْ يُسَهِّلُ الأمْرَ عليهم لامْتَنَعُوا بعضَ الشَّيْءِ وسَلِمَتْ ذِمَمُهُمْ واسْتَراحُوا.

نسألُ اللهَ تَعالى لنا ولكم التَّوْفِيقَ والهِدايةَ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم (٣٤٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.